
عادل سعيد بستاوي

الأندلسيون المغاربة



الغلاف تصميم الفنان
مكرم حنين

الإهداء

- إلى الأندلسيين المواركة الذين حملوا راية العروبة والاسلام فسقطوا ضحايا لكارلوس الخامس وفيليپ الثاني ومحاكم التفتيش وتخاذل الإخوان في الدين والقومية .
- إلى كل الشرفاء الذين يحاولون اليوم منع كارثة مشابهة .

وأيضا :

إلى زوجتي فلولا صبرها وعنها ما تمكنت من النجاح هذه الدراسة .

المؤلف

ملاحظات على النص

نقصد بالأندلسيين «الموازكة» العرب الذين بقوا في قشتالة وملكة غرناطة إثر صدور مرسوم التنصير سنة 1502 ، والأندلسيين البنطيين الذين نصرهم الرفاعي بالقورة سنة 1521 . وكلمة «الموازكة» تعريب لكلمة (Moriscos) القشتالية التي تعني «النصارى الجدد» أو «النصارى الصغار» . وسبب اختيار «الموازكة» محاولة التفريق بينهم وبين الأندلسيين الذين سكروا شبه جزيرة إيبيرية قبل سقوطها جزءاً علـف الآخر طوال عدة قرون . واستخدم بعض المؤرخين وصف «المتصرين» على الأندلسيين الغرناطيين ولكن هذا الوصف لا يتناسب مع واقع الأمور كما سيتبين في النص . واستخدم البعض الآخر وصف «المورسكيون» ولكن هذا الوصف يعطي الانطباع بأن الحديث يتناول شعباً لا يمت إلى العربصلة .

ووصف القوى التي حملت السيف ضد الأندلسيين طوال سبعة قرون بأنها «أسبانية» يعني الواقع في مغالطة تاريخية كبيرة لأن المدلول السياسي الواضح لهذه الكلمة لم يستخدم إلا في نهاية القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فكانت الكلمة ذات مفهوم غامض شاع استخدامه بين العامة كاطار جغرافي مثل قشتالة ، كما مثل أرغون وليون وقطالونيا ونافار والبرتغال ، وورثته عن الرومان الذين أخذوه ، كما يبدو ، من الفينيقيين . أما كلمة «الأندلس» فكانت تعني في البداية كامل شبه جزيرة إيبيرية ثم تقلص مفهومها مع استمرار الخسار السلطة الإسلامية ، وباتت تعرف باسم «الأندلس الصغرى» في المراحل التالية قبل أن تقتصر السلطة الإسلامية على مملكة غرناطة . أما تسمية «الأندلس - اندلوثيا» اليوم فلها مدلول جغرافي واضح يشمل المنطقة الواقعة بين مرسية شرقاً وحدود أسبانيا مع البرتغال غرباً ، وهي مقسمة إلى ثمان مقاطعات رئيسية هي : المريدة وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقدس وشبيلية وولبة ، وتضم وادي النهر الكبير والرقة الجنوبية التي أطلق عليها الرومان اسم ، بيتكا (Baetica) .

وإذا صعب انتهاج التحديد المطلق على النحو نظراً للتغيرات الكبيرة التي طرأت على شبه جزيرة إيبيريا طوال قرون عديدة ، فإن التحديد سيكون الغالب حيثما أمكن . وسيرد اسم « الشمالين » أو « المالك الشمالية » أو « أهل الشمال » للدلالة على القوى النصرانية التي حاربت المسلمين . ومعظم الموضع ترد في النص بالإسم الذي شاع بين الأندلسيين ، إلا إذا اقتضى النص الإشارة إلى الإسم الأسماي أو المحدث فيدرج عندها الاسم المحدث مع كتابته باللاتينية أحياناً . ونظراً للاختلاف الكبير في المصادر العربية القديمة بالنسبة لأسماء الأعلام ، فإن الأسماء ستكون كما يلفظها أهلها باستثناء الشائع المؤلف .

واعتمد في النص التقويم المسيحي وما يقابلها في التقويم الهجري في الفترة الواقعة بين فتح الأندلس واستسلام غرناطة ، ثم فيما بعد في الأماكن الملائمة . وفي الملاحق جداول باسماء الحكام المسلمين وأهم حكام المالك الشمالية ، وكذلك بأهم الأحداث التاريخية والموضع والأسماء المهمة وما يقابلها باللاتينية . وربما لاحظ القارئ بعض التكرار في معلومات معينة في الفصول المختلفة ، والسبب طبيعة النص التي تفرض استقلالية محدودة لكل فصل ضمن موضوع عام واحد ، وروعي أن ترد المعلومات تلك بصورة مختلفة وتتضمنها معلومات جديدة .

ولعل من المناسب القول أخيراً أنتي ، وإن حاولت تدقيق جميع المعلومات الواردة في النص طوال خمس سنوات من إعداده ، فإن هذا لا ينفي بالطبع مسؤوليتي عن جميع الأخطاء الواردة فيه .

مقدمة

١

منذ الفتح الذي اطلقه بنو أمية من دمشق احتطدم هزيمة بلاط الشهداء ، وانحصر نحو الأندلس فأقام أصحابه هناك تسع قرون بناوا خلاطها مجدًا وحضارة مازال نكتشف جوانبها إلى اليوم ، وسيظل تأثير تلك الحضارة باقياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومنذ قيام الإمارة في قرطبة ، تحتم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم ليد كل القوى التي حاولت غزو الأندلس سواء جاءت من الشمال ، أو من المملكة الكارولنجية ، أو من النورمان . ولعل من الصعب التطلع بغية الأعجاب إلى السلطة التي بناها عبد الرحمن الداخل في الأندلس ، بغض النظر عن الأساليب التي اتبעהها ، إذ استمرت بقدر ثلاثة أضعاف عمر الخلافة الأموية وفاقت في استمرارها السلطة الفعلية للخلافة العباسية ، بينما سقطت مملكة غرانادا بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول لبغداد واستمر التأثير الأندلسي مهما حتى بداية القرن السابع عشر . وبقاء الإمارة ، ثم الخلافة القرطية كل تلك السنوات ، يضع جميع القلالق والأخطراء الخارجية التي تهدّتها في فترات مختلفة ضمن الإطار الذي أمكن السيطرة عليه . ولكن هذا لا يمنع القول بأن بعض تلك الأخطراء ، ولا سيما الداخلية منها ، كاد في لحظات كثيرة أن يقوّض سلطة قرطبة ويعجل في سقوط الأندلس .

وفي الأندلس اشترك المسلمين والمغاربي واليهود في صنع دولة كانت أقوى دول أوروبا . فهابها الجميع واسترضها القاصي والداني . وإن كانت الأندلس فتحت بالسيف فإنها استمرت على المساواة والتساهمة ، ونهضت بفضل جهد أصحابها الذين صنعوا الثروة الاقتصادية الهائلة بالاعتماد على الزراعة والتجارة والصناعة ، وتضافرت عقبيات أبنائها فسقت من المشرق ما كان كافياً لصنع حضارة فذة تطورت مع الزمن ، فأصبحت قرطبة وطليطلة وسرقسطة وأشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية المركز الحضاري ، الذي نهل منه الجميع ، وقادت على علومه المزمرة من اليونان أو المطورة في المشرق والأندلس دعائم عصر النهضة الأوروبي ، وباتت قرطبة في أوج عظمتها « زينة الكون » فاغتسل أهلها بسمعها

جمام عام وتوجهوا بالشكر للخالق في ٤٠٠ مسجد مستضيدين بآلاف المصايف المصنوع بعضها من الفضة الخالصة ، وسار مسلماً ونصرانياً وبهودياً على شوارعها المرصوفة في أمان لم يتكرر بعدها في أية بقعة من بقاع العالم إلى يومنا هذا .

إلا أن الصعب ارضاء الجميع حتى في المجتمعات التي لا تميز عموماً بين صاحب هذا الدين أو ذاك ، ولذا فإن موجة الفتح الأولى دفعت إلى الشمال بمجموعات من الفارين والناقمين وتوفرت لواحد من القوط الغربيين ، يدعى بلايو ، العزيمة والتصميم للوقوف وجماعة صغيرة من اتباعه في وجه محلولات القضاء عليهم ، وبني مملكة صغيرة تقوت بالناقمين أو الفارين من الجنوب ، وتطورت بفضل وعورة المكان الذي التجأت إليه في أقصى شمال الأندلس . وخلال القرون الثلاثة التالية طورت الممالك الشمالية نظمها الأدارية والعسكرية ، وانفردت قشتالة بلغة خاصة ، وبات من المستحيل أن يمكن الأندلسيون من استيعاب تلك المناطق الشمالية على الصورة التي استوعبوا فيها الجنوب قبل ذلك . إلا أن تلك الممالك افتقدت الوحدة الضرورية . وهي وإن كانت حققت بعض الانتصارات وتمكن من مد سلطانها نحو الجنوب مستغلة النزاعات الداخلية التي عصفت بالأندلس ، إلا أنها لم تكن تشكل خطورة حقيقة على الإمارة أو الخلافة ، كما اتضحت عندما قاد الحاجب المنصور جيشه السنة تلو الأخرى ودك معاقل الشماليين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فاسترضاه ملوك الشمال وقدم إليه أحدهم ابنه .

ولكن انتصارات المنصور على الشماليين لم تكن لتخفى عوامل الانقسام الداخلي المتفاعلة منذ فتح الأندلس . إذ اندلع الصراع في البداية بين البربر والعرب ، ثم اندلع بين العرب أنفسهم ، ثم بين العرب والموالدين وذهب بعض الحكام يستكثرون من العبيد الصقالبة والزنوج حتى جاء المنصور فقضى على نفوذ العبيды والمرتزقة ، ولكنه بنى جيشه على البربر والممالئ وأسرى الحرب ، ونجى زعماء القبائل العربية

خوف المنافسة ، وابتعد العرب عن الجيش في فترة خطيرة تميزت بروحها العسكرية العالية التي مالت أن انتقلت إلى الشمال . وكانت كل عوامل الانفجار موجودة يوم توفي المنصور ، ولكن الانفجار ذاته تأجل خلال عهدى أبيه المظفر وعبد الرحمن شنحول ، ثم اتيحت الفرصة أخيراً لقيام المنافسة بين البربر والعيدي والمترفة فدبّت الفتنة ، وخرّب البربر قرطبة فانتقموا من المزية الماحقة التي لحقت بهم بعد دخول الجيش الشامي إلى الأندلس . وفي السنوات اللاحقة اخفت جميع محاولات بعث الحكم الأموي والإبقاء على وحدة الأندلس ، فتقسمت ، وبدأت الفترة المعروفة باسم ممالك الطوائف مع إطلاله الفرق الحادى عشر .

وجاء انهيار الخلافة القرطبية في وقت حرج من تاريخ أوروبا والشرق . حركة الاصلاح البابوية سعت في النصف الأول من القرن التاسع إلى زيادة التلامس بين أبناء المسيحية وتدعيم سلطة البابوية ، وقويت هذه الحركة في السنوات التالية إلى أن جاء البابا يوحنا العاشر فبدأ في الربع الأول من القرن العاشر قيادة الحملة لاخراج المسلمين من ايطاليا . وفي عهد الاسكيندر الثاني ثارت حركة لمركزة السلطات الكنسية الأوروبية تحت إمرة البابوية ، فراح يحيث التورمان على طرد المسلمين من صقلية والجزر الأخرى في البحر الأبيض المتوسط الذي كان بحيرة اسلامية في القرون الثلاثة السابقة ، مستغلًا الضعف الذي ألم بالأندلس والمغرب العربي . ولا يمكن فصل هذه التحركات الأولى عن الحروب التالية التي عرفت باسم الحروب الصليبية ، وشملت المشرق كما شملت الأندلس باعتبارها الجبهة الغربية لصراع البابوية مع الإسلام .

وهكذا بدأ الفرنسيون وغيرهم من أمم أوروبا في التدفق على ممالك الشمال الأيبيري بحثاً عن فوائد دينية ودنيوية ، ولم يتمكن ملوك الطوائف من لجم المطرد القادم من الشمال لضعفهم وتفرقهم ، فدفعوا الجزية لملوك الشمال . ولكن الجزية في ابعاد شر الشماليين عنهم ، بل قدمت لملوك النصرانية الأموال

التي ساعدتهم على استدام المرتزقة وتقوية الجيش ، ووفرت الحلقة الأخيرة في سلسلة المزينة . وسقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ على يدي الفونصو السادس .

وكان واضحا مع سقوط عاصمة الغرب الأوسط أن ميزان القوى مال إلى صالح المالك الشعالية ، فدب الرعب في الناس وتعالت بعض الأصوات تنادي بالرحيل عن الأندلس . إلا أن هؤلاء كانوا قلة لأن غالبية الناس لم تكن تعرف غير الأندلس موطنها ، ولذا اختار البعض أهون الشررين وطلبوا من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين التنجدة ، وتمكن الأخير من هزيمة الفونصو السادس في موقعة العلاقة التي وقعت في السنة التالية من سقوط طليطلة . ولكن شعور السلطان بأن بعض ملوك الطوائف يميلون إلى الاتفاق مع الفونصو ، وأنه أحق بالأندلس من حكامها أدى إلى استيلائه على السلطة في تلك البلاد الغنية ، وتحول المغير إلى جائز يتحكم في الأندلس وأهلها ، فلا هو تركهم يقررون مصيرهم ولا هو حماهم في كل الأوقات ، إذ سقطت بنسية بعد ثلاث سنوات من بداية عهد المرابطين في الأندلس ، ولم يتمكن من استعادة طليطلة رغم حصارها ، وأعطى الفونصو السبب لـث الفرسين على نصرته بتشحيم رجال الدين .

وسنة ١٠٩٥ كانت ذات تأثير كبير على تطورات التاريخ فيما بعد إذ تسبّب ضغط الأتراك على الإمبراطورية البيزنطية في إجبار اليكسوس كومينوس على طلب العون من البابوية رغم القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية . واستغل البابا آريانوس (آريان) الثاني الطلب لكي يعلن الحرب الصليبية على الإسلام ، دون اغفال أهمية نصرة المسيحية لأنها الذين يحاربون المرابطين والأندلسيين في الغرب ، ولم يمض ٤٥ شهرا على الخطبة حتى كان الصليبيون في بيت المقدس . على الجهة الغربية تمكّن المرابطون

من وقف أى تقدم حاسم للقشتاليين ، إلا أن الدعم الفرنسي لمملكة ارغون أدى إلى احتلال سرقسطة سنة ١١٨٣ وتوج الفرنسيون بذلك تدخلهم الذي بدأ شارلماן قبل أكثر من ثلاثة قرون فيما عرف باسم التغز الكارولنجي . غير أن صاحب نصر سرقسطة لم يتمكن من الاستفادة من نصره ، ففُقِعَت به المزينة في معركة قشلة . ولم يمض عقد من الزمن على تلك الحادثة حتى كان المرابطون قد انهاروا مفسحين المجال لقوة مغربية جديدة قوست سلطانهم في العدو ثم في الأندلس التي دخلت معاناتها مرحلة جديدة تحت حكم الأئمة في الإسلام .

وبينا انشغل الموحدون في تصفيية ساقبهم المرابطين ، كانت القوات الصليبية المتوجهة إلى المشرق تساعد البرتغالي الفونصو أريكيث على احتلال لشبونة ، بينما قدم الفرنسيون المساعدة لاحتلال طرطوشة على الساحل الشرقي . أما في وسط البلاد فتمكن الموحدون والأندلسية من افشال محاولة الفونصو السابع احتلال قرطبة وجيان ، ومنى خليفته الفونصو الثامن بهزيمة منكرة في وقعة الراك سنة ١١٩٥ . إلا أن الرعب الذي دب في أوصال المالك الشمالية وأوروبا بصورة عامة ، كان عندما سقطت شلبيطرة حامية ميمونة قشتالة بعد ١٦ سنة من هزيمة الراك . وهنا تولت البابوية حملة جديدة فوحدت المالك الشمالية ، وأمرت المطارنة في أوروبا بالدعوة للجهاد ضد المسلمين ، فتجمعت قوات كبيرة في طليطلة خرجت في العشرين من حزيران قاصدة جيش الموحدون والأندلسية ، وتنكست بعد ٢٦ يوماً من تحقيق النصارى ساحق في معركة العقاب . وخلال السنوات الأربع والخمسين التالية سقطت أهم المدن الأندلسية بأيدي القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين ، وبقيت مملكة غرناطة تتارجح بين الاستقلال والتبغية .

سقطت الأندلس فارتحل قسم من سكانها إلى مملكة غرناطة أو بنسبة ، وأثر آخرون اختصار المعاناة فتوجهوا إلى المغرب أو المناطق العربية الأخرى . إلا أن قسما آخر يقى حيث كان في الحالات التي سمح له بذلك وتدجعوا في الأحياء التي خصصت لهم في أكثر من ١٠٠ مدينة ، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة في بلاد لم يعرفوا ، وأجدادهم من قبلهم ، بلادا غيرها .

وإذا كان حال أولئك المدجنين متساويا في الضيهد ، فإن أندلسبي بنسية وارغون عموماً كانوا أفضل حالا ، ووقيت مهمة إدارة الزراعة والصناعة على عاتقهم ولكن لصالح الكنيسة أو النبلاء . ولم تمنع أهميتهم من تعرضهم لفورات غضب متعددة كما حدث سنة ١٤٥٥ عندما اقتحم الرعاع الأحياء الأندلسية في مدينة بنسية التي كانت تضم وضواحيها أكبر تجمع للأندلسين باستثناء غرناطة ، آخر الممالك الإسلامية في شبه جزيرة إيبيرية .

واعتبارا من منتصف القرن الخامس عشر كانت التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة، إذ أدى تمكן العثماني محمد الفاتح من الاحتلال القسطنطينية إلى دفع البابوية للبحث عن وسيلة للانتقام فراحت تحت قشالة على تهديد الحرب ضد غرناطة .

واندلعت المعارك هناك سنة ١٤٦٢ وتمكن القشتاليون ، بمعونة أوروبية ، من احتلال جبل طارق . وبعد ١٢ سنة من ذلك اعتلت إيزابيلا عرش قشالة . وبصعود نجم تلك الملكة توفرت لقشتالة سلطة مكتتها من اثبات وجودها على الساحة الدولية فكانت ملكة قدية ، إلا أن تعصيمها كان بلا حدود . وإذا كانت إيزابيلا الملكة التي ازالت آخر سلطة إسلامية سياسية في شبه جزيرة إيبيرية ، والأداة التي مكنت قشالة من اكتشاف العالم الجديد ، فإنها أيضا كانت مسؤولة عن قيام مؤسسة اضطهاد ديني

جباره، وهي محكمة التفتيش الأسبانية، بعد أربع سنوات من تسلمهما مقايد الحكم في تلك المملكة . وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وجدت ايزابيلا ، كما وجد كثير من الساسة قبلها وبعدها ، أن السبيل الوحيد لوقف صراع النبلاء والأنقسام الداخلي يمكن في شن الحرب في أسرع وقت ممكن ، ولذا استغلت ايزابيلا رفض مملكة غرناطة الانصياع لطلابها وأعلنت الحرب على المملكة الإسلامية سنة ١٤٨١ . وخلال العقد التالي دارت حروب طاحنة مؤلتها البياوية واليهود بصورة كانت كافية للحصول على أفضل المدافع الإيطالية في تلك الفترة ، وإنفاق على المزينة الأوروبيين . ولكن غرناطة ظلت صامدة رغم سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها جيوش فرناندو الخامس ، ورغم الحرب البشعية التي شنها زوج ايزابيلا على الغرناطيين ، إلا أن صراع الآين مع أخيه وانقلاب العم على ابن الأخ مرق تلك الوحدة الضرورية في ذلك الوقت الحرج ، وسمح لايزايلا بتحقيق نصر عظيم مقابل معاهدة سلام ضمنت ايزابيلا فيها لأهل غرناطة مالم تضمنه حكومتهم ، ولكنها لم تعمل على استمرار الالتزام بها .

٢

في الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ انتهت آخر معلم السلطة السياسية الإسلامية في شبه جزيرة ايبيريا ، وبعد عشر سنوات من الصراع ارتفع الصليب القضي فوق برج الطلائع في قصبة الحمراء ، ودقت أجراس الكتايس فيسائر أوروبة احتفالا بهذه المناسبة الجليلة . وإذا كان من الصعب على غرناطة أن تستمر في صمودها إلى ما لا نهاية ، فإن النصر الذي حققه ايزابيلا وزوجها فرناندو لم يكن ليتوفر بتلك السهولة لولا وجود الملك المقرب بالصغير في غرناطة ، الذي اعتقد بأن ايزابيلا صادقة في وعدها

بتنفيذ بنود معاهدة التسلیم ، كما صدقت بوعدها قبل ذلك عندما اطلقت سراحه بعد اسره مرتين . وحكمت عائشة على ابنها الملك الصغير قبل أن يحكم عليه أحد ، واسلم روحه ذليلا في المغرب فانتهت قصته عندما بدأت قصة اضطهاد الأندلسين في قشتالة .

خرقت معاهدة تسلیم غرناطة ولكن استمر السلام . انقض نبلاء قشتالة على أراضي الأندلسين الغرناطيين واستمر السلام . عذل القشتاليون بنود المعاهدة لصالحهم حيثما تمكوا من ذلك واستمر السلام مع ذلك سبع سنوات . وخلال تلك الفترة انتظرت ايزابيلا أن يتضرر الأندلسين أو يرحلوا . ولكن الكنيسة لم تكن تملك القدرة على تصريحهم ، ولا كانت لدى الأندلسين الرغبة في التنصر أو الرحيل وتعالت الأصوات في بلاط الملكة القشتالية تطالب بالحزم ضد أهل المملكة الجديدة . وفي هذه المرحلة برزت شخصية الكريديال زمبيز وهي ، كشخصية توركيمادة قبله ، ما كانت لتظهر إلا في دولة مثل قشتالة ، وما كانت لتتفوق إلا في خدمة ملكة متعدبة مثل ايزابيلا . وحاول زمبيز استئثار الأندلسين بغية تصريحهم ولكنه أخفق ، وبدأ في اتباع أساليب أخرى . ثم وقعت حادثة في حي البيازين في غرناطة قتل على أيديها اثنان من عمال زمبيز ، واندلعت الثورة الأندلسية الأولى .

الانتصارات الأولية التي حققها التوار الأندلسيون في جبل البشرة ادت إلى تسلیم فرناندو بنفسه تسيراً دفة المعارك وتقنن من الحمد الثورة هناك . إلا أن الأعمال الوحشية التي ارتكبها قوات فرناندو الخامس وضفت الأندلسين في باقي أنحاء الجنوب أمام خيار استئناف القتال ، لأنه الطريق الوحيد الذي ابنته ايزابيلا مفتوحا . وماكادت المعارك تندد في البشرة حتى كان سكان الجبل الأحمر قد حملوا السلاح وخاضوا معارك عنيفة قتل في احدها أحد كبار قواد فرناندو . وحين توجه الأخير إلى الجبل الأحمر وجد مقاومة صلبة في تلك المناطق الوعرة فقبل بالصلح حين عرض عليه ، وضمن فرناندو من يريد الجواز

إلى العدوة الأمان . وفي شباط سنة ١٥٠٢ أصدرت إيزابيلا مرسوما يخفي الأندلسيين بين التنصر والرحيل وامهلتهم حتى نهاية شهر نيسان . وخلال المهلة رحل عن غرناطة حوالي ٣٠٠ شخص ولكن الباقي اعتبروا منتصرين بموجب المرسوم ، وأطلق على هؤلاء اسم « النصاري الجدد » أو « الأندلسيين المواركة » .

وين سنة ١٥٢٥ صدرت ثلاثة مرسومات ملكية تلغى في غرضها النهائي الشخصية الأندرسية ، وتشمل الرجال والأطفال كا تشمل الأحياء والأموات ، إلا أن ذلك لم يزد الأندلسيين المواركة إلا صمودا وقسما بشخصيتهم ودينهم . وخلال هذه الفترة نشبت ثورة أهل المدن وقام رعاع بلنسية على الأندلسيين فنصروهם بالقوة ، إلا أنه كان تصرفا شكليا . وكانت الكنيسة تعرف ذلك كما تعرفه السلطة ، غير أن إمساك الأندلسيين بزمام عجلة الاقتصاد البلنسي منع السلطتين من التمادي في اضطهاد الأندلسيين ، على العكس من أهل الجنوب الذين كانوا يشكلون أقلية ناقمة على قشتالة ومستعدة لحمل السلاح ثانية إذا لزم الأمر . إلا أن القرن السادس عشر حمل متاعب جديدة للأندلسيين في كل من قشتالة وأرغون ، وبات من الواضح أن الصدام قادم لا محالة .

فالأندلس دفعت ثمن تفرق حكامها ومعاداة الواحد منهم للأخر . ودفعت ثمن تفوق الأتراك على بيزنطة ، واحتفاق الصليبيين في الاحتفاظ بموطئ قدم في المشرق . أما غرناطة فدفعت ثمن سقوط القسطنطينية ونهوض العثمانيين ، ووجد الأندلسيون نفسهم في بداية القرن السادس عشر يدفعون ثمن نمو البروتستانية . كارلوس الخامس لم يكن من المتعصبين لحكم التفتیش ، ولكنه لم يجد غضاضة في الاستجاد بعملاها لحماية مالكه المائلة . والحل الذي وضعته حكم التفتیش للיהודים في قشتالة كان من

الممكن أن يطبق على الأندلسين ، ويتهى إلى إبادتهم لولا الروح الثائرة التي اتسم الأندلسين بها . وحين أمر كارلوس بتأسيس محكمة تفتيش في غرناطة سنة ١٥٢٦ ، فإنه قصد إراهيم بينما يكرس وقته لمارقة انصار البروتستانية في ألمانيا وهولندا . وحين اخفت لغة التهديد عمل الأندلسين على تقديم مبلغ سنوي كبير له لكي يبعد عنهم شرور محكمة التفتيش في غرناطة ، ولكن هذا لم يروع عمال المحكمة عن التسبب في احرق أول ضحاياها من الأندلسين سنة ١٥٢٩ . وعلى الرغم من اضطهاد الذي عانى منه الأندلسين في عهد كارلوس ، فإنه لم يكن ليقارن مع اضطهاد خليفته ، الذي لم يكن يقل تعصباً عن إيزابيلا ، وكان يعتقد أن الحل الوحيد لمعالجة مشكلة الأندلسين المواركة يكمن في إبادتهم . وفي بداية سنة ١٥٦٧ أصدر فيليب الثاني مرسوماً جديداً استهدف حظر كل المقومات العربية والمدينية والاجتماعية لدى الأندلسين .

واندلعت الثورة الأندلسية الثانية .

مارقة فيليب الثاني لم تكن بالأمر الهين . فهو صاحب أكبر مملكة في العالم وأقوى الجيوش التي عرفتها أوروبا في ذلك الوقت ، إلا أن الوضع بالنسبة للأندلسين كان يائساً ، وكانوا يعرفون أن للحياة ثنا لا يمكن قوله إذا تجاوز بعض الحدود . والثورة الأندلسية الثانية استمرت حوالي ثلاثة سنوات ، وشملت أغلب مناطق الجنوب الأندلسي ، واحرز فيها التوار الأندلسون انتصارات عديدة كما ابدوا بطولة نادرة وصموداً عظيماً ، إلا أنهم ما كانوا ليستطيعوا الاستمرار في القتال إلى ما لا نهاية ضد أربعة جيوش قادها دون خوان التسوى ، شقيق فيليب الثاني . وماحدث بعدها شيء لا يريد حتى الأسبان تذكره أو الحديث عنه . إذ نظمت مذابح بالجملة ، وحصر الأندلسين في المغارف فاحرقـت الأغصان في مداخلها فمن بقي في الداخل اختنق ، ومن خرج تلقـته السيف والرماح ، ولم ينجـ من تلك المجازر الأطفال والنساء ،

ومن اعتقل بعد ذلك أصبح من العبيد . ونحو نهاية سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثاني مرسوما يخول الجنود قتل الأندلسيين وسبي نسائهم ، ووعد دون خوان الجنود بدفع عشرين دوقة ذهبية لكل من يحضر رأس أندلسي فنظمت حملات صيد الرؤوس في جبال الجنوب . وعندما انتهت المعركة كان الحل النهائي للأندلسيين في نفيهم إلى قشتالة وتوزيعهم على المدن والقرى في الشمال .

وكان من الممكن ألا تقوم بعد تلك الحوادث قائمة لأى شعب تعرض مثل تلك الإبادة ، إلا أن الأندلسيين صمدوا وبقيت روحهم المعنوية عالية ، وظلوا في أغليهم محافظين على تراثهم ودينهم . فالكنيسة بقى من تصريحهم فعليا ، والسلطة بقى من استئصالهم وفق شروطها ، أو ترهيبهم . وفي بداية القرن السابع عشر سعت الحكومة إلى البحث عن الانتصار سهل يغطي هزيمتها أمام اعداء الكاثوليكية ، ويعيد انتظار الناس عن الخفاق سياساتها العسكرية والأقتصادية ، فقررت نفي الأندلسيين المواركة عن البلاد ، ووضع نهاية لشعب لا يريد أن يذوب في الوسط القشتالي . وعندما شعر حتى أشد أنصار معاقبة الأندلسيين بأن الحكومة عازمة بالفعل على تنفيذ قرارها ، انقلبوا ضد القرار وسعوا إلى ترغيب الأندلسيين بالبقاء . ولكن الأندلسيين اشترطوا السماح لهم بممارسة دينهم الإسلامي علينا وإعطائهم حرية مزاولة عادتهم وتقاليدهم الأندلسية ، فرفضوا الطلب وبدأت عملية نفي الأندلسيين التي استمرت سبع سنوات .

وابتهجت عامة قشتالة بنفي « اعداء الدين الكاثوليكي » ولكن البهجة لم تستمر فالأندلسيون لم يكونوا مجرد أقلية وإنما أقلية مهمة من الناحيتين الزراعية والاقتصادية في قشتالة ، وأقلية حاسمة بالنسبة لمملكة أراغون . وكانت قشتالة، بعملية النفي، تسلد طعنة أخيرة للوجود العربي فيها ، ولكنها كانت طعنة ادمت جسد الامبراطورية أكثر مما ادمت الراحلين الأندلسيين . فهولاء انتقموا لنفهم عن مساكنهم

ومساكن أجدادهم وأجدادهم وهم خارج إسبانيا ، وساهموا في توفير أحد أهم أسباب سقوط الإمبراطورية الأسبانية . ولم تفتقد قشتالة الأندلسيين على الفور إذ كانت مازال تعيش بجد انتصارها الكاذب ، ولكن عندما حاولت حكومة دوق أوليسارس حشد طاقات الإمبراطورية للتصدى للهولنديين وغيرهم من أعداء قشتالة، اصطدمت باقتصاد منهار . وكتب أحد المسؤولين فيها يقول: « لم تمض إلا فترة قصيرة منذ طرد الأندلسيين المواركة ، وكانت تلك عملية عادت بضرر بالغ على هذه المالك وأصبحت فكرة عودتهم طيبة لو أنهم يقبلون بديننا السماوي .. » .

ما خسرته إسبانيا ببني الأندلسيين كسبته حول المغرب والدول العربية الأخرى ، وإن تحتم عليها مقاومة مصادرها الاقتصادية مع التفريغ الأندلسيين . ولكن النفي لم يضع حداً لمعاناة جميع الأندلسيين المواركة ، إذ بقي فيها من الأحرار حوالي ستة باللغة ، ولكن غالبية العبيد في قشتالة كانوا من نسل الأندلسيين الذين أسروا في مختلف مراحل المد الشمالي نحو الجنوب . وهؤلاء ، مع غيرهم ، استمرروا في تقديم ضحايا محكم التفتيش الأسبانية بعد أن نفذ معين تلك المحاكم من اليهود المتصرفين . وعندما كان عمال محكم التفتيش يعتقدون أنهم قوموا الأندلسيين المواركة ، وأوقفوهم عن ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية في الخفاء ، كانوا يفاجئون بحالات جديدة من بينها العثور على مسجد سري سنة ١٧٦٩ . غير أن هذه المؤسسة ، التي مارست الإرهاب الديني منذ سنة ١٤٧٨ ، كسبت من الكراهية الدولية مالم تكتسبه مؤسسة أخرى ، ولم يهد في إمكانها الاستمرار بعد أن أصبح أصحاب الثورة الفرنسية سادة إسبانيا فالغيت الحكم سنة ١٨٣٤ .

٣

يقدم تاريخ شبه جزيرة ايبيريا سلسلة متصلة من التساؤلات التي ماتزال بحاجة الى اجابة . ويقدم تاريخ اسبانيا سلسلة من التناقضات التي لا يمكن العثور عليها في تاريخ أي من الأمم الأوربية الأخرى . وفوق الأرضى الاسبانية ترسّبت بعض اهم الحضارات في العالم من يونانية الى رومانية الى عربية ، إلا أن الحضارة العربية كانت الامن والأشمل والأكثر ديمومة وتأثيرا على العصور الحديثة . وفي حين تمكنت معظم الدول الأوروبية من استغلال التركيبة الحضارية والعلمية العربية التي تطورت في الأندلس ، فإن اسبانيا لم تحسن الاستفادة من تلك التركة ، واحتارت حمل السيف حل مشاكلها وزيادة ثرواتها في العالدين القديم والجديد . وإذا كان التوسع يتضمن تقويض الحضارة العربية في الأندلس أو حضارتي الانكا والازتك في العالم الجديد ، فإن ذلك لم يكن مهما بالنسبة لقشتالة . ولابدك الأسبان أن دولتهم التي سيطرت في القرن السادس عشر على أراض لم يسيطر عليها أحد من قبلهم ، كانت نتاج الحرب التي خاضتها قشتالة ضد الأندلسيين على مدى قرون عديدة . ولكن في حين تمكّن أصحاب الفتح من بناء حضارة هائلة بالاعتزاد على سكان البلاد الأصليين ، فإن قشتالة لم تكن لتتمكن من السيطرة على المناطق التي سكّنها الأندلسيون دون ابعاد معظمهم واتضح لفرناندو الثالث ، كما اتضّح لفيليپ الثاني ، أن قشتالة لا يمكن أن تتحمل دينا غير الكاثوليكية ، او عنصرا غير القشتاليين .

يقول سيرفانتس : « الجشع يقهر الخوف » ولذا كانت قشتالة القرن السادس عشر آلة حرب هائلة ضمت قادة مطهرين حققوا الانتصارات في معظم المعارك التي خاضها جنودهم . ولكن الجيش لا يصنع الحضارة ، والروح العسكرية لا تستطيع تطوير الثقافة والعلوم ، وهي تستمر حتى تصطدم بالله حرب

أقوى منها فتقوض ويقوض معها الأساس الذي قامت عليه وتصبح دولة من الدرجة الثالثة ويحكم عليها التاريخ بما تستحقه . ويسجل تاريخ أوروبية لاسبانيا اليوم تمكناً من إنهاء الوجود السياسي الإسلامي في ذلك القسم من أوروبا ، ولكنه لا يغفر لها ممارسات حكام التفتيش ، ولاحملات صيد الرؤوس ضد الأندلسيين وبادرة شعب بكلمله انهى إلى التقتيل والتهجير والحرق والاستغلال البشع والنفي .

وماذا بقي من الأندلس والأندلسيين في إسبانيا اليوم ؟

من الوجود السياسي لم يبق شيء فذلك انهى مع ابرام معاهدة تسلیم غرناطة بين ايزابيلا والملك الصغير . من الوجود الحضاري الشيء القليل : الفا مخطوطة في قصر الاسكوريا وعدد آخر في المدن الأسبانية الأخرى وبعض المكتبات في أوروبية وغيرها . من العمارة قصر الحمراء ومعظم حي البيازين والمسجد الكبير في قرطبة والمآذنة في اشبيلية وبقایا هنا وهناك . أما الأبنية التي كانت قائمة في الأندلس فتقوضت أو أهملت ، ودخلت أساساتها وجدرانها وأعمدتها في مبان إسبانية تنتشر في كل مكان . أما المساجد القديمة فتحولت منذ أمد بعيد إلى كنائس ودخلت عليها اضافات غيرت في أحوال كثيرة صورتها الأساسية . من العمارة العسكرية الإسلامية بقيت بعض قلاع من أصل ٤٠٠ ، ولكنها كافية لإعطاء صورة عن فن عمارة متطور حفظته إسبانيا ، لأنها خاضت معظم حروبها القديمة فوق أراضي غيرها من الدول وتجنبت الحرbin العالميين الأولى والثانية ، وإن حق بكثير من ابنيتها المهمة الحزب خلال الحرب بين الفرنسيين والإنجليز المتحالفين مع الأسبان ، وأيضاً خلال الحرب الأهلية الجديدة .

من التأثيرات الأندلسية استباقت إسبانيا أكثر مما يود الكثيرون الاعتراف به ، وإن كانت شدة التأثير تختلف من مكان لآخر . ففي الأندلس الصغرى (أندلسيا) يطغى التأثير الأندلسي على معظم المناطق كما يطغى على الساحل الشرقي من وادي نهر إبرة وحتى مدينة المرية . وهذا التأثير يختلف بالنسبة للشخصية القشتالية وللغة الأسبانية (القشتالة) من مكان لآخر كذلك . فهو قوي في الجنوب وضعيف في الشرق ويكاد يكون معدوما ، من ناحية اللغة على الأقل ، في طليطلة التي يتحدث أهلها اليوم قشتالية شبه خالصة لأن التكلم بالعربية منع فيها سنة ١٥٨٠ ، بعد أن كانوا يستخدمون العربية والقشتالية . والتأثير موجود كذلك في أساطير الفروسية وفي عشرات القصص المنسوجة على متوال قصة ليل الأندلسية ومانويل القشتالي .

من الأندلسيين إسبان لايكاد يخلو أحدهم من دماء عربية فإذا صدقنا ماورد في كتاب السر المسمى ، « عار إسبانيا » وليس هناك سبب لرفض ذلك الادعاء . وهي أيضا في الأندلسيين الذين بقوا بعد النفي الكبير ، أو كانوا عبيدا وتحرروا عندما أصبح الفرنسييون سادة إسبانيا . ولكن الدماء الأندلسية أيضا في كثير من سكان أمريكا اللاتينية التي ارتحل إليها الأندلسيون إما نفيا أو هروبا من سلطة الملوك وارهاب عمال محكم التفتیش .

فهرس المحتويات

الاهداء	٥
ملاحظات على النص	٦
مقدمة	٨
الفصل الاول	
أسباب سقوط الاندلس	
١ - الاصول القوطية في شبه جزيرة ايبيرية	٣١
أ - القوط الغربيون	٣٢
ب - المملكة القوطية في طليطلة	٣٤
ج - سقوط المملكة القوطية	٣٧
٢ - تطور الممالك الشمالية	٣٨
أ - بلايو	٣٨
ب - بناء قوى الشمال	٤١
ج - توطيد دعائم الممالك الشمالية	٤٤
د - التوسع الشمالي نحو الجنوب	٤٧
هـ - ممالك قشتالة واراغون والبرتغال	٥٠
٣ - تأثير العوامل الخارجية في سقوط الاندلس	٥١
أ - دور الفرنكين في سقوط الاندلس	٥١
١ - غاللة وسقوط الاندلس	٥١
٢ - شارلمان	٥٣
ب - دور الفرنسيين في سقوط الاندلس بعد زوال الخلافة	٥٥

ب - المروءات الصليبية الغربية في الأندلس	
(دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس)	٥٨
١ - صعود البابوية وتطور التراث الديني	٥٩
٢ - اربان الثاني	٦٠
٣ - انوصان الثالث	٦٣
٤ - الكنيسة وسقوط غرناطة	٦٦
٤ - العوامل الداخلية في سقوط الأندلس	٦٩
أ - الاسباب الاقتصادية	٦٩
١ - معالم الاقتصاد الاندلسي	٧١
٢ - الصناعة	٧٢
٣ - التجارة	٧٣
٤ - الاقتصاد في الممالك الشمالية	٧٥
ب - التداعيات الداخلية	٧٨

الفصل الثاني الثورة الاندلسية الأولى

١ - سقوط الأندلس	٨٧
أ - سقوط غرناطة	٩٢
ب - توزيع الاندلسيين بعد سقوط غرناطة	١٠٢
٢ - اسباب اندلاع الثورة الاندلسية الاولى	١٠٤
أ - شروط استسلام غرناطة	١٠٤
ب - خرق معااهدة تسليم غرناطة	١٠٧
ج - بداية اضطهاد الاندلسيين	١٠٩
٣ - الثورة الاندلسية الأولى	١١٤
أ - الثورة في البشرة	١١٦
ب - الثورة في الجبل الأحمر	١١٧

ج - مرسوم سنة ١٥٠٢ وتنصير الأندلسيين ١١٩	
د - بين التنصير والنصر ١٢٠	
٤ - قيام الامبراطورية الإسبانية ١٢٢	
أ - التوسع في أوروبا ١٢٣	
ب - كارلوس الخامس ١٢٤	
ج - فيليب الثاني ١٢٦	

الفصل الثالث الثورة الأندلسية الكبرى

١ - أحوال الأندلسيين بعد الثورة الأولى ١٣١	
أ - ثورة أهل المدن وتنصير الأندلسيين في بلنسية ١٣٢	
ب - الأندلسيون وكارلوس ١٣٤	
٢ - اسباب اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى ١٣٧	
أ - الأحوال السياسية ١٣٧	
ب - الأسباب الاقتصادية ١٤٤	
ج - الأسباب الاجتماعية ١٤٥	
د - الأندلسيون والكنيسة ١٤٦	
هـ - بداية المواجهة ١٤٧	
٣ - الثورة الأندلسية الكبرى ١٥٠	
أ - دون خوان القسوى ١٥٣	
ب - بداية حروب المقاومة الأندلسية ١٥٥	
ج - الاعداد للقضاء على الثورة الأندلسية ١٥٨	
د - تصفية الثورة الأندلسية الكبرى ١٦٣	
نتائج الثورة الأندلسية الكبرى ١٦٥	
أ - نفي سكان غرناطة ١٦٧	
ب - توزيع الأندلسيين بعد الثورة الكبرى ١٦٩	

الفصل الرابع

نفي الاندلسيين المواركة

١ - وضع الاندلسيين المواركة بعد الثورة الكبرى	١٧٣
٢ - اسباب نفي الاندلسيين المواركة	١٧٦
أ - الاسباب الاقتصادية	١٧٧
ب - الاسباب الدينية	١٧٨
ج - الحالة العامة	١٨٠
٣ - نفي الاندلسيين المواركة	١٨٣
أ - وجهات المنفيين	١٨٦
ب - مصير الاندلسيين المواركة	١٨٨
أ - الاندلسيين بعد النفي	١٩٠
ج - تأثير نفي الاندلسيين المواركة	١٩٣
د - سقوط الامبراطورية الاسبانية	١٩٨

الفصل الخامس

الاندلسيون ومحاكم التفتيش

١ - طبيعة العلاقات الدينية في شبه جزيرة ايبيرية	٢٠٥
أ - تطور التعصب الديني عند القشتاليين	٢١٠
٢ - اصول محاكم التفتيش	٢١٥
أ - ممارسات محاكم التفتيش	٢١٦
٣ - اليهود ومحاكم التفتيش	٢١٩
أ - اليهود في شبه جزيرة ايبيرية	٢٢٠
ب - اليهود في قشتالة	٢٢٥

ج - الحملة القشتالية ضد اليهود	٢٢٧
د - طرد اليهود من إiberية	٢٢٩
٤ - الاندلسيون ومحاكم التفتيش	
أ - الاندلسيون المواركة والكارلوسية	٢٣٤
ب - الاندلسيون ومحاكم التفتيش في عهد فيليب الثاني	٢٣٦
ج - الاندلسيون ومحاكم التفتيش بعد النفي	٢٣٨
د - نهاية محاكم التفتيش	٢٣٩

الفصل السادس التأثيرات الاندلسية في إسبانيا وأوروبا

١ - الاندلس بين الاحلال والاسترجاع	٢٤٥
أ - التركية القوطية الغربية	٢٤٧
ب - استيطان الأندلس	٢٤٨
ج - البحث عن الذات الإسبانية	٢٥١
٢ - من الأندلس إلى إسبانيا	
أ - التأثير الثقافي والحضاري	٢٥٢
ب - الاختلاط السكاني	٢٥٥
	٢٥٨
٣ - الحضارة الاندلسية وعصر النهضة الأوروبي	
أ - التركية اليونانية	٢٦٠
ب - معالم الثقافة الاندلسية	٢٦٢
ج - البدايات الاندلسية	٢٦٤
د - تطور الثقافة الاندلسية	٢٦٦
ج - التأثير الاندلسي في نشأة الثقافة الأوروبية	٢٧٠
د - الأندلس وعصر النهضة الأوروبي	٢٧٤
أ - العلوم العربية والعصور الحديثة	٢٨١

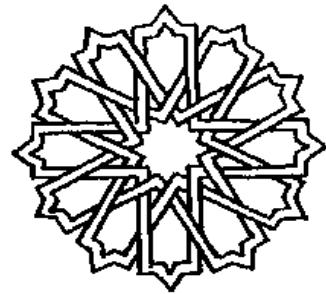
٤ - الاندلسيات في اسبانيا ٢٨٥
١ - العمارة الاسلامية الباقية في اسبانيا ٢٨٨
١ - القلاع العربية في اسبانيا ٢٩٠

خاتمة ٢٩٥
٢٩٩ أهم الاحداث الاندلسية والدولية
٣١١ حكام الأندلس
٣١٣ اهم حكام الدوليات والممالك الشمالية
٣١٥ شخصيات ومواضع معربة
٣٢١ مصادر البحث

خرالط توضيحية

١ - مراحل الخسار السلطة العربية في الأندلس ٧٠
٤ - تاريخ سقوط اهم المدن الاندلسية ٩٠
٣ - الثورتان الاندلسيتان الاولى والكبرى ١٥١
٤ - توزع الاندلسيين المواركة قبل التفوي ١٨٢
٥ - مواطن الاندلسيين المواركة بعد التفوي ١٨٧

الفصل
الاول



أباج سقط الأندلس

١ - الأصول القوطية في شبه جزيرة إيبيرية

تؤكد الآثار المكتشفة في عدد من مناطق الدولة التي نعرفها اليوم باسم إسبانيا أن انسان ما قبل التاريخ المسجل كان يعيش في مستوطنات بالقرب من مدیتھی المريّة وستنتدیر وغيرها ، قبل أن تتعاقب عليها أقوام مختلفة أستوطنتها بعد الدخول إليها من الشمال أو الشرق أو الجنوب . وفي حوالي ١١٠٠ قبل الميلاد استوطن الفينيقيون الأجزاء الشرقية والجنوبية من البلاد ، وبنوا عدداً من المدن التي مايزال بعضها عامراً حتى اليوم ، مثل قادس وعدرة وولبة وطربيش ومالقة ، وبعض الباحثين يعتقدون أن طربيش كان الاسم الذي اطلقه الفينيقيون على المنطقة الجنوبية من البلاد المعروفة بالأندلس الصغرى (اندلوزيا) . ومع ظهور الممالك اليونانية القديمة واتساع نفوذها في منطقة البحر الأبيض المتوسط رحلت جماعات يونانية ؛ لاستوطن بعض مناطق الساحل الشرقي ولاسيما أمبروس (امبوروش) ودانية (دانه) ، وكان ذلك في الفترة بين عام ٦٢٠ و ٥٧٠ قبل الميلاد ، ورها عرفت البلاد بعدها باسم إيبيريا (إبارية) . وحوالي عام ٨٥ قبل الميلاد أقام الفينيقيون مدينة على ساحل تونس الحالية ، عرفت باسم قرطاجة ، اتسع سلطانها فشمل أغلب ساحل الشمال الأفريقي ، وبنوا المستوطنات والمراكز التجارية على سواحل الشمال الأفريقي وجزر صقلية وسردينيا وميورقة ومنورقة والمناطق الجنوبية والشرقية من إسبانيا ، واستوطنوا عدداً من المدن بينها قرطاجة واشبيلية وقرطبة ، التي عرفت باسم « برج قرطاجنة » أيام الأندلس . واستمرت سيطرة قرطاجة على إيبيرية حتى اندلعت الحروب بينها وبين الرومان لآخر النزاع الذي وقع في صقلية عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، واستمر حتى عام ١٤٩ قبل أن تنتهي بزوال قرطاجة .

بدأت هذه الحروب ، التي كان لها تأثير كبير على مستقبل شبه جزيرة إيبيرية ، عندما حاول التجار الرومان زيادة نشاطهم في البحر الأبيض المتوسط وكسر احتكار القرطاجيين ، إلا أن الأسطول الضخم الذي ملكه القرطاجيون حال دون الرومان وتحقيق هدفهم ، فعمد الرومان إلى بناء أسطول كبير نقل جنودهم إلى قرطاجة ، ولكن هذا الجيش هزم سنة ٢٥٥ وأضطر الرومان إلى الانتظار ١٤ عاماً آخر ، قبل أن يحطمها أسطول قرطاجة في معركة بحرية وقعت قرب صقلية . والهزيمة التي لحقت بقرطاجة كانت فادحة ولكن لم تكن نهاية فما أن حل ربيع عام ٢١٨ قبل الميلاد حتى كان جيش القائد القرطاجي هنبيل مستعداً للانطلاق في رحلة تاريخية مشهورة بمحاذاة ساحل شبه جزيرة إيبيرية الشرق عبر جبال إيبيرية (البرت) ثم عبر نهر الرون وجبال الألب إلى شمال إيطاليا . هذه الرحلة المضنية قضت على حوالي ثلاثة أربع جيش هنبيل ، ولكنه آثرها لاقتاعه بأن الرومان يسيطرؤن على الطرق البحريّة وليس

هناك من أمل في انتهاء هذه السيطرة إلا عن طريق الالتفاف حول العدو وباغتيته . وتمكن هذا القائد الفذ بالفعل من هزيمة الرومان مرتين ولكن جيشه لم يكن كافياً لهاجمة روما ، ولم يتمكن هنفيصل من استغلال فوزه إذ جاء دور الرومان لتسديد الضربة الأخيرة ، فهاجم القائد الروماني سيبو قرطاجة وهزم هنفيصل في معركة زامه التي وقعت سنة ٢٠٢ قبل الميلاد ، وفر هنفيصل ثم مات بالسم بعد سنوات من المعركة . وفي عام ١٤٩ قبل الميلاد حاصر الرومان قرطاجة مدة ثلاثة أعوام ، وانتهى الحصار باقتحام قرطاجة وأحرقها وفلاحة الأرض التي كانت تقوم عليها .

كان من نتائج هذه الحروب قيام الرومان باحتلال شبه جزيرة إيرية التي استخدمها هنفيصل ، وأخوه من بعده ، مركزاً مهماً لخمارية روما وتجنيد المترفة ، والحصول على الفضة التي كانت تستخرج بوفرة من مناجتها .

حدث هذا الاحتلال سنة ٢٢١ ، ولكن روما لم تتمكن من بسط سيطرتها على البلاد إلا بعد حروب متقطعة مع السكان الأصليين استمرت ٢٠٠ عام . وقسم الرومان شبه الجزيرة إلى خمس مقاطعات ، وعرفت تحت سيطرتهم الرخاء الاقتصادي والأهمية السياسية والفكريّة ، فاعتنى عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة من الأباطرة الذين ولدوا في شبه الجزيرة التي كانت أيضاً مسقط رأس عدد كبير من الفلاسفة والأدباء أمثال سينيقه ولوكان وكولوميلا . واوضحت الإمبراطورية الرومانية أعظم قوة على وجه الأرض ولكن الفساد عم فيها ، وبدأت في الاعتدال اعتباراً من عام ٢٠٠ ميلادية في الوقت الذي ازدادت فيه هجمات القبائل البربرية على حدودها الشمالية . وبالرغم من نجاح بعض الأباطرة ، مثل ديوكليتيان (٢٤٨ - ٣٥ م) في وقف انتشار الإمبراطورية ، إلا أن هذا النجاح كان محلوداً وموقتاً عادت بعده الإمبراطورية إلى التقهقر ، ثم جاء الإمبراطور قسطنطين (٣٢٧ - ٣٣٧ م) فنقل عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطيوم (بيزنطة) واعاد تسميتها فكانت « قسطنطينوبول » التي عرفها العرب باسم القدسية ، وكان ذلك عام ٣٣٦ م . هذا القرار أدى إلى شطر الإمبراطورية الرومانية فيما بعد ولم تعم الإمبراطورية الغربية لآخر استكمال التقسيم ، الذي أصبح حقيقة واقعة بعد وفاة ثيودسيوس عام ٣٩٥ ميلادية ، إلا حوالي قرن واحد . أما القسم الشرقي منها فاستمر حتى عظمت قوة العرب وفتحوا معظم ممالكه ، وجاء العثمانيون من بعدهم فسدوا الضربة النهائية باحتلال القدسية سنة ١٤٥٣ ميلادية .

أ - القوط الغربيون :

أطلق الرومان اسم « البرابرة » على جميع الأقوام التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهر الراين والدانوب ، وتحمل اسم القبائل الجرمانية رغم أنها كانت تتضم قبائل مختلفة مثل القوطيين والوندال والفرانك والأنجليز والساكسون . وحاولت القبائل هذه المرة تلو الأخرى دخول أراضي الإمبراطورية الرومانية بحثاً عن المناخ الأفضل والفرصة المناسبة للاتجار والربح ، ولكن الفرق الرومانية كانت تصدهم المرة تلو الأخرى أيضاً . وتغير هذا الموقف مع نهاية القرن الثاني للميلاد فقل جنود الإمبراطورية مما اضطرها إلى توظيف المترفة من رجال القبائل للخدمة في جيوشها ، وكان لهذا القرار

نتائج سلبية تأخر مفعولها إلى نهاية القرن الرابع الميلادي . ومن المشرق زحفت قبائل آسية نحو وسط أوروبا الحالية بحثاً عن الملاوي الجديدة ، فحدث اضطراب كبير في التجمعات السكانية وسط القارة وشمالها سمحت الإمبراطورية الرومانية على إثره لحوالي ٨٠٠,٠٠٠ شخص من قبل القوط بعبور نهر الدانوب والالتجاء إلى أراضي الإمبراطورية . حدث ذلك سنة ٣٧٦ ميلادية ولكن تقدم القبائل لم يتوقف ، وأخافت الإمبراطورية في منع هذا التدفق السكاني لأنها اعتمدت على القبائل لحماية أقسام من حدودها . ومع الزمن اكتشفت القبائل ضعف الإمبراطورية ؛ فوراء الحاميات الضعيفة في الشمال كان الطريق مفتوحاً إلى روما وهذا ما فعله أحد زعماء القوط (الاريك) عام ٤١٠ ميلادية عندما قاد رجاله ونهبها . وفي عام ٤٧٦ قام زعيم قوط آخر هو أدواوس بتحية آخر أباطرة الإمبراطورية الرومانية الغربية (رومولوس أوغسطولوس) عن الحكم ، ونصب نفسه ملكاً على إيطاليا .

لم يكن القوط أول المستفيدون من ضعف الإمبراطورية الرومانية الغربية إذ هاجمت قبائل الوندال عاصمة الإمبراطورية ، ونهبت كل مافيها من المال والمتاع خلال أسبوعين متتالين من عام ٤٥٥ ميلادية حتى باتت كلمة « فاندالزم » المشتقة من الوندال تعني اليوم التحريب المقصود للممتلكات العامة . قسم من قبائل الوندال هذه غزا شبه جزيرة إيبيرية اعتباراً من بداية القرن الخامس الميلادي وهزمت القبائل الأخرى التي كانت تسكن المنطقة ، ثم جاء دور قبائل الوندال فهزمت هي الأخرى على أيدي القوط الذين عرّفوا باسم القوط الغربيين ، تميّزوا لهم عن القوط الشرقيين في القسم الشرقي من أوروبا . هذه القبائل تعاقبت على شبه جزيرة إيبيرية خلال تلك الحقبة من الزمن ولكنها لم تكن الوحيدة إذ استوطنها المغاربة الذين قدموا من شمال إيطاليا قدّما ، ثم جاء بعدهم الأبيريون^(١) ثم الكلبيون الذين قدموا من غاليا في القرن السادس قبل الميلاد . ولكن هذه القبائل لم تترك تأثيراً كبيراً على تاريخ شبه الجزيرة كما حدث بالنسبة للغزوات الاستيطانية التي شنتها قبائل الفرانك والسوق (أو الصوابين) في الفترة بين عام ٢٦٤ و ٢٧٦ ميلادية ، وبقي أهم صراع كان له تأثيره الكبير على شبه جزيرة إيبيرية هو الصراع بين قبائل الوندال والقوط . وفي البداية طردت قبائل القوط الوندال من مواطنها الأصلية في بولندا الحالية فالتجأت إلى سلوفاكيا ، ثم عبرت حدود نهر الراين مع قبائل أخرى ، بينما قبائل السوق ، عام ٤٧٦ ميلادية واستقرت في غالطة فترة قصيرة عبرت بعدها جبال البرينيه إلى شبه جزيرة إيبيرية عام ٤٠٩ ، واستقرت هناك إلى أن انتقلت إلى المنطقة التي تعرفها اليوم باسم تونس عام ٤٢٩ واقامت هناك المملكة الونdaleية بزعامة غزريش (٤٧٧ - ٢٤٨) . استمرت هذه المملكة حتى عام ٥٣٤ وعمرت اسطولاً

(١) استوطن الأبيريون جنوب شبه الجزيرة قبل الانتشار إلى وسط البلاد وشمالها . ويعتقد البعض أن أصل القبائل الأبييرية من شمال إفريقيا وأن سكان إقليم الباسك ، الذين أطلق عليهم العرب اسم (البشكونيس-Vascocones) واللغة البشكونية (Vascuence) ، انحدروا من تلك القبائل نظراً لتماثل مصادر واشتراكات بعض الكلمات في لغة سكان الباسك المعروفة لديهم باسم « البشكونس » وللإسبان باسم « اوسيكيرا » وبين اللغة البربرية ، ويعزز تصور هؤلاء تماثل فصائل الدم بين الباسك والبربر . انظر الاشارة التي ترد دون سند في :

Spain, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, London, P 5.

ضخما سيطر على البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت قوتها إلى الأوج بعد نهب روما عام ٤٥٥ ، ولكن المملكة ضعفت بعد وفاة غزيرش ، وقضت عليها الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) .

بدأت حركة الاستيطان التي شملت القوط منذ رحيلهم عن موطنهم الأصلي في بولندا الحالية في حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي ، وكانت في اتجاهين : الأول إلى المنطقة التي تقع جنوب أوكرانيا الحالية ، والثاني إلى داسيا (رومانيا) . أما قوطيو الاتجاه الأول فبسطوا سلطانهم على الأراضي التي استوطنوها حتى غزاهم التتار حوالي عام ٣٧٥ ميلادية ، فلنجاؤ إلى الإمبراطورية الرومانية للحماية وسمح لهم كثيرون منهم الاستيطان فيها . ولم يكن حظ قوطيو الاتجاه الثاني أفضل كثيرا ، إذ هزمهم التتار عام ٣٧٦ وأخرجوهم من داسيا مما أضطرهم للالتجاء في الجنوب وكانوا من القوة بحيث تحكموا من هزيمة الرومان في معركة أدریانوبول عام ٣٧٨ . قوطيو الاتجاه الأول عرفوا باسم القوط الشرقيين وهؤلاء استطاعوا تأسيس مملكتهم التي استمرت من عام ٤٩٣ وحتى عام ٥٥٣ عندما قهروا في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستينيان الذي قوض أيضاً مملكة الوندال التي كانت أولى الملوك التي أقامتها القبائل الجرمانية على أراضي الإمبراطورية الرومانية .

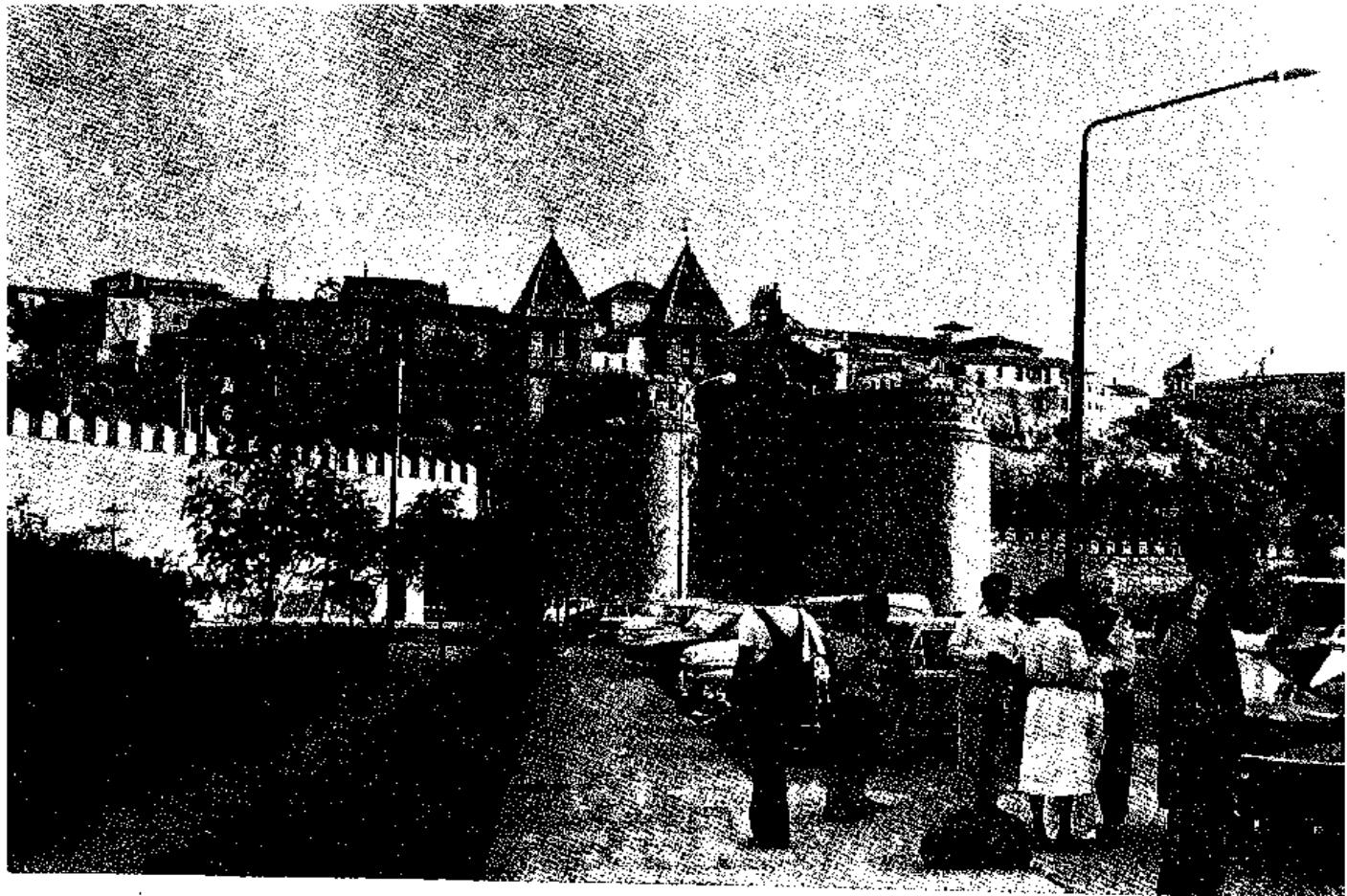
أما القوط الغربيون فقد تنقلوا في المناطق الجنوبيّة من أوروبا حتى تزعمهم فاليا فأسس أول مملكة قوطية غربية في تولوز الحالية ، التي كانت تعرف باسم تولوز ، بعد أن اقطعنهم الرمان ثلثي المنطقة التي عرفت باسم أكيتانيا (غرب فرنسا) . هذه المملكة دامت من عام ٤١٩ وحتى عام ٥٠٧ ، عندما حقق كلوفيس زعيم قبائل الفرنانك ، انتصاراً ساحقاً عليهم في معركة فوبية (٥٠٧) وقوض المملكة القوطية الغربية ثم طرد القوط من أكيتانيا ، واجبرهم على التزوح خلف البيرينيه والالتجاء إلى أبناء عمومتهم من القوط الغربيين في شبه جزيرة إيبيريا . (١)

ب - المملكة القوطية في طليطلة :

حولت القبائل الجرمانية أراضي الإمبراطورية الرومانية إلى أشلاء ، وساعدها في ذلك تأكل الإمبراطورية من الداخل بفعل الفساد والظلم . وكانت بقايا الإمبراطورية تضع السيف جانبها في الوقت الذي استعدت فيه القبائل لحمله ، فسقطت الإمبراطورية في القسم الغربي منها وبقيت القبائل التي وضعت ترحاها اعتباراً من بداية القرن الخامس الميلادي وأسست العديد من الملوك . وإذا كانت

(١) لدراسة تأثير هذه القبائل الجرمانية التي لا يُعرف عن أصلها الكثير انظر :

Fisher, H.A.L., A History of Europe, Volume I, 1979, Chapter X «The Germanic Invasions», PP. 138-120 أو الترجمة العربية (انظر المراجع) .



طليطلة عاصمة القوط الغربين قبل الفتح

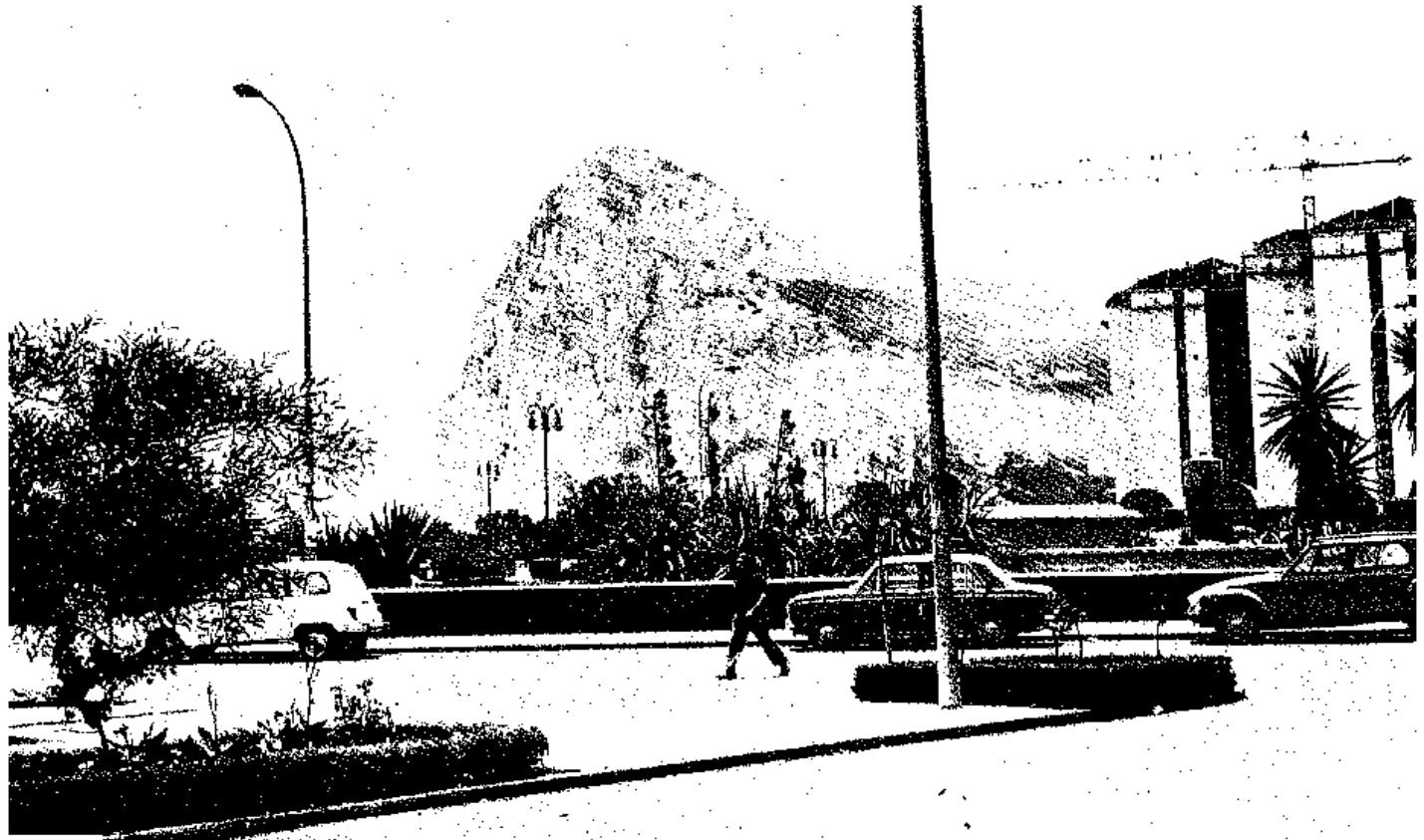


أحد جسور طليطلة فوق نهر تاجة

القبائل مسؤولة عن تقويض دعائم الإمبراطورية الرومانية الغربية ، فإن الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) كانت أكثر من ند لبعض المالك التي أقامتها القبائل الجرمانية فسحقت المملكة القوطية الشرقية في إيطاليا عام ٥٥٣ ، وأحتلت جنوب شبه جزيرة إيبيريا في العام الذي تلاه بعد المجزية التي لحقتها بالقوط الغربيين ، وكانت قبل ذلك بستة عشر عاما قد دمرت مملكة الوندال في الشمال الأفريقي ، وبسطت سيطرتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط . كان الغبار الذي أثارته القبائل الجرمانية ينجل عن مرحلة جديدة من الاستقرار ، ويقدم الأرضية التي قامت عليها الدول الأوروبية فيما بعد . في شبه الجزيرة الأيبيرية طرد القوط الغربيون قبائل الوندال وعرفوا تحت زعامة أوريش (٤٦٦ - ٤٨٤) كيف يبنون قوتهم الجديدة ، ولكن المملكة القوطية الغربية لم تأخذ الشكل الكامل لها إلا بعد مقتل أوريش الثاني (٤٨٤ - ٥٠٧) ، في معركة فوبيه أثناء قتال قبائل الفرنانك . ويعتبر عام مقتله بداية المملكة القوطية الغربية التي استمرت حتى عام ٧١١ ، وانتهت بدخول قوات الفتح العربية إلى شبه جزيرة إيبيريا التي عرفها الفاتحون وسكان المغرب الأقصى باسم الأندلس ، نسبة إلى قبائل الوندال التي سكنت شبه الجزيرة ، قبل أن يطردهم القوط الغربيون منها .

برز من زعماء القوط الغربيين ليوفغيليد (٥٦٨ - ٥٨٦) فانخرد من طليطلة عاصمة له ، وهاجم قوات بيزنطة في الجنوب فأجبرها على الإنسحاب من شبه الجزيرة ، ولكنها بقيت تحتفظ بسيبة الواقع مقابل الساحل الجنوبي . وفي عام ٥٧٥ تذكرنا هذا الزعيم من تحطيم المملكة التي أقامها السوفيون في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة بعد قدمهم إليها عام ٤٩٩ ، وأخذت المملكة القوطية الغربية الشكل الذي كان قائما يوم الفتح . هذه الخطوات لم تتجدد في إزالة مكامن الاضطراب في المملكة القوطية ، فالقوط اعتنقا التنصارية على المذهب الأرثوذكسي ولكن غالبية السكان الأصليين اعتنقا الكاثوليكية ، وهذا أدى إلى اضطرابات وقلائل استمرت إلى أن وافق ريكهارد الأول (٥٨٦ - ٦١) على اعتناق الكاثوليكية بعد أن قرر الحفل الدينى الثالث ، الذي عقد في طليطلة عام ٥٨٩ ، أن تكون الكاثوليكية دين المملكة ، ونتج عن ذلك تحالف الكنيسة والنبلاء الجerman وازدياد نفوذها بشكل عظيم . يضاف إلى مكامن القلاقل هذه أن القوط ، الذين قدر عددهم يوم إعلان طليطلة العاصمة ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠ شخص كانوا على الأغلب من الجنود وسادة الحرب . صحيح أن قسما منهم استوطن وديان نهر دويرة وعمل في فلاحة الأرض ، إلا أن القوط بقوا عموما بعيدين عن السكان الأصليين المشككين في غالبيتهم من الأيبيريين والكتالان والباقيا المنحدرة من الأقوام والدول التي حكمت شبه الجزيرة بعد اجمالي يقدر بين ثلاثة وأربعة ملايين تركزوا في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد . وخلافاً لهذه المشاكل التي كانت تقوم بين السادة الحاكمين والسكان الأصليين ، كانت هناك مشاكل من نوع آخر بين الحاكمين أنفسهم . ومن بين المساعي التي بذلت لوقف الصراع على السلطة ، الاتفاق عام ٦٢٣ على أن يتم اختيار الملك بالانتخاب ، والتزم النبلاء بالقرار ردحا من الزمن ، غير أن الطبيعة القبلية للحكام غلبت عليهم فيما بعد فتشبت أزمة كان لها أثر فعال في تسهيل فتح شبه الجزيرة وتقويض الحكم القوطى .^(١)

انظر : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص ١ ، و Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4 th Edition), 1890, PP. 8-14.



جبل طارق كما يبدو من مدينة الجزيرة الخضراء

جـ - سقوط الملكة القوطية :

بدأت هذه الأزمة عندما خلف الملك غيطشة (أو فيتسه Witiza) والده ايجييكا دون الالتزام ببدأ الانتخاب الذي اتفق عليه ، فكان ذلك أحد أسباب نفمة النبلاء ورجال الكنيسة . وحاول غيطشة تكرار ظروف اعتلاء السلطة حين اختار ابنه اقبيله ، أو وقلة ، ليخلفه ولكن النبلاء كانوا هذه المرة على استعداد . فما أن توفى غيطشة في نهاية عام 708 أو بداية العام الذى تلاه ، حتى قام بعضهم باعلان العصيان ضد الملك الصبي الجديد ، واستقل آخرون عن سلطة طليطلة ، في حين رأى قسم آخر منهم تجاهل وقلة واعلان دوق قرطبة ملكا على البلاد ، مما اضرم نيران الاضطرابات السياسية في المملكة القوطية . وتصدى الملك الجديد رودريك ، الذى عرفه العرب باسم لذرق ، لخصومه فأخضعهم بالسيف أو بالرشوة واستتب له الأمور إلى أن جاءه رسول يبلغه أن جيشا نزل جنوب البلاد فحشد جنده وسار إليه متوجلا رده ودارت معركة مربحة مع جيش طارق بن زياد انتهت بهزيمة القوط وغرق أو هروب لذرق نفسه ، آخر ملوك القوط الغربيين .

هذه المعركة التي حلت بالقوط عام 711 م (٩٢ هـ) كانت حاسمة وخلف جنود الملك القوطى كان الطريق مفتوحاً لجنود طارق البربرة حتى أقصى الشمال دون مقاومة حقيقة من جانب نبلاء القوط ، ودون أية مقاومة تذكر من جانب السكان المحليين ، الذين بقوا في جلهم خاضعين بالقوة لسلطة القوط رغم المحاولات التي بذلها بعض ملوك القوط لاستئصال السكان المحليين، وربما كان السبب طبيعة القوط أنفسهم والفساد الذى ورثوه مع الأرض التي اقتطعوها من جسد الإمبراطورية الرومانية .

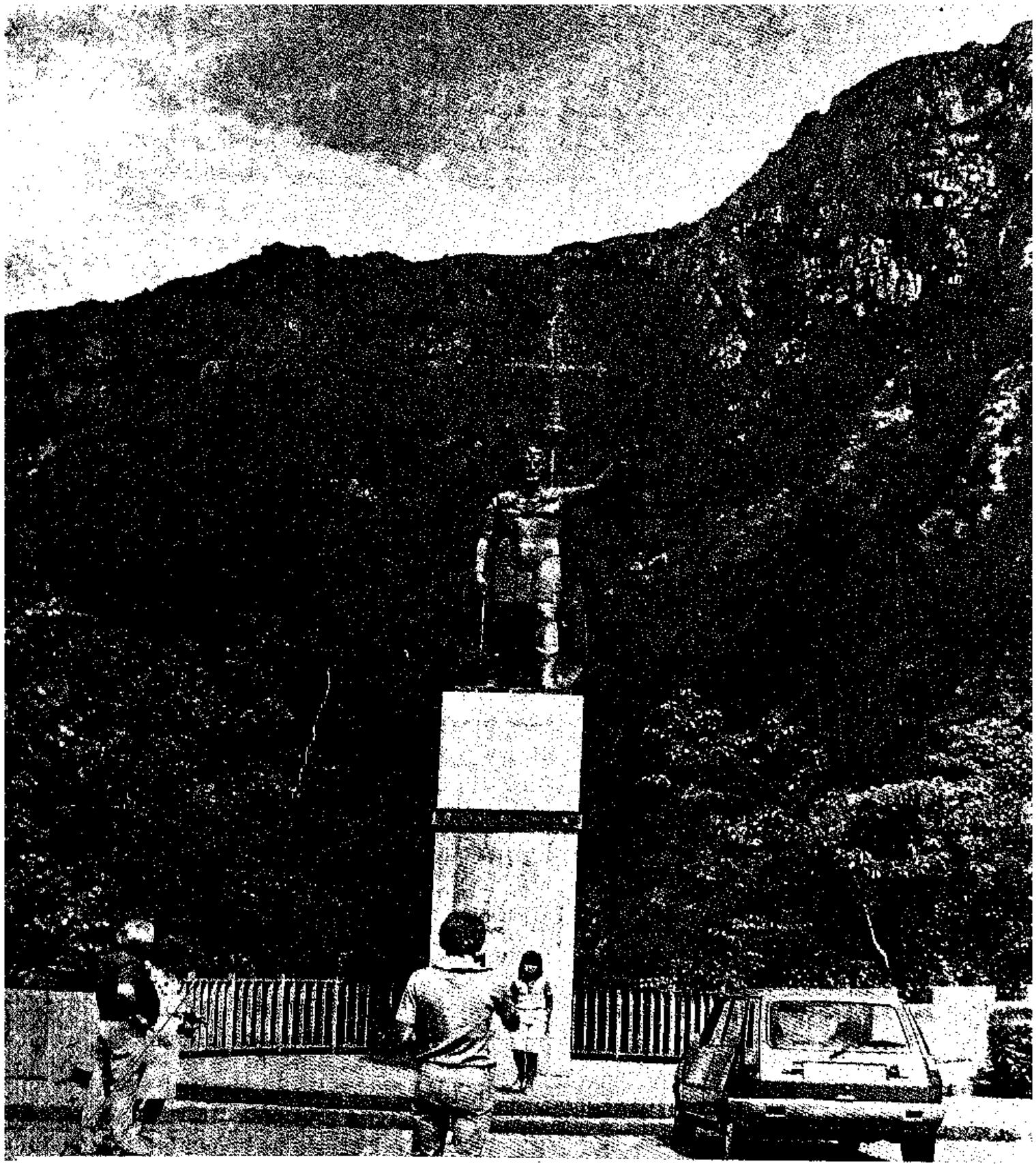
وعندما هم طارق للرقي في معركة البرياط ، كان القوط أمضوا في شبه جزيرة آيرية أكثر من ٢٥٠ سنة ، ولكنهم لم يضفوا الكثير إلى مابنته الإمبراطورية الرومانية بل عرفت في عهدهم الانحطاط الذى عرفته مع نزوح القبائل الجرمانية البربرية الأخرى ، التى لم تكن قد تعلمت بعد كيف تستوطن أو كيف تبني . في عهد القوطى أوريش (فقدت محاولة) وضع أول قانون جرماني في شبه جزيرة آيرية ولكنها كان بعيدا عن انصاف السكان الأصليين . وجرت محاولة أخرى في حوالي عام ٦٥٤ حين وضع الملك ريكسنت (٦٤٩ - ٦٧٢) قانونا جديدا حاول أن يطبقه على القوط والسكان المحليين من الرومان الآيريين (١) ، فاستفادت منه الأقلية وأصبحت الأغلبية أشد بؤسا من ذى قبل . وهذا هو أحد أسباب سقوط المملكة الفوطية على أيدي طارق بن زياد ، لأن القوط وحدهم رفعوا السلاح ، والقطط وحدهم هزموا بعد أن فقدوا الحماس الأول الذى ساعده على تفتيت أكبر إمبراطورية على وجه الأرض . وخلال فترة قصيرة من النصار طارق سقطت معظم الأرضي الآيرية ، ورضخ معظم الأعيان والكتسيين للسلطة الجديدة . ولكن بعض هؤلاء فروا إلى غالا أو التجأوا إلى أقصى الشمال ، وقدر لأحد هم تنظيم العصيان الأول .

٢ - تطور الممالك الشمالية

أ - بلايسو :

يتكون خمسا شبه الجزيرة الآيرية من هضبة مرتفعة تশطرها سلسلة من الجبال التي تشمل جبال وادي الرملة وابلة في الوسط ، وجبال غريدو وغاتة التي تعتبر استمرا للجبال الآيرية في الغرب وترتفع جنوب البلاد سلسلة أخرى من الجبال على امتداد طوله أكثر من ٣٥٠ ميلا وتعرف باسم جبال بيتك كورديليره ومن أهم معالمها جبال نيفادا التي عرفها العرب باسم جبال شلير أو جبل الثلج بقمة يصل ارتفاعها إلى ٤٢٠ قدما ، وبذلك تكون أعلى قمة في أوروبا . في القسم الجنوبي من الهضبة الآيرية هناك مجموعة أخرى من الجبال بينها جبال مورينا (الشارات) ويمتد جنوبا واد منخفض هو الوادى الكبير . وفي القسم الجنوبي من الهضبة أيضا تمر أنهار وتفرعاتها ، وأهمها نهر تاجه ووادي أنه اللذان يتدفقان باتجاه الغرب ، وتصبلاهما عن بعضهما جبال أخرى بينها جبال طليطلة وجبال وادي لب . وفي أقصى الشمال تفصل إسبانيا عن فرنسا سلسلة هائلة من الجبال المعروفة باسم جبال البرينيه (البير ، أو البيرات) لتشكل حدودا طبيعية بين البلدين . وتقطع هذه السلسلة ثم تستمر بسلسلة أخرى من الجبال الغربية المطلة على المحيط الأطلسي ومنها سلسلة جبال قمم أوروبية وقربية . ويعرف القسم الشمالي من الهضبة باسم وادى نهر دويرة وهو يضم جزءا كبيرا من قشتالة القديمة وليون ، في

(١) منع جميع سكان مقاطعات الإمبراطورية الرومانية الموالية الرومانية في عام ٢١٣ باستثناء العبيد وكان ذلك في عهد الإمبراطور سركلا (٢١١ - ٢١٧) .



قفال بلايو في صخرة كابدونغا

حين ثُرِفَ المضبة الجنوبية باسم قشتالة الجديدة دُوراً واستبها . ووعرة الشمال جعلته مكاناً تقاده الغزاة الذين تعاقبوا على شبه جزيرة أيبيرية ، ولم يكن الوضع خلال سنوات الفتح العربي استثناء فقد بلأ إلى جبال الشمال البعض من آثروا الهروب من جنوب الفتح العربي الأول ، بعد أن حقق طارق بن زياد انتصاراته الساحقة .

كان من بين هؤلاء شخص يدعى بلايو (يل أو بلاي) . وقصته التي وردتلينا خليط من حقيقة وخيال وبالمبالغة ، ولكن الظاهر أن بلايو نفي من طليطلة أيام حكم الملك غيطشة ، ولكنه عاد لينضم إلى بلاط لنزيق الذي جاء بعده . ولما هزم لنزيق هرب بلايو إلى إشتورش مع أخيه ولكنه اعتقل على يدي حاكم مدينة جيجون الواقع على خليج بسقاية ، وبعث به رهينة إلى قرطبة لابعاده طمعاً في أخيه . وتفضي الرواية لتبين أن بلايو تمكن من الهروب مرة ثانية ، وعاد إلى الجبال ليحرض الناس على العصيان وحمل السلاح ضد المسلمين دفاعاً عما يقي من أرضهم وحربيهم . وتضيف الرواية أن بلايو الذي تسميه بعض الروايات الإسلامية «ملك جلية»^(١) نصب نفسه ملكاً على مجموعة صغيرة من الرجال والنساء ، وتمكن من إيقاع المجزية بالجند الذين أرسلتهم حاكم مدينة جيجون لتأديبه . التجأ بلايو هنا إلى صخرة عاتية تعرف باسم صخرة كابدونغا ، وهي في جبال قمم أوروية ، وأخذ يشن غاراته الصغيرة على المناطق المجاورة ، مستغلًا انصراف الفاتحين إلى محاولة فتح بلاد غاله أو الأرض الكبيرة ، ولكن النكسات التي أصيب بها الفاتحون في غاله — وأسيما هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء التي وقعت سنة ٧٣٢ (١٤٠) — حولت جهودهم إلى الأندلس للقضاء على مراكز العصابة . ووجه الوالي عقبة بن الحجاج الذي حكم بين عامي ٧٣٤ - ٧٤١ (١١٦ - ١٢٣) حملة إلى الشمال «وافتتح جلية وينبلونة ، وأسكنها المسلمين ، وعمت فتوحاته جلية كلها غير الصخرة فإنه بلأ إليها ملك جلية . وكان بها في ثلاثة رجال فما زالوا يهياقون عليهم حتى صاروا ثلاثة رجال ، وحتى فنيت أزدتهم ولم يقوتوا إلا بعمل يجدونه في خروق الصخرة ، وأعيا المسلمين أمرهم فتركوه وقالوا : «ثلاثون علجا ماعسى أن يحيى منهم؟»^(٢) هؤلاء «العلوج» ، عادوا إلى توسيع سلطتهم واجتذاب الناقمين على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيرية ، مستفيدين من مرحلة جديدة مضطربة دخلت بها الأندلس ، وانشغل جنودها بقمع الفتن التي عمّت البلاد . أما بلايو هذا فقد توفى سنة ٧٣٧ (١١٩) وخلفه ابنه فافيله مدة ستين ، ومات دون أن يترك وريثا فانتقل ملك هذه الدولة الصغيرة إلى زوج أخيه المدعومة . أرسندة .

(١) هناك خلاف حول تاريخ بدأه عصيان بلايو والرواية المسيحية تحدد بسنة ٧١٨ (٩٨) ولكن هذه الرواية غير دقيقة لأنها كتبت في حوالي سنة ٩١١ ، أي بعد حوالي ٢٠٠ سنة من وقوعها .

انظر : «فبر الأندلس» ، د . حسين مؤمن ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٤٣ - ٣١٥ ، وأنظر أيضاً : «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» للدكتور عبد الرحمن على الحجي ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

(٢) انظر : «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذاري المراكش ، تحقيق ج . س كولان ، و اليقى بروفسال «طبعه بيروت» الجزء الثاني ، ص ٢٩٠ . و «فتح الطيب» ، الجزء ٤ ، ص ٣٥١ .

ب - بناء قوى الشمال :

الدولة التي أنشأها بلايو لم تكن في واقع الحال أكثر من خلية عصيان ، تسكن منطقة نائية وعراقة تعصف بها شتاء رياح شديدة البرودة ، ولا تكاد تصاحي إلا لرعى الماشية القليلة التي ملكها العصابة . وهذه الخلية لم تكن الوحيدة في الشمال ، إذ كان هناك تجمع مسيحي في المناطق الخبيثة بمنطقة بامبلونا (بنبلونة) ، كما وجدت تجمعات أخرى في قطالونيا العليا ووديان أعلى جبال البيهيني . ولابد أن موقع هذه التجمعات أهلها للحصول على دعم غاله والتحاق بعض سكان الأرض الكثيرة بهم ، وبالتالي ازدياد أهميتها في إحداث المستقبل ، إلا أن نصيب التطور والنفوذ كان لدولة بلايو . وزوج ابنته وكان ابن نبيل يدعى بدره (بطره) . وما مات بلايو وأبنه من بعده «تولى الفونصو المعروف بالأول وبـ «الكاثوليكي » (٧٣٩ - ٧٥٧ / ١٢١ - ١٤٠) قيادة جماعته من بلدية تدعى كانغاس دي أونيس . والمعلومات المتوفرة عن هذه الحقبة من تاريخ ممالك الشمال قليلة ، ولكن يقال أن الملك الفونصو الأول أخذ على عاتقه تقليد عادات القوط الغربيين وتشييد بعض الأبنية الصغيرة على النطاق القوطي القديم ، واحتضن النبع الذي سار عليه ملوك الشمال في المستقبل لاستعادة ملك القوط من العرب ، وإعادة طليطلة عاصمة للقوط الغربيين . ومهمما يكن من أمر هذه الرواية ، إلا أن بعض المؤرخين تناولوها بكثير من الجدية وأحددهم ، وهو المؤرخ الشهير بيدال (١) بصفته هذه المرحلة من تاريخ شبه جزيرة إيبيريا بأنها مرحلة «القوطية الجديدة » ، وأن بلايو كان الأصل الذي تفرع عنه كل ملوك ليون وقشتالة فيما بعد . (٢)

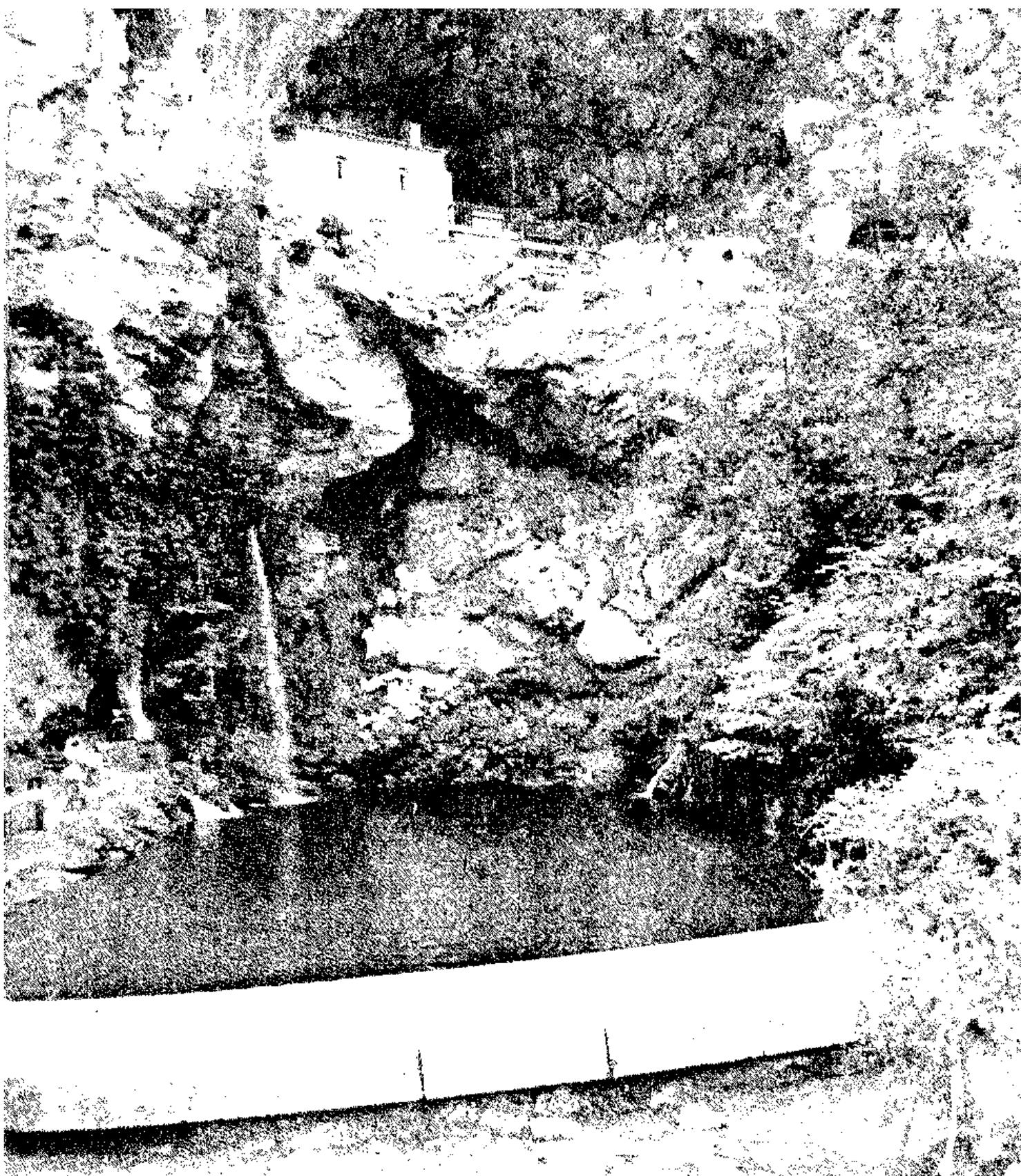
(١) متديث بيدال (Menendez Pidal)

(٢) حقيقة وجود شخصية بلايو ثانية رغم البيانات الكبير في معظم المعلومات المتوفرة عنه وعن الفترة التي رفع فيها راية العصيان ضد الفاتحين المسلمين . وصصهذه أيام المحاولات التي بذلت لإنهاء عصيابه مؤكداً أيضاً في الروايات العربية التي تحدد مكان هذا الصسود في الصخرة وهي صخرة بلاي ، أو كابدونغا الموجودة في قسم أوروية . وكابدونغا اليوم قرية صغيرة إلا أنها صفت ذاتياً في إسبانيا ، لأنها تعتبر أول مراكز التصدية للسلطة الإسلامية وهذا ينظر أهل الشعور الشعالية إلى وطنهم على أنه روح إسبانيا ، والصخرة التي يرد ذكرها في كثير من المصادر عبارة عن كهف مفتوح وسط جدار صخري متربع فوق إله الراز عن طريق سالم ، وفيه قبر بلايو وزوجته غدويسا ، وكذلك قبر الفونصو الأول وزوجته أرسندلا . وبقية الصخرة كنيسة حديثة بنيت على انقاض كنيسة قديمة ينادي الفونصو الأول «الكاثوليكي » . واحتضنت الكنيسة سنة ١٧٧٧ ثم سنة ١٩٣٦ قبل تعميرها حديثاً . أما الأهمية الدينية في المنطقة فهي لكتيبة صغيرة من غرفة واحدة موجودة داخل الصخرة .

ويعاً كان طول الكهف حوالي عشرة أميال وعرضه في أعمق المناطق حوالي خمسة أو ستة أميال ، ولذا لم يمكن من المقبول أن تستوعب الصخرة ٣٠ شخص ، كما ورد في رواية ابن عذاري . أما بقية الرواية التي تذكر أن بلايو صد مع ٦٠ من أتباعه في الصخرة (١٠ نساء) فيسوقها الموقع الاستراتيجي الذي يحمل الكهف ، إذ يتعدل على أي شخص الوصول إلى الكهف لانقطاع الطريق إليه بين الفجوة . وأسئل الصخرة برقة ماء كبيرة يمكن انتشال الماء منها لن هم في الصخرة عن طريق دلو مربوط بخيط . ولكن الفول أن العصابة تقوتوا بعمل واحد في خروق الصخرة بحاجة إلى مراجعة . والسبب أن كابدونغا تقع في منطقة جبلية مرتفعة فيها أشجار كثيرة ، ولكنها منطقة كثيرة البرودة وتخلو من البساطين أو الأزهار التي يمكن أن يقتات النحل عليها .

وريما كانت المنطقة في بداية القرن الثامن الميلادي غير ماهي عليه الآن ، أو أن العقنس والبيانات كانت مختلفة وإن كان ذلك مستبعداً . والأرجح أن الجند شتموا محاصرة بلايو وجماعته في كهفهم الحصين ، وعجزت سهامهم عن الوصول إليهم ، فرجعوا من حيث أتوا إلى حرجون التي تبعد حوالي ٨٠ كيلومتراً بمحاذاة الطريق الساحلي .

وتحدد الرواية الأسبانية تاريخ عصيان بلايو سنة ٧١٨ ، بينما تحده الروايات العربية في عهد الراوي عبسة بن سليم الكلبي (٧٢١ - ٧٢٦ / ١٠٣ - ١٠٧) أو عقبة بن الحجاج السلوقي . أما وفاته فيذكر أنها كانت سنة ١٣٣ هجرية (٧٥١) ، ولكنها على الأرجح سنة ٧٣٧ (١١٩) على افتراض أن الفونصو الأول أصبح ملكاً بعد وفاة بلايو يستعين .



صخرة بلايو في كابدونغا

ولكن قبل أن تتمكن خلية العصيان هذه من التوسيع ، كان لابد من توفر الشروط التي تساعده على ذلك . والفترة التي أعقبت عهد الوالي عقبة بن الحاج السلوبي اتسمت بتعاظم الصراعات الداخلية واندلاع الثورة البربرية في الشمال المغربي أولا ثم في الأندلس^(١) . فقد سكنت جماعات كثيرة من البربر الذين وصلوا مع طارق بن زياد بعض المناطق الشمالية ، وكانت قوة عازلة في وجه أي تقدم حقيقي للشمايين . غير أن البربر عملوا على تصفيه التجمعات العربية من الشمال باستثناء مدينة سرقسطة ثم جاء جيش الشام والبلدين الأندلسيين ، فقضوا على ثورة البربر ومرقوا مراكز تجمعيتهم وتبع ذلك جدب أصحاب المناطق الشمالية من الأندلس فرحاً قسم من البربر عائداً إلى بلده ، وانتقل آخرون للاستيطان في مناطق جديدة فكانت هاتان الحاديتان سبباً مهماً في تفريغ المنطقة العازلة من السكان ، مما سمح لأنفونسو الأول بالتوسيع شرقاً وغرباً وجنوبياً فأكمل احتلال منطقة إشتورش وجليقية ونزل على مدينة ليون رغم أن مقر الحكم يقع في مدينة سنت يانس (شنت يانش) التي تقع غرب مدينة جيوجون .

وبينا انتقال الفونصو الأول من انتصار إلى آخر ، كانت أحوال الأندلس تسير من اضطراب إلى آخر كما تشهد بذلك مرحلة عهد الولاية التي عرفت ٢٢ والياً في ٤٢ سنة فقط ، فكانت مدة حكم الولاية الواحد والعشرين الأوائل سنة ونصف السنة وسطياً . فإذا ثورة البربر نسبت الأضطرابات بين الجيش الشامي والبلدين وانشغل الأندلسيون بما يحدث في الشمال ثم جاء عبد الرحمن الداخل الأندلس فبدأت مرحلة أخرى من الأضطراب استفاد منها الشمايون لتوسيع سلطانهم . وسنوات القلق هذه سكنت الشمايين من بناء قوتهم وفي سنة ٧٥٦ (١٣٨) ، كانت قبائل الباسك (البشكتس) من القوة بحيث تمكنت من هزيمة الجيش الذي بعث به الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري (٧٤٦ - ٧٥٦ / ١٢٩ - ١٣٨) لاحتضان تلك القبائل بعد استفحال أمرها . ولعل في هذا الانتصار أسوأ

(١) اندلعت شارة الثورة البربرية في مدينة طنجة فهربت المدينة وقتل عاملها ابن المرادي المعروف بمجرمه في فرض الضرائب على البربر ، ثم امتدت الثورة لتشمل المغرب الأقصى فاعلن البربر الانفصال عن العلاقة الاموية وبايعوا أحد زعمائهم المعروف باسم « ميسرة » خليفة لهم ، وكان هذا سقاء في القبور . عظيم هذه الثورة واستفحلاً أمرها عندما أحرز البربر انتصاراً كبيراً على الجيش الذي تصدى لهم بقيادة خالد بن حبيب الفهري في معركة مشهورة باسم موقعة « الأشراف » ، لأن خالد وقادته أثروا الموت بعد العيقون من المريمة ووصلت أنباء الثورة إلى مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك في الشام فبعث إلى البربر جيشاً ضم حوالي ٣٠٠٠ مقاتل ، جاءه من الشام وانضم إليه في أفريقيا (تونس الحالية) جيش المطلقة ولكن الجيشين هزما على أيدي البربر في موقعة وادي سبو التي جرت سنة ٧٤١ (١٢٣) ، وفر مشاة الجيشين إلى القبور . ولكن قبائل البربر سدت الطريق على الفرسان فهربوا بالتجاه المغرب الأقصى إلى أن دخلوا مدينة سبتة المعروفة بمساكنها ، وحاصرها البربر وكادوا يحيطون بها لولا التطهيرات التي وقعت في الأندلس . والسبب أن بر الأندلس سمعوا بالانتصارات التي حققها أبناء عمومتهم في الشمال الأفريقي ، فاعتزلوا الثورة في المناطق الشمالية من الأندلس وأعملوا السيف في رقاب العرب ولكنهم عجزوا عن تهور سرقسطة لأن العرب كانوا أغلبية فيها . امتدت الثورة وهددت قرطبة العاصمة فأضطر الوالي عبد الملك بن قطن الفهري (٧٣٤ - ٧٣٦ / ١١٤ - ١١٦) للاستجادة مرغماً بمحبس الشمايين على الشمال المغاربي ، ونقله إلى الأندلس وجوهه شبه حفنة وعراة فتم لهم السكان بما يحتاجون إليه ، واستعملوا لرزال البربر إلى جانب جنود الوالي وسكان البلاد من العرب . قاد بلج بن بشير القشيبي الجيش الشامي والغضب على البربر قد وفع من معنويات الجند ، وهرم البربر في موقعة وادي سليمان ثم في موقعة أخرى حتى قضى عليهم وزيلت ببر الشمال الأفريقي هزائم مشارية قضت على الثورة إلى حين دخول الجيش الشامي ، الذي قتل عدده ينحو عشرة الألف جندياً لم ينه المشكلة في الأندلس ، إذا اختلف الجندي مع الوالي فتخليمه وصلبه فاستحق ابنياؤ الناقمين على الجيش الشامي من عرب وببر للغرب مما أدى إلى وقوع معركة قرب قرطبة أصيب فيها بلج بمحرب ميت ، ولكن الجيش الشامي حقق الانتصار الأخير، واستمرت الصلامات بين الشمايين والأندلسيين حتى جاء الوالي أبو الخطدار حسام بن ضرار الكلبي (٧٤٣ - ٧٤٥ / ١٢٧) ، فوضع حداً للأضطرابات ووزع الجيش الشامي جنوب وشرق الأندلس .

الانتصارات التي حققها عصابة الشمال لأن الجيش الذي قاده سليمان بن شهاب رجع بعد هزيمته وقد تفرق جنده ، ولم يتمكن الوالي من تسبيبه للقضاء على عبد الرحمن الداخل ، مما اعطى صقر قريش الفرصة لخشد مؤيديه فكان انتصار البشكير سبباً غير مباشر في تسلم عبد الرحمن السلطة ، وتأجيل سيطرة الشماليين على الأندلس مئات السنين . ولكن هذا في حد ذاته لا يمنع القول بأن الاضطرابات التي واكبت دخول عبد الرحمن الأندلس أعطت الشماليين الوقت لتوظيف وجودهم الذي استمر رغم النكسات التي لحقت بهم ، كما يشهد بذلك صاحب العبر حين يقول : « عندما شغل المسلمون بعد عبد الرحمن وقهيد أمره قوى أمر الجلاقة ، واستفحـل سلطانـهم ، وعمـد فـرويلـة بن أـذـفـونـش مـلكـهم إـلـى ثـغـورـ الـبـلـاد ، فـأـخـرـجـ الـسـلـمـيـنـ مـنـهـا ، وـمـلـكـهـاـ مـنـ أـيـدـيـهـمـ ، فـمـلـكـ مـدـيـنـةـ لـكـ وـيـرـقـالـ وـسـمـورـةـ وـشـمـنـقـةـ وـقـشـتـالـةـ وـشـقـوـبـيـةـ ... »^(١) .

حكم الفونصو الأول دولته، التي حملت اسم المنطقة التي قامت عليها ١٨ سنة وطُرد فيها حكمه ووسع سلطانه ، ثم خلفه ابنه فرويلة المعروف بالأول (٧٧٥ - ١٤٠ / ١٥٩) فنشط هو الآخر ليبسط سيطرته على مناطق جديدة . ومن بين الأعمال التي قام بها بناء حصن اوبيدو (أوبيط) للدفاع عن مير بخارس سنة ٧٥٧ (١٤٠) وهو الحصن الذي تحول إلى عاصمة ملوك اشتوريش فيما بعد . واستمر فرويلة في اتباع سياسة العداء إلى أن بدأ عبد الرحمن تسخير الحملات ضدّه فنزلت به عدة هزائم واستعاد بعض المناطق التي تمكن من الاستيلاء عليها . وعبد الرحمن الذي اتقن سياسة تقويض العصبيان من الداخل راح يطبق سياساته على اشتوريش مستغلاً رغبة بعض زعماء الشمال في السالم ونقطة آخرين على جور فرويلة ، وأقرت هذه السياسة باختيار فرويلة سنة ٧٧٥ (١٥٩) ، وحلّت سنوات من الهدوء ، كان الشمال خلالها خاضعاً لازدة عبد الرحمن يدفع له الجزية إضافة إلى تقديم ١٠٠ عناء (٢) . استمر هذا الهدوء حوالي ١٥ سنة إلى أن جاء الملك برمودة قاتل سياسة الفونصو الأول وابنه ، ولكنه كان ملكاً ضعيفاً دون خبرة أمضى سنوات حياته متعرلاً في أحد الأديرة ، مما انزل بقواته اشتوريش خسائر فادحة فعزل سنة ٧٩١ (١٧٥) وبدأت مرحلة جديدة من الصراع مع قرطبة .

ج - توطيد دعائم المالك الشمالية :

إن استمرار دولة الفونصو الأول ومن خلفه يعود إلى ضآلته أهميتها الحقيقة بالنسبة للمجتمع الأندلسي الذي ازداد مع الأيام غموا برغم المشاكل الكثيرة التي كانت تعترض مسيرته . كانت قوات الشمال عبارة عن مجموعة من الجندي ، تفتديهم دافع مختلف لحمل السلاح واغتنام الفرصة وأخذ ما يمكن أخذه من أرض ومال وأسرى ، ولكن لم يكن هناك جيش بالمعنى الدقيق ، ولم تكن هناك ادارة

(١) انظر « العبر وديوان المبدأ وال Lair في أيام العرب والعجم والبر ومن عاصتهم من ذوى السلطان الأكبر » لعبد الرحمن ابن خلدون ، طبعة بيروت ، الجزء الرابع ، ص ٣٨٦ . ويرد النص هنا في نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص ٣٣ .

(٢) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » ص ١٠٠



بلدة كانفاس دى أونيس

تستطيع أن تقدم الأرضية الالزامه لبناء أية دولة . وتغير هذا الوضع مع الزمن . ومن تحت النكسات التي لحقت بالشماليين في عهد حاكم قوي مثل عبد الرحمن الداخل ، كانت قوى الشمال تعود لرخص الصفوف وتهديد التجمعات الأندلسية القريبة من مناطق نفوذها ويزز من ملوك الشمال في هذه المرحلة الفونصو الثاني (٧٩١ - ٨٤٢ / ٢٢٧ - ١٧٥) الملقب بالظاهر . ولابد أن ثقته بنفسه كانت كبيرة جداً أو أن انشغال أمير قرطبة بقمع الانفاضات الداخلية ضده كان كاملاً ، لأن الفونصو زحف بجنوده عبر نهر دويرة الذي يصب في المحيط الأطلسي ، وتابع سيره نحو الجنوب محظلاً لشبونة (اشبوة) سنة ٧٩٨ (١٨٢) بل وإنه استطاع التسلك بها ١١ سنة قبل أن يتمكن الأندلسيون من انتزاعها منه . ولابد أيضاً أن الوضع استتب للفونصو الثاني فنقل محل إقامته الرسمي من سبتة يانس ، القرية من براقيا على خليج بسقاية ، إلى مدينة أوبيط سنة ٨١٠ (١٩٤) . ويدرك التاريخ الأسباني للفونصو الثاني دوره الكبير في إرساء دعائم مملكته في أوبيط ، إلا أن له دوراً آخر لا يقل عنه أهمية إن لم يتتجاوزه . وبعد سنتين من تحول أوبيط إلى عاصمة ، أصبحت مقرًا للكربني الأسقفي وجماع فيها كل ما كان يعتقد أن للقديسين علاقة به ، حتى حملت العاصمة وصف « المقدسة » (el Santo) . والاكتشاف المفاجيء لأهمية مملكة الفونصو الثاني من الناحية الدينية اكتسب بعدها جديداً سنة ٨١٣ حين ساد الاعتقاد باكتشاف جهنان القديس يعقوب ، فعمد الفونصو الثاني إلى بناء كنيسة خاصة بالجنهان ثمت حولها المدينة المعروفة اليوم باسم سنتياغو (شنت ياقب / يعقوب) مع الزمن ، وأصبحت ممحجاً لنصارى شبه جزيرة إيبيرية وغيرهم من نصارى أوروبا .

وفر الفونصو لأنباءه عاصمة وقديسا يحميه في غزواتهم ويشد من أزفهم ، ولكن معارك الفونصو لم تكلل كلها بالنصر إذ لحقت به هزائم منكرة كثيرة ، ولكنه ترك مع ذلك مملكة كبيرة شملت مناطق اشتورش وجليقية ، وشمال الدولة التي نعرفها اليوم باسم البرتغال ، بالإضافة إلى سنتينير الواقعة على خليج بسقاية وبعض الأراضي المحيطة بمدينة برغش ، كما خلف أيضاً الأسas الإدارية والدينية التي قامت عليها مملكة ليون التي حمل ملك الفونصو اسمها ، رغم أنها لم تؤسس في مدينة ليون بالفعل إلا بعد ٧٢ سنة من موته . وعلى الرغم من أن العاصمة انتقلت في بداية القرن العاشر إلى ليون وعادت مرة أخرى إلى أوبيط إلا أن قيمتها بقيت تاريجية على العكس من « فكرة » القديس يعقوب ، التي كانت في المراحل التالية شعلة يهتدى بنورها جنود الشمال خلال حربهم الطويلة ضد الأندلسين ، إذ كان هذا القديس يظهر خيال أتباعه وهو يحمل السيف ويكتفى فرسه البيضاء المذيرة ، حتى أن صيحة الحرب عند بعض الشماليين كانت اسم القديس . (١) اعتلى العرش بعد الفونصو الثاني ابنه روميرو (ردمير) ولكن لم يكن له حظ ابنه في توسيع المملكة ، إذ شغل بقمع الانتفاضات الداخلية ضده ، كما انشغل بوقف خطير آخر ضد الممالك الشمالية والأندلس على حد سواء . وبعد سنتين من تولى ردمير (٨٤٢ - ٨٥٠ / ٢٢٧ - ٢٣٦) الحكم،شن النورمان (الإدمانيون أو الإدمانيون المجروس عند العرب) هجومهم الأول على الأندلس واعقوبه بهجوم ثان سنة ٨٥٩ (٢٤٥) فقام الأندلسيون والشماليون يصدون هذه الهجمات الخاطفة التي شنها النورمان من البحر . إلا أن ردمير استغل حماس رعيته لصد هجوم النورمان وعمرت في زمنه قلاع كثيرة اضفت إلى قلاع سابقه بنيت على طول الضفة الغربية لنهر دويرة ، وأعطيت في وقت لاحق اسمها لقشتالة التي تعني باللغة القشتالية (الأسبانية كما هي معروفة اليوم) « القلعة » . وقامت طول هذه المرحلة من تاريخ الشمال منطقة عازلة بين الشماليين والأندلسين استخدماها هذا الطرف أو ذاك للنفاذ إلى أراضي الخصم والأغارة عليه ، كما حدث في عهد الملك اردون الأول (٨٥٠ - ٨٦٦ / ٢٣٦ - ٢٥٢) حين استغل الأخير انشغال الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦ / ٢٧٣ - ٢٣٨) باخמד بعض الفتن للهجوم على الأندلس .

(١) تروي الأسطورة الأسبانية أن جنادل القديس يعقوب « هبط » في مدينة البطرورن (قدیما اريا فلافیا) الواقعة على بعد ٢٠ كيلو متراً إلى الجنوب العربي من مدينة سانتياغو سنة ٨١٣ (١٢٦) وهو مسجي في كفن من الصخر . وتقول الأسطورة أن أسقف اريا فلافيما المعروف باسم ثيدورمير (تدمير) اكتشف الكفن مهتماً بفتح قاده إليه ، حتى وصل إلى مكان في غابة كانت قائمة في الموضع الذي توجد فيه مدينة سانتياغو كومبوستيلا اليوم ، ومن هنا جاء الإسم الأخير من المدينة وهو Compostela أي Compstela: ومهما كانت حقيقة الفكرة التي قامت على اكتشاف جنادل القديس يعقوب ، إلا أنها اثارت اهتماماً كبيراً في حينها واستقلها الفونصو الشاب بنجاح لتأجيج الحماس الديني لدى رعيته فني كنيسة في الموضع ، ثم جاء الفونصو الثالث فسر كاتدرائية بدل الكنيسة استمرق بناها ١٥ سنة وافتتح في ٩٩٩ (٢٨١) فcatsam سوقاً مساكن وسوقاً تجولت إلى مدينة فيما بعد . وفي سنة ٩٩٧ (٢٨٧) أغار المتصور على سانتياغو ضمن حملة كبيرة لتأديب الشمال بعد استفحال الخطر ، فدمر المدينة ولكنه أنهى على قبر القديس للاعتقاد في الرواية الأسبانية ، بإن المتصور أعجب بشجاعة راهب ظل يلازم القبر بعد فرار الجميع من الكاتدرائية . ولكن بسببه على الأغلب ، احترام المتصور للمقام ولما أعيد بناء الكاتدرائية في عهد أول رئيس أساقفة لها ، صُنِّعَ هنا عظام القديس في أساس الكاتدرائية الجديدة التي دشنت سنة ١١٢٨ (٥٥٦) . والكاتدرائية ، كما هي قائمة اليوم محصلة كثير من أعمال البناء التي جرى في مراحل لاحقة وفيها ذخائر يقال أنها للقديس والنبي من تلاميذه اضافة إلى تحف له عمل نحو سنة ١٢١١ (٦٠٨) . وأهمية هذا القديس بالنسبة للشماليين اعتباره حامي ممالك الشمال ومنجد المصاري ضد المسلمين ؟ كما يتضح من الوصف الذي يحمله وهو ذياب الأندلسين Matamoros - ظهوره لملك اشتورش ردمير الأول في معركة مع المسلمين سنة ٨٤٤ (٢٢٩) في عهد عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ - ٢٢٨ / ٨٥٢ - ٢٣٨) ، عرفت باسم كلافيخر Clavijo (Clavijo) بموضع إلى الشمال من مدينة سرقنة . هذه الأسماء وغيرها مما رواه الشماليون اعطت القديس مكانة كبيرة في سائر أوروبا .

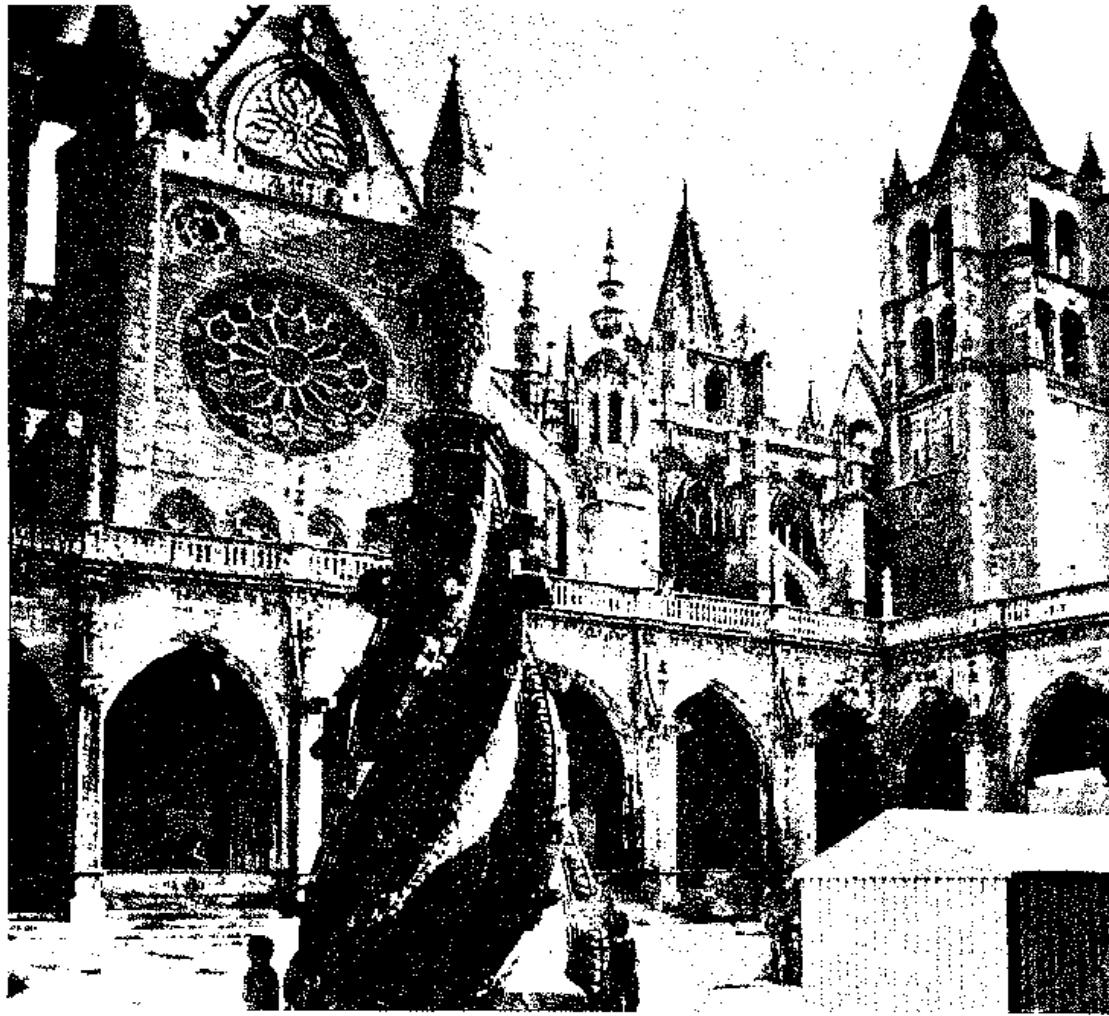
د - التوسع الشمالي نحو الجنوب :

في الستين الأخيرتين من حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن ، بدأت في الشمال حركة غير عادلة تجذب في توطين سهول نهر دويرة بسكان الشمال والوافدين من سكان الممالك الأوروبية الأخرى ، ولاسيما من مناطق مخالف جبال البيزنطيه . وتطورت هذه الحركة بعد سنوات من الصراع بين مملكة اشتورش والأماراة تركز على تدعيم الخطوط الدفاعية للبيزنطيه ، وابقاء منطقة عازلة واسعة بينهما . الا أن اشتداد العصياني ضد قرطبة ولجوء بعض العصابة الناقمين إلى مملكة اشتورش طلباً للمعونة ضد الإمارة ، سمح للشماليين تدعيم وجودهم مستفيدين من توجيه الإمارة جهودها لانحسار العصابة . وبعد وفاة الأمير محمد تعاظمت حركة العصياني في عهدي الأمير المنذر (٨٨٦ - ٢٧٣ / ٨٨٨) وعبد الله بن محمد (٩١٢ - ٢٧٥ / ٢٠٠) ، حتى أخذت شكل الحرب الأهلية . ففي عهد سلفهما أمكن إلى حد ما مقمع حركة العصياني في الثغر الأعلى ، حيث كانت سرقسطة العاصمة ، وفي الثغر الأوسط حيث كانت طليطلة ، ولكن الحركة استمرت في الثغر الأدنى ماردة واتسعت لتشمل مراكز أخرى إلى أن بلغ عدد الثورات ضد الأمير عبد الله بن محمد ٣٠ ثورة منها ثورة ابن حفصون التي وصلت أوجها بين ٨٨٤ و ٨٩١ (٢٧١ - ٢٧٨) وضعفت سيطرة قرطبة حتى كادت السلطة الفعلية للأمير لا تتعدي حدود المدينة .

نشط الفونوصو الثالث (٩١٠ - ٢٩٧ / ٤٥٢) للاستفادة من تردى الأوضاع في الجنوب إلى هذا الدرك ، فقام بيئي قواته ويعسر المدن الحصينة مثل سمورة وسيمانقة (شنت منكش) فنقل سلطته الفعلية حتى نهر دويرة ، وواصل توسيعه حتى باتت مملكة اشتورش تسيطر لحظة وفاته على حوالي خمس شبه جزيرة إيبيرية . وفي عهد اردون الثاني (٩١٣ - ٣١٢ / ٩٢٣) كانت ليون عاصمة الملك وبدأ سكان المناطق الشمالية والشمالية الغربية من شبه جزيرة إيبيرية في اظهار تميزهم عن باقي السكان ، وتطورت عاداتهم الخاصة ولغتهم القشتالية اعتباراً من القرن العاشر الميلادي (الثالث للهجرة) . وأصبح الشمال مؤهلاً لبدء مرحلة جديدة من تاريخه ، بعد أن تخطى مراحله الأولى بمساعدة غير مباشرة من الأندلسيين الذين انشغلوا بقتال بعضهم البعض . أما حكام الشغور المتاخمة للشمال فقد « لجأ كل منهم ملطفة ملك اشتورش ، رغبة في نيل الخظوة لديه ولد عاديته عنه ، كي يتفرغ هو محاربة جيرانه من إخوانه في الدين . وعلى ما يظهر ، لم يبق في الشغور من يقدر هذا الخطر الداهم ، إلا جماعات النساك المرابطين فيها . »^(١) ويدرك التاريخ في هذه المرحلة لأحمد بن معاوية قيادته جيشاً من المنطوعين لاستعادة سمورة ، ولكن بعض شيوخ القبائل تحولوا عنه خوفاً على مناصبهم فتراجع ، وظل صامداً يومين حتى قتله . الشماليون في معركة سميت « يوم سمورة » وكان ذلك سنة ٩٠١ (رجب ٢٨٨) .

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور بدر ، ص ٢٦٢

كاتدرائية
ليون
من الهو
الداخل



ولعل سرد هذه الواقع يعطي الانطباع بأن انتصارات الشماليين كانت مستمرة طوال الوقت ، وأن هزائم الأندلسين تعاقبت بلا انقطاع . فالشماليون توغلوا في مناطق الجنوب ولكن هذه الأرضي كانت جبلية وعرة في معظمها . حتى امتد الإعمار إلى وديان نهر دويرة . يضاف إلى ذلك أن قوة الشماليين كانت دائمًا عرضة للانتحال خلال توفر سلطة قوية في قرطبة ، وهذا ماحدث أيام الخلافة . ونحو نهاية حكم الأمير عبد الله بن محمد كانت مراكز العصيان تض miglioriها بفضل السياسة التي اتبعها وهي احداث تقلص تدريجي لسلطة العصابة ، وهذا مكن خليفته عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) وحفيد عبد الله من وضع نهاية للعصابة بما في ذلك ثورة عمر بن حفصون . حكم عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١ / ٣٠٠ - ٣٥٠) فترة نصف قرن توجها باعلان الخلافة سنة ٩٢٩ (٢١٦) وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ووصلت الأندلس في عهده إلى مرتبة لم تصلها في السابق . ومع ذلك فإن قوة مملكة ليون . وهو الإسم الذي عرفت به مملكة الفونصو الأول رغم أن ليون المدينة لم تصير عاصمة إلا في عهد غرسيه الأول (٩١٠ - ٩١٣ / ٢٩٧ - ٣٠١) . وصلت هي الأخرى إلى مرحلة متقدمة إذ استطاع ردمير الثاني (٩٣٢ - ٩٥٠ / ٣٢٠ - ٣٣٩) هزيمة الخليفة الناصر في معركة شرسنة عرفت باسم الخندق ، ووقعت قرب سيمانقه سنة ٩٣٩ (٣٢٧) فلم يستطع الناصر الفرار إلا بصعوبة ، وكان السبب الرئيسي في هذا الانتصار قدرة ردمير على جمع كلمة الشماليين ضد الجنوبيين الأندلسين .

كانت ممالك شمالية أخرى تنمو إلى جانب ليون ، وتستعد هي الأخرى للقضاء على قرطبة أو على الملك الشمالي الأخرى . ويرى التاريخ الأسباني أن الملك الفونصو الثالث عهد إلى أحد قواه ، وهو ديفغو بورسيلوس ، بناء حصن على ضفة نهر الرنسون (Arlanzon) في حوالي سنة ٨٨٤ (٢٧١) لوقف تقدم الأندلسيين ويقي هذا الحصن ، الذي عرف باسم برغش ، تابعاً لمملكة ليون حتى سنة ٩٦٦ (٣١٤) عندما قرر سكان المدينة انتخاب اثنين من القضاة لتسير أمورهم . ويرى من هؤلاء القضاة من عمل على الاستقلال عن ليون ، وصد الحملات التي سرتها المملكة الأم لتأديبهم حتى جاء فرنان غونزاليث (فرنان غنصالص نوني) في حوالي سنة ٩٥٠ (٣٢٩) ، فأعلن الاستقلال عن ليون وحمل لقب كونت قشتالة . وقد تطورت هذه الدولة الصغيرة حتى أصبحت أكبر مملكة شمالية فيما بعد . إلى الشرق من ليون كان الباسك يبنون دولة ولكن أول من حمل منهم لقب الملك كان سانشو (شانجه) غريسه الأول (٩٠٥ - ٩٢٦ / ٣١٤ - ٢٩٣) ، ووصلت هذه المملكة المعروفة باسم نافار (نبارة) إلى أوج قوتها إبان عهد سانشو غريسه الثالث الملقب « بالكبير » ، وكانت تضم المنطقة الشمالية الشرقية من شبه جزيرة إيبيريا التي اتسعت فيما بعد ، وأصبحت تعرف باسم مملكة أرغون .

وحدة الشماليين التي مكتتم من تحقيق الانتصار في موقعة المتقى في عهد الخليفة الناصر لدين الله تكررت في عهد خليفة الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١ - ٩٧٦ / ٣٥٠ - ٣٦٦) ، عندماتمكن سانشو (شانجه) الأول المعروف « بالسمين » (٩٥٦ - ٩٦٦ / ٣٤٥ - ٣٥٥) من توحيد جميع القوى الشمالية ضد الخليفة القرطي ، ولكن سعياً وراء الدفاع وليس الهجوم هاذا كانت الخلافة أقوى من أن تقاوم ، يوم توفى الحكم الثاني ليخلفه هشام الثاني « المؤيد بالله » . وهشام الصبي كان الخليفة ولكنه لم يكن الحاكم . أما الحاكم الفعلي الذي لم يكن الخليفة فكان أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافري ، أو اختصاراً محمد بن أبي عامر الملقب « بالحاجب المنصور » . وفي عهد المنصور لم يعرف الشماليون طعم الانتصار، إذ سير جيشه ، الذي ضم أعداداً كبيرة من المرتزقة ، فهاجم سنة ٩٨١ (٧٣٠) قشتالة وأخضع سيمانقة وسمورة وهزم اتحاد جيوش ليون وقشتالة ونافار في الروطة (روطة اليهود) . وقد الشماليون أى أمل في الانتصار فراح الملوك يلاطفونه وأعطاه سانشو الثاني ملك نافار المعروف باسم ابركة (٩٧٠ - ٩٩٣ / ٣٥٩ - ٣٨٥) ابنته التي خلفت له ابنة عبد الرحمن (شنجلون) . وفي سنة ٩٩٧ (٣٨٧) هاجم المنصور المناطق الشمالية فاقتحمتها ، ووصل إلى ستياغو (شنت ياقب) ثم أخضع بعد ستين عاصمة نافار ، بambilونة (بيلونة) ، وحقق انتصارات عسكرية كبيرة أخرى إلى أن توفي سنة ١٠٠٢ (٣٩٢) خلال أحدى غرواته ودفن في مدينة سالم . وخلف المنصور ابنة عبد الملك ، ولكنه توفى هو الآخر سنة ١٠٠٨ (٣٩٨) . ويموت عبد الملك دخلت الأندلس مرحلة سوداء تعبرت خلالها جميع جهود المخلصين لإنقاذ البلاد ، وببدأ العهد الذي يعرف باسم عهد الطوائف ، وافتتح الباب الذي أغلقه الخليفة في وجه تقدم الممالك الشمالية .

هـ - ممالك قشتالة وارagon والبرتغال :

وصلت مملكة نافار إلى أوج عظمتها أيام حكم سانشو (شانجه) غرسيه الثالث الملقب أيضاً « بالكبير » (١٠٣٥ - ٣٩٠ / ٤٢٦) ، ولكن هذا الملك قسم أراضي مملكته على أبناءه الأربعة فيسط فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٦٥ / ٤٥٨ - ٤٢٦) سلطته على ليون وجليقية وقشتالة ، بعد أن تزوج من سانشة التي ورثت مملكة ليون ، فتمكن بذلك من توحيد تاجي ليون وقشتالة معاً . كانت العاصمة حتى الآن برغش ولكنها انتقلت إلى طليطلة بعد سنتين من سقوطها في عهد الفونصو (الفنش) السادس (١٠٧٢ - ١١٩ / ٤٦٥ - ٥٠٢) . في هذه الأثناء كانت نافار تسير في طريق التقلص إذ أعطى سانشو الثالث منطقة أواسط جبال البريبيري إلى ابنه غنصالو ، ولكن الأخير اغتيل وأدى الاحتلال منطقة الروخة الخصبة إلى عزل نافار عن الأندلس . تقلبت نافار بعد ذلك بين التبعية والاستقلال فكانت في إحدى فترات تاريخها تابعة لملك فرنسا ، ولكن فرناندو الخامس زوج الملكة إيزابيلا وصاحب الانتصار على مملكة غرانادة ، ضم جميع أراضي نافار إلى مملكته سنة ١٥١٢ (٩١٨) .

وعادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك التي اتبعها سانشو الثالث في عهد ابنه فرناندو الأول ، فحصل الفونصو السادس على إشتووش وليون بينما حصل ابنه سانشو على قشتالة ، وكانت جليقية والطرف الشمالي الغربي من المملكة من نصيب ابنه الثالث غرسيه ، ولكن الخلافات دبت بين الأحنة الثلاثة فأغيل إثنان وانفرد الفونصو السادس بالحكم ، وتجددت المشاكل في قشتالة أيام حكمي الملكة اوراكا (١١٩ - ١١٢٦ / ٥٢٠ - ٥٠٢) وإنها الفونصو السابع (١١٢٦ - ١١٥٧ / ٥٢٠ - ٥٠٢) فاستمرت حتى جيء الفونصو الثامن (١١٥٨ - ١١٤٤ / ٥٥٣ - ٦١١) وكان هذا الملك بطل هزيمة الإيك التي وقعت سنة ١١٩٥ (٥٩١) وبطل انتصار معركة العقاب التي الحقت بال المسلمين هزيمة منكرة سنة ١٢١٢ (٦٠٩) بعد أن تمكن من توحيد قوات ليون ونافار وارagon . وعادت مملكتنا قشتالة وليون إلى الاتحاد عندما تزوج فرناندو الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢ / ٦١٤ - ٦٥٠) ابن الفونصو التاسع ملك ليون من ابنة الفونصو الثامن وكان فرناندو هذا وراء عملية اكتساح الجنوب التي شملت مدن قرطبة وجيان وشبيلية . واعتباراً من انتهاء حكم فرناندو الثالث ، الذي أسبغت عليه صفة القداسة سنة ١٢٧١ . وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت قشتالة ساحة حروبأهلية مستمرة إلى أن أصبحت إيزابيلا (إيزابيل) ملكة على قشتالة سنة ١٤٧٤ (٨٧٩) .

في القسم الشمالي الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا قامت مملكة اعتمدت بصورة رئيسية على الدعم الذي حصلت عليه من غاله ، وبدأت بمقاطعة حدودية أقامها الملك شارلمان ، وكانت تابعة لمملكة نافار أيام حكم سانشو الثالث ، إلا أنها انفصلت فيما بعد وتوسعت أراضيها في عهد رامون برخير الأول (١٠٣٥ - ١٠٧٦ / ٤٦٨ - ٤٢٦) . وجاء رامون برخير الثالث (١٠٩٦ - ١١٣١ / ٤٨٩ - ٥٢٥) فتعاون مع الإيطاليين لراساء قوة دولته التي عرفت باسم قطالونيا في منطقة البحر الأبيض المتوسط . هذه المملكة ضمت جironه (جرندة) وبرشلونة وطركونة ولادة ، إلا أنها قامت أساساً على برشلونة التي

انتزعها القطلانيون وحلفاؤهم من العرب سنة ٨٠١ (١٢٣٧) . وتوحدت قطالونيا مع أرغون سنة ٥٣١ (١٢٦٥) نتيجة تزاوج تم بين الأسرتين الحاكمتين في الدولتين ، إلا أن حلم القطلانيين في الاستقلال استمر حتى بعد ارتباطهم بارغون وقشتالة ، وتجدد في القرن السابع عشر ؛ ثم تحقق سنة ١٩٣١ عندما أعلنت الجمهورية في قطالونيا ، ولكن عمر الجمهورية لم يمتد طويلاً ووضع الجنرال فرانثوك نهاية له بعد الحرب الأهلية التي اندلعت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٩ .

ويقال عن أصول مملكة أرغون إن رعيتها كانوا من القوط الذين تراجعوا إلى جبال البرينيه بعد الفتح ؛ ثم اغتنموا فرصة اندلاع الأضطرابات في التغور الأندلسية فحققوا بعض التقدم الذي لم يبدأ بصورة مؤثرة إلا بعد أن احتل الملك الأرغوني الفونسو الأول المشهور « بالحارب » (١١٠٤ - ٤٩٧ / ١١٣٤ - ٥٢٨) سرقسطة عاصمة الشغر الأعلى سنة ١١١٨ (٥١٢) ؛ أما أشهر ملوك أرغون على الاطلاق فهو حامي الأول « الغازى » (١٢١٣ - ٦٦٠ / ١٢٧٦ - ٦٧٥) الذي عرفه العرب باسم « جائش » وكان من أعماله احتلال الجزر الشرقية وبلنسية ولقت ، وتوسيع مملكته التي أصبحت إمبراطورية كبيرة في عهد الملوك الذين خلفوه حتى كان الاتحاد الشخصي بين قشتالة وأرغون ، عندما ورث فرناندو الخامس عرش أرغون وتزوج من إيزابيلا ملكة قشتالة .

أما المملكة الرئيسية الثالثة في شبه جزيرة إيبيريا فكانت البرتغال ويعود تاريخ تأسيسها إلى الملك الفونسو السادس الذي قدم الجزء الشمالي من برتغال اليوم هدية زواج ابنته تيريزا من هنري البرغندي . وانفصلت هذه الدولة عن قشتالة وليون سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) ، وكان الفونسو الرابع الذي (١١٣٩ - ١١٨٥ / ٥٣٣ - ٥٨١) أول ملوكها واستغلت هذه المملكة ضعف الأندلس فمدت سيطرتها على الجنوب ، وعرفت في عهد يوحنا الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ / ٧٨٧ - ٨٣٦) الرخاء والازدهار ، فتوسعت في أفريقيا ثم امتدت ممالكتها إلى آسيا وأمريكا اللاتينية بعد أن أفشلت كل الخطط التي وضعتها قشتالة لاستيعابها . وتحقق هذا الحلم القشتالي في عهد الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ، ولكن البرتغال عادت للانفصال عن قشتالة وبقيت حتى اليوم كياناً مستقلاً .

٣ - تأثير العوامل الخارجية في سقوط الأندلس

أ - دور الفرنكين في سقوط الأندلس

أ - غالة وسقوط الأندلس :

حتم نعمت فتح شمال أفريقيا النهاية إلى إيبيريا بعد الاصطدام بمحاجزين طبيعين ، أولها المحيط الأطلسي وثانيهما الصحراء الأفريقية . ولعل فتح شمال أفريقيا يعتبر من أعنصر عمليات الفتح الإسلامية فقد كلف الكثير من الدماء والجهد ، واستمر حوالي ٧٠ سنة قبل أن يتمكن موسى بن نصير من أيام الفتح .

وأخضاع القبائل البربرية سنة 709 (٩٠) . كان فتح الشمال الأفريقي كمد البحر تبع الموجة أخرى إلى أن استكملت العملية ، ولم يبق سوى مدينة سبتة التي استعانت على الفاتحين سبب موقعها الاستراتيجي إذ احتاج فتح المدينة إلى قوات بحرية ، لم تكن متوفراً في تلك المرحلة لدى الفاتحين . وتشاء الظروف أن يقدم حاكم سبتة المعروف باسم جولييان (يليان أو الليان) حين مسأليتين صعبتين دفعه واحدة . الأول تأييده للفاتحين . والثاني تقديم السفن التي عبر عليها جنود الفتح الأوائل إلى جنوب شبه جزيرة إيبيريا . وتحتختلف الروايات المتعلقة بهذه المرحلة من الفتح ، ولكن يبدو أن جولييان نقم على الملك القوطى للذريق بسبب تعديه على شرف ابنته فلوريندا^(١) ، أو أنه كان من أنصار المعارضين لسيطرة الذريق على الحكم في طليطلة ، رغم أن سبتة كانت تابعة لبزنطة ، ولا يربطها بنظام طليطلة سوى علاقات القرب الجغرافي والدين .

وأمام توقف الرمح العربي على شواطئ البحر الأطلسي ، وصعوبة الاستمرار نحو الجنوب سبب الحرارة والجفاف وقلة السكان ، كان دخول الفاتحين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية بقيادة طارق بن زياد والقضاء على آخر ملوك القرطاج ، ومن ثم اتمام الاحتلال الجزء الأكبر من شبه الجزيرة . « موجية » فتح شمال أفريقيا امتدت إلى الأندلس بعد بسط السيطرة الإسلامية عليها ، وكان من الطبيعي أن تخترق الحاجز الجغرافي الذي تشكله سلسلة جبال البرينيه (البرت أو البرتات) إلى غالاه أو الأرض الكبيرة . ولابد أيضاً أن سرعة الاحتلال شبه جزيرة إيبيريا شجعت الفاتحين على عبور البرينيه ، ومن غير المستبعد أن تكون بعض سرايا طارق بن زياد دخلت إلى الأرض الكبيرة ، وإن كانت المعلومات المتوفرة عن ذلك قليلة . ومحاولات التوغل في غالاه كثيرة فقد فتح الوالي السمح بن مالك الحولاني (٧١٩ - ٧٢١ / ١٠٢ - ١٠٠) بعض المناطق القريبة من شمال الأندلس وأحتل مدينة تولوز ، ولكنه استشهد في معركة دارت قرب المدينة سنة ٧٢١ (١٢) وجاء بعد السمح عنبرة بن سحيم الكلبي فتوغل كثيراً وأحتل مدينة قرقشونة ، ولكنه توفي سنة ٧٢٥ (١٧) متأثراً بجرح أصابه في معركة مع الفرنجية (الفرانكيين) . وخلال عهد الولاية استمرت عمليات التوغل في غالاه بصورة متقطعة ، إلى أن تسلم الوالي عبد الرحمن بن عبد الله العاقشي ولايته الثانية سنة ٧٣٦ (١٢) فكانت له حملات موقعة وأحتل بوردو (برذيل) ومدنًا أخرى ، ولكنه استشهد وهو جيشه في معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ (١٤) على يدى كارل (قارل) الذى اشتهر بصفة « المطرقة » وكان الحاكم الفعلي لغالاه وهو ينصب « عمدة بلاط ». ولهذه الموقعة أهمية كبيرة عند بعض المؤرخين الأوروبيين ، فاعتبروها نقطة الخسار الفتح العربي عن أوروبا ، والبعض بالغ في خسائر المسلمين فرغم أن القتلى عدوا ٣٧٥٠٠ . وامعان النظر في الحوادث التي وقعت بعد المعركة لا تترك للروايات الأوروبية الأرضية المنطقية . فقد توغل يوسف بن عبد الرحمن ، حاكم مدينة تزيونة ، في حوض الرون وأحتل مدینتي آرل وأبيون رغم أن « المطرقة » تمكّن

(١) رغم تناول هذه القصة بالشك ، إلا أنها أصبحت جزءاً من التراث الأسباني . ويدل ذلك الدليل على سطوة تدعى ساحة الكامبرون ضد بشاميا رئيس جسر قديم عبر طليطلة ، يقال إن ابنة جولييان كانت تستحم فيها عندما رآها الذريق فاعجبه ونال منها .

من إجلاء المسلمين عن بعض المناطق التي احتلواها في سنوات لاحقة . أما الشهادة التي يتمتع بها هذا القائد الذي كان أباً غير شرعي لبيين الثاني ، فترجع أصلاً إلى الانتصارات المستمرة التي حققها ضد خصوصه من القبائل الجermanية ، مما مكنته من السيطرة على أغلب المنطقة المعروفة اليوم باسم فرنسا ٢٦ سنة أى حتى موته سنة ٧٤١ (١٢٣) . وزع هذا الملك أراضي مملكته على ابنه بيين المشهور « بالشجاع » وكارلومان ، ولكن الأخير اعتزل في دير فاستفرد بيين بالحكم وكان من أعماله استغاثة ن Rooneyة من المسلمين سنة ٧٦١ (١٤٤) ، فخسروا بذلك آخر أهم المعاقل في غالطة رغم استمرار الغزوات في أوقات لاحقة ، وترك بيين المرحلة التالية من الصدام مع المسلمين لابنه شارلمان .

٤ - شارلمان :

جاء شارلمان إلى الحكم في فترة من أهم فترات صنع تاريخ أوروبا ، تلت مرحلة عاصفة بدأت مع حركات الاستيطان الجديدة للقبائل الجermanية والقضاء على الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية . قبائل الفرنانك (الفرنجية) التي انحدر منها شارلمان رحلت من مناطق نهر الراين عندما تجده سنة ٤٦ ميلادية واستقرت في غالاته بعد أن تغلبت على القوط الغربيين في معركة فوريه التي وقعت سنة ٥٠٧ ميلادية . من هذه البداية المترابطة نهض قبائل الفرنانك على أيدي شخصيات مثل بيين الثاني وكارل « المطرقة » لتحتل مكانها في التاريخ ، ولتحصل الأوج في عهد المملكة الكارولنجية ، التي تبدأ مع بيين الموصوف « بالشجاع » سنة ٧٥١ (١٣٣) ، وتنتهي بموت شارلمان في ٢٨ كانون الثاني سنة ٨١٤ (١٩٨) بعد حكم استمر ٤٦ سنة .^(١) أما أهم سنوات حكم شارلمان فكانت سنة ٨٠٠ (١٨٤) حين أعلنه البابا ليو الثالث إمبراطورا (Romanorum gubernans imperium) في يوم عيد الميلاد اعترافاً منه بفضل ملوك الفرنانك على الكنيسة الرومية ، سواء في تأييدهم لروما عند اندلاع الخلاف الديني مع الكنيسة البيزنطية أو في جهودهم لحمل الكاثوليكية إلى القبائل الجermanية الوثنية وتدعم سلطة الكنيسة الروحية . نصب بيين « الشجاع » (٧٥١ - ٧٦٨ / ١٣٣ - ١٥٠) ملكاً بمحاركة البابا على جميع الفرنانكيين في سنة حكمه الأولى ، وحين تعرضت البابوية للخطر وضع البابا روما تحت حماية عرش بيين فكان سيف البابوية وداعيتها الكاثوليكي واستمر هذا الترتيب فيما بعد ، فكان تعميد فلوروكنڈ زعيم قبائل السكسون على أيدي شارلمان سنة ٧٨٥ (١٦٨) ، واتسع ملك الفرنانك في عهده فأصبح يضم أغلب الأراضي الأوروبية .

ومن حسن طالع أوروبا ، أو من سوء حظ العرب ، أن يستمر الصدام مع غالاته في مرحلة من صعود نجم المملكة الفرنانكية ، وفي فترة اتحادها مع البابوية الرومية ضمن قوة مشتركة تصدت لأعمال الفتح العربي في الأرض الكبيرة ، وتمكن من وقفه بفضل مدد بشري لا يتضمن ، وفي منطقة تزيد في اتساعها

(١) قاتل الملكة الكارولنجية على المقابر الملكة الموروثية التي حكمت أراضي فرنسا والمانيا حالياً منذ القرن الخامس الميلادي . ويعتقد بعض المؤرخين أن الموروثين ينتسبون إلى من الجدلية التي فُرمِعَ أنها وصلت إلى مرسيليا مع تجار سوريين .

عن الأندلس . ومع ذلك فإن الفاتحين الأندلسيين لم يكونوا عاجزين عن تحقيق انتصارات كبيرة على الملكة الكارولنجية حتى وهي في أوج عظمتها ، وإن اخفقو في بسط سيطرتهم الدائمة على أي من أراضيها خلف جبال البرينيه وتكرار ماحدث في الأندلس ؛ لأن تطور تلك الملكة في ذلك الظرف كان قد تدعى وضع مملكة القوط الغربيين في شبه جزيرة إيبيريا يوم فتحها . ولاشك أيضا في أن شخصا مثل شارلماן كان يفكر في بسط سيطرته على الأندلس وتخليصها من المسلمين إلا أن فرصته كانت ضعيفة جدا إلى أن قدمت له الأضطرابات الداخلية في الأندلس الفرصة لعبور البرينيه ، مثلاً ساعدت هذه الأضطرابات الداخلية على أضعاف القوى التي كان من الممكن أن يوفّرها الأندلسيون لفتح غاله .

فترة البرير في الأندلس انتهت بدخول الجيش الشامي ، ولكن الخلاف اندلع بين الجيش والبلديين من أهل الأندلس فكانت الغلبة للشاميين . ولما دخل « صقر قريش » إلى الأندلس استعاد بالمانين ضد القيسيين للوصول إلى إمارة قرطبة ولكنه انقلب على البمانين ، فعم استياء استغله سليمان بن يقطان العربي وإلى سرقسطة لرفع رأية العصيان ضد أمير قرطبة ، ثم سار إلى شارلمان يدعوه للقدوم إلى الأندلس (١) . ووُجد الملك الكارولنجي فرصته في اعتداد مدينة مثل سرقسطة قاعدة ينطلق منها باتجاه الجنوب فتوجه بنفسه إلى سرقسطة مروراً ببلاد البشكنس ، ولكنه فوجيء بسرقسطة مغلقة الأبواب دونه فحاصرها مدة إلى أن اضطر للعودة إلى بلاده بعد تجدد عصيان قبائل السكسون بقيادة فيدوكي . وأنباء عودته من بعاصمة البشكنس ببلونة (ببلونة) سنة ٧٧٨ (١٦١) ونبهها جراء خدماته ! فهب البشكنس للانتقام ومعهم جماعة من العرب بقيادة ابنه سليمان العربي الذي اعتقله شارلمان جراء ما اعتقده من التغير به بعد استعصاء سرقسطة عليه . وفي المعر المعرف باسم رنشفاله في جبال البرينيه ، انقض البشكنس والعرب على مؤخرة جيش شارلمان فقضوا عليها وخلصوا الوالي .

كانت هذه لطمة قوية لأحلام شارلمان وعظمت اهانته بسبب مقتل الكونت رولان في الكمين ، ونسجت حول الأخير أساطير سجلت في أنسودة رولان . وبقيت هذه الحادثة في عقل شارلمان وتمكن فيما بعد من النفاذ إلى الأندلس ليس عن طريق الشمال الغربي الذي اتبّعه وإنما من الجهة المعاكسة ، أي من الشغر الشمالي الشرقي الذي عرف فترة باسم ثغر الكارولنجيين في الأندلس . وبدأت عملية التصدى للأندلسيين حين عين شارلمان ابنه لوبي (لذويق) الموصوف « بالتقى » ملكاً على إكتيانيا (أقيطانية) المجاورة لجبال البرينيه لصد هجمات الأندلسيين ، واغتنام أية فرصة تتتوفر للتغلب في الأرضي الأندلسية غير أي من النقاط الواقعة على الشغر الكارولنجي الأول الذي أقامه شارلمان في غزوته

(١) ملخص هذه الرواية إن البمانة الذين مكثوا عبد الرحمن من تحقيق الانتصار على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري في معركة المصارة أو المslaة (٧٥٦ / ١٣٨) واقامة الإمارة في قرطبة ، حقدوا عليه بعد قتلها لابن الصباح الذي كان على رأس من بآبيه من البمانة ، وانضم قسم منهم مثلاً بالأنصاريين المقيمين في الشمال الشرقي من الأندلس إلى الوالي سليمان بن يقطان العربي ، وعلى رأسهم حسن بن سحنون الأنباري . والظاهر أن سليمان تمكن من هزيمة الجيش الذي بعث به عبد الرحمن لتأديبه وأمر قائده ثعلبة بن عبد الجذامي ، وأخذته إلى شارلمان لما ارتجل إليه طلباً للمساعدة تاركاً سليفة الأنصاريين في سرقسطة . ويبدو أن الأخير استيقظ ضميره أو استياله عبد الرحمن فتذكر للعربي وأغلق دونه وشارلمان أبواب المدينة . وحين عاد العربي إلى سرقسطة بعد تخليصه من شارلمان در الأعنزي اغتياله .

الشهيرة . وتحقق أول تقدم يذكر قبل وفاة عبد الرحمن بثلاث سنوات عندما تم الاستيلاء على مدينة جيرونة^(١) (جرندة) ، التي تبعد حوالي ٦٣ كيلو متراً جنوب الحدود مع فرنسا ، وعمر فيها شارلمان كثيصة سنة ٧٨٦ (١٦٩) دلالة على نيتها في استمرار احتلالها . وهذا ما حدث بالفعل إذ سير هشام الرضا (المرضي) (٧٨٨ - ٧٩٦ / ١٨٠ - ١٧٢) جيشاً إلى الشمال الشرقي بقيادة وزير عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فحاصر جيرونة ولكنه لم يتمكن من استعادتها ، فتابع السير إلى الأرض الكبيرة وهاجم عدداً من المدن بينها دربونة وكان ذلك سنة ٧٩٣ (١٧٧) ، وعاد الجيش بالغنم الكثيرة ولكن دون أن يستفيد من انتصاره . أما أهم انتصارات لوى التقي في الأندلس فكانت احتلال برشلونة سنة ٨١ (١٨٥) وأتبعها باحتلال مدينة طركونة سنة ٨٠٨ (١٩٢) . ثم هاجم طروشة بعد ثلاث سنوات ولكنه رد عنها . وتبادل الطرفان بعد ذلك امتلاك طركونة ، ولكن اتباع لوى عموماً نجحوا في مد حدودهم إلى نهر إبرة ، وملكوا الشغر الواقع شمال النهر الذي يمر بسرقسطة اعتباراً من السنة التي تلت التاريخ الأخير ، فكانت تلك المنطقة المملكة التي عرفت فيما بعد باسم قطالونيا ولأنزال سكان المنطقة الواقعة بين برينيان في فرنسا وبلنسية في إسبانيا يتحدثون لغة قرية من لغة البروفانس وهم بذلك يتميزون عن باقي سكان البلاد .

تعتبر شارلمان بأهمية جعلت من بلاطة مكاناً لاد به كثيرون من المصابة الأندلسين ، وكان من بين هؤلاء عبد الله بن عبد الرحمن الذي فر إلى بلاط الملك الكارولينجي بعد خلاف على السلطة مع هشام الرضا ، وعاد بعد وفاة هشام ولكنه قتل على يدي والي مدينة ماردة . كما أن شارلمان كان الجهة التي تطلع إليها ملوك أشتوتش بمحنة عن العون ، وهكذا نرى أن من بين أول ماقام به الفونصو الثاني بعد احتلال لشبونة سنة ٧٩٨ (١٨٢) أرسال سفارة إلى شارلمان يزف إليه نباء انتصاره . واستمر خطر شارلمان على الثغور الأندلسية ، واستدعى ذلك عدداً من الحملات قاد الحكم الريسي (٧٩٦ - ٨٢٢ / ١٨٠ - ٢٦) أحدها بنفسه سنة ٨١٢ (١٩٦) « لما كثُرَ عَبْثُ الْفَرْنَجِ فِي الْشَّغَرِ ». واستمر هذا الوضع بعد موت شارلمان عندما تولى السلطة ابنه من بعده ، فحكم لوى الابن سائراً على نهج أبيه مدة ٢٦ سنة ولكن الخلافات التي دبت بين أبنائه على السلطة أدت إلى تمزيق ملكه إلى ثلاث ممالك مختلفة وتفتت مابناه شارلمان إلى الأبد .

٣ - دور الفرنسيين في سقوط الأندلس بعد زوال الخلافة :

استمر تأثير الفرنسيين على الأندلس في المراحل التالية عن طريق مد المالك الشمالية بالعون والمرتزقة من جاء بداعي أو بداعي الارتفاع والاستيطان . وإن لم يطرأ أي تعديل كبير على الحدود الشمالية خلال عهد الخلافة ، فإن المنصور غزا الشمال الشرقي سنة ٩٨٥ (٣٧٥) فاحتل برشلونة ولكن الشماليين استعادوها في السنة ذاتها . أما المناطق الفرنسية الأخرى فعرفت منذ سنة ٨٩٠ (٢٧٧)

(١) عرفت المدينة أيام الأندلسين بجيرونة (Gerunda) وبهذه جاء الاسم المُعرَّب .



نهر دريزة

ووجوداً عريباً في أقليم بروفانس الجنوبي الشرقي عندما احتل بعض الأندلسين موقعاً منيعاً عرف باسم جبل القلال ، وأمدو بعد ذلك بمجاهدين من الأندلس وغيرها فشملت سلطة هذه الدولة مناطق مختلفة يقال إنها ضمت شالي إيطاليا وسوريا حالياً ، واستمر وجود هذا الكيان حتى سنة ٩٧٦ (٣٦٥) وجاءت المرحلة التالية من تدخل الفرنسيين في الأندلس نتيجة الحماس الديني الذي تعاظم في الممالك المسيحية بعد هزيمة الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٧١ (٤٦٤) على أيدي السلاجقوسين ، وأعلن البابا غريغوري السابع سنة ١٠٧٤ (٤٦٦) عن نيته قيادة جيش من المتطوعين لنصرة المسيحيين في الشرق (انظر دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس) ولم يكن هذا الحماس الديني بالطبع المركب الأول لتدفق نصارى الممالك الأوروبية على الأندلس لأن ثراء هذه الدولة الإسلامية كان معروفاً لدى الجميع . ومشاركة الشماليين في غزوهم كانت من ناحية سعياً وراء اعلاء كلمة المسيحية ؛ ولكنها كانت أيضاً مصدراً للربح الذي تدره غنائم الحرب بعد الانتصار ، والسبيل لاقطاعات الأرضي واحتلال

الناصب التي تتناسب وقدر الفارس أو تسليمه . وبا أن منطقة مختلف البيزنطيه كانت الأقرب إلى الأندلس فقد كان من الطبيعي أن تقدم أكبر عدد من الأوروبيين الذين حاروا إلى جانب ملوك الشمال ولاسيما من مقاطعات الميدى والنورماندى والبرغندى وغيرها . واستفاد ملك مثل الفونصو السادس من صلاته القرية من « الفرنسيين » لأن ثلاثة من زوجاته كن منهم ، وكان لهم فضل كبير في تمكينه من احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وشجع انتصاره هذا الكثيرين على اختراق جبال البيزنطيه والانسحاق بمحوش المالك الشمالية ، الا أن هزيمته في معركة اللاقعة سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) على أيدي المرابطين والأندلسيين كانت سببا في تأجيج موجة الحماس الدينى المسيحي . وبعد عشر سنوات انطلقت الحملة الصليبية الأولى نحو الشرق وأصبحت الأندلس فيما بعد ميدان المهمات الصليبية الغربية ، وتدفق عليها الفرسان والمقاتلون من المانيا وإيطاليا وإنجلترا وأيرلندا وهولندا ، إلا أن الدور الفرنسي يقى أهم الأدوار ، وترك الفرنسيون تأثيرهم على تطور التاريخ الأسباني فيما بعد ، وعلى بعض المناطق الأسبانية مثل الشغر الشمالي الشرقي ووادي نهر أبرا (١) . وارتبط الدور الفرنسي بدور البابوية سواء في حملات الشرق أو المغرب ، كما تميز ، إثر هزيمة اللاقعة ، بكثافة لم يعرفها الشمال من قبل ، وربح الفونصو السادس بالفرنسيين كما لم يربح ملك من قبله بهم : واعتبرهم كثقل يوازي ثقل المرابطين في الأندلس . وفي تلك الملحقة نظر ملوك الشمال والكنيسة إلى مرحلة البعث الدينى الإسلامي المتمثل بدخول المرابطين كتيار لا يمكن وقفه إلا بیث ديني مسيحي مواز ، حتى وإن اختلفت نظرية ملوك أوروبا إلى ضرورة هذا البعث عن نظرية الكنيسة . وحين أخفق مطران برشلونة في الحصول على دعم الفرنسي فيليب الأول لحرب المرابطين توجه ومطارنة فرنسا إلى النبلاء وتحجوا في إنشاء القاعدة التي قامت عليها المشاركة الفرنسية المائلة في حرب المسلمين ، حتى أن مؤرخين مثل بواسوناد (Boissonade) كتبوا يقولون أن البعثات العسكرية الفرنسية ضد الأندلس كانت أهم أسباب وقف تقدم المرابطين في الشمال خلال نصف القرن الذي اعقب اللاقعة .

ولذا اقتصر دور الفرنسيين حتى ذلك الوقت على مساعدة الشمالين لوقف زحف المرابطين ، فإن دورهم التالي كان يتسم بطبيعة هجومية مؤثرة ، وكانت مشاركتهم حاسمة في سقوط سرقسطة سنة ١١١٨ (٥١٢) . فالحملة على هذه المدينة المهمة جاءت بعد اجتماع المجلس الكنسي في تولوز برئاسة البابا غيلاسيوس الثاني (١١١٨ / ٥١٢) وحضور جمهرة من المطارنة الفرنسيين والأسبان ، تقرر إثره تنظيم الحملة في السنة ذاتها ، ووعد سكان أقليم الميدى الفرنسي بمنحهم غرفانا خاصا إنهم شاركوا في الحملة . وتجتمع فور الإعلان جيش ، ضم كونت تولوز وفيكتونت فرقشوتة وغيرهما من النبلاء ، حاصر

(١) من « الكيانات » التي ترك الفرنسيون تأثيرهم الكبير عليها تلك الدولة القائمة اواسط جبال البيزنطيه وتعرف باسم اندورا (Andorra) بأهل هذه الدولة ، التي تعداد حوالي ٣٦,٠٠٠ نسمة اليوم ، يعيشون على السياحة وتدين بالطاعة لشخصين هما رئيس الجمهورية الفرنسية واسقف سو دروغيل بوجب اتفاق ابرم سنة ١٢٧٨ (٦٧٧) . أما أصل هذه الدولة فيعود إلى أيام شارلأن الذى منحها الاستقلال سنة ١٧٧ (٧٩٠) مكافأة لسكانها على الخدمات التي قدموها لجوده عن طريق ارشادهم عبر الجبال والوديان إلى النهر الأندلسي . وتشيدعم الوطني اليوم مايزال يشير إلى الملك الكارلونجي أباً لهذه الدولة .

المدينة، بينما نشط غاستون الرابع البري (وكانت مقاطعته تشمل أجزاء من جنوب غرب فرنسا) في نصب حوالي ٢٠ منجيهاً وعدد كبير من الأبراج المتحركة لدك المدينة بالصخور والنار . وقدم غاستون خدمة كبيرة للمهاجمين استخدم فيها الحبيرة التي اكتسبها خلال حصار القدس وهي خبيرة لم يكن جيش الفونصو الأول « المغارب » يتقنها . و ما تعلمته غاستون الرابع أو غليوم السادس (حاكم مونتبلييه) خلال مشاركتهما في الحروب الصليبية المشرقة ، قدماه بطريق خاطر للشماليين ، ولم يكونا وغيرهما أقل أهمية من دور الكنيسة التي اتفقت كمزكوز الكاتدرائيات والكنائس لدفع مرتبات الجنود . ولكن الكنيسة لم تكن مضطرة دائماً لأنفاق أموالها على الحرب ، فسقوط سرقسطة لم يكن مجرد استصار عسكري وديني ، بل وفر للمهاجمين أسلالياً هائلة ، ومخامن كثيرة ، ما كادت أخبارها تصل إلى الفرنسيين حتى تدققوا بعشرات الآلاف إلى الأندلس لنصرة أخوانهم في الدين والاستفادة من المكاسب المادية التي يقدمها مثل هذا الاستصار . ولم ينس الفونصو الأول الأرغون فضل الكنيسة على نجاحه في الاحتلال سرقسطة ، فتعهد بالتوجه إلى القدس حالماً توفر له منافذ على البحر من بنسيبة وطرطوشة ، إلا أن الكنيسة كانت ترى بأن أفضل خدمة يمكن أن يقدمها ملوك الشمال الأندلسي لنصرة المسيحية هي شن الحرب على الأندلسيين . والمساعدة الفرنسية التي لحقت بهزيمة اللاقة تكررت بعد الهزيمة التي ألحقها الموحدون والأندلسيون بالفونصو الثامن، القشتالي في معركة الارك سنة ١١٩٥ (٥٩١) ووقعة شلبطورة سنة ٢١٦٧ (٦٠٧) . ولما تزد الملك الفرنسي فيليب الثاني والإنجليزي ريتشارد قلب الأسد في نصرة المسيحية ، أخذت البابوية زمام المبادرة ، ونشطت لتوحيد جيوش الشمال التي انطلقت في ثلاثة أجزاء من طليطلة في العشرين من حزيران سنة ١٢١٢ (٦٠٩) . كان الجزء الأول يضم الجيش القشتالي ، والثاني جيش أرغون ، بينما ضم الجزء الثالث الجيش الفرنسي الذي قدره الفونصو الثامن بحوالي ٥٠٠٠ راجل وأنفي فارس مدرب ، مع حوالي عشرة آلاف فارس متقطوع . ومع أن الجيش الفرنسي ساهم في سقوط قلعة شلبطورة ، فإن معظم أفراده تركوا جيوش الشمال في الثالث من تموز احتجاجاً على « التساهل » الذي أبداه ملوك الشمال الأندلسي حيال الأسرى المسلمين في شلبطورة ، وإن كانت بعض الروايات الأجنبية تقول بأن الحر لعب دوراً مهماً في رحيلهم .

و بينما استمر الدعم الفرنسي للشماليين في حرب الأندلسيين خلال الفترة اللاحقة ، فإن هذا الدعم لم يعد مطلوباً بنفس الكثافة الأولى ، إذ تمكن الشماليون وحلفاؤهم بعد موقعة العقاب (١٢١٢ / ٦٠٩) من احتلال معظم الأرضي الأندلسية ، ولم يقترب القرن الثالث عشر من نهاية حتى كانوا قد سيطروا على الوضع وأخضعوا مملكة غنّانطة للجزية .

ب - الحروب الصليبية الغربية في الأندلس (دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس)

قبل أن يحمل الملك فيليب الثاني السيف دفاعاً عن الكاثوليكية في كل مكان من العالم ، لم تكن هناك دولة تستطيع الادعاء بأن ماقدمته لنصرة المسيحية يفوق ماقدمته فرنسا ابتداءً من « رومنة » شارلماں في أولى سنوات القرن التاسع الميلادي ، وحتى قيام الإمبراطورية الأسبانية في بداية القرن السادس

عشر . وغيرة المعتقدين الجدد لأى دين تفوق في العادة غيرة صاحب الدين نفسه ، ولذا لم يكن غريباً أن يصل تدين القبائل الجرمانية بعد تصويرها حد التتعصب والتقوى المتشددة ، وبقي موضوع اثبات تدينهم مهما بعد قرون من اعتناق المسيحية على أيدي المبشرين الأوائل حتى جاء القرن الحادى عشر وافتقرت فرصة اختبار إيمان القبائل الجرمانية في مرحلة من تأجج الحماس الدينى ، وبداية صراع كبير بين الإسلام والمسيحية مايزال مستمراً حتى اليوم .

ومنذ البداية ، كان هناك توافق بين مرحلة سقوط الأندلس ومرحلة الحروب الصليبية . وهذا التوافق لم يكن مصادفة ، فقد كان سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) انتصاراً لقتالية ، وانتصاراً لروما والمسيحية تماماً كما كان سقوط القدس بيد الصليبيين سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) عامل تشجيع لزيادة الدعم الأوروبي للملوك الشمال الأيبيري ، بغية تحقيق انتصار آخر على الأندلسيين توج بانتصارات لاحقة إلى أن سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) فدلت أجراس كنائس أوروبا اتجاهًا بهذه المناسبة وأقام بابا روما صلاة شكر خاصة بها لاسيما وأن الأندلس كانت الدولة الوحيدة التيتمكن المسيحيون من استعادتها من المسلمين بعد انتشار الإسلام فيها ، بل أنها كانت الدولة الأولى التي عادت إلى المسيحية قبل استعادة الجر من الأتراك سنة ١٦٩٩ (١١١) . ولم يكن انتزاع الأندلس من العرب حدثاً كبيراً الأهمية لو لا أن أوروبا حققت في الأندلس مالم تستطع تحقيقه في الشرق بعد سبع حлат صليبية ، وهذا دفع الأندلس ثمن صمود المشرق في جو من العصبية الدينية التي لم تتأجج في أوروبا بسبب وجود المسلمين على حدودها الغربية ، وإنما للأخطار التي كانت تشهدها من الجنوب الشرقي .

٩ - صعود البابوية وتطور النزاع الديني :

وراء الصراع الديني في القرن الحادى عشر أسباب تعود إلى القرن الرابع الميلادي ، بعد انشطار الإمبراطورية الرومانية إلى جناحين غربى وشرقى ، قوض الجerman غريته ونمث في القسم الشرقي إمبراطورية أخرى تغيرت مع الزمن تفكيراً ولغة وسياسة ، وهي الإمبراطورية البيزنطية المترکزة على القسطنطينية عاصمة دينها ودنياها ، وعش عدد من الأباطرة القديرين مثل جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) الذي فرض بعض ممالك القبائل الجرمانية مثل الوندال والقوط الشرقيين ، ووسط سيطرته على قسم لا يأس به من ممالك الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، وكان أهم شخصية في عالمه . ولكن الإمبراطورية البيزنطية لم تتمتع دائماً بشخصية مثل جوستينيان ، وباتهاء الإمبراطورية البيزنطية الوسطى حل عهد المسار سلطة بيزنطة وتقلص ممالكتها الواحدة تلو الأخرى على أيدي قوة شابة ناهضة هي "القرة العربية" ، ولم تفلح إمبراطورية هيراكليوس (هرقل) (٦١٠ - ٦٤١) في وقف الزحف وتعاقب الفتح على دمشق (٦٣٥) والقدس (٦٣٨) ومصر (٦٤٠) . وفي سنوات لاحقة سقطت مدينة الإسكندرية (٦٤٢) وأخفق البيزنطيون في تهديدها بالأسطول البحري الذي وجهوه إليها ، واستمر العرب في تقدمهم نحو الغرب إلى أن كان فتح الأندلس سنة ٧١١ (٩٢) . وفي الشرق كانت الصورة تتكرر ، وبعد القضاء على السلطة الفارسية اتجهت جيوش الفتح نحو الهند وسرقند وشواطئ البحر الأسود الغربية ، ووصلت

الجيوش العربية في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة (٧٥٠ - ٧١٥ / ٩٦) إلى أماكن لم تصلها من قبله ولابعده وأصبحت الخلافة أقوى سلطة في العالم بعد احتلال معظم المالك التي كانت تابعة لبيزنطية . أما العاصمة نفسها فكانت محور المجتمعات العربية اعتباراً من سنة ٦٧٤ (٥٥) إلا أنها بقيت صامدة ولم تسقط بأيدي المسلمين إلا بعد ٧٧٩ سنة ، انهارت بعدها بقايا الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، واعتبر ذلك التاريخ نهاية القرون الوسطى .

و ضمن مراحل تقلص نفوذ الإمبراطورية البيزنطية ، كانت الكنيسة المسيحية تخضع للتغيرات جذرية أدت إلى فصل الكنيسة الأرثوذكسية عن الكنيسة الرومية ، وعمقت ابتعاد مسيحي الشرق عن مسيحي الغرب المستمر إلى اليوم . هذا الخلاف بين الكاثوليكية (العامة أو الشاملة) والأرثوذكسية (قوم الرأي والاستباب على النظم القائمة) يرجع إلى بداية القرن الثالث الميلادي ، إلا أنه كان يعمق تدريجياً وتعمق معه الموة بين الكنيستين إلى أن جاء البابا غريغوريوس الأول « العظيم » (٦٤٠ - ٥٩٠) ، فكان مؤسس السلطة الدينية للبابوية في إيطاليا ، وابتعدت الكنيسة الرومية في عهده عن الحضارة البيزنطية لتقترب من القبائل الجermanية التي كانت تشكل القسم الأعظم من مسيحيتها بعد انتقالها للكاثوليكية ، وتحددت مناداة الكنيسة الرومية بالتفوق على الكنيسة الشرقية . ومضى البابا استفان الثاني (٢٥٢ - ٢٥٧) خطوة أخرى في طريق الابتعاد عن الكنيسة الشرقية عندما اختار إقامة علاقات مع الفرنكين ، ثم انتهج البابا ليو الثالث (٨١٦ - ٧٩٥) منحى استفان بتنصيب شارلماן الفرنكي إمبراطوراً حاماً لروما بعد ٤٩ سنة من انهيار سيطرة بيزنطية على إيطاليا . ولكن مانحسته بيزنطية أمام العرب في القرنين السابع والثامن كسبته في جولة أخرى في عهد الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٥٦) ، وتقامت في عهد نيقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) ويوحنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦) وباسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥) من استرداد جزيرة كريت (أقريطيش) من العرب (٩٦١ / ٣٥٠) واحتلال حلب (٩٦٢ / ٣٥١) وفرض وفطليون وسوريا ، كما أخضعت البلغار واتبع الكنيسة الرومية بطريرك القدسية . وفي السنوات الأخيرة من عهد هذه الأسرة بدأ النظام يضعف ثانية وتهافت تحت ضربات التورمان والبلغار والسلجوقيين وحقق الآخرون انتصاراً ساحقاً على بيزنطية سنة ١٠٧١ (٤٦٣) ، وسلخوا قسماً كبيراً من الجناح الأسيوي للإمبراطورية .

٤ - أrian الثاني :

أمام المجزرة التي لحقت ببيزنطية على أيدي السلاجقوين ، سعت الإمبراطورية إلى الاستجاجاد بالكنيسة الرومية لوقف تفكّرها ، واستعادة مانحسته بعد انتصار البازيلاني السلاجقى . غير أن ظروف تلك الفترة لم تكن تسمح بتقدّم مثل هذه المساعدة ؛ لأن العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية وصلت إلى حد القطيعة ، نتيجة تناقضهما واتهام الكنيسة للأخرى بأنها خالفت شعائر المسيحية ، وأعلن بطريرك القدسية ميخائيل سيريلوس انفصال الكنيسة الشرقية على البابوية سنة ١٠٥٤ (٤٤٦) . وكان من الممكن أن يستمر تناقض الكنيسة الغربية عمّا يجري في الشرق ، لو لا أن التطورات هناك لم

تقتصر على تهديد السلاجقين لبيزنطة . فالسلاجقويون ارتحلوا من مناطق تركستان في نهاية القرن العاشر الميلادي بحثاً عن أرض جديدة وعزم سريع ، وقدهم طغرل بك (١٠٣٧ - ١٦٣ / ٤٢٨ - ٤٥٥) لبناء ملك ماعرف باسم السلاجقة الكبير الذي بدأ معه ويتبعه سنة ١١٧٥ (٥٧٠) . وما بدأه طغرل بك استكمله الـ ارسلان (١٦٣ - ٤٦٤ / ١٠٧٢ - ٤٥٥) فانتزع من الفاطميين سوريا وفلسطين قبل أن ينزل المزينة ببيزنطة في معركة مانتزيرك (١٧١ / ٤٦٣) ، ويأس امبراطورها رومانوس ديوجينيس .

وفي ساعات ضعف الامبراطورية البيزنطية كانت الكنيسة الكاثوليكية تحقق الانتصار تلو الآخر وأصبح البابا الحاكم المطلق للكنيسة ، ونائب السيد المسيح في الأرض . وعظمت سلطة البابوية في عهد غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ / ٤٦٥ - ٤٧٨) ، فكان في مقدوره تحجيم الأساقفة والملوك « لأن الملوك يمثلون الله وبالتالي يمثلون الكنيسة » وانتهى العهد الذي اعتبر الملوك أنفسهم فيه ظل الله على الأرض . في لحظات قوة الكنيسة البابوية كان البابا غريغوريوس يحلم بال يوم الذي تتمكن فيه الكنيسة من بسط سيطرتها على الأماكن المقدسة في فلسطين وانقاد مسيحيي الشرق ، إلا أنه كان يفكر أيضاً باعادة وحدة الكنيسة وهو موضوع سهل التحدث عنه وصعب تففيه . فلا الكنيسة الغربية كانت قادرة على الاعتراف بتفوق الكنيسة الشرقية ، ولا الكنيسة الشرقية كانت تتقبل فكرة اتحاد البراءة الجرماني مع البابوية وهكذا ضاع الخلاف الأساسي بين الكنيستين في متأهات الاحتجاج على استخدام الإيقونات أو حلقة الذقن أو الصوم يوم السبت . غريغوريوس لم يحقق حلمه ولم يخف لنجدته المسيحيين الشرقيين ، كما أن السلاجقويين لم ينسحبوا من الأقاليم الأسيوية لبيزنطة ، بل أعلنوا قيام ماعرف باسم مملكة السلاجقويين الروم . وأمام هذا التطور بعث الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومينوس الأول (١٠٨١ - ١١٨ / ٤٧٤ - ٥١٢) إلى البابا أربان (أريانوس) الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩ / ٤٩٢ - ٤٨١) يشكوا إليه مراة سقوط القدس وانطاكية بأيدي المسلمين ، وعجزه عن الوقوف أمام زحف هذه القبائل الشرقية بسبب انشغاله بالدفاع عن امبراطوريته لوقف تقدم قبائل البارزاكـس من الشمال والتورمان من الغرب .

تبني أربان طلب اليكسوس الأول وسعى إلى تحقيقه لعدة أهداف : أولها أن أربان ورث البابوية بعد فترة حرجية من الصراع بين الكنيسة والملكية بدأت مع غريغوريوس السابع حين أصر على ثبات سلطة الكنيسة المطلقة على شخصية قوية مثل الملك الأثالي هنريش (هنري) الرابع . وانتهت فترة التحدى هذه بانتصار الملك فدخل روما عاصمة البابوية ، ونصب نفسه امبراطوراً رومانيا مقدساً على أيدي البابا المضاد كلمنس الثالث ، وظل غريغوريوس حبيس قلعة سان جيليو المطلة على نهر التiber إلى أن هب التورمان لنجدته ، مما اضطر الألان لترك المدينة فسقطت فريسة نهب التورمان ، ثم ارتحل البابا إلى المملكة التورمانية في القسم الجنوبي من إيطاليا ، ومات بعد سنة من هذه الأحداث أى في ١٠٨٥ (٤٧٨) . وجاء أربان الثاني متراجعاً مبدأ المصالحة فتمكن بذلك من الحفاظ على سلطة الكنيسة البابوية وضمن استمرار الاصلاحات التي أدخلها غريغوريوس . هذه الأحداث جعلت من فكرة النهوض للدفاع عن المسيحيين الشرقيين عملاً مرغوباً لأنه سيصنبه جهود المسيحيين الغربيين في بوقة النضال

سوياً ضد عدو مشترك . والهدف الثاني يرجع إلى اختلاف جذري بين مaineride البابا ومايريده امبراطور بيزنطة لأن اليكسوس كان يريد ، بلا شك ، معونة المسيحيين الغربيين لاستعادة أملاكه الضائعة ، والعودة من حيث أتوا مع شركه الجزيل ، ولكن شخصاً مثل أربان الثاني كان يريد هدفاً يشد انتظار كل مسيحي الكنيسة الكاثوليكية ، وكل مادون السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين سيكون دافعاً ضعيفاً . هدف آخر هو توافق تأجيج الحماس الديني المسيحي مع ارتفاع كبير في عدد الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وعودة البعض ليروى بعض المضايقات التي يسبها السلاجوقيون ، ولذا فإن القيام بحملة تفتح الطريق أمام الحجاج كان مطلباً مهماً في ذلك الوقت . وهناك سبب آخر يعود إلى قرون سابقة عندما بُرِزَ العرب كأهم قوة في العالم وانتزعوا السلطة من الغرب للمرة الأولى . ورغم سقوط الخلافة الأنوية (٦٦١ - ٧٥٠ / ٤٧٢ - ١٣٢) وأضمحلال سلطة الخلافة العباسية بعد سنة ٩٤٠ (٣٢٨) ، إلا أن المالك التي قامت على انقاض الخلافة العباسية كانت قوية ، كما أن الخطر الذي اقترب من أبواب القدس طلبية جاء من القبائل الأنوية التي اعتنقوا الإسلام . ولذا فإن القسم الأعظم من تاريخ بيزنطة المسيحية تغير بالصراع مع القوى الإسلامية وأجرت الأحداث الكنيسة الشرقية على الاعتراف بقدرة الكنيسة الغربية واقتربت فرصة ثبات هذه القدرة .

وحين ألقى أربان الثاني خطبه الشهيرة أمام الجمع الكنسي ، الذي عقد في موئل كثير سنة ١٠٩٥ (٤٨٨) كان يعلن بذلك عن دخول العالم مرحلة صراع لم يعرفه من قبل . كان مسيحيًا يعلن الحرب على الإسلام ، وكان أيضاً فرنسيًا يخاطب الفرنسيين بصورة خاصة لأن الفرنسيين كانوا الأقرب إلى الأندلس ، وبقيت مشاركتهم لمالك الشمال الأندلسي أهم من مشاركة أيّة دولة أخرى ، فكانت في تلك المرحلة الخامسة من تاريخ العالم روح المسيحية ، والسيف الذي تضرب به في الغرب وقوتها في الشرق . في السنة التالية توجه متخصصون إلى الشرق بقيادة الراهب بطرس الإيماني (نسبة إلى إيمان في فرنسا) ولكن هؤلاء انهاروا أمام ضربات البلغار (البلغار) والسلجوقيين وفقدت آثارهم . في هذه الفترة كان المتقطعون الفرنسيون من منطقة النورماندي واللواريين الشمالية ، ومتقطعون آخرون من منطقة بروفانس الفرنسية الجنوبية بقيادة ريمون التولوزي (نسبة إلى تولوز - طلوزة) ، يتوجهون في ثلاثة جيوش منفصلة نحو القدس طلبية ، والنضم إليهم التورمان من مملكتهم في القسم الجنوبي من إيطاليا الذي انتزعوه من بيزنطة سنة ١٠٥٩ (٤٥١) ، وكان المعيوث البابوي في هذه الحملة أسقف مدينة بوى الفرنسية . وغُنِّكت هذه الجيوش من هرمة الروم السلاجوقيين واستعادة انطاكيه ودخول القدس سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) بعد حصار استمر زهاء الأسابيع الخمسة ، وأُسسَت في المناطق المختلة ولايات مستقلة على القطب الذي كان معروفاً في فرنسا ، وحققت هذه الحملة مالم تتحققه أيّة حملة أخرى بعد ذلك .

مات أربان الثاني في السنة التي احتلت فيها القدس محققاً الهدف الذي كان محور ندائـه إلى المالك المسيحية اللاتينية ذات الأصل الجرماني الريوري . ولم يغفل هذا البابا الفرنسي التأكيد على تقديم الدعم لنصارى الشمال الأندلسي في صراعهم مع العرب ، غير أن موازنة مطالب الحملة الصليبية في المشرق والحملة الصليبية في المغرب لم تكن حاسمة بعد ، أو أنها لم تكن على خطورة التهديد بسقوط القدس طلبية .

والمعروف أن فرسان فرنسا والمانيا وایطاليا وغيرها ساهموا إلى حد ما في سقوط طليطلة على يدى الفونصو السادس قبل ١٤ سنة من سقوط القدس ، وبقيت هذه المدينة الحصينة بأيدى الشماليين رغم هزيمتهم في معركة الراقة (٤٧٩ / ١٠٨٦) بعد دخول المرابطين لقتال الشماليين مع الأندلسين ، وضرب الحصار على طليطلة دون التمكن من استعادتها . وسقوط طليطلة كان حافزاً كبيراً لاتحاق جماعات أوروبية كثيرة بالشمال الأندلسي ، وقد لعب هؤلاء ، وأسماها الفرنسيون منهم ، دوراً حاسماً في عمليات التوغل جنوب نهر تاجة اعتباراً من سنة ١٠٧٨ (٤٧٠) ، كما تجمعت لدى الشماليين قوات كثيرة وفدت من مناطق الميدى والبرغندى والنورماندى الفرنسية لقتال المسلمين ، بعثاً عن فوائد دنيوية وأخرى للأخرة . وتعاظمت هذه المشاركة الأوروبية في الصراع إلى جانب الشماليين ضد الأندلسين بعد دخول المرابطين إلى الأندلس ، فكان ملوك الشمال يخونون الأوروبيين على تقديم المساعدة لهم لموازنة المساعدة التي يقدمها المرابطون إلى الأندلسين . وبالرغم من قيام عهد المرابطين في الأندلس (١٠٩١ - ١١٢٦ / ٤٨٤ - ٥٢٠) إلا أن هذا الوجود لم يستطع منع سقوط بنسية على يدى السيد القنسطنطيني بعد ستين من بداية هذا العهد الجديد الذى قام على انقضاض الطوائف، فبقيت خارجة عن سلطة المسلمين حوالي ثمانى سنوات ، قبل استعادتها سنة ١١٠٢ (٤٩٥) . السنوات التالية كانت سنوات جزر بالنسبة للشماليين إذ هزمو في موقعة كنشرة (١٠٩٧ / ٤٩١) وفي معركة أقليش ، أو أقليع ، سنة ١١٠٨ (٥١) ، ولكن رد الشماليين جاء في اسقاط سرقسطة عاصمة التغر الأعلى سنة ١١١٨ (٥١٢) . كان للمساعدة التي قدمها الفرنسيون إلى ملك أرغون أهمية كبيرة في سقوط هذه المدينة الرئيسية ، واتبع هنا الانتصار الشمالي بانتصار آخر تحقق بعد ستين أثر هزيمة أى اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين في موقعة قتندة . أما فترة السنوات القليلة اللاحقة فقد عايشت تغيرات جذرية سواء في الأندلس أو خارجها فقامت دولة الموحدين على انقضاض المرابطين وبدأ عهدها في الأندلس (١١٤٥ - ١٢٢٣ / ٥٤٠ - ٦٢٠) في الوقت الذى ارتفعت فيه اصوات البابوية للإعداد للحملة الصليبية الثانية .

٣ - أوصان الثالث :

السبب الظاهر للحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ - ٥٤٢ - ٥٤٤) هو تمكّن عماد الدين زنكي أمير الموصل من استعادة أوديسة ، ولكن السبب الحقيقي هو الضعف العام الذي نزل بالملك الصليبي الذي قامت في الأرضي المحتلة ، واستمرار الخلافات بين النورمان والبيزنطيين لأن النورمان ، بعد اقطاع ايطاليا من بيزنطة ، كانوا يخوضون حرباً انتقامية ولذا فإن رأيهم كان في الأضرار على أن «تحرير» الأرضي المقدسة لا يهم الا من القسطنطينية . هذه الحملة لم تحرز الكثير الا أنها تميزت بمشاركة الفلانديين والإنجليز ، وكان هؤلاء الفضل في التوقف عند مدينة بورتو (البرتقال) واحتلالها وتقديمها إلى البرتغاليين ، ثم ساهم هؤلاء في احتلال لشبونة سنة ١١٤٧ (٥٤٢) وقدموها هدية إلى الملك البرتغالي الفونصو اريكيث . وفي الوقت نفسه نشط النورمان من قواطعهم في جنوب ايطاليا وصقلية لهاجة المدن الواقعة على الساحل المغربي المقابل ، وأمتد الصراع بين القوات الصليبية والمسلمين إلى مناطق جديدة فكان لهذه القوات فضل كبير في سنوات لاحقة على مالك الشمال الأندلسي ، إذ شاركت إلى

جانبها في قتال الأندلسيين ، كما أسهمت أيضاً في احتلال القلعة الحصينة المعروفة باسم قصر إلى دانس سنة ١١٦٠ (٥٥٥) .

وفي سنة ١١٨٧ (٥٨٣) تعرضت الحملة الصليبية في المشرق إلى ضربة عنيفة عندما استعاد صلاح الدين الأيوبي القدس أثر معركة حطين فتiadت الممالك الأوروپية إلى اعداد حملة كبيرة يشترك فيها الجميع بقيادة الاميراطور الألماني فريديريك الأول « بيروسا ». ولكن هذا الاميراطور غرق في ثاني سنة من الحملة التي استمرت بين ١١٨٩ و ١١٩٢ (٥٨٥ - ٥٨٨) ومات ابنه في عكا بعد سنة واحدة من غرق والده . وكان لانهيار الحملة أثر كبير في إبرام هدنة بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين ، احتفظ الصليبيون بموجهاً بيافا وصور وسمح للحجاج المسيحيين بدخول القدس . في المغرب سعى البابا سيلستين الثالث إلى التوصل لمدينة بين ممالك قشتالة ولنون وارغون ، والأعداد لحملة كبيرة على الأندلسيين ، ولكن هذه الحملة انتهت إلى هزيمة كبيرة في معركة الراقة (١١٩٥ / ٥٩١) على أيدي المرحدين ففردت حالة الشماليين في مرحلة من هبوط عزيمة الصليبيين في المشرق . ونظمت حملة صليبية أخرى بعد سنتين من الراقة بقيادة الاميراطور هنري الرابع بهدف القضاء على الاميراطورية البيزنطية ، التي شعر النورمان ومؤيدهم بأنها ليست راغبة في تقديم المساعدة الكافية لاحتلال المشرق ، غير أن الهدف لم يتحقق إذ مات الاميراطور فجأة واقتصرت الحملة على النزول قرب انطاكية . وفي السنة التالية بدأ عهد البابا انوصان (انوصانتس) الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ / ٥٩٤ - ٦١٣) .

دخلت البابوية في عهد انوصان الثالث مرحلة سيطرة وقوه لم تعرف من قبل ، تميزت بعمق الشعور الدينى في او رو بية ، وارتفاع شأن البابا الذى اعتبر نفسه خليفة للقديس بطرس ونائباً للسيد المسيح ، وكان يمارس سلطته عن طريق المؤذن البابويين معتبراً الملوك مجرد حكام اقطعهم البابا مالكهم الذى يحكمونها ، فكانت إنجلترا والبرتغال وصقلية مجرد توابع اقطاعية ، وامتدت يد البابا لتتدخل في الشؤون الداخلية لlanانيا وفرنسا والذرك ، وما أدى جاءت سنة ١٢٠٤ (٦٠٠) حتى استبدلت الكنيسة الشرقية بكنيسة لاتينية .

استمرت الحملة الصليبية الرابعة ثلاثة سنوات . وهي وإن بدأت - كسابقاتها - بدعة من البابا ، إلا أن هدفها اختلف هذه المرة ، إذ ساد الاعتقاد بأن الهجوم على مصر سيفتح الطريق إلى فلسطين ، باعتبار أن مصر ذلك الوقت كانت أهم البلدان الإسلامية وأقواها . ولتحقيق هذه الغاية كان على القوات الصليبية الحصول على دعم البندقية لتقديم السفن اللازمة لنقل القوات . ولكن البندقية - التي بنت امبراطوريتها التجارية على التجارب بين الشرق والغرب ، واعفتها الاميراطورية البيزنطية من الضرائب بسبب امتلاعها عن تأييد النورمان الذين سلخوا جنوب ايطاليا من الاميراطورية - كانت هذه المرة تتذكر بقلق إلى قارب بيزنطة مع منافسة البندقية تجاريًا وهي بيزا . وبدلًا من حمل الصليبيين إلى مصر أو الأرضي المقدسة حملتهم إلى بيزنطة . العاصمة الاميراطورية التي استعانت على الفاتحين العرب ثم الأتراك ، والقبائل الشمالية فيما بعد سقطت سنة ١٢٠٣ (٥٩٩) بآيدي الصليبيين ، ثم دخل الصليبيون

العاصمة في السنة التالية فنبوا كل نفيس فيها ، واستكملوا عملهم باقامة الممالك اللاتينية وتأسيس الكنيسة اللاتينية . وتقوض هذا الاعداد الديني الاجباري فور قيامه ، غير أن الممالك اللاتينية استمرت فترة وتقوضت هي الأخرى مفسحة المجال لقيام بيزنطة مرة أخرى ، حتى كان القضاء النهائي عليها سنة ١٤٥٣ (٨٥٧) على أيدي العثمانيين .

قدمت الحملة الرابعة الدليل على أن العدو ليس من الضروري أن يكون مسلما ، طالما أن معاداته تخدم المصالح التجارية والدينية لهذه الجهة أو تلك . وقد تصدى الأлан خواص البابوية فرض هيمنتها عليهم ولكن انتصار فرنسا للكنيسة أوصل الاحتياج الآلي إلى نقطة الصفر مرة أخرى ، وعادت البابوية لتحتل مكان الصدارة بوجود شخصية مختلفة مثل أنوصان الثالث . وبعد تنظيم الحملة الصليبية الرابعة سرت حملة صليبية أخرى سنة ١٢١٢ (٦٠٩) ، عرفت باسم حملة « الصبيان » ، ونقل هؤلاء من مرسيليا إلى الإسكندرية على متن سفن البندقية ، ولكنهم انتهوا إلى البيع عبيدا هناك . ومقابل هذا الانخفاق الذريع ، كانت البابوية تعد العدة لانزال ضربة عنيفة بالأندلسين حدثت في السنة ذاتها ، وجاءت نتيجة تطورات متلاحقة أعقبت موقعة الأرك .

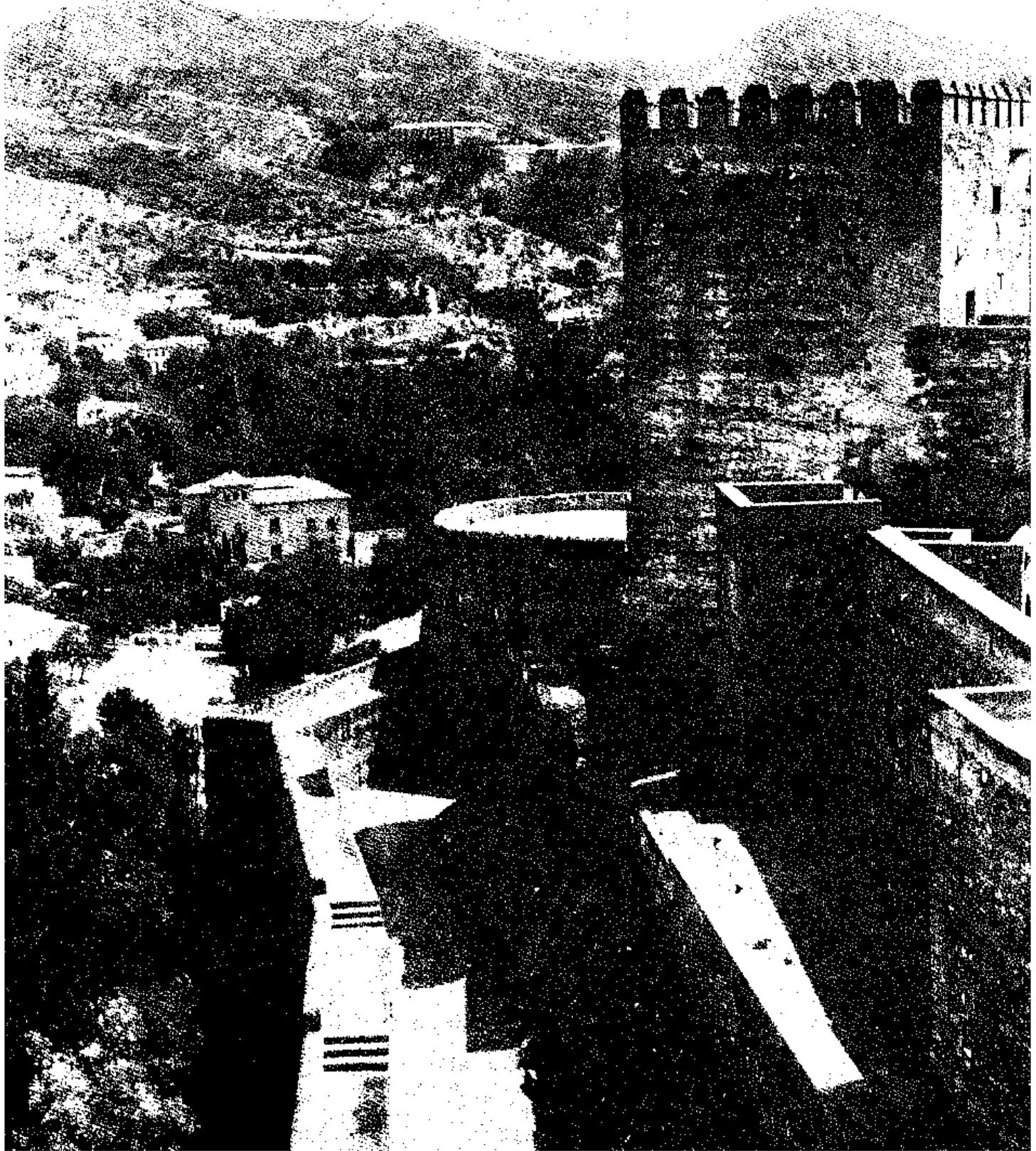
أعلنت المدنة بين الأندلسين والشماليين سنة ١١٩٨ (٥٩٤) لفترة عشر سنوات ، شرع الفونصو الثامن بعدها بهاجمة المناطق الأندلسية ، مما اضطر الخليفة الموحدى محمد الناصر لدین الله عبور العدوة سنة ١٢١١ (٦٠٧) والاغارة على بعض المراكز القشتالية الواقعة إلى الشمال من مدينة جيان . وعبور الخليفة الشاب أثار الشماليين فراحوا يطلبون العون من الفرنسيين وغيرهم من أهل أوروبا ، ثم تحول طلب العون إلى مناشدة للتدخل السريع ، بعد أن احتل الموحدون قلعة شلبطرة (سلبييرا) ، وحورت الكلمة لكي تعنى أن المطلوب من المسيحية إنقاذ الأرض . وكان من الطبيعي أن يزيد البابا أنوصان الثالث مساعيه لدى ملوك المسيحية لنجدته الشماليين ، ووقف الاقتتال والتناقض بين ممالك قشتالة وارغون ونافار ؛ استعدادا للحرب في الجنوب . وهكذا أصدر البابا أمره إلى رودريغيث خيمينيث دورادا رئيس أساقفة طليطلة لصرف الأموال على الجهاد ، لقتال المسلمين وضمان وحدة كلمة الشماليين . وانطلقت جيوش جرارة برفقة جيش فرنسي في العشرين من حزيران سنة ١٢١٢ ، وتمكنـت من الحاق الهزيمة بالموحدين في معركة العقاب يوم السادس عشر من تموز ، المواقف ليوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ . ويعتذر الخليفة الناصر عن هذه الهزيمة فيقول إن الفونصو الثامن « بـث القسيسين والرهبان من برتمال إلى القسطنطينية العظمى ، ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غوثاً ورغماً ورحماً رحـمـي ، فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق ، واقبلوا عليه أقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار ، وكان أوطـمـ سـقاـ الأفـرـنجـ المتـوـغلـونـ فيـ الشـرقـ وـالـشـمـالـ ،ـ ثمـ تـابـعـهـمـ البرـجـلـونـ بـماـ عـنـهـ منـ العـدـدـ وـالـرـجـالـ .ـ وكانـ صـاحـبـ نـيـةـ مـتـعـلـقاـ مـنـ الـمـوـحـدـينـ بـذـمـامـ ،ـ وـمـنـقـادـاـ إـلـيـهـ اـبـداـ فـيـ اـسـمـ زـمـامـ ،ـ فـسـخـطـ عـلـيـهـ صـاحـبـ رـوـمـةـ اـنـ لمـ يـكـنـ لـقـوـمـهـ مـعـسـكـراـ وـلـسـوـادـ أـهـلـ مـلـهـ مـكـثـاـ ،ـ فـلـحـقـ بـتـلـكـ الـجـمـوعـ »^(١) .

(١) « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، القسم الثالث ، تطوان ١٩٦٠ ، ص ٤٤١ .

عاد الخليفة الناصر إلى مراكش بعد المزيمة فتوفى غما في السنة التالية ، ولكن بداية سقوط الأندلس ظلت حية بعد هزيمة العقاب التي ابعت باحتلال بيسة وابدة ، والانتشار لتطويق الأندلس التي أصبحت في حكم المنطقة المفتوحة تقدم الشمالين نحو المدن الرئيسية فيها . وبعد ٢٤ سنة من معركة العقاب سقطت قرطبة ثم سقطت بلنسية بعد سنتين من ذلك ، وسقطت أشبيلية سنة ١٢٤٨ (٦٤٦) ومرسية سنة ١٢٦٦ (٦٦٤) . وطوال هذه الفترة من الفتوحات الكثيرة ، لعبت الكنيسة دوراً مهماً في إذكاء المشاعر الدينية والدعوة للتخلص شبه الجزيرة الأيبيرية من الأندلسيين المسلمين ، كما حدث بالنسبة لبلنسية التي سقطت بعد خمس سنوات من الحصار ، وجاء الانتصار الكبير هنا توجهاً لجهود البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ / ٦٢٤ - ٦٣٨) ، الذي أعطى الحصار صفة الحملة الصليبية ، وشجع المتطوعين الفرنسيين للمشاركة في القتال بقيادة مطران نزيونة (آريونة) والأسطول البحري للكل من جنوة وبيزا . وكما قدم الفرنسيون الدعم الأكبر لمملكة أرغون في قتالها ضد الأندلسيين ، فإن الفرنسيين والإيطاليين والأندلسيين والهولنديين والإنجليز ساهموا إلى جانب قوات قشتالة في الحرب ضد إندلسي قرطبة وأشبيلية وغيرها . وكان أول من صعد درجات المؤذنة الشهيرة في أشبيلية فارس من إسكتلندا ، كما ذاع صيت مقاتلين أوروبيين إلى جانب قشتالة مثل الفارس الأسود الانجليزي وغيره من الفرسان ، الذين شاركوا في حملات صليبية سابقة نقل عنها الشماليون فنون بناء القلاع ، ودخلوا الفرق الدينية للقتال إلى جانب الجيوش كما حدث في المشرق . وسواء عن وعي أو غير وعي ، كانت الحملة الصليبية الغربية تتحقق انتصارات هائلة على العكس من الحملات الشرقية . ولذا لم يكن غريباً أن يُسبغ على فرناندو الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢ / ٦٠٥ - ٦٤١) لقب القديس حتى قبل أن يصدر عن البابوية اعتراف بذلك ، لأن هذا الملك القشتالي استطاع خلال عهده أن يعيد للمسيحية بعض أهم مدن ذلك العصر ، ويسقط السيطرة على مناطق إسلامية في أوروبا خلال فترة لم تتحقق فيها الحملات الصليبية الخامسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ / ٦٢٥ - ٦٢٦) وال السادسة (١٢٤٨ - ١٢٥٤ / ٦٤٦ - ٦٥٢) نصراً دائمًا ، بل إن الحملة الأخيرة انتهت إلى أسر قائد الحملة الفرنسي لويس التاسع في مصر ، واستفاداته يمتد إلى ما بعد .

٤ - الكنيسة وسقوط غرناطة :

حاول لويس التاسع احتلال تونس سنة ١٢٧٠ (٦٦٨) ولكنه أصيب بالطاعون وجيشه ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية السابعة وتوقف المدد عن الصليبيين في المشرق . وما إن جاءت سنة ١٢٩١ (٦٩٠) حتى استعاد المماليك عكا ، وتخلىت القوات الصليبية عن بيروت وصيدا وصور . ولكن الملك الصليبي استمرت في قبرص حتى سنة ١٤٨٩ (٨٩٤) ، وفي جزيرة رودس حتى سنة ١٥٢٣ (٩٢٩) عندما أخرجهم الأتراك منها فارتحلوا إلى مالطة . وبانتهاء القرن الثالث عشر الميلادي أُسدل الستار على الحملات الدينية المشرقة دون التمكن من الاحتفاظ بموطئ قدم واحدة . أما في الغرب فقد تحكمت الملك الشمالية في الأندلس من قصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي من الأندلس ، وانضمت مملكة غرناطة للجزية ، ولم يعد هناك مسوغ لوجود تلك الجيوش المحرارة ، وضعف الاهتمام بالفرق التي لعبت دوراً مهماً في الحروب السابقة ضد الأندلسيين ، وتفرغت الملك الشمالية للقتال فيما بينها ، وهزل شأن الملوك وقد نازعهم النبلاء على السلطة .



جانب من أسوار قصبة الحمراء

استمر هذا الوضع حتى اعتلت الملكة ايزابيلا (ازابل) عرش قشتالة سنة ١٤٧٤ (٨٧٩)، فسعت إلى تثبيت حكمها عن طريق توجيه جهود الدولة ضد المملكة الإسلامية الجنوبيّة ، وكان في زواجها من فرناندو (فراند) الخامس اتحاداً شخصياً بين قشتالة وملكة أرغون، التي ورثها الزوج بعد خمس سنوات من وراثة زوجته لعرش قشتالة . وباتحاد أقوى ملكتين في شبه جزيرة إيبيرية ، أصبح من العسير على مملكة غرناطة الاستمرار كوجود مسلم في وسط مسيحي لا يعرف إلا الحرب سبيلاً إلى توحيد الكلمة والفراء .

في المشرق أيضاً كانت التطورات تتجه نحو تجدد تأجيج المشاعر الدينية نتيجة انتصارات العثمانيين في أوروبا فإذا استولى السلطان محمد الثاني على القدسية سنة ١٤٥٣ (٨٥٧) واتبعها باخضاع ١٢ مملكة و٢٠ مدينة في أوروبا . كل هذا حدث في أعقاب انتهاء سلطة البابوية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وانتقال الكرسي البابوي إلى الفينون في فرنسا حتى قبل البابا غريغوريوس العاشر العودة إلى روما سنة ١٣٧٧ (٧٧٩) ، واتخاذ الفاتيكان حاضرة له . ولكن هذا لم يعد للبابوية هيئتها ، فخضعت الكنيسة لوجة علمنة وسادت المروقة والأنقسام ، حتى تعاقب على الفاتيكان الباباوات المعروفين باسم باباوات عصر النهضة ، وانهلك هؤلاء في جمع الكتب أو تشجيع الفنون والأداب والعمارة مثل البابا سيكستوس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤ / ٨٧٦ - ٨٨٩) ، رغم أن هذا لم ينقد الكنيسة من التقوض الذي كانت تسير نحوه .

وعندما تلقى البابا سيكستوس الرابع من الملكة ايزابيلا رسالتها التي تعرض فيها خطبة لانهاء مملكة غرناطة، أبدى حماساً شديداً لعل ذلك يرفع من شأن البابوية ، وأصدر إرادة بابوية خاصة بشن حملة صليبية (كروثادا) ضد الغرناطيين في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٤٧٩ (٨٨٤) . وتضمنت هذه الإرادة السماح لايزيابيلا وزوجها فرناندو بتحصيل ضريبة الجهاد ضد المسلمين لتأمين المال اللازم للقتال رغم أن ايزابيلا حصلت على مبالغ طائلة من الدائنين اليهود والإيطاليين ؛ تمويل الحرب التي اندلعت ضد غرناطة بعد ستين من اصدار الإرادة التي جددت في السنة ذاتها . وبعد وفاة سيكستوس جاء انوصان الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢ / ٨٨٩ - ٨٩٧) فاستكمل ما بدأه سلفه باحياء الإرادة البابوية الخاصة بالحملة على غرناطة سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) . وجددت الإرادة سنتي ١٤٨٧ و ١٤٨٩ أملأ فيتمكن ايزابيلا من القضاء على غرناطة ، ولكن الحرب طالت أكثر من الموعق؛ فأصدر البابا انوصان في الأول من تشرين الأول سنة ١٤٩١ (٨٩٦) تجديداً للإرادة السابقة مدة سنة تالية وأخيرة . ولم تمض ثلاثة أشهر حتى كان جيش ايزابيلا وفرناندو قد دخل غرناطة بعد استسلامها . وكتب فرناندو إلى البابا يبشره بسقوط غرناطة وانهاء آخر وجود إسلامي سياسي في شبه جزيرة إيبيرية يقول : « ولذلك المطبع الخالص ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة .. يقبل قدميك ويديك الطاهرين حالصتي الطهارة .. يبشرك بأن ربنا انعم علينا بنصر مبين على أندلسني غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر وتم

في هذا اليوم الثاني من كانون الثاني سنة اثنين وتسعين (واربعمائة والف) استسلام مدينة غرناطة مع الحمراء وكل القوات مع كل القلاع والمحصون .. »^(١).

والدعم الذي قدمته الكنيسة لإنهاء الوجود الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا استمر في مراحل لاحقة بعد نقل الحرب إلى الشمال الأفريقي ، وبقيت الضريبة المعروفة باسم ضريبة الجهاد (الكروثادا) مفروضة حتى باتت في القرن السادس عشر المصدر الثاني لدخل الدولة . وكما أن الكنيسة حاولت في القرن الثالث عشر التوفيق بين متطلبات انجاح الحملة الصليبية في المشرق مع الحروب الصليبية في المغرب ، فإن الكنيسة في القرن السادس عشر حاولت أيضاً التوفيق بين احتياجات أسبانيا لنقل الحرب إلى المعاقل الإسلامية في الشمال الأفريقي ، وبين احتياجات التصدى لتعاظم قوة العثمانيين . وقد لعبت الكنيسة دوراً مهماً في إنهاء الوجود الإسلامي السياسي في شبه جزيرة إيبيريا ولكنها سلّعت الآن دورها لفرض النصرانية على الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في أراضيهم بعد سقوط غرناطة ، وعرفوا فيما بعد باسم المواركة (المورسكيين) . أما الطريقة التي وظفت لتحقيق هذا التنصير فكانت في استخدام أساليب تعذيب طورها الجهاز المعروف باسم محكم التفتيش . (انظر الفصل الخامس) .

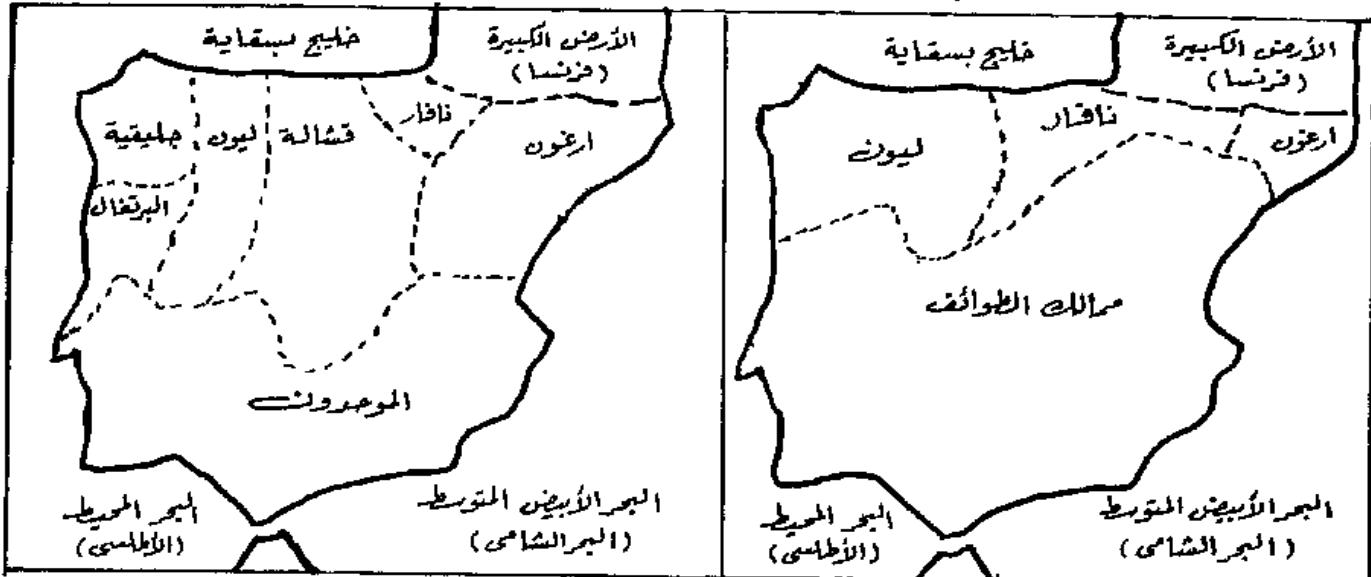
٤ - العوامل الداخلية في سقوط الأندلس

أ - الأسباب الاقتصادية

وراء نهوض المالك الشمالي في الأندلس عدة أسباب تطورت مع الزمن استجابة لمتطلبات اقتصادية وسكانية متعددة ، إلى جانب الأسباب الدينية والسياسية التي أشير إليها في مكان آخر . وبين القرنين الثامن والعاشر سجل عدد سكان المالك المسيحية في الشمال ارتفاعاً كبيراً ، سبب بعده تدفق المهاجرين الأوروبيين ، وزراعة أعداد من النصارى المستعربين الذين كانوا يقيمون في الجنوب ثم انسحبوا إلى الشمال لسبب أو لآخر . في البداية كان التحرك الشمالي نحو الجنوب استجابة للحاجة إلى مزيد من الأراضي لاستيعاب العدد المتزايد من السكان ، ولكنه أصبح مع الزمن سياسة مرسومة يسارع ملوك الشمال إلى تطبيقها كلما ساحت الفرصة وضعفت مقاومة الأندلسيين ، ولاسيما في أوقات إندلاع القلاقل الداخلية أو الحروب الأهلية . وفي الحالات التي تمكّن فيها ملوك الشمال من تحقيق مكاسب إضافية ، كانت هناك موجة استيطان جديدة لعب المستفيدين منها دوراً مهماً في إبقاء هذه الأرضي تحت سيطرة الشماليين . وخلال سنة ٩١١ (٢٩٨) بسط ملوك أشتوتش سلطانهم على خمس إبريرية ، فحققوا مطالب السكان الذين كانوا يتظرون إلى الملوك في تلك الحقبة من الزمن على أنهم مفتاح النساء ، لأن الحروب كانت المصدر الرئيسي للحصول على الغنائم والعيادة والأراضي . إلا أن هذا لا يستثنى ، بالطبع ، وجود عوامل أخرى ساهمت في الاندفاع نحو الجنوب مثل الجفاف أو المجاعة ، أو السعي لتحقيق النصارى آخر أو لفت الأنظار عن قلاقل داخلية وغيرها من الأسباب التي كمنت دائعاً خلف نشوب الحروب في العالم .

(١) Gaziambide, José Goni, The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada (1479-1492).

مراحل انحسار السلطة العربية في الأندلس

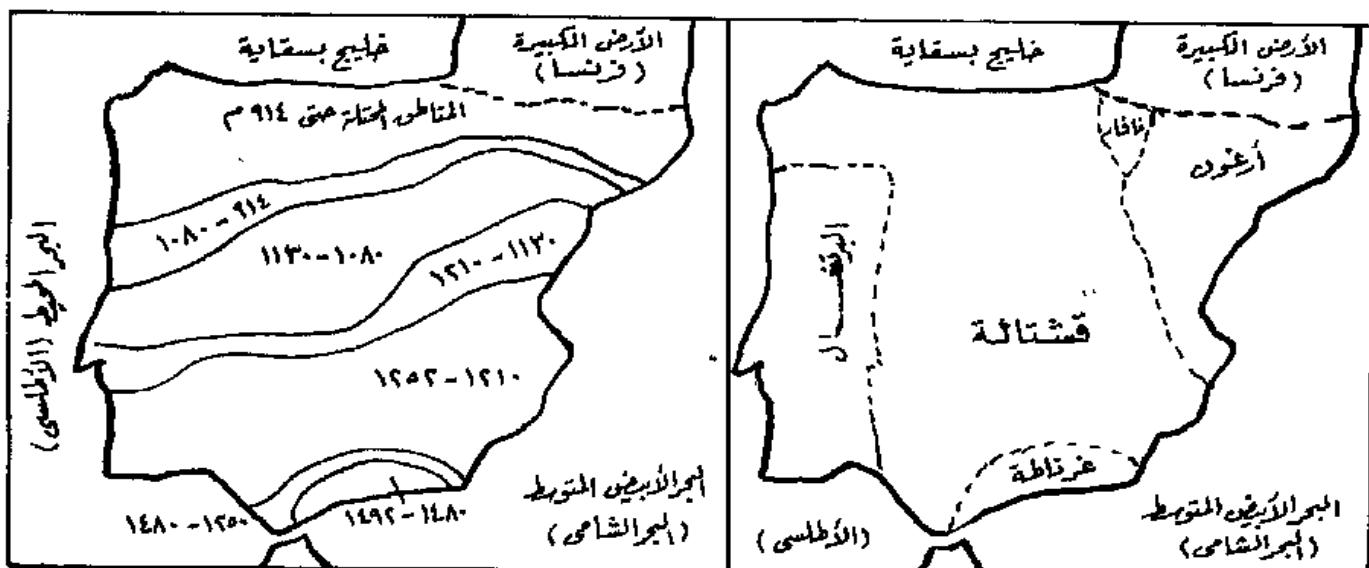


الوضع السياسي في شبه جزيرة ايبيرية كاملاً سنة
١١٥٧ (٥٥١)

الوضع السياسي في شبه جزيرة ايبيرية كما كانت
في هرالد سنة ١٠٤١ (٤٩٩)

تطور التقسيم الشمالي بأتجاه الجنوب

الوضع حالي سنة ١٩٥٢ (٦٥٠)



والمناطق التي ضمت الممالك الشمالية كانت عموماً مناطق جبلية وعمر قليلة السهول ، تجنبها معظم الغزاة الذين دخلوا إبيرة منذ أقدم العصور ، ولذا فإن تقدم الشماليين باتجاه نهر دويرة كان يوفر السهول والأراضي الخصبة ، بالإضافة إلى تقويض الحرب من تجمعات الأندلسين في وديان النهر الكبير . ولكن كل ما تمكنت الممالك الشمالية من تحقيقه قبل سقوط الخلافة القرطبية بقي عرضة للضياع في أية لحظة ، والعمليات العسكرية التأدية التي قام بها المنصور أظهرت ضعف الشمال وافتتاح ممالكه لتقدير جنود قرطبة ، فقد الشماليون الأمل في الصمود أمام الأندلسين ، وأستعطف الملوك المنصور وحكموه في خلافاتهم ومصيرهم . وبعد انهيار الخلافة وقيام ممالك الطوائف ، بات الطريق مفتوحاً للتقدير نحو الجنوب فكان احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) ثم موقعة العقاب بعد ١٢٧ سنة من ذلك ، وسقوط قرطبة واشبيلية في سنوات لاحقة إلى أن استسلمت غرناطة آخر القرن الخامس عشر ، وتقوضت بذلك آخر الممالك الإسلامية في إبيرة . وتحت وطأة احتلال الأندلس ، قسماً بعد قسم ، كانت دعائم الحضارة العربية تتقوض وانهارت البنى الاقتصادية واحدة تلو الأخرى ، فاستعراض عنها ملوك الشمال بنظام بدائي اعتمد على الماشية والتجار بالصوف من ناحية ، وعلى المذهب والاستغلال المعاشرين من الناحية الأخرى ، فكان ذلك نهجاً اتفقاً الشمال ممارسته في الأراضي الأندلسية المحتلة ، ثم في العالم الجديد اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر .

١ - معلم الاقتصاد الأندلسي .

استباب الوضع السياسي في الأندلس إبان عهد الإمارة ، كان بمثابة الضوء الأخضر الذي أعطى إشارة بدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي . والقوى التي كانت مهتمة في النزاعات السياسية كُبُرت ، بعد أن أغلق عبد الرحمن الداخل باب السلطة دون الفئات المتنازعة والشخصيات الطموحة ، وتحولت لتساهم في زيادة الإنتاج وتحقيق الرخاء الذي قام على الزراعة والتجارة والصناعة المتوفرة في ذلك الوقت . ولكن أسس قيام تلك النهضة الزراعية والتجارية وضفت عندما تقوض حكم القوط الغربيين في إبيرة ، وانتهى وجودهم الذي فرضوه عن السكان المحليين بالقرنة فترة زادت على قرنين من الزمن . ولم يكن الفلاحون يبنّون عن السياسة القوطية المتبعية في إبيرة ، إذ كانوا عبيداً مستأجرين لدى البلاط يقدمون لهم ما ينـ. ٥٠٪ و٠.٨٪ من الحصول . ولم تكن حصة الفلاحين تكفي أحياناً لبذل الموسم التالي أو لسد حاجة العاملين في المقول ، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الإنتاج وتضاؤل الاهتمام بالأرض فأهملتهم عندما أهملت ، ونزلت بابيرية قبل ثلاث سنوات من الفتح طبقاً للطريقة التي سقطت بها هذه بحية الكثرين منهم . وأعيد توزيع الأراضي الأندلسية بعد الفتح طبقاً للطريقة التي سقطت بها هذه الأرضي ، فمنها ما استبقاء السكان المحليون نتيجة صلح ، ومنها ما مملكته الفاتحون بعد حرب أو بعد ما فر أصحابها ، ومنها أيضاً ما مملكت بطريق مختلفة أخرى . أما السكان المحليون الذين استمروا في العمل أو السكنى بأراضيهم ، فكانوا عموماً يدفعون جزية وخراجاً على أرضهم من الغلة يتراوح بين ٢٠٪ و٣٥٪ وأحياناً ٥٠٪ طبقاً لنوع الحصول وفترة أمداته والكمية الفائضة من الإستهلاك والبذار .

والمعلومات القليلة المتوفرة عن تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، تشير إلى أن القمح كان الحصول الرئيسي ، ويبدو أنه كان يفيض عن حاجة السكان في أغلب الأحيان . كما احتل الزيتون مرتبة مهمة فعُمد إلى توسيع نطاق زراعته وتحسينه ، وأسماها في المناطق المحجولة بـ « جيان » التي مازال حتى اليوم تعيش على الزيتون مصدرها رئيسيًا لاقتصادها . وأدخل العرب في سنوات ما بعد الفتح مزروعات جديدة إلى الأندلس مثلت الحمضيات واللوز والتين والدراق والرمان واللوز والزعفران والملحاء والقطن والكتان وقصب السكر والممشى . وحيثما وجد عرب أوروبا في منطقة أو أخرى ، أعطى هؤلاء المكان سمات متميزة كما حدث بالنسبة للسوريين في « كورة البيبة » (غرناطة) والمصريين في باجه وتدمير (مرسية) والفلسطينيين في مناطق شلدون والأردنيين في رية ، وأهل حمص في أشبيلية ، والبربر في المناطق المرتفعة التي تلامم طبعتهم وتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح . وكان لدخول الحمير إلى الأندلس بعد جلها من مصر مفعول هائل في « تأثير » طرق الفلاحة والخصاد وارتفاع حجم المحصول . وقد يبدو هذا غريباً اليوم ، ولكن أحد مفاهيم الرخاء في ذلك العصر ، كان توفر حمار لكل شخص يستخدمه في حياته المختلفة .

وتتطور الزراعة في الأندلس على الاستهلاك المحلي وقدم جزءاً ، كان يصدر إلى الشمال الأفريقي ودول أوروبا ولكن هذا لا يعني أن الوضع كان على هذه الصورة دائمًا ، إذ لعبت عوامل عديدة على اضطراف الحصول في بعض السنين وحتى على وقوع مجاعات متعددة ، كما حدث سنة ٨١٥ (١٩٩) و ٩١٥ (٣٠٢) عندما « مات أكثرخلق جهذا » ، وإن استطاعت الأندلس في أوقات أخرى التهرب من محنتها ومتابعة صنع الرخاء الذي عرفت به حتى في أوقات ضعف سلطتها السياسية . واستفاد الأندلسيون في نشاطهم الزراعي من القنوات التي بناها الرومان في القرن الأول المسيحي ، فعملوا إلى إصلاحها وتحسينها وشق أو بناء قنوات جديدة ، واتقنو التعامل بفنون السقاية وجلب المياه من مسافات بعيدة ، كما استخدمو التواعير ، وكانت من النوع الذي تربط إلى إطاره قلال مناسبة وهو نوع لا يزال يستخدم في بعض مناطق الصعيد المصري حتى الآن . ومع تقلص الوجود العربي إلى منطقتي غرناطة وبلينسية ، تكونت الخيرة المتوفرة وتحولت المنطقتان إلى اثنين من أخصب بقاع أوروبا ، وبقيتا كذلك حتى قامت السلطات القشتالية بترحيل الأندلسيين في بداية القرن السابع عشر . وتعرض النشاط الزراعي إلى نكسة كبيرة نتيجة إهمال الأسبان له فاستمر حتى هذا القرن عندما تحبد الاهتمام به ، وأصبحت إسبانيا من بين أكثر الدول انتاجاً لـ الزيتون والدراق ، بل إنها اليوم أكبر مصدر للزعفران ومركز الاتجاه في مدينة البسيط جنوب غرب بلينسية .

٤ - الصناعة :

وقد تطور زراعة القمح والقطن والكتان ، وأزيداد الاعتناء بتربية الماشية المواد الأولية اللازمة لقيام صناعات خفيفة ، لقيت تشجيعاً مناسباً فنمّت في معظم أرجاء الأندلس مستفيدة من الخبرات التي توفرت لدى السكان المحليين في بداية عهد الفتح ، ومن الخبرة التي حملها العرب الذين استوطنوا

الأندلس في سنوات لاحقة . ومع توفر المواد الأولية والخبرة قامت صناعة المنسوجات والسكر والخزف والسجاد والجلود والمعطور والمواد الكيماوية المختلفة ولاسيما الأصباغ ، وكذلك صناعة الزجاج والصناعات اليدوية الأخرى . وترد اشارات كثيرة إلى هذه الصناعات إذ أنشأ عبد الرحمن الداخل دارا خاصة للطراز ، تصنع فيها ملابس أصحاب الخدمة ، وتطورت صناعة الملابس فيما بعد لتغطي الاستهلاك المحلي مع تخصيص قسم كان يصدر إلى المغرب أو الشمال . وربما اعتبرت مدينة شقوية من أهم مراكز صنع الملابس في الأندلس حتى سقطت بأيدي الشماليين سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وأحسن الأندلسيون استغلال عدد كبير من المعادن المحلية مثل الحديد والزinc والنحاس ، فكان ذلك عاملاً مهمًا في تطوير صناعة الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت . وشجع عبد الرحمن الثاني هذه الصناعة وذاع صيت طليطلة كمركز رئيسي لإنتاج السيفون والرماح وغيرها من الأسلحة .^(١) ومع تقدم الصناعة في القرن التاسع الميلادي ، تمكّن الأندلسيون من إنتاج الزجاج المعروف بالظرافي (الصواني) والزجاج الشفاف والورق ولع اسم مدينة شاطبة مركزاً لهما لإنتاج المادة الأخيرة ؛ مما ساهم إلى حد كبير في تطوير صناعة الكتب والورق . وظلت هذه الصناعات مستمرة على نطاق « ورشات » صغيرة يعمل فيها عدد محدود من الأشخاص ، سواء كان ذلك في ورشات صناعة الأسلحة أو المصايب أو في معاصر الزيتون والمطاحن ، التي لا زالت انقضاض بعضها باقية حتى اليوم في قرطبة رغم مرور أكثر من ألف سنة على بنائها .

أما بالنسبة للصناعات الأثقل فقد شملت السفن بصورة أساسية « استجابة لمتطلبات الدفاع والتجارة والنقل وتركزت في الجنوب الأندلسي ، وعلى الساحل الشرقي منها في مدن مثل المرية ولقت ودانة وغيرها . ويظهر أن إنتاج السفن كان كبيراً إذ تذكر الروايات أن عدد السفن التي استخدمت في احضان سكان جزيرتي مبورقة ومنورقة سنة ٨٤٩ (٢٣٤) حوالي ٣٠٠ سفينة ، كما استخدمت أعداد كبيرة من السفن لحراسة الشواطئ الأندلسية ، ولاسيما إثر الهجمات التي شنها النورمان اعتباراً من سنة ٨٤٤ (٢٢٩) . ولاشك في أن توفر مثل هذا الأسطول لغرضي الدفاع والتجارة ، كان سبباً مهماً في توفير الاستقرار النسبي المطلوب للاستمرار في تطوير البنية الصناعية الأندلسية وزيادة رخاء البلاد .

٣ - التجارة :

وجود الفائض الزراعي وقيام الصناعات الأندلسية المختلفة أوجداً أساس نشوء تجارة نشطة عادت على الأندلس بالربح والوفر ومنتها القوة التي مكتبتها من التصدى للشماليين حتى بعد انهيار الخلافة ، وان كان هذا الرخاء قد أجيح أطمام المالك الشمالي بما توفر للأندلسيين . ومنذ نشوء الإمارة القرطبية تكاملت القدرات الإدارية الضرورية لبناء الاقتصاد الأندلسي ، فاعتمدت في بداية الأمر

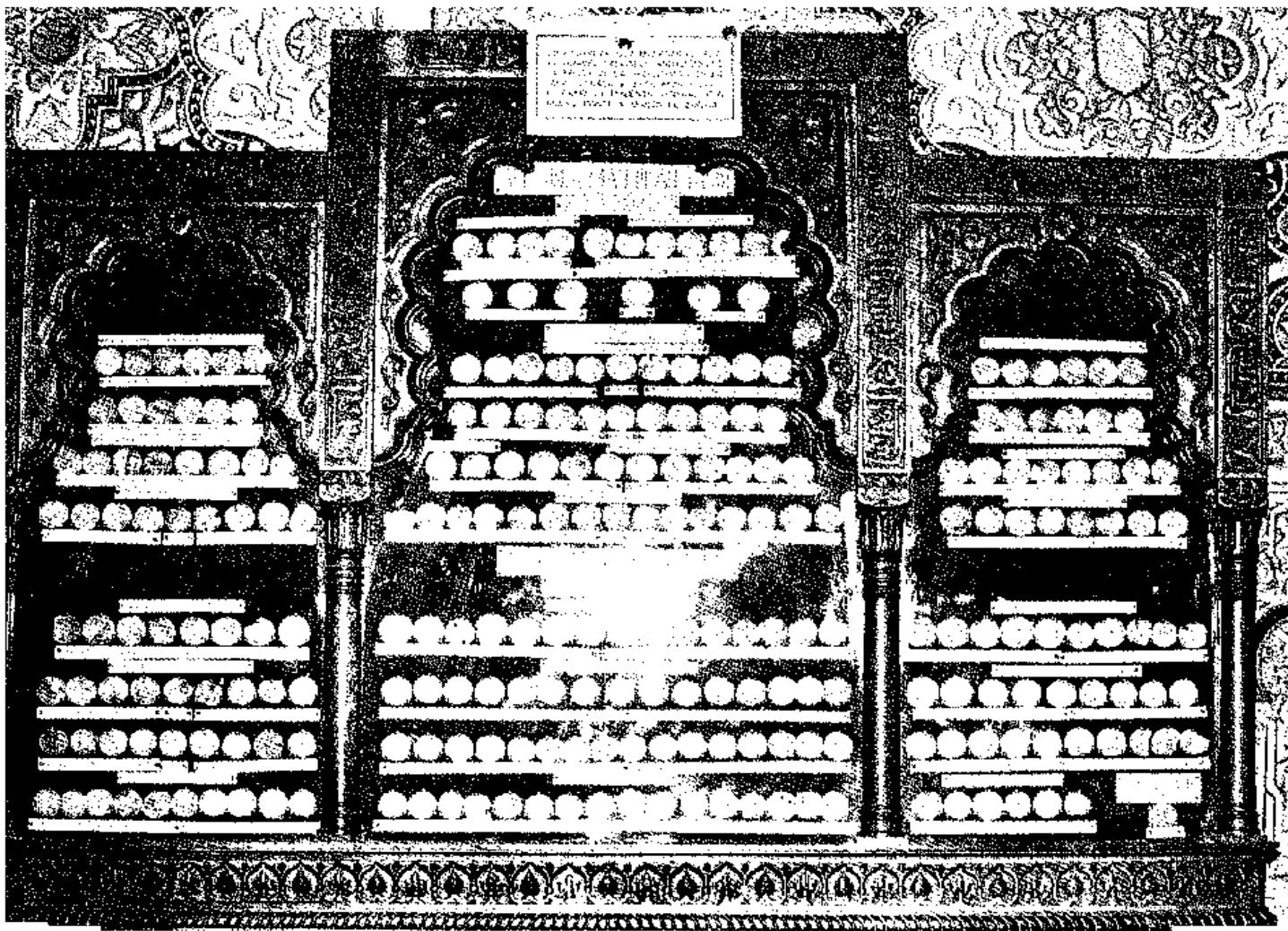
(١) يرجع صيت سيف طليطلة الدالع إلى الرخاف المذهبية المطبوعة عليها ، ولكن أصل هذه الصناعة ليس عربياً على ما يبدو ، إذ ورد ذكر لها في القرن الأول قبل الميلاد ، وهي صنعة سيف سرا يتناقله الأبن عن الأبا . ويقال أيضاً إن في دمل طليطلة وماء نهر تاجة من الخواص ما يميز سيفها حتى اليوم .

الأوزان والمقاييس ذات الأصل الروماني ، وسُكَّ عبد الرحمن الداخل الدينار القرطبي فأصبح عملة مقبولة في جميع أرجاء الأندلس ، وكثير من دول أوروبا لأنَّ من المعروف أنَّ العملة في غالٍ كانت تزن نصف الدينار القرطبي ، وكانت المبادرات التجارية تم بالدينار العربي . ولكن العملة التي سُكَّت بأمر عبد الرحمن لم تكن العملة الأولى التي تضرب في الأندلس ، فقد سعى موسى بن نصیر في بداية عهد الفتح إلى إبراز مظاهر السلطة الإسلامية في إبْرِيَّة وضرب أول النقود وإن كانت صورة عن النقود المستخدمة في إبْرِيَّة قبلاً ، سواء من ناحية المعدن أو الكتابة بالأحرف اللاتينية مع استبدال المعانٍ المسيحية بأخرى إسلامية ، وإضافة التاريخ المجري عليها . وتطورت عملية سُكَّ العملة في عهد عبد الرحمن فأنشأ داراً خاصة بذلك في عاصمة الإمارة .

ولا تتوفر أية إحصاءات تجارية موثقة عن تلك الفترة ، ولكن المعلومات التي وصلتنا تقييد بأنَّ الأندلسيين كانوا يصدرون المنسوجات وزيت الزيتون والأسلحة والعبيد الصقالبة إلى المغرب العربي ، ويستوردون العبيد الزنج وبعض المنتوجات الزراعية مثل الفستق . ولكن الميزان التجاري كان لصالح الأندلس ، وكان التجار الأندلسيون يحملون إلى قرطبة وغيرها الذهب الذي كان يستخرج من ضفاف أنهار غرب أفريقيا وتحمل إلى المغرب ، فكان مصدر الذهب ذلك أهم مصادر المعدن الشمرين في تلك العصور إلى أن تم اكتشاف الذهب والمفضة في أفريقيا والعالم الجديد في قرون لاحقة . ولعبت الأندلس أيضاً دوراً رئيسياً كمصدر ومستورد مع الممالك الأوروبية . فشملت الصادرات المنسوجات والملابس والمصنوعات اليدوية المتنوعة . ولذلك أنَّ تجارة العبيد الصقالبة كانت أهم تجارة تعاملت بها الممالك الشمالية الصغيرة ، وكان هؤلاء يؤسرون من مناطق وسط أوروبا ودول البلقان حالياً ، وينقلون إلى الأندلس ومنها إلى المغرب «وَجَمِيعُهُمْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ الصَّقَالَبِ الْخَصْبَانِ فَمِنْ جَلْبِ الْأَنْدَلُسِ»^(١) . هذه التجارة كانت مصدر رخاء كبير بالنسبة لمدن مثل بِيلْبُونَة وِيرْشُلُونَة ، وعادت على الشماليين بدخل استخدم بعضه لشراء المنتوجات الأندلسية المتنوعة ، وببعض الآخر للاتفاق على الجنود . فالتجارة في تلك الفترة ، كما هي اليوم ، كانت تتم دون الالتفات كثيراً إلى بعدها العسكري ، حتى أنَّ ملوك الشمال الإيبيري درجوا على شراء ملابسهم من الجنوب ، ولاسيما الحريرية منها ، خلال فترات اندلاع الحروب بين الجهتين .

كما لعبت الأندلس دوراً رئيسياً ، كمركز لإعادة تصدير البضائع الشرقية والمغاربية إلى الشمال وأوروبا ولاسيما التوابل والمكسرات والمعطور وغيرها من المواد ، وكان التجار الأندلسيون يشحنون زيت الزيتون إلى المشرق ويستوردون التوابل والأقمشة والمصنوعات اليدوية وغيرها ، مما لم يتوفَّر في الأندلس . والسلامة النسبيَّة التي سادت البحر الأبيض المتوسط كانت عاملاً مهماً في زيادة التبادل التجاري مع الأندلس ، إذ كان البحر من مناطق النفوذ العربي اعتباراً من القرن السابع الميلادي أثرَ معركة ذات الصواري^{٦٥٤} (٢٢) ، ولكن الحركة التجارية كانت أنشط مع المغرب لا سيما المغاربة الأوسط والأقصى .

(١) ابن حوقل ، محمد بن علي الموصلي الموقلي البندادي « صرة الأرض » بيروت ، ص ١٦ .



عملات اندلسية من عصور مختلفة

هذا الوضع الاقتصادي الجيد وفر للأندلس رخاءً كبيراً ربما فاق رخاءً المشرق ، ومكّن الأندلسيين من المضي قدماً في تطوير الزراعة والصناعة والتعامل التجاري تحت غطاءِ الأمن والاستقرار . إلا أن الأمر بدأ يتغير إثر انهيار الخلافة واهتزاز الأمن في الأندلس ، رغم أن وضع الأندلسيين ظل ب بصورة عامة جيداً حتى بعد تراجعهم وانحسار سلطتهم تدريجياً . ثم تكررت القصبة ذاتها في مملكة غرناطة كـ تشهد بذلك المزارع والأقنية والصناعات التي ما زال بعضها ، أو أثار منها ، باقية حتى اليوم .

٤ - الاقتصاد في المالك الشمالية :

كان الشماليون يتعاملون بدينار قرطبة وديناري بيزنطية وغاله ، وكان المصدر الرئيسي للدخل هو الماشية التي يملكونها بالإضافة إلى دخل محدود من الزراعة والصناعة وتجارة العبيد . إلا أن التعامل التجاري ضمن المناطق الشمالية كان يجري بطريق المقايسة ، إلى أن أدخل هؤلاء بعض مظاهر النظام المالي من عاصمة الأندلس ، وساهم بعض من رحل إلى الشمال من المستعربين واليهود ، في ايجاد نشاط

أفضل ، سواء في مجالات الصناعات أو الزراعة . وقبل انهيار الخلافة الأندلسية كانت ممالك الشمال ضعيفة ، كما يتضح من الإغارات التي شنها عليهم المنصور ، حتى وفاته في مدينة سالم الشمالية . ومع قيام ممالك الطوائف توفر للشماليين دخل جديد سهل جاء عن طريق فرض الجزية ، وهو عمل مارسه الفونصو السادس بنجاح كبير إلى أن أحد يتغلب في الجنوب متوجاً انتصاره باحتلال طليطلة . ثم تقدم الشماليون فيما بعد لاستيطان المناطق الواقعة في وادي نهر تاجه . وفي القرن الثالث عشر أنهت ممالك الشمال احتلال معظم أراضي الأندلس وابتعتها باحتلال غرناطة سنة 1492 . وخلال هذه الفترة الطويلة من الزمن طرأت جملة من التغييرات على طبيعة اقتصاد البلاد : في أرغون مثلاً بقيت أعداد كبيرة من العرب ، وخاصة من المزارعين الذين تابعوا فلاحة أراضيهم وانتاج المحاصيل والاستمرار في الصناعات التي اتقنوها ، فلم يكن تضرر تلك المملكة يماثل ما لحق بالمناطق التي احتلها ملوك قشتالة ، رغم أن هذا التصور لا ينطبق على جميع الحالات . فالمعروف أن خاتمي الأول طرد عدداً كبيراً من المزارعين من أراضي مرسية وأدى ذلك إلى خرابها ، ولكن أرغون تعرضت إلى أزمة كبيرة نجمت عن طرد الأندلسين في بداية القرن السابع عشر . وعلى آية حال فإن اقتصاد أرغون انفصل عن قشتالة منذ القرن الثالث عشر ، حين بنت أرغون إمبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط ، فطورت أسطولها التجاري وأقامت إمبراطورية تجارية راحمت الإيطاليين ، حتى تعرضت إلى الانضمام للحلف في القرن الخامس عشر قبل أن تلتهمها قشتالة ، كما التهمت الأندلس ، وكما حاولت بعد ذلك التهام البرتغال .

واعتماد قشتالة على الماشية نابع من عدم تمكّن قشتالة من تطوير أية صناعة حقيقة . وكل ما وجد من صناعات في الشمال كان بصورة أساسية في أيدي المستعربين النازحين من الأندلس ، أو في أيدي اليهود . ومع احتدام القتال مع الأندلس اعتباراً من القرن الثاني عشر ، أصبح الاعتماد على الماشية أمراً تفرضه طبيعة الحرب . فلو حدث مثلاً وأغار جيش على قلعة أو مدينة ما فإن من السهولة على الرعاة جمع ماشيتهم خلال ساعات والعودة بها إلى داخل أسوار المدينة . والمحاربون في تلك الفترات كانوا يعرفون أهمية الحرب الاقتصادية في إضعاف قوى الخصم وقدرته على الصمود ، وكانوا على الغالب يستعملون أسلوب الأرض المحروقة لتسريع سقوط المدينة ، إذ كان عامل تجويح سكان المدينة أو القلعة من أهم عوامل اسقاطها . والهجوم المباشر على الأسوار كان يسبب في العادة خسائر كبيرة في الأرواح ، وكانت معظم المدن قادرة على الصمود في وجه هجوم مباشر أو حصار قصير الأمد نسبياً ، إضافة إلى أن الجيوش الحاصرة كانت قلماً تستطيع الصمود نتيجة حصار طويل الأجل ، مالم يكن المدد مضبوطاً بصورة دائمة . وعلى هذا فإن اسقاط مدينة معينة كان يتم في العادة على ثلاث مراحل : الأولى الإغارة على المنازل المكتشوفة المحيطة بتلك المدينة ، وإحرق الزرع وقطع الأشجار والماء أو تحويل الجداول الصغيرة . وتشير بعض المعلومات إلى أن إيزابيلا وفرياندو وظفوا حوالي ٢٠٠٠ جندي لشن حرب اقتصادية شاملة ضد غرناطة ، أحرقوا فيها الزرع والمحاصيل حتى اضطررت المدينة إلى الإسلام . أما المرحلة التالية من الحصار فهي الاستيلاء على نقاط التحصين القرية أو المناير ، وقطع طرق التموين التي كانت تستخدم لنقل المؤمن على البغال والحمير في العادة . وإذا ما انتهت المرحلة الثانية ضرب الجيش الحاصر النطاق حول المدينة إلى أن يجبروا أهلها وبضطروا للاسلام . ولذا فإن حصار مدينة متوسطة الحجم كان يستغرق عدة سنوات في بعض الأحيان .

وبسبب اعتماد الاقتصاد القشتالي على الماشية والنسب عدم توفر الخبرة الازمة لإدارة اقتصاد معقد يقوم على دعائم مشتركة ذات أداء يعتمد قسمه على القسم الآخر . والقشتاليون توغلوا في الأندلس خلال القرن الثالث عشر فدخلوا مناطق لا يعرفون كيف يديرون عجلة الزراعة والتجارة فيها ، ويعرفون الأقل من ذلك عن الصناعة . ودخول قوات الشمال المدن الأندلسية أدى على الفور إلى تقويض دعائم الصناعة والتجارة ، ولكن النبلاء الذين حصلوا على قطع من الأرض بعد احتلالها وانتزاعها من الأندلسيين كانوا يأملون في التمكن من الاحتفاظ بالمزارعين واستغلالهم . وفي الحالات التي بقي فيها عدد كافٍ من المزارعين الأندلسيين ، كما حدث في ارغون مثلاً وبعض مناطق الأندلس ، تابعت الأرض انتعاشها ، أما في معظم الحالات الأخرى ، فإن الأرض تحولت إلى بلقع مع الزمن فيباع من تمكن الأرض التي اقطعه الملك ايها ورحل إلى الشمال ثانية . ولكن هناك بالطبع من استفاد من تحويل الأرض وهوئاء كانوا من أصحاب الماشية التي ملكها الأفراد ، ولكن سيطرت على معظمها الأنظمة الدينية وخاصة وسط البلاد . ومايزال الوسط الأندلسي حتى اليوم ، يبدو وكأنه ساحة قتال قاحلة فقيرة بالشجر والخضار فقد استخدمت تلك المنطقة للرعي ، ومن جاء من ملوك قشتالة فيما بعد دعم مبدأ تفضيل الرعي على الزراعة ، وأصدر المراسيم التي تفتح الأراضي أمام الماشية على حساب الزراعة .

على الساحل الشرقي لشبه جزيرة إيبيريا أدى انهيار مدن مثل المري وغيرودا إلى مساعدة مدن شمالية مثل برشلونة على تطوير تجاراتها مع أوروبا والمشرق . وهناك بعض السجلات التي تشير إلى أن ارغون كانت تاجر مع تونس اعتباراً من القرن الثالث عشر ، عندما قررت الاتجاه إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، لتنافس البنديقية وفلورنسا وجنو إلى أن وصل التنافس مرحلة الحرب السافرة . ثم ثمت برشلونة إلى أن أصبحت واحدة من أكبر ورشات صناعة السفن في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وبرشلونة كانت مركزاً لتصدير بعض المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية ، قبل سقوط معظم مناطق الأندلس في القرن الثالث عشر ، بل أن دورها يمتد إلى فترة الخلافة القرطية . ولأن الوجود الأندلسي فيها كان كبيراً ، فقد تمكنت برشلونة من تصدير الأسلحة والجلود والأقمشة وجميع ما تحتاج إليه السفن ، بالإضافة إلى عدد من المنتجات الزراعية من المناطق الخصبة ببنيسية مثل الزيتون والجوز ، وكذلك إعادة تصدير التوابيل إلى فرنسا وإنجلترا وغيرها من المناطق . وكانت تجاراتها نشطة مع مصر وتلمسان وتونس ، ثم أضيف إلى هذه الأنشطة التجارية مجدداً العيد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولكن أوج الرخاء الذي عرفته أرغون كان في القرن الثالث عشر والقسم الأعظم من القرن الرابع عشر ، حينها حاولت اللحاق بركب المالك الإيطالية التي كانت أول من استفاد من « الثورة التجارية » التي قامت في آخر القرن الحادى عشر استجابة لمطالبات الحروب الصليبية ومد خطوط التموين والنقل بين أوروبا والمشرق . وما إن جاء عام ١٢٨١ حتى نزلت بارغون مشاكل مالية معقدة اضطربت بعدها إلى التقهقر أمام تقدم الإيطاليين . ومنذ اكتشاف العالم الجديد ساهمت ارغون في الاتجاه مع مالك ماوراء الأطلسي ، ولكن التجارة المباشرة كانت محصورة بقشتالة التي استوعبت ارغون في القرن السادس عشر .

في قشتالة ظلت آثار عملية تجريب الاقتصاد الأندلسي التي رافق احتياج القرن الثالث عشر واضحة المعالم ، وبقيت الزراعة بدائية للغاية . ولكن بعض الصناعات الأساسية نمت في القرن الرابع عشر ، مثل صناعة الصابون والورق والجلود وغيرها من الصناعات الخفيفة ، كما تطورت صناعة السفن في مدينة سنتينير الواقعة على خليج بسقاية في الشمال وفي إشبيلية ، ولكنها كانت تعتمد على تصدير الصوف كدخل رئيسي . والسبب في تحسن نوعية الصوف القشتالي كان نجاح تهجين نوع الخراف المغربي المعروف باسم « مورينو » مع الأنواع المحلية آخر القرن الثالث عشر ، فتفوقت في حجم صادراتها من الصوف على الجبلية . وخلال القرن الرابع عشر كانت قشتالة أهم مصدرى الصوف الجيد . وارتفاع حجم الصادرات فتح الطريق في بداية القرن الخامس عشر لبناء اسطول تجاري قشتالي ، كان يحمل الصوف والجلود إلى إيطاليا وغيرها من الدول الأوروبية ، بل حتى إلى بلنسية لصناعة الأقمشة هناك .

استمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الخامس عشر ، عندما عمدت إيزابيلا إلى سك عملة رئيسية هي « الأكسلندي » (وكانت تساوي الدوقة المعتمدة في البندقية) ووحدت المقاييس والأوزان وحسنت الطرق والموانئ ، ثم حددت كمية الصوف الممكن تصديرها بثلاثي الإنتاج ؛ لتشجيع صناعة النسوجات . ولكن إيزابيلا أصرت على الاهتمام بتربية الماشي دون أية قطاعات أخرى ، وأصدرت سنة 1491 مرسوما منع فيه إقامة الحواجز في غرباء ؛ كي لا تعرقل الحواجز عملية رعي الماشية حتى وإن كانت لحماية القليل من الزرع في المنطقة . وكان لسياسة إيزابيلا المعادية للزراعة أثر كبير في إضعاف الاستغلال الزراعي ما زال باقيا حتى يومنا هذا ، وفضل الكثيرون توظيف الاستشارات في الماشية بدلا من الزراعة والتجارة والصناعة . ووراء هذه السياسة خلفية نفسانية مهمة ميزت القشتاليين عن غيرهم إذ كان هؤلاء يتعرفون عن القيام بالأعمال اليدوية ، ويعتبرونها تحفرا لشأنهم . ولذا فقد ظلت الأقليات تسيطر على النشاطات الصناعية والزراعية القليلة ، وبقي القشتاليون يعتقدون أن وظيفة الآخرين فلاح الأرض وانتاج المصانع ، ولكن وظيفتهم القتال وحكم شعوب الأرض الأخرى .

ب - النزاعات الداخلية

تردد الوليد بن عبد الملك الخليفة في فتح الأندلس يعكس المخاوف التي ساورته من عبور المسلمين إلى أرض لا يعرف عنها الكثير ، واحتمال تعريضهم للتهلكة دون التمكن من نجذبهم في الوقت المناسب لاسيما وأن مرحلة الفتح الأولى استلزمت استخدام عدد قليل جدا من السفن لم تكن كافية لاجلاتهم لو دعت الضرورة لذلك ، ولم تتوفر السفن الكافية لامدادهم لو أن طارق بن زياد لم يحرز انتصاره الحاسم على الجيش القوطي في معركة وادي لكة سنة 711 (٩٢) . هذه المخاوف دعت الخليفة الأموي في دمشق إلى التسامح في التعامل مع الفلاحين الأوائل بالنسبة لتقسيم الأرضي ، حتى ولو كان ذلك على حساب بيت المال ، وسعت إلى تشجيعهم على البقاء في الأرضي الجديدة واعتبارها ثغرا من ثغور الجهاد خلال مرحلة فتح إسلامي لم يعرفها التاريخ من قبل . والأندلس ، بمكمن طرفة فتحها ، كانت تتبع والتي أفريقيا (تونس) أحيانا وتتبع رغبة البلدين الأندلسيين أحيانا أخرى . واستمرت الصلة قوية جبنا واهية

حيثاً آخر ، حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٧٥٠ (١٣٢) وقامت العباسية على انقضائها وارتجل إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فأسس إمارته في قرطبة وألغى الدعاء للخلافة ، مكرساً أول انفصال رئيسي لمنطقة سيطر عليها المسلمين عن الجسد الأشلي .

ومنذ قيام الإمارة تحتم على الأندلسيين الاعتزاز على أنفسهم لرد كل القوى التي حاولت غزو الأندلس سواء كانت من الشمال ، أو من المملكة الكارولنجية (الفرنسية) أو من النورمان ونجحت قرطبة في ذلك إلى أن انهارت الخلافة واستدعي المرابطون بعد سقوط طليطلة على يدي الفونصو السادس سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . ولعل من الصعب النظر بغير الاعجاب إلى السلطة التي أرسى عبد الرحمن دعائمها في الأندلس ، إذ استمرت ثلاثة أضعاف ما استمرت عليه الخلافة الأموية، وفاقت في عمرها السلطة الفعلية للخلافة العباسية ، بينما بقيت غرناطة بعد ٢٢٤ سنة من اجتياح المغول لبغداد ، واستمر التأثير الأندلسي مهما حتى بداية القرن السابع عشر . وبقاء قرطبة تلك السنوات الكثيرة يضع كل القلاقل والأخطار الخارجية التي تهدّدتها في فترات مختلفة ، ضمن إطار المشاكل التي أمكن السيطرة عليها ، ولكن هذا لا يمنع القول بأن بعض تلك الأخطار ، ولا سيما الداخلية منها ، كادت في لحظات كثيرة تقوض سلطة قرطبة وتعجل في سقوط الأندلس .

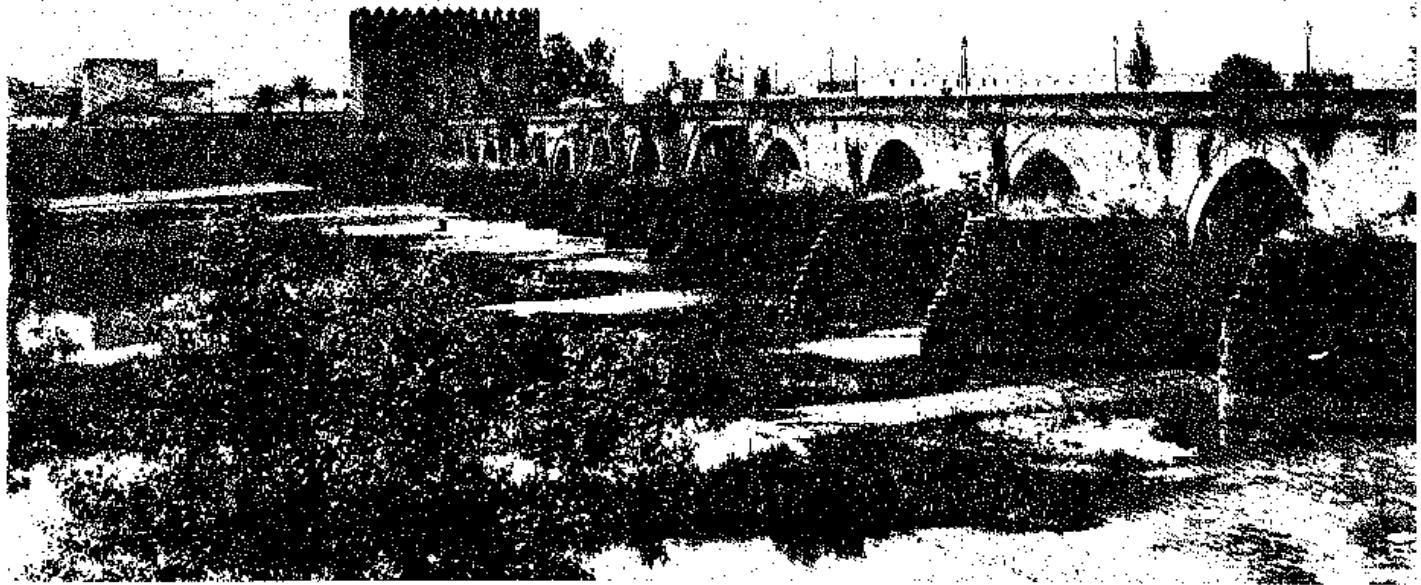
والأخطار الداخلية التي عصفت بالأندلس في مراحل عدة كانت نتيجة التركيب الاجتماعي الخاص بما يضمه من عرب وبربر وسكان أصليين ، فكان الصدام مع البربر في البداية إلى أن استقدم الجيش الشامي المهاجر في سبعة فتتمكن بمساعدة البلدين الأندلسيين من القضاء على ثورة البربر . وما كادت هذه العاصفة تهدأ حتى اندلع صدام بين الشاميين والبلدين فكانت الغلبة للجيش الشامي . بعد هذه العاصفة الثانية دبت العصبية القبلية بين القيسية واليهانية ، وانتهت حربهما بسيطرة القيسية على مقاييس الحكم . ثم جاء عبد الرحمن فاستعان باليهانية للتغلب على القيسية والانفراد بالسلطة ، إلا أن هذا تسبب في انتفاض العصبيات كلها على حفيده هشام بن عبد الملك ، بما في ذلك اليهانية والبربر الذين كان لهم باع طويل في معظم الثورات الداخلية التي اندلعت في الأندلس . ولكن عبد الرحمن الذي تمكّن بمحنته ويطشه من الوصول إلى الحكم ، استطاع بفضل هذه الصفات ذاتها المحافظة على ماتحققه والقضاء على جميع مراكز العصيان في الأندلس بالإضافة إلى افشل مخططات شارلزان ودب الفوضى في صفوف الشماليين ، وإن كانت الممالك الشمالية في تلك الفترة ترسخت وبنت حجر الأساس الذي قامت عليه فيما بعد الممالك التي اجتاحت الأندلس .

وتوفى عبد الرحمن «المُدِيد» كما كان «مديد القامة نحيف القوم ، أبور أحشم أصهاب بضميرين وتحال في وجهه»، سنة ٧٨٨ (١٧٢) مت�حا المجال أمام هشام الرضا ومن بعده الحكم الريسي ، لتتوطيد الإمارة الأموية في الأندلس . إلا أن الأندلس لم تكن بعيدة عن زرارات السلطة المعروفة في المشرق فانقلب ابنه عبد الرحمن ، سليمان وعبد الله ، على أخيهما الأوسط هشام واستمرت الفتنة سنتين كانت الغلبة بعدهما لهشام ، إلا أنهما عادا للمطالبة بالإمارة بعد وفاة هشام وتولى ابنه الحكم السلطة ، وانتهت الفتنة الثانية

يقتل سليمان واحصياع عبد الله . وصفة «الريضي» التي اطلقت على الحكم تذكر لبطشه بالثائرين عليه في رض قرطبة ، إذ أعمل جنده السيف بالنافعين عليه وأسرروا أعدادا ، صلب منهم ٣٠٠ ثم هدم الريض وأمر بحراثة أرضه وزرعها . والثورة على إمارة قرطبة لم تكن محصورة بالعاصمة إذ نشبت ثورات في الثغور الأعلى والأوسط والأدنى استمرت سنوات عديدة وتزعمها الموليون والببر والمستعربون في وقت قوتها فيه مملكة اشتورش الشمالية ، وباتت تحقق توسعات على حساب الأندلس وتدعم الثورات ضد قرطبة . هذه الثورات تجددت في فرات لاحقة وامتدت إلى الجنوب مهددة عاصمة الإمارة ، ووصلت ذروتها في عهدى الأمير المنذر وعبد الله بن محمد ، مما اضطر العرب للتكلّل دفاعاً عن أنفسهم أمام عجز أمير قرطبة فاخصر سلطانه حتى كاد ليتجاوز حدود المدينة ، وغرقت هيبة الأمير تحت ضربات أصحاب الفتن من أمثال عبد الرحمن الجليقي وعمر بن حفصون .

وثورة ابن حفصون أهم الثورات التي عرفتها الأندلس ، فقد استمرت نصف قرن تقريباً وعاصرت أربعة أمراء إلى أن تمكن عبد الرحمن من القضاء عليها ، فأعلن نفسه بعد ذلك خليفة وتلقب بأمير المؤمنين الناصر للدين الله . إلا أن الشماليين في عهده كانوا وصلوا إلى قدر من القوة تمكنوا معه من هزيمته في معركة الخندق ، التي جرت عند مدينة شنت منكش سنة ٩٣٩ (٣٢٧) وبها الناصر من القتل بجهد كبير . ولعب أمية بن اسحاق دوراً في الانتصار الذي حققه ردمون الثاني الليبي ، فكان يحارب معه ويدله على مكامن الضعف ، وهذا نوع من المساعدات حصل عليها الشماليون من كثير من الأندلسيين في فرات مختلفة من تاريخ الأندلس ، وكان لها دور مهم في سقوطها . وقعة الخندق وغيرها من الحوادث كانت استثناءً لعهد تعمت خلاة الأندلس بالقوة والرخاء ، وتصدت بنجاح لكثير من المخاطر التي كانت عموماً ذات طابع خارجي مثل هجمات التورمان المتعددة . إلا أن المهمة التي وقعت على عاتق خليفة قوي مثل الناصر لم تكن سهلة ، كما يتضح من قول المقري ، فايام سرور الناصر كانت أربعة عشر يوماً وهو أمر ليس بهن على خليفة حكم حوالي نصف قرن وتوفي سنة ٩٦١ (٣٥٠) .

استفاد الحكم الثاني المستنصر بالله من تجربة غيره وحصد ما زرعه والده ، وحكم دولة مستقرة موحدة وشغف بالعلوم والمكتبات ، ولكنه توفي تاركاً السلطة لابنه هشام المؤيد بالله وله من العمر احدى عشرة سنة ، فانفرد محمد بن أبي عامر الحاجب المنصور بالحكم ، وقضى على خصومه واحضى الشماليين في غزوات متعددة إلى أن توفاه الله ، وأصبح الطريق مفتوحاً للفتنة وانحافت جهود المخلصين في تم الشمل وجمع الكلمة ، وبدأ ما يُعرف باسم عصر الطوائف . وفي حين أثني بعض المؤرخين على المنصور ، فإن البعض الآخر وجه إليه النقد والتلوم واعتبروه سبباً لما أصاب الأندلس فيما بعد ، وخاصة لاكتاره من المرتزقة في صفوف جيشه ، مع أن هذا المنهي لم يكن حصراً على المنصور إذ لجأ إليه عبد الرحمن الداخل حين اشتري أعداداً كبيرة من المماليك ، ثم ابْتَاع الحكم الريضي الكثير من المماليك وصل عددهم إلى خمسة آلاف شخص منهم ثلاثة آلاف فارس . وكان الاعتماد على المرتزقة من سمات حملك الطوائف . وكانت العلاقات بين الحكام قائمة على «التحرز والختن واتفاق الأموال في بناء المقصون والاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع ، إذ خدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين



قطرة قرطبة

أولئك الأُمّاء ، أو أصبحت قائمة على طلب التوسيع والغلبة وانقضاض القوى منهم على الضعيف في حال الهجوم » .^(١)

ولم يكن التنافس الذي دب بين أمراء الطوائف من موالى العاملين والظاهريين من العرب والبربر الخطر الوحيد على الأندلس فقد كانت الضغوط تشتهد من الجنوب عبر العدوة المغربية ، ومن الشمال حيث قويت الممالك النصرانية ، وأخذت تهدد الجنوب . وأحياناً كانت الضغوط الخارجية سبباً في تفجر الصراعات الداخلية ، وكان التقاتل الداخلي أحياناً عاملًا في استجلاب القوى الخارجية ، كما حدث عندما سقطت طليطلة على يدي الفونسو السادس . وسقوط عاصمة الشغر الأوسط كان نكبة عظيمة بالنسبة للأندلسيين ، وسبباً في دخول تاريخ البلاد مرحلة جديدة تخلت بمحاجي المراطين وسيطرتهم فيما بعد على مقايد السلطة في الأندلس إثر القضاء على ملوك الطوائف . وبذلك يكون الصراع في الأندلس قد تحول إلى صراع بين السلطتين الأقوى ، وهما سلطة الجنوب المغربي وسلطة الشمال النصراني ، وتبدلـت القوة العازلة التي كان يشكلها الأندلسيون بين القوتين الأجنبيةـن ، كما أصبح التاريخ الأندلسي مرتبطاً باحداث العدوة المغربية وخاضعاً في معظمـه لقوىـ المتـصرـةـ هناك .

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمراطين) . الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٨

سقوط طليطلة أحدث أثراً مدوياً في الأندلس ، وذكر الناس بجأة مدينة بريشتر التي اقتحمها التورمان سنة ١٥٦٤ (٤٥٦) فقتلوا وأسرعوا عشرات الآلاف من السكان دون التمكن من نجدهم . ولكن إذا كان الشعور بالرارة من حدوث التكبيتين مشتركاً ، فإن بعض الأصوات التي علت أثر سقوط عاصمة الثغر الأوسط تعكس احساساً جديداً يبأس مطبق إلى حد الدعوة ، لترك الأندلس والرحيل عنها إذ يقول الفقيه الزاهد ابن العسال :

يأهل أندلس حشا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسى من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وعلى الجانب الآخر من الحث بخادرة الأندلس ، كانت هناك دعوات أخرى للبقاء فيها حتى وإن كان ذلك يعني الرضوخ لحكم طليطلة الجديد الذي اعتبر نفسه أميراً طوراً على الملوك ، أي الضررانية والإسلام ، ولكن هؤلاء لا ينجون من لوم بقية الأندلسيين مثلين بقول أحد الشعراء :

كفى خرفاً بان الناس قالوا إلى أيمن التحول والمسمى
انتشره دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور
.....
رضوا بالشرق بالليل ماذا رأه وماذا أشار به مشير (١١)

ولذا كانت نكبتنا بريشتر وطليطلة ، وتخزو السلطان في الأندلس ، واقتتال هذا الملك مع ذلك وغيرها من الأسباب ولدت شعور اليأس الداعي إلى الرحيل عن الأندلس ، فإن النكبات هذه كانت سبباً في الدعوة إلى التوحيد والنبوغ ضد الشماليين . ومع ذلك فإن دعوة الرحيل يمكن أن تعطي الانطباع بأن البعض ، لو خير بين الشماليين والرحيل لاختيار الرحيل ، ولو توقفت الأندلس عن كونها الوطن الوحيد طوّلاً .

والحقيقة أن الأندلس ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، احتفظت طريقاً منفصلاً عن المخلافة الشرقية وكانت في بعض الأحيان ترسم سياسة خارجية مغايرة تماماً للعباسيين ، كما يتضح من علاقات قرطبة مع الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا لم يكن الوضع بالنسبة للعلاقات الفكرية والاجتماعية ، إذ كانت الثقافة الشرقية منذ عهد الامارة ذات تأثير كبير على التيارات الثقافية في الأندلس ، ورحل كثير من الأدباء والعلماء إلى الشرق ، لتلقى العلم أو الاطلاع على الأمور هناك ، ومن هؤلاء من بقي في الشرق ولم يعد إلى مستقط رأسه . يضاف إلى ذلك أن الكثير من عادات الشرق في المأكل والملبس والمسكن كانت شائعة في الأندلس ، وليس أدلة على ذلك من الدور الذي لعبه أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزريق في نقل العادات العباسية إلى بلاط قرطبة . هذا التأثير الشرقي حدد ، بالنسبة للذكيين ، محظ الولاء النهائي للأندلسيين . فقد يوضح البعض لتطورات تجبره على قبول حكم الشماليين ولكن البعض الآخر كان يفضل الرحيل أولاً إلى المناطق الأندلسية التي مازالت تحت سيطرة اخوانه أملاً في أن يستند عودهم

(١) انظر معاينة الأدب الأندلسي لسقوط طليطلة في المراجع الساقى ، من ١٨٣ - ١٨٦ .



جانب من اطلال مدينة الزهراء

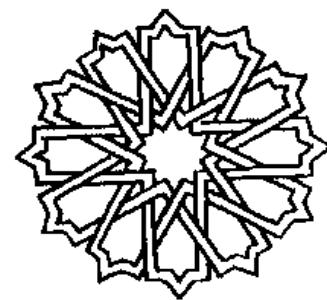
فيحررون أرضه ، ثم إلى العدوة المغربية كما حدث بالنسبة لكتيبيين من رحلوا عن أراضيهم بعد معركة العقاب .

تكلم المعتمد بن عباد أمير الشبيبية بسان الكثيرين حين كان الخيار بين الشماليين وأهل العدوة فاختار أهل العدوة على وزن قوله الشهير « رعي البعير ولا رعي الخنازير ». حدث ذلك بعد أن احتل الفونصو السادس طليطلة ، وأنحدر يهود الجنوب فلجأ المعتمد وغيره إلى الاستجاجاد بالمرابطين وقاتلوا إلى جانبه في معركة الزلاقة التي جرت سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) وانتهت بهزيمة منكرة لحقت بالفونصو ، رغم أن الدعوة هذه أدت إلى اعتقال المعتمد ونفيه إلى إغمات التي كانت عاصمة المرابطين قبل انتقالهم إلى مراكش سنة ١٠٦٢ (٤٥٤) أو بعد ذلك . واختار المعتمد هنا كان الخيار بين سلطة المسيحيين أو سلطة المسلمين ، وقد طرح هذا الخيار أمام النصارى المعاهدين في غرناطة بعد ذلك ، فاختاروا الانقلاب على المسلمين ، واستدعوا ملك أرغون الفونصو الأول للاستيلاء على غرناطة فنظم حملة سنة ١١٢٥ (٥١٩) اخترق بها الأندلس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولكن دون أن يوفق في إحتلال آية مدينة وعاد ومعه الآف النصارى المعاهدين إلى مملكته . أما من يقي من المعاهدين فقد نفي إلى المغرب باقتراح قاضي الجماعة (قاضي القضاة) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد .

والخلافات الداخلية التي أدت إلى تقدم الشماليين نحو الجنوب، واستدعاء المرابطين الذين أفسحوا المجال بعد انتصارهم لقيام الموحدين ، تكررت في آخر عهد مملكة غرناطة ، فانقلب أبو عبد الله محمد المشهور « بالصغير » ضد أخيه أبو الحسن علي بن سعد ، ثم انقلب أبو عبد الله الصغير ضد عمه أبو عبد الله محمد الرغل فكان ذلك طعنة أخيرة وجهت إلى آخر الممالك الإسلامية في غرناطة فاستسلمت سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) . ومهما كانت طبيعة التوافع التي أدت إلى سقوط الأندلس فليس هناك من شك في أن التناحر الداخلي كان أهمها . نعرف ذلك اليوم كما عرف الأندلسيون ذلك في الماضي ، فقد كتب المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس إلى الفونصو السادس يقول : « أما تعيرك للMuslimين فيما وهي من أحواضهم فبالذنب المركبة ، ولو انفقست كلمنتا مع سائرنا من الأملالك علمت أى مصاب اذتقاك ، كما كانت أباوك تتعجرعه فلم تذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤما تراه وتسمعه وإذا المال تدورعه » . (١)

(١) « الخلل المؤدي في ذكر الأخبار المركبة » مؤلف مجهول ، ص ٦ .

الفصل
الثاني



السورة الأندلسية الأدبي

١ - سقوط الأندلس

خلال أقل من قرن من وفاة الرسول العربي عليه السلام ، كان الفتح الإسلامي قد شمل جميع المناطق المهمة من العالم القديم وبدا يدق أبواب أقصى آسيا وأوروبا . في الأندلس عبر طريف بن مالك التخمي الزقاق في رمضان سنة ٩١ هجرية (٧١٠) على رأس ٥٠٠ مقاتل ليستطع جنوب إيبيريا ، وحمل من الأسلاب والمعلومات ماشجع على وضع خطة الغزو في العام التالي عندما نفذها والي طنجة طارق بن زياد الذي قاد سبعة آلاف جندي جلهم من البربر ، وحقق انتصاره الساحق على القوطين الغربيين في معركة الوادي . وكان لبربر غمارة الجيلين دور مهم في تحقيق الفوز بعد ثمانية أيام من المعارك انتهت بقتل أو فرار للذريق آخر ملوك القوط ، ثم أكمل موسى بن نصير فتح الأندلس خلال أربع سنوات في وقت كان فيه محمد بن القاسم يقتسم مدينة ديبال (قرب كراتشي حاليا) ، ويتجه فيما بعد إلى كشمير وسفوح جبال الهملايا .

وأهمية فتح الأندلس ليست في السيطرة السريعة عليها ، وإنما في البقاء هناك ٧٨١ سنة انتهى بعدها الوجود العربي السياسي ، وإن بقيت أعداد كبيرة من الأندلسين أثر النزوح الكبير الذي لحق باستسلام غرناطة سنة ١٤٩٢ (٨٩٧) . في المشرق ، انهارت الخلافة الأموية سنة ٧٥٠ (١٣٢) بعد حكم استمر ٨٩ سنة ، وببدأ عهد الخلافة العباسية الذي استمر حتى سنة ١٢٥٨ (٦٥٦) عندما هاجم هولاكو بغداد ودمراها . وفي عملية انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين ، أعمل السيف في آخر بني أمية ، وكان أبو المطراف عبد الرحمن بن معاوية حفيض هشام بن عبد الملك من القلائل الذين تمكنا من الفرار ووصل إلى الأندلس بعد رحلة طويلة ليُؤسس سنة ٧٥٦ (١٣٨) إمارة أموية حولها عبد الرحمن الناصر إلى خلافة سنة ٩٢٩ (٣٢٦) ، واستمرت في صيغتها الجديدة حتى سنة ١٠٩ (٤٠٠) ، وإن كان البعض يفضل إنهاء هذا العهد بوفاة الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٩٧٧ (٣٣٦) مستثنيا بذلك الدولة العامورية . (١)

(١) وهي تشمل المنصور (٩٧٧ / ١٠٢ - ٣٦٦ - ٣٩٢) ، والظاهر بن المنصور (١٠٤ - ١٠٨ / ٣٩٣ - ٣٩٩) . وعبد الرحمن بن أبي عامر « شنجول » (١٠٨ / ١٠٩ - ٣٩٩) .

وخلال هذه الفترة الطويلة من الوجود العربي في الأندلس كانت الممالك الشمالية تنتقل من مرحلة التكوين إلى مرحلة البناء والتوسيع . ولكن كل ما حققه الشماليون والخلافة قائمة كان عرضة للخسارة، وأراضيهم كانت مفتوحة لجيوش الخلافة كلما استفحلا خطورهم ، كما حدث أيام محمد بن أبي عامر (المتصور) حين حرك جيشه الكبير ، الذي ضم أعداداً كبيرة من المرتزقة ، وهزم اتحاداً عسكرياً لممالك قشتالة وليون ونافار في رoute اليهود سنة ٩٨١ (٣٧٠) ثم شن فيما بعد حملة أخرى أخضع فيها برشلونة ، وعادوا الكراوة بعد ثلاث سنوات من الهجوم الأخير فاحتل ليون وسمورة وشن حملات ناجحة أخرى إلى أن توفى سنة ١٠٠٢ (٣٩٢) في مدينة سالم . وقد صب أحد مؤرخي يرغش كل الغضب الشمالي على المتصور حين سجل في كتابه : « اليوم مات المتصور ودفن في الجحيم » .

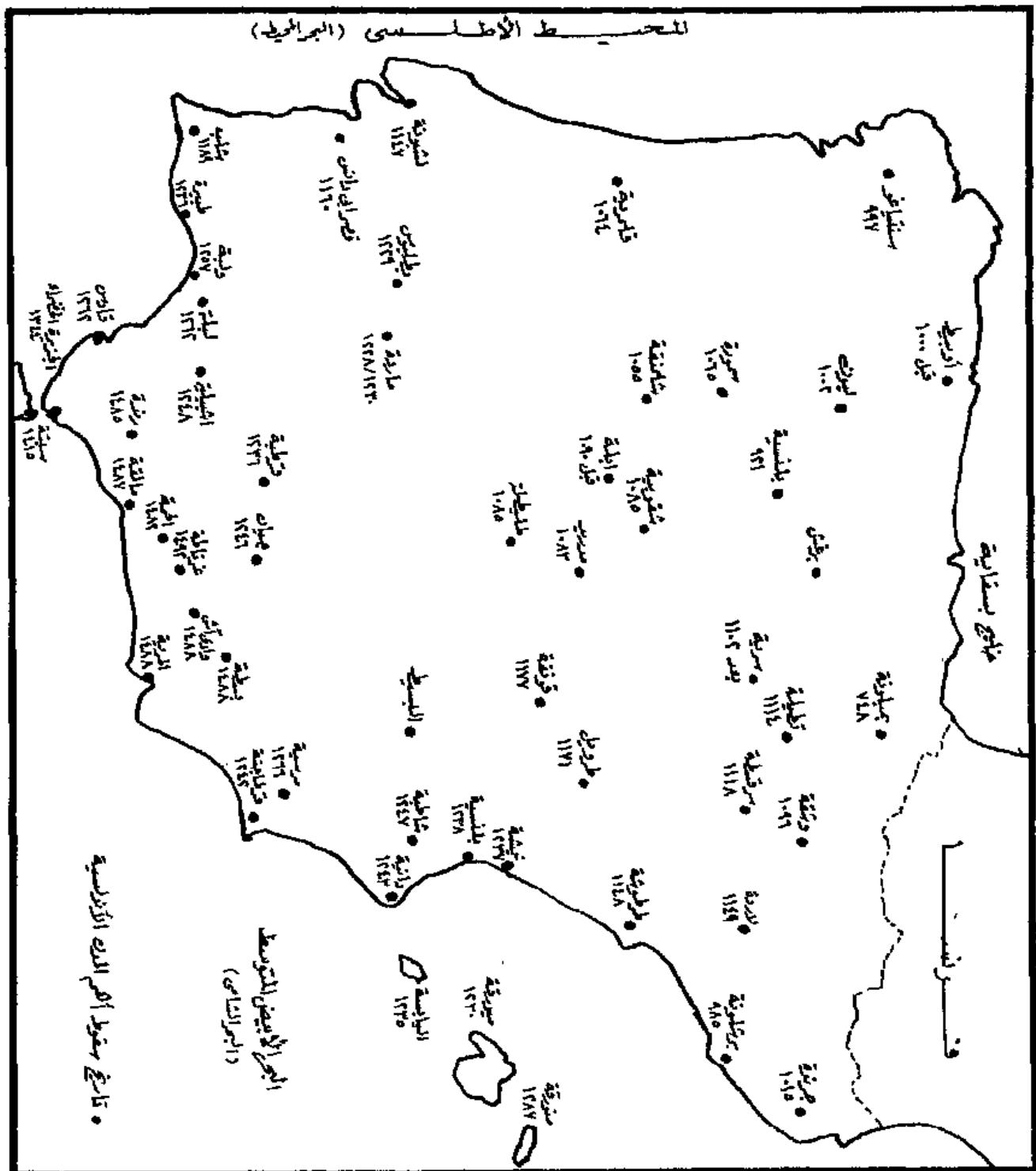
وكان لابد للملوك الشماليين من بناء قوتهم التي اضعفتها حملات المتصور فلجماؤاً لشن غارات سريعة للحصول على المال والخيول والمأوننة ، ودعم مركز جيوشهم التي كانت تسيطر على رقعة مستمرة الاتساع إلى أن انهارت الخلافة وأصبح يقتصر ملوك الشمال فرض الجزية على حكام الطوائف ، وضرب بعضهم ببعض مستغلين نجع ذلك الوقت وهو : « الإمارة ولو على الحجارة » . واستغل فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٥٤ / ٤٢٦ - ٤٥٨) هذا الوضع ولكنه لم يحاول غزو الجنوب ؛ خشية أن يؤدي ذلك إلى اتحاد المسلمين . وحين جاء الفونصو السادس (١٠٧٢ - ١١٩ / ٤٦٥ - ٥٠٢) أتبع في البداية نهج سابقيه ولكنه أخذ يغالي في طلب الجزية من ملوك الطوائف إلى أن قل الذهب وبدأ غش العملة . وبحلول سنة ١٠٨٠ (٤٧٣) كان الطريق متاحاً أمام الفونصو لكي يخطو خطوبته التالية مستفيداً من الخلافات الداخلية التي دبت في طليطلة ، ودخل عاصمة القوط الغربيين السابقة بعد حصار استمر ست سنوات . واحتلال طليطلة كان أهم إنجاز للممالك الشمالية حتى تلك السنة ، إذ كانت المدينة عاصمة الشغر الأوسط ومنها يمكن النزول إلى جميع مناطق الجنوب . أما بالنسبة للمسيحية فقد اعتبر احتلال طليطلة فوزاً كبيراً للكنيسة ورفع من معنويات جيش قشتالة الذي استعاد المدينة بعد سنة ٣٧٠ من سقوطها بأيدي العرب . وهو جرت المدينة في فترات لاحقة ، وحضرت أكثر من مرة ولكنها بقيت بأيدي القشتاليين ، وكانت نقطة تمرين وامداد رئيسية في عمليات التوغل في الجنوب بعد ذلك .

ويذكر بعض المؤرخين أن عدد المدن والقصون التي سقطت مع طليطلة بلغ الثمانين ، إلا أن الفونصو لم يحاول استيعاب ممتلكاته فعاود تحديد الضغط على ملوك الطوائف الآخرين مطالبًا بمبالغ إضافية مع تسليم القلاع والقصون ، وبات من الواضح أن ملوك الطوائف غير قادرين على درء الخطر الشمالي بالاعتماد على قدراتهم الذاتية بعد ثلاثة أرباع القرن من انهيار الخلافة القرطبية ، وانحصر الخيار بجملة استندت إلى المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وهي « رعي البعير ولا رعي الخنازير » وبات الطريق مهدأ لاستدعاء أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين سلطان المغاربة في المغرب .

وفي الثلاثاء من حزيران سنة ١٠٨٦ ، عبر يوسف العدوة إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى بطليوس ، ومعه جيوش من أشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس ، والتقى بجيش الفونصو في منطقة تبعد خمسة أميال شمال شرق بطليوس ، وكانت نتيجة موقعة الراقة هذه انتصار العرب والحق هزيمة مروعة بالفونصو الذي كان مشغولاً قبل وصول الجيش العربي بمصار سقسطة . وبعد سنتين من هذه الهزيمة نزلت بالقوات الشمالية نكبة أخرى في موقعة أقليش ، وعاد يوسف ابن تاشفين الهجوم على الشمال فحاصر طليطلة والمحصون المحصنة بها ولكنه لم يتمكن من فتحها . وحين عاد من غزوته إلى الجنوب بدأ عملية تصفية ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد ابن عباد .

ومع مرور الوقت أيقن الشماليون بعمق محاولة التصدى للمرابطين ، لأن هؤلاء ادخلوا فنونا حربية لم تعرفها الأندلس من قبل مثل الجمالية واستخدام الطبلول لإصدار الأوامر والإشارات الحربية ، والهجوم العريض بالفرسان بدلاً من المبارزات الفردية الشائعة ، واشترك أعداد كبيرة من الزوج وغيرها من العناصر التي دبت الذعر في الشمال الأندلسي والدول الأوروبية . وطوال عهد المرابطين لم يتمكن الشمال المسيحي من تحقيق أي تقدم حاسم إلى أن تغير الوضع أثر احتلال دولة المرابطين ، وتمكن الشماليون سنة ١١١٨ (٥١٢) من احتلال سقسطة والمدن الرئيسية الأخرى التي تقع في الثغر الأعلى بمساعدة الفرنسيين والإيطاليين وغيرهم ، وتضاعفت بذلك الرقة التي سيطر عليها الشماليون معززين مركبهم باحتلال طرطوشة سنة ١١٤٨ (٥٤٣) ، وتحكت مملكة لرغون في السنة التالية من احتلال لاردة وأفراوغة وتوسيع حدودها حتى نهر ابرة . ولكن العمليات القتالية الشمالية لم تتكلل كلها بالنجاح إذ حاول الفونصو السابع احتلال قرطبة بمساعدة سكانها من النصارى المستعربين فانهزم ، ولكنه توج حكمه باحتلال المرية ، فبقيت تلك العملية أوج إنجازاته ، كما كان احتلال طليطلة أوج المجازات الفونصو السادس . أما باقي الصورة فكانت تراجعاً جديداً أمام الموحدين .

استمر عهد المرابطين ستة وثلاثين سنة هزل بعدها ، وقادت على انقضائه دولة الموحدين في الأندلس بين سنة ١١٤٥ و ١٢٢٣ (٥٤٠ - ٦٢٠) . بدأ الموحدون فترة سيادتهم بنتهاء ما يبقى للمرابطين من سلطة واستعادوا مدينة المرية بعد عشر سنوات من سقوطها ، أي سنة ١١٥٧ (٥٥٢) . في الشمال جدد الفونصو الثامن (١١٥٨ - ١٢١٤ / ٥٥٣ - ٦١) الحملات على الجنوب ، ويات يشكل خطراً كبيراً ما حمل الخليفة الموحدى أبي يوسف يعقوب المنصور على جواز العدوة إلى طريف في الثلاثاء من نيسان ١١٩٥ (٢٥ جمادي الآخرة سنة ٥٩١) ومنها إلى أشبيلية ثم قرطبة فقلعة رياح التي تقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة الملكية وسط الأندلس . وفي الثامن عشر من تموز التقى الخليفة الموحدى مع جيش الفونصو في معركة سميت بالراك ، نسبة إلى حصن استخدمه الملك القشتالي لشن هجماته المتكررة على الأرضي الأندلسية ، فكانت هزيمة ساحقة لألفونصو الذي انسحب من المعركة جريحاً ، وفر إلى طليطلة ومعه ٢٠ فارساً . أما الباقيون فهو بوا إلى الحصون القرية واستسلم معظمهم .



هذه النكسة على عظمها لم تلجم الفونصو الثامن طويلاً ، إذ شرع اعتباراً من سنة ١٢٠٩ (٦٦) بمحاصرة بعض القواعد الأندلسية القرية من منطقة سلطانه في فترة تميزت بتأجيج الحماس الديني في أوروبا ، وتنادت الكنيسة لنجدة المالك المسيحية في الشمال الأندلسي ، وأصبحت الفرصة مواتية لشن هجوم واسع النطاق على الدولة الإسلامية . وفي العشرين من حزيران ١٢١٢ (٦٩) انطلقت جيوش قشتالية وارغونية وفرنسية من طليطلة ومعها أوروبيون آخرون بالاتجاه سهل يقع جنوب غرب حصن العقاب إلى الشمال من مدينة جيان ، وافتقت هذه الجيوش مع جيش الموحدين والأندلسين في السادس عشر من تموز (١٤ صفر) ودارت معركة فاصلة انتهت إلى هزيمة الموحدين والأندلسين وافتتح الباب على مصراعيه لاجتياح الجنوب . تلك كانت نقطة تحول رئيسية في التاريخ الأوروبي ، وقد حاول الأسبان فيما بعد تلقيق نسبيهم ، لاثبات أن أحد جنودهم اشتراك في معركة العقاب ، لأن ذلك كان طريقاً سرياً لاحتلال المناصب العالية . أما الخليفة الموحدى محمد الناصر للدين الله فقد عاد إلى أشبيلية ثم إلى مراكش حيث توفي الله في السنة التالية .

انهزم الموحدون في معركة العقاب ، وتوقف العون الذي قدمته المغرب إلى الأندلس ، وكان على الأندلسين السعي لوقف الزحف الشمالي بقوائم الذاتية ، ولكن ذلك لم يكن سهلاً على دولة تكفل الآخرون بحمايتها منذ سنة ١٠٨٦ (٤٧٩) ، كما لم يكن الأمر سهلاً كذلك على المغرب التي دفعت بالجيش تلو الآخر لنزع خطر الشماليين حتى انهكت قواها . وطوال هذه الفترة كانت المرووب مع مسيحي أوروبا ومع الكنيسة الرومية وليس فقط مع الشماليين ، إضافة إلى أن استمرار المعركة حول الشمال الأندلسي إلى مجتمع مؤلف من مقاتلين أو كهنة . الفئة الأولى فيه لا تعرف سوى الحرب مصدرها للثروة ، والثانية لا تزيد أن تتوقف قبل القضاء على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس . ورغم أن مقاومة الأندلسين كانت خارقة إلا أن قواهم الذاتية كانت أضعف من أن تتصدى للمد الصليبي الشمالي ، وهكذا دخلت الأندلس مرحلة التصفية قبل النهاية .

حقق الفونصو الثامن الموصوف « بالتبيل » انتصاره الخامس على الموحدين في معركة العقاب ، ولكن الفتوحات الشمالية في الجنوب كانت من نصيب فرناندو الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢ / ٦١٤ - ٦٥) الذي تمكّن من الاحتلال قرطبة في التاسع والعشرين من حزيران سنة ١٢٣٦ (٢٣ شوال ٦٣٣) ، والحقها باحتلال جيان (١٢٤٦ / ٦٤٣) ، ثم أشبيلية (١٢٤٨ / ٦٤٦) ، وقلص بذلك السلطة الإسلامية في المنطقة الجنوية من شبه الجزيرة . وخلال هذه الفترة السوداء من التاريخ الإسلامي كانت أرغون والبرتغال تقدمان بالاتجاه الجنوب ليرسما حدودها الجديدة . وكما توفر لقشتالة ملك قدير مثل فرناندو الثالث ، فقد توفر لأرغون ملك لا يقل قدرة وهو خافيي الأول الملقب « بالغازي » (١٢١٣ - ١٢٧٦ / ٦١٠ - ٦٧٥) الذي احتل جزيرة ميورقة بمساعدة الإيطاليين سنة ١٢٢٩ (٦٢٧) ، واستكمل في السنوات الخمس التالية الاحتلال الجزائري الشرقي قبل أن يسجل انتصاره الكبير باحتلال مدينة بنسيبة سنة ١٢٣٨ (٦٣٦) والسيطرة على مرسية في المرة الأولى بعد خمس سنوات . وما إن حلّت سنة ١٢٥٣ (٦٥١) حتى انشغلت مملكة أرغون ببناء إمبراطوريتها في بعض مناطق البحر الأبيض

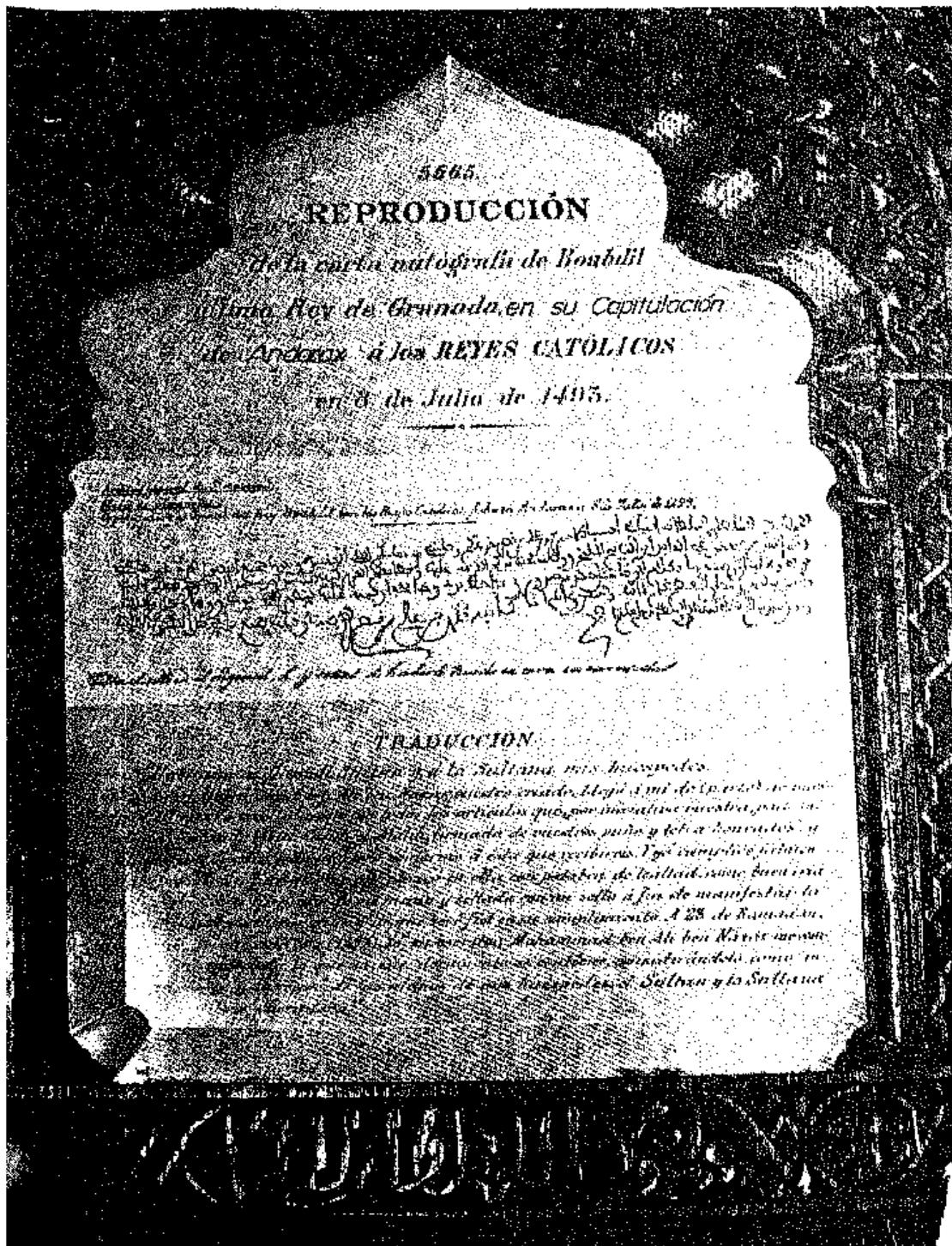
المتوسط . أما البرتغال فقد استولت على مدينة طيبة الجنوية سنة ١٢٣٦ (٦٣٣) وراحت تعدد نفسها لمرحلة تالية من تاريخها الذي ستفتح فيه بحار العالم .

وازاء هذه الوضع المتردي جمع الأندلسيون كل قواهم الذاتية وقاموا باتفاقية شعيبة شاملة في حزيران سنة ١٢٦٤ (٦٢٢) ، واستعادوا مناطق كثيرة منها مدينة مرسية التي احتفظوا بها حوالي السنتين قبل أن يخليها خالبي الأول ثانية بطلب من ابنته زوجة الفونصو العاشر ، الذي خلف والده في عرش قشتالة سنة ١٢٥٢ (٦٥٠) .

أ - سقوط غرناطة :

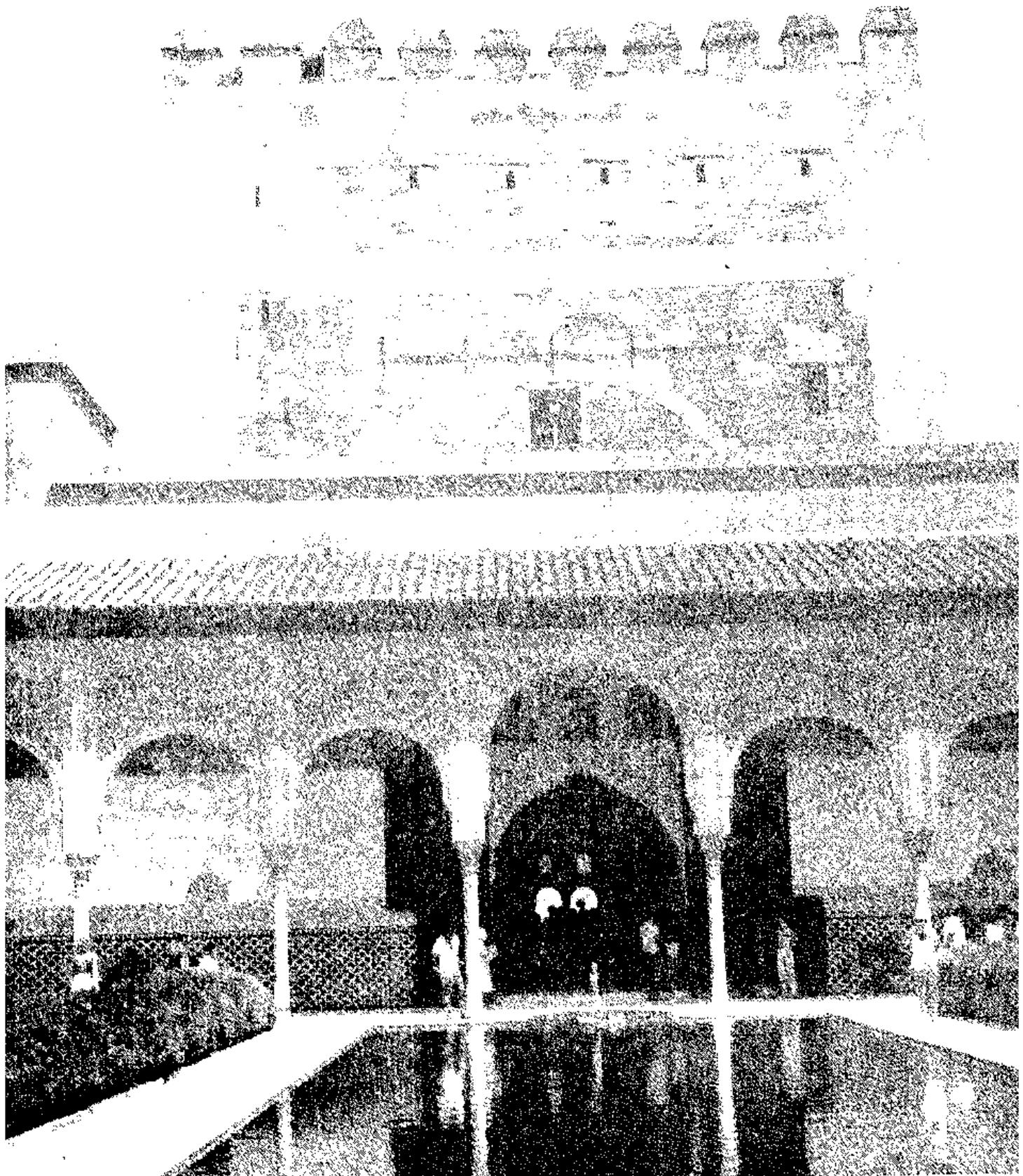
سقطت مدينة مرسية مرسية للمرة الثانية سنة ١٢٦٦ ، واعتبر ذلك التاريخ نهاية استكمال الممالك الشمالية المسيحية للأندلس وما يليقي في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة إيبيرية كان خاضعا للجزية ، ومحصورا بشكل أساسى في مملكة غرناطة . ومع انتهاء مرحلة التوغل الكبير في الجنوب الأندلسي ، انصرفت أرغون إلى بناء إمبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط تاركة عملية استكمال الاحتلال الأندلسي للملك قشتالة ، وإن كان دعم أرغون لجاراتها في الحروب التي دارت في فرات لاسحة مع الأندلسيين لم يتوقف . البرتغال أيضا نهضت طرقا متفصلا عن قشتالة ، وبرزت كيانا متميزا منذ اعتراف البابا بها مملكة مستقلة سنة ١١٧٩ ، وما إن حلست سنة ١٢٣٦ حتى كانت البرتغال قد أخذت مدينة طيبة الساحلية في الجنوب منهية بذلك توسعها ، وراسمة حدودها التي بقيت بصورة عامة على الحال الذي انتهت إليه تلك السنة . وفي السنوات بين ١٢٩٧ و ١٣٢٥ عمل الملك دينيسوس الأول الملقب « بالعامل » على تطوير البنية الاقتصادية لمملكته معتمدا على توسيع نشاطات التعدين والملاحة والتجارة ، وتتابع من جاء بعده نفس الطريق واستمر الصراع مع قشتالة للاحتفاظ باستقلالية البرتغال حتى سنة ١٣٨٥ ، عندما انتصر البرتغاليون على القشتاليين في المعركة المعروفة باسم « الجبروت » . وفي عهد الملك يوحنا الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣) بدأت فترة توسيع كبيرة نحو أفريقيا ، كانت فالتحتها احتلال مدينة سبتة سنة ١٤١٥ ، ثم كان للبرتغال بعد ذلك دورها المعروف في الاتجاه إلى مصادر التوابل في الشرق الأقصى ، والتوسيع في العالم الجديد .

بين سقوط مرسية واستسلام غرناطة ٢٦ سنة ، والتساؤلات حول سبب وجود هذه الفجوة التاريخية الهائلة من « خمود » تؤدى إلى الاحتلال الشمالي للأندلس كثيرة . في بعض المؤرخين يقولون إن قشتالة لم تكن تملك القوة الكافية للإستمرار في توغل منتصف القرن الثالث عشر ، إذ افقدت الممالك الشمالية إلى الوحدة التي تمكنتها من استكمال احتلال الجنوب اعتبارا من سنة ١٢٧٥ وبعثت البعض الآخر أن السبب يكمن في الجزية التي كانت قشتالة تحصلها ، والرغبة في المحافظة على تلك المملكة الأندلسية لأنها كانت الطريق الوحيد لانتقال ذهب أفريقيا إلى شبه جزيرة إيبيرية . وهناك من يقول إن خمود القتال في الجنوب الأندلسي يعود إلى انتهاء فترة الحماس الديني الذي تؤدى خلال الحملات الصليبية ، أو أن

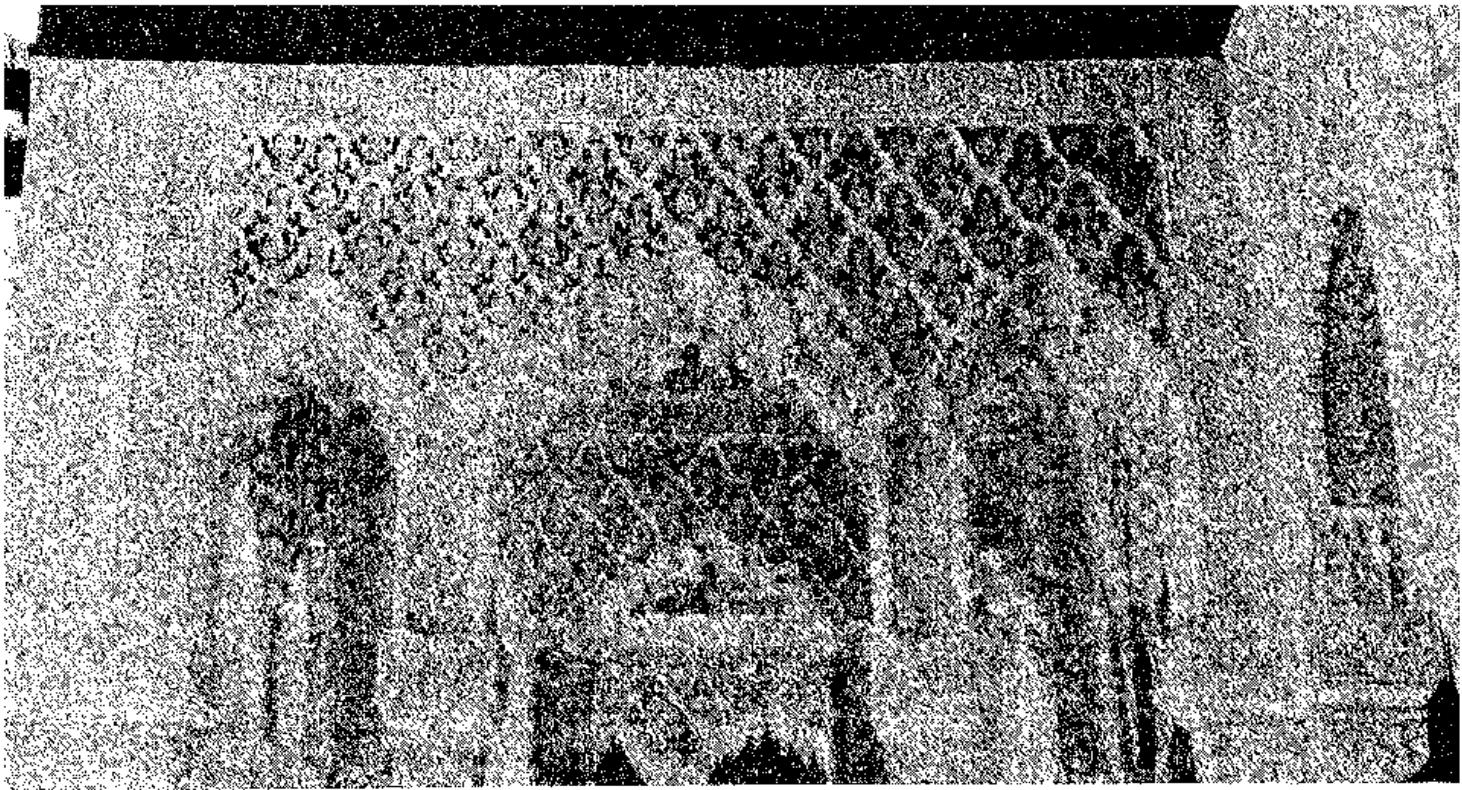


اقرار ابو عبد الله
محمد بن سليم
مدينة الدرس في
الثامن من آيار
سنة ١٤٩٣
(المتحف
العربي، مدريد)
يلاحظ
أن عنوان الوثيقة
غير من جملة ..
ترك المدينة ..
إلى استسلام
الدرش .. النظر
الوثيقة ذاتها في
صورة أقدم في
التاريخ
الأسلامي ..
للدكتور عبد
الرحمن علي
المجسي ،
ص ٥٥٥ .

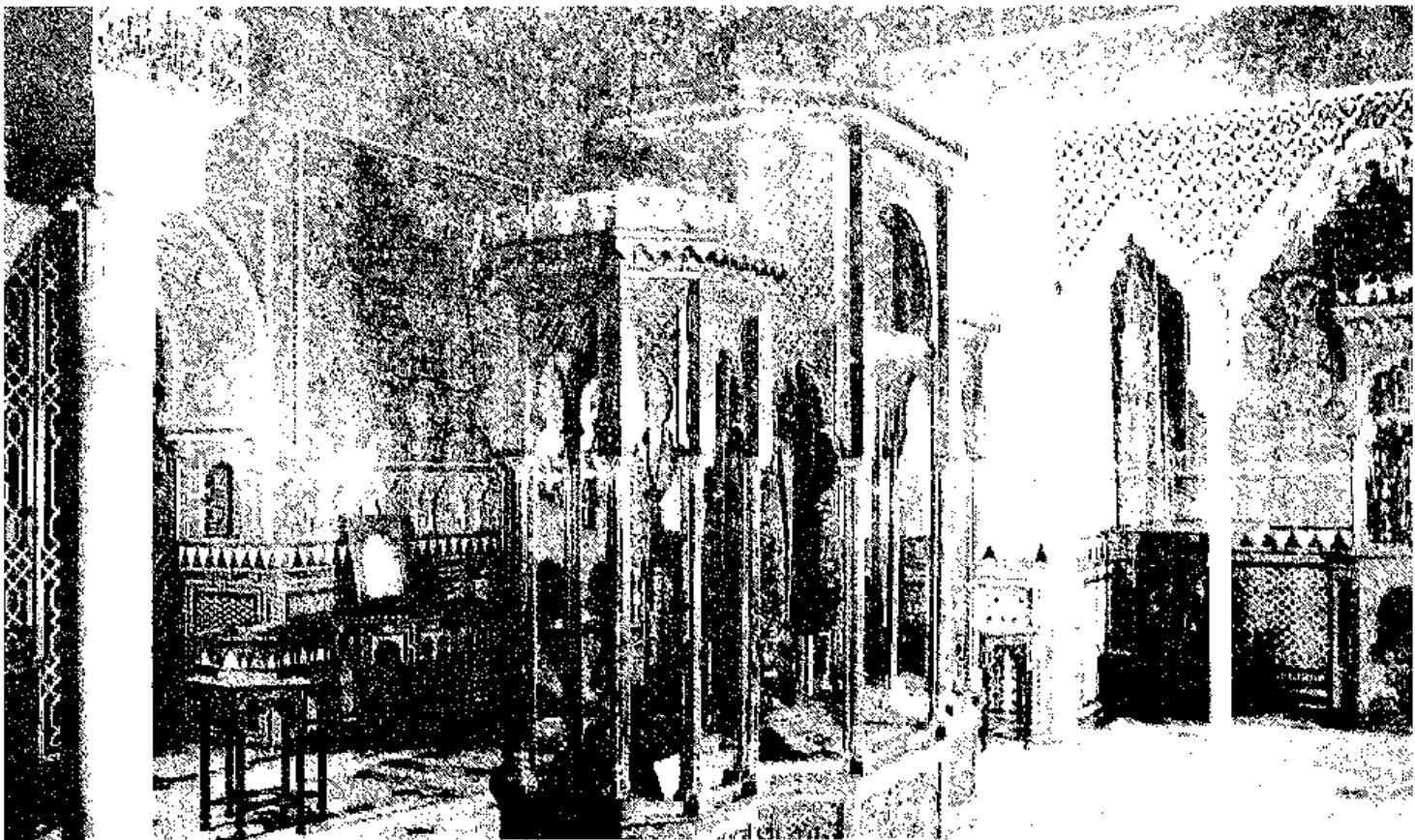
المجوم على غرناطة كان سيؤدي إلى العودة لدق طبول الحرب في المغرب وفتح صفحة جديدة من الحرب المحتلة دائمًا عبر العدة . وهناك بالطبع من قائل بأن غرناطة كانت تملك من القوة ما يمكنها من وقف تقدم قشتالة . ولكل هذه التساؤلات نصيب من الواقعية وكثيرها ليست أمراً غريباً على حقيقة تاريخية ما يزال بعض المؤرخين يتساءلون عنها : لماذا حدث تقدم الشماليين نحو الجنوب في أول الأمر ؟ الشق الثاني من التساؤلات يدور حول أسباب تجدد القتال مع غرناطة آخر القرن الخامس عشر . فالبعض يقول إن ذلك حدث في فترة تجدد فيها الروح الصليبية ، وخاصة منذ سقوط القدسية سنة



قصر الحمراء (غرناطة)



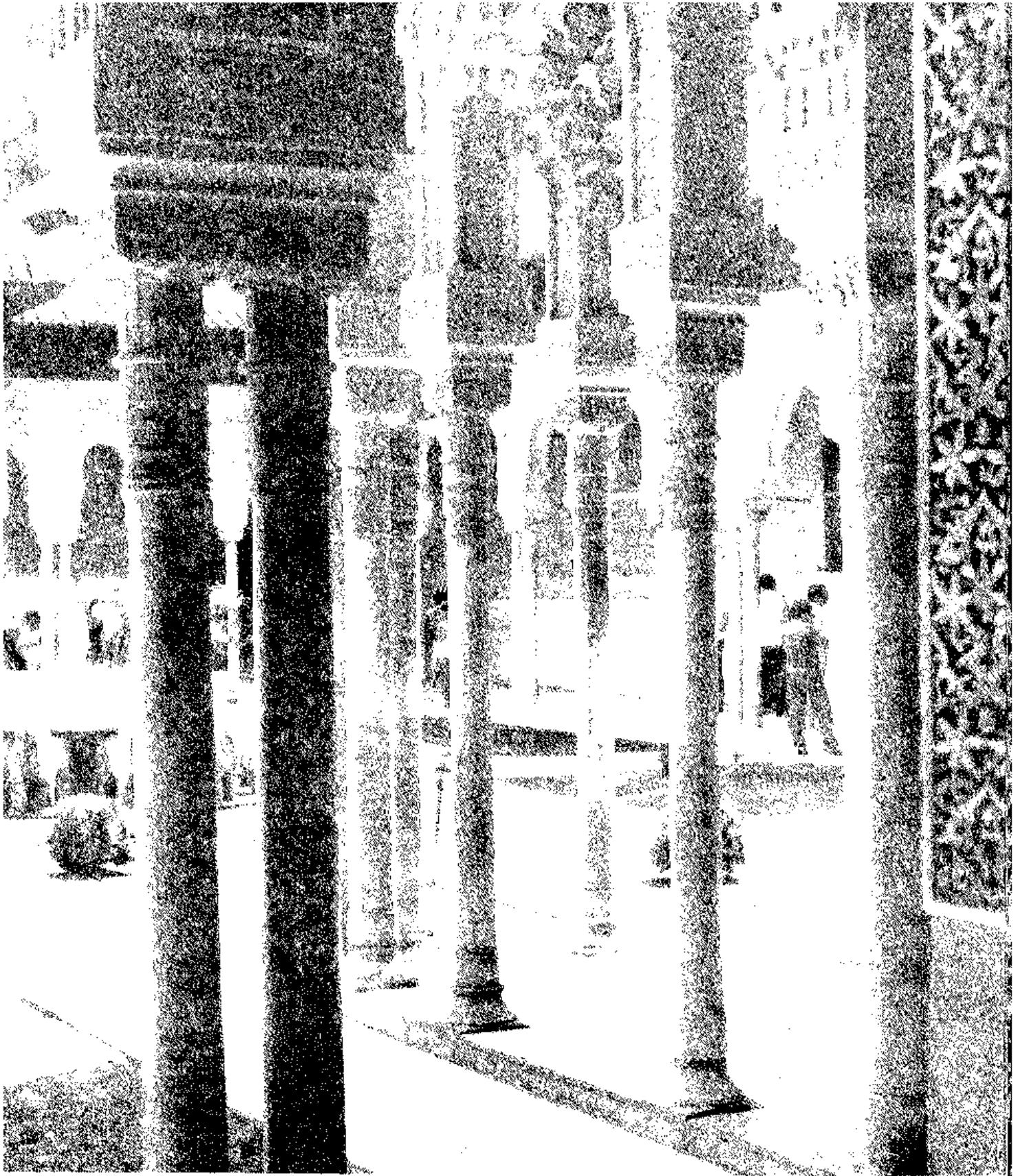
زخارف في قاعة السباع (قصر الحمراء)



الغرفة الغناطية في المتحف العربي (مدريد)



جنة العريف (غزناية)



اعمدة رخامية في قاعة السابع (قصر الحمراء)

١٤٥٣، فعادت الكنيسة تحت قشالة والممالك المسيحية الأخرى في أوروبا على التضامن لتحقيق انتصار جديد على الجبهة الصليبية الغربية ، كما كان يحدث في الماضي . والدعم الذي قدمته كنيسة روما لتحقيق الانتصار على غزناطة هائل ، وما كان ليتحقق بدونه كما رأينا خلال مناقشة دور الكنيسة في سقوط الأندلس . السبب الثاني يتناول مخاوف قشالة وارغون البرتغال من وجود غزناطة رأس حربة يستطيع العثمانيون استخدامها للتوغل في أوروبا ، كما حدث مع امتداد الفتح العربي عبر الشمال الأفريقي إلى أوروبا ، أو على الأقل الخشية من اتفاق أهل غزناطة مع العثمانيين لنقل الحرب بين المشرق وأوروبا ، وضرب الجبهة الغربية للتفاصل إلى الممالك الأوروبية في الشمال وتراجع أسباب أخرى واقع تجدد الحرب إلى الجبو السياسي في قشالة نفسها . فالمملكة إيزابيلا اعتلت عرش قشالة سنة ١٤٧٤ ، وورث زوجها فرناندو عرش ارغون سنة ١٤٧٩ ، وضمن اتحادهما الشخصي رص صفو الملكتين للمرة الأولى . وفترة الإتحاد تلك اتسمت بعملية اصلاح واسعة ، كانت انعكاساً لطموح إيزابيلا في بناء مملكة قوية ، وما كانت تكتمل دون إخراج الأندلسيين من غزناطة ، أو القضاء على وجودهم السياسي فيها . وبسط النفوذ السياسي لإيزابيلا ضمن القضاء على آية معارضة حقيقة لها بين النبلاء وعليه القشتاليين . وبما أن ممالك شبه جزيرة إيبيريا كانت تعود لقتال بعضها فور انتهاء المعارك مع الأندلسيين ، فإن إيزابيلا نظرت إلى تجديد الحرب مع غزناطة سبيلاً إلى تحويل كل الطاقات نحو أهل غزناطة ، وهذا منهج معروف في السياسة الدولية ، ولطالما وحدت الحرب ما لا يمكن توحيده في السلم ، ولطالما جأت الدول إلى شن الحرب على دول أخرى لمجرد تحويل الأنظار عن ضعف داخلي معين .

وما يهمنا هنا هو أن إيزابيلا وفرناندو استغلاً اندلاع الخلاف بين أفراد الأسرة المالكة في غزناطة وحركاً آلة الحرب مرة أخرى ضد الأندلسيين ، بعد أكثر من قرنين من الحصول النسي للحرب بين الجانبين . وامتدت الحرب هذه عقداً كاملاً من الزمن بين سنة ١٤٨١ و ١٤٩١ ، وببدأت باحتلال المدن الرئيسية في مملكة غزناطة ، وضرب الحصار على السواحل باستخدام أساطيل البرتغال وارغون وایطاليا ، لمنع وصول الإمدادات من الشمال الأفريقي إلى المملكة . وب نهاية العقد انحصرت الحرب في المنطقة المحيطة بمدينة غزناطة ، وضيقـتـ القـوـاتـ التـيـ تـقـاتـلـ تـحـتـ لـوـاءـ قـشـالـةـ الخـاقـ علىـ المـدـيـنـةـ المـحاـصـرـةـ بعدـ أـنـ أـحـرقـتـ قـوـةـ منـ ٢٠ـ أـلـفـ شـخـصـ الزـرـعـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ وـقـلـعـ الشـجـرـ .ـ كـانـ الـجـيـوشـ تـنـزـلـ إـلـىـ الـمـيدـانـ فـيـ فـصـلـ الرـبيعـ والـخـرـيفـ وـلـمـ يـكـنـ لـيـخـلـوـ يـوـمـ مـنـ النـزـالـ بـيـنـ فـرـسـانـ غـزـنـاطـةـ وـبـيـنـ فـرـسـانـ الـمـسـيـحـيـةـ ،ـ وـالتـارـيخـ الـأـسـبـانـيـ يـضـيـعـ بـأـنـيـاءـ هـذـهـ الجـولاتـ وـلـقاءـ الـفـرـسـانـ مـعـ الـفـرـسـانـ .ـ وـلـكـنـ الـحـربـ لـمـ تـكـنـ وـقـقـ تـقـالـيدـ الـمـاضـيـ فـالـمـدـفـعـةـ فـيـ تـلـكـ الـفـرـتـةـ اـسـتـخـدـمـتـ عـلـىـ نـطـاقـ أـوـسـعـ مـنـ الـبـداـيـةـ الـمـتواـضـعـةـ التـيـ ظـهـرـتـ فـيـ مـوـقـعـ طـرـيفـ سـنـةـ ١٣٤٠ـ (١)ـ ،ـ حـينـ اـسـتـخـدـمـ الـعـربـ مـدـفـعاـ جـلـيـوـهـ مـنـ دـمـشـقـ ،ـ وـاعـتـمـدـوـ الـبـارـودـ قـوـةـ لـلـدـفـعـ لـأـلـمـرـةـ .ـ وـهـكـذـاـ جـاتـ إـيزـابـيلـاـ إـلـىـ اـسـتـقـدـامـ خـبـرـاءـ الـمـدـفـعـةـ مـنـ الـمـانـيـاـ وـايـطالـياـ وـكـانـ الـمـدـفـعـةـ تـقـدـفـ حـمـمـهاـ عـلـىـ غـزـنـاطـةـ وـتـرـسـمـ نـطـقـ حـرـوبـ الـمـسـتـقـبـلـ ،ـ لـأـنـ اـسـتـخـدـمـاهـاـ كـانـ عـلـىـ نـحـوـ لـمـ تـشـهـدـهـ أـورـوـبـةـ حـتـىـ تـلـكـ الـفـرـتـةـ (١)ـ .ـ وـلـكـنـ الـقـتـالـ كـانـ مـرـفـعـ الـنـفـقـاتـ ،ـ إـذـ اـحـتـاجـ اـسـتـجـلـابـ الـمـدـافـعـ إـلـىـ شـقـ الـطـرـقـ وـبـنـاءـ الـجـسـورـ فـكـثـرـ

(١) عـرـفـ بـوـعـ المـدـافـعـ الـمـدـرـمـةـ الـتـيـ اـسـتـخـدـمـتـ ضـدـ غـزـنـاطـةـ وـمـالـقـهـ باـسـمـ لـومـبـارـدـ (Lombards)ـ وـكـانـ مـنـ أـشـدـهـاـ ثـأـرـاـ مـدفعـ سـيـ «ـ الـحـوـاتـ حـيـميـتـ السـعـ »ـ .

افتراض ايزابيلا من البابا ومن المولين الإيطاليين والألمان واليهود ، ولم تكن الحرب مع غزانتة بالسهولة التي تصورتها قبل تحرير شن الحرب ضد آخر المالك الإسلامية .

ولعل أحد أسباب صمود مملكة غزانتة يعود إلى طبيعة ثورها التاريخي منه . منتصف القرن الثالث عشر إذ حاولت غزانتة تحذب الصدام مع قشتالة بشتى الوسائل ، بما فيها دفع الجزية والتنازل عن بعض المناطق الاستراتيجية ، وحتى التعاون العسكري مع القشتاليين ، ولكن ذلك لم يوقف التغلغل القشتالي في الجنوب . كانت هذه سياسة اتباعها الشيخ محمد (الأول) ابن الأحر « الغالب بالله » مؤسس مملكة غزانتة (١٢٣٨ - ٦٧١ / ١٢٢٢ - ٦٣٥) ، وكثيرون من خلفه في حكم آخر المالك الإسلامية في الأندلس المقهورة ، فنجحت حيناً وانهارت حيناً آخر .

وفي لحظات اشتداد الضغط القشتالي جاء حكام غزانتة إلى الاستجداد بسلطان المغرب كما حدث عندما قاد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب « بالنصرور » جيشاً سنة ١٢٧٥ (٦٧٣) عبر به الرقاق وهزم القشتاليين قرب مدينة استجه ، ثم عبر الرقاق ثلاث مرات بعدها لوقف القشتاليين عند حدود غزانتة . وفي فترات أخرى ساهمت مشيخة الغرابة المغربية في مساعدة أهل غزانتة على صد الشماليين . وكان قادة المشيخة من أقارب السلطان المريني ولكن العلاقات بين السلطنتين ، الغزانتية والمغربية ، لم تكن جيدة على الدوام . ونمط في أوقات أخرى أزمة من عدم الثقة شبيهة بأزمات مماثلة سابقة بين الأندلسيين وكل من المراطين والموحدين الأمر الذي زاد من ضعف غزانتة وفتح الطريق لتتوغل الشمالية ثانية .

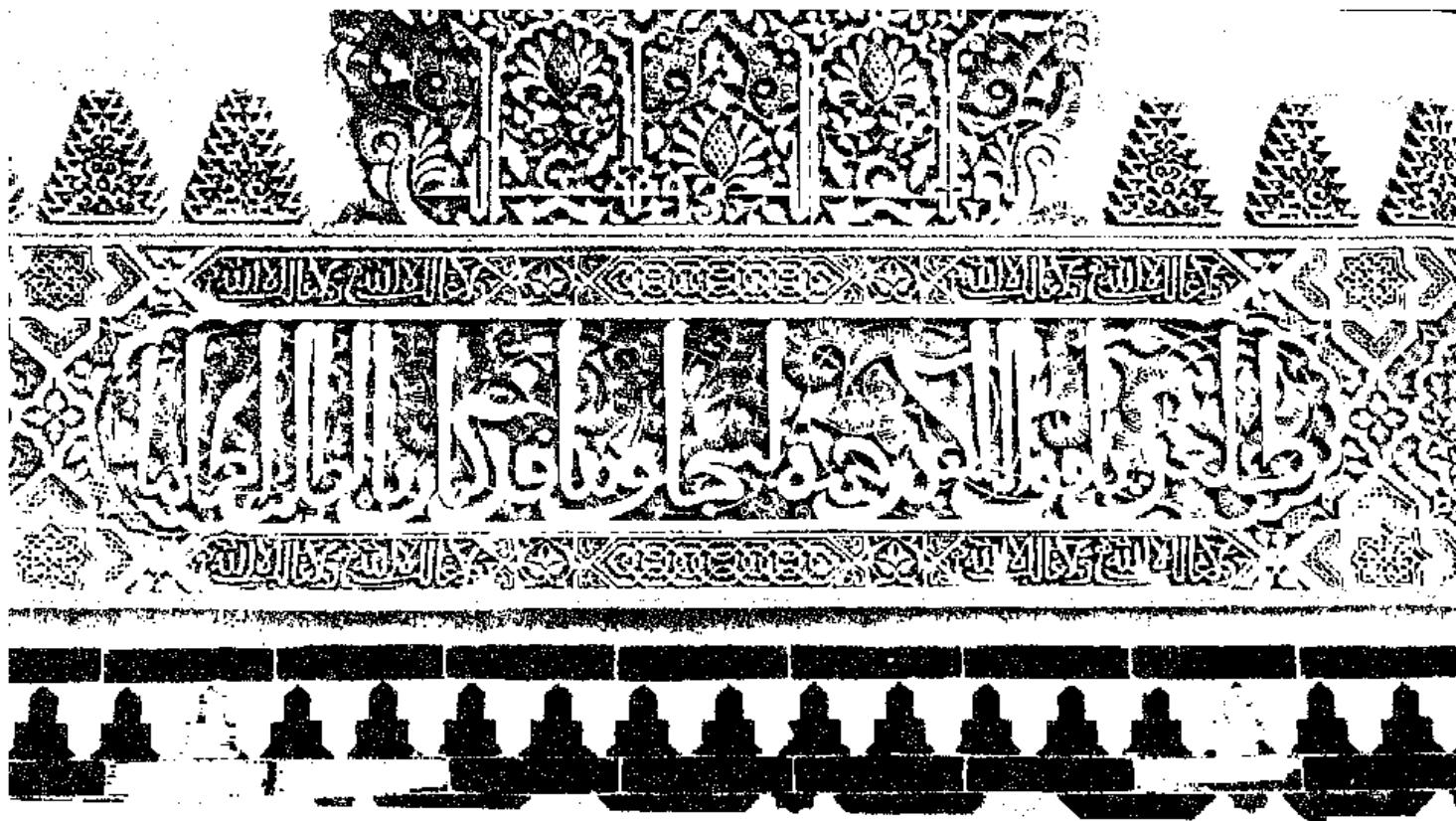
وفي بداية القرن الرابع عشر دخلت غزانتة قشتالة مرحلة جديدة من الصراع ، وتمكن قوات بحرية من قشتالة وارغون والبرتغال من إحراز انتصار حاسم على غزانتة سنة ١٣٤٠ (٧٤٠) ، ودخلت قوات مشتركة للملك المسيحية الثالث إراضي المملكة الإسلامية . وأمام هذا التطور المفاجيء ، توجه السلطان المريني أبي الحسن على بن أبي يعقوب على رأس جيشه المغربي ، وسلطان غزانتة أبي الحجاج يوسف الأول على رأس جيش غزانتة ، ونشبت بين الجيدين معركة حاسمة في الثلاثين من تشرين الأول (السابع من جمادي الأول) ، انتهت إلى هزيمة القوات الإسلامية . وربما فقد المرينيون في معركة طريف هذه مصحف عثمان ، وانقطع المدد المغربي عن الأندلس ، وضعف شأن السلطان في المغرب وترك غزانتة تواجه قشتالة وحدها باستثناء معونات بسيطة فيما بعد .

ورغم هذه التطورات السلبية المتلاحقة ، إلا أن غزانتة تمكن من الإستمرار ١٥٢ سنة بعد معركة طريف ، ونعمت بفترات طويلة من السلام والإزدهار ، وتطورت فيها العلوم والصناعات والحضارة التي تشهد عليها الآثار المتبقية حتى اليوم في عاصمة بنى الأحر ، الذين اكتسبوا صفتهم هذه بسبب شقرة شعر مؤسساها . ولأن غزانتة كانت الملاذ الأخير للنازحين من المناطق التي وقعت تحت سيطرة ممالك الشمال من رغبوا في البقاء في الأندلس وعدم جواز العدة ، فقد تجمع في مملكة غزانتة على مدى

الستين أكبر من مليون أندلسي ، ورحل إليها من أشبيلية وشريش وقداس حوالي ٣٠٠٠٠ شخص ومن مملكة بنسية حوالي ٥٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى أعداد كبيرة أخرى من المناطق التي احتلتها ممالك الشمال . وكانت القوة التي تجمعت لدى غرناطة كافية لخواضة بعض حكام المملكة الإسلامية الصدلي للشماليين ، ووقف تقديم الجزية لهم كأمر الذي أدى إلى نشوب معارك متقطعة التي انتهت فيها الأندلسيون قدورهم على وقف المد الشمالي والاحتفاظ بمعظم الأرضي التي قامت عليها دولة بني الأحرar في البداية ، وإن جنح كثير من ملوك غرناطة إلى دفع الجزية ثنا لاستمرار السلام ، ووصلت في بعض الأوقات إلى ١٢٠٠ قطعة ذهب .

وعندما اختارت الملة القشتالية إيزابيلا فتح باب الحرب مع غرناطة ، كانت تتصدى لسكن مانوال مأسى النزوح عن الأوطان مائة في عقوبهم ، ومقاتلين يعرفون أن غرناطة ملاذهم الأخير ، بالإضافة إلى أن أهل غرناطة لم يفقدوا الأمل بأن المدد من خلف العدوة سيتوفر إذا ساءت الأمور ووصلت مرحلة خطيرة مما زاد من صلابتهم التي عززتها تحصينات عسكرية كبيرة وبراعة فائقة في القتال . ولكن توفر هذه العناصر المهمة لدى سكان غرناطة قابلها توفر إمكانات هائلة لإيزابيلا وزوجها فرناندو ، سواء من ناحية الجيوش أو حدوث الخيرات العسكرية التي عرفت في ذلك الوقت ، أو المبالغ الهائلة التي وظفت للقضاء على غرناطة . ولذا فإن العقد الأخير من حياة تلك الدولة الإسلامية كان داميا وعصبيا وحاسماً .

بدأت مرحلة توثر العلاقات بين غرناطة وقشتالة المتحلة مع ارغون في شخص فرناندو وإيزابيلا عندما حاولت الملة القشتالية فرض شروط ثقيلة على أبي الحسن علي بن سعد (١٤٦٣ - ٨٦٨) ، فرفض قبول الشرط وامتنع عن دفع الجزية ميلغا سفير إيزابيلا بأن ملوك غرناطة الذين تعودوا دفع الجزية مانوا ، وإن دار السك لانتج إلا السيف هذه الأيام . ولكن إيزابيلا لم تكن بحاجة إلى سبب لإشعال الحرب مع غرناطة ، وقد حشدت جيوشها مسبقاً للصدام مع الملة . وإثر عمليات عسكرية متفرقة تمكّن مركيز قداس من احتلال قلعة الخمة جنوب غرب غرناطة سنة ١٤٨٢ (٨٨٧) وأخذ الجانبان يشنان غارات متفرقة على مواضع بعضهما دون احراز أي نصر رئيسي . في هذه الأثناء دب الخلاف بين أبي الحسن وابنه وانتهى إلى استفراد الابن بالسلطة سنة ١٤٨٢ (٨٨٧) . غير أن أبي عبد الله محمد (الحادى عشر) أسر في السنة التالية جنوب قرطبة، فتولى الحكم عمه أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) وبهـ مرحلة جديدة من الصراع ضد قشتالة . أطلقـت إيزابيلا سراح أبي عبد الله محمد الملقب « بملك الصغير » سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) مقابل شروط غير معروفة ؛ فعاد يطالـ عمه بالسلطة الـ أمر الذي أدى إلى إنـدلاعـ الخلافـ بينـهماـ ثمـ الـ حـربـ الفـعلـيةـ ،ـ بماـ اسـفـ عـنـهـ شـطـرـ غـرـناـطـةـ ،ـ فـعـدـ العـمـ إلىـ اـبرـامـ اـتفـاقـ معـ إـيزـابـيلاـ سـنةـ ١٤٨٩ـ (٨٩٥)ـ ،ـ وـغـادرـ غـرـناـطـةـ إـلـىـ تـلـمسـانـ فيـ العـدوـةـ .ـ وـخـالـلـ سـنـوـاتـ الـاقـتـالـ الدـاخـلـيـ هـذـهـ تـمـكـنـ فـرنـانـدوـ مـنـ اـحتـلـلـ رـنـدةـ سـنةـ ١٤٨٥ـ (٨٩٠)ـ وـمـالـقـةـ سـنةـ ١٤٨٧ـ (٨٩٢)ـ إـلـىـ أـنـ بـدـأـ حـصارـ مـدـيـنـةـ غـرـناـطـةـ فـيـ نـيـسانـ سـنةـ ١٤٩٠ـ (٨٩٥)ـ وـبـاتـ مـنـ الـواـضـعـ أـنـ آـيـامـ آخرـ المـالـكـ إـلـاـسـلامـيـةـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ مـعـدـوـةـ .ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـيـ دـعـوـةـ الرـحـيلـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـطـيـ إـلـانـطـيـاعـ بـأنـ بـعـضـ ،ـ لـوـ خـورـ بـنـ الشـمـالـيـنـ وـالـرـحـيلـ ،ـ لـاختـارـ الرـحـيلـ وـلـتـوقـتـ غـرـناـطـةـ عـنـ كـوـنـهاـ الـوـطنـ الـوـحـيدـ طـوـلاـ .ـ



زخارف على أحد جدران الحمراء . ولعل أصل البيت :
علمت بافق الملك (للناس) رحمة
ليجلو ما قد كان بالظلم أظلما

والخيار الذى كان مطروحا أمام أهل غرناطة الاستمرار في القتال دون أمل بتحقيق الانتصار ، أو
الإسلام . ولكن التطورات اللاحقة قصرت الخيارات على الأخير ، وبدأت مباحثات التسليم ثم قدم
موعده التنازل عن المدينة إلى الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ (الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧)
ودخلتها إيزابيلا وفرناندو بعد ذلك بستة أيام . ولم يكن خيار التسليم مقبولا لدى الجميع إذ فضل موسى
بن أبي العسان ألا تكون له أية علاقة بما قبل به الملك الصغير ، فخرج من باب اليرة ولم يسمع عنه
منذ ذلك التاريخ . وينقل ارتفع عن القدس أنطونيو أجاييدا (١) مصدر موسى فيقول : أن سرية من فرسان
قتاله التقى به على ضفة نهر شنيل : « فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف
بنفسه . فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه
فالقاه على الأرض ، ثم انقض على الماقفين . وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من
جرح ، ولم يرد إلا أن يقتل دون رغبة في أن يعيش لينعم بظفروه . وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى
أفني أكثر من نصفهم . غير أنه جرح في النهاية جرحا خطرا ، ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة
أخرى ، فسقط على الأرض ، ولكنه رکع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ ينابل عن نفسه ، فلما رأى
قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيرا في يد خصمه ارتد إلى ورائه بوئية أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه
النهر ، فابتلعه لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق . ويقول القدس إن الفارس هو موسى بن لما
الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين في المعسكر الأسباني عرفوا جواده المقتول » .

(١) أوردها محمد عنان في « مواقف حاسمة » عن واشنطن ارتفع « احتلال غرناطة » الفصل ٩٧ . كما ترد قصة موسى في عدد من المراجع العربية وفي الجزء الثالث من مؤلف خوسيه كوندي « تاريخ السيطرة العربية في إسبانيا » . (انظر المصادر) .

ب - توزع الأندلسيون بعد سقوط غرناطة :

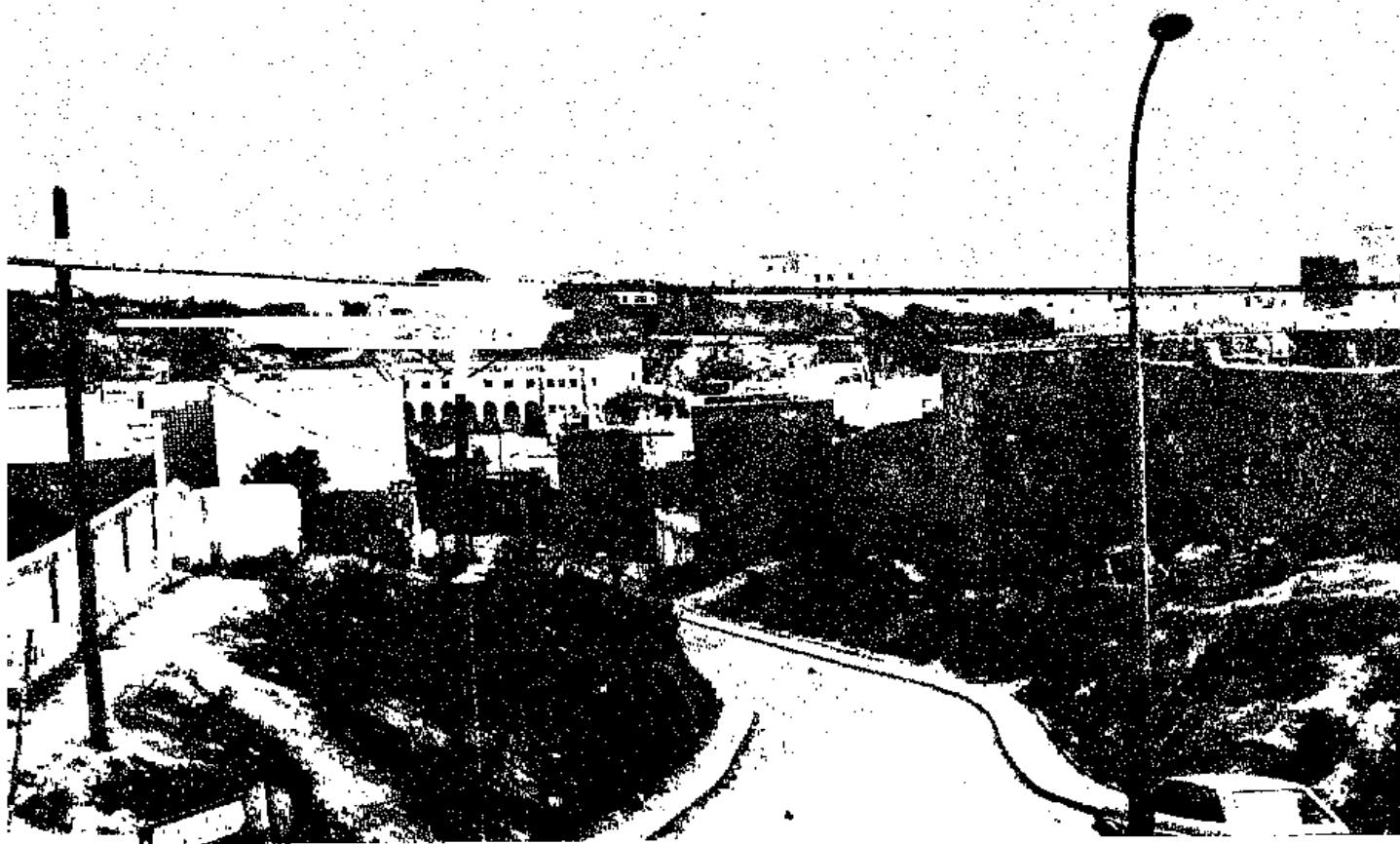
قبل أن نبدأ الحديث عن عدد من بقي من الأندلسيين. تحت حكم قشتالة وارغون وأماكن تجمعاتهم ، لابد من الإشارة إلى أن جميع الأرقام التي وصلت إلينا من تلك الفترة لا تنسن بالدقه ، ولا سيما بالنسبة لاحصاءات قشتالة أو تلك الواردة من مصادر قشتالية . النقطة الثانية هي أن معظم المؤرخين في تلك الحقبة البعيدة من الزمن كانوا عمال الملك يأمرون بأمرهم ويظهرون أو يخفون ما يريده أصحاب نعمتهم ، ولذا فليس من المستبعد أن يكون النجح في ذلك الوقت خفض عدد الأندلسيين من بقوا بعد سقوط غرناطة والتقليل من شأنهم ، وتجاهل معظم الحقائق المتعلقة بعدهم وامكاناتهم أو موقفهم تجاه السلطات القشتالية . هذا بالطبع خلاف الصعوبة الناتجة عن بدائية عمليات الإحصاء في تلك الفترة والانخفاض الذي كان يلحق بعدد السكان نتيجة الأوبئة وعمليات إعادة توزيع السكان بسبب الحروب والقاحل وغيرها من الأسباب .

والمعروف أن الأندلسيين كانوا يشكلون الأغلبية في كل المناطق الواقعة جنوب نهر دويرة وابرة . وعندما احتل الفونصو السادس طليطلة سنة ١٠٨٥ ، بقيت أعداد غير معروفة من الأندلسيين في المدينة ، ولابد أن يكون العدد كافيا لكي يُسوغ للأfonصو الأدعاء بأنه سلطان « الملتين » أي الإسلامية والنصرانية . ومع تقدم قوات الشمال باتجاه وسط الأندلس في القرن الثالث عشر نزح مئات الآلاف من المدن والقرى باتجاه الجنوب ، أو رأى البعض منهم أن الانتقال إلى مدينة أخرى مما تبقى من الأندلس تحت سيطرة العرب ، سيكون مجرد خطوة في الطريق إلى نزوح آخر ، ولذا انتقلوا إلى العدوة المغربية فور نزوحهم الأول أمام اصرار فرناندو الثالث أو خافييه الأول على اخلاء المدن من السكان الأندلسيين ، أو بسبب المذابح التي ارتكبها جنود الشمال وأدت إلى زيادة حدة عملية اخلاء المناطق المحطة . أما أكبر عملية نزوح جماعية وقعت في القرن الثالث عشر فكانت عندما سقطت أشبيلية والمدن القوية منها . ويعتقد الآن أن عدد النازحين وصل إلى عدة مئات من الألوف ، رحل قسم منهم إلى العدوة المغربية ، ورحل قسم آخر إلى المناطق التي كانت ماتزال تحت سيطرة الأندلسيين . واستمرت هذه العملية في كل مكان إلى أن بدأت حرب غرناطة في القسم الأخير من القرن الخامس عشر ، حين كان عدد من سكن مالكتها أكثر من مليون شخص ، رحل قسم صغير منهم خلال الحرب إلى العدوة وسقط قسم آخر قتلى ، وأسر عدد كبير منهم استعبد أو بيع أو أهدي إلى ملوك وملكات أوروبا .

والثابت أن عددا غير معروف من الأندلسيين بقي في وديان نهر ابرة ، كما بقي عدد كبير من المزارعين في المناطق الأندلسية التي احتلتها قوات قشتالة وارغون في القرن الثالث عشر . وعلى هذا فإن الإعتقاد يسود بأن عدد من بقي من الأندلسيين في قشتالة ، قبل سقوط مملكة غرناطة ، كان يصل إلى حوالي ٣٠،٠٠٠ شخص أي ١٠ بالمائة من السكان القشتاليين المقدرين بحوالي ثلاثة ملايين شخص . في ارغون (وكانت تضم ارغون وقطلونيا وبانسية) بقي من الأندلسيين حوالي ١٥،٠٠٠ شخص أو ما يعادل ٢٪ من عدد السكان الكلي الذي لم يكن ليتجاوز حوالي نصف المليون نسمة . وفي نهاية مرحلة الاحتلال

الكبير للأندلس (١٢٦٦ - ١٢٢٢) طرد خاتمي الأول الأرغوني وألفونسو العاشر القشتالي عدداً كبيراً من المزارعين العرب من مرسية ، والقسم المتبقى في مملكة اراغون بعد ذلك كان بمقدار ٢٠٪ من تعداد السكان الكلى . ولاشك في أن المسلمين ظلوا يشكلون الأغلبية في بلنسية ، على الأقل ، حتى بداية القرن التاسع عشر . حين كانوا أول المنفين إلى العذوة . ومن الطبيعي أن يكون بعض سكان مملكة غرناطة رحل خلال الحرب ، التي استمرت قرابة عقد كامل من الزمن رغم عدم توفر آية أرقام عن عدد مؤلاء .

المجموعة الأخرى من الإحصاءات توفرت بعد التعداد العام الذي جرى في قشتالة وارagon ونافار سنة ١٤٨٢ ، وعرف باسم احصاء فتيلية . يُبيّن هذا التعداد أن عدد الأسر في قشتالة وصل إلى مليون ونصف المليون أسرة ، أي ما يزيد عن ستة ملايين وسبعة ملايين ونصف المليون شخص . ولذا فإن المبالغة كبيرة فيها خاصة إذا أضفنا إلى الرقم عدد سكان مملكة غرناطة ، أو من تبقى منهم ، وهو يتراوح بين نصف مليون وثلاثة أرباع المليون ، والمليون طبقاً للمؤرخ الذي يتعامل بهذه الأرقام . أما عدد سكان مملكة اراغون فوصل طبقاً لذلك الاحصاء إلى مليون شخص ، وعدد سكان مملكة نافار إلى حوالي ١٠٠,٠٠٠ شخص . وأدق التقديرات الخاصة بعدد السكان نحو نهاية القرن الخامس عشر تشير إلى اقترابه من ٥٠ مليون نسمة ، دون حساب سكان غرناطة ، لاسيما وأن احصاء سنة ١٥٣٠ يقدر السكان بحوالي ٣٤ مليون نسمة ، بينما يضع احصاء سنة ١٥٤١ السكان بمقدار ٣٧ مليون نسمة . ولعل أفضل تعداد عام هو الذي أمر به الملك فيليب الثاني لأغراض جبائية الضريب ، وتبين فيه أن عدد سكان قشتالة ٩٣ مليون نسمة ، وعدد السكان في مملكة اراغون ٤١ مليون نسمة منهم ٤٥,٠٠٠ نسمة في بلنسية و ٤٠,٠٠٠ في اراغون و ١٣٥,٠٠٠ نسمة في جزر ميورقة ومنورقة والياستة ، أي أن العدد يقترب من عدد سكان قشتالة وارagon والملك الصغيرة التابعة لها إلى ٣٥٥,٠٠٠ نسمة ؛ أي أن العدد يقترب من عدد سكانmania وإيطاليا في تلك الفترة ، ولكنه يزيد على عدد سكان إنجلترا ، ويقل كثيراً عن عدد سكان فرنسا الذي قدر بحوالي ٦٦ مليون شخص ، وبذلك كانت أكبر الدول الأوروبية سكاناً . ومعظم احصاءات قشتالة وارagon أوضح أن حوالي ٨٠٪ من السكان كانوا يعيشون في الريف وما يزيد عن ١٠٪ في المدن ، وكان ما يزيد عن ٣٥٪ من السكان رجال الدين ، وكانت نسبة النساء والحكام بمقدار ٢٪ بالملائمة فقط . والاحصاءات المتوفرة قرب نهاية القرن الخامس عشر تفيد بأن عدد سكان كل من قرطبة ومرسيية وميورقة ، كان يتراوح بين ١٥,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ نسمة ، ولكن عدد سكان إشبيلية وبولنسية كان أكثر من ٨٠,٠٠٠ لكل منها ، وهذا يظهر الكارثة التي لحقت بالمدن القشتالية والأرغونية منذ احتلالها ، إذ لم تستعد معظم المدن رخاءها وعد سكانها الذي بلغته خلال الحكم العربي . وكانت إشبيلية من بين مدن قليلة حققت زيادة في عدد السكان بعد احتكار التجارة مع العالم الجديد في القرن السادس عشر . والإحصاءات الخاصة بعدد الأندلسيين في الفترة التي لحقت بشورتهم الأولى سنة ١٥٠٢ تشير إلى أن عدد الأندلسيين كان بمقدار ٦٠,٠٠٠ في اراغون و ١٦,٠٠٠ في بلنسية و ١٠,٠٠٠ في قطالونيا و ١٥,٠٠٠ في ميورقة ، وبذلك يكون مجموع الأندلسيين في مملكة اراغون حوالي ٢٣٥,٠٠٠ نسمة . أما في قشتالة فكان العدد يتراوح بين ٧٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠ مليون نسمة ، منهم ٢٠,٠٠٠ في قشتالة . وما بين ٥٠,٠٠٠ و ٧٠,٠٠٠



مدينة طريف في الحسوب

أندلسي في مملكة غرناطة : وإذا أضفنا إلى هذين العددتين الأندلسين في ارغون (بمحدود ٢٣٥٠٠٠) وقشتالة (حوالي ٢٠٠٠٠) فإن الإجمالي يكون بين ٩٣٥٠٠٠ و ١١٣٥٠٠٠ شخص . ونتيجة لاخماد الثورة الأندلسية الأولى وصل دور مرسوم تنصير الأندلسين سنة ١٥٠٢ ، اختار حوالي ٣٠٠٠ أندلسي الرحيل إلى العدوة وغيرها من المناطق ، فيكون عدد الأندلسين المواركة (المورسيكون) ، الذين اضطروا للبقاء في قشتالة وارغون ومملكة غرناطة ما يزيد عن ٦٣٥٠٠٠ و ٨٣٥٠٠٠ شخص . وهناك بعض الاشارات إلى رحيل مجموعات من الأندلسين إلى العدوة في العقود التي لحقت بالثورة الأندلسية الأولى ولكن لا تتوفر عن عمليات الرحيل هذه آية معلومات دقيقة . (انظر توزع الأندلسين بعد الثورة الكبرى) .

٤ - أسباب اندلاع الثورة الأندلسية الأولى

أ - شروط استسلام غرناطة :

تفاصيل مراحل استسلام غرناطة قليلة ، ولكن اشتداد الحصار وتضييق الخناق على غرناطة ، لابد وأن يكون سببا في حمل الملك أبو عبد الله محمد الصغير على فتح باب المفاوضات . وربما كان ذلك

أحد الشروط السرية التي توصل إليها آخر ملوك غرناطة مع إيزابيلا وفرناندو خلال أسره^(١) ، ولكن من الواضح أن الملك الصغير أجرى معظم مباحثاته سرا دون معرفة أغلبية أهل غرناطة . مثل الملك الصغير وبعض من معاونيه جانب غرناطة ، بينما مثل إيزابيلا أمين سرها فرناندو دى زفرو وغونزالو القرطبي ، وكان الأخير ملما باللغة العربية عارفا بتعاليد العرب وعاداتهم . ودارت المفاوضات سرا أغلبها خلال الليل في غرناطة نفسها أو في قرية قرية ، وانتهت إلى الاتفاق على شروط التسلیم في الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٩١ (٢١ محرم ٨٩٧) ، على أن تدخل قوات قشتالة المدينة بعد ٦٠ يوما . ولما تسرّت أئمّة المعاهدة إلى أهل غرناطة أعلّنوا الثورة على الملك الصغير ، فاتفق إيزابيلا على تقديم أجل تسلیم المدينة إلى الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ ، فدخلت طلائع الجيش ورفعت علم قشتالة على الحمراء وأعدت العدة لدخول إيزابيلا وفرناندو عاصمة آخر الواقع الإسلامية في إبريريا .

وفي يوم التسلیم أقام فرناندو في مسجد حوله إلى كنيسة ، تعرّف بإسم كنيسة القديس سباستيان وتقع جنوب غرناطة ، وانتظر قدوم الملك الصغير ، ومعه حاشيته وحولي ٥٠ فارسا عبروا نهر شنيل في الطريق إلى جبل البشرة ، فتوقف الموكبان وتم الوداع واستكمل الملك الصغير رحلته إلى مكان اقامته في البشرة متوقفا في نقطة تطل على غرناطة ، حين التفت إلى مملكته السابقة لأخر مرة وبكي ، فنثره أمه عائشة وقالت له بيتها الشهير :

ابك مثل النساء ملوكا مضاجعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

وما يزال الدليل الأسپاني يصطبّح السائحين إلى تل عبر الوادي المعروف « بالسعيد » ويقف عند مرمي اسمه : (El Ultimo Suspiro del Moro) « المكان الذي أطلق فيه المغربي آخر حسراه » . ومن هناك انطلق أبو عبد الله محمد إلى قرية اندرش من قرى جبل البشرة ، ولكن إيزابيلا باعث ما أقطعته الملك الصغير وهو ما يزال يعيش فيها ، وسلمته الثمن وكان ٨٠٠٠ دوقة ، مع اشعاره بأن وجوده غير مرغوب فيه بعد الآن ، فعبر العدوة سنة ١٤٩٣ إلى مليلة ، واستقر في فاس إلى حين وفاته سنة ١٥١٨ (٩٢٤) معملاً وفق القول : « ارجموا عزيز قوم ذل ». ولست هنا بقصد تقييم الملك الصغير ، وفيما إذا كان عميلاً متخاذلاً أو غير ذلك فالمعركة مع إيزابيلا وقشتالة كانت ستطول لأجل غير معروف ، ولكن ما تتوفر من معلومات عن حرب غرناطة لا يترك مجالاً للشك بأن الانتصار كان في النهاية لصالح ملوك الشمال . يضاف إلى ذلك أن المعارك التي بدأت سنة ١٤٨١ ، أخذت طابعاً وحشياً وما كانت المدينة التي تسقط بين أيدي قوات إيزابيلا وفرناندو لتجو من تقتل أهلها وأسرهم ويعهم عيدها . وما حدث في مالقة يوم سقوطها سنة ١٤٨٧ يعطي فكرة عن مسلك فرناندو ، فجميّع أهل المدينة انتهوا إلى السيف أو إلى الاستبعاد . والمعاهدة التي ابرمها أبو عبد الله محمد مع إيزابيلا أفضل ما يمكن توقعه في مثل تلك الأزمة لولا ألوها - ككثير من سابقاتها - إلى الخرق والتتجاهل .

(١) ظاهر أن الملك الصغير أُسر مرتين الأولى قرب اللسانة سنة ١٤٨٣ ، والثانية قرب لوحة سنة ١٤٨٨ وفي المصادر العربية عدة اشارات إلى أسره في المرة الأولى .

شملت معاهدة تسليم غرناطة كل ما يمكن أهلها من تحقيق شروط عيش مقبولة في ظل الاحتلال ، إذ ضمنت سلامة الناس وملكيتهم والسماح لمن أراد مغادرة غرناطة إلى العدوة المغربية ، وفك أسر جميع من وقع بيد القشتاليين أثناء الحرب ، وعدم اكراه الناس على التنصير أو تكليف المسلمين بضيافة جنود قشتالة ، وعدم ابعاد أهل البلد أو زيادة الضرائب . كما كفلت الأمان للمسلمين في تجوالهم وعدم اجبارهم على حمل العلامة التي كان اليهود وأهل الدجن يحملونها (وكانت على شكل دائرة صفراء قرب الصدر) والسماح للمسلمين بممارسة دينهم . واشترطت موافقة البابا على ماجاء في المعاهدة والحصول على توقيع الشخصي عليها ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشروط التي ضمنت حتى منع النصارى من التطلع إلى دور المسلمين ومعاقبة من يضحك من النصارى على عادات أهل غرناطة . كانت المعاهدة ملزمة واضحة شاملة ، ولكن إيزابيلا وفرناندو راجحا يشجعان عليه أهل غرناطة على الرحيل ، وأبعداً من أهل المدينة من استوطتها في مراحل قرية ، وشخص المسلمين المنطقة من غرناطة القديمة المعروفة بالبيانين (رياض البيانين) وهي تقع في الطرف الشمالي من غرناطة بين نهر دار في الشرق ، وبين مجموعة من الأسوار ، التي تعرف اليوم باسم سور المغاربة . أما الأقسام الباقية من غرناطة فقد أسكنت بعشارات الآلاف من النصارى من تحكمت إيزابيلا وفرناندو من اقناعهم باستيطان آخر معاقل الأندلسيين .

واهنت إيزابيلا وفرناندو عملية احتلال غرناطة وعادت توزيع سكانها ، ورحلت إلى أشبيلية تاركة المدينة في عهدة فرناندو دي زفه والكونت تدلة الحاكم العسكري (العام) لغرناطة ، وهو ينتهي إلى أسرة مندورا المشهورة . أما الثالث فهو هرناندو طليبة الذي عين أول رئيس لأساقفة غرناطة ، وكان قبل ذلك كاهن الاعتراف الخاص بملكية إيزابيلا . وتعيين هؤلاء الثلاثة يعطي الانطباع بأن إيزابيلا وفرناندو احتظا في البداية طريق محاولة اقناع أهل غرناطة اعتناق النصرانية بالحسنى ، أو على الأقل ضمان أهلها رعايا مخلصين للحكم القشتالي القديم . وكان لكل من الثلاثة أسباب خاصة في الانتقال خطوة خطوة بحذر كبير . فالأول كان عارفاً بالعربية ولما بعادات وتقاليد العرب وحضارتهم حريضاً على الظهور بمظهر الصديق ، لأنَّه كان يعرف أن تلك الطريقة أفضل ما يمكن اتباعه للحصول على تعاون أهل غرناطة . أما الثاني فكان مهتماً بالحصول على الضرائب من أهل غرناطة للإنفاق على جيشه ، والثالث كان يعتقد منذ البداية أن اظهار الاهتمام بالعرب وكسب موذهم ، يمكن أن يكونوا أصوب الطرق إلى تصديرهم ولذا درس اللغة العربية ولم يتقافز العرب وتاريخهم ، وترجم عدداً من الكتب الدينية النصرانية إلى اللغة العربية .

ومفاوضات تسليم غرناطة نصت على تسليم القلاع والمحصون والمدافع للسلطات المختلة ولكن الأسلحة القردية بقيت في حوزة الأندلسيين ، واستمرروا يستخدمون لغتهم ويلبسون ملابسهم الملونة المركبة ويمارسون عقليتهم ضمن حدود ما سمحت المعاهدة به . وعلى العموم كانت خطوات بسط السيطرة القشتالية على سكان غرناطة الأندلسيين بطيئة ومتدرجة وحذرة ، وكانت سنوات قليلة من المدورة الذي يسبق العاصفة .

ب - خرق معاهدة تسليم غرناطة :

كان الانتصار الذي حققه فرناندو على غرناطة قليل التكاليف نسبيا ، فهو لم يفقد من جنوده الخمسين ألفا الكثير ، وكانت الشروط التي احتوتها معاهدة التسلیم كثيرة وشاملة ، ولكنها كفلت في نهاية الأمر سيطرة قشتالة على آخر المالك إسلامية ، ووضعت ملكي قشتالة وارagon على رأس القائمة التي ضمت في تلك الفترة عددا قليلا من الملوك والحكام، وأبرزهما حامين للمسيحية عموما ، والكاثوليكية بصورة خاصة ، ولذا لم يكن من الغريب أن يسبغ عليهم البابا لقب « العاهلين الكاثوليكين ». وسقوط غرناطة جاء في فترة تميزت بتأجيج نيران التعصب الكاثوليكي وساهمت الملكة إيزابيلا ، وفرناندو بعد ذلك ، في خلق مؤسسة خاصة تتولى ترويجهما هذا النوع من الاضطهاد الديني ، حتى حصلت من البابا على موافقته لتأسيس محكمة التفتيش ، وكان ذلك سنة ١٤٧٨ . وحين تولى توما دي توركيمادة منصب المفتش العام ، راح يتبع مهام منصبه الجديد بتفانٍ وانخلاص متناهيين ملائقاً والجيش السري الذي وظفته محكمة التفتيش المراطقة ، ولاسيما اليهود المنصرين الذين عرفوا باسم المارanos (أى الخنازير) . وفي السادس من شباط سنة ١٤٨١ ، تم احرق ستة من اليهود المنصرين في اشبيلية من أحضروا لمارسات محكمة التفتيش . وماكادت السنة ذاتها تقترب من الانتهاء حتى وصل عدد من أحرق من اليهود إلى ٢٩٨ شخصا ، وكانوا مجرد دفعة أولى من الضحايا الذين سيسقطون طعماً لمحكم التفتيش ، حتى حلها في القرن التاسع عشر (أنظر الفصل الخامس) . أبرزت إيزابيلا تعلقها بالكاثوليكية وحقدها على كل أصحاب الأديان الأخرى عندما قررت إنشاء محكمة التفتيش ، ولكن الكثير من تصرفاتها عكست هذا التعلق . وعندما التهمت النيران مخيم القوات المسيحية التي كانت تماضير غرناطة (ويقال إن السبب شمعة سقطت في خيمة إيزابيلا) أمرت بناء مدينة كاملة سماها « مدينة الإيمان المقدس » . وهي حين قبّلت شروط تسليم غرناطة ، فإنها كانت تعتقد منذ البداية أن في الامكان تصدير مسلمي غرناطة أو اخضاعهم لمصير أهل مالقة والحمدة ولوثة ، وغيرها من مدن الأندلس التي سقطت خلال الحروب مع الشمال .

خرقت معاهدة تسليم غرناطة بعد سقوطها مباشرة ولكن السلام استمر ، وحاول طلبية الالتزام بشروط المعاهدة قدر الامكان ، وانصرف إلى محاولة اقناع أهل غرناطة باعتماق النصرانية أمراً القساوسة بتعلم العربية لكتاب ود سكان المدينة . في الوقت نفسه كان نبلاء قشتالة يبحثون عن الطرق التي يمكنهم من التهام الأرضي التي يملكونها أهل غرناطة . فالأمر الذي أصدرته إيزابيلا بهذاخصوص نص على الألا يمكن أى قشتالي من تملك أراض تزيد قيمتها على ٢٠٠٠ دينار مرابطي ؛ ولكن القائمة التي رفعت إلى الملكة باسم أصحاب الأرضي الجدد كانت مزيفة . فالنبلاء انقضوا على الأرضي الغرناطية بشراءه، وكان نصيب الأسد لأسرة مندوزا (التي ينتهي إليها تنделة الحاكم العسكري) ولأسرة أخرى تعرف بإسم أصحاب قرطبة ، وهؤلاء من العسكريين الذين لعب بعضهم دوراً في تحقيق أمجاد أمبراطورية كارلوس الخامس ، ولأسر أخرى كثيرة، أو للشماليين الذين نقلوا إلى غرناطة لاحتلال بعض أقسامها إثر عملية تحديد سكن أهل غرناطة في البيازين . ورغم عمليات خرق المعاهدة فإن وجود تنделة وطلبية

ساعد على استمرار العمل بها بصورة عامة ، ولكن الضغوط التي تورت على المجالين المحلي ولـي والد كانت تدفع قشتالة إلى التكوص بها أولاً بأول . فرغم قناعة شخصية مثل طلبيرة بأن أقوى أنواع بسط السيطرة هو الاقناع - وهذا شيء تعلمه من الاطلاع على تاريخ قرطبة وساحة الدين الإسلامي ، وأثر ذلك على انضمام الكثيرين من سكان شبه جزيرة إيبيريا إلى الإسلام - فإن الكثير من المتنفذين في قشتالة كانوا يرون أن بسط السيطرة الفعلية على أهل غرناطة لا يمكن أن يتم دون استخدام القوة . كان هؤلاء يعرفون مدى التزام المسلمين بدينهم وعادتهم ولغتهم العربية ، ويعرفون أيضاً أن تكوينهم الطبيعي والنفساني لا يسمح لهم بالتحول إلى ضحايا ، كما حدث مع اليهود، بهولة . كانت الأندلس والمعدوة المغربية امتداداً واحداً طوال القرون الثانية الماضية ، ولكن الصلة بين المقطعين انقطعت فجأة ، ولم يكن هذا الوضع الطبيعي بالنسبة للأندلسيين . أضف إلى ذلك أن قشتالة كانت تخشى دائماً من تجدد هجوم أهل العدوة على الساحل الجنوبي ، وأن يجدوا في أهل غرناطة المعين . ومنطقة غرناطة معروفة بوعورتها وإن استطاعت جيوش إيزابيلا بسط سيطرتها على المدينة ، فإن مد النفوذ إلى المناطق الجبلية لم يكن سهلاً ، إذ كانت ملاداً للخارجين على القانون والناقمين على السلطة . ولو حدث وبدأ أهل مدينة غرناطة في مد سكان الجبال بالأفراد والمال والأسلحة فإن الجبال ستكون البؤرة التي تهدد سلطان إيزابيلا على المملكة الجديدة . الأسباب الضافية تأولت موقف سكان قشتالة من أهل غرناطة والأندلسيين بصورة عامة . فهؤلاء تعودوا على الانقضاض على ممتلكات الأندلسيين فور احتلال مدينة أو أخرى . وبالرغم من أن إيزابيلا جلت عدداً كبيراً من القشتاليين ووطنيهم في غرناطة ، فإن الشعور العام كان شعور نعمة على الأندلسيين بسبب الرخاء النسبي الذي كانوا يتمتعون به ، وبسبب الحرفيات النسبية التي شملتها معاهدة التسلیم . وكان القشتاليون ينظرون إلى الأندلسيين كشعب مقهور ، لا يحق له الاستمتاع بأرضه أو ماله أو دينه . وما كان انتقال القشتاليين إلى الأرضي الأندلسية التي سقطت بأيدي القوات الشمالية ، سوى لاستفادة من الجهد الذي بدله الأندلسيون في تحسين أرضهم أو نمط معيشتهم حتى إذا أخفق القشتاليون في استغلال الأرض باعوها بشمن رخيص ، وانتقلوا إلى الجنوب للحصول على أرض جديدة وهكذا . ولم تكن بند المعاهدة هي السبب الوحيد في عدم الإقدام على خرقها فور استسلام المدينة ، لأن الأرضي التي كان يشرف عليها المزارعون الأندلسيون في بلنسية ومرسية وغرناطة ، كانت من أفضل الأرضي انتاجاً واستغلالاً ، والقشتاليون يذكرون كيف أدى طرد المزارعين من بعض مناطق مرسية والجنوب الأندلسي في القرن الثالث عشر إلى تخريب تلك الأرضي الخصبة التي لم تعد تصلح إلا للرعي . ولذا فإن اللجوء إلى طرد أهل غرناطة سيؤدي إلى تخريب الأرض التي يعملون فيها ، والصناعات التي يتلقونها دون توفر البديل بين القشتاليين ، وسيوضع إيزابيلا وفرناندو في موقف محرج أمام باقي ملوك أوروبا . ثم إن بقاء الأندلسيين سيوفر للدولة ضرائب كثيرة هي بمثابة إليها ، بعد المبالغ الهائلة التي اقرضتها الملكة إيزابيلا لتمويل حربها مع غرناطة .

كانت هذه التساؤلات تدور في أذهان القشتاليين منذ استسلام غرناطة ، وحيثما تمكّن القشتاليون من «تعديل» بند معاهدة التسلیم وفق ما يحلو لهم قاموا بذلك ، ولكن السلام استمر سبع سنوات . وكان سلاماً قلقاً انتظرت إيزابيلا وفرناندو أن يودي في النهاية إلى تصير الأندلسيين ، بفضل السياسة التي

اتبعها رئيس أساقفة غرناطة طلبيبة . ولكن الأندلسين لم ينتصروا ، ولم يكن في الأفق ما يشير إلى إمكان تحويلهم إلى رعايا مخلصين لايزيابيلا وفرناندو . وببدأ صير ايزيابيلا وزوجها في النقاد وتعالت الأصوات تندد طلبيبة وتطالب باعتماد سياسة الحرم ضد الأندلسين في طريق تصريحهم .

ج - بداية اضطهاد الأندلسين :

مضت سبع سنوات ثقيلة وأهل غرناطة يحاولون التأقلم مع واقع جديد فرضته سلطات الاحتلال القشتالية ، منذ أن رفعت الصليب القضي فوق برج طلائع قصبة الحمراء في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٢ . استولى نبلاء قشتالة على قسم كبير من أراضي مملكة غرناطة واستمر السلام . تحولت المساجد إلى كنائس ومنع الأذان والوضوء علينا واستمر السلام . كان هرناندو طلبيبة رئيس أساقفة غرناطة ومن تبعه يبذلون كل جهد ممكن لإيقاع الأندلسين باعتناق النصرانية ، وقطع صلاتهم بتاريخهم وحضارتهم واستمر السلام . فصلت الأندلس عن العدوة الغربية للمرة الأولى منذ ثمانية قرون ، ودب اليأس في قلوب الأندلسين بعد أن فقدوا الأمل في الحصول على عون أهلهم خلف الرقاقي ، وأخذ القشتاليون يزاحمون أهل غرناطة على الأرض أولاً ، ثم على لقمة العيش ، وأخيراً على الدين والتاريخ واللغة . وترددت الأمور من شيء إلى اسوأ ومن مضائق إلى أخرى ، ثم اندلع الغضب دفعة واحدة ، وكان سبب اندلاعه شخصية قشتالية حققت مجدها على المصائب التي ألحقتها بالأندلسين ، كما حقق المفتش العام توركي مادة أمجاده على اضطهاد اليهود من قبل .

كان طلبيبة كاهن الاعتراف الخاص للملكة ايزيابيلا القشتالية ، عندما ارتأت تعينه رئيساً لأساقفة غرناطة إثر استسلامها . وحين بحثت عن بديل أشار بعض مستشاريها إلى كاهن عرف عنه تعصبه للكاثوليكية وهو فرانسيسكو دي سيسنيروس (١٤٣٦ - ١٥١٧) المعروف باسم زمينيز^(١) أو زمينيز ، ما يتوفر عن زمينيز من معلومات يشير إلى اخداره من أسرة متواضعة ، ولكن المؤرخين الفشتاليين نفعوا في ما يخصه وقربه من ماضي الملوك وعلية القوم ، ووصفه البعض بالورع والتزهد ، بينما اعتبره آخرون شخصاً بسيط الطاقات متعطشاً إلى السلطة خلف رداء الكهنوتي ومظاهر التقوى والتعصب الكاثوليكي ، مما قرره من ملكته المتعصبة الأولى ايزيابيلا . وحين مات مندوزا رئيس أساقفة طليطلة ؛ رشحت ايزيابيلا زمينيز لشغل منصبه ، وحصلت على موافقة البابا الكسندر السادس سنة ١٤٩٥ . ومنصب رئيس أساقفة طليطلة كان يشمل منصبين آخرين لا يقلان أهمية : الأول مستشار قشتالة ، والثاني كبير أساقفة المملكة ، ولذا فقد كان منصب زمينيز الجديد الثالث في الأهمية بعد ايزيابيلا وفرناندو فقط . ومع توليه مهامه الجديدة انتهت فترة السماحة التي سادت في عهد مندوزا ، كما ستنتهي حريات الأندلسين بعد قليل وما لم تستطع ايزيابيلا الاقدام عليه أنيط بالكريديبال زمينيز لتنفيذها بإسم الكنيسة .

(١) يوسميه الدكتور محمد عبد الله عنان في مقدمة «الاحتلة» ص (٨) مختبر .

والمشكلة التي كانت تواجه إيزابيلا بالنسبة للأندلسيين في غرناطة معقدة وسهلة في آن واحد . فهي لا تزيد أن تقدم على عمل ضد أهل غرناطة فتخرق بذلك المعاهدة ، ويعيرها ملوك أوروبا بأنها الملكة التي لا تستطيع الالتزام بقسم أدته ساعة قبولاً معاهدة تسليم آخر المدن الإسلامية ، كما أنها انتظرت طويلاً ريثما يتمكن كاين الاعتراف السابق طلبية من تصريح الأندلسيين ، ولكن دون جدوى . فهي تملك غرناطة ولكنها لا تملك ثقة أهلها ولا لإعهم ، ولم يكن من اليسير على متعصبة مثل إيزابيلا أن تقبل وجود شعب لا يدين بالكاثوليكية في المالك التي تحكمها ، لاسيما وأن لقبها منذ سنة ١٤٩٤ أصبح الملكة الكاثوليكية . وهي أيضاً حفقت هدفها عندما اضطهدت اليهود أولاً ، ثم أجبرتهم على التزوح من البلاد في وقت لاحق . وإذا استطاعت ذلك مع اليهود ، فليس هناك ما يمكن تطبيق نفس الأجراء بحق مسلمي غرناطة ، حتى ولو جاء ذلك على حساب تقويض دعائم الاقتصاد الغرناطي ، وتشريد أهل تلك المملكة . دون إيزابيلا وما مارست سلطتها الفعلية على أهل غرناطة معاهدة الاستسلام . وهي إن خرقت المعاهدة لأسباب سياسية أو اقتصادية استحقت لوم باق الملوك ، ولكن لو استطاعت أجبار أهل غرناطة على القيام بعمل ما ضد الدولة ، فإن من الممكن ساعتها الغاء المعاهدة على أساس أن أهل غرناطة كانوا البادئين بذلك . ولو استطاعت خرق المعاهدة على أساس ديني فليس هناك من يستطيع انتقادها في أرجاء المسيحية ، لأنها ستحقق بخرق المعاهدة بمباقة كنيسة روما نصراً للنصرانية وهجوماً أخيراً على « الكفار » المسلمين الذين يهددون أمن الدولة ، وسلطة الكنيسة والدين الكاثوليكي . أهمية زمبيز تأتي في هذه اللحظة ، وستضع مهمة أجبار أهل غرناطة على المعاهدة على الأعمال التي سيكون لها زمبيز كل وقته ومقاله ، وكذلك ارحل الكريديمال زمبيز وأقام في غرناطة اعتباراً من سنة ١٤٤٩ بأمر من إيزابيلا .

طلب زمبيز من طلبية « كشفا بالحساب » عن نتائج نشاطه في غرناطة ، وعن عدد المسلمين من تمكّن طلبية ومعاونيه تصريحهم . ولكن النتائج لم تكن مشجعة وراح يبحث رئيس أساقفة غرناطة على ضرورة اتباع الحزم في معاملة الأندلسيين ، بهدف تسريع عملية تصريحهم . كان طلبية يرى أن الهدف الأول يمكن في استثناء أهل غرناطة والتقارب منهم بإظهار احترامه لنارائهم وحضارتهم . ترجم خلال السنوات الأخيرة عدداً من الكتب الدينية إلى العربية ، ولكن محاولة ترجمة الإنجيل إلى العربية توقفت عند اصرار الكنيسة على أن ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية سيكون عملاً خطيراً ، فاللغة العربية « لغة نجاسة ». حاول طلبية اقناع زمبيز بأن قسر أهل غرناطة على التنصير سيؤدي إلى الانفجار ، وأيدى في هذا الرأي حاكم غرناطة العسكري تندلة ، ولكن زمبيز كان يعرف الأوامر التي جاء لتنفيذها . وأمام هذا الموقف تتحى طلبية عن سلطاته الحقيقة وسلم زمبيز مقاليد الأمور ، وتوقفت عملية تعرية الإنجيل بناء على اصرار كبير أساقفة قشتالة . كان زمبيز يعتقد أنه لو تمكّن من تصريح مجموعة كافية من أهل غرناطة ، لقدر على إقامة فرع لحاكم التفتيش في غرناطة ، يستطيع عمالها فيما بعد مباشرة نشاطهم فوراً وتضييق الخناق على غرناطة ، كما سبق وضيق الخناق على اليهود . ولكن دون وجود متصرفين في غرناطة لا يمكن إقامة حاكم التفتيش فيها ، ولا يمكن الشروع في الخطوة التي تصورها إيزابيلا وزمبيز وغيرهما من الحاقدين .

بدأ زمبيز نشاطه باستدعاء الفقهاء إلى كنيسة، كانت مسجداً ومناظرهم في غلبة النصرانية على الإسلام ، والقائدة التي تعود على من يتصر ، وكيف أن الأندلسين ما ينجزوا على أيدي القشتاليين والشماليين من المسيحيين إلا لأن الله كان وراء سعيهم . كانت المناстрات تستمر طوال اليوم ثم تستأنف في اليوم التالي ، وكان الفقهاء يقارعون الحجة بالحججة ويضلون رأيه جملة وتفصيلاً . وطال النقاش . والمناظرات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات وقد أيقنوا أن كبير أساقفة قشتالة يذكر ل الإسلامي غرناطة وإن المناстрات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات وأنه لو تمكّن من اقتحام هؤلاء بكل أو يمل حتى يتحقق غرضه . استنتج زمبيز من جهته بعد الجلسات أنه لو تمكّن من اقتحام هؤلاء لحمل باقي الأندلسين على اتباع نفس السبيل ، ولكن كل جهوده باءت بالإخفاق ، وقرر عندها أن يعتمد أسلوبها مختلفاً وبدأ الاتصال بال العامة . في المرحلة التالية من نشاط زمبيز راح يستدعي بسطاء القوم ليشرح لهم أسباب تفوق النصرانية . وحين أخفق أحد يرويهم بالمال والحرير والملابس المزركشة ، ويعدهم بالأراضي والمنازل . ولابد أن يكون بعض البسطاء قبلوا بالنصر ، وخاصة ضعفاء النفوس والعicide منهم . وذكر زمبيز واتباعه أيضاً على من عرف أن أحد أجداده كان نصرانياً وأسلم ، وطلبوا من هؤلاء العودة للنصرانية فارتدى بعضهم دون الأخذ بأحد شروط معاهدة التسلیم التي نصت على «ألا يقهرون من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وأخر من النصارى ، فإن أى الرجوع إلى الإسلام عادي على مأزاد ... ». وهكذا راح زمبيز يخرب شروط المعاهدة بإسم الدين والكاثوليكية ، والمسلمون يراقبون دون التمكّن من القيام بما يوكل تلك التصرفات سوى الاحتجاج على أعماله . ويقال في هذا الشخص أن زمبيز انفق معظم ماله على شراء الهدايا وتقديم الرشاوى إلى المسلمين ، علمه ينبع في مأخلفه في طلبيرة من قبله .

تبه فقهاء المسلمين وزعماؤهم للخطر الحدق بأهل غرناطة من وراء مخطط زمبيز واتباعه، فراحوا يشنون الناس على محاربة دعواه ، وعدم قبول الهدايا والرشاوي طلباً في تصرهم ، ويختبرون من أن تنصر بعض الضعفاء من المسلمين سبؤدي إلى إدخال حاكم التقسيش إلى غرناطة ، وتكرار مافعلته مع اليهود من قبل . وامام هذه المقاومة أمر زمبيز بإحضار ثلاثة آلاف من أندلسبي غرناطة ، وجمعهم في الكنيسة التي خصصها لشن حملة ضد المسلمين ، وراح يدعوهم إلى التنصر فيغرفهم ثانية ويرهيمهم ثانية أخرى ، فتصدى له فقهاء غرناطة وسفهوا أرائه . ومنذ تلك الحادثة صب زمبيز اهتمامه على الفقهاء ودعاهم للإجتماع به على انفراد . وذات يوم طلب من كبير فقهاء غرناطة^(١) مناظرته في الكنيسة الجديدة ليكتشف الفقيه بأن زمبيز كان يقصد اقتحامه باصدار فتوى ترمي إلى اعتناق المسلمين للنصرانية . وحاول زمبيز تقديم المال والهدايا إلى الفقيه ، وحاول اقطاعه منصباً وملكاً ولكن الفقيه صرف كل عروضه . كان زمبيز يعتقد أنه لو استطاع استئلة الفقيه لتنصر الملايين على الفور وللحقيقة هؤلاء مئات غيرهم . وحين اعتبر الفقيه وقام ليضي إلى البيازين أمر بالقبض عليه في الكنيسة وأودعه السجن ، حيث عذب وحرم من الطعام عدة أيام . وفي نهاية فترة التعذيب والسجن خرج زمبيز على أهل غرناطة ليقول لهم أن فقدمهم رأى حلماً في منامه وأمره صوت من السماء بدخول النصرانية ، وأنه يبحث كل

(١) ربما كان الشيخ التبرى أو المقري .

نواب
الإبراهيم



المسلمين على الاقتداء بما رأى . وفي الأسابيع التي تلت تلك الحادثة عمد زمبيز إلى اعتقال أهل غرناطة وأخضعمهم لنفس التجربة ، ولكنـه كلما اعتقد أنه حقق تقدماً بالطريقة التي احتطـها ، وجد أنـ من المستحيل تصدير أهـلـيـ غـرـنـاطـة دون قطع ارتباطـهم بـتـارـيـخـهم وهـكـذاـ كانـتـ خطـوـتهـ التـالـيةـ .

كان أهل غرناطة أفضل من اتقنوا كتابة المخطوطات وتجليد الكتب في كل أوروبا خلال تلك الفترة . ودخول صناعة الورق إلى الأندلس أحدث ثورة كبيرة في الثقافة والكتابية بعد تخطي العقبات التي اعترضت سبل نسخ الكتب باستخدام البرق . ومع تقدم الشماليين بإتجاه الأندلس نزح أهل المدن المختلفة حاملين كتبهم معهم ، وحمل قسم كبير من المخطوطات التي كتبت في الأندلس أو نقلت من الشرق إلى العدوة المغربية ، ولكن قسماً آخر انتهى في غرناطة التي كانت الملاذ الأخير للأندلسيين بعد القرن الثالث عشر . والخطوطات التي ماتزال محفوظة في مكتبة الاسكوريا ، تعطي فكرة عن اتقان صناعة الكتب في الأندلس ، ولكن زمنيز المسؤول عن اضطهاد الأندلسيين هو نفسه المسؤول عن احرق عشرات الآلاف من المخطوطات . فقد أمر زمنيز عماله بالطواف على أهل غرناطة وانذارهم بجلب كل ما لديهم من المخطوطات المكتوبة بالعربية وحملها إلى الساحة الرئيسية . وعندما تجمع منها الآلاف نزل زمنيز واختار نحو من ٣٠٠ مخطوطة عالجت مسائل العلوم الطبية والكيمياء والرياضيات وغيرها من المواضيع المهمة ، ونقلها بعد ذلك إلى جامعة القلعة التي كان يعمل على بنائها في تلك الفترة ^(١) . أما الباقى فقد أمر بإحراشه وهكذا ارتفعت سباحة كثيفة من الدخان فوق تلال غرناطة وأهل المدينة يتظرون إلى أكمام المخطوطات وهي تخترق . وعلى الرغم من أن البعض تجاهل أوامر كبير الأساقفة واستبقى ماملكه من كتب حملها البعض سرا إلى العدوة فيما بعد ، إلا أن قسماً كبيراً من تراث الأندلس احترق في ذلك اليوم المشؤوم ^{مع تطاير} مع الدخان .

كان التعصب الأعمى قد أفقد زمنيز القدرة على تصور أي مسلك آخر مع أهل غرناطة سوى الطريق الملموء بالتعذيب ، وقرر المسلمين على التنصر ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وحضارتهم . كان أيضاً لا يريد الاعتراف بأن سياسته في غرناطة أخفقت في تصير المسلمين ، أو أنه لم يستجع إلا في اقفال الأندلسيين بأن الاستمرار في تحمل أحوال مثل تلك التي فرضها لا يمكن أن يدوم . وعبثاً حاول تدلة وطلبيرة اقفاله بالعدول عن سياساته وتحذيره من مخاطرها في تأليب مشاعر أهل غرناطة ، ووصل الأمر ذروته حين بدأ زمنيز في إحرق كل ماتقع عليه أيدي عماله من نسخ القرآن الكريم . وكان زمنيز يرسل بعض عماله إلى البيارن لسقوط أخبار أهلها ، وذات يوم يبعث ثلاثة منهم إلى الحي لسبب غير معروف ، فوق صدام بهم وبين بعض أهل غرناطة قتل على أثرها اثنان من العمال وفر الثالث وكانت تلك نقطة التحول . ^(٢)

(١) حمل زمنيز كثيراً أخرى كثوة إلى جامعة القلعة التي اسست سنة ١٥٠٨ وكانت واحدة من أشهر جامعات إسبانيا إذ صارت ١٠٠٠ طالب وبحرت فيها ترجمة وطباعة الإنجيل باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والكلامية بين سنتي ١٥١٤ و ١٥١٧ ، ولكن الجامعة نقلت إلى مدريد (محبطة) سنة ١٨٣٧ وقدرت المدينة أهميتها . والقلعة هي سقط رأس سيرفانتس مؤلف دون كيخوتي (كيشوت) .

(٢) يقدم لون بول في كتابه (العرب في إسبانيا) سأ آخر يقول : « انتهت المقاومة الأولى (تصير أهل غرناطة) إلى الإيقاف . وبعدها أسلمن المتشددين أعزروا عن الشizarهم لأعمال التحول الجديد إلى الصراحة غالقى القرض على أولئك الساحطين وكان من بينهم امرأة أودعت السجن بهذه النزهة فهرب سكان البيارن وحملوا السلاح وخلصوها وضفت غرناطة أحجاجاً واندلع قتال المارس » . انظر : Lane-Poole, Stanley, The Moors in Spain, (4th Edition), 1890, P 270.

٣ - الثورة الأندلسية الأولى

فور الإشتباك الذي أدى إلى مصرع عامل الكرديبال زمينز ، طاف زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يمثلون الناس على حمل السلاح واعلان الانفاضة دفاعاً عن وجودهم وديتهم والتصدي لممارسات زمينز بعد استفحال خطره وموضعه في مسلكه دون رادع أو خوف من انتقاد أو عقاب . وخلال وقت قصير كانت أنياء الاشتباك قد انتشرت في غرناطة ، فتجمع رجالها يتدارسون الخطورة التالية قبل أن يداهمهم رجال زمينز أو يتتوفر الوقت اللازم لوصول الجيش . والمشاورات السريعة التي جرت ذلك النهار انتهت على استقرار الرأي بتوجه فريق من أهل غرناطة إلى قصر الحمراء حيث ينزل زمينز للقضاء عليه ومساعديه ، بينما يتعهد الباقيون بجمع الرجال والسلاح وتحصين البيازين استعداداً لقتال جنود قشتالة .

في هذه الأثناء وصل عامل زمينز إلى الحمراء وسرد على سيده تفاصيل الحادث الذي أدى إلى قيام أهل البيازين على العمال ، فطلب الكرديبال حضور الكونت تندلة ومعه جنده على الفور ، وأمر رجاله بإغلاق الأبواب والإستعداد لد أهل البيازين . وحين وصل تندله وجنوده وجد أهل البيازين وقد أحاطوا بالحمراء واستعدوا لاقتحام القلعة فطلب إليهم تندلة التروي والعودة إلى البيازين لبحث مظلم أهلهم ومطاليبهم مشيراً إلى عواقب الإستمرار في محاولة قتل زمينز . وبعد جولة أخرى من المشاورات بين زعماء أهل غرناطة ، إستقر الرأي على العودة إلى البيازين وانتظار بدء المفاوضات ومنع تندلة الفرصة التي طلبها لإصلاح الأمور ورفع الغمامنة التي هبطت على سكان غرناطة مع قدوم الكرديبال .

وماحدث في البيازين جاء مصدقاً لتوقعات تندلة وطلبية ، ولكن الأثنين لم يكونوا في وضع يمكنهما من التدخل أمام اصرار زمينز على التصرف كما يحلو له ، وأمام الثقة التي منحتها إيزابيلا للكرديبال . لأن التصدي له كان يعني في الواقع الأمر التصدي لأوامر إيزابيلا التي أوقدت الكرديبال إلى غرناطة لمساعدة طلبية في ظاهر الأمر وتولي زمام الأمور في واقعه . والتطور الأخير أعاد إلى كل من تندلة وطلبية الأهمية التي كانوا يتمتعان بها قبل وصول زمينز ، وقيد تصرف الكرديبال فترك لها مهمة الوصول بالأزمة إلى حل مقبول لاسيما وأن سلوك تندلة السابق قربه من الأندلسين ، فولوه ثقفهم واحترامهم ، وكان الوحيد القادر في ظل تلك الظروف على تهدئة خواطر أهل البيازين ووقف عملية اقتحام قصر الحمراء .

وبعد تأمين حماية الحمراء ، انطلق تندلة وطلبية وعدد قليل من الحراس إلى البيازين ، واخترق جموع الأندلسين ، ورفع قبعته ورمها في الجو إلى الناس اشارة إلى أنه جاء ومن معه ينشد السلام ، فاستقبله السكان بالترحاب وعقد اجتماع ضمه وطلبية وعدداً من زعماء البيازين ، فشرحوا له مظلومهم مؤكدين له استعدادهم للقتال حتى الرجل الأخير إن لم تصففهم الملكة وتأمر زمينز بالعودة إلى إشبيلية . فوعدهم تندلة بنقل وجهة نظرهم إلى الملكة ، وعرض على أهل البيازين استبقاء ابنه وزوجته في البيازين كضمان على تعهده ، وغادر غرناطة على الفور متوجهها إلى مقر إيزابيلا في إشبيلية ، وسكن حي البيازين في انتظار نتائج مفاوضات تندلة مع الملكة .



جانب من قصر الحمراء ويبدو ريض البيازين في الخلف

في القصر بأشبيلية سرد الكونت على إيزابيلا ماحدث في غرناطة وانجح باللائمة على السياسة التي اتبعها زمئير مع أهل غرناطة ، فأرسلت تستدعي زمئير طالبة منه شرح الأسباب التي حدثت به إلى التأخير باعلامها عما وقع في البيازين . وحين وصل زمئير إلى المدينة أبلغ إيزابيلا بأنه بعث بأحد عبيده إليها ومعه رسالة يوضح فيها ماحدث ، ولكن تبين فيما بعد أن العبد سكر في الطريق وأضاع الرسالة .. وما عدا ذلك لم يجد زمئير أسفًا ولم يطلب صفحًا وأبلغها بأن الملكة التي تحمل لقب « الكاثوليكية » لايمكن أن تقبل بوجود رعايا يدينون بديانة أخرى ، ولا غيرتها الكنيسة وعيرها ملوك أوروبا . وأبلغها كذلك أن الأندلسين لايمكن أن يستمروا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحي ، وأن الأندلسين ماكانوا ليقوموا عليه لولا نجاحه في تصدير الكثيرون منهم . وبالطبع لم تكن إيزابيلا بحاجة إلى اقناع بسبب تعصبه المعروف ، إضافة إلى أنها كانت تخشى أن يستفحل خطر الأندلسين فيهددون أمن الدولة واستقرارها ، واتبع اللين مع أهل غرناطة ، بعد انتفاضتهم ، لن يحمل إلى قشتالة سوى انتفاضة أكبر وأخطر .

في تلك الجلسة المشهورة أخذت إيزابيلا وزوجها فرناندو برأى زمئير ، فاما أن يقبل الأندلسيون بالتنصر أو يجري ترحيلهم إلى العدو . وطبيت خاطر زمئير وأعادت تأكيد ثقتها به ، واستبعدت مااقتربه تندلة وطلبية من حلول . وأمام هذا الاصرار غير تندلة رأيه ، خشية أن يؤدي استمرار استنصاره لأهل غرناطة إلى نهايته أو مصادرة أملاكه وعزله عن منصبه ، وعاد يحمل الأخبار إلى أهل البيازين .

انتهت المفاوضات على هذا الشكل ولكن النقطة لم تحمد لأنها كانت على وشك الإنطلاقة في شكل ثورة عارمة .

١- الثورة في البشرة :

انتشرت أباء ماحدث في إشبيلية ، والقرار الذي اتخذه إيزابيلا فيما يتعلق بأندلسي غرناطة ، فوجد أهل مدينة غرناطة أنفسهم في وضع كانت فيه فرص الاختيار ضئيلة جدا ، فرضخ معظم سكانها لقرار ملكة قشتالة ، بينما أثر البعض ترك المدينة والالتحاق بإخوانهم في جبال الجنوب ، وقدمت مجموعة ثلاثة من سكان المدينة إلى التائرين في الجبال مااستطاعت تقديمها من أسلحة ومال وغير ذلك . ومع تقدم الزمن والإحساس بأن إيزابيلا ماضية في تنفيذ القرار الذي خلصت إليه ، بدأ سكان الجبال في الإستعداد . وفي تشرين الثاني من سنة ١٤٩٩ انطلقت الشارة الأولى في جبل البشرة الذي يقع إلى الجنوب من جبل الشليح ، وسرعان مااستجاب سكان المناطق الأخرى ، وكان أشدتهم تحمسا الأندلسيون الذين رحلوا عن غرناطة فور استسلامها .

استفاد سكان مدن وقرى البشرة من وعورة المناطق التي يعيشون فيها ، وأخذوا يزيدون تحصين قراهم ومدنهم ، حتى يأتوا في وضع يمكنهم من شن غارات محدودة على المناطق التي كان القشتاليون يسكنونها . ووصلت أباء الإنطلاقة إلى إيزابيلا فكفلت الكوت تندلة وغونثالو القرطبي (وكان الأخير قد مثل جانب قشتالة في مباحثات استسلام غرناطة سنة ١٤٩١) بإتمام الثورة قبل أن يستفحلا أمرها . وتتفاصيل ماحدث بعد ذلك قليلة ومعظم مصادر الواقع التالية قشتالية لايمكن الوثيق بصحتها لغيرها من السلطة ، ولذا كان من الطبيعي أن تروي الواقع بصورة تقبلها قشتالة . والظاهر أن القرطبي كان أول من تحرك لتنفيذ أمر إيزابيلا فسار بخيشه إلى البشرة حتى وصل إلى مدينة وجار (Guejar)^(١) . وما كاد فرسانه يقتربون من أسوار المدينة حتى وقع قسم منهم في خناق حفرها أهل المدينة ، ثم غطوها بالرروع والقش . وخلال الفوضى التي دبت في صفوف جيش القرطبي فتح المقاتلون أبواب المدينة وانقضوا على الجنود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، إلا أن القرطبي تمكّن من التراجع في الوقت المناسب وضرب الحصار على المدينة بعد استقدام الإمدادات . استمر الحصار فترة غير معروفة انتهت باستسلام المدينة فدخلها جيش القرطبي وقتل جميع رجالها وسيّ نسائها وأطفالها عن آخرهم ، ثم انتقل الجيش إلى مناطق أخرى ، إلا أن وعورة الأرض والظروف الدائم من الكمامات جعل عملية تقدم الجيش صعبة للغاية . وبنهاية السنة بات من الواضح أن جيش القرطبي وجند تندلة غير قادرین على قمع ثورة البشرة ، وطلبوا من الملك فرناندو المساعدة خوفا من أن يطول القتال فيتحرك أهل العدوة لنجدتهم أخوانهم في الجنوب الأندلسي .

(١) وربما كانت البشرة . انظر الأسماء التي قررت في « الإحاطة في أخبار غرناطة » لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، الجزء الأول ، ص ١٣٢ - ١٣٩ . انظر أيضا ملحق الأعلام « والموضع المقرب آخر الكتاب .

في آذار من سنة ١٥٠٠ تسلم فرناندو بنفسه تسيير دفة القتال ، وتوجه مع جيش كبير إلى جبل البشرة ، فاحتل عدداً من القرى ثم هاجم مدينة اندرش ، ولكنه لم يتمكن من احتلالها فحاصرها زمناً طويلاً دون فائدة إلى أن تمكن من اقتحامها ليلاً بالليلة وانتهى سكانها إلى مصرير أهل وجرار . كان فرناندو قد قضى على تجمعات الثوار الرئيسية فتمكن بذلك من التقدم بسرعة واحتلال مدن وقرى أخرى في البشرة . وحين ينس الأندلسيون الجبلين من تحقيق أى انتصار أو الوقوف أمام زحف قوات قشتالة فترة كافية لوصول الإمدادات من المناطق الجنوبية الأخرى أو من العدو ، عملوا على الاتصال بفرناندو وعرضوا عليه السلم . وافق فرناندو على طلب الأندلسيين بعد مباحثات مطولة مقابل حصوله على ... دوقة ذهبية وتسليم جميع الأسلحة والمحصون والمنابر التي كان الأندلسيون يسيطرون عليها قبل الثورة . وحين أخذ ماطلبه ، وزع الجنود على نقاط مختارة واستقدم عدداً من القسيسين للشرع في عملية تصدير الأندلسيين في البشرة بعد قهرهم . في هذه الأثناء أبلغت إيزابيلا أهل غرناطة بأنهم حرقوا معاهدة استسلام غرناطة حين قاموا على عمال زمير ونظموا عصيائهم في البيازين ، وبدأت السلطات في هدم المساجد وتحويل بعضها الآخر إلى كنائس ، وشرعت الكنيسة في تصدير الأندلسيين الذين اعتبروا منذ تلك اللحظة أسرى حرب ، وأصبحوا يعرفون باسم المواركة أو المورسكيون (Los Moriscos) التي تعني « النصارى الجدد » .

ب - الثورة في الجبل الأخر :

أعمال القمع الوحشي التي ارتكبها قوات فرناندو والقرطبي أثناء القضاء على ثورة الأندلسين في جبل البشرة ارهبت سكانه واجبرتهم على القبول بمقابل فرناندو ، كما بثت الذعر في غرناطة واعجذرت أهلها العرب عن الوقوف أمام الممارسات القسرية للسلطة والكنيسة . إلا أن تلك الأعمال لم ترعب الأندلسين في الأماكن الأخرى بل كانت دافعاً لحمل السلاح ، وقد ايقنوا أن مالحق بسكان البشرة وغرناطة سيلتحق بهم عاجلاً أو آجلاً ، وإن الوقوف في وجه قشتالة هو الخيار الأخير والسبيل الوحيد الذي تركه إيزابيلا وزوجها فرناندو مفتواً أمام باقي الأندلسيين . وماكادت نيران الثورة في البشرة تحمد حتى كان سكان الجبل الأخر يعدون العدة لإضرام النار من جديد ، والتصدي لجنود قشتالة من مدحهم وقراهم وقواعدهم في غربية الأندلس .

استمرت عملية اخضاع ثورة جبل البشرة حوالي العام ويقي فرناندو في غرناطة طوال هذه الفترة ليشرف على تنفيذ أوامره فيما يختص بتصدير الأندلسين وبجمع الأسلحة منهم . وحين وصلت إليه أنباء الثورة في الجبل الأخر أسد إلى قائد عسكري هو الوئلو دي اجيلاز (بلاي) مهمة اخماد الثورة للمكانة العالية التي كان الأخير يتمتع بها ؛ إذ كان الأخ الأكبر لغونثالو القرطبي ، وقد أثبتت على مدى أربعين عاماً صلابته ولasisma في حرب غرناطة . ورافقه في الحملة ضد رجال الجبل الأخر ولده الدون بدرو (بطرة) القرطبي ، وجيشه كبير بقصد إنهاء الثورة بأسرع وقت ممكن . وربما استخف الوئلو بأندلسي الجبل الأخر ، أو توفرت لديه معلومات غير صحيحة عن مدى انتشار الثورة في تلك المنطقة التي لم تكن

تقل وعورة عن البشرة ، لأنه قاد الجيش عبر المرات الجبلية الوعرة هناك ، ولم يكتشف أن الأندلسيين أعدوا له ولجيشه كمينا محكما إلا بعد فوات الآوان . وهكذا انهالت الصخور على الجيش في أحد المرات مما أدى إلى مقتل أعداد كبيرة من الجنود ، وأجهز الأندلسيون على معظم الجنود الذين تمكناً من الفرار متذمرين من حيث اتوا .

أما الونتو نفسه فقد قتل في المعركة التي دارت عقب الانسحاب ، أو لقي مصرعه على أيدي فارس أندلسي بعد مبارزة عادلة ^(١) . وفي تلك المعركة المشهورة قتل أيضا ، مع من قتل فرانسيسكو راميرز ، وكان من أشهر المهندسين في جيش الملك فرناندو ، وكان له باع طويل في استخدام المدافع أثناء حرب غرناطة ؛ كما أصيب الدون بدور بجروح بلغت ولكن الناجين من الجنود تمكنا من إجلائه من ساحة المعركة .

وصلت أخبار مقتل الونتو إلى مسامع فرناندو فجهز جيشا كبيرا انطلق به من غرناطة إلى مدينة زليدة – التي أصبحت مركز عمليات جيش قشتالة – وأقام فيها مدة يتقطع أخبار الأندلسيين الثائرين وبعد العدة لقمع الثورة . وعندما وجد فرناندو أن الفرصة باتت مواتية للتحرك ، سار بجيشه عبر الجبل الأخير إلا أن المقاومة التي تعرض لها الجيش كانت عنيفة ، فأضطر فرناندو إلى الإنسحاب ، ثم عاود الهجوم فأضطر الأندلسيون إلى الاحتفاء برؤوس الجبال بعد استئناف الضغط عليهم . وحاصر جيش فرناندو مركزا مهما في الجبل الأخير احتتمى به الأندلسيون ثم حاولوا اقتحامه ، غير أن المدافعين عنه تمكنا من الحاق خسائر فادحة بالجنود المهاجمين ، فعاد فرناندو إلى اتباع سياسة الحصار حتى يضطر المدافعون إلى الإسلام . وطال أمد الحصار وجاع الناس فعرضوا على فرناندو السلم فقبل به بعد المفاوضات وقد أيدن ان استمرار الحرب لن يؤدي إلى نصر حاسم بسبب وعورة المنطقة واستحالة إبقاء عدد كاف من الجنود فيها لضمان استمرار السيطرة على الجبل ، ووعدهم بالأمن إن أرادوا العبور إلى العدوة . وكان الاتفاق نهاية الثورة الأندلسية الأولى ، وخاتمة حرب استمرت حوالي الستين ودارت خلالها أكثر من عشرين معركة في مناطق مختلفة من الجنوب وكانت حقبة تاريخية كتب عنها الشيء القليل وماكتب لم يوفها حقها . ^(٢)

(١) هناك بعض الغموض في تاريخ هذه المعركة ، ولكن لا بد أن تكون وقعت يوم ١٨ آذار سنة ١٥٦١ أو بعد ذلك لأن جيش الونتو (Alonzo de Aguilar) بدأ تجاهله قرب مشارف (Monarda) في اليوم التالى . وجرت المعركة في سهل قلعة الورز . انظر : Prescott, William : Hickling, History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, (paris), 1842, Part II., Chapter 7.

وأعلم القارئ الأندلسي المشار إليه هو فراي بن اسطمار (Feri de Ben Estebar).

(٢) من المؤلفين الذين تناولوا الثورة الأولى بشيء من التفصيل الأميركي ولIAM برسكوت ، وهو إن اشتهر بأسلوب أدبي مشوق (لا أنه لم يشتهر بدقة المعلومات . انظر المراجع أعلاه الصفحات (٤٣٥ - ٤٥٦) .

ج - مرسوم سنة ١٥٠٢ وتنصير الأندلسيين :

مررت فترة قلقة منذ استسلام أهل الجبل الأحمر ورحيل بعض سكانه إلى المغرب وغيرها من المناطق في انتظار الخطوة التالية التي ستأمر بها إيزابيلا وزوجها فرناندو . وأمام توقف العمليات العسكرية وجمع السلاح كان الطريق ممهدًا لكي تضفي إيزابيلا صفة الرسمية على الرأي الذي استقرت عليه منذ اجتماعها بزمنير قبل ثلاث سنوات . وفي شهر شباط من سنة ١٥٠٢ أصدرت إيزابيلا مرسومها الشهير الذي خير جميع الأندلسيين بين التنصير والرحيل . ونص المرسوم المذكور على أن من واجب أهل قشتالة طرد « أعداء الدين المسيحي » من مملكتي قشتالة وليون ، ويتحتم على جميع الأندلسيين في المملكتين ، من لم يتعمدوا بعد ، الرحيل فلا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا أثني عشرها يزيد على الثانية عشرة في قشتالة وليون بعد شهر نيسان من نفس السنة إلا إذا تصرعوا . وسمح المرسوم المذكور لمن يرغب من الأندلسيين في الرحيل بيع العقارات والأملاك ولكنه حظر عليهم اخراج الذهب والفضة من قشتالة وليون ووظفت السلطة جميع رجالها في مملكة غرناطة للتأكد من تنفيذ بنود المرسوم بمدافيرو .

وبنهاية المدة التي حددتها المرسوم رحل عن الأندلس حوالي ٣٠٠٠ شخص ، منهم من توجه إلى المغرب ، ومنهم من رحل إلى مصر أو الشام . « ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصير سنة أربع وتسع مئة (١٤٤٩) » ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأفواها عليهم أتهم قالوا : أن القسيس كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا تهراً للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولائهم لهم ولاقوا . ثم تعلوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرياناً فأسلم فترجع نصريانياً . ولا فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلواهم ، وهذا كان السبب للتتصير ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان إن من قام على الحرام فليس إلا الموت إلا أن يتعصّر فينجو من الموت . وبالجملة فإنهم تصرعوا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصير ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلقيق واندريش وغيرهما ، فجتمع لهم العدو الجموع واستاصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، إلا مكان من جبل بللنقة فأن الله تعالى أعادهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة . وأخرجوا على الأمان إلى قاس بعيالهم وما حفظ من مالهم دون الذخائر . (١) .

ويرد في مصادر أخرى : « وأمر الكريدينال (زمنير) الذي لا يعرف الرحمة بأن تغلق المساجد وتحرق المخطوطات الكثيرة التي ضمت خلاصة عهود من الثقافة الأندلسية ، وتعرض « الكفار » التسعاء للتهديد والضرب في سبيل تصديرهم وترغيبهم بكتاب السلام والحبة وفق الطريقة التي سبق وأقرها العمالان

(١) « نفع الطيب من محسن الأندلس الطيب وذكر وزيراً لسان الدين ابن الخطيب » ، المقري ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، (١٩٦٨) الجزء الرابع ، ص ٥٢٧ . كما ترد إشارات عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس في نهاية الأندلس وإزهار الرياض ونبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، حيث يشير مؤلفه المجهول (ص ٤٥) إلى بعض معارك الثورة الأندلسية الأولى ويقول أن حددها وصل إلى ٢٣ معركة . ولم أعد على الإسم الحديث لبللنقة اليوم ولكن بللنقة هو (Villa Leunga) الواقع في جبال روندا (Serrania de Ronda) .

الكاثوليكيان ، كما من قبل طبقاها على اليهود الذين لم يكونوا أقل تعasse . وكان أن رضخ أغلب الناس بعد أن وجدوا أن من السهل التنازل على دينهم بدلاً من ترك بيتهن . ولكن توقد الروح الأندلسية القديمة بقى يسطع في نفوس سكان تلال البشرة الذين صمدوا وقتاً طويلاً في حصنهم الثلجي ضد ماضيهما . والمحاولة الأولى لقمع الثورة انتهت بكارثة إذ أن الوثنو دى أجيلار ، الذي ذاع صيته وأعماله البطولية بعد أربعين سنة من الشهامة والشجاعة ، أرسل إلى البشرة سنة 1001 فتعرض لضرر قاصمة رهيبة على أيدي المواركة (الأندلسيون المنصرون) فسحقوا فرسانه بصخور ضخمة رمواها عليهم من علو .

.....

ما كان نفع يومها لشجاعة الفرسان أو المهارة في استخدام المchanan والرمح ، الصخرة فوق الصخرة تسقط هاوية نحو الأسفل من الكهوف الخفية والمتحدلات ، تهوى ، تهوى ، تسقط تلاحق كالبرد وغوت الخيل مع الفرسان ، مثل الماشية حين اليأس يصبح صمتاً مع تطاير الصواعق الخفية .

وانسحب الوثنو نحو الحقل ومعه حفنة من الرجال ، وهناك تحول ليثا يدفع الخطر عن نفسه حين تجاهل دعوهه إلى الاستسلام ، شوهد الف عدو حوله دون أن يقترب منه أحدهم ، إلى أن انطلقت السهام والرواح من بعيد لفرق الفارس الصامد .^(١)

ومع ذلك فإن رواية أخرى أقرب إلى الصحة تتحكي كيف قتل أجيلار في مبارزة شريفة مع فارس أندلسي . وكان أجيلار القائد الخامس من أسرته الذي يموت في المعارك مع « الكفار ». هذا النصر المؤقت لم ينجح إلا في تصعيد الحملات الانتقامية التينظمها المسيحيون الساخطون الآن . إذ هاجم كونت تندلة وجار (Gijajar) ونسف كونت سرين (Serin) الجامع الذي احتوى فيه الأطفال والنساء وسيطر الملك فرناندو بنفسه على بوابة المزارات الجبلية وهي قلعة عنجر (Lanjaron) . أما باقي الثوار ففروا إلى المغرب ومصر وتركيا حيث ضمنت لهم مهاراتهم معاشاً ، وهكذا ، أُحمدت ثورة البشرة الأولى «^(٢)

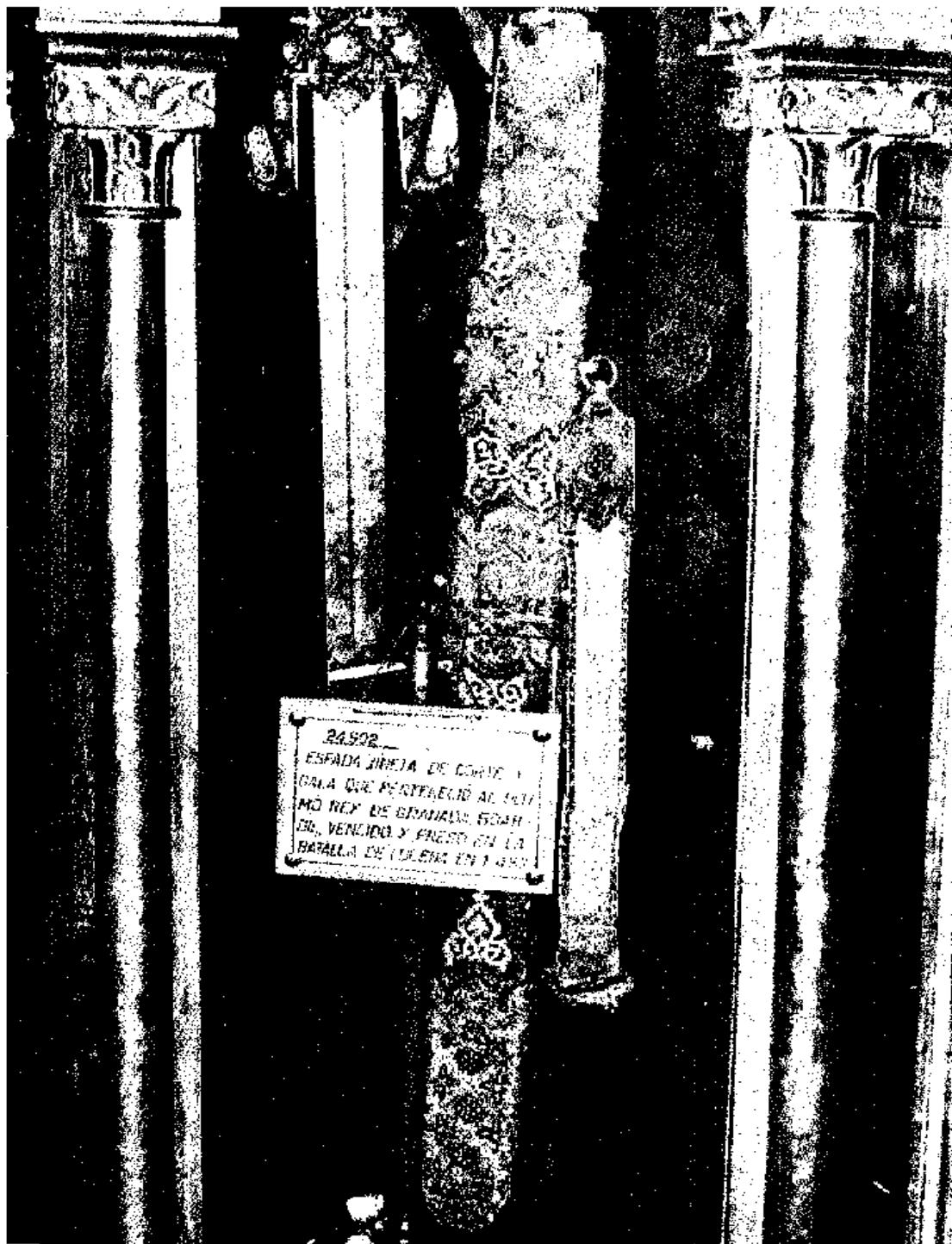
د - بين التصير والتتصير :

رجل من تمكّن من الأندلسين عن غرناطة وأصبح الباقون نصاري بموجب مرسوم إيزابيلا : « فلما رأى الطاغية (فرناندو) أن الناس قد تركوا الجواز وعززوا على الإستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في

(١) المقطوعان من تأليف الروائي الأسكتلندي جون لوكمهارت (1794 - 1854) ضمن عمل أسماء (أناشيد أسبانية) وما يرددان في النص .

(٢) Lane-Poole, Stanley, *The Moors in Spain*. (4th Edition) 1890, PP 271-272

سيف آخر
ملوك غرناطة
بعد أسره
في اللسانة
سنة ١٤٨٣



نقض الشروط التي اشترط عليها المسلمين أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلاً إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم المحوان والذلة ، واستطاعوا عليهم التنصاري ، وفرضت عليهم المغنم الثقيلية ، وقطع عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأراضي والقرى ، فخرجوا أذلة صغارين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر واكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسع مئة ، فدخلوا فيه كرها ، وصارت الأندلس كلها دار كفر . (١)

(١) «أزهار الرياح في أثمار عياض» ، شهاب الدين أحمد بن محمد القرني التلمساني ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الباري ، عبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٥٢ ، الجزء الأول ص ٦٨ و ٦٩ .

وهناك عدة اشارات في المصادر العربية إلى مسألة «نصر الأندلسيين» بعد الثورة الأولى . والاشك في أن أعدادا غير معروفة منهم تصرت في المرحلة الأولى من وصول الكريديمال زمينز إلى غرناطة ، أو قبل ذلك على يدى طلبرية ، أو خلال اندلاع الثورة ، ولاسيما في غرناطة نفسها ، ولكن ماحدث في الواقع لايويد القول بأن الأندلسيين تتصروا . ولالمعروف أن فرناندو احتكر عملية نقل المسلمين إلى العدوة على سفنه ، وسفن أخرى استأجرها خذله الغالية ، لقاء عشر دوبلات من الذهب لكل فرد من المغادرين ، فمن وجد هذا المبلغ الكبير ثمن من الانتقال إلى العدوة على متن سفن فرناندو ، ولكن من لم يستطع تأمين المبلغ اضطر إلى البقاء . أضعف إلى ذلك أن المهمة التي اعطيت للأندلسيين للاختيار بين التصر أو الرحيل كانت أقل من ثلاثة أشهر ، ولذا لم يكن من السهولة تعميم مضامون المرسوم على جميع الأندلسيين لاسيما وأن الكثير منهم كانوا يعيشون في أماكن نائية لايسهل الوصول إليها . هذا طبعا إلى جانب أن المرسوم لايشير من بعيد أو قريب إلى أرغون ، رغم أنها كانت مملكة زوجها وهؤلاء لم يشاركون في القتال ولاقاموا على السلطة تأييدا أو شدة لأخوانهم في مملكة غرناطة .

والذى حدث ببساطة أن الأندلسيين وجدوا أنفسهم في قشتالة وليون ، يوم انتهاء المهلة المحددة . في المرسوم ، «منصرين» لا «منتصرين» بصورة آلية . وكانت إيزابيلا قبل غيرها تعرف هذه الحقيقة إذ أضافت أكثر من ٥٠٠٠٠ منصر إلى سكان قشتالة وليون ، ولكن تصرهم جاء بمرسوم ويفى في إطار المرسوم فقط ، وطلت محكم التفتيش بعيدة عن غرناطة ، ولم تؤسس هناك حتى سنة ١٥٢٦ . وهناك عدة تفسيرات مطروحة لتصرف إيزابيلا وفرناندو على هذا التححو ، والتفسير المقبول يستند إلى القول بأن العاهلين الكاثوليكين لم يكونوا راغبين في ترحيل جميع الأندلسيين ، مع أن القدرة على ذلك كانت متوفرة ، لعل يسبب ذلك خراب غرناطة كما حدث في المناطق التي أجبر الأندلسيون على مغادرتها في السابق . وحتى لو شاءت إيزابيلا ترحيل جميع الأندلسيين فإنها لم تكن تملك وسائل ملح الفراغ الذي سيخلفه الأندلسيون في مملكة غرناطة . لأن قشتالة بقيت تعانى من الخفاض عدد السكان حتى تلك الفترة . وما ابتلعته قشتالة في القرن الثالث عشر لم تكن بعد قد تمكنت من هضمه بعد أكثر من قررين من الاحتلال معظم الأرضي الأندلسية ، ولم يكن إيجاد مليون قشتالي «للحلول مكان الأندلسيين» بالعمل الممكين . أما وقد تخلصت إيزابيلا من الأندلسيين الممكن التخلص منهم في تلك الظروف ، فإنها أجلت عملية ترحيل معظم الأندلسيين إلى بداية القرن السابع عشر . (انظر نفي الأندلسيين المواركة) .

٤ - قيام الإمبراطورية الأسبانية

لایفوت المؤرخون الأسبان فرصة للتأكيد دائمًا بأن قشتالة ظهرت على الساحة الأوروبية من خلال النضال الذي خاضته الملوك الشمالية في شبه جزيرة إيبيريا ضد الأندلسيين على مدى سبعة قرون وتحولت معه إلى آلة حرب لا تستطيع ضمان استمرار قوتها أو وحدتها ، مالم يتتوفر لها التحدى والتتوسع على حساب القوى الأخرى . وحين وجدت الملكة إيزابيلا أن استمرار السلام يهدد بتمزيق قشتالة ،

عمدت إلى تشغيل آلة الحرب من جديد ، واندفعت الجيوش لتصفيه آخر الممالك الأندلسية ، وانتهت الحملة باستسلام غزانتة سنة ١٤٩٢ ورفع الصليب الفضي على قصبة الحمراء ، بينما كان الجنود يصيحون « قشتالة ، قشتالة » . ويعتقد بعض مؤرخي الامبراطورية الأسبانية أن سنة ١٤٩٢ كانت نقطة التحول الرئيسية في خلق الامبراطورية لأنها كانت سنة سقوط غزانتة ، وسنة التخلص من اليهود، وسنة اكتشاف العالم الجديد . ودب النشاط في صانعي الامبراطورية فاتجهوا شمالا نحو أوروبا ، وجنوبا نحو المغرب ، وعبروا المحيط الأطلسي محتلين خلال نصف قرن مناطق شاسعة ، امتدت من تكساس إلى الأرجنتين وفتحت الأبواب على ذهب وفضة العالم الجديد لتمويل حروب التوسيع الأوروبي وبناء أكبر امبراطورية عرفها العالم حتى تلك الفترة . ولكن البداية كانت متواضعة جدا .

أ - التوسيع في أوروبا :

ماتت الملكة إيزابيلا سنة ١٥٠٤ ، وأوصت زوجها فرانثو بمتابعة الحملة الصليبية ضد « الكفار » في المغرب والابتعاد عن ساحة الصراع في أوروبا . واستجاب فرانثو لوصية زوجته ، فكانت بعض الحملات على الشمال الأفريقي ، ولكن معظم جهوده تركت على مقارعة الفرنسيين مستخدما إيطاليا ساحة لذلك الصراع . ففي سنة ١٤٦٣ احتل الملك الفرنسي لويس الحادي عشر أقليمي روسيلو وسرانيا وانتزعهما من المملكة الأراغونية . إلا أن فرانثو سعى منذ توليه عرش أرغون إلى استعادة المنطقتين ، بسبب قيمتها التاريخية لأبناء شعبه إذ كانتا الوطن الأصلي للقطلانيين ، قبل أن يتوسع هؤلاء في الجنوب ويؤسسوا مملكة أرغون في القرن الثالث عشر ، ويسطروا سيطرتهم على عدد من المناطق المهمة في البحر الأبيض المتوسط ، مثل نابولي وصقلية وأثينا وغيرها من الممالك . وحاول فرانثو عزل فرنسا خلال سنوات حصار غزانتة بعرض صدقة قشتالة وأرغون على الجبلترا وإيطاليا وهولندا ، وابرم سنة ١٤٨٩ معاهدة مع الجبلترا تم الإتفاق بموجتها على أن يشن الإنجليز الحرب على فرنسا ، بينما تقدم جيوش فرانثو لاسترجاع روسيلو وسرانيا . ولكن المعاهدة بقيت حبرا على ورق واستعراض عنها بالإتفاق مع فرنسا على التوغل في إيطاليا مقابل استرداد الأقليمين . وهذا ماحدث قبل أن يكتشف فرانثو أن مطامع الفرنسيين في إيطاليا ستعرض مصالحه للخطر ، فلجأ إلى تشكيل حلف مع الجبلترا والبابا لوقف تقدم قوات الملك الفرنسي شارل الثامن في إيطاليا ، ولكن شارل تجاهل الحلف ودخلت قواته نابولي سنة ١٤٩٥ ، ورد فرانثو على ذلك بإرسال قواته لمقاتلة الفرنسيين وحلقاتهم السويسريين في السنة التالية . قاد غونثالو القرطبي الملقب « بالقبطان العظيم » جيش فرانثو وهو يتسلح بالخبرة التي كسبها خلال الحرب مع الأندلسين في جبال الجنوب ، ولكن التسليح الخفيف لجيشه واعتماده على المشاة بدلا من الفرسان أثار سخرية أعدائه قبل أن يكتشفوا أن هذا التسليح الجديد في نوعه أثبت فعالية كبيرة ، وانتهت المعارك باندحار الفرنسيين وتخلصهم عن نابولي خلال أسبوعين فقط . ولم تكن تلك المعارك بالأختير فقد استمرت الحملات ضد الفرنسيين وحقق القرطبي الانتصار في كل معركة إلى أن وضع الفرنسيون معترفين بقوة الجيش القشتالي ، وسيادة فرانثو على نابولي سنة ١٥٠٤ . ماتت إيزابيلا في سنة صعد فيها نجم قشتالة وأرغون وأصبح في إمكان جيش فرانثو مقارعة أي جيش أوروبي آخر . ودعم

فرناندو موقفه بحملة دبلوماسية فأرسل السفراء إلى روما ولندن وبروكسل والبندقية وفيينا ، ونال استحسان ميكافيلي على نشاطه الدبلوماسي وحنكته السياسية .

حقق فرناندو انتصاراً فريداً على الفرنسيين خلال الحرب التي جرت في إيطاليا ، ولكن عملية صنع الإمبراطورية جرت في أماكن أخرى عن طريق مصاورة بعض أهم ملوك أوروبا . كانت رغبة إيزابيلا وفرناندو في البداية تنصب على محاولة توحيد ممالك شبه جزيرة إيبيرية (أرغون وقشتالة والبرتغال) عن طريق مصاورة ملك البرتغال ، ولكن المحاولة انتهت إلى مأساة . في في الحادثة الأولى زوج فرناندو ابنته إيزابيلا إلى الأمير البرتغالي الفونسو ولكنه قتل في حادثة عرضية . فتزوجت بعده الملك البرتغالي عمانويل ولكتها ماتت خلال الوضع . وكان لابنها ميغيل فرصة وراثة عرش قشتالة وارagon والبرتغال لو عاش ولكنه مات هو الآخر سنة ١٥٠٠ ، وتوقفت محاولات توحيد شبه جزيرة إيبيرية حتى القرن السادس عشر . زواج إيزابيلا إلى الفونسو ثم عمانويل لم يكن الوحيد ، فتزوجت كاتالينا (المعروفة أيضاً باسم كاثرين الأرغونية في التاريخ الإنجليزي) إلى أمير ويلز الإنجليزي ولكنه مات فتزوجت بعده الملك هنري الثامن ، وانتهى الزواج إلى مأساة أخرى ، كما سيتبين فيما بعد . وابنه الوحيد خوان تزوج كذلك من الأميرة الفسوسية مرغريتا ابنة الإمبراطور مكسيمليان ، ولكن هذا الزواج أثار طفلاً مات في رحم أمه ثم مات خوان نفسه بعد ذلك . وهكذا لم يتبق سوى زواج ابنة فرناندو الكبيرة خوانا من ابن الإمبراطور مكسيمليان ، الأرشدوق فيليب ، وكان كارلوس ثمرة هذا الزواج ومؤسس الإمبراطورية الأسبانية . أما الأرشدوق فيليب فقد مات فجأة سنة ١٥٩٦ فجنت زوجته خوانا وعاشت مع جثته سنوات انتقلت بها من مكان آخر إلى أن ماتت هي الأخرى .

وآخر سنوات الملك فرناندو كانت أعظم مراحل حكمه ، فقد كرس جهوده لوقف توسيع الفرنسيين في أوروبا وتدعم ممتلكات أرغون في البحر الأبيض المتوسط ، وضم مملكة نافار إلى سلطانه بعد أن تذرع بأن مملكة نافار تحاول التآمر مع الفرنسيين ضدّه فسير إليها جيشاً بقيادة عسكري شهير آخر هو دوق البه واحتلها سنة ١٥١٢ . وقبل موته فرناندو أعد العدة لاستقبال حفيده كارلوس ملكاً على البلاد وعين ابنه غير الشرعي ألونسو الأرغوني (وكان الأخير ثمرة لأحدى مغامرات فرناندو مع خليلاته) وصيانته على عرش أرغون وقطالونيا وبلنسية ، بينما تم تعيين الكريستيان رمنيز وصيانته على عرش قشتالة . وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٥١٦ مات فرناندو مفسحاً المجال لقيام الإمبراطورية على يد حفيده كارلوس . ولكن تلك الفترة الانتقالية كانت مشبعة بالحروب الداخلية إذ اندلعت الثورة المعروفة بثورة أهل المدن سنة ١٥٢٠ واستمرت حتى احمدتها سنة ١٥٢٢ .

ب - كارلوس الخامس :

وصل كارلوس إلى ميناء سانتندير الواقع على خليج بسقاية في السادس عشر من تموز سنة ١٥٢٢ ومعه حوالي أربعة الآف من الجنود الألان . كان بروز فكيه يضفي على وجهه سمات البه ، ولكن مشكلته



كارلوس الخامس
(متحف
برادو ،
مدريد)

الكبير في مملكته الجديدة ، تتمثل في جهله للغة القشتالية وغريته عن رعاياه . ومع ذلك فإن كارلوس ورث من المالك ماجعله أعظم حاكم في عصره ، وكان أول خمسة ملوك حكموا الإمبراطورية الأسبانية باسم أسرة هابسبورغ . حضت إمبراطورية كارلوس الخامس قشتالة واراغون وبماك ارغون في البحر الأبيض المتوسط (نابولي وصقلية وسردينيا) والپنسا ولحقاتها وهولندا ولوکسمبورغ وهنغاريا . ومورافيا بالإضافة إلى ممالك أخرى شملت نصف القارة الأوروبية ، والمستعمرات المائية في العالم الجديد . وإذا كانت المالك التي ورثها كارلوس على هذا الإتساع الهائل فإن المشاكل كانت ضخمة أيضا . وصعود الإمبراطورية الأسبانية توافق مع انتهاء حرب المئة عام بين إنجلترا وفرنسا فكانت الأخيرة تتاج حقبة طويلة من الصراع مثل قشتالة نفسها . وفي جنوب شرق أوروبا كان العثمانيون يحققون انتصارات هائلة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوجوا تقدّمهم باتجاه وسط أوروبا بكسر المجريين في موقعة الموهاك سنة ١٥٢٦ ، واحتلوا البحر فيقا هناك قراية قرن ونصف القرن . كانت الإمبراطورية تلك آلة حرب آخرى مثل الإمبراطورية الأسبانية وكانت المواجهة بين القوتين تزداد حدة سنة بعد سنة ، ولكن الحرب اندلعت أولا مع فرنسا .

بدأت المعركة بين جيوش كارلوس الخامس وفرانسيس الأول في إيطاليا ، كما بدأت آخر القرن السابق في نابولي بين فرانشيز وشارل الثامن . واستمرت المعركة في مرحلتها الأولى من سنة ١٥٢١ وحتى ١٥٢٥ وانتهت بانتصار الأسبان وحلفائهم من المرتزقة الألان في معركة بافيا حين أسر الملك الفرنسي . ويتجه المعاهدة التي أبرمت في مدريد خسر الفرنسيون ميلانو وجنوة ودوقيه برغندي ، ولكن فرانسيس الأول نقض المعاهدة واندلعت المرحلة التالية من الحرب بين سنتي ١٥٢٦ و ١٥٢٩ واستمرت بصورة متقطعة

حتى سنة ١٥٤٤ ، عندما أبرمت معاهدة أخرى بين العثمانيين قبل أن تندلع مرحلة جديدة من الحروب في الفترة بين ١٥٥٢ و ١٥٥٦ . وال الحرب مع فرنسا لم تكن الشغل الشاغل لكارلوس الخامس إذ بدأ تدخله في الحرب الدينية في المانيا اعتباراً من سنة ١٥٣٠ مع نهوض حركة الإصلاح الديني التي قادها لوثر في المانيا ، ولكن تعاظم الخطر العثماني ، ولاسيما بعد حصارهم لفيينا سنة ١٥٢٩ ، اضطر كارلوس الخامس إلى البحث عن السلام طلباً للمساعدة ضد العثمانيين بموجب معاهدة نورمبرغ سنة ١٥٣٢ . استعرت الحرب الدينية بعد الإخفاق في التوصل إلى حل سنة ١٥٤٥ وبعد سنتين حقق كارلوس الخامس انتصاراً على أمراء الحركة البروتستانتية ولكن النصر لم ينفع في القضاء على حركة الإصلاح الديني إذا أبى موريس السكسيوني اتفاقاً فرنسي مع الملك الفرنسي هنري الثاني ضد إسبانيا سنة ١٥٥٢ ثم أضطر إلى كارلوس الخامس إلى القرار وخسرت الإمبراطورية الإسبانية مالكها في المانيا وانتصرت بذلك حركة الإصلاح الديني . الساحة الثالثة لحروب كارلوس الخامس كانت على الساحل المغربي وحقق كارلوس انتصاراً عندما أخذ تونس سنة ١٥٣٥ ولكن الحملة التي نظمها ضد الجزائر سنة ١٥٤١ انتهت إلى الإخفاق الذريع .

ج - فيليب الثاني :

كان إخفاق كارلوس الخامس على الساحة الأوروبية سبباً في نزوله عن العرش الأسباني لأبنته فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ ، فتاريخ إسبانيا خلال فترة حكم كارلوس كان سلسلة لا تنتهي من الحروب التي انهكت جيشه ، وسيطت افلام الدولة رغم تدفق الذهب والفضة من مستعمرات العالم الجديد .. ومات كارلوس بعد سنتين من اعتزاله الدنيا في دير يوست الواقع شمال شرق مدينة بلازما ، وترك لأبنته إمبراطورية هائلة ومعها كل المشاكل التي بقيت معلقة دون حل . كانت الإمبراطورية تشمل تونس والرأس الأخضر والفلبين وجزر الهند الغربية والمكسيك وبيرو ، بالإضافة إلى المالك الأوروبية وباستثناء المانيا . ولكن أعداء الإمبراطورية كانوا بالمرصاد ابتداءً من فرنسا التي كانت العدو التقليدي ، إلى حركة الإصلاح الديني البروتستانتية ثم إلى العثمانيين والإنجليز والمولودين فيما بعد . وكانت الحروب الجديدة بحاجة إلى الأموال ولكن الخزينة كانت فارغة ، لأن حروب كارلوس استنفدت كل مقدرات الإمبراطورية . أمام هذا الوضع عقد فيليب معاهدة سلام مع فرنسا سنة ١٥٥٩ ، وبدأت عملية إعادة بناء اقتصاد الإمبراطورية بالاعتماد على فضة البيرو والمستعمرات الأسبانية الأخرى في العالم الجديد .

وكانت بعض سنوات من السلام النسيي تفجرت إثرها الاضطرابات الدينية في هولندا بعد اقتحام الكنائس هناك سنة ١٥٦٦ ، فبعث فيليب الثاني جيشاً بقيادة دوق الـ لقمع الثورة بمساعدة محام التفتیش . هذه الخطوة لم تنه الثورة ، واعتباراً من سنة ١٥٦٨ امتدت الحرب بين فيليب الكاثوليكي والبروتستانت إلى البحار واندلعت الثورة الأندلسية الثانية في الجنوب . (انظر الثورة الأندلسية الكبرى) وماتت زوجة فيليب المفضلة وأبنته الذي أودعه السجن . في السنوات القليلة اللاحقة تحكم فيليب من قمع ثورة الأندلسين في الجنوب وسحق الثورة البروتستانتية في هولندا . وشكل تحالفًا مقدسًا بينه وبين البندقية بالإشتراك مع البابوية لصد العثمانيين باتوا يهددون الجزائر الأسبانية . وفي السابع من

تشرين الأول سنة ١٥٧١ تمكن دون خوان الفسوبي، الذي قاد الحملة ضد الأندلسين ، من الحاق المذيبة بالأسطول التركي بعد مقتل ثانية آلاف من جنوده وجرح حوالى ١٥٠٠٠ . ومع ذلك لم تكن المعركة حاسمة وتتحول اهتمام فيليب إلى مستعمراته في العالم الجديد ، وإلى القضاء على الحركة البروتستانتية في هولندا لأن وقف زحف حركة الإصلاح الديني بالنسبة له أهم من محاربة المسلمين ، لاسيما وأنه كان يتصور نفسه رسولا بعثه الله لنصرة الكاثوليكية في كل مكان ، ولجمع شمل عالمه الكاثوليكي تحت حكم أميراطور واحد وسيف واحد ودين واحد .

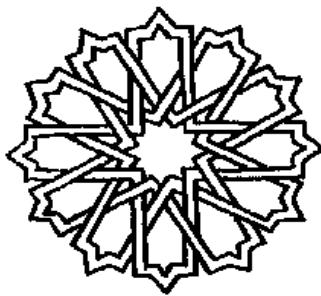
وحروب فيليب الثاني في هولندا وغرباطة والبحر الأبيض المتوسط أدت هي الأخرى إلى إفلات المذيبة سنة ١٥٧٥ / ١٥٧٦ وضعفت قدرة الامبراطورية على الاستمرار في حروفيها الدولية . ولكن سنة ١٥٨٠ كانت سنة خير بالنسبة لفيليب إذ ضم البرتغال إلى مالكه ، وسيطر على أسطولها الضخم ، وكان ذلك نتيجة مباشرة للحملة التي نظمها الملك البرتغالي سبستيان ضد المغرب سنة ١٥٧٨ . ففي ذلك العام وقعت معركة القصر الكبير بين العاززين البرتغاليين والمغاربة فكانت هزيمة ساحقة للجيش الغازي قتل فيها الملك سبستيان ومعه عدد كبير من nobility وأسر الباقى ودمرت قوة البرتغال . مات سبستيان وخلف امبراطورية كبيرة شملت البرازيل وبمالك واسعة في الشرق الأقصى ، وتوفيت الفرصة التي انتظرها فيليب لتوحيد شبه جزيرة إيبيريا تحت أمرته . وفي نهاية حزيران سنة ١٦٥١ أمر فيليب الثاني قائده المظفر دوق البة بدخول البرتغال وسحق المقاومة الضعيفة التي أبدأها البرتغاليون . كان الأسطول البرتغالي أكبر أسطول في العالم إذ وصلت زنة سفنه إلى ما يزيد على ٤٠٠٠ طن بـ ٤٠٠٠ طن بعد الحاق الأسطول الأسباني به ، مقابل أسطول هولندي زنة سفنه ٢٣٢ طن ، وأسطول الإنجليزى زنة سفنه ٤٢٠٠ طن . هذه الفرصة الطيبة التي اتيحت لفيليب الثاني جاءت في وقت تدفقت فيه كميات كبيرة من الفضة المستخرجة من مناجم البيرو بعد استخدام الرثيق لتنقيتها ، فأصبح في مقدوره تمويل أية عمليات حربية جديدة ، وبدأت الامبراطورية قوة لا يمكن لأحد أن يغلبها في البر أو البحر .

في تلك الفترة كان الصدام على أشده بين إسبانيا وإنجلترا ، فقد ساهم الإنجليز دائمًا في دعم الثورة الهولندية ، وهاجموا أسطولهم السفن الإسبانية ، واستعرت المنافسة في المحيط الأطلسي . كان دون خوان الفسوبي أول من عرض على فيليب الثاني غزو إنجلترا ، ولكن الأخير مات سنة ١٥٧٨ دون أن يتحقق حلمه ويقع على فيليب وضع خطة الهجوم والاستعداد لغزو إنجلترا . وفي سنة ١٥٨٨ انطلقت ١٢ سفينة حربية إسبانية بإتجاه الشواطئ الإنجليزية ولكن رداءة الطقس وبراعة القبطانة الإنجليز أدت إلى إخفاق عملية الغزو وقد الأسطول الأسباني حوالي ثلث سفنه .

لم تكن هزيمة الأسطول الأسباني حاسمة إذ نظم فيليب غزوا آخر سنة ١٥٩٦ انتهى إلى نفس المصير ولكنها ساهمت في التقليل من هيبة إسبانيا في تلك الحقبة من الصراع الدولي ، بالإضافة إلى أنها كانت عملية باهظة النفقات كلفت المذيبة حوالي عشرة ملايين دوقة . ومنذ بداية التسعينيات من ذلك القرن بدأ التصدع يظهر على اقتصاد الامبراطورية ثم أفلست الدولة سنة ١٥٩٦ . كان فيليب يحاول تقليد والده

كارلوس الخامس في كل شيء . وحاول هو الآخر بناء إمبراطورية لاتغرب عنها الشمس ونجح في ذلك فترة ولكن النهاية كانت متألة تقريباً للوالد وابنه . فبعد افلانش المخزينة بجاً فيليب إلى الصلح مع فرنسا وقطع بعض الصلات مع هولندا ثم مات في الثالث عشر من أيلول سنة ١٥٩٨ ، فورئه ابنه فيليب الثالث وبدأت عملية تفكك الإمبراطورية . (انظر: سقوط الإمبراطورية الأسبانية) .

الفصل
السابع



الثورة الاندلسية الكبرى

١ - أحوال الأندلسيين بعد الثورة الأولى

اعتباراً من بداية شهر آيار سنة ٩٠٢ / ١٥٠٢ كان جميع الأندلسيين في قشتالة وليون منصرين بوجوب المرسوم الذي أصدرته الملكة إيزابيلا قبل ثلاثة أشهر من ذلك ، وخيرت فيه الأندلسيين بين الانضمام إلى الكنيسة أو الإرتحال إلى العدو . وهكذا أضافت الكنيسة إلى رعيتها حوالي نصف مليون منصر بالإسم وحولت مساجدهم إلى كنائس أو أزيلت ، ومنع الأذان والصلوة ولكنهم استمرروا يمارسون طقوسهم الدينية في الخفاء . وكان تطبيق المرسوم أسيما بصورة عامة لأن رجال الكنيسة كانوا يفتقدون إلى المهارة التي تحكمهم من تصميم الأندلسيين فعلاً ، وأن الأندلسيين كانوا يفتقدون الرغبة أو الحاجة للقتصر . في السنوات اللاحقة شددت الكنيسة والسلطات المدنية والعسكرية القشتالية الضغوط على الأندلسيين ، فأصدر الملك فرناندو سنة ٩١٤ (١٥٠٨) مرسوماً آخر يحظر على الأندلسيين استخدام اللغة العربية وارتداء الملابس التقليدية ، ومارسة أية عادات أو طقوس إسلامية أو عربية . ولكن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم ولم تجد السلطات فائدة من متابعة تطبيقه لأن ذلك كان صعباً بسبب عناد الأندلسيين من جهة ومخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إندلاع الإضطرابات مرة أخرى من جهة ثانية ، لاسيما في تلك المرحلة التي احتاج فيها فرناندو إلى تكريس كل جهوده لعزل الفرنسيين ، وتشييد ممالكه الأرغونية في البحر الأبيض المتوسط .

في هذه الفترة نقل القشتاليون الحرب مع العرب إلى شواطئ المغرب ، وكان ذلك امتداداً للفكرة الأساسية التي تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية في شبه جزيرة أيبيرية نحو الجنوب الأندلسي ، وتصورت انتقال الحرب مع المسلمين إلى المغرب كمتابعة للحملات الصليبية في الغرب . وفي الفترة بين سنتي ١٢٥٢ و١٢٥٤ ، أي بعد إتمام إحتلال القسم الأعظم من الأندلس ، وضع الفونصو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بموافقة الكنيسة الرومية وبركتها . ولكن التخوف من هجوم أندلسي معاكس أدى إلى تأجيل الحملة حتى سنة ١٢٦٠ ، عندما أرسل الفونصو ٣٠ سفينة هاجمت مدينة سلا في العاشر من يولول بقصد احتلالها ولكن الجنود قتلوا من قتلوا وسيوا عدداً من سكانها ، وعادوا بالغنائم فقرر الفونصو صرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربية ، والإهتمام بانهاء مملكة لبلة في غربية الأندلس .

وبعد استسلام غرناطة هاجم جنود إيزابيلا وفرناندو مدينة مليلة سنة ١٤٩٧ ثم وهران سنة ١٥٠٩ والهجوم على وهران كان من ترتيب الكريديناز زميّز كبير أساقفة قشتالة ، وصاحب السياسة التي دفعت

الأندلسين إلى الثورة سنة ١٤٤٩ . والظاهر أن فرناندو شجع الكريدينال على الحملة أملأ بالتخليص منه بعد أن سُمِّ تدخله في شؤون الدولة ، أو أن التشجيع كان يهدف تحقيق انتصار على أهل المغرب يضعف عزيمة الأندلسين في غرباطة على مقاومة فرناندو وسياساته . ومهما كان السبب، فإن الهجوم على وهران انتهى بذبح هائلة قتل خلالها أربعة آلاف من سكان المدينة ، وسي ماين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص ، ولم ينج الأطفال من القتل أو النساء من الاغتصاب . وحين دخل الكريدينال زمينز إلى المدينة سجد بين أكوام القتلى معلناً أن الانتصار ماهو في الحقيقة إلا انتصار الكنيسة . وأكمل الكريدينال حملته الصليبية تلك بإقامة محكمة تفتيش في وهران سنة ١٥١٥ قبل أن يبدأ في تشكيل هذه المحاكم في مستعمرات العالم الجديد .

كان فرناندو يردد القول في السنوات الأخيرة من حياته بأن حلمه تحقيق السلام في أوروبا والانطلاق بحملة صليبية هائلة لإحتلال مصر ، التي كانت مركز القوة الإسلامية في تلك الفترة ، ثم الاتجاه بعد قهر مصر إلى القدس لاحتلالها هي الأخرى . ولطالما حشد فرناندو جيشه وأكثر من بناء السفن لایهام الناس بأنه يريد غزو الساحل المغربي قبل أن يعدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة ويوجه جيشه وسفنه لمقاللة الفرنسيين . ولكن فرناندو لم يغز مصر ولا القدس ومات سنة ١٥١٦ ، ولحق به الكريدينال زمينز بعد سنة وقد أعدا البلاد لاستقبال الملك الجديد كارلوس . ولكن الفترة الإنقلالية تلك كانت مليئة بالاضطرابات التي توجت باعلان ثورة سكان المدن في الأسبوع الأخير من آيار سنة ١٥٢٠ . وكانت ثورة دائمة اندلعت في قشتالة وارagon واستمرت حتى سنة ١٥٢٢ عندما قضى عليها وفتح الباب لعودة كارلوس ملكاً على البلاد .

أ - ثورة أهل المدن وتنصير الأندلسين في بلنسية :

ولد كارلوس في غشت سنة ١٥٠٠ من خوانا (المجنونة) ، ابنه ايزابيلا وفرناندو والأرشدوق فيليب ابن الاميراطور النمساوي ماكسيميليان ، وتللمذ على يدي أدريان الاترشتي ، فلم يكن يعرف الكثير عن قشتالة أو ارغون . ولكن جهله بمالكه في شبه جزيرة ايبيريا لم يكن العامل السليمي الوحيد فقد اعتمد على حاشية كبيرة من الفلاحن جلبها معه حين وصل قشتالة سنة ١٥١٧ . وهكذا اندلعت ثورة أهل المدن عندما كان كارلوس يجمع ارثه ويتجه إلى البابا اميراطورا سنة ١٥٢٠ ، واشترك في هذه الثورة الشعبية النبلاء والتجار ورجال الدين والرعيان على حد سواء . وكانت النسمة عارمة على كل من له صلة بالحكم ، فنمت الثورة واتسعت نتيجة الموقف السليمي الذي أخذه أدريان الاترشتي ، وكان كارلوس عينه وصياغا على البلاد أثناء غيابه لتسلمه عرش الاميراطورية . بعث أدريان بحوالى ألف جندي لقمع الثورة في مدينة شقوبية في تموز سنة ١٥٢٠ ، ولكنهم هزموا فأرسل التعزيزات إليها ، ودارت حرب شوارع شرسة . ووصلت الثورة إلى أوجها إثر إحراق مدينة كمبود ، وكانت مركزاً رئيسياً للتجارة والملاحة في قشتالة ، ثم أمتدت الثورة إلى بلد الوليد مما اضطر أدريان إلى الفرار ، وبات من العسير على كارلوس الاميراطور أن يعود إلى مملكته .



بانسية
(بوابة حي
المواحة القديم)

وماحدث بعد ذلك يبدو غامضا ولكن نيران الثورة خمدت ، في حين بقيت غرناطة وقرطبة ومدن أخرى في المناطق الجنوبية تؤيد الملكية ، وتحث كارلوس على العودة إلى البلاد . وانقسام زعماء الثورة ومحمود نيرانها أدى إلى تراجعها أمام تقدم المؤيدين لكارلوس ، وكانت طليطلة آخر المدن الثائرة التي سقطت بعد قتال عنيف قادته أرملا قائد الثورة في أحد مراحلها وهو « بديلا ». وخلال هذه الثورة تسلم

أسقف سبورة قيادة الغاضبين فاحرقوا المزارع والكنائس ونبوا ماقفيها ولكنه اعتقل خلال فراره إلى فرنسا وأودع السجن ، فحاول الهرب منه بعد خمس سنوات أثر قتل السجان ، ولكنه اعتقل ثانية ومات تحت التعذيب مما دفع البابا إلى فصل الإمبراطور كارلوس من الكنيسة بضعة أشهر . وجاءت نهاية زعماء ثورة أهل المدن حين اعدم كارلوس ٢٥٠ منهم في بلد الوليد سنة ١٥٢٢ بعد أربعة أشهر من عودته إلى البلاد .

في نفس الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أهل المدن في قشتالة ، كان أهل مدن مملكة ارغون يشعرون ب Nirvan ثورة مشابهة ولكن لأسباب مختلفة تماماً . ففي السنة التي سقطت اندلاع الثورة في بلنسية صرف الجنود الأسلحة لجماعات من سكان المدينة ، بعد أن توقعت السلطات قيام العثمانيين بهجوم عليهم وكان ذلك كافياً لإثارة الأضطراب في نفوس السكان . وفي صيف سنة ١٥١٩ ظهرت بعض حالات الاصابة بالطاعون فهرب معظم المسؤولين والجنود منها ، وشكل بعض السكان جمومات أطلقت عليها مجموعات « جرمانية » أو « الأحوجة » فسلمت مقابل الدوحة في بلنسية وبدأت توسيع نفوذها في الأرياف القريبة . كان خوان لوبيث أول قائد مُنصَّب لهذه المجموعات . وكان يشتغل بصناعة الملابس ولكن طموحه كان كبيراً إذ فكر في تحويل بلنسية إلى جمهورية مثل جمهورية البندقية ، ولكن سلطة الأخير لم تدم فأخذها زعيم متطرف هو بيريس روجيهما ضد البلاء ثم ضد الأندلسيين في مملكة بلنسية تحت شعار « اليوم تتني أيام النبلاء والكفار ». وهكذا تحولت ثورة بلنسية إلى حركة اصلاح اجتماعي من نوع معين . ولكن الحقد أنصب على النبلاء وأصحاب الأرض ، ثم على الأندلسيين لأن عدداً كبيراً منهم كان يعمل لدى هؤلاء النبلاء وبالتالي اعتبروا معادين للثورة مثل أثرياء المدينة ، ثم كانت عملية اقتحام المناطق التي يسكنها الأندلسيون وتصيرهم بالقوة . أزاء هذا الموقف تردد بعض أفراد الأسر الحاكمة في متابعة تأييدهم لحركة ثوار مدينة بلنسية بسبب تطرفها فالعزلت ويمكن الموالون لكارلوس من هزيمة قوات بيريس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول سنة ١٥٢١ ، وفر بيريس ولكن قبض عليه في أول السنة التالية وانتهت ثورة المدن في ارغون كما سبق وانتهت في قشتالة .

ب - الأندلسيون وكارلوس :

أيد الأندلسيون عودة كارلوس الخامس إلى عرش قشتالة خوفاً من أن تؤدي الفوضى إلى إقصامهم في النزاع وسقوطهم ضحايا لزعاع قشتالة وارغون ، أعلى الأقل» لتجنب مصرير اندلسي بلنسية رغم أنهم كانوا أغلبية فيها ، وانتظروا أن يأخذ كارلوس تأييدهم بالأعتبر عند النظر في مظلومتهم . ولابد أنهم استبشروا خيراً عندما أزم الإمبراطور نفسه - في خطاب تسلم العرش القشتالي أثناء الإحتفال الذي تم في سرقسطة - بعدم التدخل في الشؤون الدينية للأندلسيين الذين كانوا يعيشون في مملكة ارغون . ولأن تربية كارلوس كانت في ظروف بعيدة كل البعد عن التعصب القشتالي ، فإنه لم يعر كثير اهتمام لعمل محكم التفتيش في البداية، إلى أن بدأ يشعر بخطر تقدم الحركة البروتستانتية في ألمانيا وهولندا ، واحتلال تأثير ذلك على الدخل الهايل الذي كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التي فرضها على الهولنديين . وفي الفترة ما بين سنة ١٥٢٣ ، ١٥٢٥ نمت حركة اصلاح معادية للكاثوليكية روما في زوريخ ، واتسعت لتشمل المانيا

والنسا وراح كارلوس يدعم نشاط محاكم التفتيش في هولندا للقضاء على البروتستانت ، نظراً لأنَّ الحاكم تلك كانت تعتبر امتداداً طبيعياً لسلطة كارلوس ، كما كانت كذلك أيام إيزابيلا وفوناندو ، ثم في عهد فيليب الثاني فيما بعد . ولابد أنَّ كارلوس كان يعيش مخاوف اتساع حركة الإصلاح الديني في ممالكه الأوروبية عندما تقدم إليه بعض زعماء غرناطة ، يطلبون منه وقف مضائقات السلطات نتيجة صدور مرسوم عام ١٥٢٥ المؤكّد لمرسوم سنة ١٥٠٨ ، فأمر بتشكيل لجنة خاصة عهد برأسيتها إلى رئيس أساقفة مدينة قادس لبحث مظالم الأندلسيين ، ورفع تقرير إلى الإمبراطور عن نتائج تحقيقات اللجنة . ولكن بدلاً من أن تأمر اللجنة بانصاف سكان غرناطة ، كما توقع أهلها ، فإنها أوصت كارلوس الخامس بتأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة في السنة التالية ، وأمر الأندلسيون بالإمتناع عن التكلم بالعربية أو ارتداء الري الوطني أو الصلاة والوضوء ، أو حتى ختان أولادهم وصبغ الأظافر بالحناء . وأمراوا كذلك بالإقبال على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وظهور الحيوانات التي تموت ميتة طبيعية دون ذبحها ، وغير ذلك من الأمور . وهناك رواية عن أندلسي طارده الجنود في الجبال وقبضوا عليه وعذبوه لأنه فضل الماء على الخمر ورفض أكل لحم الخنزير . وفي سنة ١٥٢٩ شهدت غرناطة حدثاً مروعاً حين احرقت أول مجموعة أندلسية من ضحايا المحكمة (أنظر : الأندلسيون ومحاكم التفتيش) فدب الرعب وفرت أعداد كبيرة من سكان غرناطة إلى الشمال ، واحتلّطوا بسكان مدن قشتالة أو انضموا إلى سكان الأحياء الأندلسية في مدن الشمال . « وكذلك » كارلوس أعمال الأضطهاد هذه حين طلب من بابا روما إصدار مرسوم كنسي يعفيه من الالتزام الذي تعهد به ساعة تنصيبه على عرش قشتالة بعدم التدخل في شؤون المسلمين في أرغون . واستغلّ الأندلسيون حاجة كارلوس القصوى للأموال فعرضوا عليه مبلغاً من المال لقاء صرف اهتمام المسؤولين عنهم فوافق ولكن لقاء مبلغ كبير وصل إلى ٤٠٠٠ دوقة في السنة ، بالإضافة إلى تحصيل ٢٠٠٠ دوقة أخرى قدمت إلى الإمبراطور كضرية أسمها ضريبة « الفرضة » وكانت لقاء السماح لأهل غرناطة بالتكلّم بالعربية وارتداء الري الأندلسي . وساعدت الرشاوي التي قدمها أهل بلدية في تخفيف بعض الضغط عنهم ، ويقال أن بعض عمال محاكم التفتيش كانوا من بين المرتشين ، وإن كان ذلك صعب الإثبات .

حملة الإرهاب الجديدة ضد الأندلسيين في قشتالة وارغون أثارت غضب أهل المغرب في وقت احتدم فيه الصراع ضد العثمانيين ، فبدأت الحملات الحربية على السواحل القشتالية والأرغونية وهو جرت مدن مالقة وبلينسية وقادس، واضحت الجزائر القاعدة الرئيسية لعمليات الإغارة ولاسيما تحت قيادة خير الدين بربوسا (١٤٧٥ - ١٥٤٦) . ومع تزايد عمليات الإغارة هذه اتسع نطاق الغزو فشمل السواحل الإيطالية بمساعدة من ملك فرنسا فرانسيس الأول ، وكان ألد أعداء إمبراطورية كارلوس الخامس ، بحيث شكل سنة ١٥٣٦ تحالفاً مع الأتراك ضد عدوه في الجنوب . وأمام اتساع الأعمال العسكرية التي أدت إلى أسر الآلاف من القشتاليين والأرغونيين والصقليين والنابوليين ، بعث كارلوس أمير البحر الجنوبي إندريا دوريا لمهاجمة قواعد القرصنة قرب الجزائر سنة ١٥٣٦ ، ولكن الأخير تحاشى الاشتباك مع بربوسا الذي قوى موقفه في السنوات القليلة اللاحقة بعد أخذ تونس . وفي حزيران من سنة ١٥٣٥ استكمّل كارلوس العدة لمهاجمة بربوسا فاستقدم المزينة الألان وجمع الجنود من مالطة وإيطاليا، وانطلق الأسطول بقيادة

كارلوس إلى تونس ، وتمكن بعد معركة عنيفة من تحطيم اسطول ببروسا ، ولكن ببروسا نفسه تحكم من الفرار والعودة إلى الجزائر . وفي سنة ١٥٤١ بعث كارلوس باسطول ضخم لمحاجمة الجزائر ، ولكن الحملة انتهت إلى إلخفاف الذريع ، وتلقى كارلوس نكسة عنيفة في نفس العام عندما سقطت الجزر بأيدي الأتراك . والسنوات التالية شهدت استمرار الصراع في البحر الأبيض المتوسط باشتراك الأسبان والبرتغاليين والإيطاليين ضد مراكز المحميات في الجزائر وتونس ولبيبا . إذ انطلقت سنة ١٥٥١ حملة من طرابلس لاحتلال مالطة ولكنها لم تتحقق النجاح ، ورددت الأساطيل الأسبانية والإيطالية بمحاولة سنة ١٥٦٠ (بعد سنتين من موت كارلوس الخامس) لاحتلال جزيرة جربة التونسية ، بغية استخدامها قاعدة للانقضاض على طرابلس ولكن المحاولة اخفقت ، بل وشجعت الأتراك على تشديد الضغط على السواحل الأسبانية وهدلت جزيرة ميورقة سنة ١٥٦١ مما دفع الإمبراطور فيليب الثاني ، خليفة كارلوس ، إلى التفكير في إجلاء الجزيرة . ومع اشتداد قوة الأسطول التركي حشد فيليب الثاني اسطولا مشتركا مع الإيطاليين انطلاق بقيادة دون خوان المسوبي وأحرز انتصارا كبيرا على الأسطول التركي في معركة لباتن التي وقعت قرب الساحل اليوناني سنة ١٥٧١ . ولكن الإغارات لم تتوقف ، وانطلقت حملات جديدة من تونس سنة ١٥٧٤ باتجاه صقلية والطرق البحريّة بين إسبانيا ومستعمراتها الإيطالية ، وأسر كثيرون في العمليات بينهم سرفانتس مؤلف دون كيخوتي الذي اشترك في معركة لباتن ، ولكنه أسر في طريق العودة إلى إسبانيا ، ويفي فترة أسيرا حتى استفدى . أما آخر الغزوات ضد الساحل المغربي في تلك الحقبة فوّقعت سنة ١٥٧٨ عندما قتل الملك البرتغالي سbastián الأول في معركة القصر الكبير ومعه عدد كبير من النبلاء البرتغاليين ، وكان ذلك سببا في ضم البرتغال إلى مملك فيليب الثاني .

وفي آخر عهد فيليب الثاني كان الاهتمام بالبحر الأبيض قد ضعف وانتقل إلى العالم الجديد أو البحار في الشمال ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية إلى أن تجددت في القرن التاسع عشر ، عندما بدأ عهد الاستعمار الحقيقي .

وخلال المعركة التي دارت في البحر الأبيض المتوسط كان الأندلسيون يدفعون الشمن تارة لنجاح المحميات على الأساطيل الأسبانية والأرغونية والإيطالية ، وتارة لقدم حركة الإصلاح الديني في أوروبا ، وأحياناً بسبب اخفاق حاكم أو آخر أو سياسة أو أخرى . وكان الشمن بالنسبة لكارلوس الخامس حوالي ١٠٠٠٠ دوقة تسلّمها لقاء السماح للأندلسيين بتكلم لغتهم وغض طرف السلطات عنهم ، ولكن تأمّل الموقف في أوروبا، واشتداد الصراع الديني بين الكاثوليكي بقيادة قشتالة والباديم وبين البروتستانت وأنصارهم أدى إلى ازدياد الاعتداد على حماكم التفتيش ، سواء في هولندا أو في قشتالة وارagon ، وإطلاق أيدي عمالها ضد الأندلسيين بإيعازهم من المنصرين المتهمن بالهرطقة . وهكذا بدأت في الأربعينات والخمسينات من القرن السادس عشر عمليات مصادرة أملاك الأندلسيين بدعوى أنها الطريق الوحيد لصالحة الأندلسيين مع الكنيسة الأسبانية . وكان موقف الكنيسة في الأماكن الأخرى التي سكّنها الأندلسيون لا يقلّ حقدا . وهناك مثال حي على ذلك في موقف رجال الدين في بلنسية أثر قمع ثورة أهل المدن سنة ١٥٢١ وأعدام زعمائها . وبعد هدوء الأحوال في المدينة شكلت الكنيسة لجنة من علماء الدين لبحث

طلب تقدم به الأندلسيون البنسيون لالغاء عملية تصييرهم خلال هجوم الرعاع على الأحياء الأندلسية ، وقررت أن الثورة المدنية غير قانونية ولكنها رأت أن عملية التنصير مقبولة ولا يمكن الغاؤها تحت أية ظروف .

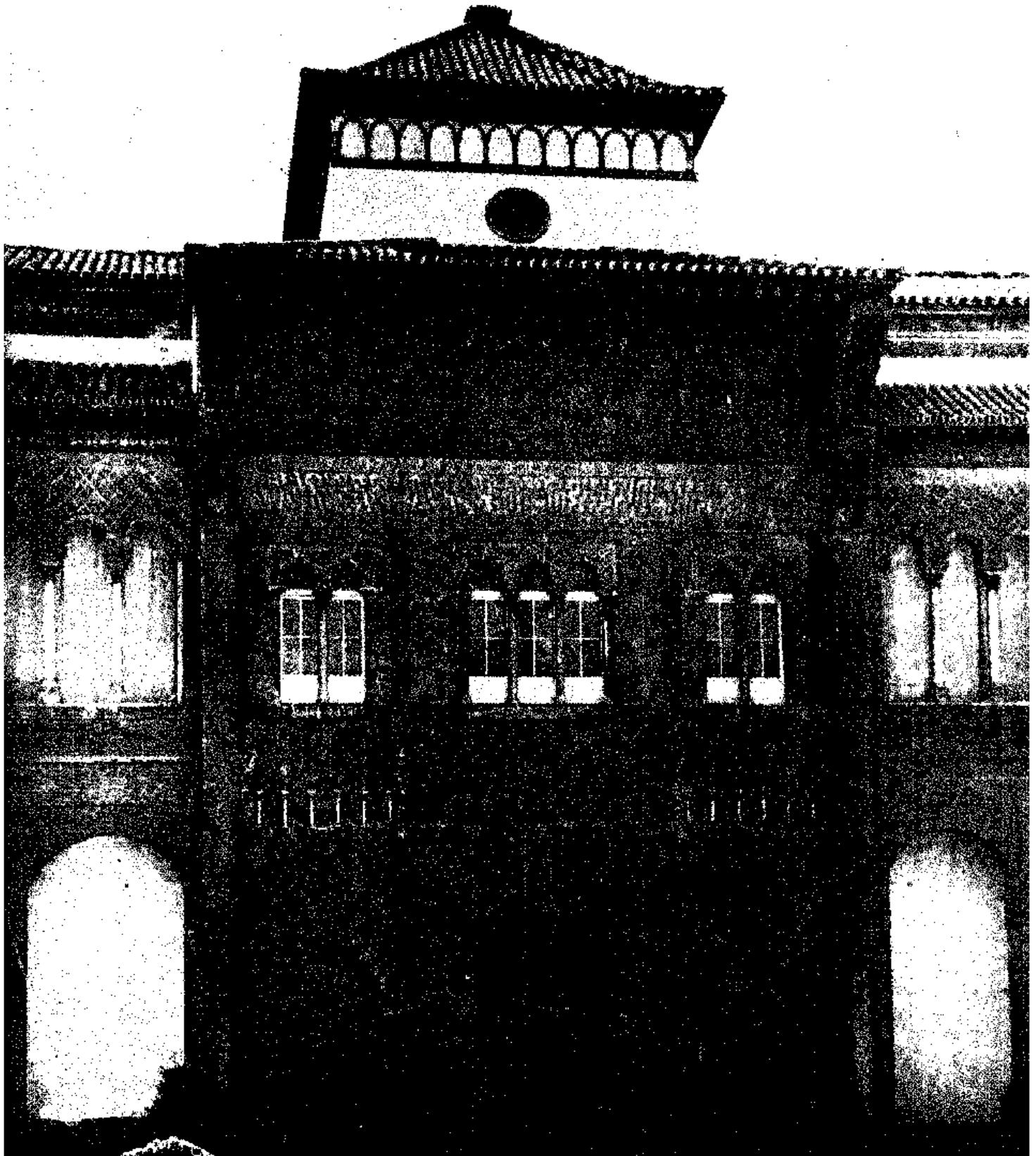
ولكن رغم كل المضائق والضغوط التي تعرض لها الأندلسيون خلال حكم كارلوس الخامس ماين ١٥١٧ و ١٥٥٨ ، ورغم عمليات الاضطهاد التي مارستها الكنيسة فإن الأحوال لم تكن لتقارن بما حمله المستقبل . فالرشوة التي كان كارلوس يحصلها من الأندلسيين كانت عاماً رئيسياً في تعامل السلطات لوجودهم والاستمرار في استخدام لغتهم وارتداء زفهم الوطني ، ولكن فيليب الثاني كان شخصية مختلفة تماماً .

٢ - أسباب اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى

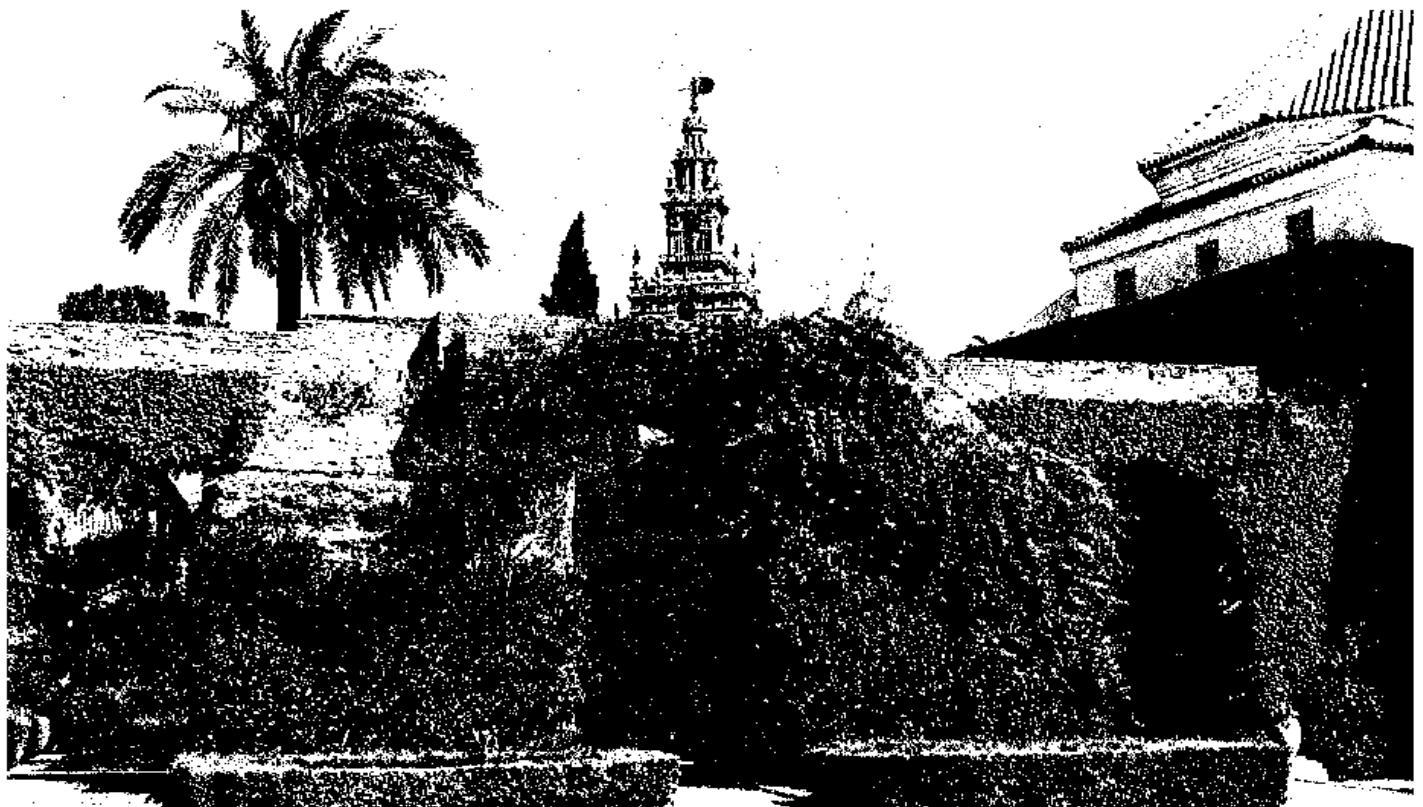
١ - الأحوال السياسية :

تنازل الإمبراطور كارلوس الخامس عن العرش سنة ١٥٥٦ ، ومات بعد سنتين دون أن يتمكن من قهر الفرنسيين أو الأتراك أو البروتستانت، ولكنه خلف إمبراطورية هائلة لأبنه فيليب الثاني . كان كارلوس هولندي المولد ، غريب الشكل ويعيناً كل البعد عن رعاياه في قشتالة حتى أنه أمضى ١٦ سنة هناك من أصل الفترة التي حكم فيها وامتدت حوالي ٤١ سنة ، ووصل لتسليم زمام الأمور في قشتالة سنة ١٥١٧ وهو لا يعرف أصول اللغة الإسبانية . وأخفق كارلوس ، بالطبع ، في تكوين مملكة دولية واحدة يحكمها رجل واحد وتدين بالكاثوليكية ، ولكنه كان مؤسس الإمبراطورية، وفيه على فيليب الثاني استكمال رحلة والده . كان فيليب ذكياً ونشيطاً أمضى القسم الأخير من حياته وهو يعيش في إحدى غرف قصره المائل في الأسكوريال كما يعيش الراهب . غير أنه لم يكن ليستطيع التمييز بين المهم والتفافه . وكان يحتاج لفترة طويلة قبل أن يتخذ القرار ، وإن اتخذه فقد لا يتبع تفاصيله حتى النهاية . وربما تدخل في بعض المسائل الجميلة فأُجج لها بدلًا من أن يحلها وهذا ما حدث مع الأندلسيين في الجنوب سنة ١٥٦٨ . أما عن طباعه فقد أحسن مؤرخه كبيرة القرطبي القول حين كتب أن ابتسامة الإمبراطور وخنجره قربان جداً من بعضهما . ولم يكن هذا بغريب على إمبراطور متطرف أمضى فترة حكمه في شبه جزيرة إيبيرية دون أن يغادرها وكان قشتالياً وصليبياً حتى العظم ، صرف كل جهده وأموال الخزينة في مقارعة عدويه الأكبرين: الإسلام والبروتستانية .

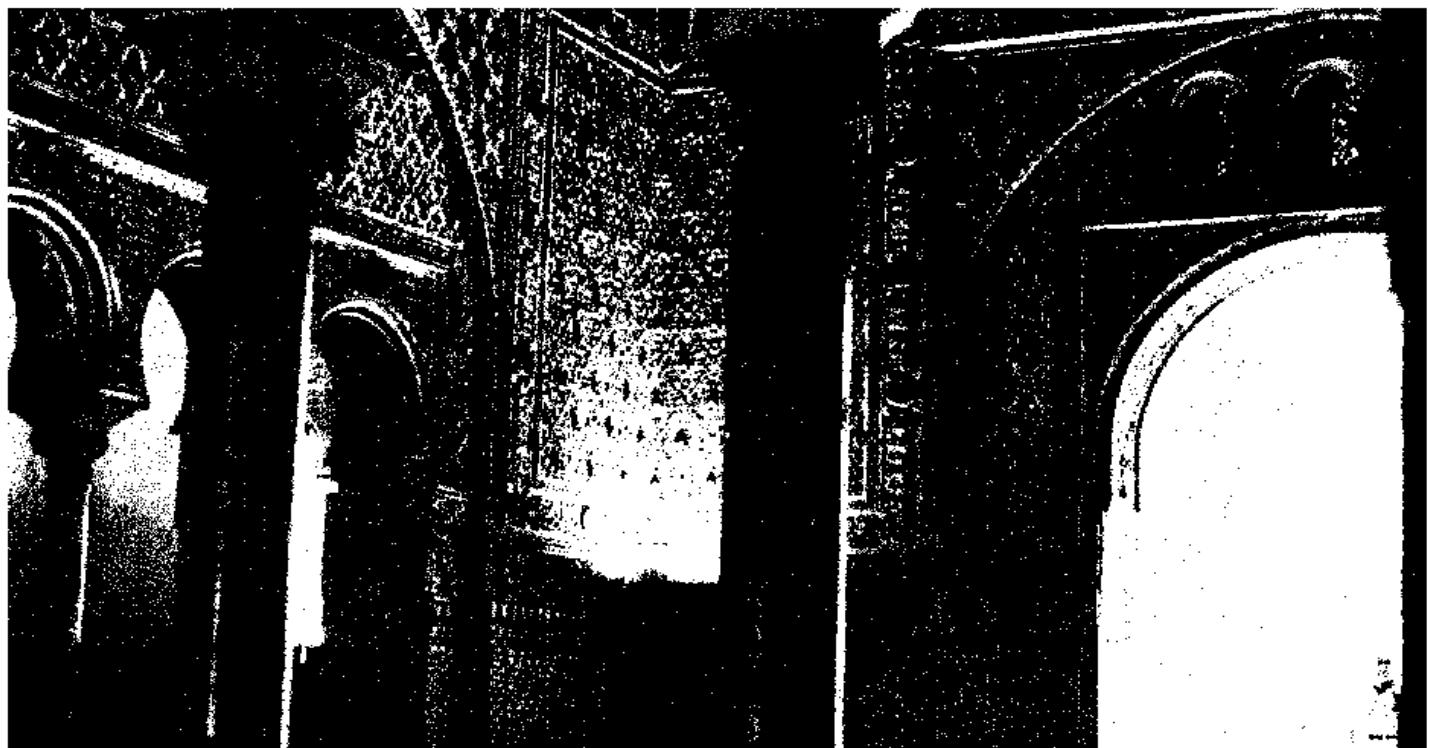
أعلن فيليب الثاني الحرب على البروتستانت في كل مكان عازماً على تطهير الدنيا منهم ولاسيما في هولندا . ولكن المفاجأة كانت في اكتشاف خليتين للبروتستانت في بلد الوليد واشبيلية فكان الغضب والخذل من اكتشاف البروتستانت في قشتالة التي حملت لواء الكنيسة الرومية وخاضت الحرب ضد



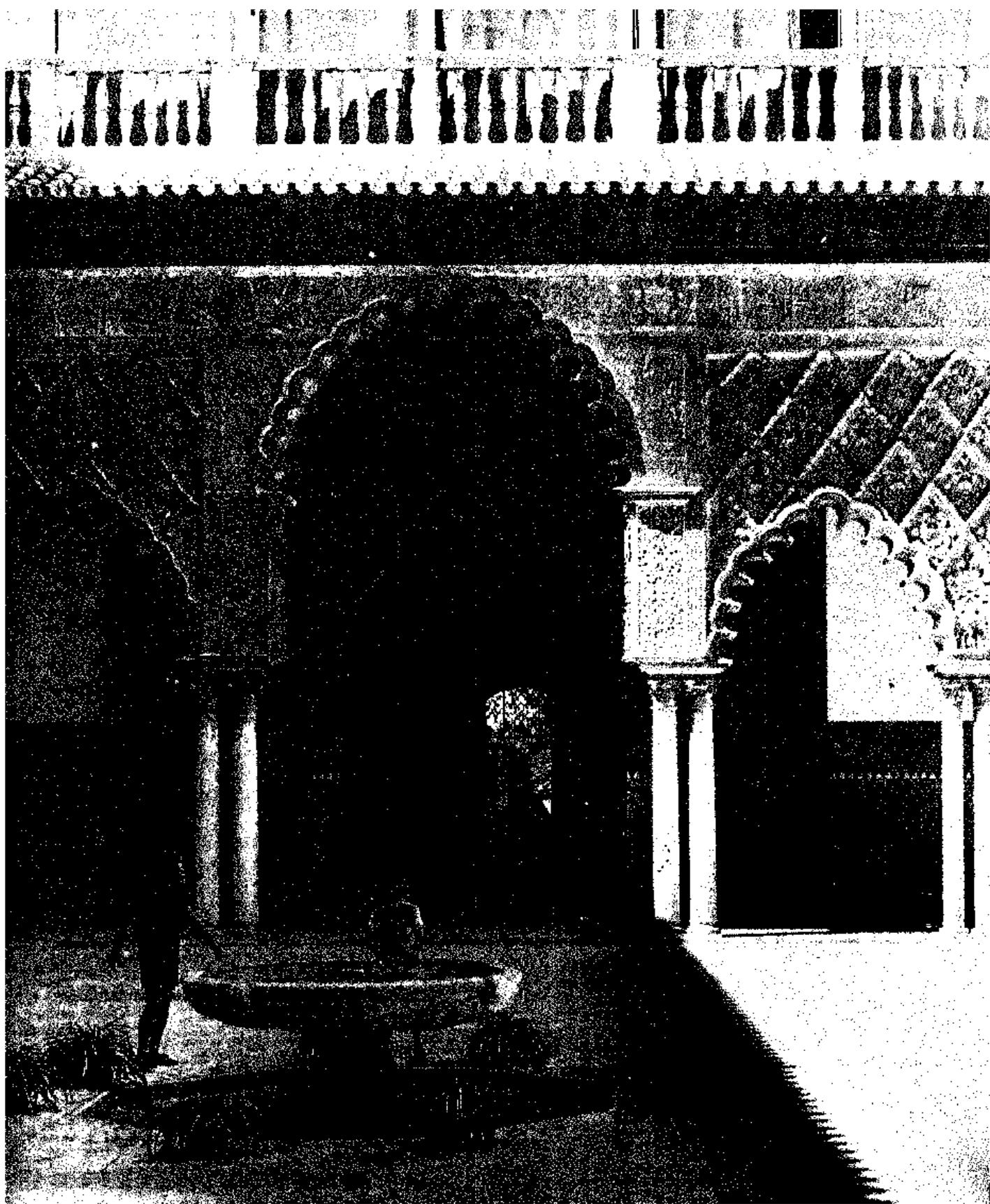
واجهة القصر في اشبيلية



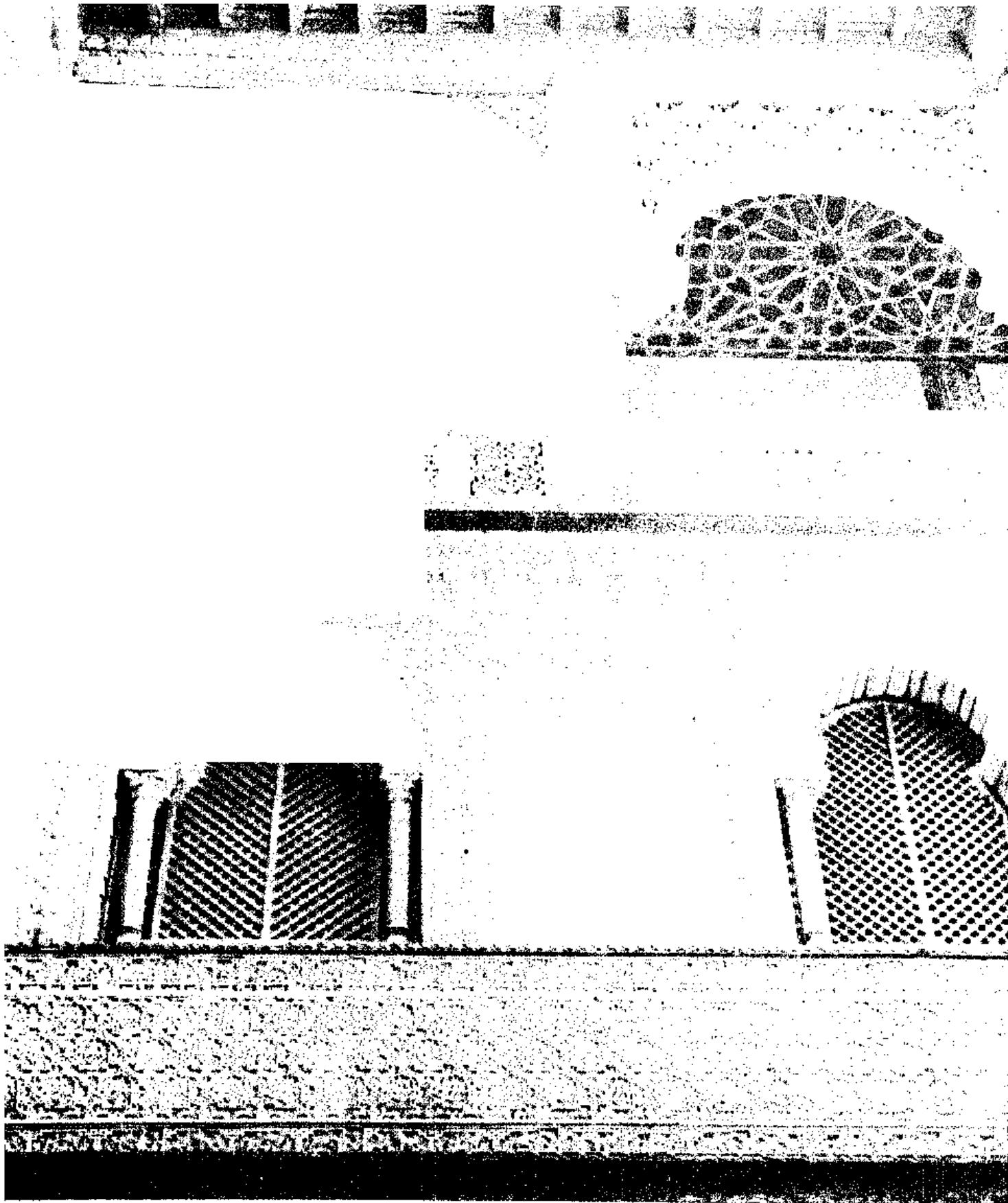
جدار هو كل ما تبقى من القصر القديم في إشبيلية



أحدى قاعات قصر إشبيلية



البلاحة الرئيسية في مقر أشبيلية



زخارف ونقوش مصممة على الطراز الديجني



الباحة الرئيسية من أحدى القاعات (القصر باشيلية)

البروتستانت باسم البابا وباسم الكاثوليكية في أوروبا وكان الرد سريعاً وعنيفاً . وفي الثامن من تشرين الأول سنة ١٥٥٩ احتفل في بلد الوليد بحرائق الهراتقة البروتستانت بحضور فيليب الثاني نفسه . والخلاف من تغلغل البروتستانية إلى قشتالة كانت مجرد أوهام ، فمحاكم التفتيش لم تعقل أكثر من ٣٠٠ من الهراتقة في كل سنوات حكم فيليب الثاني داخل شبه جزيرة إيبيريا . وال الحرب ضد الهراتقة كانت تجري في وقتها في هولندا وهناك سقط عشرات الآلاف ضحايا محاكم التفتيش . ولكنها كانت حرباً شاملة تبناها فيليب الثاني فلم يأمن الكاثوليكية حتى إلى البابا ، كما اتضحت عندما سير دوق البابا سنة ١٥٦٦ على رأس جيش من ١٢٠٠٠ جندي فأخضعه لما أراد فيليب الثاني بموافقة الكنيسة القشتالية نفسها . وحين تحركت فرنسا لدعم البابا بوصاص الرابع كان الوقت قد فات ، ولم يتمكن قائد الجيش الفرنسي دوق غين من احراز أي تقدم في هجومه ضد نابولي ، فقال قوله الشهيرة : « لا بد أن القدر أخذ الجنسية الأسبانية » .

في هذه الأثناء ، كان الأتراك يتقدمو في كل مكان من البحر الأبيض المتوسط . وكان مستشارو فيليب الثاني يخططون للرد وهم يرون في أندلسية غرناطة ولبنية وغيرها من المناطق ، حلفاء للأتراك أو في صفوف الطابور الخامس على الأقل . وانقسم رأي السلطة إلى إتجاهين : الأول يقول بتجاهل الأندلسين وغض النظر عن أحواهم بغية استئثارهم لصالح فيليب الثاني ، والاتجاه الآخر يقول بضرورة اتخاذ موقف حازم منهم مهما كلف ذلك . في سنوات التردد هذه حاول الأندلسيون بهذه المباحثات مع محاكم التفتيش لوقف تسلطها عليهم ، ولكن الخلوة انتهت إلى الإخفاق . في غرناطة كانت المضايقات التي يتعرض لها الأندلسيون بلا نهاية ، ولكنهم كانوا يأملون في التوصل إلى اتفاق جديد مع فيليب الثاني يقدمون بموجبه مبلغاً من المال لقاء رفع بعض القيود عنهم ، كما حدث مع والده كارلوس الخامس . ويحجب مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢ تحول كل الأندلسين في قشتالة وليون إلى نصارى ولكن بالإسم فقط ثم انضم إليهم الأندلسيو بلنسية بعد ثورة أهل المدينة سنة ١٥٢١ وأصبحوا هم أيضاً نصارى بالإسم . كان الأندلسيون يعرفون ذلك ، وكان القائمون على السلطة يعرفون ذلك ، ولكن الجماعتين تجاهلتهما هذا الوضع الذي لم يكن ليستمر طويلاً ، وكان هذا واضحاً منذ أن تسلم فيليب الثاني الحكم من أخيه .

تعقدت أوضاع الأندلسين مع تعاظم الصراع على السلطة في الجنوب ، ومحاولة كل جهة احراز نفوذ أكبر على الأندلسين . فكان الحكم العسكري ضد محاكم التفتيش . وكانت محاكم التفتيش ضد المجلس البلدي وكان المجلس البلدي ضد رئيس الأساقفة . وكانت المحكمة العليا في جنوب قشتالة تعتقد أن رأيها أصوب الأراء . وفي هذا الصراع كان الأندلسيون يدفعون الثمن بصورة دائمة . فاستدرجوا بفيليب الثاني كما فعل الجميع ، ولكن دون تدخل حاسم في البداية . وعندما أرسل مبعوثاً حل الخلافات بين القوى المتاحرة في غرناطة على الأرضي ، اشتباك المبعوث مع الجميع وتعقد الوضع ولم يتتدخل فيليب الثاني^(١) شغل الحكم العسكري أهم مركز في غرناطة . فالمتصب قديم أوجده الملكة إيزابيلا بهدف تنظيم الدفاع ضد غزو أهل المغرب ، وبقي في أيدي أسرة مندوذاً المتغيرة منذ أيام تندلة مروراً بآسلافه الذين عرفوا فيما

Elliot, J:H. Imperial Spain (1469-1716), London, 1963. PP228-234. (١) انظر :

بعد باسم مركيز مندخار ، وانتهاء بالدون إيناغولويث دي مندورا الذي تسلم منصبه سنة ١٥٤٣ باسم مركيز مندخار والكونت تندلة الرابع . واعتماده على الأندلسيين كان بهدف تحصيل الضرائب واستخدام منازلهم لضيافة جنده (وكانت هذه عادة منتشرة في تلك الأوقات ينزل فيها الجنود على السكان في حالات السلم لتخفيض نفقات السلطة)، وكان يقدم للأندلسيين بعض الحماية من محكم التفتيش والكنيسة لأهداف تخدمه وتخدم الأندلسيين في نفس الوقت . وهكذا فإن وضع الأندلسيين ارتبط بالنفوذ الذي يتمتع به الحالم العسكري في بلاط كارلوس أو فيليب الثاني من بعده . وكان هذا النفوذ كبيرا حتى بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر . في تلك الفترة كثُر أعداء مركيز مندخار فراحوا يؤيدون خصمه مركيز بش مالقه الثاني الذي كان على رأس أسرة منافسة عرفت باسم فخاردو . وكان الصراع على القوة بين الأمرين على أشده في وقت ازداد فيه حال الأندلسيين سوءا .

وفي سنة ١٥٤٦ تسلم بليو غيريرا منصب رئيس أساقفة غرناطة . وحاول هو الآخر ، كما فعل طليبيه من قبله ، اتباع سياسة معقولة مع الأندلسيين لكسبيهم إلى جانب الكنيسة، وحاول إعداد رجاله لاتباع هذه السياسة دون تحقيق نجاح يذكر . في سنة ١٥٦٥ حضر المجلس الكنسي الذي عقد في تربت حيث انتقدت سياسة التسامح المتبعه مع الأندلسيين ، فدعى المجلس الإقليمي إلى اجتماع تقرر فيه اتباع سياسة أشد حزما ضد الأندلسيين لاستكمال تصريحهم . ولقي هذا الرأي استحسان ديفوغو دي اسيبيتوزا رئيس مجلس قشتالة والمفتش السابق لمحكم التفتيش ، فكان أن أوصى فيليب الثاني بالعمل على تنصير الأندلسيين ، لأن تصرّهم السابق لم يكتمل مشيرا إلى أن الوقت حان لإزالة آخر بقع الهروق في قشتالة . وفي السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٥٦٦ وضعَت لجنة مشتركة بند مرسم آخر « لصلاح » وضع الأندلسيين ، وصدر في بداية كانون الثاني من السنة التالية .

بـ ~ الأسباب الاقتصادية :

اعتمد الأندلسيون على الزراعة وصناعة الحرير تحت حكم سلطات قشتالة وكانوا بصورة عامة مبعدين عن شغل الوظائف الحكومية او المراتب العالية كمعظم الاقليات . وكان من بينهم التجار الصغار والعمال وأصحاب المهن الصغيرة وقد يصادف أن يكون بعضهم من الأثرياء ولكن مستوى معيشتهم كان متخفضا بصورة عامة . والأسطهاد الذي تعرض له الأندلسيون ، وخاصة في غرناطة ، أدى إلى اعتقاد أهل المدينة على الاتجاه بالحرير وصناعة الملابس الحريرية . ولذا فإن ثروتهم الأساسية كانت إما في الحرير أو في الذهب والأحجار الكريمة التي يمكن اخفاوها أو نقلها بسرعة فيما لو استدعت الضرورة ذلك . إضافة إلى هذه النشاطات عمل الآلاف من الأندلسيين في المواني والنقل ولاسيما في استخدام الحرير والبغال في عمليات نقل البضائع المختلفة . لابد ان اعداداً كبيرة منهم كانت تشتبّل في مصانع صغيرة لإنتاج الورق والسكر والصابون ، وفيما بعد التبغ ، ولاسيما في المعلم الذي أقيم في أشبيلية . والأندلسيون كانوا معروفين بالجد والنشاط حيثما وجدوا . فقد يصل الأندلسيون ، منفيين أو مرحلين من غرناطة لسبب أو لآخر ، إلى منطقة ما دون أن يكون معهم الكثير ، ولكن جدهم كان يوفر لهم الدخل . ومع الزمن كانوا يجمعون ثروة وقد يوظفون البعض من سكان المنطقة التي يقيمون فيها لمساعدتهم .

وجاء اضطراب الأوضاع في غرناطة ، وتقابل أطراف السلطة هناك على التفозд في وقت تعرضت فيه صناعة الحرير إلى كساد عام سببه السياسة الحكومية التي عمدة أولاً إلى منع تصدير الحرير المصنوع في غرناطة ، ثم إلى فرض ضرائب باهظة على الحرير اعتباراً من سنة ١٥٦٢ فكان أهل غرناطة المتأثرين الوحيدين تقريباً من هذه السياسية الموجهة . والالتفات إلى الزراعة لتحقيق دخل أكبر يخفف من الاعتماد على صناعة الحرير المضطربة اصطدام بمشاكل جديدة . فمحاكم التفتيش كانت تصادر أراضي الأندلسيين المتهمن بالهرطقة للتکفير عن ذنوبهم . والسلطات كانت تختلف كل الأذار الممكنة لزيادة دخل عمالها ، والحكومة كانت مشغولة في إعادة النظر في توزيع الأراضي في مملكة غرناطة ، ومصادرة ما تعتقد أنه ملك للإمبراطور . يضاف إلى هذه الصعوبات ارتفاع الضرائب التي كانت تفرض على الأندلسيين واضطراهم إلى استضافة جنود الحاكم العسكري في البيازين ، فكان ذلك عبأ اقتصادياً كبيراً على مصادرهم المحدودة ، وكان مضائقاً اجتماعية هائلة ، وخاصة لأن الجنود كانوا مجرد أعين للدولة يحملون إلى قادتهم أخبار تصرفات أهل البيت الذي ينزلون فيه ويتصدون عليهم . وفي مثل هذه الظروف كان السعي وراء زيادة دخل الأسرة الأندلسية مضيناً . فالحكومة كانت لهم بالمرصاد وتحسن مستوى أسرة ما ، كان بادرة لفرض ضرائب إضافية عليها ، ولذا فإن الدوافع الفسائية التي يجب أن توفر لتحسين الدخل كانت معروفة في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى .

ج - الأسباب الاجتماعية :

عاش الأندلسيون غرباء في وطنهم يعاملون كأقلية مشبوهة التصرفات والدوافع . وكانت درجة اضطهادهم تفاوت من منطقة غرناطة إلى قشتالة إلى بلنسية وارagon ، ولكنها كانت عامة توجّجها الكنيسة من جهة ، ويعوّجها نشاط الأندلسيين الذين كانوا يوصفون بأنهم « يكترون من الإنجاب والعمل ، ويقللون من الإنفاق ». كان القشتاليون لا يزالون يدفعون الضريبة المعروفة باسم ضريبة الحرب الصليبية التي تجيّبها الحكومة بناء على موافقة البابا ، ولذا فإنهم كان يجدون صعوبة في تقبل الأندلسيين بينهم في الوقت الذي يقدمون فيه المال للقضاء على أخوانهم في العدوة المغربية . في المدن المختلفة كان الأندلسيون يعيشون في أحياء خاصة بهم، ومع الزمن تقام الجدران لتجبر بين الجانين ولكن السلطات تعود لإزالتها فتجدد الخلافات بين الأندلسيين والقشتاليين في نفس المدينة . وأحياناً يكون الأندلسيون في مناطق ليس فيها من النصرانية سوى القسيس والكنيسة فكانت رمزاً للاضطهاد الذي نفر منه الأندلسيون، رغم أن الكنيسة كانت تفترض بأن الأندلسيين من البصارى . ولم يست هناك أية معلومات كافية عن الزيجات المختلطة بين القشتاليين والأندلسيين في القرن السادس عشر ، ولكن بعض الاشارات تعطي الانطباع بأن هذا التزاوج كان موجوداً وإن كان قليلاً الحدوث . أما سوى ذلك فإن الأندلسيين كانوا يعاملون كغرباء ويقابلون بالاحتقار . كان الأندلسيون مثلاً يأكلون الكثير من الخضار والفواكه وكان القشتاليون يقبلون على اللحم المقدد وغيره كما فعل أجدادهم الذين اعتمدوا على الماشية وتجلّلوا الزراعة . هذا الاختلاف في نوع الطعام بين الجماعتين كان يثير مخاوف القشتاليين الذين لاحظوا أن الأندلسيين يعيشون حياة أطول عمراً من القشتاليين وكان أطباء تلك الفترة يستغربون هذه الحقائق ويعيدونها إلى ممارسة الأندلسيين للسحر أو غيره لإطالة أعمارهم .

ومعاملة الأندلسين في قشتالة لم تكن أفضل من المعاملة التي يلقاها مواطنون من الدرجة الثالثة يختلفون عن السكان في كل شيء بما في ذلك الدين والتاريخ واللغة . في هذه السنوات ضعفت ثقافة الأندلسين لأن كتبهم أحرقت ولوحق من وجدت السلطات كتاباً لدبيه، وكانوا يكتبون اللغة القشتالية بأحرف عربية . وعرفت هذه اللغة باسم «الأعجمية» ، فكتبت بها مؤلفات كثيرة في القرن السادس عشر لم يصلنا منها شيء . ورغم الضغوط التي كان الأندلسيون يتعرضون لها على أيدي السلطات والسكان فإنهما كانوا يقبلون على تنظيم الحفلات ، ويرعون في الغناء وصناعة الملابس المزركشة الملونة ، ويعرفون على الآلات الموسيقية ، وينظمون حفلات صراع الثيران ، ويزداد الكثير من الأندلسين في هذا المجال خلال القرن السادس عشر ومالاً . وقد ينبعج الكثير من الأندلسين في الذوبان في مدينة ما هرباً من الضطهد مستغلين شكلهم الذي لا يختلف عموماً عن القشتاليين . وكان في بعض الحالات مثار قلق السلطات التي لم تكن تتعجب ما يثير الأندلسين عن القشتاليين . وحيثما توفرت فرصة يمكن أن تؤدي إلى تحسن العلاقات بين القشتاليين والأندلسين ، فإن الكنيسة تكون هناك لأذكاء الخلافات واستمرارها وهذا ما كان يحدث في أغلب الأحيان .

د - الأندلسون والكنيسة :

كانت الكنيسة الأسبانية تتضرر من الأندلسين التحول إلى نصارى دون أن تقدم أية مساعدة يمكن أن تتحقق مثل هذه النتيجة المتضورة . عملية التنصير كانت قسرية منذ البداية ؛ وبالبعض من رجال الكنيسة الذين حاولوا استئالة الأندلسين عن طريق كسب ثقفهم ومساعدتهم احفقوها واضطروا إلى الخلاء الطريق لارتفاع الذين كانوا يعتقدون أن القوة ، والقوة وحدها ، هي التي يمكن أن تجعل من المسلمين نصارى . وهكذا أفسح طليعة الطريق أمام الكريدينال زميز في عهد إيزابيلا ، كما أفسح غيره الطريق أمام اسيبيوزا في عهد فيليب الثاني ، فلا أفالح هنا ولا ذاك في استئالة الأندلسين ، ولم تؤد أعمالهما إلا إلى الثورة . في غرناطة كانت الكنيسة عاجزة عن توفير كنسين يملكون القدرة على استئالة الأندلسين فقيت دون رئيس للأساقفة سنوات كثيرة ، كما أن الضغوطات التي كان يتعرض لها الأندلسون أقامت حاجزاً دائمًا من عدم الثقة بين الأندلسين من جهة وبين السلطات الدينية والحكومة من جهة أخرى . ومنذ سنة ١٥٠٢ وحتى ١٥٢٥ صدرت ثلاثة مرسوم يؤكد الواحد منها القيد الذي جاءت في المرسوم الذي سبقه وضيف إليه بتوذا جديدة ، ولكن دون جدوى . فلم تكن الحكومة قادرة على فرض تطبيق بنود المراسيم ، ولم يكن الأندلسون على استعداد للانصياع لها . وصحح أن المساجد تحولت إلى كنائس ومنع الأذان والصلوة ، ولكن ما كان يجري علانية باب يجري في الخفاء واستمر الملابس الغرناطية واللغة العربية ، وكان الأندلسي معروف بإيمانه المسيحي بين المسيحيين وإيمانه العربي بين الأندلسين . كانت الكنيسة تفرض الضرائب الباهظة والغرامات المالية والسجن مددًا متفاوتة على الأندلسين الذين لا يحضرون الصلوة في الكنيسة ، ولكن عدد من يحضر من الأندلسين الصلوة كان قليلاً والجميع كان يعرف أن الأندلسين نصروا ولم يتصرروا .

مرسوم الأول من كانون الثاني سنة ١٥٦٧ كان مختلفاً عن كل المراسيم السابقة ، لسبب أساسي وهو أن فيليب الثاني كان مصرًا على تطبيقه بمحاذيفه على الأندلسيين . وكان مرسوماً شريراً وشاملاً إذ منع استخدام اللغة العربية منها تماماً ، وأمهل الأندلسيين ثلاث سنوات لاتenan اللغة القشتالية (الإسبانية) . ومنع الأندلسيين من استخدام الحمامات التي كانت شائعة منذ حل الأندلسيين في البلاد قبل ثانية قرون ونصف القرن ، بسبب اعتقاد الكنيسة أن الأندلسيين كانوا يكثرون من الاستحمام لأنه كان بمثابة الوضوء . وفرض المرسوم حضور قابلة قشتالية مسيحية عند ولادة أطفال الأندلسيين واجبارهم على فتح أبوابهم ، لكي يتمكن القشتاليون وعيون الكنيسة من التفرج عما يدور داخل المنزل . كما حظر عليهم ارتداء الملابس التقليدية وال الوقوف باتجاه القبلة والزواج من أكثر من امرأة واحدة واستخدام الحناء وغيرها من المحظورات التي جاءت في المراسيم المشابهة السابقة . ويوجب هذا المرسوم منع الأندلسيين من الإستفادة من الكنائس كملاجئ . فالكنيسة في تلك الفترة كانت تعتبر ملجاً لمن يدخلها . وكان الملك يصرمون حق المسيحية في تقديم هذه الحماية ، ولكن الكنيسة هذه المرة هي التي ألغت حقاً كانت تتمتع به منذ أن قامت الكنائس في أوروبا ، وخرجت بذلك عن كل الأعراف المتبعة حين حرمت الأندلسيين المنصرين من حق لم تكن لحرمه أية مجموعة أخرى . إلا أن ذلك لم يكن غريباً على الكنيسة القشتالية التي كانت تتحدث باسم السلطة ، وتتفقد ماتريد منها ضمن خطط عام استهدف الأندلسيين ، إذ تضمن مرسوم فيليب الثاني أن تخرب جميع مراسم الزواج والولادة وفق الطرق القشتالية اعتباراً من ساعة سريان المرسوم . وبعد أن ضمن الزام الأحياء بنصوص المرسوم ، انتقل إلى الأموات فكان يتعين على الأندلسيين أن يدفنوا موتاهم وفق طرق قشتالية بما في ذلك الاعتراف السابق للوفاة .

وهكذا اضطر الأندلسيون للتغطية حتى على أمواتهم فكانوا يخفون أخبار مرضهم للا يحضر الكاهن فيدفن الم توفى نصرانياً . وكانوا يذهبون بعد موافقة الطبيب إلى الكنيسة فيقولون أنه مات على حين غرة فلم يتمكن أهل البيت من استدعاء الكاهن على عجل . وإذا حصل وجرت مراسم الزواج وفق الطريقة القشتالية فإن الأندلسيين كانوا يقيمون احتفالاً جديداً بعد العودة من الكنيسة ل تمام الزواج على الطريقة الإسلامية . وكانوا يستخدمون العربية في الأحياء المخصصة لهم إلا إن وجد من يمثل السلطة أو الكنيسة . ولكن بدا واضحاً منذ بداية سنة ١٥٦٧ أن الأندلسيين لا يمكن أن يستمروا في اخفاء كل تحركاتهم عن أعين السلطة التي شددت المراقبة ، وانتقل الجانبان خطوة أخرى نحو المواجهة بعد أن توافت كل المفاوضات بين الأندلسيين والكنيسة لإصدار عفو عام عن الأندلسيين ورفع الرقابة عنهم . وبرهنت الكنيسة من جهتها على عزمها تطبيق المرسوم عندما عين بدرُو دي ديبا رئيساً للمحكمة العليا، وبدأ الأندلسيون من تاحيهم جمع الأسلحة .

هـ - بداية المواجهة :

منذ انتهاء الثورة الأندلسية الأولى والعلاقة بين الأندلسيين والسلطات القشتالية في ترد مستمر . الكنيسة في غرناطة انتقلت تحت قيادة غيرها من مرحلة الإنقاذ غير المجدى إلى مرحلة المصادمة ، ومن

اعتقاد رئيس الأساقفة بضرورة اصلاح معاونيه قبل اصلاح الأندلسين إلى إيمانه الجديد بأن الشدة وحدها يمكن أن تقدم الإجابة والخل لما أخفق سابقوه في تحقيقه . ومن خلال حكم الفتيش كانت السلطة تستخدم ذراعها الإضافية هذه في مصادرة أراضي الأندلسين حتى الخصrt ممتلكاتهم بسفور جبال البشرة وجبال الجنوب الأخرى ، يزرون على تلك المساحات الصغيرة مايسد حاجتهم من الغذاء الضروري ، ومايؤفر لهم بعض الإنتاج الإضافي الذي كان يباع في القرى والمدن المجاورة . (١) ولكن وضع أهل غرناطة كان سيما للغاية فضفت صناعة الحرير وتوقف أهم دخل للسكان ، وكسرد البيع في القاصرية بغرناطة (٢) نتيجة السياسات التي طبقتها السلطة بحماس . وحتى التعاطف القليل الذي حظي به الأندلسين من الحكم العسكري كان عمل الشك ، لأن تدخله لوقف بعض ممارسات محكمة تفتیش غرناطة مدفوع بقناعته أن سلب الأندلسين أرضهم ودخلهم لن يمكنهم من دفع الضرائب أو استضافة جنوده . وكان من العسير عليه كذلك أن يوقف تردى العلاقات بين الجنود ومستضيفهم الأندلسين لاسيما بعد أن اعتقلت السلطات ثلاثة أندلسين سنة ١٥٦٥ ، وادعت انهم اعترفوا بوجود خطط لاستقدام الأتراك إلى قشتالة .

وحاول بعض مستشاري الامبراطور فيليب الثاني تجميد المرسوم منهين إلى أن الأتراك يمكن أن يستفيدوا من تصاعد النقاوة في الجنوب والشرق ، ولكنه تجاهل ما أشاروا به فهو في حرب مع الأتراك أصلا . وتقدم الحكم العسكري إلى امبراطوره يرجوه تأجيل تنفيذ المرسوم فترة من الزمن ، ولكن حظه لم يكن أفضل من حظ المستشارين . وأخيراً توجه وفد من الأندلسين إلى بلاط فيليب الثاني يستعطفونه الغاء المرسوم ووضع أية شروط أخرى ، ولكن الوفد عاد إلى غرناطة وهو يجر أذيال الخيبة واليأس وبدأ وكأن الأندلسين يدفعون ثمن تقدم البروتستانية ، وانتصارات الأتراك ، وانهيار الكنيسة ، وخلافات مراكز القوى في غرناطة . وكان عليهم أن يواجهوا سيف الدولة والكنيسة ، وتصميم فيليب الثاني على أن لا تقوم للأندلسين قائمة بعد الان ، ولذا فقد توقع حدوث الاضطرابات في غرناطة قريباً وكان توقعه في مكانه ، لأن فيليب الثاني لم يكن ليرغب بغير هذه النتيجة : « لو توفرت حكومة حكيمة وصادقة تحيّم التعهّدات التي أعطيت لدى استسلام غرناطة لتجنب مخاطر هذه النقاوة الخفية ، ولكن حكام أسبانيا لم يتصرفوا لليحكمة ولا بالصدق في تعاملهم مع المواركة ، بل أنهم أصبحوا أكثر قسوة وخداعاً مع مرور الوقت . ثم أمر « الكفار » (٣) بترك ملابسهم الوطنية المزركشة وارتداء قبعات النصارى وسرابيلهم ، وأمرروا بالتخلي عن الاغتسال وقبول قذارة قاهرهم ، ونبذ لغتهم وعاداتهم واحتفالاتهم وحتى نبذ أسمائهم والتحدث بالأسبانية ، والتصرف وفق الطريقة الأسبانية واعادة تسمية أنفسهم باسماء إسبانية.. ولكن

(١) يقول ماكسويل أن منتجات جبل البشرة من الحرير والرتون والفواكه والجلين كانت مشهورة في أسواق غرناطة وفي الموارك الأندلسية عموماً
أنظر ، Maxwell, Sir W. Stirling, Don Juan of Austria, Part I, PP 126-128.

(٢) كان سوق القاصرية خاص بمحلاة الحرير في زمن الأندلسين وهي في صورته الأولى حتى احترق سنة ١٨٤٣ ثم أعيد بناؤه فوق الطراز القديم وهو يقع اليوم قبلة الكنيسة الملكية التي تحوي على رفات إيزابيلا وزوجها فرانثاندو .
(٣) الأعراض المؤلف النص .

شـال
فـيـبـ
الـسـانـ



تجريد شعب بالجملة من مقوماته فاق الحد الذي يمكن أن يقبل به أى شعب ، ناهيك عن شعب انحدر أفراده من شخصيات مثل المنصور عبد الرحمن وابن سراج . ذات يوم، نشب شجار بين الأندلسين وبعض جبهة الضرائب المحتالين ، فالتهبت المواد الهشة التي كانت مستعدة للاشتعال منذ زمن طويل ،

وقام بعض الفلاحين على الجند المستضافين في مساكنهم فقتلوهم ، وجمع صباغ من غزانتة يدعى فراس (١) عصبة من الناقمين وفر إلى الجبال قبل أن تقرر حامية المدينة اللحاق به . وكان هناك رجل يدعى هرثاندو دي بالور من سلالة خلفاء قرطبة عالي المقام في غزانتة ، ولكن لحق به الخزي بسبب عاداته الفاسقة فاختير ملكاً على الأندلس باسم مولاي محمد بن أمية . وفي ظرف أسبوع حمل سكان جبل البشرة السلاح وبدأت ثورة المواركة الثانية (٢) .

٣ - الثورة الأندلسية الكبرى

في الخامس عشر من نيسان سنة ١٥٦٨ اندلعت الشارة الأولى للثورة في جبل البشرة على شكل اضطرابات محلودة ، ولكن جنود مركيز مندخار (الحاكم العسكري) تمكنوا من القضاء عليها بسرعة . وكان من الواضح أن النقطة الأندلسية ، وإن وصلت إلى نقطة الانفجار ، إلا أن الاستعدادات لشن حرب منظمة لم تكتمل بعد ، وبات من الضروري أن يجتمع أهل البشرة الكافية من الأسلحة التي يمكن أن توفر لهم الصمود أو تحقيق نصر محلود . وخلال أشهر الصيف انتقلت أعداد من شيان مدينة غزانتة إلى الجبل سراً ، وبدا التدريب على القتال والاتصال باهل العدو للحصول على أية مساعدة ممكنة . وفي الثالث والعشرين (أو الرابع والعشرين) من كانون الأول اعتقاد التوار ان اعدادهم كانت كافية للقيام بالخطوة التالية فشتبوا هجوماً مباغتاً على مدينة غزانتة مستغلين استعداد حاميتها للاحتفال بعيد الميلاد ، وتمكنوا بقيادة فراس بن فراس من التوغل فيها والاشتباك مع جنود مركيز مندخار . إلا أن المهاجرين لم يتمكنوا من أخذ المدينة واضطروا إلى الانسحاب والعودة إلى البشرة بعد إيقاع خسائر كبيرة بجنود الحامية .

كانت نيران الثورة تنتقل من قبة إلى أخرى ومن مدينة إلى ثانية ، وتحول جبل البشرة والمناطق القرية منه إلى قلعة حقيقة ضد فيليب الثاني ، وبدأت عملية إزالة جميع أشكال السلطة والكنيسة القشاية في المراكز التي اعتبرها التوار محروقة . وحيال هذا التطور أصدر فيليب الثاني أوامرها إلى مركيز مندخار بالحادي عشر من شهر ديسمبر حيث أوصى له بـ « إزالة كل جهود لرفع الضغوط عن الأندلسين ، وضمان سلامية الثورة إلى المفاوضات واقناعهم بأنه سيبذل كل جهده لرفع الضغوط عن الأندلسين ، وألا يهدى أحد من شعبنا إلى انتقامتهم لأنهم لن يتمكنوا من صد جيوش فيليب الثاني إلى مالا نهاية ، وأن المدف الرئيسي للثوار كانوا على اقتناع بأنهم لن يتمكنوا من صد جيوش فيليب الثاني إلى مالا نهاية ، وأن المدف الرئيسي من ثورتهم أساساً حمل السلطة على بعث مظلومتهم ورفع الظلم الذي هبط عليهم مع صدور مرسوم السنة السابقة . ولذا توقع الأندلسيون خيراً ووضعوا السلاح جانباً ، ريثما يتمكن المركيز من الاتصال بفيليب الثاني وتحقيق ما وعد به .

(١) أبو فرج ابن فرج (Farax Aben Farax) كما يرد في الروايات الأساسية ، ولم اعثر في المراجع التي اطلعت عليه، على اسم الكامل (أو الصحيح) وربما كان من بين سراج الغناظن ، وكانتوا من علمية القسم .

(٢) Lane-Poole, Stanley, *The Moors In Spain*, (4th Edition) 1890, PP 272-274



دون جوان
التساوي
(قصر فيليب
الثاني ،
الاسكوريوال)

وهناك غموض لحقيقة ما حدث بعد ذلك من تطورات ، ولكن يبدو أن فيليب الثاني استحقن وعدو المركيز ، وقد كبر عليه ان يقبل التفاوض مع من اعتبرهم من المارقين ، وطلب الى المركيز العودة الى البشرة وإخמד الثورة ، ليكون منظموها عبرة لغيرهم ليس فقط في الجنوب وإنما في جميع ممالكه الأخرى . وفي هذه الائتماء وقعت ملحمة في مدينة جبيل (Jubiles) راح ضحيتها عدد غير معروف من الأندلسين ، وتعرضت مدينة لورة (Laroles) لأعمال مشابهة ، وقد مركيز مندخار السيطرة على جنوده فأخذ هؤلاء يمارسون أعمال القتل والسب والنهب دون رقيب مما افتعل الأندلسين بان الجنود يرمون الى افائههم عن آخرهم ، فحملوا السلاح وتمكنوا خلال فترة وجيزة من بسط سيطرتهم على جبل البشرة ثانية وتفجرت الثورة من جديد . ولدى وصول أخبار اندلاع القتال الى غرناطة هاجم الجندي سجن البيازين وذبحوا مئة وعشرة اندلسين كانوا فيه : « ولما سار مندخار الى السجن مع حراسه لإخמד الاضطراب قابله

القائد بقوله : هذا غير ضروري فالسجن هادئ لأن جميع الأندلسيين أموات «^(١) ». وأمام هذه التطورات ، التي انتقلت بالوضع من سيء إلى أسوأ ، اعترف مركيز مندخار بعجزه عن قمع الثورة وسلم الأمر إلى فيليب الثاني ، وانتظر الجميع أوامره في وقت عظم فيه اشتعال الثورة فشملت مناطق جديدة أخرى .

أ - دون خوان التسوي :

جاءت ثورة الأندلسيين في سنة من أسوأ سنوات حكم الامبراطور فيليب الثاني ، إذ كانت الثورة المولندية على أشدتها منذ اندلاع الاضطرابات هناك قبل سنتين ، أما الأتراك فكانوا يحققون الانتصار تلو الآخر وباتوا يهددون شواطئ ممالكه في البحر الأبيض المتوسط . وفي تلك السنة اندلعت ثورة في قطالونيا وقطعت القوات البروتستانية الطريق البحري إلى خليج بسكايا ، ثم فقد فيليب زوجته المفضلة ومات ابنه ووريثه دون كارلوس في السجن الذي أودعه فيه والده بعد أن ظهرت عليه علامات الجنون . ثم جاءتأخيراً الثورة الأندلسية الكبرى ، فقرر أن يضع حدًا نهائياً لها قبل أن يستفحـل الأمر ويستغل الأتراك الموقف لهاجمة صقلية والجزائر الشرقية وربما الجنوب الأندلسي . وكان يريد أيضاً حلاً سرياً يدبـلـ الذعر في قلوب الشائرين في قطالونيا وهولندا وكل من يمكن أن يفكر في القيام بثورة على الامبراطور الذي كان يعتبر نفسه أعظم رجل في العالم ، ويشكـمـ أكبر امبراطورية عرفها البشرية . ولأنه كان قليل الثقة بـعـظـمـ من حوله فقد ارتـأـىـ تعـيـنـ أخيـهـ غيرـ الشـرـعيـ دونـ خـوانـ التـسـويـ الذيـ كانـ ثـمـرةـ عـلـاقـةـ جـسـسـيـةـ بينـ والـدـهـ كـارـلـوسـ الـخـامـسـ وـاـمـرـأـهـ هـولـنـدـيـةـ ، وـرـبـماـ كانـ فيـ تعـيـنـ دونـ خـوانـ رـاحـةـ نـفـسـيـةـ لـفـيلـيـبـ الثـانـيـ ولاـسـيـماـ بـعـدـ انـ اـنـشـرـتـ الشـائـعـاتـ بـأـنـهـ هوـ الـذـيـ قـتـلـ اـبـنـهـ . وـوـقـعـ قـرـيبـ لهـ إـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ الـمـهـمـةـ يـكـنـ أنـ يـظـهـرـ بـظـهـرـ الحـالـيـ عـلـىـ أـهـلـ بـيـتـهـ ، ذـلـكـ لـأـنـ دـوـنـ خـوانـ لمـ يـكـنـ يـتـجاـزـ الـثـانـيـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ الـعـمـرـ حـينـ اـوـكـلـتـ إـلـيـهـ مـهـمـةـ القـضـاءـ عـلـىـ الثـوـرـةـ الـأـنـدـلـسـيـةـ .

إـلـاـ أـنـ فيـلـيـبـ الثـانـيـ لـمـ يـطـلـقـ بـهـ دـوـنـ خـوانـ لـاتـخـاذـ القرـاراتـ التـيـ يـرـاهـاـ منـاسـةـ ، وـتـرـكـ ذـلـكـ بـلـجـلـسـ خـاصـ ضـمـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ دـوـنـ خـوانـ مـرـكـيـزـ مـنـدـخـارـ ، وـدـوـقـ سـيـسـهـ ، حـفـيدـ القـائـدـ الـمـظـفـرـ غـونـثـالـوـ الـقـرـطـيـيـ الـذـيـ اـشـتـرـكـ فـيـ حـرـبـ غـرـناـطـةـ ، وـبـلـدـروـ دـيـ دـيـ بـشـاـ رـئـيـسـ الـحـكـمـ الـعـلـيـاـ وـأـحـدـ الـمـقـرـيـنـ إـلـىـ الـكـرـدـنـالـ اـسـبـيـنـوـ زـاـ رـئـيـسـ بـلـجـلـسـ قـشـتاـلـةـ ، وـأـخـيرـاـ كـيـخـادـاـ^(٢) ، وـكـانـ التـابـعـ الـأـمـيـنـ لـدـوـنـ خـوانـ الـذـيـ توـلـيـ مـهـمـةـ رـئـاسـةـ بـلـجـلـسـ .

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٧٧ .

والـأـنـ يـكـرـرـ فـيـ الصـفـحةـ دـاـئـرـاـ مـرـوةـ تـوـكـدـ أـنـ مـنـدـخـارـ لـمـ يـكـنـ مـوـرـطـاـ فـيـ الـذـيـنـ اـرـتكـبـواـ الـذـيـنـ . وـلـكـنـ الـمـنـطـقـ لـأـقـبـلـ الـرـوـاـيـةـ إـذـاـ لـمـ تـرـدـ اـشـارةـ إـلـىـ اـصـابـةـ أـيـ منـ السـجـنـاءـ الـقـشـتاـلـيـنـ خـالـلـ المـذـعـةـ إـذـاـ تـرـزـتـ لـهـ الـأـسـلـحـةـ ، فـمـ أـنـ الـسـيـاسـةـ الـقـشـتاـلـيـةـ الـعـامـةـ لـمـ تـكـنـ تـوـافـقـ وـسـجـنـ الـقـشـتاـلـيـنـ بـيـنـ الـأـنـدـلـسـيـنـ ، وـخـاصـةـ فـيـ الـبـيـانـ وـهـوـ مـعـقـلـ الـأـنـدـلـسـيـنـ ، فـمـ لـوـ اـخـرـضاـ بـأـنـ السـجـنـاءـ الـقـشـتاـلـيـنـ هـمـ الـمـسـؤـلـوـنـ عـنـ الـحـادـثـ لـرـادـ عـدـهـمـ عـلـىـ تـلـاثـةـ أـضـعـافـ وـهـوـ رقمـ كـبـيرـ . وـقـدـ يـكـوـنـ دـافـعـ الـجـنـودـ لـارـتكـابـ الـذـيـنـ الـأـيـامـ الـتـيـ تـرـدـتـ عـنـ قـيـامـ الـتـوارـ يـقـتـلـ بـعـضـ الـقـاسـوـسـ وـالـجـمـجـونـ عـلـىـ بـعـضـ الـكـالـاسـ بـعـدـ مـلـحـمةـ مدـيـنـةـ جـيـلـ وـالـقـطـالـعـ الـتـيـ اـرـتكـبـاـ الـجـنـودـ فـيـمـاـ بـعـدـ ، وـيـلـهـ الـبعـضـ إـلـىـ الـادـعـاءـ بـأـنـ الـأـنـدـلـسـيـنـ قـتـلـواـ ٩٠ـ قـسـيـسـاـ . فـدـرـاـ نـصـرـانـيـ خـالـلـ تـلـكـ الـفـتـرةـ .

(٢) لوـيسـ كـيـخـادـاـ (Luis Quixada) وـكـانـ خـادـمـ كـارـلـوسـ الـخـامـسـ . انـظـرـ : Plaidy, Jean. The Spanish Bridegroom, (London), P 194.

ونصت أوامر فيليب بأن تتخذ قرارات المجلس بالإجماع . وإذا لم يتوافق ذلك فعلمهم العودة إليه لاتخاذ القرار الأخير ، ثم ودع دون خوان الذي غادر مدريد إلى غرناطة في السادس من نيسان سنة ١٥٦٩ ، أي بعد حوالي أربعة أشهر من هجوم ثوار جبل البشرة على مدينة غرناطة .

وفي غرناطة أعد استقبال حافل لدون خوان ساهم فيه الأندلسيون من سكان المدينة لاسيما وإنهم كانوا يعرفون أن دون خوان يملك تقرير مستقبلهم ، وشاؤوا اعطاءه الانطباع بأن لاعلاقة لأندلسيي المدينة بandalusi ثورقة البشرة . ولكن دون خوان لم يلتفت لهؤلاء بل توقف عند بعض النساء القشتاليات اللواتي كن يرتدين ملابس الرجال على أقراطهن من قتلوا على أيدي الثوار ، فآبادى تعاطفه ووعدهن بالانتقام السريع . وفي اليوم التالي زاره وقد من عرب المدينة يشتكون إليه جور السلطة ومضايقات الجنود المستضافين لديهم فطلب منهم أن يرفعوا كتاباً رسمية بذلك ، وأن يضمونها فقط ما يمكن لهم إثباته عن طريق الشهود . ولم يغفل دون خوان أن ينقل للوفد رغبة فيليب الثاني في معاقبة جميع المسؤولين عن القلاقل دون رحمة حتى يكونوا درساً لغيرهم، وخرج الأندلسيون من عنده وقد ايقنوا أنهم لن يعاملوا إلا كأعداء ، وأن احتفاظهم بعدهم ضاع سدى ، وتركوا دون خوان وهو يفكك في الطريقة التي يمكن بواسطتها أن يرهن للجميع أن فيليب الثاني كان محقاً عندما اختاره للمهمة .

وال فكرة التي تبلورت في عقل دون خوان تضمنت معاملة الثوار الأندلسيين بأقصى شدة ممكنة ، ومن ثم العمل على ترحيل الأندلسين من أماكن تجمعتهم في الجنوب الأندلسي ؛ لأن وجودهم بتلك الكثافة سيكون مصدر خطر على السلطة ، وقد برهنت الثورة الأندلسية الأولى على استمرار خطر الأندلسين واستعدادهم للثورة حين يستند الضيوف عليهم . وفي أول اجتماع عقده المجلس الحربي بات من الواضح أن التوجه غالبية أعضائه كان نحو تبني القرارات التي تلقن الأندلسين درساً يصعب أن ينسوه فيما بعد ، وأن يكون تطبيق القرارات هذه سريعاً لثلا يتابع المجال لأندلسي ارغون لإعلان الثورة من جانبهم . ويرز مركيز مندخار في أول اجتماع عضواً وحيداً كان يعتقد أن التوصل إلى سلام مع الثوار الأندلسين هو الطريق الوحيد لإنهاء الأزمة . وحيال تباين آراء المجلس وجه دون خوان رسالة إلى فيليب الثاني يعرض فيها ماتم بحثه ويوصي بالشدة في معاملة الثوار ، ويفارق بين هذا الرأي وماقترحه المركيز من اتباع سبيل المصالحة وتعهداته بوضع حد للثورة إذا ترك الأمر له .

كان دون خوان يعتقد أن فيليب الثاني سيأخذ برأيه ، ولذا استبق الأحداث وبدأ بيعيد تنظيم الجيش ويبعث بوفوده إلى نبلاء الجنوب لمهه بالرجال والسلاح والتجمع في غرناطة استعداداً لبدء عملية قمع الثورة . ولكن فيليب لم يكن من الملوك الذين يستطيعون التوصل إلى قرار سريع ، كعادته ، ولذا طال انتظار دون خوان وازداد قنوطه . وفي هذه الأثناء كان الثوار يستعدون لخوض حرب طويلة الأجل ، واستفادوا من الوقت الذي وفو لهم تردد فيليب الثاني لتنظيم قواهم وأعداد جيش قدر تعداده بحوالي أربعة الآف مقاتل . وخلال وقت قصير تمكّن الثوار من بسط سيطرتهم ثانية على المراكز التي أخذها جنود مركيز مندخار في أوقات سابقة ، وانقلوا بعدها لشن هجمات سريعة على غرار حرب العصابات، وانزلوا

بقوات السلطة الخسائر قبل أن تصل قوتهم الى الحد الذي باتوا معه يهاجرون تجمعاً القشتاليين ، ودرات معارك عديدة مع الجنود قرب أسوار غرناطة نفسها وفي المناطق المحيطة بها . والنجاح الذي حققه الثوار حتى تلك المرحلة أثار الجنود والمدنيين القشتاليين فشدوا على اندلسبي غرناطة ولكن ذلك أدى الى إثارة مشاعر القمة ؛ ففرت أعداد منهم والتحقت بالثوار في الجبال القريبة ، واتسع نطاق التصدى للسلطة فشمل جميع المناطق المحيطة بمدينة غرناطة .

وحين وصلت أوامر فيليب الثاني لم تكن تختلف في جوهرها عن الاقتراحات التي رفعها اليه دون خوان ، ولكنها تضمنت شطر قيادة الجيش بين المركيز مندخار ومنافسه الأكبر مركيز بلش مالقه ، وأصراره على عدم السماح للدون خوان بالاشراك في أية عمليات قتالية بسبب حداة سنه وقلة خبرته القتالية من جهة ، ولأن مقتل دون خوان سيقدم للأندلسين نصراً معنوياً هائلاً ، يمكن أن يشجع باقي الأندلسين في قشتالة وارغون على الانضمام الى اخوانهم في الجنوب ، وحمل السلاح ضد جنود الملك في كل مكان يقيمون فيه . وبصدور قرار فيليب الثاني أخذ مركيز مندخار دوراً ثانويًا واضمحللت الثقة بين أعضاء المجلس وبينه وخضعت جميع تحركاته للمراقبة ، بعد أن تضمن قرار فيليب في باطنه ما شجع أعضاء المجلس على هذا التصرف . وكان هنا حال اللجنة عندما بدأت العمليات القتالية في الجنوب .

ب - بداية حروب المقاومة الأندلسية :

تسلم مركيز بلش مالقه قيادة المنطقة الشرقية وأراد منذ البداية أن يثبت تفوق خبرته العسكرية ويقطع الطريق أمام منافسه المركيز مندخار في تحقيق أى انتصار سري فتوغل بجنوده في جبل البشرة واحتل مجر رياحة الاستراتسجي لوقف أية امدادات يمكن أن ينقلها أهالي غرناطة والمدن الأندلسية الأخرى الى الثوار . إلا أن المركيز شن حربه دون أن توفر لديه معلومات دقيقة عن عدد الثوار الذين طوقوا المعر من جميع الجوانب وعزلوا الجنود المسيطرین على المعر ، ودارت معارك متقطعة منهت فيها قوات المركيز بخسائر اضطر معها الى الانسحاب . ورددت قوات ابن أمية على هجوم المركيز بهجوم معاكس تركز على مدينة برجة (Berja) الواقعة الى الجنوب الشرقي من جبل الثلوج (Nieveada) ، إلا أن الهجوم انكشف في اللحظة المناسبة وتمكن جنود المركيز من صد الهجمات التي شنها الثوار على المدينة بعد حصارها والحقوا بهم خسائر كبيرة . وحاول المركيز الاستفادة من النجاح الذي حققه لتابعة الضغط على الثوار ، ولكنه فوجيء بأخبار اعلان الثورة في المدن الواقعة على نهر المنصورة ، وانقطعت طرق تموينه فاضطر الى الانسحاب الى مدينة عدرا الواقعة على الساحل جنوب برجة في انتظار وصول الامدادات اليه عن طريق البحر . وأمام هذه التطورات تشجع الأندلسون في الجبال المحيطة بمدينة الحمة وانضموا الى الثورة مما اضطر جنود فيليب الثاني الى الانسحاب من الأرياف والاحتفاء بأسوار المدن الرئيسية في المنطقة وتولى الجنود وال مليشيات ، المشكّلة على عجل ، الدفاع عنها وصد الثوار الأندلسون الذين باتوا يهددون عدداً من أهم المدن الجنوبيّة مثل مالقه وبلش مالقه ومطربيل (Motril) والمنكب (Almunecar) وغيرها

وبات من الواضح بعد العمليات الأخيرة أن الجنود في الجنوب غير قادرين على حسم أمر الثورة بالسرعة المطلوبة فاصدر فيليب الثاني أوامره إلى القائد الأعلى ريكويسنس بالغاء الرحلة التي كان يعزم القيام بها إلى إيطاليا على رأس عدة كتائب مدرية لتعزيز قوات فيليب الثاني هناك ضد أي هجوم للأتراف ، والعودة إلى بلش مالقة للمساهمة في قمع ثوار جبال الحمة . واحرز ريكويسنس بعض النجاح في العمليات العسكرية الأولية التي قام بها رغم المقاومة الشديدة التي أبدتها الثوار ، إلا أنه اصطدم بالمدافعين عن مدينة فركسالا (Fraxiliana) ^(١) فضرب الحصار حولها وحاول اقتحامها عدة مرات ولكنه أخفق ومني بخسائر كبيرة بين جنوده الذين كانوا من أفضل الجنود المشتركون في قمع الثورة خبرة وصلابة . وبعد افشل محاولات ريكويسنس في احتلال فركسالا وكانت من أقوى معاقل الثوار ، حاول المدافعون فك الحصار عن المدينة فدارت معارك عنيفة كادت قوات ريكويسنس تتراجع فيها لولا مليشيات مالقة التي وصلت إلى ساحة المعركة في مرحلة حاسمة من القتال ، وقلبت الميزان رأسا على عقب . واقتحمت القوات النظامية والمليشيات المدينة .

التفاصيل القليلة التي وصلتنا عن عملية اقتحام فركسالا غامضة ، وجاءت من مصادر قشتالية متحفزة ، ولكن يبدو أن ما بين ألفين وثلاثة آلاف من الأندلسيين قتلوا في المعارك التي دارت قبيل الاقتحام وبعده ، في حين تمكّن حوالي ألفي إندلسي من الفرار والالتحاق بمعسكر ابن أمية . وقدرت خسائر القوات المهاجمة بحوالي ٦٠٠ قتيل معظمهم ، على ما يبدو ، من جنود القائد ريكويسنس . والظاهر أيضا أن نساء الأندلسيين اشتركن في العمليات القتالية ، وهناك رواية تقولها برسكتون ^(٢) عن قيام اعداد من الأندلسيات بالانتحار بالقاء أنفسهن من الشواهد أثر المزيمة تخلصا من السبي والاغتصاب والممارسات الأخرى التي أصبحت طابع حرب الإبادة التي شنها جنود فيليب الثاني ومليشيات المدن القشتالية ضد الأندلسيين في جبال الجنوب .

كان سقوط فركسالا أهم المراكم التي لحقت بالثوار حتى منتصف سنة ١٥٧٩ ، إلا أنها كانت دافعا لتنظيم عملية انتقامية استهدفت سيرون (Seron) ، وكانت من المدن التي بقيت مع القشتاليين في وادي نهر المنصورة . الهجوم الأول الذي شنه الثوار لاحتلال المدينة أخفق أمام المقاومة العنيفة التي أبدتها الخامسة بقيادة ميرون (Mirones) ، فحاصروها اعتبارا من الثامن عشر من حزيران في السنة ذاتها وقطعوا طرق تموينها . وحين وصلت أخبار حصار سيرون إلى دون خوان في غرناطة ، عين قائدا باسم الونسو كريجيال على رأس قوة من الجنود أستند اليهم مهمة فك الحصار ، ولكن فيليب الثاني أسنده المهمة إلى مركيز بلش مالقة ووصل الأمر إلى دون خوان بعد رحيل كريجيال . وخلال الفترة القصيرة التي تضاربت

(١) وهي اليوم (Frigiliana) أو فريجالة التي تقع على بعد ستة أميال شمال (Narja) في الطريق بين مطروبل ومالقة .

(٢) يضع المؤلف الأمريكي و . هـ . برسكتون مؤلفين عن التاريخ الأسباني ، الأول عن سيرة فرنانديز وايزابيلا (١٤٤٢) والثاني عن فيليب الثاني (١٤٥٩) . وهو يورد تفاصيل كثيرة عن الثورة في الكتاب الخامس من سيرة فيليب الثاني ، الفصل : السادس والسابع والثامن . (انظر المراجع) .

بعض البادق
التي استخدمها
أهل غرناطة.
(المصحف الحربي ،
 مدريد)



فيها الأوامر ، ضيق الحصار على سكان سيرون فاستسلموا للثوار الأندلسيين في الحادي عشر من تموز ولم يتمكن كرمال أو المركيز من نجدة سكانها ، إما لوصولهما متاخرين ، أو لأن قواهما لم تتمكن من اختراق حاميات الأندلسيين والوصول الى المدينة في الوقت المناسب . كان استسلام المدينة نصراً كبيراً للأندلسيين ولكن أهل غرناطة دفعوا ثمن هذا الانتصار حتى قبل أن تسقط المدينة . عندما نفي معظمهم الى مدن قشتالة بمحجب مرسوم خاص أصدره فيليب الثاني بناء على اقتراح دون خوان .
(انظر نتائج الثورة الأندلسية الكبرى) .

ج - الأعداد للقضاء على الثورة الأندلسية :

ضمن دون خوان بترحيل أهل غرناطة انقطاع أي مدد يمكن أن يحصل عليه الثوار من أكبر المدن الأندلسية ، وتوقف واحد من مصادر تعزيز الثورة بالشبان الذين كانوا يفرون من غرناطة ، حينما تسنم الفرصة للإتحاد، بمعاشر الثورة في الجبال . وسقوط مدينة سيرون دعم من وضع دون خوان وازاح العقبة التي كانت تقف في طريق اشتراكه بالقتال، لاسيما وأن سقوط المدينة جعل اليقين إلى فيليب الثاني بأنه قلل كثيراً من قوة الثوار ، واستهان بقدرتهم على تحقيق الانتصار تلو الآخر ، وتعقبة المقاتلين بسرعة كبيرة كما حدث خلال حصار سيرون الذي اشتراك فيه حوالي خمسة آلاف أندلسي . والأخبار التي تناقلها القشتاليون في الجنوب عن مصر سكان سيرون^(١) ألمحت جميع أصوات أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن قرار فيليب الثاني ينفي أهل غرناطة لا يتصرف بالحكمة خاصة وأن ترحيل الغالية العظمى من الأندلسيين سيلحق الخراب بالمدينة والأرياف المحيطة بها . أما وقد سقطت سيرون الحصينة ، فإن بحث دون خوان وفيليب الثاني انصب على ايجاد كبس فداء يمتص نسمة القشتاليين على السلطة . ولكن التفتيش لم يدم طويلاً ، والأراء التي تبانت بين أعضاء المجلس حول كل شيء تقريراً اجتمعت لأول مرة وتقرر تنحية مركيز مندخار عن جميع سلطاته الفعلية بسبب علاقته السابقة بالأندلسيين ، وربما كان ذلك أحد أسباب وفاة المركيز في ذات السنة .

وكان دون خوان يتصور أن تنحية مركيز مندخار تعني بالضرورة موافقة فيليب الثاني على تسلیمه قيادة الجيش ، ولكن ازدياد ثقة فيليب الثاني بدون خوان لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه النقطة، ولذا فقد أسنده قيادة الجيش إلى مركيز بلش مالقه . ولا كان هذا التعيين غير مرض لدون خوان فقد بدأت الرسائل تنهال على فيليب الثاني تطلب تنحية المركيز؛ ثم مال ريكوبوسنس إلى رأي دون خوان وبدأ هو الآخر في حث فيليب الثاني على عزل المركيز عن قيادة الجيش نظراً لاحقاشه السابق في تحقيق أي نصر حاسم على الأندلسيين . وكان لابد لفيليب من الاستجابة لطلبه العاجل، وصدر قراره بعزل المركيز بعد عجزه عن وضع آلية خطط واضحة للقضاء على الثورة، واحراز أي تقدم سريع خلال الفترة القصيرة من توليه مهام منصبه الجديد . و يبدو أن دون خوان لعب دوراً غامضاً في إفشال خطط مركيز بلش مالقه منذ البداية رغم قلة تفاصيل هذا الدور . وكان لهذه التزاعات الفضل في إتاحة مدة إضافية أمام الثوار تمكنوا خلالها من نقل الثورة إلى جبال غربية بقيادة الغالب شقيق عبد الله بن أبيه الذي يرز كواحد من أهم قادة الثورة في جبل البشرة . وهكذا أخسرت سلطة جنود فيليب الثاني في الجنوب ، وفقدوا السيطرة على أغلب الأرياف .

حيال هذه التطورات الأخيرة ، كتب دون خوان إلى فيليب الثاني يبلغه تردى الأوضاع ويقترح خطة شاملة للقضاء على الثورة شريطة حصوله على قوات إضافية ودعم كاف . فوافق فيليب الثاني على الخطة

(١) الروايات المعاشرة عن مصر سكان المدينة متناقضة ، إلا أن برسكتوت (الظر المراجع السابق) يقول أن جميع الذكور من هم فوق سن الثالثة عشرة قتلوا، وأن الثوار سموا النساء والأطفال أسوة بعاده الجنود القشتاليين .



جبل شلير (الثلوج) في الجنوب

وطلب من دون خوان إعادة تنظيم الجيش في انتظار وصول التعزيزات ، وعهد إليه مؤقتا بقيادة المنطقة الشرقية ، على أن يتسلم دوق سيسه تحت أشرافه قوة من الجنود لحراسة الممرات والطرق المؤدية إلى غرناطة من جبل البشرة . وأثناء عملية إعادة التنظيم اصطدم دون خوان بحامية غرناطة ووجد في ضيابطها من التصرفات ماساعدة على عصيان الحامية (١)، فأمر بإنهاء خدمات ٣٧ ضابطا من أصل ٤٥ وأعاد السيطرة على الجنود واتخذ من غرناطة مقر قيادة عملية القضاء على الثورة . وفي هذه الأثناء تدفق الجنود وقوات مليشيات المدن القشتالية الجنوبية على غرناطة ، وبات المسرح معدا لشن الهجوم الأخير، ووضع نهاية للثورة قبل أن يجل الشتاء بثلاوجه وينبع حركة الجنود ، الأمر الذي سيؤدي إلى تأجيل الحملة ضد الثوار حتى قدرم الريح التالي .

وبحلول شهر أب من سنة ١٥٦٩ كانت الاستعدادات في غرناطة على قدم وساق لشن الحملات الأخيرة وإنهاء الوجود الأندلسي في الجنوب . وفي انتظار أوامر فيليب الثاني لبدء الهجوم الشامل ، عمل دون خوان على إعداد قواه والمليشيات التي تجمعت لديه للمرحلة التالية من الصراع مع الأندلسين الثانيين بشن سلسلة من العمليات العسكرية المحددة ضد موقع الأندلسين ، قبل أن يأتيه أمر فيليب الثاني بالتحرك لإنهاء الثورة في جميع المراكز الواقعة إلى الشمال من غرناطة لضمانبقاء خطوط التموين

(١) كانت أعداد كبيرة من جنود الحامية تتوزع عند الأندلسين ، إلا أن هؤلاء نقلوا إلى ضيافة السكان القشتاليين في المدينة بعد ترحيل الأندلسين ، فلم يجدوا معاملة مشابهة . فعم الأستباء وطالعوا على القشتاليين عذجين على نوع الطعام المقدم لهم والخدمات الفليلة المتوفرة لهم الأمر الذي أثار إستياء القشتاليين فشكروا الجنود إلى السلطة وأوقفوا تقديم العون لجنود الحامية فاعتذر الجنود العصيان .

مفتوحة مع الشمال . وبعد معارك متفرقة، تكون دون خوان وبضعة الاف من الجنود وال مليشيات من حصار مدينة غرة (Galera)الواقعة إلى الشمال الشرقي من بسطة في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٥٧٠ ، واستمر الحصار شهرا قبل أن تستسلم المدينة بعد الوعود وال العهد التي قطعت لأهلها بالمحافظة على أرواحهم ومتلكاتهم . ويروي أحد المؤرخين (١) ماحدث بعد استسلام المدينة فيقول : إن دون خوان أمر بقتل جميع سكان المدينة، المقدر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف، بعد اغتصاب نسائهم . وكانت أعمال القتل والإغتصاب من الوحشية بحيث أرهق الجنود ، واضطروا إلى الفرار صباح اليوم التالي بعد أن وصلت مجموعات من الأندلسيين لنجدتهم أهل المدينة . وحاول دون خوان أن يعيد تنظيم جنوده والمليشيات إلا أنه أخفق في ذلك عدة مرات وكاد يتعرض للتهلكة خلال محاولاته تلك . (١)

ويقي دون خوان في غرة بعض الوقت في انتظار وصول الإمدادات الجديدة ، وتحسن الطقس قبل أن ينطلق في شهر فبراير باتجاه مدينة سيريون التي احتلها الثوار في شهر تموز السابق (انظر المصور ص ١٥١) وعده حوالي ثلاثة آلاف راجل و٢٠٠ فارس وأعداد أخرى من حملة البنادق ورمادة المدفعية ، وشطر الجيش إلى قسمين أستد قيادة الأول منها إلى ريكويوسنس والثاني إلى تابعه كيخادا بينما توجه هو إلى قل مشرف لمراقبة سير العمليات القتالية . حققت الاندفاعة الأولى للجيش المدف المرجو منها وانسحب قسم من المدافعين عن المدينة إلى الجبال المجاورة . وحيال هذا التطور دخلت قوات المشاة المدينة وانهمكت في نهب محتويات المساكن دون أن تتبه إلى إشارات النجدية التي أطلقتها الأندلسيون باستخدام سحب الدخان . وخلال وقت قصير تجمع عدة آلاف من الأندلسيين بقيادة الفارس الخبقي المسؤول عن تلك المنطقة ، وانضم إليهم سكان سيريون وأطبق الجميع على جنود دون خوان واضطروهم إلى الانسحاب . أما المشاة فقد أعمتهم المفاجأة فاسقطوا ماسليبو واحتلوا في مساكن المدينة، ولكن الثوار أطبقوا عليهم واحرقوا بعض المنازل التي احتلوا بها . وأمام هذه الهجمة العنيفة انهزم جنود دون خوان في جميع الإتجاهات ، ولم يفلح وقادته في وقفهم ومنع هذه الهزيمة التي وقعت في السابع عشر من شباط سنة ١٥٧٠ .

وحين أتى غبار المعركة وتوقف الأندلسيون عن مطاردة خصومهم ، اتضاع أن دون خوان فقد في ذلك اليوم حوالي ٦٠٠ رجل بالإضافة إلى المشاة الذين قتلوا أو احترقوا في سيريون . وأصيب كيخادا بطلاقة في كتفه البصري مات بعد ذلك بسببها ، كما أصابت طلاقة أخرى خوذة دون خوان ولكنها لم تكن مؤثرة . وبعد يومين من المذادة بعث دون خوان إلى فيليب الثاني يعلمه بتفاصيل المعركة ، ويطلب إمدادات إضافية . وحين جاءه الرد بعد خمسة أيام تضمن الشكر لسلامته والعزاء لموت تابعه، والوعد

Rowdon, Maurice. The Spanish Terror, (London), 1974, P 231 .

(١) انظر :

(٢) لا تتوفر معلومات عن حقيقة المخاطر التي تعرض لها دون خوان في هذه المعركة ، ولكن يرد في رسالة تلقاها من فيليب الثاني ما يؤكد لجهاته من خطير مدقق . انظر مخطوطة مكتبة المتحف الوطني في مدريد بعنوان :

Carta del Rey a Don Juan de Austria, 24 Febrero, 1570.

بإرسال النبي جندي لمعاونته في القضاء على معاقل الثورة . ولكن فيليب الثاني كان يفكر بوسيلة أخرى للقضاء على الثورة واغتنام فرصة فريدة لزيادة نفوذه على الساحة الدولية .

في ذلك العام عرض البابا بيوس الخامس على فيليب الثاني تشكيل تحالف مقدس ضد العثمانيين الذين استفحلا خطرهم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، على أن يتول شخص يسميه فيليب قيادة الحملة . واقتراح الأخير أخاه دون خوان لشغل هذا المنصب على أن يقوم بذلك فور الانتهاء من قمع الثورة الأندلسية في الجنوب . غير أن الأخبار التي كانت ترد من مناطق الثورة لم تكن مشجعة ، والمقاومة العنيفة التي أبدتها الأندلسية يمكن أن تستمر فترة طويلة ، وقد يضطر دون خوان إلى البقاء في الجنوب مما سيضيئ الفرصة الدولية السانحة . وهنا أوعز فيليب إلى أخيه فتح حوار مع الأندلسين ، وجرت مفاوضات سرية بين دون خوان والمحبقي أكرم فيها الفارس الأندلسي بصورة خاصة ووعد بالكثير . كما صدرت إرادة ملكية تمنع جميع الثوار العفو الشامل إذا رضخوا للسلطة خلال ٢٠ يوماً من صدور المرسوم ، وإلا فإن الجزاء سيكون اعدام جميع الرجال والشبان الذين تفوق اعمرهم الرابعة عشرة .

ولايعرف على وجه التحديد مدى استجابة الأندلسين لعرض فيليب الثاني ، إلا أن الشك كان الطابع العام ، وزاد من قناعة الثوار بعدم صدق العرض التحركات العسكرية المريضة التي شملت أغلب المناطق الواقعة إلى الشرق من جبل البشرة . ولاتعرف أيضاً طبيعة تفاصيل الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين دون خوان والمحبقي ، إلا أنها تضمنت ، على ما يبدو ، سحب الأحمر لبعض قواته من المناطق التي كان مسؤولاً عن حمايتها ، ولعل هذا أحد الأسباب التي تفسر الانتصارات السريعة التي حققتها دون خوان فيما بعد . إذ انسحبت قوات المحبقي من سيرون ثم من جولة (Tijola) وبرشانة (Purchena) . وعندما أقام دون خوان مقر قيادته في البذول (Padules) القريبة من اندرش (Laujar de Andarax) في الثاني من أيار سنة ١٥٧٠ فعل ذلك وهو مطمئن إلى أن سيطرته على جميع المدن والقرى الواقعة في وادي نهر المنصورة باتت شاملة .

وزع دون خوان الجيوش في الأسابيع اللاحقة إلى فصائل انيطت بها مهمة ملاحقة الثوار في كل مكان وإحرق منازل المزارعين وحقوهم . وحول الجنود الأرض إلى خراب ، كي لا تقسم أسباب الحياة لأى مخلوق ، وكانت هذه طبيعة اجراءات المصالحة التي استخدمتها الحكومة للقضاء على الثوار .^(١) وخلال هذه الفترة قاد دوق سيسه جيشاً من عشرة آلاف راجل و٢٠ فارس وحاول القضاء على الثورة في المناطق الشمالية من جبل البشرة ، إلا أن ابن أخيه تصدى له ومنعه من تحقيق أى انتصار يذكر رغم قلة عتاد رجاله . وبعد فترة اعتمد فيها الجانبان حرب العصابات ، انسحب دوق سيسه إلى الساحل وأعاد هناك تنظيم جيشه بعد فرار أعداد كبيرة منه ، والتحق في بداية شهر آيار بمعسكر دون خوان في البذول .

(١) انظر :

Carbajal, Luis del Marmol. Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reyno de Granada, Sancha, (Madrid), 1797, Part 11, PP 290-320,& 340-346.

وحيداً الإخفاق التاريخي الذي مني به دوق سيسه في تحقيق أى انتصار يذكر على ثوار البشرة ، عمد دون خوان إلى سياسة الأولى ، وطلب من الحبقي الإعداد لجولة جديدة من المباحثات ، بدأت فعلاً في الثالث عشر من أيار في قرية تدعى فندون اندرش (Fondón de Andarax) بحضور الحبقي وعد من زعماء الأندلسيين المواركة . ومنذ الدقائق الأولى لذلك الاجتماع اتضح إن مطالب الأندلسيين صعبة الاستجابة ، إذ طلب الوفد إعلان العفو العام والغاء مرسوم الأول من كانون الثاني لسنة 1567 . ولكن هذا الموقف لم يحيط أهل دون خوان في الانتهاء من ثورة الأندلسيين بأسرع وقت ممكن لتولي منصبه الدولي الذي وعده فيليب الثاني به ، فرأوا غ مع الوفد وطلب إليه الحصول على موافقة الزعيم ابن أبيه بالتحديث باسمه ، وعهد إلى أمين سره خوان دي سوتو (Juan de Soto) المساعدة على صياغة بنود الاتفاق . وفي التاسع عشر من أيار عاد الوفد إلى معسكر دون خوان وجرى توقيع الاتفاق^(١) ، وانسحب الوفد باستثناء الحبقي الذي أكرم واحتفى به الجميع بما فيهم رئيس أساقفة وادي أش (Guadix) الذي أقام له مأدبة عشاء خاصة .

وأثار بقاء الحبقي في معسكر دون خوان الريبة في نفوس الأندلسيين وزعيمهم ابن أبيه ، وتحولت الريبة إلى غضب بعد أن تسررت أنباء الاتفاق الذي تضمن العفو عن الأندلسيين بعد إبعاد جميع سكان البشرة عن أماكن إقامتهم ، وتکفل الملك برعايتهم في مناطق سكناهم الجديدة . وأمام غضبة الأندلسيين أدعى ابن أبيه أن الحبقي تصرف عكس مطلب إليه ، وشط في تقدير الصلاحيات التي منحت له ، لأن الاتفاق يعيد الأندلسيين إلى الموقع الذي كانوا فيه قبل الثورة ، وبلغني جميع التضحيات التي قدموها إضافة إلى أنه ينص على رحيل أهل البشرة من مساكنهم . وهنا خشي الحبقي من ارتداد معسكر دون خوان عليه فرحة مدعياً أنه سيقصد ابن أبيه ويعتقله إن لزم الأمر . ولما سمع ابن أبيه برحيل الحبقي من المعسكر بعث إليه بعض اتباعه فأحضروه من قريته في برشول (Berchules) إلى مقر قيادته في ميسنه (Mecina Bombarón) حيث خنقه الأتباع ولقوا جثته بالقصور ورمواها في واد عميق . ولما است福德 دون خوان الحبقي بعث بفارس يدعى هرنان بال دي بلاطوس (Hernan Valle de Palacios) إلى معسكر عبد الله ابن أبيه يستطلع الأخبار ويعرض على الرعيم الأندلسي الصلح . وحين اجتمع إلى الرعيم أبلغه الأخير : « لا أمنع رعيتي من فعل ما تشاء ، ولكن أبلغ سيدك ما يبقى لي كسام يستر ظهري ماسلكت سبيهم . وإن لم يصمد أحد في البشرة فإني صائم ، أفضل إلى أن أعيش مسلماً وأموت مسلماً من أن انعم بكل ما يمكن أن يقدمه إلى فيليب الثاني » .^(٢) وحين عاد الرسول إلى دون خوان نشط في اعداد جنوده للمعارك بتوجيههم إلى المراكز الأندلسية القريبة والإغارة على القرى والمواقع المترهلة في جو تمددت فيه الروح الصليبية ، واشتعل فيه الحقد على الأندلسيين فكانت صرخة الحرب اسم القديس ستيفانغو (شت يعقوب) كما كانت في القرن الثالث عشر . ولم يكن تصرف جنود الامبراطور فيليب الثاني مختلف عن تصرف جنود الفونصو السادس أو فرناندو الثالث ، إذ كان هؤلاء يعودون من غاراتهم

(١) لم ينشر نص الاتفاق فقط ولم يصر على نسخة له ، إلا أن كريمال يورد تفاصيل كثيرة عنه . انظر المصدر السابق ، ص ٣٥٥ - ٣٦٢

(٢) المصدر أعلاه ، ص ٤١ .

إلى غرناطة وهم يحملون رؤوس قتلامهم أو بعض أطرافهم . وبعد أن أيقن دون خوان أن الجنود والمليشيات باتوا مستعددين للقتال وارتقت روحهم المعنوية إثر الانتصارات الفردية التي حققها ضد القرى الأندلسية المنعزلة ، قرر تنظيم حملة رمزية استهدفت مدينة وجار (١) فقد قسما من الجيش باتجاه المدينة وسلم قيادة القسم الآخر لدوق سيسيه . إلا أن الأخير وصل قبل دون خوان ، وتمكن من اقتحام المدينة بعد فرار أهلها ، وحرم دون خوان من تحقيق انتصاره الجديد . ولكن لم يكن بمقدمة لهذا الانتصار إذ كان قائدا بلا منازع لجميع قوات فيليب الثاني ومليشيات المدن المساندة في الجنوب عندما وصله أمر الاميراطور بالتحرك .

د - تصفية الثورة الأندلسية الكبرى :

وزع دون خوان مسؤوليات قادته بحيث يتسلم هو قيادة حوالي خمسة آلاف جندي نظامي ، ويتجه بهم لنطهير المناطق الواقعة شمال غرناطة . وعهد إلى ريكوينسنس قيادة جيش آخر ينطلق من غرناطة لدخول جبل البشرة من ناحيته الشمالية ، بينما يقود دوق سيسيه حوالي أربعة الآف من الجنود لقمع الثورة وسط الجبال . أما دوق اركوش فقد تسلم قيادة الجيش الغربي بهمة قمع الثورة في جبال زندة والاتجاه بعد ذلك للسيطرة على معاقل الثوار في الجبال القريبة منها . وفي بداية شهر أيلول من سنة ١٥٧٠ تحركت الجيوش الأربع في اتجاهاتها المختلفة وبدأ الصدام مع الثوار على الفور . ولكن سرعان ما تبين الأندلسيون أن الحملة لا تستهدف فقط الثوار ، وإنما قصد فيليب الثاني أن تكون حرب إبادة لا تقوم للأندلسيين بعدها قائمة ، ولذا فإن التاريخ لم يغفر لفيليب الثاني قط المذلة الجماعية التي ارتكبها جنده ضد الأندلسيين بين شهري أيلول وتشرين الثاني من ذلك العام . (٢)

وتفاصيل هذه الفترة من الحرب ضد الأندلسيين قليلة لأسباب معروفة قصد منها المؤرخون الأسبان طمس حقائق المجازر التي ارتتكها الجنود في الجنوب . ولكن من المعروف أن دون خوان حمل قادته وصبيته الشهير قبل التحرك وهي « لا رحمة لاهوادة » (٣) وكان هذا تصرفه حين احتل مدينة وادي اش الواقعة إلى الشمال الشرقي من غرناطة ، وبدأ شن الحملة ضد الأندلسيين . في البداية كانت المقاومة عنيفة، ولكن الثوار أخذلوا في التقهر تدريجياً والاتجاه إلى المرتفعات . وكان جنود دون خوان في تقدمهم يحرقون كل شيء أمامهم ، كي لا يتمكن الأندلسيون من الاستفادة منه . فقل الطعام والماء وتحولت المدن والقرى إلى انقضاض وانشغلت بجموعات الثوار بمقاومة القوات التي خصصت لكل منها ، فانقطعت الاتصالات بينهم وتوقفت الإمدادات . وبعد القضاء على الثورة المسلحة في قطاع دون خوان ، شدد

(١) رجا أوججر (Ugijar) الواقعة شمال عرفة أو جنوب الطرف الشرقي من جبل التاج .

(٢) انظر الوصف الذي يقدمه برسكتون في :

Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, Phillips, Sampson & Company, (Boston), 1859, BOOK V, Chapter VIII, PP 269-275.

Lane-Poole, Stanley, The Moors In Spain, (4th Edition) 1890, P 278

(٣)

ضيقه على الأندلسيين فانسحوا إلى الكهوف والمغارور المرتفعة حيث كان جنوده يحيطون بالمكان ويشلون الأغصان الخضراء أمام الفتحات حتى يختنق الأندلسيون في الكهوف المحاصرة ، ومن فرر الخروج وجد سيف الجنود في انتظاره . وبعد أيام العمل الموكلا للجنود ، كانوا ينتقلون إلى منطقة جديدة ويكررون فعلهم الذي ثبت الآن فاعليته الكبيرة .

تراجع الشوار الأندلسيون أمام هذه المجممات المركبة من جميع المناطق بعد صدامات دامية الحقت خسائر كبيرة بالطرفين . ولا تتوفر معلومات عن حملات ريكويستس ودوق سيسه ، ولكن من المعروف أن دوق اركوش بدأ حملته في حوالي منتصف يولول ، وتمكن من التوغل في جبال غربية الأندلس حتى صطدم بتجمع كبير للشوار الأندلسيين قرب قلعة اللوز في الجبل الأحمر (Sierra Bermeja) ، ودارت معركة عنيفة انتهت بانتصار قوات النوق . وفي هذه الأثناء أثارت عمليات قوات جنود دون خوان النقطة في صفوف قيادة الأندلسيين ، وقام بعضهم على مولاي محمد بن أمية^(٢) فخقوه وهو نائم وتسلم القيادة بدلا منه مولاي عبد الله ابن أبيه الذي يوصف بالأخلاق حتى في المصادر القشتالية ، وبأنه كان القائد الحقيقي للثورة قبل أن يتسلم قيادتها بعد مقتل ابن أمية . ولكن مولاي عبد الله جاء في الوقت الذي ضعفت فيه الثورة وأخذت تترنح تحت وقع ضربات جنود دون خوان . حتى أن مولاي عبد الله حوصر في أحد الكهوف الواقعة قرب برشول الواقعة شرق مطربيل، ولكنه تمكن من الفرار غير أن سبعين أندلسيًا بينهم زوجته وابنته بقوا في الكهف وماتوا مختنقين بالدخان .

وبحدود منتصف تشرين الأول كانت الجيوش الأربع قد تمكنت من دحر التجمعات الرئيسية للشوار الأندلسيين . ووجد فيليب الثاني في ذلك فرصة لالانتقام ، فاصدر في التاسع عشر من الشهر المذكور مرسوما حول فيه الجنود المسي والنهب ورفع أجورهم وأصبح قتل الأندلسيين واجبا قوميا . وفي الثامن والعشرين من الشهر ذاته اصدر فيليب الثاني مرسوما آخر أمر فيه بترحيل الأندلسيين من الجنوب (انظر نتائج الثورة الأندلسية الكبرى) ومصادرة جميع ممتلكات التنفيذ لتفعيل نفقات الحملات العسكرية ضد الأندلسيين المواركة . وخططا دون خوان خطوة مماثلة من جانبه ووعد الجنود بتقديم ٢٠ دوقة لكل من يتمكن من قتل أندلسي، فنظمت حملات ،، صيد الرؤوس ،، ولم يكن الجنود يفرقون خلالها بين الشائر والمسالم . وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني غادر دون خوان غرناطة إلى مدريد حيث استقبل كالابطال الفاتحين ، وعين دوق اركوش حاكما عسكريا واستند إليه مهمة مطاردة باقي الأندلسيين في الجنوب .

وخلال الفترة التي تُقدم فيها عشرات المئات من الأندلسيين إلى المحكمة العليا برئاسة بدرودي دي ديشا ، لم يكن الجنود يفتشون عن أي من الشوار كما كانوا يفتشون عن مولاي عبد الله ابن أبيه ، ولكن دون جلوى . وفي آذار من سنة ١٥٧١ سُنحت للسلطة فرصة عظيمة عندما وُشي أحد المخبرين بالمكان

(٢) يرد اسمه في معظم المصادر الأجنبية كابن حبة . انظر المصدر السابق ص ٢٧٧ .

الذى التجأ اليه عبد الله ، إلا أن أحد ابنته عاجل بقتله طعنة في الصفح عنده ، وحمل الجثمان على بغل وقد شد على اطار خشبي إلى غرناطة ، حيث احتفل بقطع رأس الجثمان والقاء الجسم إلى أطفال غرناطة الذين هوا به ثم أحرقوه . أما الرأس فوضع في قفص وعلق على بوابة البشرة وكتب على القفص: « هذا رأس الخائن ابن ابيه . يمتنع الجميع عن انزاله تحت عقوبة الاعدام »^(١) .

٤ - نتائج الثورة الأندلسية الكبرى

نحو نهاية سنة ١٥٧٠ كان الأندلسيون في الجنوب إما محاصرين أو أسرى أو منفيين أو قتلى . ولكن الخوف الذي به الأندلسيون في قلب السلطة خلال ثورتهم التي استمرت ثلاث سنوات، دفع الحكم العسكري الجديد إلى اتخاذ كل التدابير الممكنة خشية تجدد القتال ، فأمر بتشييد ٨٤ منيراً عسكرياً بينها ٢٩ منيراً في جبل البشرة ووادي القرن (Leerin) ، وشدد الحراسة على مداخل المدن وأعقل الجنود كل من عزروا عليه من الأندلسين في انتظار قرار فيليب الثاني لامسال الستار على ثانية ثورة للأندلسين خلال أقل من ٦٠ سنة . ورغم كل هذه الاحتياطات، فإن الاشتباكات المتفرقة استمرت بعد شهر آيار من السنة التالية حين وضعت شروط استسلام ما تبقى من الأندلسين في جبال الجنوب ، ثم انطفأت شعلة الثورة قبل منتصف سنة ١٥٧١ .

وخلال فصل الشتاء الأخير : « صبغت تلك الأشهر بغير أحمر قان من الدماء . كان شعار دون خوان ، لا رحمة ، لا هداة ، فذبح الرجال والنساء والأطفال بأمره وأمام ناظريه ، وتحولت قرى البشرة إلى مسلخ بشري .. أما القائد الأعلى ريكوكوينس فتمكن من إخماد آخر جذوات الثورة قبل الخامس من تشرين الثاني سنة ١٥٧٠ ، ورتب سلسلة منتظمة من الذبح الجماعي والتدمير الشامل ، وإحراق القرى عن آخرها وحق الناس بالدخان في الكهوف حيث لاذوا . تم أخيراً اخضاع المواركة ولكن على حساب أسبانيا المسيحية وسمتها ، وعلى حساب مستقبلها ». (٢) وبانتهاء المعارك الرئيسية قدر عدد القتلى من الأندلسين بحوالي ٢٠٠٠٠ شخص ، ولكن العدد الأكبر من الأندلسين اتهوا إما إلى الأسر والاستبعاد ، أو إلى النفي في قشتالة والتضييع في زوايا ممالك فيليب الثاني الشاسعة « وكانت غرناطة في هذه الفترة مسرحاً للاعدامات شبه اليومية . وبعد اسر الثنائيين التسعاء كانوا يجرون على الامتثال أمام محكمة دينا ، فيصدر عليهم الحكم على الفور بالخدمة في القواديس أو الشنق ، أو ب نهاية أكثر إيهاماً عن طريق تقطيع أجسادهم بكمشات تحمي حتى يصبح لونها كالجلمر ». (٣) .

Mendoza. Guerra de Granada, P 329. (١)

Lane-Poole, Stanley. Moors In Spain, P 278. (٢) انظر :

Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, (Boston), 1859, BOOK V, Chapter VIII, P 280. (٣) انظر :

وعندما هدأت موجة التكبيل والتعذيب عملت الحكومة على تقييد أعمال التضييق على الأندلسيين المواركة وصدر في الرابع والعشرين من شباط سنة ١٥٧١ القانون المعروف بإسم « مجموعة القوانين المحلية الخاصة بملكية غرناطة » (*Ordenanzas de Granada*) وقدم لها بمايلي : « إن من غير المتوجب معاقبة المواركة الذين لم يشاركوا في العصيان ، وعليها ألا ترغب في إينادهم ولكن لن يكون بمقدورهم بعد اليوم استغلال أراضيهم ، ذلك لأن محاولة فصل الأبراء عن المذنبين مهمة بلا نهاية . وسنعمل بالتأكيد على تعويضهم في المستقبل ، ولكن أطيانهم ستتصادر في الوقت الراهن مثلهم في ذلك مثل المواركة الشاريين ». ^(١) ولم يوضّح أندلسيو السلام فيما بعد ، ومع ذلك نظر القشتاليون إلى القانون على أنه تضمن صفحات عن الأندلسيين ليسوغره الواقع . ^(٢)

وفي السادس من تشرين الأول سنة ١٥٧٢ أصدر فيليب الثاني مرسوماً جديداً حرم على الأندلسيين المواركة التخاطب بالعربية أو الكتابة بها ، وحدد عقوبة المخالفة الأولى للمرسوم بالسجن مع التكبيل بالحدid مدة ٢٠ يوماً ، وضعف المدة للمخالفة الثانية ، والخدمة أربع سنوات في القواديس مع ١٠٠ جلدة في حالة المخالفة الثالثة . وجاء في المرسوم أن العثور على وثيقة أو صفحات مكتوبة بالعربية، استعرض صاحبها للخدمة أربع سنوات في القواديس والجلد ١٠٠ جلدة . والغى المرسوم أية قيمة قانونية لآلية وثيقة أو صك مكتوب بالعربية، وحدد عقوبة جميع المسؤولين عن مثل تلك الوثائق أوز الصكوك بمماثلي جلدة والعمل سخرة في القواديس ست سنوات . وتضمن المرسوم عدداً كبيراً من الممنوعات والمعظورات إلا أن أعظم العقوبات كانت بحق الأندلسيين المواركة الذين يتربكون المناطق السكنية المحددة لهم بعد نفيهم . فإذا قبض على أندلسي يتراوح سنه بين العاشرة والسبعين عشرة على بعد عشرة فراسخ من غرناطة حكم عليه بأن يكون عبداً يستغل في القواديس بقية أيام حياته . وإن كان سنه فوق ذلك حكم عليه بالإعدام . وأجب المرسوم الأندلسيين المواركة باعلام السلطات إن هرب أحدهم من المنطقة المحددة لسكناه . وإن تخلفت الأسرة عن ابلاغ السلطات فإن عقوبة أفرادها ، مهما كانت صلتهم بالأندلسي الفار ، السجن مدة شهر واحد والجلد . وإذا حدث وترك أحد الأندلسيين المواركة سكانه في المنفي الخصص له فإن السلطات كانت تحشد كل قواها وعيونها ، وتحصر الجوائز القيمة للامساك به ، وتطبيق العقوبات التي نص عليها المرسوم .

ولم تكن السلطات، في السنوات التي أعقبت الثورة الأندلسية الكبرى، تخشى تجمعات الأندلسيين الغرناطيين في منفاهem ، إلا أنها كانت تسعى بكل طاقاتها لمنع اختلاط الأندلسيين المنفيين بالمواركة في مملكة بلنسية أو أرغون والمناطق الأخرى على الساحل الشرقي لشبه جزيرة إيبيريا ، خوفاً من تشجيعهم على الثورة في تلك الملك التي كانوا يشكلون فيها أغلبية أو أقلية كبيرة جداً . ومن الممكن تصور أن السلطات القشتالية نجحت بمساعدة القشتاليين في مناطق المنفي من السيطرة على الغرناطيين المنفيين ،

(١) انظر : Clcuri, Count Albert de, Histoire des Arabes en Espagne, Vol. III, P 148.

(٢) انظر : Garabal, Luis del Marmol, Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reyno de Granada, (Madrid), 1797, Part II, P 439.

وتحطيم معنوياتهم، وبالتالي منعهم من التفكير في القيام على فيليب الثاني مرة أخرى . وكانت أعين السلطات والقوانين المحلية والمراسيم المختلفة الخاصة بالأندلسيين المواركة كفيلة بالقضاء على أي شعب مقهور لولا أن الأندلسيين كانوا من طينة أخرى صلبيتها ثانية عقود من الاستطهاد المتواصل . وبصف برسكوت طبيعة المراسيم التي صدرت بحق الأندلسيين في تلك الفترة فيقول : « من العسير أن يعتر المرء في صفحات التاريخ على مثال أوضح للإضطهاد تعرض له شعب مقهور من ذاك المتمثل في القوانين التي صدرت في تلك المذكرة بحق المواركة . »^(١)

- نفي سكان غرناطة :

اتساع رقعة الثورة وشتداد خطورها حمل فيليب الثاني على الاستجابة لطلب مشترك سابق ، تقدم به كل من دون خوان رئيس المجلس العسكري وبورو دي ديشا رئيس المحكمة العليا لترحيل الأندلسيين من غرناطة خوفاً من أن تؤدي التطورات إلى قيامهم ضد السلطة ولاسيما وأنهم كانوا يعتزون قبلة موقته يمكن أن تتفجر في أية لحظة بعد أن اختبرت المدينة مركزاً لقيادة الجيوش التي انيط بها قمع الثورة . وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة ١٥٦٩ ، أصدر فيليب الثاني مرسوم النفي بعد أن تجمع الجنود في المدينة تحت جنح الظلام لتنفيذ بنوده . وعندما ايقن دون خوان أن عدد الجنود كاف للسيطرة على الوضع بعث بالمنادين إلى حي البيازين فطلبو من جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سن العاشرة والستين التجمع في الكنائس القريبة من بيوقهم محددين بأن المخالفين سيلاقون عقاباً صارماً .

وقع أمر دون خوان وقع الصاعقة على الأندلسيين الغرناطيين لأن أغلبهم التزم جانب الحيدار منذ البداية حتى أنهم عرفوا مع الزمن باسم « أندلسي السلام » . وزاد من قلق السكان الخشية من أن يكون دون خوان قد أعد لهم مصيراً مماثلاً لما حدث في سجن المدينة عندما ذُبح أكثر من ١٠٠ أندلسي ، فتوجه أعيانهم إلى دون خوان للتحقق من غرض جمعهم . ولكنه طمأنهم مشيراً إلى أن الهدف احصاء عددهم وحررهم في الوقت ذاته من مغبة عدم الإنصياع للذكراً الواضح . وبعد أن اطمأن الأندلسيون إلى قول دون خوان توجه الذكور من الفئات المحددة إلى الكنائس فدخلوها وأغلقت عليهم الأبواب تحت حراسة الجنود الخصصيين لذلك . ومع اطلاعه يوم الرابع والعشرين من حزيران أمر الأندلسيون بالخروج والإصطداف في طواير طوبلة ، وتوجهوا بعد ذلك إلى المستشفى الملكي تحت اشراف الجنود بقيادة دون خوان . لم يكن الأندلسيون على علم بما سيحدث لهم حتى تلك اللحظة ولكن حادثة وقعت في الطريق إلى المستشفى قدمت لهم شيئاً من المصير الذي ينتظرون . إذ أن جندياً لطم شاباً أندلسيَا يستحثه على الإسراع فالقطط الشاب حجراً وهو به على رأس الجندي فإندفع الجنود إلى الشاب وقطعوه بالسيوف أمام الجميع^(٢) .

(١) انظر : Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, (Boston), 1859, Book V, P 289.

(٢) أغلل كثير من المؤرخين الأسبان الأوائل (مثل مندوزا) الإشارة إلى نفي الأندلسيين ، أو حتى التطرق إلى المعاناة التي لقieronها على أيدي القشتاليين ، وربما كان كريباً من بين قلائل تناولوا الموضوع بشيء من التفصيل والموضوعة ولعل ذلك يعود إلى قضائه بعض سنوات حياته بين العرب : انظر المصدر السابق ، الجزء الثاني ، الصفحات ٤٣٧ - ٤٤٤ .

قام دوان خوان في المستشفى يشرف على فرز الأندلسين واستبعد منهم حوالي الألفين من العلماء والمهرة في الصناعة والزراعة والبناء ، بينما قسم الباقي إلى جماعات حدد لكل منها وجهة معينة في قشتالة الجديدة . وتوجهت بهم حراسات مشددة صبيحة الخامس والعشرين من حزيران إلى منفاهما بين أعدائهم . والتقديرات الخاصة بعد المتفقين في هذه المرحلة شديدة التفاوت ، ولكن أحد التقارير ، التي يقال أن موظفاً أعده يوم الفرز ، يضع العدد بحدود ... ٣٥ أندلسي . ويسبب سرعة تنفيذ مرسوم فيليب الثاني فان السلطة لم تكن على استعداد تام لتوفير الضيوريات البسيطة للمنفدين من طعام وماء ، ولذا فإن المعلومات تؤكد موت أعداد كبيرة منهم حتى قبل الوصول إلى وجهتهم ، بينما تشير معلومات أخرى إلى أن الجنود قتلوا أعداداً أخرى من الأندلسين ، وأجهز القشتاليون على عدد آخر من الأندلسين الذين حلوا بينهم دون رغبة أو موافقة . ولم يكن مصير الأطفال في غرناطة أفضل كثيراً من مصير المتفقين ، إذ أن المرسوم نص على أن تتولى الكنيسة رعاية جميع أطفال أندلسي غرناطة من هم دون سن العاشرة حتى توفر لهم النشأة النصرانية الصحيحة فانتزعهم الجنود من أماهاتهم وزرعوا على الكنائس في غرناطة وأماكن أخرى . وسمح المرسوم لنساء المتفقين البقاء في المدينة ليبيع ممتلكاتها ولكن مصيرهن غامض ولا تتوفر أية معلومات عنه . وررعا حدث والتتحقق أعداد منهن بازواجهن وابنائهن في المنفى ، ولكن ظروف الوضع تهم أن يكون العدد قليلاً . والأغلب أن معظم النساء بقين في غرناطة وأنحد الجنود بعضهن .

ولكن هذه لم تكن النهاية إذ أصدر فيليب الثاني مرسوماً لاحقاً في الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ١٥٧٠ قضى بترحيل جميع الأندلسين من مملكة غرناطة بلا استثناء ، ونظمت العملية وفق الخطوات التي اتبعت في عملية الترحيل الأولى بإشراف دون خوان ولكنها كانت من التعقيد بحيث اضطر دون خوان للإستعانة بجنود ريكويستس ودوق سيسه . وفي الأول من تشرين الثاني رحلت أول مجموعة إلى الشمال واستمر ترحيل الجموعات التالية لمدة زادت على الأربعين ، ثم لحقت بها مجموعات أخرى في فراتر ثلت . وشملت مناطق النفي مراكز مختلفة في المنشا والقشتالين القديمة والجديدة واسترمادورا وجليقية ، ولكن السلطات حرصت على ابعاد المتفقين عن مواطن الأندلسين في بلنسية ومرسية والمناطق الأخرى التي كان يسكنها إندلسيو أرغون الذين لم يشاركون في القتال نصرة لأهل الجنوب الأندلسي . وإضافة إلى النفي قرر فيليب الثاني مصادرة جميع ممتلكات المتفقين ، لتعويض ماؤنفقه من أموال على الحملات ضد الثوار وقدرت بحوالي ١٠٠ مليون دولار بعملة اليوم .

ويروي لين - بول نهاية الثورة الأندلسية الكبرى فيقول : « كان السبي والنفي المصير الذي آلت إليه من يقى حياً بعد الثورة ، ولكن عدد هؤلاء لم يكن كثيراً ... أولئك الذين أسرروا والثورة مشتعلة أصبحوا عييداً ، وسيق الباقون إلى النفي تحت حراسة الجنود بينما شددت الحراسات على المجرمات في التلال .. وكثير من المتفقين التعبسوا في الطريق جوعاً أو تعباً أو من الحر والبرد ، ويمكن آخرون من الوصول إلى أفريقيا حيث عانوا من الفاقة ولم يجدوا أرضاً يحروثها ، وبعدهم وصل فرنسا فقوبل بفتور الاستقبال رغم أن هنري الثامن وجد فيهم أدوات مفيدة لمكائنه في إسبانيا » .^(١)



حي المواركة
في مدينة
قلعه
أيوب

ب - توزع الأندلسيين بعد الثورة الكبرى :

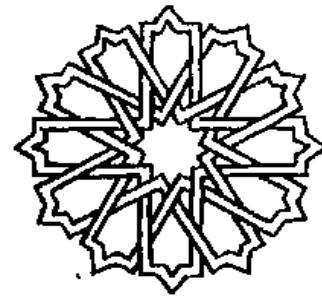
لاتتوفر أية احصاءات دقيقة لعدد السكان الأندلسيين في الجنوب قبل اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى . وهناك تقديرات تشير إلى أن عدد من يقى في مملكة غرناطة بعد الثورة الأندلسية الأولى كان

يتراوح ما بين ٢٠٠,٠٠٠ و٣٠٠,٥٠٠ شخص (أنظر الفصل الثاني - توزع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة) حتى بعد رحيل حوالي ٣٠,٠٠٠ شخص إلى المغرب وغيرها أثر صدور مرسوم سنة ١٥٦٢ . وفي المرحلة الأولى من نفي الأندلسيين خلال الثورة الأندلسية الكبرى ، قدر عدد المرحلين إلى الشمال بمحدود ٣٥,٠٠٠ شخص ، بينما قدر عدد المرحلين في المرحلة الثانية بحوالي ٤٠,٠٠٠ شخص ، وبقي في الجنوب بعد ذلك ما بين ٤٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ شخص بما يشمل الأندلسيين خارج مناطق القتال وقسم من النساء والأطفال الأندلسيين الذين عهد برعايتهم إلى الكنيسة ، بينما تمكّن عدد غير معروف من الأندلسيين من الفرار إلى العدو أو التزوح إلى فرنسا .

وبينما استمر عدد الأندلسيين في مملكة أرغون بنموه الطبيعي من إجمالي قدر في بداية القرن السادس عشر بحوالي ٢٣٥,٠٠٠ شخص ، فإن عدد الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في قشتالة في التاريخ ذاته قدر بحوالي ٤٠,٠٠٠ شخص ، وربما وصل إلى ٤٠,٠٠٠ شخص سنة ١٥٦٩ على أساس احتساب زيادة سنوية في عدد السكان بنسبة واحد باللغة ليتضاعف العدد مرتين كل ٧٠ سنة . ووفقاً لهذا الاحتساب الافتراضي فإن عدد الأندلسيين يمكن أن يكون تضاعف مرتين في كل مكان بحلول السبعينيات من القرن السادس عشر ، عندما بأن المعروف عن الأندلسيين كثرة انجابهم في فترة ما بين الثورتين ولعلهم يشتهركون في ذلك مع غالبية الأقليات . ولو افترضنا وجود منطقة نسبية في حساب عدد السكان على أساس الزيادة المذكورة ، فإن عدد الأندلسيين في قشتالة وصل في سنة ١٥٧٠ إلى حوالي نصف مليون شخص بعد أن أضيف إلى العدد الأساسي حوالي ٩٠,٠٠٠ منفي (بما في بذلك نساء التحقن بأزواجهن أو آبائهن أو ابنائهم بحلول نهاية شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها) ، وربما ارتفع العدد بعد ذلك أكثر نفي مجموعات أخرى من الأندلسيين الجنوبيين الذين قبض عليهم في أوقات لاحقة . وربما كان عدد المغتفين خلال الثورة الأندلسية الكبرى وإثرها يقترب من الرقم المشار إليه ، لأن من المعروف أن فيليب الثاني سمح لحوالي ٥٠,٠٠٠ قشتالي شمالي بالانتقال إلى الجنوب الأندلسي . ومع ذلك فإن هؤلاء لم يتمكنوا من سد الثغرة التي أحدها نفي الأندلسيين لأن حالة الجنوب ، ولاسيما مدينة غرناطة نفسها ، تدهورت بعد نفيهم وساد وضعها ، رغم أنها كانت تقدم الخدمات لحوالي ٢٠,٠٠٠ أندلسي بعد استسلامها سنة ١٤٩٢ ، وهو عدد كبير لمدينة مثل غرناطة في وقت كان فيه عدد سكان لندن لا يتجاوز ٥٠,٠٥٠ شخص .

هذه التقديرات تضع عدد السكان الأندلسيين في كل من أرغون وقشتالة وملكة غرناطة بعد القضاء على الثورة الأندلسية الكبرى بمحدود مليون شخص على الأقل (نصف مليون في أرغون ونصف مليون في قشتالة وما بين ٦٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ في مملكة غرناطة) ولكن يتوجب أن يضاف إلى هذا العدد المقدر أعداد كبيرة من الأندلسيين الذين تحولوا إلى عبيد ، أو جرى نفيهم إلى ممالك قشتالة في العالم الجديد . (أنظر نفي الأندلسيين المواركة) .

الفصل
الرابع



نفي الانسيين المواركة

١ - وضع الأندلسيين المواركة بعد الثورة الكبرى

بين استسلام غرناطة وإخماد الثورة الأندلسية الكبرى ٧٨ سنة لم يتوقف فيها اضطهاد الأندلسيين يوماً واحداً ابتداءً من عهد إيزابيلا وفرناندو إلى عهد كارلوس الخامس وابنه فيليب الثاني ، وشاركت السلطة الكنسية في التشديد على الأندلسيين بتشجيع شخصيات مثل توركيمادة وزمنير واسبيروزا ، ولم يلبث القشتاليون العاديون أن شاركوا السلطنتين العداء للأندلسيين لأسباب مختلفة منها قدرة الأندلسيين على الاستمرار تحت كل الظروف ، واستعدادهم للقيام ضد السلطة كلما ضاق الحصار عليهم حتى ولو كان الخصم شخصية دولية مثل فيليب الثاني . وباقرابة نهاية سنة ١٥٧٠ تمكنت قوات السلطة من إخماد الثورة الأندلسية الكبرى سوى في جبال الجنوب بعد قتل مايلقل عن ٢٠٠٠٠ شخص ونفي حوالي ٩٠٠٠ أندلسي وتحويل أعداد كبيرة إلى عبيد . ولم يبق مايدل على قيام الثورة الأندلسية الكبرى سوى رأس مولاي عبد الله بن أبيه الذي دبر انهزامي من جماعته اغتياله وأمر بتعليق رأسه على مدخل مدينة غرناطة ، حيث بقى هناك ثلاثة سنّة يذكر الأندلسيين بالنهاية التي تنتظرونها إن حاولوا تحدى السلطة مرة أخرى .

ولكن فيليب الثاني حين أمر بتغيير أندلسي الجنوب فإنه بذلك أنهى مشكلة مملكة غرناطة ولكنه خلق مشكلة أخرى في المدن والقرى التي نفي إليها الأندلسيون في قشتالة . عرف رعيته هناك على ازمة لم يسمع القشتاليون عنها الكثير ، وأثار بينهم وبين المنفيين العداوة حين اضطهادهم لمقاومة مواردهم الاقتصادية المحدودة مع اقلية كانت تعتبر مارقة على السلطة وشديدة العداء للكنيسة ومستعدة للتعاون مع أعداء قشتالة في كل الأوقات . ولم تكن المشاكل التي عانى منها الأندلسيون تلك المشاكل العادلة التي تتعرض لها الأقليات في كل مكان ، إذ كانت هناك دوافع سياسية ودينية وتاريخية واقتصادية مختلفة لعبت دورها المستمر في اذكاء الريبة والعداء بينهم وبين القشتاليين ، فلم يشعر الأندلسيون بالامان بين القشتاليين ، ولم يشعر القشتاليون بالطمأنينة ان وجد الأندلسيون بينهم . وكانت الحكومة والكنيسة تعملان على بقاء العلاقات بين الفترين على هذا النحو لكي تضمن استمرار الرقابة على الأندلسيين المواركة في كل مكان عاشوا فيه .

ولكن هذه الاختلافات الجوهرية بين القشتاليين والأندلسيين المواركة لم تكن الوحيدة التي فرقت بين الفترين ، إذ كان من الطبيعي أن يختلف الأندلسيون عن القشتاليين في أشياء كثيرة أخرى . وكان

الأندلسيون قد تخلوا عن ملابسهم التقليدية وتسموا بأسماء نصرانية وتزاوج بعضهم من قشتاليات أو العكس ، ولكن بقي للأندلسيين ما يميزهم عن غيرهم ولم يكن هذا بالمستحسن في وسط قشتالي . وبسبب تاريخهم الخاص ، أقبل القشتاليون على اللحوم ولا سيما المقددة منها وهو طعام ماتزال إسبانيا تشتهر به اليوم ، ولكن الأندلسيين ، بحكم نشاطهم الزراعي السابق ، كانوا يفضلون الأرز والخضروات والفواكه وينفرون من اللحوم المقددة الأمر الذي كان يثير احتقار القشتاليين لهم ويزيدهم عزلة وهذا الاختلاف في أنواع الطعام أوجد تفاوتاً في الأعمار بين القشتاليين والأندلسيين ، ولم يكن يعرف في ذلك الوقت تأثير نوع من الطعام على عمر الإنسان الأمر الذي دفع القشتاليين إلى الاعتقاد بأن الأندلسيين يزاولون السحر ولذا فإنهم يستأهلون سخطهم . والمعلومات المتوفرة عن تلك الحقبة من تاريخ الأندلسيين المواركة تشير إلى حبهم للمرح والاحتفالات . وكانوا يتقنون العرف على عدد كبير من الآلات الموسيقية ويهوون مصارعة الثيران^(١) فأثاروا بذلك نسمة الكيسة التي وجدتهم يفضلون قضاء الوقت في ممارسة هذه الهوايات على التعب في الكنائس .

ولكن حالة الأندلسيين المواركة في السنوات التي لحقت بالثورة الكبرى لم تكن على هذه الصورة دائماً . وحين حرمتهم السلطة من كتبهم كهرب الأخطاء في لغتهم العربية واضطروا مع الزمن لزيادة التخاطب بالقشتالية وعدم الجهل واستفشو المرض بينهم حين حرمتهم السلطة من المرافق العامة التي تعودوا عليها واجترتهم على قول القدرة التي اشتهر بها الأوروبيون في تلك الحقبة . ولم يكن وضعهم الاقتصادي بافضل من وضعهم الاجتماعي بين القشتاليين ، وكان المنفيون الجدد في عوز كبير بعد أن صادر فيليب الثاني جميع ممتلكاتهم وتحمّل عليهم أن يبدأوا في بناء حياتهم من جديد وسط محيط معاد لوجودهم . ولم يكن هذا سهلاً لأن السلطات المحلية منعت الأندلسيين المنفيين من مزاولة التجارة أو الاشتغال بالمهن فلم يبق أمامهم سوى العمل بفلاحة الأرض لصالح القشتاليين ، أو نقل البضائع على البغال والحمير ، أو الاشتغال بالتحميل في الموانئ وغيرها من الأعمال الوضيعة التي ابتعد القشتاليون عن أدائها واستغلوا وجود المنفيين بينهم لشغela . ولكن هذا لم يكن حال جميع الأندلسيين المواركة في قشتالة ، إذ بقي كثيرون منهم في الجنوب الأندلسي يفلحون الأرض أو يشتغلون في الصناعات اليدوية التي كانوا يشتغلون بها . وكان بين الأندلسيين في قشتالة التجار الصغار والحرفيون وغيرهم ، وإن كان الأندلسيون عموماً فقراء وأميين .

وصعوبة احتفاظ الأندلسيين المواركة بشخصيتهم الأندلسية المستقلة في قشتالة كانت تقارن مع أندلسي ارغون الذين تعموا بحرية نسبية ، نظراً لعدم اشتراكهم في الثورتين الأولى والثانية ولا تخاذهم جانب الحيد بصورة عامة . وبينما لم يكن الأندلسيون في قشتالة يتمتعون بآية أهمية خاصة نظراً لقلة عددهم

(١) هذه المعلومات جلت بعض المؤرخون على القول بأن جماعات من الأندلسيين اختعلت بالفجر الذي وقى على أوروبا في القرن الخامس عشر من المهد هرباً من السلطات ، وحملت بهم بعض العادات الأندلسية مثل الرقص والفناء اللذين يشتهر بهما الفجر الذين يسكنون المناطق القرية من غرب آنطاليا بما في ذلك بعض أحياء الشانن اليوم . انظر الفصل المعنون ، المنشودون ، في : Ortiz, Antonio Domingues. The Golden Age of Spain, Weidenfeld & Nicolson, (London), PP 162-172.

بالمقارنة مع القشتاليين ، فإن أندلسيي أرغون كانوا يشكلون أقلية كبيرة جدا ، وكان الشق الزراعي من الاقتصاد الأرغوني يقوم على اكتافهم ويساهم في رفع المستوى المعيشي في أرغون مقارنة مع قشتالة . والتأثير الكبير الذي فرضه الأندلسيون المواركة على الاقتصاد الأرغون سمح لهم بحرية أكبر في مزاولة حياتهم اليومية ، وغض طرف السلطة والكنيسة عن تصرفاتهم . حتى أن الأندلسيين في بلنسية كانوا يعرفون رسما « بامة النصارى الجدد من الأندلسيين في مملكة بلنسية »^(١) . والسبب المهم في هذه الحرية النسبية كان يعود إلى المردود الذي كان الأندلسيون يقدمونه . فالبلاء ورجال الكنيسة كانوا يسيطران على القسم الأعظم من الأراضي الأرغونية ، مثلهم في ذلك مثل البلاء والكنيسة في باقي مناطق شبه جزيرة إيبيريا^(٢) ، ولكن البلاء والكنيسة الذين كانوا يوظفون الأندلسيين حصلوا على مردود أعلى ، وكانت أرضهم أكثر خصوبة من غيرها . أما الآثرياء في المدن فكانوا يرون في هذا الوضع فائدة كبيرة لهم لأنهم كانوا يحصلون فائدة أكبر على الأموال التي كانوا يقرضونها للبلاء . وبوجود هذه الحركة التجارية النشطة كانت السلطة والكنيسة في أرغون مضطربة لتجاهل كثير من نشاطات الأندلسيين المواركة ، رغم تعارض هذه النشاطات أحيانا مع ما تريده الحكومة أو الكنيسة .

وما كانت أحوال الأندلسيين تستمر على حالها أثر نفيهم سنة 1570 لأن مرسوم فيليب الثاني لم يحدد أية مدة . ولابد أن ضعف شأن الأندلسيين في السنوات التي لحقت بالثورة الكبرى أدى إلى تخفيف الضغوط عنهم ، فأخذ قسم كبير منهم يغادر القرى والمناطق النائية التي نفي إليها ويتجمع في المدن القريبة ضمن أحيا خاصية عرفت بـأحياء المواركة . وأحيانا كانت السلطة تعيد توزيع الأندلسيين بعد تجمعهم ولكن ذلك لم يكن متبعا في كل حالة . وساهمت متابعة فيليب الثاني مع الفرنسيين والهولنديين والإنجليز والأتراك في توجيه كل قوى بمالكه لمغارعة خصومة في الخارج ، وبالتالي في تقليل الاهتمام بالأندلسيين . هذه الوضاع وأخرى غيرها أدت إلى قيام مدن كاملة في بلنسية ومرسية والمناطق المجاورة لمملكة غرناطة ضمت أندلسيين فقط ، بالإضافة إلى القسيسين وبعض المسؤولين الحكوميين . والجد الذي عرف الأندلسيون به مكن بعضهم من شراء الأراضي واستغلالها بانفسهم ، وتشغيل بعض القشتاليين أو الأرغونيين في بعض الحالات ، وظهرت طبقة صغيرة من متوسطي الدخل وبرزت بعض الأسر الغنية .

وهناك معلومات عن اشتغال بعض الأندلسيين بالتدريس ، وظهور أسماء البعض من اشتغلوا بالكتابة والتأليف والترجمة والاستكشاف وغيرها من الحقوق التي لا تملك تفصيلات دقيقة عن أصحابها . ولكن من المعروف أن كاسيدورو دي رينا (Casidoro de Reina) الذي أعد إحدى ترجمات الإنجيل ، كان من أصل أندلسي . وكذلك القسيس فراي الونسو (الونشو) وديل (Fray Alonso Gudiel) كان أندلسي الأب يهودي الأم ، ولم تردنا هذه الإشارة إليه لو لا أنه قدم للمحاكمة مع قسيس آخر يدعى لو

La nacion de los Cristianos Nuevos de Moras del Reino de Valencia (١)

(٢) أظهرت دراسة أعدت باسم فيليب الثاني أن قلة ضئيلة من المزارعين تحمل الأرض التي تعمل عليها ، بينما كانت الفلاحية العظمى تشتمل أجزاء لدى البلاء العلويين أو الأدية الرئيسية أو الآثرياء في المدن ، وكان عليهم دفع عدة أنواع من الضرائب .

الليوني (Fray Luis de Leon) بتأميم تفضيلهما ترجمة للإنجليز إلى العربية عن الترجمة القشتالية له . واشتهر أحد الأندلسيين الغرناطيين قبل ذلك باستكشافاته وهو حسن ابن محمد الوزاز الذي كان يعرف باسمه القشتالي يوهان ليو الأفريقي (Johannes Leo «Africanus») الذي عاش بين عامي ١٤٩٤ و ١٥٥٢ . ولابد أن كثيرون منهم عملوا وأبدعوا في أرغون وقشتالة ، دون أن تصلنا عنهم أو عن أعمالهم معلومات كافية . (١) .

إلا أن أيام السلم المعدودة التي مرت على الأندلسيين المواركة لم تكن تستمر تحت وطأة الضغوط الداخلية والخارجية التي تعرضت لها قشتالة منذ أواخر القرن السادس عشر . كانت الضربة تلو الضربة تنهى على إمبراطورية فيليب الثاني فيستجيب لها جسد الإمبراطورية ، وتظهر فيه الصنوع بسبب الحروب مع فرنسا وإنجلترا والأتراك وأعداء الإمبراطورية في العالمين القديم والجديد ، وكانت العناصر تتجمع لتهدم أمام القرار الأخير ببني الأندلسيين المواركة ، وتحقيق نصر لم تتمكن الإمبراطورية من المجازة في صراعاتها الخارجية قربة العهد .

٢ - أسباب نفي الأندلسيين المواركة

انتصار قشتالة سنة ١٤٩٢ في معركتها الأخيرة ضد الوجود الإسلامي السياسي أنهى ارتباطها بالماضي وفتح الطريق أمامها لتنصب دورها المعروف في أوروبا . وفي السنة ذاتها اكتشف العالم الجديد ووفرت ممالك قشتالة هناك الموارد التي قدمت لقشتالة الفرصة لاثبات وجودها أمام أكبر قوتين في ذلك الوقت وما فرنسا والأتراك ، قبل أن تندلع الحروب الدينية في قلب أوروبا وتتحول قشتالة حماية الكاثوليكية من حركات الإصلاح الديني المتعاظمة فيmania وهولندا وإنجلترا وغيرها من المناطق . ومع الوقت ثبات فيليب الثاني يعتقد أن على ملكته قيادة جميع أمم التصارعية تحت لواء القشتالية فخصبت له فرنسا وإنجلترا . إلا أن فرنسا لم تكن نداً جلياً فيليب الثاني فخسرت المعركة تلو الأخرى ، بينما تحكمت إنجلترا من الاستمرار في مقارعة قشتالة بالسر أحياناً والملاينة أحياناً أخرى ، ووجدت في الهولنديين الناقمين على ملك قشتالة حليقاً قوياً ولاسيما في السيطرة على البحار . إلا أن فيليب الثاني لم يكن بالرجل الذي يمكن أن تثنيه البحار عن محاولة القضاء على عدوته اللذوذة البرتغالية الأولى . ولذا أعد أسطولاً ضخماً من ١٢٠ سفينة حربية تحمل ٢٧,٠٠٠ رجل لاحتلال إنجلترا ، واتهأ أقوى مراكز أعداء الكاثوليكية ، وسيرو سنة ١٥٨٨ لتنفيذ تلك المهمة الحساسة . وهنا تجتمع عدة عوامل أدت إلى الخفاف الحملة؛ إذ هبت عواصف شديدة على القنال الإنجليزي ، وتمكن البحارة الإنجليز من إغراق بعض السفن في مناورات محدودة ، ولم يكن دوق مدينة شلونة بالقاد المناسب للحملة فقد الأسطول

(١) عرفت السلطات على خطوطها بالأعجمية سنة ١٣٩٥ في بلدة أجريدا (Agreda) فيها عدد من القرارات بالعربية تتضمن خططاً وأناشيد نبوية وقصص عرق تعود إلى القرن السادس عشر . والخطوط ، التي وجدت في لميورف بأحد الجدران ، موجودة الآد في مكتبة الأسكندرية الملكية برقم ١٨٨٠ . والظاهر أن بعض المواركة استعملوا خلال القرن السادس عشر بنسخ الخطوطات العربية القديمة ، أو في الترجمة ولكن المعلومات عن هذه النشاطات قليلة .

(الإمداد) ثلث سفن، ولكنها أكمل دورته حول الجزء البريطانية وعاد إلى قشتالة. ومحاولة فيليب الثاني تفيد غزو مماثل بعد ثمانى سنوات باءت بالفشل هي الأخرى، وأكتمل يأس فيليب الثاني بعد سنتين من الحملة الثانية عندما وجد نفسه مضطراً لإبرام الصلح مع فرنسا، وربما لعبت مهانة الصلح دورها في وفاة فيليب الثاني في السنة ذاتها.

مات فيليب الثاني ولكن المشاكل التي أثارها بقيت حية، وكان على ابنه فيليب الثالث أن يحلها. إلا أن الأخير لم يكن راغباً في الحكم فمهد إلى دوق ليورما إدارة دفة السلطات كما يشاء. غير أن متابعة قشتالة كانت أكبر من أن يحلها الدوق، فاستمر الإفلاس والتقهقر أمام أعداء قشتالة مما اضطر الدوق إلى السعي لإبرام الصلح مع إنجلترا سنة 1264، ثم مع الهولنديين سنة 1269 واتفق على إعلان هدنة مع الهولنديين تستمر 12 سنة في التاسع من نيسان، وهو تاريخ مهم لأنه توافق مع صدور مرسوم نقفي الأندلسين المواركة.

١ - الأسباب الاقتصادية :

كان اقتصاد قشتالة أول ما أظهر الصدوع الناجمة عن مغامرات فيليب الثاني العسكرية في أوروبا. وتراكم الديون دفع فيليب إلى وقف تسديدها سنة 1275 وإعلان إفلاس الخزانة. ولكن الإفلاس لم يستمر طويلاً وكانت السنوات اللاحقة من الثمانينات سנות خير على قشتالة مع تدفق الفضة المستخرجة من البيرو.

ووجود هذا الدخل المفاجئ شجع فيليب الثاني على استكمال مغامراته العسكرية التي وصلت إلى أوجها بالتحضير لغزو إنجلترا، وبلغت نفقات الحملة حوالي عشرة ملايين دوقة ذهبية. وخلال السنوات الأولى من التسعينيات ارتفعت النفقات العسكرية إلى 12 مليون دوقة سنوياً، ثم تابعت صعودها بعد ذلك. وأمام ارتفاع النفقات العسكرية تقلص دور فضة العالم الجديد بحيث كانت تعطي ربع المبلغ فقط، مما أضطر الحكومة إلى زيادة الضرائب^(١) والآثار من الاقتراض من المصرفين الألمان والإيطاليين. وفي سنة 1296، بات من الواضح أن الاقتصاد القشتالي لم يعد يتحمل استمرار تلك النفقات الباهظة وتوقفت السلطة عن الوفاء بديونها مما حمل فيليب الثاني على إعلان إفلاس الخزانة مرة ثانية.

وارتفاع النفقات الحربية توافق مع حدوث تغيرات جذرية في طبيعة الاقتصاد القشتالي سببها هي الأخرى أزمات اقتصادية خانقة. والحركة التجارية التي قامت بين قشتالة وارagon، وبين المستعمرات القشتالية في العالم الجديد اعتمدت على تغطية حاجات المستعمرات من الشيب والقمح والزيت والخمور والمواد الأخرى، التي سببت تحسن الوضع الاقتصادي في كل من قشتالة وارagon بشكل خاص،

(١) كانت السلطات تحصل باسم الكنيسة ثلاثة أنواع من الضرائب هي ضريبة الجهاد ضد المسلمين (Cruzada) وضريبة الدعم (Subsidio) أو ضريبة الغران (Exequado) وكانت حصيلة الضريبة الأولى فقط في تلك الفترة حوالي ٩٦٠٠٠ دوقة سنوياً.

وبعض الدول الأوروبية الأخرى بصورة عامة . ولكن مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر تمكنت المستعمرات من تغطية جزء كبير من استهلاكها المحلي ، فساد الكساد في قشتالة وارغون لأول مرة منذ اكتشاف العالم الجديد قبل ١٠٠ عام . ومع حلول الكساد تقلص نصيب قشتالة من الصادرات إلى المستعمرات فيما وراء البحار في وقت ازداد فيه نصيب هولندا . والمعروف أن الأسطول التجاري الهولندي كان ينقل الكمية الأكبر من البضائع إلى العالم الجديد ، ولكن استمرار الصدام مع قشتالة دفع فيليب الثاني إلى منع التعامل مع السفن الهولندية سنة ١٥٨٥ ، ثم أكد المنع ثانية بعد عشر سنوات من ذلك . ووجد الهولنديون أن استمرار التمسك بمصادر العالم الجديد يحتم عليهم السعي للاتجار مباشرة مع بعض المستعمرات في أمريكا ، وتمكنوا خلال مدة قصيرة من كسر احتكار قشتالة للتجارة مع العالم الجديد وإفساح المجال أيضاً لزيادة تعامل المجلترا مع تلك المستعمرات .

إذاء هذه التطورات السلبية بالنسبة للاقتصاد القشتالي حاولت حكومة فيليب الثاني وأبنه من بعده تشجيع حركة تجارية أنشط في مستعمرات العالم الجديد ، ولكنها وجدت أن من الصعب تحقيق ذلك بسبب طبيعة التغير السكاني هناك ، إذ طرأ انخفاض حاد على عدد السكان المحليين نتيجة السياسة العنصرية التي اتبعتها قشتالة . وبينما قدر عدد السكان المحليين المكسيكيين سنة اكتشافها في ١٥١٩ بحوالي ١١ مليون نسمة ، فإن العدد انخفض في نهاية القرن السادس عشر إلى حوالي المليونين فقط ، ولعب ذلك دوراً مزدوجاً في رفع كلفة منتجات العالم الجديد وفي خفض حجم الاستهلاك . وإضافة إلى كل هذه العوامل تعرضت قشتالة في نهاية القرن المذكور لجفاف خطير ، وتبع الجفاف انتشار الطاعون في الشمال سنة ١٥٩٦ وامتداده إلى الجنوب بعد ذلك ، وبحصد الوباء سنتي ١٥٩٩ أو ١٦٠٠ حوالي ١٥ بالثلث من السكان فدب الذعر وارتقت الأسعار ، وزلت بالاقتصاد ضرورة عنيفة استمر تأثيرها في السنوات اللاحقة . وخلال هذه الحقبة السبعة كان عدد متزايد من القشتاليين يرى في الأندلسيين سبب الشدائ드 التي لحقت بهم ، وصعب على هؤلاء وجود المواركة بينهم يقاسونهم المصادر القليلة المتوفرة . وحتى عندما تحسنت التجارة مع العالم الجديد فيما بعد ، ووصلت أوجها سنة ١٦٠٨ فإن استفادة القشتاليين كانت قليلة لأن معظم البضائع المنقوله كانت من مصادر أجنبية . واستمر البحث عن « كبش فداء » لكل متاعب قشتالة الاقتصادية في صورة الأندلسيين المواركة .

ب - الأسباب الدينية :

لعبت الكنيسة القشتالية دوراً حاسماً في حشد طاقات المالك الشمالي ضد الأندلس على مر قرون الصراع بين النصرانية والإسلام ، ولم يتوقف دورها بعد سقوط غرناطة وانتقال الحرب إلى العدوة في منتصف القرن الثالث عشر وبعده . وبما أن قشتالة كانت تقسم إلى مجتمعين أساسين : أحدهما عسكري والثاني كهنوتي ، فكان من الطبيعي أن تستمر الكنيسة في دورها لنصرة العسكرية القشتالية أيام كارلوس الخامس وفيليب الثاني ومن تلاميذه في حكم إسبانيا . وعندما كان فيليب الثاني يعد الحملة ضد المجلترا سنة ١٥٨٨ ويسير الجيوش ضد فرنسا والألمان والهولنديين ، كانت الكنيسة تعمل من

جهتها لتعبئة الناس لهذه الحروب التي اعتبرتها الكنيسة حرباً مقدسة ضد البروتستانت أعداء الدين الكاثوليكي ، وبالتالي أعداء البابوية والكنيسة القشتالية . إلا أن حملة الإرمادا لم تنجح ، ولم تتمكن قشتالة من دحر الفرنسيين أو تحقيق انتصار حاسم على « المراطقة » في المانيا وهولندا ، ولذا فإن الكنيسة انهمكت في البحث عن أسباب هذه الفزاع .

ودراسة التاريخ تعطي الانطباع بأن الأمم المهزومة توجه نعمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفسي المطلوب للتغلب على روح الفزع ، أو تغرق في الذلة وتضي في طريق الانحلال الخلقي ، أو تلجم إلى موجة من الورع والتrepid وتعيق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية . وهذا ماحدث في قشتالة بعد هزائم نهاية القرن السادس عشر ، حين بدأت الكنيسة تبشر بدعة شاملة للخلاص من الذنب والعودة إلى الكنيسة ، وتنظر إلى المهزوم على أنها إنذار بنكبات أفحى وعقاب على ابعاد الناس عن دينهم وخرجت الكنيسة بعد الهزائم لتقول إن أسبابها وجود عناصر في قشتالة تدعى النصرانية جهراً وتضم الإسلام . وتقول إن طرد اليهودية من إسبانيا لم يكتمل بعد ، لأن أعداداً منهم بقيت في البرتغال التي ضمها فيليب الثاني إلى مالكه بالقوة سنة 1580 ، وإن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلهي على قشتالة . وبارتفاع عدد المصائب التي تعرضت لها البلاد في آخر ذلك القرن ، مثل الأزمات الاقتصادية وانتشار وباء الطاعون ، كانت الكنيسة تضم إلى صفوفها مؤيدين جددًا نادوا بنفي الأندلسين المواركة إذا أريد لقشتالة أن تحقق النصر الذي تريده لنفسها وللكنيسة .

« كيف يأمل المرأة أن يهدى إلى طريق السيد المسيح شعباً عبيداً قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرناً كاملاً ، وما يزال مخلصاً لقراته كإخلاص العرب في أفريقيا ؟ الرهبان الذين انيطت بهم مهمة تعلم (الأندلسين المواركة) مبادئ الكاثوليكية كانوا يعرفون تمام المعرفة إن المواركة ، وإن مارسوا طقوس النصرانية ، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراعاة يوحينها لهم الخوف من محكم التفتيش . فمثلاً حين يكون عليهم الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف ، فإنهم كانوا يقدمون أنفسهم بطريقة عالية الانظام ، ولكنهم لا يعترون بارتکاب أية ذنب . ولم يعرف عنهم أنهم توجهوا إلى القساوسة يطلبون المساعدة حين يمرض أحدهم خوفاً من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية ، ولذا تستروا على مرضاتهم وعرض الجميع لموت مفاجيء كما كانت الأسرة تدعى وهي تذكر . أضف إلى ذلك أن عددهم لم ينقص منذ أن طاردهم فيليب الثاني خارج مملكة غنطاء ، بل حدث العكس وا زدادوا عدداً لأنهم امتهنوا عن اللحاق بالجيش أو حتى الانخراط في خدمة الكنيسة ، وأكثروا من انجذاب الأطفال وربوهم على كرو النصرانية » (١) .

Defourneaux, Marcellin. Daily Life In Spain In The Golden Age, George Allen & Unwin Ltd., (1) (London), 1970, P 19.

والنص المشار إليه من وصف لرحلة فرنسي يدعى (Antoine de Brunel) زار إسبانيا سنة 1655 وضمن مشاهداته في رسالة أسمها Revue Hispanique, Vol. XXX, (1914), PP 119-376. والنص الأصلي موجود في : Voyage d'Espagne)

وإذا كان انتشار الطاعون دعماً إضافياً لرأي الكنيسة بالعودة إلى التقوى في زمن لم يعرف الناس فيه أسباب الوباء ، فإن وجود قشتالة في وضع يجبرها على ابرام الصلح أو المهدنة مع المولنديين والإنجليز المراطفة كان أكبر من أن تتحمله الكنيسة . واشتدت في بداية القرن السابع عشر الحملة على كل من كانت الكنيسة تعتقد أنه السبب الخفي أو الظاهر لصائب قشتالة . وكما توفرت شخصية مثل توركيمادة لمارقة اليهود في قشتالة ، وشخصية مثل زميز لاضطهاد الأندلسيين في مملكة غرناطة ، فقد توفرت أيضاً شخصية أخرى تبنت الحملة على الأندلسيين في بلنسية تمثلت في خوان دي ريبيرا (Juan de Ribera) رئيس أساقفة بلنسية الذي عاش بين سنة ١٥٣٣ و ١٦١١ ، ومات في السنة الثانية من عملية نفي الأندلسيين المواركة .

جـ - الحالة العامة :

كان حظ الأندلسيين أن تتحملهم قشتالة أسباب إخفاقها على جميع الجبهات ، لأنهم كانوا في متناول اليد ، ولأنهم كانوا أقلية تتمنع بنفوذ سياسي ضئيل جداً ، ولأنهم كانوا عموماً فقراء عاجزين عن مد الحكومة ولو الأخرى بالمال الذي تريده ، ولأنهم أصرّوا على شخصيتهم المستقلة في وجه كل الضغوط التي استمرت أكثر من قرن من الزمن . وعندما كان الأمر يتعلق بالأندلسيين فإن التاريخ القشتالي كان يعيد نفسه ، فكانت الخاوف القومية والدينية والاجتماعية تجد متفسها في اضطهاد الأندلسيين ، وكانت تطورات آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، تذكر كثيراً بوضع قشتالة في آخر السبعينيات من القرن السادس عشر . فمتأذب قشتالة مع المولنديين والإنجليز لم تنته ، وأصبحت أرغون ثانية من أصعب الممالك التابعة لقشتالة ، وتوج ذلك باعلان الثورة هناك في سنتي ١٥٩١ / ١٥٩٢ ، ولم يكن هناك حل سوى تسخير الجنود إلى أرغون وقمع الثورة في مدينة سرقسطة . وبما أن العمليات العسكرية كانت مستمرة مع الأتراك والساحل المغربي ، فقد كان من الطبيعي أن تثار بين الحين والآخر مسألة مساعدة الأندلسيين المواركة للأتراك ، أو سكان العدو ، ضد العدو المشترك المتمثل في قشتالة .

وفي تلك الحقبة أيضاً من تاريخ قشتالة كانت المضاعفات النفسانية للهزائم التي حاقت بقشتالة تفوق بإضعاف التأثير الفعلي لتلك الهزائم . ووُجد القشتاليون أن الحروب التي قادتهم إلى القمة تقدّمهم ثانية إلى الهاوية ، وربما لم يكن بين جميع الممالك التي خضعت لقشتالة مملكة تعرضت لأزمات سياسية واقتصادية شبه مستمرة مثل قشتالة ذاتها . وبينما تحسن وضع تلك الممالك إلا أن قشتالة استمرت تعاني من مشاكلها القديمة . وكان عهداً كارلوس الخامس وفيليب الثاني ملوكين بالانتصارات المهاطلة والهزائم المهاطلة ، ولكن الأب وابنه تمكناً من المحافظة على الإمبراطورية وتوسيع رقعتها كلما سُنت الفرصة . وقبل أن يتعرف فيليب الثاني أبلغ أحد رجال بلاطه بأن كل ما يخشى أن يكون ابنه فيليب الثالث محكوماً لاحقاً . وهذا ما حدث عندما تسلّم دوق ليروما الحكم الفعلي واشتهر بأنه أعظم لص في إسبانيا ^(١)؛ وعرفت قشتالة في عهده مهاتيرتين رئيسيتين : الأولى عندما قرر ابرام الصلح مع إنجلترا، والثانية عندما توصل إلى هدنة طويلة الأجل مع المولنديين ، ووُجد الكثيرون في هذين الاتفاقيين خضوعاً كاثوليكياً من حامية الكاثوليكية للبروتستانت .

كانت هذه التطورات كافية لتفقد قشتالة توازنها الذي قام على تحقيق الانتصار تلو الآخر . وكانت دافعاً للتوقف والتفكير في حال قشتالة . وكانت بداية العجوء إلى الإيمان بقدرة الأحداث وعبث الأيام كما صوره بعض أهم أدباء قشتالة . ظهرت في هذه الفترة شخصية عمان الفراش^(١) المتنتقل دائماً من مكان لآخر يعيش ليومه دون الحاجة لمعرفة ألم التفكير في الغد . وظهرت شخصية دون كيخوتي دي لامانشا في سنة ١٦٠٥ كما رسمها سيرفانتيس (سيرفانتيس) : عجوز يحارب العملاقة وطواحين الهواء وسط جو من الفروسيّة الخيالية والأعداء الخاليين ، ويطل في زمن لا يحتاج إلى بطولة . وكانت تلك الفترة فترة تكشف الحقيقة . الحقيقة بأن قشتالة كانت فقيرة رغم الفضة التي تتدفق عليها من العالم الجديد ، ضعيفة رغم اتساع مالكها المائلة ؟ أول من يحس بالكونارث النازلة بها وأخر من يستمتع بالجهد الذي بحثت عنه ، أول من زرع وأخر من حصد . ومن خلال بحث قشتالة عن الحقيقة في بداية القرن السابع عشر كان يتضح للكثيرين تدلي الروح المعنوية ، وبروز حاجة هائلة لتحقيق انتصار ما .

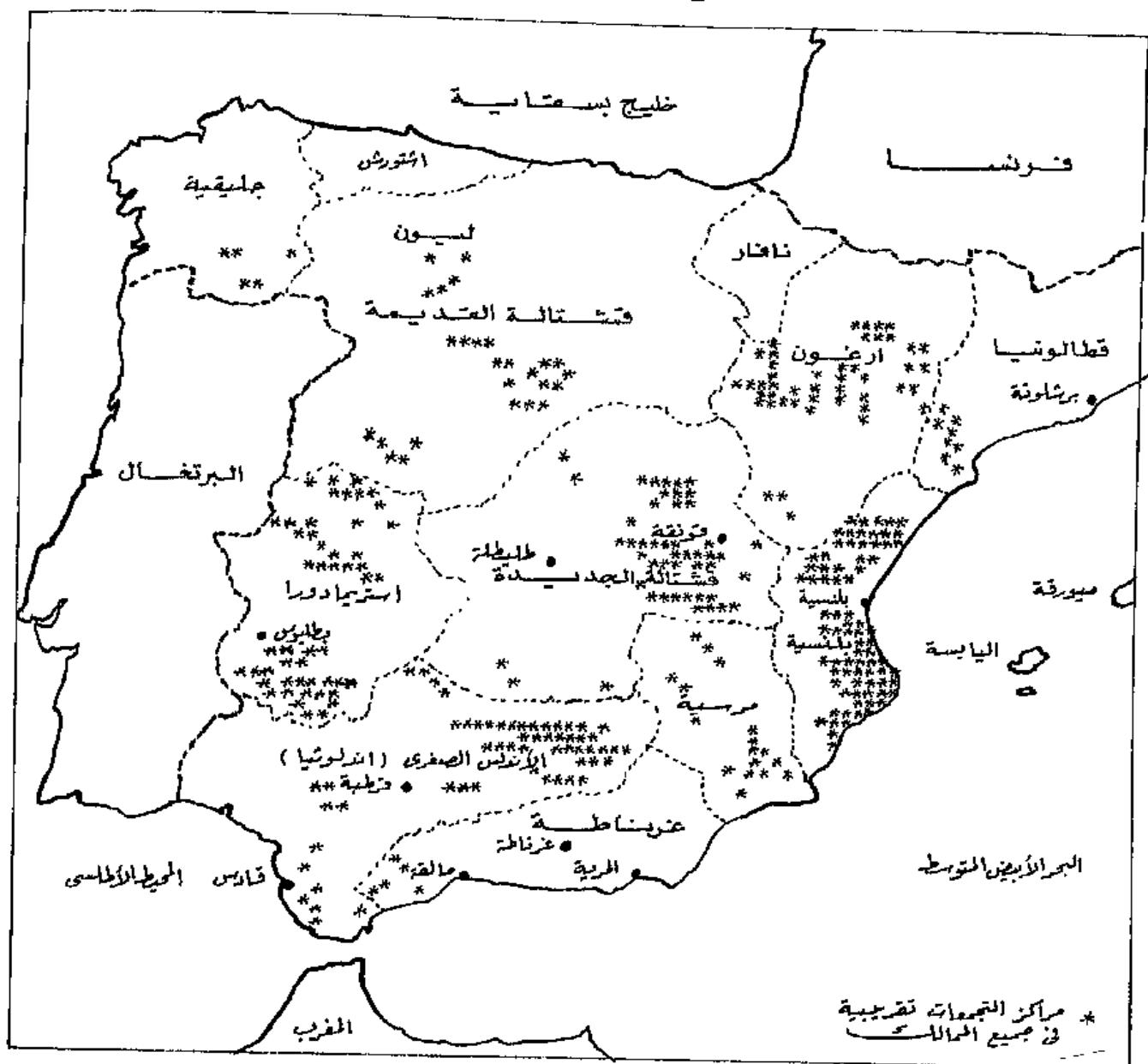
وتصور كثير من القشتاليين أن نفي الأندلسيين المواركة سيكون ذلك الانتصار الذي يعيد إليهم الشعور بالعظمة ، ويرفع من معنوياتهم المابطة . وهكذا سعت قشتالة لتحقيق انتصار داخلي حين عجزت عن تحقيقه في الخارج وكان الرأي العام القشتالي أكثر من مهياً لتحقيق هذا الانتصار ونفي الأندلسيين .

وخلال عملية إعداد لنفي الأندلسيين أرتفعت بعض الأصوات منهية إلى خطورة مثل هذه الخطوة . ولكنها كانت أصواتاً قليلة وكانت المشاعر متضاربة: «وقف البعض موقف إدانة لهذه القسوة المتطرفة التي كانت تبعد شعباً بأكمله عن موطنها الأصلي . ولكن آخرين اعتقدوا هذا العمل (نفي الأندلسيين المواركة) الذي لم يظهر فقط تقوى ملوكهم الكاثوليكي (فيليب الثالث) ولكنه أيضاً خلص إسبانيا من هؤلاء النصارى المزيفين الذين كان أجدادهم سادة إسبانيا لعدة قرون ، بينما استمروا في تعاملهم الخفي مع الأفارقة والأتراء والأعداء الآخرين للملكية . متقددو مرسوم فيليب الثالث ومستشاريه كانوا يقولون أن الأسبان استمروا قروناً عديدة في السماح للأندلسيين العيش بينهم في أرض استعادوها وممارسة دينهم المحمدي .

وكانوا يقولون أيضاً إن الأسبان سمحوا للأندلسيين بإستغلال الأرض والقيام بأعمال مختلفة لم يعد النصارى يعتادونها ، لأن الأسبان كانوا شغوفين بشن الحرب .. أولئك الذين تبنوا هذا الاتجاه كانوا يعتقدون أن من غير الصواب أن ينزل عقاب شامل بدولة ، خرجت منه وهي أكثر ضعفاً وأقل صلاحاً ، مالم يكن مثل هذا العقاب دافع قوي . ولكن الذين حبوا مثل هذا المرسوم كانوا أكثر عدداً واعتبروا القرار بطلانياً كما هو صائب . وبينما كان هؤلاء يقررون بالشروع التي يمكن أن تتحقق بأسپانيا نتيجة القرار ، فإنهم كانوا يرون في هذه الشروع ثناً لا يمكن مقارنته مع الأذى الذي يهددهم ما استمر الأندلسيون المواركة يعيشون في المملكة . ^(٤) .

(١) الشخصية من إبداع المؤلف الأسباني Mateo Aleman (١٥٤٦ - ١٦١٠) الذي وضع رواية أسلاماً سيرة عمان الفراش Guzman de Alfarache مرآة للحياة الإنسانية أو الأندلسي استقر بعض أحداثها من ملاحظاته خلال مساعدته والده الذي كان جريحاً في سجن أشبيلية . ولكن المؤلف ذاته كان وفياً لشخصية عمان الفراش وأمضى قسماً من حياته مسكوناً بورجل . إلى المستعمرات القشتالية في جزر الهند الغربية بحثاً عن المغامرة ومات في المكسيك .

(٤) انظر المصدر السابق من ١٩ ، ١٨ .



٣ - نفي الأندلسيين المواركة

كانت حكومة دوق ليروما متربدة في كل شيء تقريباً، باستثناء نفي الأندلسيين المواركة من البلاد وتحقيق مطلب جماعي يمكن أن يجعل الأنظار عن المفاوضات التي بدأت مع الهولنديين، سعياً وراء هدنة تستمر ١٢ سنة، بعد أن عجزت الحكومة عن تحقيق أي انتصار عسكري على «الهراطقة» الهولنديين أو الإنجليز. وأخطأت حكومة فيليب الثالث في جميع حساباتها تقريباً باستثناء اختيار تاريخ صدور مرسوم نفي الأندلسيين إذ كان يوم التاسع من نيسان سنة ١٦٠٩ موعد سريان معاهدة الهدنة مع الهولنديين ولكن جميع القشتاليين يذكرونها على أنه اليوم الذي قررت فيه حكومة ليروما طرد الأندلسيين، وأسدال ستار على صراع مع المسلمين استمر منذ سنة ٧٧٧، أو نحوها دون أن تكلف نفسها عناء الدخول مع الأندلسيين في حرب لأن وضع الأندلسيين لم يكن يوهمهم لأية مقاومة تذكر نتيجة أكثر من قرن من الإضطهاد والملحقة والمراقبة الدائمة.

ولكن حتى حكومة ليروما كانت بحاجة للذرية تستند إليها لتسويغ قرار نفي الأندلسيين، ولذا فقد روجت السلطة أن الأندلسيين المواركة في مملكة بلنسية تعهدوا لأهل المغرب بتوفير ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، فإذا تمكّن هؤلاء من إرسال عشرين ألف مقاتل فقط بغيةاحتلال المملكة. كانت الذريعة هذه تذكر بما روجته السلطة أيام فرانثو الخامس، ثم في عهد فيليب الثاني قبيل اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى، ولكنها كانت كافية لإقناع عامة الناس بإن الخاطر التي يمثلها الأندلسيون حقيقة، وتحتاج إلى حل جذري. بينما عمد بعض الأدباء والمفكري القشتاليين^(١) إلى التركيز على موضوع الريبة من الأندلسيين والإعداد النفسي لتفهمه ومساعدته في ذلك عدم إثارة قرارطرد لأية مناقشات في الوسط الحكومي، وإن لم يكن ذلك مستهجناً في حكومة فاسدة يديرها دوق ليروما ويترעםها ملك ضعيف مثل فيليب الثالث.

أما وقد وضعت الحكومة الخطوط العامة لنفي الأندلسيين فلم يكن عليها سوى الشروع بتنفيذ مرسوم النفي الذي تميز بالشمولية والصراحة. وتقرر أن تبدأ العملية بالأندلسيين المواركة في مملكة بلنسية لأنهم كانوا يشكلون فيها تجمعاً كبيراً، وبحقها من أن يتمكن هؤلاء من تعبئة قواهم ضد السلطة إذا حدث وأختاروا الحكومة مجموعات أندلسية أخرى لتكون أول المفبرين. يضاف إلى ذلك أن السلطة كانت تعتمد في بلنسية على شخصية متنفذة حملت لواء الدعوة لنفي الأندلسيين قبل فترة طويلة من

(١) ألف المسرحي الأساني المعروف لوري دي، فيما مسرحية بعنوان «ملك بلالمملكة» بطلها ضابط (Alferez) يدعى الرقصو دي، كوتيروس (Alonso de Contreras) وهي تروي معاراته في جزر الهند الغربية والبحر الأبيض المتوسط وقشتالة. فهي سنة ١٥٧٣ أمر الضابط بطبع المقالين وسوقهم للإشتراك في الحرب ضد البرتغال، وتوقف في بلدة تدعى هرناث (Hornachuelos) إذ كان جميع سكانها من المواركة باستثناء القسيس. وعلى عادة تلك الفترة أقام الجنود في مازل السكان وقام بعضهم في الليل ببحث عن مسم سريع ففجروا على توأيت فتحورها فوجدو فيها بندق وذخيرة. ويهدو أن الرقصو حصل على رشوة لقاء سكته ولكنه اعتقل سنة ١٦٠٨ واستدلت إليه جهة محاولة قيادة المواركة لإعلان الثورة. انظر قصة الضابط في:

Autobiografías de Soldados, Estudio Preliminar, J.M. De Cossío, Biblioteca de Autores Españoles, Vol. XC, (1956).

صدر مرسوم التفويت ، وهي شخصية خوان دي ريبة رئيس أساقفة بلنسية ، الذي اشتهر بإسم « مضطهد المواركة »^(١). وحالما استكملت الإجراءات على الورق ، أوفد دوق ليرما مسؤولاً يدعى دون أو غسطين دي ميشيا (Don Augustin De Mexia) إلى بلنسية للإشراف على الخطوات العملية للتفويت .

ولانعرف الكثير عن نوع المراسلات التي جرت بين الدوق وميشيا منذ وصوله إلى الساحل الشرقي ، ولكن الظاهر أن المسؤول فوجئ بالجتمع الهائل الذي شكله الأندلسيون هناك . فين سنة ١٥٥٣ و ١٥٦٩ ازداد عدد الأندلسين في المناطق الشرقية بنسبة ٧٠ بالمائة مقابل زيادة بين الأرغونيين قدرت بنسبة ٤٥ بالمائة فقط ، ولذا لم تكن مملكة بلنسية تحمل الطابع الأندلسي في كل شيء فقط ، ولكن الأندلسين كانوا أغلبية فيها وكان النصارى هم الذين يعيشون في تجمعات محدودة بينهم . والظاهر كذلك إن هذه الحقيقة لم تغير من رأي الدوق إذ أصر على نفي أندلسي بلنسية قبل الانتقال إلى الأندلسين في باقي ممالك قشتالة وارغون وغرناطة أو الأندلس الصغرى (andalusia) . وحتى تلك المرحلة كان شعور الكثير من الأرغونيين بأن مرسوم التفويت لن يطبق ، أو أنه لن يطبق بمحاذيره ، على الأقل وهكذا بدأ الرأي العام الأرغوني في التبدل مع الإحساس بإن حكومة ليرما عازمة على نفي جميع الأندلسين ، وظهرت حركة معارضة قوية تزعّمها رئيس الأساقفة ذاته .

ولذا كان موقف خوان دي ريبة يدعو للدهشة ظاهراً ، فإنه ليس كذلك في باطن الأمور ، إذ أن واجباته كزعيم ديني كبير في مملكة بلنسية كانت تصطدم مع مصلحته مثمناً عاماً على أملاك الكنيسة في المملكة ، يعتمد في دخله الأكبر على الجهد الذي يبذله الأندلسيون في استغلال الأرضي التابعة للكنيسة . وكان أيضاً موزع الولاء بين مالريده العامة المؤيدون لنفي الأندلسين ، ومايريه البلاط الذين كانوا يوظفون العدد الأعظم من الأندلسين في أراضيهم ويعتمدون عليهم للحصول على الجزء الأكبر من دخلهم . والتجربة التي عاينها الأرغونيون في مملكة غرناطة أقنعتهم بأن وجود الأندلسين مزارعين محترفين يعني استمرار الثروة القومية التي كانت تعتمد على الزراعة . وحدث في الماضي إن أحد القشتاليون الأرضي الأندلسية الحية بعد طرد الأندلسين منها ، ولكن هؤلاء لم يتمكنوا من استغلالها فباعوها بأبخس الأثمان وعادوا من حيث أتوا ، ولذا فإن نفي الأندلسين من بلنسية سيؤدي إلى نتيجة مماثلة ، وسيخسر الجميع بسبب ذلك لو ترك الأمر يومها للكنيسة وللبلاد ليتقى الأندلسيون حيث أقاموا ولكن قرار نفي الأندلسين تحول إلى موضوع سياسي شامل لم يقتصر على بلنسية أو ارغون . وحاول ريبة اقناع ميشيا بترك أندلسبي بلنسية وارغون ونفي باقي الأندلسين ولكن الأخير لم يكن يملك مثل هذا الخيار . واقتراح عليه التوجه سوية إلى بلاط فيليب الثالث لاستسمانه استبقاء الأندلسين في الساحل الشرقي إلى حين استكمال نفي الأندلسين في الملك الأخرى ، ولكن فيليب الثالث لم يكن راغباً في التدخل في الشؤون السياسية لمالكه . واعتذر دوق ليرما عن الأتحد برأي ريبة ، وأمر بتنفيذ عملية التفويت على الفور .

Spain, The Mainland, Been, Great Britain, P 409.

(١)

وفي شهر أيلول من سنة ١٦٠٩ وصل إلى ميناء بلنسية ٦٢ قادساً و١٤ غليوناً أُقلت حوالي ثمانية آلاف جندي لتنفيذ مرسوم نفي الأندلسيين ، ونودى على جميع الأندلسيين في المدينة البقاء في بيوتهم لمدة ثلاثة أيام حتى تصدر لهم أوامر أخرى ، وحذروا بأن الخالفين سيقتلون على الفور . وبينما التزم الأندلسيون بيوعهم كانت السلطات البلدية تجري مشاوراتها مع ميثا وغيره من المسؤولين الذين أنيط بهم تنفيذ قرار النفي ؛ بشأن إعادة النظر في القرار أو السماح باستثناءات لوقف المزاح الفوري الذي سيلحق بالمملكة إذا نفي جميع الأندلسيين . وخلال هذه الفترة القصيرة بدأت غالبية من الأرغونيين بإعادة النظر في صواب قرار النفي الذي طلما تمسعوا له لأن الأندلسيين لم يسهموا في رخاء الكنيسة والبلاط فقط ، وإنما كانوا يوفرون للسكان الأرز والسكر والدقيق والمأード الغذائية الأخرى . وبعد مداولات مطولة تقرر أن يسمح لستة مائة فقط من الأندلسيين بالبقاء حيث كانوا ونفي الباقين . وإذا كان هذا الاستثناء أفضل ما يمكن أن يحصل عليه القائمون على بلنسية ، فإنه لم يكن مقبولاً لدى معظم الأندلسيين .

نصت الاستثناءات على استبقاء الأندلسيين الذين لم يمارسوا أية عادات عربية أو إسلامية خلال السنتين الماضيتين . وسمح أيضاً لجميع الأطفال من لم تتجاوز أعمارهم الرابعة البقاء . كما سمح لجميع الأطفال من هم دون السادسة من العمر البقاء إذا كان أبوهم نصرياناً مع السماح لأمهاتهن إن كانت من المواركة البقاء معهم . وإذا كان والد الأطفال من هم دون السادسة أندلسياً فإن عليه الرحيل مع أولاده إلا إذا كانت الأم نصرانية قدية فيمكها عند ذلك البقاء والاحتفاظ بأولادها ونفي الوالد الأندلسي فقط . كانت الشروط في ظاهرها محددة ولكن الفرصة تركت لكي يستفيد العدد الأكبر منها لاسيما وأن عقوبة مخالفة هذه القواعد كانت العمل في القواديس مدة ست سنوات . وفي هذه المرحلة كانت مخاوف الأندلسيين تزداد حدة ولم يكن وجود ذلك العدد الكبير من الجنود في بلنسية يبعث على الارتياح فقد سبق وحدثت عدة مذابح راح ضحيتها أندلسيون كثيرون في مناطق أخرى من قشتالة أثناء تطورات لم تكن أهم من حدث اليوم بمنفي الأندلسيين . وربما لعبت هذه المخاوف وتطورات أخرى دورها المهم في انتقال الأندلسيين البلنسين من مرحلة محاولة تقديم الرشاوى للمسؤولين للسماح لهم البقاء في المملكة إلى مرحلة القبول بالأمر الواقع والرحيل عن أرضهم . وربما كان وصول الجنود والسفن لترحيل الأندلسيين بالقوة عاملًا حاسماً كذلك في اقتناع الأندلسيين بأن وجودهم في مثل هذا الوسط المعادي لا يتأهل كل العنااء البذول . وإن تمكنا من البقاء اليوم فإن القشتاليين قد يقررون نفيهم غداً . وربما اقتنعوا في تلك اللحظة بأن النفي أفضل من العيش في مكان لا يمكن التكهن بما سيفعله سكانه النصارى بهم . ومهمماً كانت طبيعة الأفكار التي جالت في خواطر الأندلسيين في ذلك الوقت ، فإن من المؤكد إن قسماً غير معروف العدد منهم أصر على النفي ، ونعرف ذلك من وجود عدة إشارات لأن المسؤولين انتقلوا إلى نقطة معاكسة تماماً وراحوا يحاولون اقناع أندلسيي بلنسية بالبقاء . وحاول الأندلسيون استغلال هذا الانقلاب فعرضوا الموافقة على البقاء واستمرار العمل في الحقوق والمزارع إذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم العربية ودينهم الإسلامي دون أية مضائق . وسعى دوق غندة (Gandia) للحصول على موافقة فيليب الثالث لهذا المطلب ، ولكن الأخير رفض ذلك ولم يعد هناك مناص من الرحيل .

تلك كانت لحظة الحقيقة التي تأجلت طويلاً . ومن وجد من الأندلسيين البلنسيين فرصة ليع ما يملكونه قبض مبلغًا لا يذكر ، ومن لم يجد تلك الفرصة خلف رواه الشيء القليل الذي جمعه في حياته أو ورثه عن أبيه . ولابد أن الفوضى التي عممت في تلك الأيام السوداء كانت فرصة طيبة للنهب والاقطاع وإنكار الديون ، سبق الأندلسيون بعدها إلى الميناء ونقلوا إلى الساحل المغربي . وكانت تلك بداية كارثة كبيرة وحزن عميق ولكن ما كادت صدمة الرحيل تخف تدريجياً ، حتى حل محلها شعور بالخالص . بالإمكان بعد اليوم ارتداء الملابس التي يفضلونها . بالإمكان الاغتسال حين يشعر المرء بحاجة لذلك . بالإمكان القيام بكل ما حرموا القيام به منذ سنة ١٥٠٢ ، دون أن يكون مصيرهم السجن أو التعذيب في أقنية حاكم التفتيش . كانت لديهم الخبرة ، وإن تمكنا من الاستمرار في قشتالة وارغون رغم كل الضغوط فيما كان لهم الاستمرار في أي مكان .

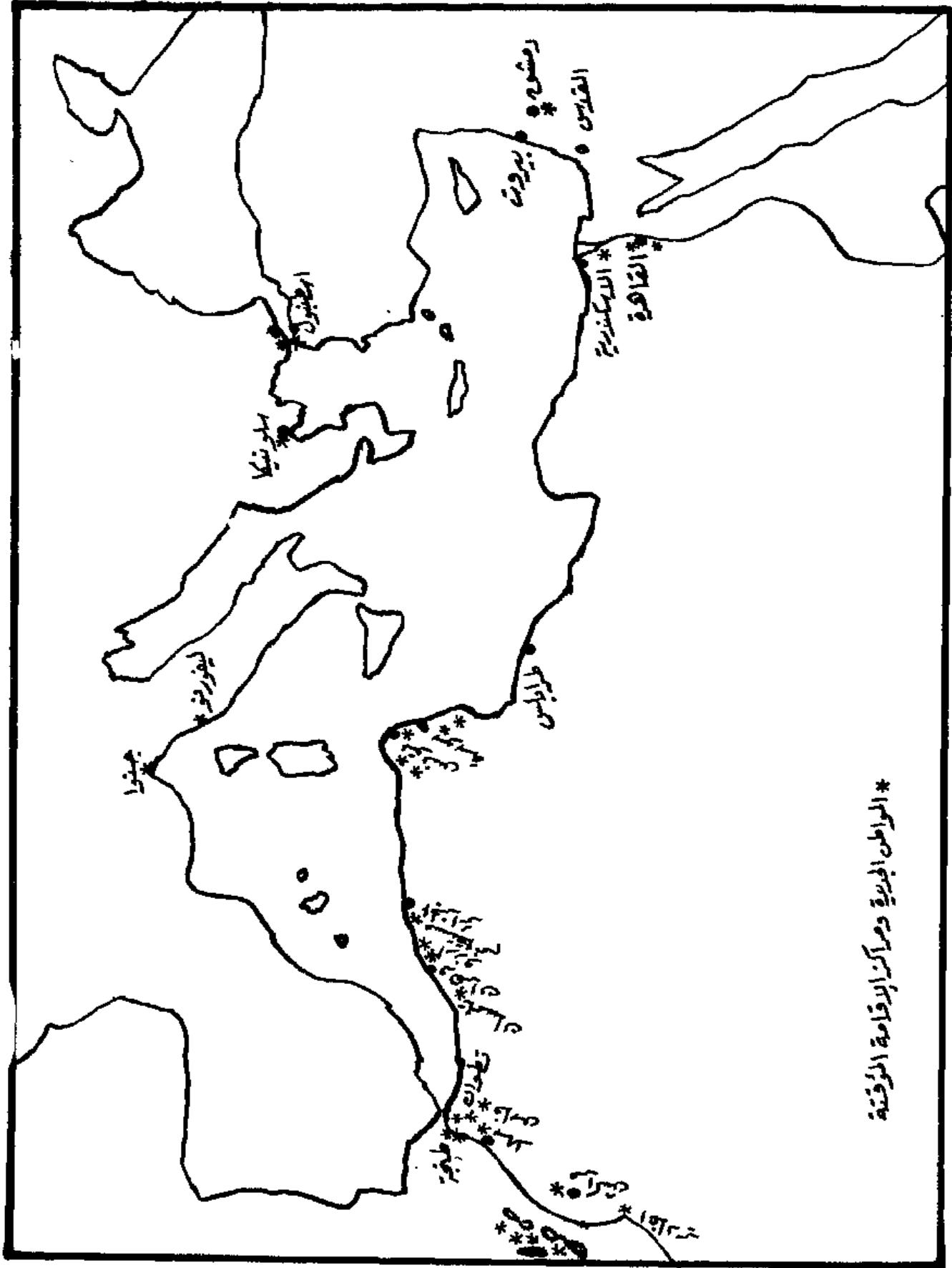
وبينا كانت السفن تقل المنفيين إلى الساحل المغربي وتعود لتقل دفعه ثانية ، كانت السلطات تعد الترتيبات لنفي باقي الأندلسيين المواركة في أرغون وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة وغيرها من الأماكن . وبعد نفي الأندلسيين من أماكن تجمعاتهم الرئيسية انتقلت السلطة لجمع الأندلسيين من التجمعات الأقل تهيئاً لنفيهم . ولكن العملية لم تكن سهلة إذ استمرت ست سنوات وكان الأندلسيون الذين سكروا وادي شقورة (Valle de Ricote) قرب مدينة مرسية كآخر المنفيين في أرغون ، فلم تبدأ السلطات ترحيلهم إلا بعد أربع سنوات من بدء العملية ، وكان سكان الوادي آخر من حملتهم السلطة على التنصر سنة ١٥٠٥ بموجب المرسوم المعروف الذي أصدرته الملكة إيزابيلا سنة ١٥٠٢ . ولكن النفي لم يكن نصيب الجميع إذ تذكر بعض المصادر ^(١) إن مابين ١٥٠٠ و١٥٠٣ أندلسي رفضوا الانصياع لقرار السلطة والتوجهوا إلى الجبال ، غير أن الجنود طاردوهم فقتلوا معظم الرجال وسيوا كثيراً من النساء والأطفال ولم يرحل من هؤلاء إلا عدد قليل .

أ— وجهات الأندلسيين المنفيين :

تضمن مخطط ترحيل الأندلسيين المواركة تجميعهم بادئ الأمر في ثمانية مراكز هي : بلنسية وارغون وقشتالة وandalusia (الأندلس الصغرى) ومرسية ويرغش وقطالونيا وغرناطة . من هذه المراكز شرعت السلطة المكلفة بعملية الترحيل في توزيع الأندلسيين على ١٢ نقطة تسفير في الشمال والجنوب والساحل الشرقي وهي : دائمة ولقت وقرطاجنة وجفية (Jávea) وساقونة (Grao de Sagunto) (ومنقوفة Moncofa) (وابن العروس Vinaroz) والأفاق (Les Alfaques) (وجميعها على الساحل الشرقي) ومالقة وأشبيلية في الجنوب ، وسمبورت (Somport) ورنشفاله (Roncavaux) وأيرون (Irún) في الشمال .

ولما كانت معظم أعمال التسفير تجري عن طريق البحر فقد نقل الأندلسيون في Andalusi إلى أشبيلية ومالقة أول الأمر ، بينما توجهت أعداد أقل تحت حراسات شديدة إلى جبل طارق وقد اسْمُوهُؤلاء نقلوا من

مواطن الأندلسين المواركة بعد التغريب



حمل طارق إلى سبتة وتطوان ، ومن قادس إلى جزر الكناري (الجزر الخضراء) . أما أندلسيو غرب آسيا فنقلوا إلى المنكب ومالة ، ولا تتوفر أية معلومات عما حل بالأندلسيين الذين توجهوا إلى المنكب . أما أندلسيو قشتالة واستريادورا فنقل القسم الأعظم منهم إلى قرطاجنة ، بينما توجهت مجموعات أخرى إلى باب الشزارى ومدينة يرغش ومن هناك إلى أثيرون . وفي أرغون نقل الأندلسيون على ثلاثة محاور إلى الأفاق وسومبورت وباب الشزارى ، وكانت الأفاق كذلك نقطة تجمع قسم من أندلسى قطالونيا ، وأرسل القسم الثاني إلى برشلونة ومن هناك إلى ليفورن (أو ليفورنو Livorno) في إيطاليا ولا تتوفر أية معلومات عن سبب نقلهم إلى هناك ، أو عما حل بهم أثر وصولهم .

من أشبيلية نقل الأندلسيون المواركة الذين جمعوا هناك على ثلاثة محاور رئيسية ، فتوجه العدد الأكبر منهم إلى تونس ، وانتقلت أعداد أقل إلى طنجة وأغادير . ومن مالة توجه القسم الأكبر إلى تونس عن طريق مرسيليا والباقي للغرب .

ولايعرف اتجاه الأندلسيين الذين تجمعوا في قرطاجنة إلا إنهم توجهوا على الغالب إلى تونس . ومن نقاط التسفير في لقنت وجفية ودانية وساقوئنة ومنقوفة نقل الأندلسيون إلى وهران ، باستثناء قسم صغير نقل من منقوفة إلى مستغانم . أما الأندلسيون في ابن العروس والأفاق فنقل قسم منهم إلى أروز في الجزائر ولا تعرف وجهة القسم الأكبر ولعلها تونس .

في أقصى الشمال انتقل الأندلسيون المنفيون من أثيرون على محورين رئيسيين : الأول إلى المغرب ، والثاني إلى مدينة أورتيز (Orthez) الفرنسية ، ولكن قسماً من هؤلاء توجه إلى ميناء لاهافر ولайлاد ما حل بهم . أورتيز أيضاً كانت نقطة تجمع الأندلسيين المرحلين من ريشفالدة وسومبورت ، ومن هناك انتقل الجميع إلى تارب (Tarbes) ثم إلى أجد (Agde) ومن هناك إلى تونس . ويبدو أن بعض الأندلسيين انتقلوا من سومبورت إلى مدينة نيه (Nay) ، ولكن هؤلاء تابعوا رحيلهم إلى تارب وسلكوا طريق المنفيين الآخرين . (أنظر القسم التالي) .

٤ - مصير الأندلسيين المواركة

نفي الأندلسيين المواركة كان عملية عصيبة وطويلة لم تنته إلا سنة ١٦١٥ ، أي بعد حوالي سبع سنوات من صدور مرسوم طرد الأندلسيين ، ولكنها تمت دون أية تعقيدات كبيرة بالنسبة لقشتالة . وكان من السهل على فرادي الأندلسيين المواركة الهروب من أماكن اقامتهم المحددة إلى مناطق أخرى في قشتالة وارغون والإختفاء دون أن يتمكن السلطات من العثور عليهم ، نظراً لعائق سحقهم مع القشتاليين واتقادهم مع مرور الزمن التخاطب بالقشتالية . يضاف إلى هؤلاء مجموعات الأندلسيين الذين ارتشوا من ناحيتهم البقاء حيث أقاموا ، وكانت أوضاعهم منطبقة على الاستثناءات التي سمحت السلطة لأصحابها

البقاء في بنسية أو أرغون أو باقي المناطق التي عاش فيها الأندلسيون المواركة . إلا أنها لا نعرف بالضبط كم كان عدد الأندلسيين الذين سمح لهم البقاء في ممالك فيليب الثالث رغم الإشارة إلى نسبة ستة بالمائة منهم ، كما أنها لا نعرف العدد الدقيق للأندلسيين المواركة الذين فتقهم السلطة بين سنتي ١٦٠٩ و ١٦١٥ رغم توفر عدد كبير من التقديرات المختلفة التي أوردها المؤرخون والرحالة الأجانب ، الذين زاروا إسبانيا في المراحل التي لحقت باستكمال التقسيمي . فالرحالة الفرنسي انطوان دو برونو الذي زار إسبانيا سنة ١٦٥٥ يقول إن البعض قدر عدد المتفين بعدة ملايين « ولكنني لا أعتقد أن العدد بهذا الحجم . فخلالها لارغون ، حيث حول عدد مماثل من الأندلسيين (أراضي) وادي نهر إبرة إلى حديقة غناء ، لا يمكن أن تضم الأجزاء الأخرى في المملكة أعدادا بهذه الصورة » (١) ، إلا أن الكاتب ذاته يقدر عدد أسر المواركة التي سكنت ببنية بحوالي ٧٠٠٠٠ أسرة أو ما يعادل ٥٦٠٠٠ شخص (٢) . أما الرحالة الفرنسي فرانسوا بيرتو (Francois Bertaut) الذي زار إسبانيا سنة ١٦٥٩ فيقدر العدد بحوالي ٩٠٠٠٠ شخص (٣) ، بينما يقدره لين بول - الذي يعتمد كثيرا على ذوزي - (٤) بحوالي نصف مليون شخص (٥) . وهناك تقديرات كثيرة أخرى تحدد العدد بما يتراوح بين مليون وثلاثة ملايين شخص . ومنذ صدور كتاب « جغرافية مواركة إسبانيا » سنة ١٩٥٩ بدأ المؤرخون في اعتماد الأرقام التي أوردها استنادا إلى مصادر يصفها المؤلف بأنها لا تقبل النقض . وهو يوزع الأندلسيين على الشكل الآتي : بنسية (١١٧٤٦٤) ، قطالونيا (٦٧١٦) ، أرغون (٦٨١٨) ، قشتالة والمنشا واسترمادورا (٤٤٢٥) ، مرسيه (١٣٥٢) ، الأندلس الصغرى - أندلوسيا (٢٩٩٣٩) ، مدينة غرناطة (٢٠٢٦) ، بإجمالي قدره ٢٧٢٤٠ من أصل كلي يشمل الأندلسيين الذين سمح لهم بالبقاء وهو ٣٠٠٠٠ شخص (٦) . ويؤكد ج . ه . اليوت هذه التقديرات في كتابه « إسبانيا تحت ظل الأباطرة » (٧) . وفي انتظار دراسات أخرى حول هذه الحقيقة المهمة من التاريخين العربي والأسباني ، والعنور على معلومات جديدة يمكن أن تلقي مزيدا من الضوء على عملية نفي الأندلسيين المواركة ، لابد منأخذ تقديرات الكتاب بكثير من التدقير والمقارنة (٨) . فالإجمالي الذي يرد في الكتاب لا يتجاوز ٣٠ بالمائة من العدد التقديري للأندلسيين المواركة في نهاية الثورة الأندلسية الكبرى دون الأخذ بالحساب الزيادة التي يمكن أن تدخل على العدد التقديري بين بداية السبعينيات من القرن السادس عشر ونهاية العقد الأول من القرن السابع عشر ، أي بحوالي ٤٠ سنة . علما بأن نسبة التكاثر السكاني بين الأندلسيين قدرت بين سنتي ١٥٥٣ و ١٦٠٩ بمائة مقارنة مع نسبة تكاثر بين النصارى القدماء قدرت بحوالي ٤٥ بالمائة فقط ، وعلى هذا يحتمل أن يكون عدد الأندلسيين قبيل بدء نفيهم حوالي مليون ونصف المليون شخص . ومن الصعب التيقن من أي تقدير

(١) Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain The Golden Age, (London), 1970, PP 19-20.

(٢) انظر المصدر أعلاه . ص ١٩

Revue Hispanique, Vol. (1919) PP 1-319

(٣) المصدر أعلاه ص ٢٢٢ والأسيل في

Dozy, R.P. Histoire des Musulmans d'Espagne (4 Vol., Leyden, 1861).

(٤)

Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Ed ition) 1890, P279.

(٥)

Lapeyre, H. Geographic de l'Espagne Morisque, (Paris, 1959), PP 204-205

(٦)

Elliott, J.H. Imperial Spain (1469-1716), (London, 1963), P 302

(٧) انظر :

(٨) يقول باري أن وثائق اللجنة التي أشرف على نفي الأندلسيين غير كاملة لأنها تشير إلى أن عدد المتفين بلغ ١٠٣٩٤ شخصا باستثناء الأطفال الرضع ولكن دراسة التاريخ الاقتصادي لإسبانيا تقدر الرقم بنحو ٣٠٠٠٤ شخص . انظر :

Parry, J.H. The Spanish Seaborne Empire, Hutchinson, London, 1971, P 235.

خاص بعد الأندلسيين المواركة ، ولكن انهيار الحالة الاقتصادية في مرسية وارغون وبلينسية وغرناطة بعد نفي الأندلسيين يؤكد ضخامة عدد المنفيين ، كما يؤكد مثل هذا التصور طول الفترة التي استغرقها عملية الترحيل والإمكانات الكبيرة التي وظفتها السلطات لتنفيذ مرسوم فيليب الثالث ، والدور المهم الذي لعبه الترحيل في تقويض الامبراطورية .

أ - الأندلسيون بعد النفي :

بين سقوط غرناطة سنة 1492 ورحيل آخر المنفيين الأندلسيين 123 سنة ، قدر عدد الأندلسيين الذين انتقلوا خلالها إلى العدو بحوالي ثلاثة ملايين شخص .^(١) وما خسرته قشتالة بسبب تعصب حكامها وضيق أفق معظم السكان فيها ، كسبته العدوة المغربية فقادت فيها مدن جديدة وأزدهرت أرياف بعد اهمال وساهم المنفيون ، طوعاً أو إجباراً ، في تطوير حضارة لم تكن تصل إلى ماوصلت إليه دون الدماء الأندلسية الجديدة التي زرقت في جسد أقطار العدوة . ومنذ استسلام مدينة طليطلة سنة 1085 ارتفعت أصوات أندلسية مذعورة رأت في مغادرة الأندلس السبيل الوحيد للنجاة من سيف التنصاري . واستعظمت أصوات أخرى أن ترضى جماعات إسلامية العيش في تلك المدينة تحت إمرة ملك نصراني فعثتم على رفض تلك المهانة والنزوح على الفور ، ووُضعت بعد ذلك الكتب التي تحذر من عواقب الدجن والانصياع لما يفرضه التنصاري الشماليون^(٢) . ولكن خيار المعتمد بين رعي البعير أو رعي الخنازير لم يكن متاحاً للجميع ، رغم أن القسم الأكبر من الأندلسيين اختاروا ، حين اضطروا ، السبيل الأول وغادروا بلداً لم يعرفوا ، ولم يعرف أجدادهم وأجدادهم غيره . أما الباقيون فتدجنوا في طليطلة وتتجنوا في طروبل (Teruel) بعد سقوطها سنة 1171 ، وتتجنوا في ماردة (1226) وقرطبة (1236) وبلينسية (1228) ودانية (1243) ومرسية (1243) وجيان (1246) وشبيلية (1248) ثم في غرناطة بعد استسلامها . ولكن الضغوط التي تعرض لها المدجنون قبل العقد الثاني من القرن السادس عشر اختلفت عن الضغوط بعده . ظهرت اللوثية وانقسمت المسيحية في أوروبا فحملت القسم الأول السيف ضد الآخر واندلعت حروب دامية طويلة باسم الدين ، واختارت قشتالة الكاثوليكية وحاربت من أجلها ومن أجل إبقاء هيمنتها على ممالكها الشاسعة . وال الحرب خارج قشتالة انعكست اضطهاداً داخلها فطرد اليهود أولاً ثم طرد الأندلسيون ، وفقدت قشتالة أحد أهم الداعميين التي قامت عليها الامبراطورية . وعندما أصر فرناندو الثالث على إفراج قرطبة بعد سقوطها رحل قسم من سكانها إلى مناطق الأندلس الأخرى التي لم تختل بعد ، بينما أثر القسم الآخر اختصار الطريق وعبور العدوة إلى فاس ، فأقاموا فيها وخلفوا ما يذكر بفنونهم وعلمهم وعماراتهم إلى اليوم في المدينة القديمة التي كانت يوماً مدينتين الأولى باسم القروريين ، والثانية باسم عدوة الأندلس . ومن غادر الأندلس المقهورة بعد ذلك انتقل أيضاً ليساهم في عملية بناء مدن المغرب وقرها وأريافها ، إلى أن بدأت السفن القشتالية تنقل الآلاف في رحلاتها المتكررة من الموانئ القشتالية إلى مدن الساحل المغربي اعتباراً من نهاية سنة 1209 . وهو ما يرويه صاحب نفح الطيب حين يقول : « ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من

(١) (Lane-Poole, Stanley. *The Moors In Spain*, (4th Edition), 1890, P 279

(٢) انظر : « اسى المتأجر في بيان أحکام من غالب على وطنه التنصاري، لم يهجر، وله ترتيب من قربات والروايات »؛ أبو العباس أحمد بن شهاب بن محمد التمساني الونشريشي ، صحيفنة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد ٥ (مدينـ ، ١٩٥٧) .

ال المسلمين يعبد الله خفية ويفصل ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى أتّهم أحروقا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرازاً ولم يقيس الله لهم ناصراً ، إلى أن كان اخراج النصارى بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألف بفاس ، وألف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ^(١) . وتدفع المنفيين المواركة بذلك الأعداد الكثيرة غير شيئاً كثيراً من طبيعة المناطق التي نزلوا بها فنشطت التجارة في كثير من المدن المغربية ، وكثير العمران وشقت الترعرع وازداد الزرع في تونس ، لكي تكتسب صفتها المعروفة اليوم على الرغم من أن تونس « الخضراء » وصف روماني .

إلا أن النفي لم يكن ، بالطبع ، نهاية الصلة مع الأندلس الأسبانية ؛ فإذا حاولت بعض الجماعات العودة إلى الأندلس سراً فيما بعد ؛ وربما تمكن البعض من الاختلاط بالسكان ، وربما قتل البعض وأسر البعض الآخر . وشكلت جماعات أخرى من المنفيين العارفين بأمور الملاحة مجموعات إغارة خاصة ، ومن هؤلاء قسم من الأندلسيين المنفيين الذين سكنوا شرشال (Cherchel) . وكان للمنفيين من مدينة هرناش الأندلسية ^(٢) قاعدة بحرية في سلا ، وهي من ضواحي الرياط اليوم ، يستخدمونها للإغارة على السفن القشتالية أو المدن الواقعة قبالة الساحل المغربي ، واستمرت ذكرى الوطن السابق ماثلة في ذيحة المنفيين وأبنائهم لاسيما وأن أسبانيا استمرت في لعب دور مهم في المنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

وبيناً كان الأندلسيون المنفيون يستعدون لبدء حياة جديدة في مواطنهم الجديدة كانت السلطات القشتالية ورجال الكنيسة يرددون الشائعات بأن معظم المنفيين لا يزالون حتفهم حيناً حلوا . وكانوا يزعمون أن أهل المغرب شقوا بطون المنفيين بمحنة عن الذهب والأحجار الكريمة التي اعتقاد أنهم ابتلعوها لاخفائها . ومن الثابت أن معظم الأندلسيين المنفيين لا يزالون صعوبات كثيرة قبل أن تستقر بهم الأحوال ، ومن الثابت كذلك أن عدداً غير معروف منهم لقي حتفه على أيدي الإخوة الطامعين بهم ، إلا أن هذه الحالات كانت عموماً محدودة في بعض المناطق . واستقبل أهل المغرب المنفيين بالترحاب لأن العلاقة بين الأندلسيين وأهل العدو بقيت جيدة طوال السنين التي اعقبت سقوط غرناطة . وإن كانت المرحلة الأولى من توطين المنفيين صعبة واضطر أهل العدو إلى مقاييسهم الشيء القليل الذي كانوا يملكونه ، فإن قسماً كبيراً من المنفيين كانوا من أصحاب المهارات التي خسرتها قشتالة وباقى ممالك فيليب الثالث . أما عملية النفي ذاتها فقد أعادت إلى حظيرة الوطن العربي والمدين الإسلامي أكثر من نصف مليون شخص بعد أن أخفقت قشتالة في تصديرهم أو حلهم على قبول الأمر الواقع على مدى زاد على قرن كامل من الزمن .

وإن كان النفي قد حل الخلاص إلى الأندلسيين المواركة ، فإن من بقي في قشتالة وغيرها انتهى في معظمه إلى التلويب على مدى القرون اللاحقة وسط عبء لم يتغير بصورة ملموسة إلا اعتباراً من نهاية

(١) « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، الجزء الرابع ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٢) وهي اليوم بلدة صغيرة تقع جنوب غرب قرطبة في الطريق القديم إلى أشبيلية .

السبعينات من القرن العشرين . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ادت الحروب التي خاضها الشماليون ضد الأندلسيين الى تحويل اعداد كبيرة من العرب الى عبيد ، واستمر هذا الوضع في القرون اللاحقة الى أن تجدت الحرب ضد غزانتة ، واستعبدت اعداد كبيرة من الأندلسيين كما حدث بالنسبة لقسم من سكان مالقة وغيرها . وبنهاية حرب الإقناط التي خاضها جنود فيليب الثاني خلال الثورة الأندلسية الكبرى وبعدها قدر عدد الأندلسيين استعبدهم بأكثر من مخمسين ألف شخص ، حتى أن الرحالة الفرنسي برونو الذي زار قشتالة سنة ١٦٥٥ دهش من كثرة العبيد في الجنوب فكتب يقول : « مرة أخرى تسبب التجارة مع جزر الهند الغربية انتشار العبودية في هذا البلد . المتوجول في أندلوسيا (الأندلس الصغرى) يكاد لا يرى خدما الا من العبيد ، معظمهم من الأندلسيين أو من الأندلسيين السود . ومبادئ المسيحية تنص على عتق جميع معتنقى الدين (المسيحي) ولكن هذه المبادئ غير معمول بها في إسبانيا بسبب الحاجة الملحة للعمالة ، لاسيما بعد أن أخذت الفتوحات الجديدة في افراج المدن من المواطنين الذين رحلوا على متن السفن بحثا عن المغامم أو سعيا وراء القصص التي روت الكثير عن الثروة المهاولة التي تتظار لهم » .^(١)

وإذا كانت الحالة هكذا في الأندلس الصغرى فإن من المنطقى الافتراض بوجود كثير من الأندلسيين المستعبدين في باقي ممالك شبه جزيرة ايبيريا أو في المستعمرات الجديدة في مناطق ماوراء البحار . ويقول ج . ه . باري في كتابه « الإمبراطورية الأسبانية البحرية » : إن الخوف من محكم التفتيش دفع كثيرون من الأندلسيين المواركة واليهود ليكونوا من بين أول المهاجرين الى أميركا ، ولكن تفضيلات ذلك قليلة جدا وبنفسها التوثيق^(٢) .. ويضاف الى هؤلاء جماعات أندلسية رحلت الى المستعمرات الجديدة في العالم الجديد على متن السفن القشتالية أو الارغونية وغيرها بعد اداء فترة خدمتهم الاجبارية على القواديس أو الغلايين ، وخاصة بعد أن عممت السلطة الى الاكتار من فرض عقوبات مثل هذه بحق المتهمنين بجم أو آخر لامداد الأساطيل التجارية والخربية بعمالة مجانية إثر تزايد الحركة التجارية بين الممالك القشتالية والمستعمرات في العالم الجديد ، وارتفاع المنافسة بين القشتاليين من جهة والهولنديين والإنجليز من جهة ثانية . ولم يكن هذا التصرف جديدا على قشتالة التي عممت الى بعثة الأندلسيين في بقاع الأرض عندما توفرت الفرصة سواء في عهد فيليب الثالث أو ايزابيلا ، وربما كان أحد أسباب ذلك الخبرات التي توفرت لدى الأندلسيين . واحدى الوثائق الخاصة بسقوط مالقة سنة ١٤٨٧ / ١٤٩٢ تفيد بأن ايزابيلا أمرت بارسال مئة من رجال المدينة الأندلسية للالتحاق بالحرس البابوي في روما ، وبعثت بحوالي ٥٠ أندلسية كهدية الى ملكة نابولي ، وحوالي ٣٠ أندلسية الى ملكة البرتغال للعمل في البلات وصيفات أو مطربات أو حائكات وغير ذلك من المهام . وليس هناك ما يفترض أن حكام قشتالة أوقفوا هذه العادة في العهود اللاحقة لاسيما وأن الأندلسيين استمروا يمارسون مهاراتهم المختلفة في وقت اعتبر فيه القشتاليون بالإقدام على أية اعمال يدوية مهانة غير مقبولة .

Defourneaux, Marcellin. Daily Life In Spain In The Golden Age, (London), 1970, P 83.

(١)

Parry, J.H. The Spanish Seaborne Empire, (London), 1971, P 95.

(٢) انظر :

وكان من الممكن أن تسدل قشالة الستار على الأندلسيين المواركة الذين اختاروا البقاء في مالكها أو اضطروا لذلك لسبب أو لآخر إلا أن هذا لم يحدث . ومن تمكن من الفلات من السلطة الحكومية وقع بيد سلطة محكم التفتيش ، فاستمر اضطهاد الأندلسيين المواركة حتى نهاية القرن الثامن عشر (انظر الفصل الخامس) : كما لم تساعد الأزمة شبه المستمرة بين إسبانيا والمغرب في التخفيف من القيود التي فرضت على الأندلسيين . فالحرب التي نقلها الفونصو العاشر إلى العدوة في القرن الثالث عشر (انظر ص ١٣١) تصعدت بشدة في القرن الخامس عشر ، وقدرت الأساطيل المغربية سيطرتها على السواحل المغربية بينما احتل البرتغاليون سبتة وأسسوا مراكز تجارية في صافى والجديدة وأغادير ، واستمر وجود هذه المراكز مع مرافقها من ازيداد عدد الأوروبيين في المغرب حتى نهاية القرن السادس عشر . ونحو نهاية القرن السابع عشر استطاع مولاي اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) طرد معظم المغامرين الأوروبيين وقلص مالك إسبانيا حتى انحصرت في سبتة ولبلة ، ومتزال تسيطر على هذين الجبيين حتى اليوم بعد أن تخلت عن حكميتها في الشمال المغربي في سبعة نيسان سنة ١٩٥٦ ، وتبع ذلك إلغاء اتفاقية تدويل منطقة طنجة (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦) . وفي العشرين من كانون الأول ١٩٧٥ انسحب أسباني ^{الصحراوية} العيون بعد التوصل إلى اتفاق مع المغرب وموريتانيا على نقل السلطات الأسبانية على الصحراء الغربية إلى حكومة البلدين العربين ، وأنتهت بذلك وجودها استمر قرونا طويلة وانكسر الآن بالجيبيين .

أما تونس فقد كانت في القرن السادس عشر من أهم مراكز الصدام بين الأسبان والثمانين ، وخضعت للأسبان منذ الحملة التي قادها كارلوس الخامس على تونس العاصمة سنة ١٥٣٥ ، وحتى سنة ١٥٧٤ حين خضعت لسلطة العثمانيين ، ثم أصبحت سنة ١٨٨١ محمية فرنسية .

٥- تأثير نفي الأندلسيين المواركة

نفي الأندلسيون المواركة وتبدلت مع مرور الوقت موجة الحماس التي طفت على تفكير القشتاليين وهم غارقون في وهم طرد بقايا المحتلين الذين سيطروا على شبه جزيرة إيبيرية حوالي ثمانية قرون ، ويقي أحفادهم في معظم مناطقها ١٢٣ سنة أخرى . وكانت المناسبة ملائمة لإشادة لوبي دي فيغا وسيروفانتس وفيلاسكويز بالقرار الحكيم الذي أصدره فيليب الثالث، والتغنى بأبعاده التاريخية . أما وقد انتهت نشوة ترحيل المغاربة فإن حكومة الدوق ليرما وجدت الفرصة لكي تفكك بهدوء في تأثير طرد ذلك العدد الكبير من الأندلسيين . ولم يمض وقت طويل حتى أحس الجميع بأنهم قتلوا الأوزة التي كانت تبيض لهم ذهبا ، واستفاقوا على واقع مختلف للتخدير الذي أحدثه ما كان يعتقد بأنه انتصار إضافي على الأندلسيين ، وإزالة جذرية لكل ما كانت تشتكى منه الأمة والكتيبة .

لو نفي الأندلسيون عقب الثورة الأندلسية الأولى أو الثانية لما كان له التأثير المدمر الذي أحدثه في بداية القرن السابع عشر . ولو أنه جاء بعد قرن من حدوثه ^{مثلاً} لما تمكن من تسديد تلك الضربة القاضية إلى اقتصاد قشتالة والسبب ، إضافة إلى عوامل أخرى ، في تحويل قشتالة من أمبراطورية دولية

إلى دولة من الدرجة الثالثة . غير أن الأقدار شاعت أن يكون نفي الأندلسيين في مرحلة وسيطة من التاريخ الأسباني كانت فيه بأشد الحاجة لكل السواعد التي تعمل في أراضيها الشاسعة . والقسم الأخير من القرن السادس عشر تميز بقلبات سكانية واقتصادية وسياسية مهمة ، إذ رحل كثير من الفلاحين إلى المدن بحثاً عن الثراء سريع ، وانتقلت أعداد كبيرة إلى مستعمرات العالم الجديد بعد ورود القصص عن التروات الخيالية الموجودة هناك ، واحتاجت جيوش فيليب الثاني وابنه إلى أعداد إضافية من الجنود لخوض الحروب في أوروبا وفي أعلى البحار . وكان هذا لم يكن بكافي إذ نزلت بالبلاد سلسلة متلاحقة من الإصابة بالطاعون فقضت على حوالي ١٥ بالمائة من السكان ولاسيما خلال الموجة الكبيرة في آخر ستين من القرن السادس عشر ، ولم تكبد بداية القرن السابع عشر تعلي على ممالك فيليب الثالث حتى وجدت السلطة نفسها تعاني من ضائقه حادة في العمالة واضطررت إلى الإعتماد على القمع المستورد من شمال أوروبا وشرقها لسد حاجة السكان . ولم يكن الوضع في مستعمرات قشتالة فيما وراء البحار بأفضل حالاً ، إذ أصاب الطاعون السكان المحليين في المكسيك اعتباراً من منتصف القرن السادس عشر فتقلص عددهم من ١١ مليوناً إلى حوالي المليونين . وربما حدث الشيء ذاته في بيرو وغيرها ، وأخفقت سياسة حمل السكان المحليين في المستعمرات الجديدة على خدمة السادة يopian البشرة ، وانفتح الباب على مصراعيه لدخول العالم في مرحلة استعباد لم يعرفها من قبل ^(١) ، وربما لن يعرفها في المستقبل إن بقي الحكم الأخير للعقل والمطبع .

ومع رحيل الأندلسيين المواركة تغيرت طبيعة الأرضي في كثير من مناطق قشتالة وارغون وغرناطة وبلينسية ، وإن كانت المالك الثالث الأخيرة قد تحملت الصدمة الأكبر . وحتى بداية القرن السابع عشر لم تكن الأندلس قد فقدت الكثير من خصوبتها وخضرارها وخيراتها التي وصفها عدد من الكتاب والشعراء الأندلسيين في قرون سابقة ^(٢) رغم تأثيرها المؤقت بالحروب الداخلية والأهمال الذي لحق ببعض المناطق الجنوبية إثر نفي الأندلسيين إلى الشمال بعد إخماد الثورة الأندلسية الكبرى . ومن بين الرحالة الأجانب الذين وصفوا مناطق مختلفة من إسبانيا في مطلع القرن السادس عشر ، نبيل بولندي يدعى جاك سويسكي (Jacques Sobieski) زار البلاد سنة ١٦١١ وكتب يقول : « وحين يصل المرء إلى

(١) لما اتسع نفوذ العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط ، حاولت الدول الأوروبية إقامة اتصال مباشر مع أسواق الشرق ، وكانت البريدال من أهم الدول التي كرست جهودها لهذا الغرض وعرفت في عهد هنري الملتح (١٣٩٤ - ١٤٦٠) بـ هيئة ملasse كبرى ، ثم تحكمت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من إنشاء مراكز على طول الطريق البحري بين البريدال والشرق عدت أكثر من ٢٠ في أفريقيا وحدها ، واستخدمت لأغراض الحرب والتجارة بالبضائع والبضائع الذين كانوا يقطنون أو يزورون من الساحل الشرقي والشمال للقارتين السوداء . ولها كثي ربح تجارة العبيد ، ولاسيما بعد إصدار مرسوم خاصه باستيرادهم إلى أمريكا اللاتينية سنتي ١٥١٠ و ١٥١١ ، أخذت هولندا والإنجليز وفرنسا وإسبانيا تافس البريدال إلى أن احكرت الجبلاء هذه التجارة بموجب معاهدة بارير (Barriere) الملحقة بمعاهدة أورث (١٧١٣) التي تھامت الدول الغربية فيها ممالك إسبانيا ، ولكن الجبلاء افت فيما بعد الرغبة في تحرير المستعمرات الأمريكية التي قامت عليهما من الاستفادة من العبيد لتحسين وضعها الاقتصادي إضافة إلى إسبانيا أخرى . وقدر البعض عدد العبيد الذين نقلوا إلى العالم الجديد حتى بداية القرن التاسع عشر بحوالى ١١ مليون شخص ويمتد أن عدد مئات الآلاف في الطريق . انظر مقدمة معاشرة الدكتور وهي البروي « بيرو والصوان العربي الألهي » من منشورات منظمة الأقطار العربية المصدرة للنشر ، (الكريت ١٩٨٧) والمراجع القيمة المرجحة . وأنظر أيضاً . Hawley, Donald. The Trucial States, 1970, P 129. (London), حيث يروي المؤلف قصة واحدة من أول معاهدات العام الرق مع الساحل المتصالح .

(٢) انظر : « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ص ٢١ - ٢٢ .

andalusia (الأندلس الصغير) فإن العينين تحريران من كلية أشجار الزيتون والبرتقال والأرز المتراصة في كل مكان كالغابات . وأجمل تلك المناطق تقع حول غرناطة حيث أقام الأندلسيون طويلاً وجلبوا المياه من الجبال المغطاة بالثلوج مستخددين القنوات والأنفاق لإنصاف السهول والتلال الخجولة بهم وتحويلها إلى واحدة من أجمل مارات العين في العالم » .^(١) ويقارن الرحالة بارتمي جولي بين حالة بلنسية قبل نفي الأندلسيين وبعده فيقول : « بلنسية جزء آخر يحمل المتعة إلى الأ بصار . وقلما يهطل المطر في تلك البقاع إلا أن السكان يستخدمون مياه الينابيع المقولبة بواسطة قنوات ضيقة من الآجر لرى حدائقهم . والبُقعة هذه خضراء مغطاة بالشجر والخاشيش والعنب وهم يزرعون الأرز في المناطق الضحلة ، ولكن هناك أيضاً أشجار التفاح والليمون والبرتقال والتوت المستخدم لتربيه دود القرز ونوع من القصب يستخرجون منه سائلاً يصنعون منه السكر .^(٢) ولكن هذه الحديقة الفناء حسرت معظم رخائها وجمالها عندما قرر الملك الراحل فيليب (الثالث) طرد الأندلسيين من مملكته ، وكان عددهم فيها (بلنسية) يفوق عددهم في أي مكان آخر .. ومن الأكيد أن مملكة بلنسية بقيت منذ تلك الحادثة في حالة خراب وقامت قرى كثيرة سكنها الأندلسيون مهجورة ، وافتقدت الأرض من يرعاها » .^(٣)

وعملية تفريغ بلنسية وارagon وغرناطة الحق الخراب بالزراعة وقوضت أحد دعائم الاقتصاد القشتالي ولكن تأثير نفي الأندلسيين على الصناعات لم يكن أقل ضرراً إذ يقول برونو : « الصناعات التي عرفت الازدهار في السابق تكاد اليوم تتعرض للدمار ، وعوضاً عن أن يشتغل الأسبان بتصنيع إنتاجهم من الصوف والخزير كما تعودوا في السابق ، راحوا يصدرون المواد الخام إلى دول أجنبية مثل هولندا وفرنسا وإنجلترا لتصنيعها والعودة عليهم بأسعار مرتفعة . ولما كان الغرباء يسيطران على الجزء الأكبر من تجارة أسبانيا فإن المدن التي كانت حتى وقت قريب تكتظ بالصناع المهرة ، الذين يتاجرون ببعضائهم خوت وذهب مجدها ... فمدينة برغش التي عمرت بفضل تجاراتها بالصوف القشتالي فقدت معظم سوقها ، وقدرت مدينة شقوبية التي اشتهرت بصناعة الملابس الجميلة نصف سكانها وانتهت إلى عوز شديد .^(٤) .

وإذاً أن حكومة دوق ليوماً لم تكن تفكّر من يمكن أن يسد الفراغ الذي أحدثه نفي الأندلسيين ، فإن الفرصة اتيحت للاتقنيين والرعايا الأوروبيين للإستفادة من هذا الوضع خاصة وأن المناطق الشمالية الشرقية من شبه جزيرة ايبيرية عانت من قلة عدد السكان اعتباراً من نهاية القرن السادس عشر حتى أدى تدفق الفرنسيين إلى تلك المنطقة إلى طغيانهم على عدد المواطنين المحليين ، فعم الفساد واستشرى التهريب ويداً ، كما قال الرحالة الفرنسي بارتمي جولي (Barthelemy Joly) « كان كل حالة أوروبية صحيحة في إسبانيا » .^(٥) . ورغم هذا الوصف الذي يعطي صورة حية للأثر الذي أحدثه نفي الأندلسيين

Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, (London), 1970, P 17.

. Revue Hispanique, Vol. XX, (1909) PP 460- 618

(١)

(٢) المصدر أعلاه من ١٧ ، وأنظر الأصل في :

(٣) أنظر المصدر أعلاه ، من ٢٠ - ٢١ .

(٤) المصدر أعلاه ، من ٢٠ - ٢١ .

(٥) المصدر أعلاه من ٢٢ .

في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد ، إلا أن رحيل الأندلسيين لم يكن السبب الوحيد في تقويض الاقتصاد القشتالي ، إذ كانت الضرائب عالية جداً واستُنفِتَ الحرب مع المولنديين بعد انتهاء المدنة ، وعاد الطاعون ليحصد عشرات الآلاف ، حتى أن أشبيلية فقدت في طاعون سنة ١٦٤٩ حوالي ٦٠ ألف نسمة أو حوالي نصف عدد سكانها ، وظل عدد سكان ممالك قشتالة في القسم الأول من القرن السابع عشر أقل بكثير من عدده المقدر في عقود سابقة .

والخراب الذي ألحقه الأندلسيون بإقتصاد ممالك قشتالة بصورة غير مباشرة اكتمل بالأهمال الذي حقق بذلك المالك فيما بعد . وكتب أحد النوايب إلى حكومته المحلية يصف حال الأرياف سنة ١٦٢١ : « هجر السكان قرى كثيرة وباد بعضها وانهارت الكنائس وتقوضت المساكن ، ووضع ماوريثه الأبناء عن الآباء وتخلَّ الناس عن الحقول فترامهم يهيمون وأزواجهم وأولادهم في الطرقات يأكلون العشب ويقطتون بالجلنور ، ويبحثون عن خلاص من كل هذه الشرور »^(١) . ويقدم الراهب بنبيو دي بستانو (Benito de Peñalosa) وصفاً مشابهاً سنة ١٦٢٩ فيقول : « الفلاحون أفقوا الجميع والمطيبة التي تتعرض للسحق والدوس بالأقدام أكثر من آية طيبة أخرى ، بل ويبدو أن الجميع يتآمرون لتدمير الفلاحين وافتائهم ووصل الأمر إلى حد تحول كلمة فلاح إلى صفة سيئة ، أصبحت ردفحة لكلمة العبد أو صفة الوغد أو الجلف أو الشرير أو الأسوأ من ذلك »^(٢) .

وحيثما قلب الماء في المعلومات التي وردت عن تلك الفترة التي لحقت ببني الأندلسيين فإن شواهد تأثيرهم الكبير على تقويض الإقتصاد القشتالي موجودة في كل مكان . وربما لم يكن تأثير نفي الأندلسيين على مملكة قشتالة كبيراً بسبب قلة عددهم هناك وشغلهم الأعمال البسيطة كأى مواطنين من الدرجة الثالثة ، إلا أن الوضع في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد كان شديد الاختلاف . ومن تأثيرات نفي الأندلسيين من قشتالة الارتفاع الحاد الذي طرأ على نقل البضائع إلا إن إقتصاد الشرق والجنوب انهار تماماً ، أو كاد ، وشمل الخراب أخصب مناطق شبه جزيرة إيبيريا من حوض نهر إبرة شمالاً وحتى سواحل مملكة غرناطة في أقصى الجنوب . وحين أخفقت النبلاء ملوك الأرضي في العثور على بديل للمتفينين أعلنوا إفلاسهم ، وتوقفوا عن سداد الديون فأفلس الممولون في المدن ، فكانت الحلقة الأولى من سلسلة حلقات قوضت الإقتصاد وحجبت ضرائب عن الحكومة كانت باشد الحاجة لها ، وعمت قشتالة مشاكل داخلية خطيرة في وقت اقتربت فيه المشاكل الخارجية في صورة المولنديين .

فالمولنديون استغلوا فترة المدنة التي استمرت ١٢ سنة ، ووسعوا نفوذهم في الشرق على حساب البرغاليين ودعموا مواقعهم في كل مكان وجعلوا فيه استعداداً لمرحلة ما بعد انتهاء المدنة . وعندما استُنفِتَ الحرب مع قشتالة كانوا أشد ضراوة من ذى قبل وأفضل استعداداً لمارقة جنود حكومة دوق ليوماً التي أخفقت في حشد قواها . وساد الاعتقاد بأن قشتالة لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه من

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) المصدر أعلاه ص ١١ - ١٢ .

ضعف لو أنها استمرت في حربها ضد الهولنديين ، ولم تتح لهم فرصة التقاط أنفاسهم . وأمام عجز حكومة دوق ليورما عن تقديم أية حلول للمشاكل الداخلية أو الخارجية بات من الجلي أن الحكومة استنفذت كل الوقت الذي أتيح لها فقامت مجموعة من نبلاء البلاط على الدوق يرعيه ابن ليورما ذاته وأطاحت به في الرابع من تشرين الأول سنة ١٦١٨ . ولكن ابن - دوق اسده (Uceda) - لم ينفرد بالحكم طويلاً إذ مات فيليب الثالث في ٣١ آذار من سنة ١٦٢١ . وإن كان الاختلاف يسيطأ بين فيليب الثالث وخليفه فيليب الرابع ، فإن دوق أوليفاري (Olivares) كان شخصية محكمة قادرة ، حاول حشد كل القوى لمنازلة الهولنديين وأعداء قشتالة في كل مكان غير أنه اصطدم باقصاص منهار وقدرات مهزوزة ، واكتشفت قشتالة فجأة الجريمة التي ارتكبها بحق الأندلسيين المنفيين فكتب كاهن الاعتراف الملكي سنة ١٦٣٣ يقول : « لم تمض الا فترة قصيرة منذ طرد الأندلسيين المواركة . وكانت تلك عملية عادت بضرر بالغ على هذه المالك وأصبحت فكرة عودتهم فكرة طيبة لو انهم فقط يقبلون بديننا السماوي . »^(١)

الآن هذه الرغبة لم تكن محكمة لأن قرار النفي كان من نوع القرارات التي لا يمكن الرجوع عنها فلم تتبه قشتالة إلى التأثير الحقيقي لنفي الأندلسيين المواركة إلا عندما حاولت حكومة أوليفاري حشد الطاقات بغية استئناف الحرب مع أعداء الامبراطورية في العالمين القديم والمحدث . ولكن ذلك لم يكن بالمستطاع بعد أن تحولت بعض أخصب الممالك الأسبانية إلى خراب مثل بلنسية التي وصف المؤرخ البلنسي إيشيكولانو (Escolano) حالتها بالقول : « حدقة أسبانيا الغناء تحولت إلى هضبة مقفرة بالقمع » ، أو غرناطة التي كانت مشهورة بأشجارها وحضارتها في السابق ولكنها أهملت وتخلت الأسبان عنها بعد أن اخافت الأرض في تقديم ما يسد حاجتهم من الغذاء . والمتقل اليوم في المناطق الشرقية والجنوبية من إسبانيا يستطيع أن يتصور الجهد الذي قدمه الأندلسيون لاعمار تلك الأرضي . فخزانات المياه التي كانت تستخدم للري تنتشر في كل مكان ، وأحددها يقع قرب مدينة المنسا إلى الجنوب الغربي من بلنسية ولا تقل مساحته عن ميل مربع ، وماتزال المياه تتدفق على حراء غرناطة عبر قنوات بناءها العرب في السابق .

كانت قشتالة تسد طعنةأخيرة إلى الوجود العربي فيها ، ولكنها كانت طعنة ادمنت جسد الامبراطورية أكثر مما أدمت الراسلين الأندلسيين . فهوؤلاء انتقموا لنفيهم عن مساكن لم يعرفوا غيرها وهم خارج البلاد ، وساهموا في توفير أحد أهم أسباب سقوط الامبراطورية الأسبانية . وكما ان قشتالة القرن السابع عشر لم توفر للأندلسيين الحد الأدنى من الشعور الإنساني ، فإن التاريخ كان كذلك قاسياً في حكمه عليها : « لم يعرف الأسبان المضللون معنى العمل الذي أقدموا عليه لأن نفي الأندلسيين حمل إليهم المتعة ... ولكنهم لم يفهموا انهم قتلوا أوزتهم الذهبية . مرت قرون وأسبانيا مركز للحضارة ومنبر للفنون والعلوم والثقافة وكل أنواع المعارف المشذبة ، ولم تكن أية دولة أوروبية أخرى قد وصلت بعد إلى المكانة التي وصلت إليها تلك المملكة المصقولة التي اقامها الأندلسيون . والإشعاع الوجيز الذي رافق

Adler, Elkan, N. Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV, « Revue des (١) Etudes Juives, » Vol. 51 (1906) P. 120.

حكم فرناندو وايزيلا وامبراطورية كارلوس الخامس أخفق في الاحتفاظ بمثل ذلك التحلي الدائم . نفي الأندلسيون ولفتره قصيرة اشعت إسبانيا النصرانية مثل القمر بنور مستعار ثم جاء الخسوف ، ومنذ ذلك الوقت وأسبانيا ماتزال تحبو في الظلمة . الذكرى الحقيقة للأندلسيين ماتزال ماثلة في صورة الأصقاع المهجورة المشتكية من محل كل ، حيث أثبتت الأندلسيون مرة العنب والزيتون وأكواز الدرة الذهبية ، وهي ماثلة في سكان أغبياء جهله ازدهرت لديهم العلوم يوما ، وهي أخيرا ماثلة في الركود الشامل وفي الخطاط شعب هو دون أمل في ميزان الأمم واستحق المهانة التي لحقت به »^(١)

٦ - سقوط الامبراطورية الأسبانية

العصر الذهبي الأسباني (el siglo de oro) يعني شيئا مختلفين . أولئما الفترة المتدة بين عصر كارلوس وايرام معاهدة البروبنة سنة ١٦٥٩ ، حين تمكن قشتالة من اثبات تفوقها العسكري على جميع جيوش أوروبا . أما الثاني فيقصد به العصر الذي برع فيه بعض أهم الكتاب والمؤلفين والفنانين الأسبان مثل سيرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) ولوبي دى فيغا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) وفيلاسكويز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) وموريللو (١٦١٧ - ١٦٨٢) وغيرهم من فرض أسلوبه الأدبي أو الفناني على باقي أدباء وفناني الدول الأوروبية ولاسيما فرنسا . وخلال فترة امتدت ١٦٧ سنة عرفت إسبانيا انتصارات هائلة ونكبات هائلة . فتمكن سنة ١٤٩٢ من احتلال غرناطة ، واكتشاف العالم الجديد ، وطرد اليهود ، واحراق انتصارات عسكرية قوضت آية مقاومة أوروبية حقيقة للسيطرة الأسبانية على القارة ، وسارط تلك الدولة الجديدة من الجبار لآخر وسيطرت في عهد كارلوس الخامس على يقان لم يسيطر عليها أحد من قبله . ومع ذلك فإن كارلوس الخامس لم يعش عهدا خاليا من النكسات ، وتورط في حروب مستمرة انهكت ميزانية الامبراطورية وأخفق في قمع حركة الاصلاح الديني في المانيا وهولندا ، وتصوّم في دير بوسٍ ومات سنة ١٥٥٨ .

فيليپ الثاني اعتلى عرش الامبراطورية التي ورثها عن أبيه كارلوس الخامس وحكم ٤٠ سنة ، وحقق هو الآخر انتصارات عظيمة ومني بهزائم عظيمة أيضا . قضى على الثورة الأندلسية الكبرى وعلى انتفاضة المولدين وحطّم الأسطول العثماني سنة ١٥٧١ ، وحقق حلما قشتاليًا قدّمه عندما ضم البرتغال إلى مالكه سنة ١٥٨٠ ، ولكنه كذلك كان صاحب اخفاق الارمادا في القضاء على أعدائه الانجليز والمسؤول عن انتشار البروتستانتية رغم كل العنف والامكانيات التي وظفها لقمع تلك الحركة الدينية . وأمام هذه التطورات أغلق فيليب حدود قشتالة على جميع الأفكار الجديدة وشجع تبني آرائه التي طورها في قصره المائل الذي بناه في الاسكوريا . وفي هذا المبنى الضخم المنتشر على مساحة ٤٠٠٠ قدم مربع عاش فيليب الثاني أربعة عشر عاما من حياته التي مزج فيها الملكية مع الرهبنة ، وكان يوجه قسمًا كبيرًا من العالم بأوامر مكتوبة على قصاصات من الورق ، ويحمل عالم واحد يحكمه ملك واحد ويدين الكبير فيه والصغر بالكاثوليكية . ولم يتحقق حلم فيليب الثاني ولكن الذي تحقق توقعه قبل موته بأن ابنه سيكون ملوكا لا حاكما .

حل فيليب الثالث تاج الامبراطورية ولكنه ترك الحكم لشقيقه فرانسيسكو دي ساندوفال دي روخارس (Don Francisco de Sandoval y Rojas) الذي عرف في البداية باسم مركيز دانيا ثم سنة 1699 باسم دوق ليرو ، وكان أول الأعوان الذين حكموا قشتالة فعليا ، بينما كرس الملك وقهم للتمتع بما يمكن أن يقدمه المنصب لهم . وفي غياب ملك حازم نمت حكومة ضعيفة أجهضت قوى الامبراطورية ثم جنحت للهداية مع أعدائها ونفذت الأنجلوسيين المواركة لتحقيق نصر عاد على الامبراطورية بالكارثة . ولم تنجع المدنة في حل مشاكل الامبراطورية كما لم تنجح عملية نفي الأنجلوسيين في الإبقاء على حكومة الدوق فقام ابنه عليه وعزمه وأخذ مكانه . ولم ينجح ابنه في ما أخفق فيه الوالد ، ومات فيليب الثالث سنة 1665 وتترك الحكم لابنه ولما يتجاوز عمره السادسة عشرة . وكما سار فيليب الثاني على نهج أبيه كارلوس الخامس في شد عضد الامبراطورية ، فإن فيليب الرابع سار على خطى والده وتترك الحكم الفعلي لشقيقه أنجلوسي يدعى غاسبار دي غسمان (Gaspar de Guzman) ، أو دوق أوليبيريس . والخلاص الجيدة التي تحلى بها الكومنولث لم تسعف إسبانيا التي بدأت سمات الشيخوخة تدب في أوصافها المتشعبة ، وتبعدت محاولاً لها كحشد الطاقات المبعثة ، وتطبيق برنامج اصلاح شامل ، وإعادة رفع الأعمدة المنهارة التي قامت عليها الامبراطورية . وخلال سنوات حكم أوليبيريس التي استمرت 22 عاماً استوفت الحرب ضد الهولنديين وتوترت إسبانيا في أغلب الحروب الاوروبية وبدأت الأمور تتقلّل من سيء إلى أسوأ اعتباراً من سنة 1628 . ولكن سنة الكارثة كانت 1640 .

ومنذ سنة 1628 اشتبك الأسبان والفرنسيون في إيطاليا على منطقة مانشوا ، واستمرت الحرب أربع سنوات ثم اندلعت على الحدود بين البلدين سنة 1635 .

وبعد أربع سنوات تقدم الفرنسيون بموافقة سكان قطالونيا واحتلوا تلك المملكة الشمالية الشرقية ، وأعلن انفصalamها رسمياً عن إسبانيا سنة 1640 . ومنذ بداية السنة تلك تمكن الهولنديون من هزيمة الأسطول الأسباني الذي حاول استعادة البرازيل ، وأعلنت البرتغال انفصalamها عن إسبانيا ونصبت بوجنا الرابع ملكاً جديداً . حدث ذلك في وقت كانت فيه الجيوش الهولندية والإنجليزية والألمانية تحرز الانتصار تلو الآخر وتضيق الخناق على الامبراطورية . وحين حاول دوق أوليبيريس دفع جيش بقيادة مركيز بلش لتأديب القطلانيين ، تصدى له الفرنسيون وأنصارهم في قطالونيا وأوقعوا به المذلة بعد 26 يوماً من بداية السنة التالية . ويكتب أوليبيريس انتقامه عن أحداث سنة 1640 فيقول : « هذه السنة دون ادنى شك أسوأ سنة خبرتها هذه المملكة » . واستمر حكم أوليبيريس ثلاث سنوات أخرى تقوض خلالها النظام المالي الاقتصادي والسياسي واضطر إلى الاستقالة ، ومات سنة 1645 وهو على حافة الجنون . أما فيليب الرابع فحاول في البداية إدارة الحكم مباشرة ولكن السلطة تسربت من بين يديه فتملكها الدون لويس دي هارو ابن اخت أوليبيريس ، وتحيل للجميع وقتها أن إسبانيا تعرف الماضي ولكنها تجهل أي شيء عن الحاضر أو المستقبل .

وفي لحظات اليأس الشامل كان هناك بصيص من نور ، إذ قررت قطالونيا العودة إلى الناج الأسباني سنة ١٦٥٢ ، وانفقت أسبانيا وفرنسا على إنهاء الحرب بينهما بموجب صلح البريبيه سنة ١٦٥٩ ، وكان توقيع المعاهدة اعتراضاً ضمنياً ببیوتو نفوذ أسبانيا وصعود نجم فرنسا . أما البرتغال فاختارت الاستقلال النهائي وقتلت من استعادة البرازيل من الهولنديين ، وهزمت بمساعدة الإنجليز والفرنسيين سنة ١٦٦٣، جيشين أسبانيين أرسلوا لاحتضان البلاد ، ثم هزمت جيشاً ثالثاً بعد سنتين ، وفقدت أسبانيا الأمل باستعادة البرتغال واعترفت بها دولة مستقلة سنة ١٦٦٨ بعد ثلاث سنوات من موت فيليب الرابع واعتلاء كارلوس الثاني سدة الحكم ، كما سبق وأن اعترفت باستقلال هولندا قبل ٢٠ سنة من ذلك التاريخ .

ولكن حظ أسبانيا في تلك الفترة لم يكن أفضل من السابق ؛ إذ كان كارلوس الثاني إبلها ضعيفاً ومرضاً وانتظر الجميع موته بين يوم وآخر ، إلا أنه خدع الجميع فلم يمت إلا سنة ١٦٩٩ . وفي انتظار وفاة كارلوس الثاني أبرمت القوى الأوروبية الرئيسية في تلك الحقبة معاهدين لتقاسم ممالك الإمبراطورية ولكن كارلوس أفشل جميع المعاهدات عندما أوصى بكل مالكه لـ فيليب الخجو حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر . ولما كان الإختيار غير مرض لجميع الدول باستثناء فرنسا فقد أعلنت الحرب المعروفة باسم حرب الخلافة الأسبانية سنة ١٧١١ ولم تنته إلا بعد ١٢ سنة . تلك كانت أول حرب دولية بين قوات الحلفاء الممثلين بـ بريطانيا وهولندا والنمسا وبروسيا وهانوفر ، والبرتغال « وبين فرنسا وبعض حلفائها » وكانت ساحات الحروب أسبانيا وإيطاليا وإنكلترا وهولندا وبحر الشمال والبحيرات . أما الغنيمة فلم تكن تقل مساحة أو أهمية إذ أن أسبانيا عملت ضعفها ، كانت تتضمّن خلافها ، معظم مناطق أميركا اللاتينية باستثناء البرازيل ، وشملت الفيليبين وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبينا وميلانو ونابولي وصقلية وسردينيا والجزائر الشرقية وغيرها . وفي السنوات الأخيرة ضعفت قوة فرنسا فعرضت الصلح ولكن الحلفاء غالوا في مطالبهم ولم توقف المعارك إلا بعد تغير السلطة في بريطانيا وإبرام صلح اترشـت سنة ١٧١٣ .

ويموجب الانفاق حصل فيليب الخجو على أسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد ، وأخذت النمسا ممالك أسبانيا في أوروبا ، باستثناء صقلية ، التي كانت من نصيب مملكة سافوي . وكان نصيب بريطانيا جبل طارق (احتل سنة ١٧٤٤) ومتروقة ونيوفاوندلاند ونوفا سكوشيا ، واحتكر تجارة العبيد . كانت تلك الخطوة التي غيرت خريطة العالم وقلبت موازين القوى واسفتحت المجال أمام بداية عهد الاستعمار فيما بعد . وفي السنوات اللاحقة بدأت بريطانيا تحقق توسعها على حساب هولندا وتمهد الطريق لبناء إمبراطوريتها المعروفة ، بينما انحصرت أهمية إسبانيا في حيز ضيق ، واتبع المجال أمام القوى الأعظم وهي فرنسا وبريطانيا والنمسا لتلعب دورها إلى أن تغيرت موازين ثانية عقب الحرب العالمية الثانية .

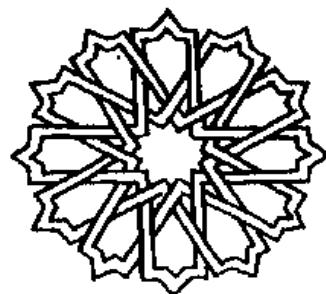
. وبين الحروب مرت فترة طويلة على إسبانيا تحت ظل حكم الأسرة الفرنسية وارتبط مصيرها بمصير فرنسا إلى أن كانت سنة ١٧٨٩ عندما اندلعت الثورة الفرنسية ، وكان من الطبيعي أن يصطدم الملك الأسباني كارلوس الرابع (١٧٨٨ - ١٨٠٨) مع السلطة المدنية في فرنسا بعد أن أخفق في إنقاذ لويس السادس عشر من مفصلة الثورة . وبوجود نابليون دخلت إسبانيا تدريجياً في مخططات فرنسا وشنَت الحرب على

بريطانيا ولكنها لم توفق ، وتمكن البريطانيون من تحطيم الأسطولين الفرنسي والأسباني في معركة طرف الغار سنة ١٨٠٥ . أثارت هذه الفزعة الأسبان فقاموا على الملك فأضطر وحاشيته إلى الفرار والالتجاء إلى فرنسا . ورد نابليون على الثورة فعين شقيقه جوزيف ملكاً على إسبانيا فجاءوه الأسبان بإعلان ما يسمى بحرب الاستقلال الإسبانية التي استمرت فترة طويلة . وشاركت القوات البريطانية في القتال إلى جانب الثوار الذين أبدوا في معارك كثيرة ، بأساً شديداً وصموداً عنيفاً يذكر يضمون الأنجلوسيين المواركة خلال الثورة الأنجلوسية الكبيرة . وفي تموز من سنة ١٨٠٨ استسلم حوالي ٣٠٠ جندي فرنسي للثوار وفر جوزيف من إسبانيا ، ولكن سرعان ما تراجع الثوار بعد أن تدخل نابليون بجيشه عدد ٣٠٠ جندي وأحتل مدريد . وفي سنة ١٨١٢ استغل الأسبان وخلفاً لهم انشغال نابليون بالهجوم على روسيا وحرروا العاصمة .

وخلال هذه السنوات خسرت إسبانيا مستعمراتها في العالم الجديد واحدة تلو الأخرى، ثم فقدت آخر مستعمراتها هناك نتيجة الحرب الأنجلوسية – الأمريكية التي اندلعت سنة ١٨٩٨ . وبعد ثلاث سنوات نصب الفونصو الثالث عشر ملكاً على إسبانيا ، إلا أن هذا الملك ، الذي ينتهي إلى أسرة بوربون الفرنسية ، لم يتمكن من السيطرة على الوضع طويلاً في فترة ابتدأ فيها إسبانيا بأنظمة عسكرية ديكاتورية أهملتها الحكومة التي شكلها الجنرال بيريو دي ريبة سنة ١٩٢٣ . وأمام الاحتفاق في الإطاحة بالحكومة العسكرية أعلنت جمهوريات في برشلونة وشيشيليا وغيرها ، واضطرب الملك إلى الاستقالة سنة ١٩٣٠ بعد أن تفلس تأييد الجماهير للملكية . وفي هذه الفترة العاصفة من تاريخ إسبانيا الحديثة أعلنت قطاعونيا نفسها جمهورية مستقلة عن الحكومة المركزية في مدريد ، وتعاظم النداء بتطبيق الحكم الذاتي في إقليمي الباسك وبلنسية ، وأدت سياسات داخلية مجحفة إلى اندلاع الاضطرابات ، والاضرابات العمالية التي وصلت أوجها بعد اعتقال ابن الديكتاتور السابق ريبة ورئيس حزب الكتائب البيوني ، واغتيال كالبو سوتيلو زعيم المؤيدين لعودة الملكية .

وفي السابع عشر من تموز سنة ١٩٣٦ أعلن الجنرال فرانسيسكو فرانكو عصيانه في المغرب في حركة تزامنت مع ميليات لها في أشبيلية وميلونة ، وكان ذلك مقدمة لأندلاع الحرب الأهلية التي استمرت حتى نهاية آذار سنة ١٩٣٩ عندما انهارت مقاومة المدنيين ضد العسكريين ، واتبع ذلك بأعمال انتقامية بشعة . وفي ظل الجنرال فرانكو حكمت إسبانيا بين حديديتين ومال إلى إعادة الملكية فاختار حفيده الفونصو الثالث عشر ولها للعهد . وعندما مات فرانكو سنة ١٩٧٥ ، أصبح خوان كارلوس ملكاً على إسبانيا وإنفتحت أبواب الديمقراطية وإختار الإسبان آخر سنة ١٩٨٢ أول حكومة اشتراكية بعد أن تقلصت قوة اليمين .

الفصل
الخامس



الأذليسون ومحاكم التفتيش

١ - طبيعة العلاقات الدينية في شبه جزيرة ايبيرية

كانت الغالية العظمى من سكان شبه جزيرة ايبيرية تدين بال المسيحية الكاثوليكية مع وجود أقلية مهمة من اليهود ، عندما بدأ فتح الأندلس سنة ٧١١ (٩٢). وكان القوط الغربيون أقلية حاكمة مستبدة بعيدة عن السكان المحليين ، ولذا فإن كثيراً من السكان رجعوا بالفاتحين الجدد ، وقدم بعضهم المساعدة للخلاص من لذريق وبلايه ، مما أتاح للعرب استكمالاحتلال شبه الجزيرة خلال سنوات قليلة ، والشروع في بناء مجتمع جديد على أساس السماحة الدينية التي طبقت بنجاح كبير . ومعظم مؤرخي الفترة الأولى من فتح الأندلس يعترفون بأن العرب امتهنوا عن استخدام القسر أو الضغط أو حتى الدعاية الظاهرة لاستئلة سكان شبه الجزيرة إلى الإسلام . وكان التعامل بين الفاتحين وأهل البلاد قائماً على اتفاقات مختلفة وإن المحصر جوهرياً في أمرتين وهما: «أن يدفع هؤلاء جزية على رؤوسهم وخراجاً على أراضيهم كان في الأغلب جزءاً من غلة الأرض ، يعادل الثلث حيناً والربع حيناً آخر حسب طيب الأرض وغناها» (١) وختلفت الجزية في قيمتها إلا أنها حدّدت عموماً بمبلغ ٤٨ درهماً للميسورين و٤٤ درهماً للذوي الدخل المتوسط و١٦ درهماً للصغار ، مالم يجل دون دفع الجزية المرض أو غير ذلك .

واعتمد تطور العلاقات بين الفئات التي سكنت شبه الجزيرة في الفترات السابقة على مجموعة كبيرة من الشروط ، بعضها كان نتيجة حتمية للوضع الذي كان قائماً قبل الفتح ، وبعضها الآخر جاء نتيجة تفاعل الفاتحين ، أو الغاليين مع المغلوبين سكان الجزيرة . فالقسم الأول كان مؤلفاً بصورة أساسية من العرب والبربر ، بينما شمل القسم الثاني النصارى (العجم) وعرفوا أيضاً باسم المعاهدين (المعاهدة) أو أهل الذمة أو المستعربين (Mozarabes) . كما شمل المسمالة (الأسلامة) وحمل أبناؤهم صفة المولدين بالإضافة إلى اليهود والمصقالبة أبناء الدول الأفريقية الذين تعهدت الدولة برعايتهم ، وأكثر الحكم الرضي من جمعهم ، وإن كان الاسم ينطبق عموماً على أهل تلك الدول الذين يباعون عبيداً بعد أسراهم . وكان من الطبيعي أن يقدم جنود الفتح ، ومن جاء بعدهم ، على التزاوج من النساء المحليات اللواتي توفرن آنذاك ، الأمر الذي ساهم في تسريع عملية امتصاص العنصرين ونشوء أجيال جديدة نتيجة لهذا التخالط . وبما أن دخول الإسلام كان يعني الانبعاث من العبودية أو التقرب من السلطة الحاكمة ، أو الخلاص من دفع الجزية فمما لا شك فيه أن أعداداً كبيرة أعلنت إسلامها هذه الأسباب إضافة إلى

(١) « تاريخ افتتاح الأندلس » ابن القوطية ، تحقيق عبد الله ابيس الطياع ، (بيروت ، ١٩٥٧) ص ٢١١ ، وانظر كذلك : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للباحث أحمد بدر ، ص ٤١ .

الاقتناع بجدوى دخول الدين الإسلامي^(١) ، ولكن هذا لم يكن عائقاً أمام تمعن النصارى الذين اختاروا البقاء على دينهم بمحرومهم في العبادة والارتفاع إلى مراتب مهمة في النظام السياسي الجديد: « وكانت مراكزهم في طليطلة وشبيلية وقرطبة وما زدة ، وتعتبر طليطلة مركزهم الأساسي ، لأنها مقر مطران (رئيس أساقفة) الكنيسة الأسبانية ، وكان تعينه وتعيين أساقفة المراكز الثلاثة الأخرى يخضع لتصديق الأمير أو الخليفة »^(٢) . كما أن بعضهم كان مقدماً في عهد الولاة إلا أن عبد الرحمن الداخل عين لأول مرة قصاصاً (Comes) عاماً لولاء النصارى أهل اللذمة يقيم إلى جواره في قرطبة ويستشيره في أمور كثيرة : وشغل هذا المنصب أرطباش (Ardabas) الذي كان من حزب وقلة (Aquila) الذي ساعد المسلمين في فتح الاندلس^(٣) .

وفي ظل طابع التسع العام اتيح للجميع المشاركة في بناء مجتمع جديد وحضارة فريدة عادت على الجميع بالخير ، ولكن هذا لم يمنع قيام حركات محدودة في البداية عادت السلطة ودين السلطة . اذ ظهرت في قرطبة بين سنتي ٨٥٠ - ٢٣٥ و ٨٥٩ - ٢٤٥ طائفة تحدى افرادها النظام القائم وطلبو الشهادة استئصالاً للدين المسيحي . ولكنها كانت حركة صغيرة عارضتها الكنيسة عموماً على أساس أن المغالاة فيها ستعود بالضرر على جميع المسيحيين . وانتهت الحركة إلى التبدد بسبب السياسة الحكيمية التي اتبهجها محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٢٧٣ / ٨٨٦) وكان من نتائجها اعتناق الغالية العظمى من سكان قرطبة المسيحيين للإسلام^(٤) . ويمكن القول عموماً أن غالبية سكان المناطق الواقعة جنوب نهرى . ابرة ودويرة كانت من المسلمين حتى سقوط الخلافة القرطبية وبداية تقدم الشماليين باتجاه الجنوب .

ويبينما لم تكن المالك النصرانية الشمالية تشكل أي خطير حقيقي على الخلافة ، فإن المؤلفين والمستعربين لعبوا دوراً مهماً في إثارة الأضطرابات ، التي تميز بعضها بخطورته الشديدة ومساهمته في تقليل نفوذ قرطبة حتى لم تكن سلطتها تتجاوز أحياناً عاصمة الإمارة . ومن الفتنين ، كان المؤلفون الجهة الأخططر ، وجاء تفجر حركتهم هذه بعد هذه استمر أكثر من قرن . ويشرح الدكتور احمد بدر سبب ذلك بقوله : « إن الجيل الماديء هو الجيل الأول ، أي ذلك الجيل الذي كان قوطياً من ناحية المجتمع الذي كان يعيش فيه والقوانين الناظمة ل حياته ويسريحاً من ناحية عقيداته الدينية ثم دخل الدين الإسلامي . وبذلك لم يغير دينه فقط ، بل استبدل القانون القوطي بالقانون الإسلامي ، وهو أمر حرق له فوائد كثيرة ومنافع جلى ، فمن الطبيعي والحقيقة هذه أن يكون هادئاً . أما بالنسبة للأجيال التالية فقد

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر اعلاه ، ص ١١٠ .

(٣) « تاريخ الأدب الاندلسي » (عصر سيدة قرطبة) للدكتور احسان عباس (بيروت ، ١٩٧٩) ص ١٣ .

(٤) أول بعض المؤرخين أهمية كبيرة لهذه الحركة تتلخصها دوزي في أكثر من جزء وخصوصاً لما لين بول فصلًا كاملاً . انظر : Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, (4th Edition), 1980, PP 78-95-

اصبحت هذه المنافع جزءا من حياتها ويرث لها مساواه جديدة أدت إلى ثورتها^(١)، ومهمما يكن من خطورة هذه الحركات ، فإن التصدى لها أثبت فاعليته ولم تقوش الخلافة الا بعد الفتنة البربرية التي لحقت بسقوط الدولة العامرة التي حكمت أيام الخليفة المستضعف هشام المؤيد^(٢)، وقيام مالك الطوائف .

ف ظل ملوك الطوائف ضعف شأن الأندلسيين وتقلصت قدرتهم القتالية وأفسحت الحالات الداخلية المجال أمام الفونوصو السادس لاحتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) . وبالرغم من هذا الانتصار العظيم الذى حققه الفونوصو فإنه لم يتحول على الفور إلى انتصار مسيحي على الاسلام ، ولم يتحول مسجد طليطلة الكبير إلى كنيسة الا بعد شهرين من استسلامها بتشجيع رئيس الأساقفة برنارد وزوجة الفونوصو الفرنسية كونستانتس . وفي يوم إخلاء المسجد من المسلمين دخل الجنود إلى المسجد . « وليس فيه الا الشیخ الاستاذ المغامی آخر من صدر عنه ، واعتمدہ في ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد اطاف به مردة عفاریته ، وسرعان طواغیته ، وبين يديه احد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عجل ، وأشار هو الى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ماطاش ولا تهیب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانصب ، والنصاری يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تقتد اليه يد ، ولا عرض له بمکروه واحد»^(٣) . وتغير المسجد لم يمنع الفونوصو من اعلان نفسه « امبراطورا على الملتين » أي: النصرانية والاسلام ، كما اعلن الملك الفونوصو العاشر نفسه سنة ١٢٥٢ (٦٥٠) ملكا على الملل الثلاث : النصرانية والاسلام واليهودية ، رغم بطيشه بال المسلمين واليهود ، ومحاوله بسط نفوذه على العدوة المغربية .

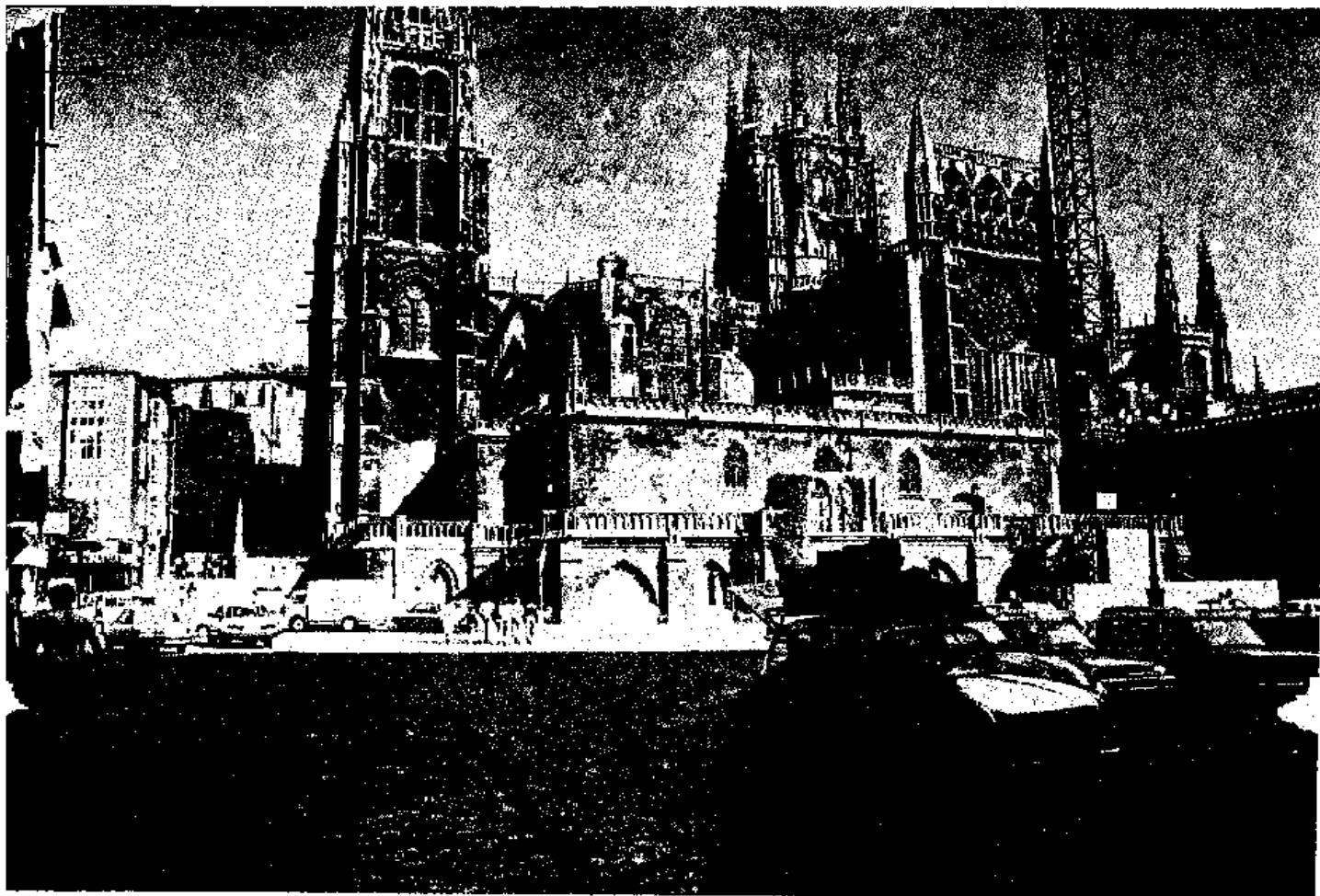
و سيرة السيد القنسطنطنی (El Cid Campeador) تقدم مثالا فريدا للعلاقات بين الاسلام والمسيحية في تلك الفترة من تاريخ الاندلس . فهذا الفارس ، الذى يعتبره الأسبان بطلا قوميا تربى في بلاط بنى هود أصحاب سرقسطة^(٤) واستعنوا به في صد زحف المرابطين وأعمال عسكرية أخرى . ولكنه اشتهر في التاريخ الأسباني كبطل قاوم المرابطين ، واحتل مدينة بلنسية سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) واعلنها ملكا خالصا له الى ان استعادها المرابطون من زوجته فيما بعد . وهناك قصة منثورة عن سيرة القنسطنطنی وقصيدة طويلة كتبت نحو سنة ١٢٠٧ ولكن العملين لا يشيران بوجه الخصوص الى أي عداء للاسلام كدين . وفي القصيدة يصوّره الشاعر وقد وقف على سور بلنسية يراقب تقدم المرابطين ويقول لبناته وزوجته أنهن سيعاينن اليوم كيف يكسب المرء قوه في تلك البقاع ، ولا يقول أن حرمه لنصرة المسيحية ضد الاسلام . وكان استغراب الأسبان لازياق بطالمهم من اصحاب سرقسطة يعادل استغراب اليونان عندما اكتشفوا ان طروادة في آسيا وليس في مكان ما من بلادهم .

(١) انظر : « دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدرا ، ص ١٢٦ .

(٢) انظر النصبة بالختصار في : « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر سيدنا قرطبة) ، ص ١٣٣ - ١٤٤ .

(٣) « الذخيرة في عباس أهل الجزيرة » أبو الحسن علي بن سالم الشنقيطي ، الجزء الرابع ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٤) « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٢٣ والمراجع .



كاتدرائية برغش وفيها تحت بلاطة رخامية كبيرة قبر السيد القنسطنطور وزوجته شانة .

إلا أن العلاقة بين الإسلام والمسيحية تبدلت بصورة جذرية اعتباراً من السنة التالية لسقوط بلنسية في المرة الأولى إذ أخذ الأتراك يشددون ضغطهم على القسطنطينية ، وما ان حل يوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (١٠٩٥ / ٤٨٨) حتى كان البابا إريان الثاني يعلن في كليمونت بداية الحروب الصليبية في المشرق دون ان يغفل الاشارة الى أهمية مساعدة نصارى الشمال الأندلسي في حروتهم ضد الاندلسيين والمغاربيين . وفي مقابل هذا البعض المسيحي كانت الأحوال في الأندلس تسير من سوء إلى أسوأ فضاق الناس ذرعاً بالمغاربيين ، لأنهم مكروا الفقهاء من الناس وتشبه المغاربيون بالأندلسيين : «في الأخذ بأسباب التحضر ... وجعل بعضهم إلى الاستبداد ... وبذلك تضعضعت القاعدة التي قامت عليها الدولة ، وهي البعد الديني والجهاد ... ولم يكدد الموحدون يظهرون حتى كان القضاة والمغامرون في الأندلس ، قد اعلنوا استقلالهم ، كل في بلده وناحيته »^(١)، وكما ورث المغاربيون المغاربيون في المغرب ، فانهم حلوا محل المغاربيين في الأندلس كذلك ، وحملوا راية العودة بال المسلمين إلى القرآن والسنة والتشدد في التعامل مع الناس .

(١) المصدر السابق ، ص ٣١

وإذا كانت طبيعة حكم المرابطين أدت إلى تغير الأندلسيين منهم ، فإن الوضع انقلب رأسا على عقب بالنسبة لكتيبيين من النصارى المعاهدين ، ولذا تمجدهم يستدعون الفونصو الأول «الحارب» (الفتش بن ردمير) سنة ١١٢٥ (٥١٩) بعد خمس سنوات من احتلاله لمدينة سرقسطة . وحاول الفونصو احتلال غرناطة بعد حصارها ولكنه اخفق مومع ذلك استمر في غزوه الواسعة إلى أن عاد إلى الشمال بعد رحلته التي استمرت حوالي السنة وأخذ معه حوالي ١٠٠٠٠ من المعاهدين وأسرهم . أما باقي المعاهدين الذين ثبت اشتراكهم في استدعاء الفونصو . فتم تغريتهم إلى المغرب في السنة التالية بفتحى من قاضي الجماعة (القضاة) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد^(١) . وما لاشك فيه أن ازدياد قوة الشمال وتصاعد الضغوط في الجنوب سببا إلى حد ما، ففصل تردد الكثيبيين من النصارى المعاهدين باختيارهم الانتاء إلى الشمال ، كما سببا ضغوطا أخرى وارتعال كثير من المستعربين والمهدود إلى المناطق التي أصبحت خاضعة لملك الشمال . وبالرغم من أن سيطرة الموحدين على الأندلس اعتبارا من سنة ١١٤٥ (٥٤٠) ربما سرعت في انتقال الولاء ، فإن هذا الاتجاه بدأ اثر انهيار الخلافة واستمر في عهد المرابطين لاسيما وأن الروح الصليبية تفجرت في أوروبا منذ سقوط القدس سنة ١٠٩٩ (٤٩٢) واستمرت في توقدتها حوالي قرن ونصف القرن بعد ذلك التاريخ . (انظر الفصل الأول : دور الكنيسة البابوية في سقوط الأندلس) .

وبينا عمد الشماليون إلى زيادة الاستعانة بالفرنسيين بعد هزيمة ثلاثة ١٠٨٦ (٤٧٩) ، فإن البرتغاليين استفادوا من الصليبيين الانجليز والهولنديين والآلان المتوجهين إلى الشرق في احتلال عدد من المدن الرئيسية مثل لشبونة ١١٤٧ (٥٤٢) وقصر الفتح (قصر أبي دانس) سنة ١١٦٠ (٥٥٥) وشل ١١٨٩ (٥٨٥) . واحتلال المدينة الأخيرة يعطي الانطباع بأن استعانة البرتغاليين بالصليبيين لم تكن تعنى بالضرورة خوض الحرب مع المسلمين على الأسس ذاتها إذ أن المهاجمين قطعوا الماء عن المدينة فطلب أهلها الصلح . ولكن الصليبيين رغبوا بقتل أهل المدينة في حين تدخل سانشو الأول ملك البرتغال وأفعمهم بالسماح لأهلها بالخروج ، بعد أن يتركوا كل شيء فيها . (٢) ولكن لم يكن بإمكان الممالك المسيحية في الأندلس الاستمرار في اتباع نمط قتالي مختلف عن النمط الذي يربز مع الحروب الصليبية لو افترضنا أنهم رغبوا بذلك حقاً . وفي سنة ١١٨٧ (٥٨٣) هزم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين في معركة حطين واستعاد القدس فعملت البابوية بزعامة سيلستين الثالث (١١٩١ - ١١٩٨) على التركيز على تحقيق نصر في الأندلس . وكان لهذا البابا دور مهم في مصالحة ملوك الشمال والإعداد لشن الحرب على الموحدين .

وأمام ازدياد تدخل البابوية في الحرب ضد الأندلسيين والموحدين ، لم يعد في مقدور ملوك الشمال اتباع أي أسلوب آخر غير الذي تريده روما . إلا أن البابا سيلستين الثالث والفونصو الثامن-الذي قاد

(١) انظر قصة الاستدعاء في «الاحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ، ١٩٧٣) الجزء الأول ، ص ١١٤ - ١٢٠ . وكذلك في «المحلل المنشية في ذكر الأشعار المركبة» (مجهول) ، ص ٦٥ - ٧١ .

(٢) انظر «التاريخ الأندلسي» للدكتور عبد الرحمن على الحسيني ، ١٩٧٦ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ والمراجع المرجدة .

الجيش الموحد للشماليين والصلبيين - قللاً كثيراً من قوة الموحدين بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، وكانت نتيجة وقعة الأرك يوم الثامن عشر من تموز سنة ١١٩٥ (الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ) هزيمة ساحقة لحقت بالشماليين . وهذه المهزيمة التي جاءت بعد حوالي ثمان سنوات من استعادة القدس أثارت الذعر في أوروبا ، وانتشرت خواوف تقول إن الخليفة الموحدى يعد جيشه قوامه ... ٦٠٠ مقاتل لاكتساح أوروبا . وهكذا بدأت أوروبا تعد العدة للهجوم وخاصة بعد سقوط قلعة شلبطرة على يدي خليفة المنصور ابنه الناصر لدين الله . ولم يكن حماس البابا أنوصان الثالث للقضاء على المسلمين بأقل من حماس سلفه . وتنتقل المنشد جيفودون (Gevaudon) من مكان آخر يحيث المسيحيين على المشاركة في القتال ، وخاصة لأن ساحة المعركة أقرب إليهم من القدس ، ولكنها لاتقل أهمية .

وفي السادس عشر من تموز سنة ١٢١٢ ، الخامس عشر (أو الرابع عشر) من صفر سنة ٦٠٩ هـ حقق الشماليون وحلفاؤهم انتصاراً ساحقاً على الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ، وتابعوا زحفهم فاحتلوا مدنًا أخرى بينها بيساسة وأبادة . وخلال فترة لحقت بمخروج جيوش الشمال من طليطلة وقعت حادثتان تشيران إلى تردد ملوك الشمال في البطش بال المسلمين إن انحناوا استسلامهم . الحادثة الأولى وقعت يوم الأول من تموز بعد سقوط قلعة رياح (Calatrava) ، وقبل ملوك الشمال فيها شروطاً أغضبت الفرسانين^(١) ، والثانية خلال حصار مدينة أبدة عندما وافق الفونصو الثامن ويدورو (بطره) الثاني وسانشو السابع على قبول فدية عرضها أهل المدينة لقاء سلامتهم ، إلا أن القساوسة ، ومن بينهم أسقف طليطلة ومطران نربونة ، عارضوه باسم البابا ، وأصرروا على استسلام المدينة دون قيد أو شرط^(٢) . وما تبع ذلك يعطي صورة جلية لخط الحرب التي شنها الشماليون على الأندلسين فيما بعد ، إذ يقول صاحب «العجب» إن الفونصو الثامن بعد الراقة : «... قصد مدینتي بیاسة وابدة ، فأما بیاسة فوجدها او اکثرها خالية ، فحرق ديارها وخرب مسجدها الأعظم ، ونزل على ابدة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثیر من المهزومة واهل البلد نفسه ، فاقام عليها ثلاثة عشر يوما ، ثم دخلها عنوة فقتل وسى وغنم ، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والأطفال بما ملأوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من المهزيمة»^(٣) .

أ - تطور المعصب الديني عند القشتاليين :

لعب العنصر الديني دوراً بارزاً في استمرار الحرب بين الشماليين والأندلسين ، ولكنه لم يكن العنصر الخامس في البداية ، لأن اهتمام ملوك الشمال بالحصول على الإراضي والأسلاّب كان أهّم من نشر الضرارنة . ولم يكن ذلك غريباً على فترة نظرت فيها الرعية إلى الملك على أنه مفتاح الرخاء ، وإلى الحروب

(١) يقول المراكشي في العجب (ص ٤٠١) : «لأوخر الأدقش (المونصو الثامن) - لعنه الله - من مدینة طليطلة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رياح ... فسللها إليه المسلمين الذين بها بعد أن امتهن على القسمهم ، فرجع عن الأدقش - لعنه الله - بهذا المسبب من الروم جموع كثيرة ، حيث معهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئت هنا لفتحن بنا البلاد ، وتعينا من قتل المسلمين مالا في صحتك من حاجة على هذا الوجه».

Bleye, P. Agundo. Manual de historia de España, tom I, P 647.

(٢) انظر «العجب في تاريخ اخبار المغرب» لخبي الدين عبد الواحد بن على المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٤٢ - ٤٣ .

سيلا رئيسيًا لجمع الثروة وسط وضع اقتصادي شمالي كان يقوم على الرعي وبعض الزراعة والتجارة . وإنها في الخلافة قوض تلك الوحدة الاندلسية التي تصدت للشمايين ثلاثة قرون تقريبا ، وافسحت المجال لقيام ملوك الطوائف الذين ملكوا من الصفات العظيمة مآفاق قوتهم الحقيقة باضعاف كبيرة، وصدق فيما قول الشاعر :

ما يرمي في أرض اندلس أسماء معتمد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي اتفاخا صورة الأسد^(١)

ولم يجد معظم ملوك الطوائف غصانة في دفع الجزية لمملوك الشمال ، لحماية أو دفع شر ، حتى أصبح الشمال القشتالي في عهد الطوائف واحدا من أهم المراكز المالية في أوروبا إضافة إلى إيطاليا وفلاندرز . ولكن ذلك لم يكن كافياً إذ ساهمت التزاولات الأنجلوسكسونية ومساعدة اليهود^(٢) على سقوط طليطلة التي كانت فيما بعد المركز الحربي الرئيسي الذي انطلقت منه جيوش الشمال والقوات الأوروبية لاحتلال الأندلس . وطوال الفترة التي كان فيها الخصم يتمتعن بالقوة وتد فيها احتلالات شن هجمات مضادة ، فإن سلوك الشمايين كان عموما يتسم بالخذل . وهذا يتضح من تصرف الفونصو السادس الذي وعد المسلمين بالمحافظة على أمواهم والامتناع عن مصادرتها حين يغادرون المدينة لسبب أو آخر ، وعدم التدخل في الشؤون الدينية للمسلمين أو لليهود .

ونظرا لسيطرة الفونصو على مدينة رئيسية تضم عددا كبيرا من المسلمين ، فقد أعلن نفسه « امبراطورا على الملائكة » ولكن مساعاه لتبني المسلمين انهار عندما لم يحفظ للمسلمين عهده بالمحافظة على حرمة المساجد في المدينة .

وفي عهد الفونصو السابع (١١٢٦ - ١١٥٧ / ٥٢٠ - ٥٥٢) تعمد الجبود قتل جميع الأئمة في منطقة مدينة شريش . واحراق المساجد والكتب الدينية . ولكن هذه الأمثلة القليلة كانت مجرد البداية لأن هريرة الموحدين والأندلسين في معركة العقاب (١٢١٢) أظهرت المسلمين في حالة ضعف عسكري خطيرة ولم يعد الخوف من انتقام لاحق يشكل أية عقبة حيال المذابح الرهيبة التي ارتكبها الشمايون ضد الأندلسين ، وصعدت الروح الصليبية من حملة البطش بالمسلمين في الأندلس . وفي المراحل التالية من تاريخ قشتالة لم يتغير الوضع كثيرا فالфонصو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤ / ٦٥٠ - ٦٨١) مثلا ، أعلن نفسه ملكا على الملل النصرانية والاسلامية واليهودية ، وكان عارفا بعلوم العرب وحضارتهم وسماتهم الدينية ولكن هذا لم يمنعه من البطش بالمسلمين وطردهم من مدينة بلة وغيرها ، وحتى نقل الحرب إلى المغرب .

(١) يسب البعض الآيات للشاعر أبي الحسن بن رشيق القرافي، وتنسب عند آخرين لبيه . انظر « وفيات الاعيان وأئمـاء أبناء الزمان » ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلukan ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٦٨) ، الجزء الرابع ، ص ٤٩٨ ، وكذلك مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثاني ، ص ٧٥٢ .

(٢) جاء في الدليل المسمى « اسبانيا » ، وحاولة (العرب) « مصادرة ثروة اليهود دفعهم إلى الاستجادة بقرة النصرانية المعاومة » ، ودخل الفونصو السادس طليطلة بمساعدة السيد (القنطيطور) متضمنا سنة ١٠٨٥ . انظر : Spain, The Mainland, Benn, P 272.



الكنيسة
داخل
المجاد
الكبير
في قرطبة

وتصرف غيره من ملوك شبه جزيرة آيبيرية لم يكن كثير الاختلاف في تلك الفترة ، إذ أن خاتمي الأول الأرغوني (١٢١٣ - ١٢٧٦ / ٦١٠ - ٦٧٥) نكل بال المسلمين في الساحل الشرقي وطرد الكثيدين منهم ، ودفعته روحه الصليبية إلى التوجه إلى المشرق سنة ١٢٦٩ لخوض الحرب هناك إلى جانب الصليبيين .

وبين انتهاء مرحلة الاستيلاء على القسم الأعظم من الأندلس في القرن الثالث عشر ، وبداية الحرب ضد غرناطة سنة ١٤٨١ ، انشغلت ممالك شبه جزيرة إيبيريا بتابعة شؤونها الخاصة أو حروبها الداخلية المستمرة ، وهبطت الروح القتالية مع تردي وضع مملكة غرناطة بين الاستقلال والخضوع ، وكانت لها علاقة تجارية مع قشتالة وارAGON ، كما كان للأخرية علاقات مماثلة مع دول المغرب . ولذا أثارت بعض محاولات القشتاليين الهجوم على غرناطة استياء عاماً في تلك المملكة ، كما حدث عندما تجاهل مارتين يانيث (Martin Yáñez) اتفاق الصلح مع غرناطة وهاجمها سنة ١٣٩٤ ، ولايدو أن الكثيرون أسفوا لهزيمته وقتله اثر تلك المحاولة . غير أن الوضع تغير اعتباراً من سنة ١٤٥٣ عندما تجددت الروح الصليبية في أوروبا وبدأ بابوات روما في العمل للانتقام .

ففي التاسع والعشرين من آيار في ذلك العام تمكّن العثماني محمد (الثاني) الفاتح من احتلال القدسية ، بعد أن نقل السفن والمدفعية على الواح من الخشب المزيت فوق التلال ، وانزلاها في خليج القرن التذهبي ؛ لتفادي السلسلة الحديدية الضخمة^(١) التي نصبتها البيزنطيون على مدخل الخليج لمنع دخول السفن إلى المدينة المحاصرة . وقصفت المدفعية المحمولة على السفن أسوار المدينة ودخلتها القوات العثمانية وأضعة بذلك نهاية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . وفي ذلك اليوم الذي يعتبره البعض نهاية القرون الوسطى ، أعمل العثمانيون السيف في البيزنطيين وحولت كنيسة أيا صوفيا الشهيرة إلى مسجد ووجدت عاصمة الكنيسة الشرقية نفسها تحت رحمة العثمانيين المسلمين . وربما لم يكن سقوط المدينة يعني الكثير بالنسبة للكنيسة الرومية (الغربية) لأن الكنيستين انفصلتا عن بعضهما رسمياً قبل سقوط القدسية باربعين قرون (١٠٥٤) ، إلا أن نبوض العثمانيين على هذه الصورة بعد الهزيمة الماحقة التي الحقها بهم تيمورلنك سنة ١٤٠٢ ، دب الرعب في الشمال وسررت خشية رهيبة فيما بعد من أن يتبع العثمانيون امتدادهم نحو أوروبا فيستولوا على إيطاليا كما استولوا على اليونان .

هذه المخاوف كانت تعاظم مع تعاظم قوة العثمانيين ، وكان من الطبيعي أن تعمل بابوية روما على حد أوروبا على قتال العثمانيين ، كما كانت تخthem على شن الحرب الأخيرة ضد غرناطة وحماية الجناح الغربي للعالم المسيحي ، ولاسيما بعد أن بدأ العثمانيون في السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ومدد نفوذهم إلى مناطق الشمال الأفريقي . وكان احتلال استخدام غرناطة جسراً لعبور العثمانيين إلى أوروبا والتوجه فيها غرباً ، بالإضافة إلى توغلهم من ناحية الشرق ، قائماً عندما اعلنت إيزابيلا وزوجها فرناندو الحرب ضد آخر ممالك الإسلام في شبه جزيرة إيبيريا . وخلال تلك الحرب التي استمرت أكثر من عقد كامل من الزمن ، استعانت إيزابيلا بقوات أوروبية كثيرة لمحاربة الغرناطيين . فساهم الإيطاليون في ذلك

(١) مازال السلسلة محفوظة في متحف اسطنبول الحربي الذي يعود على عدد من الآثار القيمة الأخرى ، مثل سيف صلاح الدين الأيوبي وراية الصحابي أبوب .



محمد الشامي
(المحرف ،
المغرب ،
الطب رسول)

مدينة غرناطة كما ساهم نبالة السير إدوارد ودفيل (Edward Woodville) الإنجليزي باحتلال مدينة لوشة سنة ١٤٨٨ ، ولم ينقطع دعم الكنيسة الرومية لابنابيلا حتى لحظة استسلام غرناطة . والكنيسة الرومية التي وفرت الدعم المادى والمعنوى لقتاللة ، وفرت أيضا غفرانها الفورى لكل ما يمكن أن تفعله قواها خلال الحملة للقضاء على غرناطة ، فلم تعد هناك أهمية تذكر لأى اتفاق يمكن أن تضطر ابنابيلا لابرامه مع سكان تلك المملكة الإسلامية . وهذا ما حدث خلال حصار مدينة الذى استمر ثلاثة أشهر من سنة ١٤٨٧ واستسلم المدافعون عنها بعد أن وعدهم فرناندو الخامس بجزية العبادة والسماح لهم بإدارة أمورهم الداخلية وغير ذلك . ولكن مان وضع المدافعون السلاح جانبا حتى انقض عليهم جنوده فقتلوا منهم الكثير وبيع ثلثهم عبيداً وأحرق كثيرون أحياء بعد ان اخضعهم عمال محكم التفتيش للعذاب . وفي القسم الأخير من القرن الخامس عشر كان التقطيل الجماعي والنفي الشامل وتجاهل الوعود اساليب شائعة في وسط متخصص تحكمه ملكة متغصبة وتسوده الروح الصليبية العالية . وكان هذا عموما حال العلاقات الدينية في شبه جزيرة ايبيرية عندما سقطت غرناطة .

٢ - أصول محكمة التفتيش

إحراق الناس بسبب معتقداتهم الدينية بدأ في أوروبا منذ سنة ١٠٧٥ ، ولكنه لم يأخذ طابعاً منظماً إلا في عهد البابا أنوصان الثالث الذي أمر الكنيسة باصطهاد الغرابة ، ووضع بذلك الدعامة الأولى التي قامت عليها محكمة التفتيش فيما بعد ، وكان أنشاؤها تطبيقاً للحركة الاصلاحية البابوية التي قادها البابا غريغوري التاسع . وقد أشرنا في مكان سابق إلى المساعدة الخامسة التي قدمتها الكنيسة الرومية إلى الملكة القشتالية ايزابيلا لقتال غرناطة ، ولذا فقد كان من الطبيعي ان يطالب البابا خادمه ملكة قشتالة بتأسيس محكمة للتفتيش هناك تأمر بأمره . ولكن ايزابيلا كانت ترغب في محكمة تفتيش قشتالية تأمر بأمرها وليس بأمر البابا الذي كان يقع على مسافة شهر من السفر التواصل عن اشبيلية . ولم يجد البابا سيكستوس الرابع مفرأ في النهاية من الموافقة على طلب ايزابيلا باقامة محكمة تفتيش قشتالية في شهر تشرين الثاني سنة ١٤٧٨ (٨٨٣) . وأصدرت ايزابيلا بعد سنتين من ذلك مرسومها الشهير مطالبة رعاياها بتقديم كل المساعدات الممكنة لتسهيل مهمة عمال محكمة التفتيش .

ولم تكن محكمة التفتيش القشتالية دولة ضمن دولة ، بل كانت ذراعاً للسلطة تمتد باسم الدين إلى مراكز القوى المنلوبة للحكومة فتضرب رؤوسها وأفرادها وتصادر الممتلكات والأراضي لصالح الدولة ، أو تسجن أولئك الذين يتقدون السلعة . وربما وصل الأمر إلى حد تقديمهم ، بعد التحقيق والتعذيب ، إلى الساعنات المدية لتقضى الأخيرة بالحرفهم ، أو مصادرة أموالهم وحرمانهم من الحقوق المدنية . هذا الوضع يفترض أن تكون معتقدات الملوك وعمال محكمة التفتيش أكثر أهمية من معتقدات الكنيسة ، ولكن عمليات التعذيب والسجون والحرافق كانت تم باسم الكاثوليكية . وكانت مخيلة القائمين على التحقيق تفتقر عن أساليب التعذيب لم يعرفها العالم من قبل . وكانت اوضاع سجناء محكمة التفتيش تتنقل من سيء إلى أسوأ حتى يات تحد ذكر اسم محكمة التفتيش يبعث على التعوذ بالله والاستجاد بالملائكة . ورغم كل ممارسات محكمة التفتيش داخل قشتالة وخارجها ، فإن عمال المحكمة تلك لم يتمكنوا من تحقيق الغدف الذي وظفوا لأجله ، وهو العمل على اعلام الكاثوليكية في كل مكان والقضاء على جميع المذهب الدينية الأخرى . ولكن الكثيرون يعتقدون أن وجود منظمة مثل محكمة التفتيش ساهمت إلى حد كبير في انتشار الكاثوليكية في مناطق العالم الجديد واحتفاظها بالكثير من مناطق نفوذها السابقة . وهكذا فإن قشتالة كانت تستخدم الدين لنشر نفوذها السياسي ، ولكنها كانت في الوقت نفسه أدلة جباره لنشر الكاثوليكية مما أدى في النهاية إلى التضحية بقشتالة السياسية دفاعاً عن الكاثوليكية التي بقيت في حين تبدلت امبراطورية قشتالة التي لم يعرف العالم امبراطورية باتساعها

والتعصب الديني لم يكن السبب الوحيد في إنشاء محكمة التفتيش ، إذ أن حرب غرناطة استفادت بموال السلطة ، وترتبط على ايزابيلا توفير المبالغ اللازمة لدفع مرتبات الجنود واجور الخبراء الأجانب الذين استدعوا إلى قشتالة لادارة المدافع وشق الطرقات وبناء الجسور ، ويدو أنها وجدت في محكمة التفتيش الوسيلة السهلة للحصول على مبالغ كبيرة من الأموال المصادرة التي وقع أصحابها ضحايا محكمة

التفتيش . وكان اثناء تلك المحاكم مدعاة للأسف، فايزيلا كانت ملكة قديرة إلا أنها وقعت ضحية تعصيها ، وارتكب اسمها بمحاكم التفتيش وبالجرائم التي ارتكبها عمال محاكم التفتيش في قشتالة والعدوة المغربية ، ثم فيما بعد في المانيا وهولندا والعالم الجديد ، وكانت لعنة لم يخلص العالم منها حتى القرن الماضي . وفكرة الضطهاد الديني في قشتالة لم تكن وليدة القرن الخامس عشر ، لأن محكمة تفتيش بابوية اقيمت في قشتالية في بداية القرن الثالث عشر ، وكان معظم عمالها من الكهنة الدومينيك الذين انهمكوا في محاولة مقاومة الهروطة في قشتالة لاسيما في المناطق الجديدة التي تمكّن مسيحيو الشمال والأوروبيون من احتلالها في الاندلس . الا ان المقاومة كانت شاملة لاستمرار عمل محكمة التفتيش تلك ، وارتآت السلطات الملكية والمدنية على حد سواء، اعتقاد سياسة أكثر اعتدالاً بالنسبة لأهل الأديان الأخرى . ولما كان الهدف المعلن من عمل أية محكمة تفتيش هو القضاء على الهروطة بين المتصرين الجدد مهما كانت ديانتهم السابقة ، فإن وجود حاكم التفتيش القشتالية لم يكن لازماً لولا تنصر أعداد كبيرة من اليهود في الفترة بين سنة ١٣٩١ و ١٤٦٦ بفعل الضطهاد والضغط . ولذا فإن ضحايا حاكم التفتيش الاسپانية كانوا من اليهود المتصرين بعد مباركة البابا سیکستوس الرابع لخطوة اقامتها . ولما نفذ مدد الضحايا من المتصرين اليهود انتقل عمال المحاكم إلى الاندلسيين بعد استسلام غرناطة سنة ١٤٩٢ ثم جاء دور البروتستانت فيما بعد .

أ - ممارسات محكمة التفتيش :

كان عمال محكمة التفتيش يكتفون في العادة بشهادة شخصين ضد رجل أو امرأة اتهم بممارسة الهروطة ، قبل الشروع بتنفيذ المهمة الموكلة إلى العمال . كان هؤلاء ينطليقون إلى منزل المتهم او المتهمة في ظلمة الليل ثم يقرعون الباب ، ويطلب المعرفون من أهله السماح لهم بدخول البيت والاجتئاع إلى الشخص المطلوب . فان اجتمعوا اليه طلبوا منه ارتداء ملابسه والانطلاق معهم بهدوء . وان احتجج المتهم أو رفض فتح الباب ، دخلوا المنزل عنوة وكمموا فاه بواسطة آلة خاصة تشبه الإجاصة ، ويمكن توسيعها أو تضييقها بواسطة مفاتيح خاصة ، مما يضمن للمعرفين صمت المتهم حتى ولو حاول الصياح باعلى صوته المخنوقة . كانت نشاطات محكمة التفتيش في بدايتها ، ولذا فإن الاعتقال الصامت كان على جانب كبير من الأهمية لثلا يثير ذلك خوف الجيران أو حتى الاستصار للمتهم وتخلصه من المعرفين . ومن اعتقل بهذه الطريقة نقل إلى قصر محكمة التفتيش في المدينة المنورة وبدأت مرحلة جديدة من حياته ، يمكن ان تستمر سنوات عديدة . وقلما كان أهل المعتقل يتمكّنون من زيارة المتهم خلال فترة التحقيق ، ثم تطور الأمر فيما بعد حتى أصبح اهل المتهم او المتهمة اول من ينكر معرفتهم به . ولم يكن غير الصمت اجابة على سؤال الجيران والأقارب عن مصيره ، وقد لايشاهد اهل المتهم فزيدهم الا وهو مربوط إلى منصة الإحرق بعد الانتهاء من التحقيق معه .

في «البيت المقدس» أو سجن محكمة التفتيش ، كان المحققون يبذلون كل المحاولات الممكنة لدب الرعب في قلب المتهم مما يضمن اعترافه السريع . وكان جو السجن كافياً لاعطاء هذا الانطباع الأول

فالغرفة مظلمة- تذكر بالموت ومصدر الضوء الوحيد كان من شمعة على طاولة تخلق حولها عدد من عمال المحكمة . وإذا مثل المتهم أمام المحققين ، فرأى موظف عليه لائحة الاتهام والمحققون يراقبون بصمت عبر عينين تطلان من ثقبي غطاء الرأس . في البداية كان الحقائق الأكبر الذي يجلس الى كرسي منفصل قبالة الطاولة يتصنّع الاهتمام باوراق بين يديه ولكنه يضع الأوراق جانباً بعد فترة ، ويبدأ الموظف في سؤال المتهم عن اسمه وعنوانه وعمله واصدقائه ، والتفاصيل المطلوبة الأخرى متهم على المتهم بعد ذلك الأسئلة من المحققين . كان المحققون في العادة يلجمون إلى استغلال جميع التأثيرات النفسانية المتوفّرة . فطبعية الأسئلة تتغيّر من محقق لأخر، والبعض يستخدم لهجة قاسية بينما يستخدم آخر الرقة في توجيهه الأسئلة ، ويطرحون على المتهم أسماء بعض أصدقائه ومعارفه لإيهامه بأن أحدهم أو أكثر اعترفوا بمسؤولية المتهم للهرطقة واللحاد . وأحياناً كان المتهم يوضع في زنزانة مع سجين آخر ، يكون في الحقيقة جاسوساً لعمال محكمة التفتيش ويتّجاذب الأخير استدراج المتهم إلى الاعتراف . وإذا اخْفَقَتْ هذه المحاولات الأولية في الحصول على اعتراف المتهم بالجرائم المسندة إليه، أحضر إلى قاعة التحقيق ثانية وأمطر ببابل من الأسئلة ، لعل ذلك يساهم في اضطرابه ووقوعه في المغالطات أو حتى اعترافه . وإذا استمر المتهم في انكار التهم أعد عمال المحكمة العدة للمرحلة التالية وهي التتجول مع المتهم في غرفة التعذيب . وإن انكر أيضاً جُرْدَه من ثيابه استعداداً للتعذيب ثم عرضت عليه أدوات التعذيب وطرق عملها . فإذا استمر المتهم في الانكار فإن تعذيبه الفعلي هو المرحلة الخامسة والأخيرة من مراحل التحقيق .

والتعذيب بممارسة راققت ظهور محكمة التفتيش في إسبانيا ، ولكن توركيمادة كان أول من حث على انتهاجه وسيلة أساسية للحصول على الاعتراف الذي يريد عملاً المحكمة . وبعد «فن» التعذيب الذي انتبهجه محكمة التفتيش إلى نيكولاوس إيميرك الذي شغل منصب المحقق الكبير في مملكة أرغون . ويقال إن قوانين التعذيب التي وضعها إيميرك كانت من الاتقان بحيث لم يرد عليها توركيمادة إلا القليل . والذي اخْتَطَه توركيمادة كان موافقته على تعذيب المتهم إذا كانت الهرطة نصف مثبتة ، وإن بقي ذلك الإصرار الدائم على بذل كل المحاولات لنزع إيماء المتهم وإسالة الدماء منه « لأن على النصراني لا يعمل على إسالة دم النصراني الآخر » حتى ولو كان متهمًا بجريمة مثل الهرطة . والامتناع عن إسالة الدماء لم يكن دائمًا أفضل الخيارات المطروحة أمام المتهم . والوسائل التي كانت تتبع أسفرت في كثير من الأحيين ، وإن لم يكن في معظمها ، عن موت المتهم اختناقًا أو ارهاقاً أو حتى من الخوف . أما إذا حدث ومات المتهم فإن على المحقق الذي تسبب في تلك الوفاة المسارعة على الفور للحصول على إبراء ذمته من المحقق الأقرب، وكان هذا كافيًا في العادة على تشجيع المحققين للانتقال بسرعة أكبر إلى المرحلة الخامسة من التحقيق .

ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد والأنسان يربّع في اختراع آلات التعذيب لاجهار الآخرين على الاعتراف بشيء ما أو قوله شيء ما أو الإزداد عن معتقد أو فكرة . بعض الأفكار كانت غريبة والبعض الآخر أشد غرابةً من الفراعنة الذين اتقنوا فن التعذيب بالناقوس^(١) ، إلى الأشوريين الذين اعتمدوا

(١) وكان ساقوساً من النحاس نحسم الإنسان ينزل على المتهم من الأعلى ثم يفرغ بشدة فيسيل الدم من ذي المتهم ويفقد سمعه مع التكرار .

الخازوق او التعرف على براءة او ذنب متهم ماعن طريق القائه في الماء، فإذا طفا كان بريءا والا كان غير ذلك^(١) . وكما ان الوطن اعتبر مسؤولا عن الكثير من الجرائم ، فان الدين كان يستخدم من جانب المحققين الأسبان لممارسة بعض ابشع انواع التعذيب التي عرفها الانسان . ووسائل التعذيب التقليدية في تلك الفترة كانت تضم الخلعة والرافعة والتعذيب بالماء .

أما الخلعة فكانت أداة تعذيب واسعة الانتشار في معظم أنحاء اوروبا تشد المتهם من ساقيه الى طرف، بينما جزعه مثبت الى الطرف الآخر ، ويزاد الضغوط إلى أن تفصل عظام المعدب . وبالرغم من قسوة التعذيب بهذه الآلة، التي ماتزال متاحف الشمع في أوروبية حافلة بناذج منها ، الا أن الآلة المفضلة لدى محكم التفتيش كانت الرافعة . كان المتهם يوقف وقد ربط يده الى ظهره والحبيل معلق حول بكرة مثبتة في السقف . ولدى الاتهاء من هذه العملية الأولى يبدأ التعذيب برفع المتهם ببطء نحو الأعلى بحيث تتحمل يده المربيوطتان ثقل جسمه ثم ينزل ويرفع ثانية الى أن يعترف . ولو كان المتهם عنيدا ، او لم يكن لديه ما يعترف به ، فإنه يرفع بسرعة وينزل بسرعة الى ان تفكك مفاصله . واحيانا كانت الأثقال تربط الى قدميه خلال رفعه او يبقى معلقا فترة طويلة الى أن يغمى عليه .

والتعذيب بالماء كان يجري بعد ربط المتهם الى سلم وهو مدلى الرأس . وكان الرأس يحكم بسوار معدني وترتبط اليهان والقدمان باحكام شديد الى حافتي السلم . ومتى انتهت هذه العملية كان المفتشون يضعون قمامشة على فمه ويسدون المنخرتين بقطعتين خاصتين من الخشب ويفيدون بصب الماء من الجرار في فمه مما يضطر المتهם الى ابتلاع الماء والقماش . وكان الابناء الحقيقي ينجم عن تحرك المتهم يمنة ويسرة للإفلات ، فتششقق قدماه ويداه ويعتصر رأسه. واذا اغمى عليه سحبوا القماش من بعومه وانتظروا الى أن يستعيد وعيه للقيام بالعملية من جديد .

هذه هي آلات التعذيب الرئيسية ، ولكن تطور «فن» التحقيق كان يفسح المجال دائعا لآلات جديدة ووسائل تعذيب جديدة . الكرسي الأسپاني كان واحدا من آلات التعذيب المعروفة. وكان المتهם يربط اليه وتذهب قدماه بالسمن وتوضعان تحت نار حامية الى أن تقليا . والفالق كان أسلوبا واسع الانتشار في الحالات العادية، ولكن هناك روايات عن قلع الأظافر او ربط الأصابع الى ان ينفر الدم من تحت الأظافر . من الآلات الأخرى تمثال المومياء وهو صندوق يشبه كفن المومياء المصرية وثبت المسامير المدببة على جانبيه، وكان المتهم يوضع فيه ويغلق الباب عليه . كانت هناك أيضا أكياس خاصة يوضع المتهم فيها الى ان يقارب على الاختناق . وهناك روايات عن ممارسات محكم التفتيش هملت دفن الناس أحشاء، ويقال ان مثل هذه الحالات كانت تقع في هولندا أثناء الحملة الرهيبة التي قامت بها محكم التفتيش هناك اثر انتشار البروتستانتية . وهناك حالات ذكر انها اكتشفت في أصقاع العالم الجديد حيث كانت اسر بكامل أفرادها محجز حية خلف الجدران مما يؤدي الى موت الضحايا اختناق او عطشا ، وروايات

(١) اذا كان هذا عريبا فان تصرف الانجليز كان اشد غرابة اد تعودوا في الماضي على رمي المتهم في الماء فإذا غرق اعتبر بريءا والا انه يكون منينا وبالعقاب النبى يستحقه .

أخرى تحدثت عن طريق اللحم بالكمashات الخامنة وصب الرصاص في الجروح . ولعل أبشع ممارسات التعذيب على الأطلاق كانت تم بواسطة الصحن الساخن والقرآن . كانت الضحية تربط باحكام الى الأرض ثم يوضع صحن كبير فوق البطن وبه بضعة قرآن . وكانت النار تسقط تدريجيا على الصحن فتحاول القرآن الاحتفاء من الحرارة فلاتجد الا بطن الضحية تبرق فيه الى ان يموت . والوسيلة هذه ليست جديدة فبعض القبائل الأفريقيّة كانت تمارسها باستخدام المثل وابتاع الأسلوب نفسه . وربما كانت هناك أساليب أخرى لم يصلنا عنها شيء ، وربما كانت بعض الممارسات التي اشرنا اليها مختلفة أو ناما عنصر المبالغة وخاصة تلك التي وردتنا من كتاب يعتقدون البروتستانتية ، الا أن جرائم حكام التفتيش أكثر من مشتبهة .

والتعذيب أيا كان شكله أو وسائله استهدف الحصول على الأعتراف بالهرطقة تمهد لانزال العقاب الذي تراه الحاكم مناسبا . وكان هذا يتدرج من الاحراق الى مصادرة الممتلكات والأموال ، او اجراء المذنب على ارتداء ثوب العار لعدد محدد من السنين . وبالرغم من ان المدف من عمليات التعذيب وانزال العقوبة كان تطهير الناس من الهرطقة الا أن هناك قصصا ، لا يمكن دائمًا اثبات وقوعها ، تحدثت عن عمليات تعذيب استهدفت نساء مجرد أنهن جميلات قادرات بجماليهن على اغواء الرجال، وقد يصل الحد أحيانا الى تعذيب متهم ما لأشياء ليست على جانب كبير من الأهمية ، كما حدث بالنسبة لامرأة لم تكن قادرة على تناول لحم الخنزير لأسباب صحية ولكنها عذبت اعتقاداً بأنها تتمتع عن ذلك لأنها من أصل أندلسي او يهودي . وإذا كان الأحياء عرضة للسقوط بين أيدي عمال محكمة التفتيش ، فإن الموات لم يكونوا بمنأى عنهم . ولو حدث واكتشفت المحاكم ان المتوفى المدفون كان يمارس « هرطقة » من أي نوع ، فإنها كانت تأمر احد أقربائه بنيش القبر وخارج الجثة ووضعها في كيس قبل احراقدتها في الاحتفالات الدينية الى جانب الضحايا الآخرين . ولو شعر شخص ما بأن عمال التفتيش ينظرون اليه نظرة مختلفة فقد يكون هذا كافياً لدفعه للمفارق حتى وإن لم يكن مذنبًا . ولكن الفارين لم يكونوا لينجوا من ملاحقة عمال محكمة التفتيش ، لأن تلك المحاكم كانت تتمتع بحرية العمل في جميع الأحياء شبه جزيرة إيبيريا . ومن تمكن من مغادرة البلاد فان غالبًا شخصيا له كان يحرق في الاحتفالات .

ان الشهرة التي اكتسبتها محكمة التفتيش لم تكن أساسا بسبب ملاحة اليهود المتصرين أو الأندلسيين المواركة ، وإنما بسبب بطيشها بالبروتستانت ، ولاسيما في المانيا وهولندا حيث بقرت بطون الحوامل أو ذوق الأحياء . وإن كانت محكمة التفتيش الآن جزءاً من ماضي أوروبا ، الا أنها لا تذكر اليوم في أوروبا دون شعور مابالخوف أو الحقد ، ولعله الخوف من احتفال قيامها ثانية بصورة أو بأخرى .

٣ - اليهود ومحاكم التفتيش

حظر الرومان على اليهود دخول القدس بعد الثورة الفاشلة التي نظمها بار كخبة بين سنتي ١٣٢ و ١٣٥ ميلادية ، والتي انتهت بدخول ادریان الروماني ، حاكم سوريا ، المدينة التي كانت تحمل اسم ايليا كايتولينا . ومع

صدر قرار المنع انتهى الوجود السياسي لليهود، ونزحت مجموعات كثيرة منهم إلى بقاع شتى في العالم . بعضهم رحلوا إلى بابل فأيسروا وأصبحوا من كبار ملوك الأرض إلى أن استفحلا خطرهم في عهد الساسانيين فاضطهدوا . ومن بابل رحل قسم منهم إلى ما يعرف اليوم باسم إيران وافغانستان والهند وارمينيا ثم إلى منطقة القوقاز . واضطهاد اليهود في المشرق انتهى بعد أن اتسعت الممالك العربية ومشكلتهم في أوروبا انتهت قبل ذلك بقرون عندما أمر الإمبراطور الروماني كركلا سنة ٢١٢ ميلادية بمنع المواطنة لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية، وسكن اليهود بعدها مناطق البلقان وتركيا وشمال إفريقيا وإيطاليا . ومع ذلك فإن الانعزالية التي اتسم بها اليهود ألبت الجميع عليهم وبدأت رحلة جديدة من اضطهادهم في السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية الرومانية الغربية فمنعهم الإمبراطور قسطنطين (٣٤٢ - ٣٣٧) مواطنة من الدرجة الثانية ، واكد الإمبراطوران ثيودسيوس وجستينيان (٤١٧ و ٤٢٣) قرار سابقهما، وأتبعت الحكومات المسيحية الأسلوب ذاته فيما بعد .

أ - اليهود في شبه جزيرة إيرية :

استوطن اليهود المدن الرئيسية في شبه الجزيرة مثل فربطة وشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن ولكن تأثيرهم على الحياة العامة في الجزيرة لم يكن مهما . وفي المرحلة الأولى من حكم القوط الغربيين لشبه الجزيرة لم يكن اليهود يعنون الكثير بالنسبة للقوط الذين كانوا يدينون بال المسيحية على المذهب الآري - مثلهم في ذلك مثل الكثير من القبائل الجرمانية - وهو مذهب لا يعتقد باللوهية: السيد المسيح ولا يعترف للقساؤسة بحق الوساطة بين الله والمؤمنين مما وضع السلطة والكنيسة على طرف نقيض . إلا أن حكام القوط الغربيين قبلوا بالكاثوليكية مذهب غالبية السكان المحليين اثر اجتماع المجلس الثالث في طليطلة سنة ٥٨٩ وأصبحت الكاثوليكية الدين الرسمي للمملكة القوطية . وهنا تحولت النقطة السابقة بين القوط ورجال الكنيسة إلى اليهود : « ويوجي من هؤلاء القساوسة الذين أصبحوا يوجهون سياسة الدولة ، سن ملوك القوط فوانين قاسية ضد اليهود ، فقد أعلن مجمع طليطلة عن اكتشاف مؤامرة حاكها اليهود الأسبان مع بني جلدتهم في شمال إفريقيا ، غايتها ادخال العرب إلى إسبانيا ... (و) استغلت هذه التهمة كمبرر لفرض عقوبات على اليهود بغية تصفيتهم والقضاء على اليهودية . » (١)، واستمر اضطهاد اليهود حتى عرف الملك إبييكا بلقب « مضطهد اليهود » .

ويعيء العرب إلى شبه جزيرة إيرية كان تخليصاً لليهود من محنتهم تحت ظل حكم القوط فوقوا إلى جانب الفاتحين « فاستخدمهم الجيش الفاتح كحاميات للمدن التي يحتلها»^(٢) كي يحافظون بكلته أثناء توجهه لفتح الأماكن الأخرى ، لذلك عاملهم العرب الفاتحون برق كثیر . ورغم انتشارهم في جميع المدن ، إلا ان منطقة غرناطة أو كورة البيبة كانت تتعجب بهم حتى شاع تعبير « غرناطة اليهود »^(٣) على

(١) دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها للدكتور أحمد بدر ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) « الاحداث في أخبار غرناطة » تحقيق محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ، ١٩٧٣) ، الجزء الاول ، ص ١٧ .

(٣) الروض المطرار ، ص ٢٢ .



اليهودي المسحري ابن ميمون . حي اليهود ، قرطبة .

كل الألسن في ذلك الزمن.»^(١). ويتحدث لين - بول عن تعاون اليهود مع الفاتحين فيقول : « .. ثم ان الحكم والخامية (بعد مهاجمة قرطبة عند أول الفتح) احتموا بالدير حيث مكثوا محاصرين مدة ثلاثة أشهر . وعندما استسلموا بعد ذلك ، تركت قرطبة بحراسة اليهود الذين اثبتوا دعمهم القوى للعرب في الحملة وقمعوا بعد ذلك كله باحترام كبير على أيدي الفاتحين . وقربهم الفاتحون ولم يضطهدوهم - الا بعد وقت طويل - كما كان قساوسة القرط يضطهدوهم ... وبفضل تعاون اليهود وذعر الأسبان كان فتح طارق يستمر بسرعة كبيرة.»^(٢) وفي عهدى الامارة والخلافة القرطية ارتقى اليهود إلى مرتب عالية وكثيرون منهم وازداد ثراؤهم ، وكان من بينهم العلماء والمرجحون والصناع مثل الصباغين والتجارين والحدادين والفحارين والدبابين وغيرهم .

وكما أن زوال الخلافة غير الشيء الكبير من طبيعة النظام الذي كان قائما في الأندلس فإن انهيار الخلافة وبروز ملوك الطوائف بدل الكثير من العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف أصحاب الأديان في الجزيرة . وهذا التبدل المفروض بانعدام الأمن والطمأنينة دفع جماعات من اليهود للرحيل إلى الشمال ، ولابد ان ازدياد الثروة في ممالك الشمال النصرانية كان عاملا مساعدا . وحين تمكن الفونوصو السادس من احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ استقبله اليهود بالترحاب وكأفاهم على ذلك بمنحهم سلطات حكم ذاتية محدودة جدا . وعظمت في عهد ملوك قشتالة ثروة اليهود وكثيرون منهاهم وكتسمهم كما يتضح من بعض الكنس التي ماتزال قائمة حتى اليوم في طليطلة . وتحسين علاقة اليهود مع القشتاليين قابله ترد للعلاقة بين اليهود والمسلمين ولاسيما بعد ان وضع اليهود انفسهم في صف القشتاليين ، وان لم يكن بصورة مباشرة . وائر احتلال طليطلة اوفد الفونوصو رسولا يهوديا الى المعتمد صاحب اشبيلية يتهدهد ويطلب حصونا معينة : « فغضب المعتمد وضرب رأس الرسول (ابن مشعل أو ابن شاليب) بمحربة كانت أمامه ، بإنزال دماغه في حلقة ، وامر به فصل منكوسا بقرطبة ». ^(٣) ومع ذلك فان تعاون اليهود مع القشتاليين لم يكن السبب الوحيد في ترد العلاقات بين العرب واليهود . اذ ان بعض الأعمال التي انبثت باليهود في بعض ممالك الطوائف كانت سببا في اثارة النقم ضدتهم : « ولعل أشد مظاهر اثار نقمة الشعر يومئذ هو تسلط اليهود في دولة غزانتة على الناس وقيامهم بحكم الجماعات الاسلامية وجمع الضرائب وهذا هو الذي دفع بابن الجند (الشاعر) الى ان يقول :

تحكمت اليهود على الفرج وتساهلت بالبغال وبالسروج
... (بينما يقول شاعر اخر هو ابو حفص الزكوني) :
كنا نطالب لليهود بجزءة واري اليهود بجزءة طلبونا »^(٤)

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » ، ص ١٠.

(٢) انظر : Lane-Poole, Stanley, *The Moors In Spain*, (4th Edition), 1890, p 24.

(٣) « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور احسان عباس ، (بيروت ، ١٩٧١) ، ص ٣٦ . انظر أيضا « تاريخ الاندلسي » للدكتور عبد الرحمن على الحسني ، ١٩٧١ ، ص ٣٩٣ .

(٤) المصدر (رقم ٢) ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

و نتيجة للقيام بمثل هذه الأعمال واشتهر بعض اليهود بالترف في وقت الضيق فقد تعاظمت النكمة ضد اليهود إلى أن طالب زاهد مثل أبي إسحاق الاليبي، أيام وزارة اليهودى ابن التغريلة في غرناطة، بإعادة الأمور الطبيعية إلى نصابها وافتى بقتل اليهودى في قضية ساعدت على الثورة في تلك المملكة :

بلور الندى وأسود العرين
تقر بها أعين الشاميين
ولو شاء كان من المسلمين
وتاهوا وكانتوا من الأزلين

ألا قل لصنهاجة اجمعين
لقد زل سيلكم زلة
تحير كاتبه كافرا
فعز اليهود به وانتحروا

فكنت اراهم بها عابرين
ففهم بكل مكان لعن
وهم يخضمون وهم يقضمون

وانى احتلت بغرناطة
وقد قسموها واعطتها
وهم يقضون جيانتها

وأجرى إليها ثمير العيون
ونحن على يابسه قائمون
فانا الى ربنا راجعون

ورثتم فردهم داره
فصارات حوايجنا عنده
ويضحك منا ومن ديننا

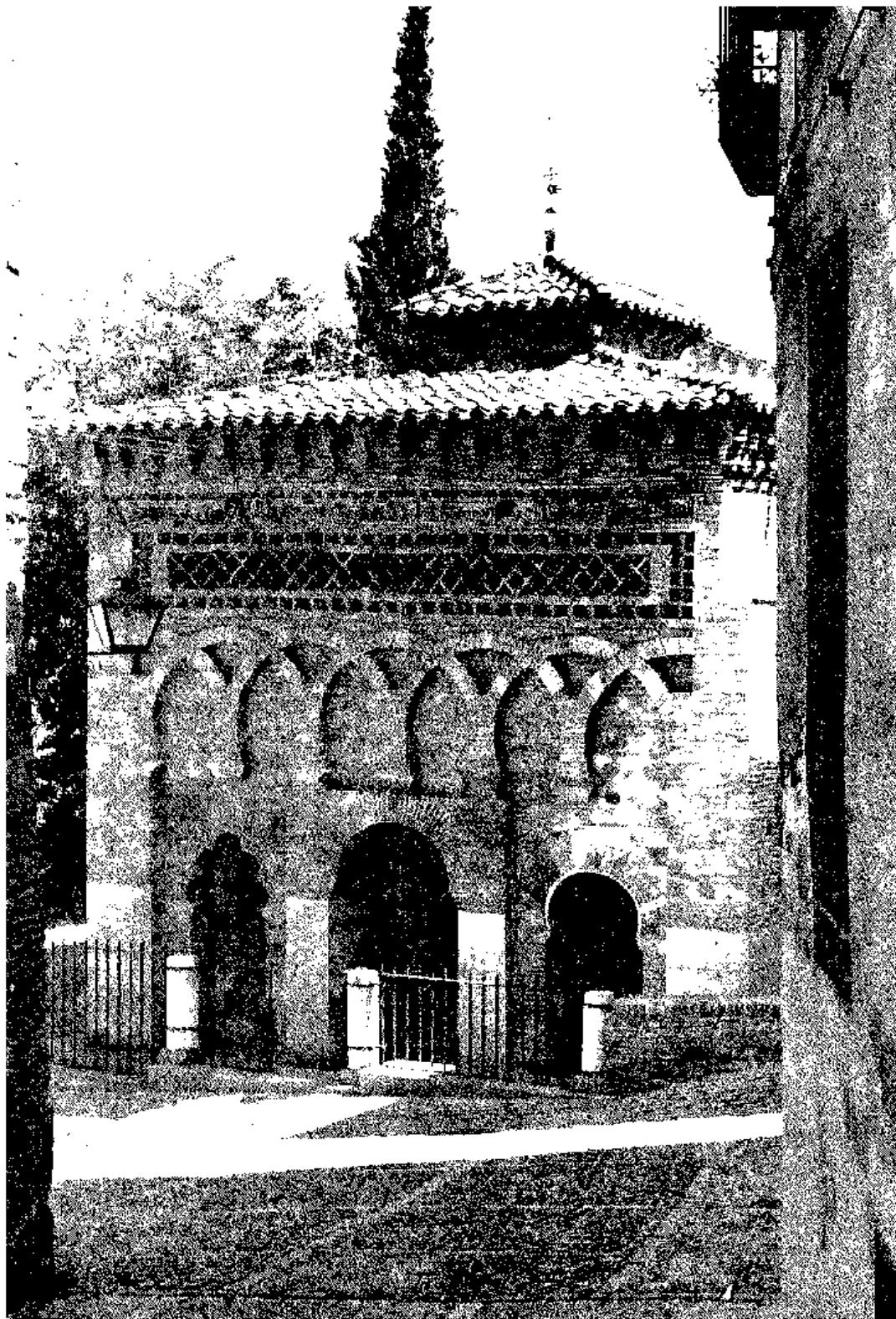
وضوح به فهو كيش سمين
فقد كنروا كل علق ثمين
بل الغدر في تركهم يعيشون^(١)

فيادر الى ذمحه قرينة
ولا ترفع الضغط عن رهطه
ولا تخسبن قتلهم غدرة

وبالرغم من أن يهوديا مثل ابن التغريلة كان ينفذ ما يأمره الملك به ولم يكن كل ما يقوم به من اختياراته ، فإن طبيعة الأعمال التي تعود بعض اليهود القيام بها عادت عليهم بالنكمة سواء في الأندلس المسلمة أو في ممالك الشمال فيما بعد . ذلك لأن أهم الأشغال التي اتصلت بيهود الأندلس وقشتالة تضمنت اقراض المال بفائدة كبيرة أو جني الأموال لصالح الحكام العرب أو النصارى، ولم يكن مثل هذا العمل يقرب صاحبه من عامة الناس . وقد يرد هنا وهناك ذكر لجماعات من اليهود كانت تسير خلف عسكر القشتاليين لشراء مغانم الجيش^(٢) ولكن تكدس الثروة لديهم جاء نتيجة المرابة . وكانت تلك عملية متقدمة شديدة التنظيم وأسها فائدة كانت تصل احيانا إلى مائين ٢٠ و ٣٣ بالمائة وربما زادت عن ذلك . وساد الاعتقاد بأن ذهب افريقيا كان ينقل إلى الأندلس فيدفعه ملوك الطوائف جزية ثم يدخل خزينة اليهود الذين كانوا في ذلك الوقت أكبر ممولين لجيوش قشتالة . واستمر اليهود في لعب هذا الدور فكانوا

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) يقول ابن عميرة في « بعية النساء » (ص ٤٦) وهو يروي قصة معركة الإرك « وكان معه (الفونصر الثامن) جماعات من تحار اليهود قد وصلوا لشراء اسرى المسلمين وأسلامتهم واعدوا أموالا ، فهزتهم الله تعالى » .



أحد
مسجد
طليطلة
وقد حول
إلى كنيسة

من أكبر دائني خاتمي الأول الأرغونى حتى قرر سنة ١٢٥٤ الغاء دينهم . وقدم اليهود كذلك مبالغ طائلة لتمويل حرب ايزابيلا ضد غرناطة وان كانت هذه الملكة القشتالية أول من اقام جهازا منظما استهدف اليهود في بداية الأمر ، ثم الاندلسيين بعد ذلك .

ورغم انتشار موجة استياء عامة في بعض الفترات من تاريخ الأندلس ضد اليهود بسبب تصرفاتهم ، فإن من الصعب الانكار أن اليهود عرموا تحت ظل الدولة العربية في الأندلس واحدة من أفضل الفترات التي مرت عليهم في تاريخهم الطويل . وكانت المعاملة الخاصة التي لقيها اليهود من العرب دافعاً مشجعاً على ازدهارهم الفكري والحضاري . وهناك قائمة طويلة من العلماء والمفكرين اليهود الذين تفاعلوا مع المحيط العربي فاستفادوا وأفادوا وكان لبعضهم الفضل في تطوير نواح متعددة من الفكر الأندلسي . واشتهر منهم منجم بن القوال الطيب والفينيسوف ، وموزان بن جناح وهو من أهل العناية بصناعة المنطق ومثله في ذلك ابن جبيرول ، وأبن بكلارش الطيب ، وأبو الفضل حسداي الذي برع في علم العدد والهندسة والترجمة والموسيقى والمنطق وغيرهم .^(١) « وجينيا كانت السيف العربية تقتسم كثرة دائمة اليهود ورعاهم ، وبينما كان العرب يقاتلون كان اليهود يتاجرون ، وعندما انتهت القتال اشتراك اليهودي والعربي والفارسي في تحصيل العلم والفلسفة والفنون والعلوم فكان ذلك ماميز العرب ورفع شأنهم في العصور الوسطى » .^(٢)

ب - اليهود في قشتالة :

لعب عاملان رئيسيان في تأجيجه نيران السخط على اليهود في أوروبا ولم يكن لليهود أي دور مباشر في تأجيجهما ؛ أوهما الحروب الصليبية والثاني انتشار الظاعون . فالحروب الصليبية تضمنت نقل مئات الآلاف من الصليبيين إلى المشرق وشحن العتاد والمؤونة والأمدادات البشرية والعسكرية من أوروبا إلى المشرق وبالعكس . وهذه العمليات كانت بداية ، ثورة ، تجارية ضخمة استفاد منها الكثيرون بما في ذلك اليهود الذين كانوا ينتقلون مع الجيوش الصليبية في مجموعات كثيرة للاستفادة من الحرب في جمع الثروة السريعة . ولكن منذ بداية القرن الثالث عشر اخذ بايوات روما في تحذير الجيوش الصليبية من السماح لليهود بمرافقتها لأن ذلك يتعارض مع الروح الصليبية ذاتها ، بالإضافة إلى أن وجود الأغراء المالي المتuell بما يدفعه اليهود لشراء الأسلحة واستغلال الحرب للتجارة ، يوجه اهتمام الجيوش إلى مصالح دنيوية بعيدة عن المثل الروحي الذي انطلقوا إلى المشرق لتحقيقه . ولكن ابعد اليهود عن الحركة التجارية التي قدمتها الحروب الصليبية لم يكن مرضياً لهم ، فعملوا إلى التوسط واقحام أنفسهم في الشؤون السياسية لعل ذلك يقدم لهم السبيل لمتابعة تجارةهم . ولكن تلك المحاولات فجرت النكمة ضدهم وافسحت المجال لضررهم في كل أوروبا تقريباً . وفي سنة ١٢٥٤ عاد الملك الفرنسي لويس التاسع (القديس) من حلته على مصر ، التي انتهت باسره في معركة المنصورة ، فطرد جماعات من اليهود والغبي ديونهم . ولم يكن الحال في المانيا أفضل إذ أن فريدريك الثاني عمد إلى اضطهاد اليهود واعتبرهم عبيداً قبل ١٨ سنة من خطوة نظيره الفرنسي ، ومن خلفه سار على النهج نفسه واستمر طرد اليهود من فرنسا حتى شمل الطرد في سنة ١٣٩٤ جميع أنحاء فرنسا باستثناء مجموعات بروفانس ودوفينيه وأبيينيون . وانتقلت العدواي ضد

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمرابطون) للنحوي احسان عباس ، ص ٦٢

Lane-Poole, Stanley. The Moors In Spain, P 24

(٢)

اليهود من المانيا وفرنسا الى انجلترا فتجددت موجة الكره التي اندلعت سنة ١٢٩ . وببدأ اليهود نزوها جديدا الى ليتوانيا وبعد ذلك الى جنوة ومناطق مملكة نابولي وتركيا والشمال الافريقي ومصر وبعضهم رحل الى فلسطين .

المرحلة الثانية من ملاحقة اليهود رافقها انتشار الطاعون في اوروبا وارتبط اسمهم به بسبب الاعتقاد بأن اليهود كانوا ينقلون العدوى . والطاعون الذي انتشر في القرن الرابع عشر لم يكن الأول من نوعه اذ سبق وانتشر الوباء في اوروبا اعتبارا من سنة ٥٤٢ ميلادية واودى بحياة عدد كبير من السكان . ولكن موجة الطاعون التي اجتاحت اوروبا بين سنتي ١٣٤٧ و ١٣٥٤ عن طريق بعض البحارة الجنوبيين ، ادت الى موت حوالي ٢٥ مليون شخص في اوروبا ، او ما يعادل نصف السكان . وانتشر الوباء بعد ذلك في أماكن أخرى من افريقيا وآسيا حتى قدر عدد ضحاياه بحوالي ٦٠ مليون شخص وهو رقم يعادل ثلث سكان الكرة الارضية في تلك الحقبة ، ولا يعرف حتى الان اي سبب أودى بحياة مثل هذا العدد الهائل من الناس . ولما كان انتشار الوباء سريعا بتأثير مدمر فقد كان من الطبيعي ان يدب الذعر في نفوس الناس ويدفع بعضهم الى البحث عن كبس فداء متيسر . وشاع مع الوقت ان شرب كميات كبيرة من الكحول المقطر ، التي طورت في ايطاليا بمحدود سنة ١١٠٠ ، تكسب الانسان مناعة فاقبل الأوروبيون على الكحول المقطر ، ولكنها ، بالطبع ، لم تكسفهم المناعة واتما ساعدهم على نسيان الخطر . وظلت هذه عادة متتبعة حتى اليوم بعد ان اصبح الطاعون شيئا من الماضي . ولكن تناول الكحول لم يكن مُتفسّر الجميع فوقع مذابح كثيرة استهدفت اليهود في انجلترا والمناطق الشمالية من فرنسا والمانيا حيث شملت المذابح ٣٥٠ يجتمعوا لليهود ، وكانت المذابح سريعة بسرعة الوباء الذي كان يقضي على ضحيته بعد ظهور الاعراض الأولى خلال فترة أقصاها ثلاثة أيام . وفي فترات لاحقة كان العداء لليهود يتجدد كلما انتشر الطاعون .

ورغم كل تلك المذابح التي شملت معظم دول اوروبا فإن اليهود في قشتالة كانوا عموما يتمتعون بوضع أفضل من وضع أبناء دينهم في الأماكن الأخرى ، حتى عندما دخل تاريخ اليهود مرحلة خطيرة بعد منتصف القرن الرابع عشر . ولابد ان اليهود في قشتالة كانوا يشكّلون ثقلًا لباس به كي يعلن الفونصو العاشر نفسه ملكا على الملل الثلاث : النصرانية والاسلام واليهودية . ووظف هذا الملك يهوديا لجيبي الجزية من غرناطة هو سولومون ابن زادوك الذي شغل أيضا منصب كبير الجباة للملك فرناندو الثالث . واتبع عدد من ملوك قشتالة فيما بعد النهج نفسه فعين بدرو (بطرقة) الرابع صموئيل هلفي (Samuel Halvi) رئيسا للجباة أيضا . ولعب الممولون اليهود واليهود المصارون دورا مهما في توفير الأموال التي احتاجت اليها الملكة ايزابيلا للقضاء على غرناطة^(١) رغم ان اضطهادهم في قشتالة كان بدأ قبل أكثر من قرن من استسلام غرناطة . ورغم العداء الذي ناصبه الكنيسة القشتالية والقشتاليون عامة

(١) قدم الممولون الإيطاليون والفلانكيون مبالغ طائلة لمobil الحرب ولكن مشاركة الممولين اليهود واليهود المصارون لم تكون بسيطة ويرز منهن في تلك الحقبة المملوك الملكي اليهودي ابراهام سنور (Abraham Senior)، ووتسبّب ذلك العصر .

لليهود بعد ذلك، فان الملك تلو الآخر لم يكن يجد غضاضة في الاستلاف من الممولين اليهود ، حتى أن أحدهم، وهو خوان البارث منديثابال (Juan Álvarez Mendizábal)، كان مسؤولاً عن مصادرة جميع ممتلكات الأدباء الأسبانية سنة ١٨٣٦ استيفاء لديونه .^(١) وجدت هذا التصرف استياء الأسبان من اليهود ولكن لم يكن يقتصرهم الرد على الإهانة إذ ان اليهود طردوا من قشتالة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون ونصف القرن ، وانقضت على بداية النصفة ضدتهم ٤٤٦ سنة .

ج - الحملة القشتالية ضد اليهود :

اشتغال اليهود بالمال كان النعمة والنعمة في آن واحد . فالشغف المستمر والقلق الدائم وغموض المستقبل عوامل أدت مع غيرها إلى احتفاظ اليهودي بهاته على شكل سبولة فورية بعد أن استبعد استئثارها في العقارات أو الزراعة أو الصناعة لأن هذا النوع من الاستئثار يحتاج إلى استقرار لم يكن متوفراً من الناحتين السياسية والنفسانية . وما إن المال كان السلعة الرئيسية التي تعامل بها اليهود الممولون ، فقد كان من الطبيعي أن يتلقوا تشغيلها وتنميتها وفق أسلوب لم تكن دائماً تقليدية أو مرغوبة لدى الجمهور الأكبر من الناس . ومع صعوبة تحصيل الضرائب في فترة لم تكن الأحصاءات قد تطورت فيها ، ولم يكن التنظيم الأداري قد وصل إلى درجة مقبولة ، وجد الملك الأوروبي تلو الآخر أنه بمراجعة إلى تمويل سريع للاتفاق على الحروب الداخلية أو الخارجية وكان المال اليهودي متوفراً للملك الذي يريد . وليس هناك من شك في أن جموع بعض الملوك إلى الغاء الديون اليهودية لم يكن دائماً بدافع من الورع الديني المسيحي خلال الحروب الصليبية ، وربما استغلت فترة تأجج المشاعر الدينية عند ذلك لالغاء ديون لم تكن الدولة قادرة على تسديدها كما حدث في فرنسا . أما في أرغون فكان قيام خامي الأول بالخطوة نفسها وفي السنة ذاتها (١٢٥٤) يعكس ذلك التمايز بين الارغونيين والفرنسيين ، والاختلاف بين الفرسين والارغونيين من جهة وبين القشتاليين من جهة أخرى . فالفرنسيون لم يعتادوا على الاعتدال في التعامل مع غيرهم كما اعتاد القشتاليون الذين اكتسبوا الجانب الأعظم من اعتدالهم من العرب لأنهم كانوا يعيشون معهم في دولة واحدة . أما أرغون فكانت دائماً على ارتباط مع فرنسا لغة وسكاناً وأنمط عيش وما زال تباهيهم عن إسبانيا القشتالية مستمراً حتى اليوم . وهذا التباين انعكس على تعامل القشتاليين مع غيرهم من الشعوب كما انعكس على تعاملهم مع اليهود حتى الجزء الأخير من القرن الرابع عشر على الأقل ، إذ أن القشتاليين اعتمدوا على بعض تراثتهم اليهود لنقل كتب كثيرة من العربية إلى القشتالية (الأسبانية) في مدرسة طليطلة الشهيرة . ونظراً للخدمات التي قدموها للسلطة فقد اعتبرهم الفونصو العاشر تابعين له مباشرة .

هذا الوضع تغير مع انتشار الطاعون رغم أن وضع اليهود لم يتأثر في قشتالة خلال موجة انتشاره الرئيسية بين سنتي ١٣٤٧ و ١٣٥٤ ، وساحت حاجة ملوك قشتالة لليهود والسماحة التي اكتسبها

القشتاليون من الأندلسيين في حمايتهم عندما كان يهود أوروبا يتعرضون للمنفيحة تلو الأخرى . ولكن الطاعون لم يختلف بعد الموجة الرئيسية ، وكان الذعر الذي يتقدم موجة انتشاره وهبها فتفوض الأمن وانعدم الاستقرار وبدأ الناس يبحثون عن ضحية . ولاشك في أن عدو الانتقام من اليهود في المانيا والجلطة وفرنسا زحفت مع الطاعون إلى قشتالة . ولاشك أيضاً في أن تجمع اليهود في أحيا خاصه كان عاملاً على انتشار الطاعون بينهم أكثر من غيرهم، وبالتالي في اقتناع البعض بوجود علاقة بين اليهود وانتشاره . غير أن الثابت هو أن ذعر السكان وتقويض الأمن كانوا سببين رئيسيين في الحملة ضد اليهود اعتباراً من سنة ١٣٩٠ .

في تلك السنة تولى فيرانت مارتينيز (Ferrant Martinez) منصب رئيس أبرشية إشبيلية ، وأخذ يبحث الناس على هدم الكنس في المدينة وتشجيع الفلاحين على طرد اليهود من قراهم . وما ان حل شهر حزيران من تلك السنة حتى كان السكان قد اقتحموا الأحياء اليهودية في إشبيلية وقتلوا مئات من سكانها . وامتدت الحملة إلى اليهود في طليطلة وقرطبة وغيرها من مدن قشتالة واراغون وعملت السلطات المدنية على اصدار قوانين جديدة تحريم على اليهود تولي المناصب الحكومية والتعامل بالربا وحصر سكناهم في أحيا تعينها السلطات وبدأت الضغوط لتصفيتهم . وبين سنتي ١٣٩١ و ١٤١٦ تخل了 عشرات الآلاف من اليهود عن دينهم واعتبروا النصرانية ، بينما آثر البعض الرحيل عن البلاد أو الانتقال إلى أماكن أكثر أماناً في شبه جزيرة إيبيريا . وبحلول منتصف القرن الخامس عشر كان يهود شبه الجزيرة يعيشون حالة تفاوت بين الذعر والتrepidation ولم ينقد المتصرين منهم نصارائهم إذ جاء في قانون اصدره قضاة طليطلة سنة ١٤٤٩ : « نعلن أن المدعين باليهود المتصرين (Conversos) نسل اجدادهم اليهود المنحرفين هم بمثابة القانون شائون مذلون لا يصلحون لشغل أي منصب حكومي ولا هم أهل له او مناسبون لرتبة ضمن مدينة طليطلة او الأرض الواقع تحت سلطتها ، او صالحون للعمل ككتاب عدل او محلفين او أن يكون لهم ايota سلطة على النصارى الصادقين أبناء الكنيسة الكاثوليكية الطاهرة »^(١) ولم يكن في القرار جديد سوى محاربة المتصرين اليهود باسم الكاثوليكية وليس باسم المراقبة او الطاعون بعد ان ساد اقتناع بين القشتاليين بأن تنصر اليهود لم يكن صادقاً وإنما كان هريراً من اضطهاد او سعياً وراء استفادة . وكان اتجاه محاربة اليهودية من أجل الكاثوليكية الاتجاه الذي ساد في آخر القرن الخامس عشر .

في تلك الفترة اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة وتمكن من اقتحام البابا سيموكستوس الرابع بإنشاء محكمة تفتيش قشتالية للاحقة المراقبة في تشرين الثاني من سنة ١٤٧٨ ، وأصدرت الملكة بعد سنتين مرسوماً تطلب فيه من جميع السكان تقديم كل المساعدة الممكنة لعمال حاكم التفتيش ، وكان ذلك اهداها بقيام مؤسسة ارهادية دينية استمرت حتى القرن التاسع عشر ولعبت ذلك الدور المزدوج في اعلام الكاثوليكية وتقويض سمعة قشتالة في كل مكان . ورغم وجود اشارات كثيرة إلى اضطهاد حاكم التفتيش لليهود فإن المدف من قيام الحاكم لم يكن محاربة اليهود وإنما أولئك الذين تنصروا منهم ولم تكن الكنيسة واقفة من نصارائهم ، والحافظة على نقاء الكاثوليكية من جميع الشوائب . وربما لعبت البابوية دوراً كبيراً في اقتحام

Defourneaux, Marcellin. Daily Life In Spain In The Middle Ages, (London, 1970), P. 37.

(١)

ايزابيلا بانها اكثرا من مقرة الى الكنيسة الرومية واعتبرتها خادمة البابوية في قشتالة وتستحق بال التالي لقب «العاهرة الكاثوليكية» وهذا ادى تباعا الى خوض معركة البابوية ضد الهراطقة اليهودية ومن ثم ضد آخر المالكين الإسلامية في غرناطة لأن الحرين بدأنا في سنة واحدة واستمرتا الى ان حققت قشتالة الانتصار في كلتيهما سنة ١٤٩٢ .

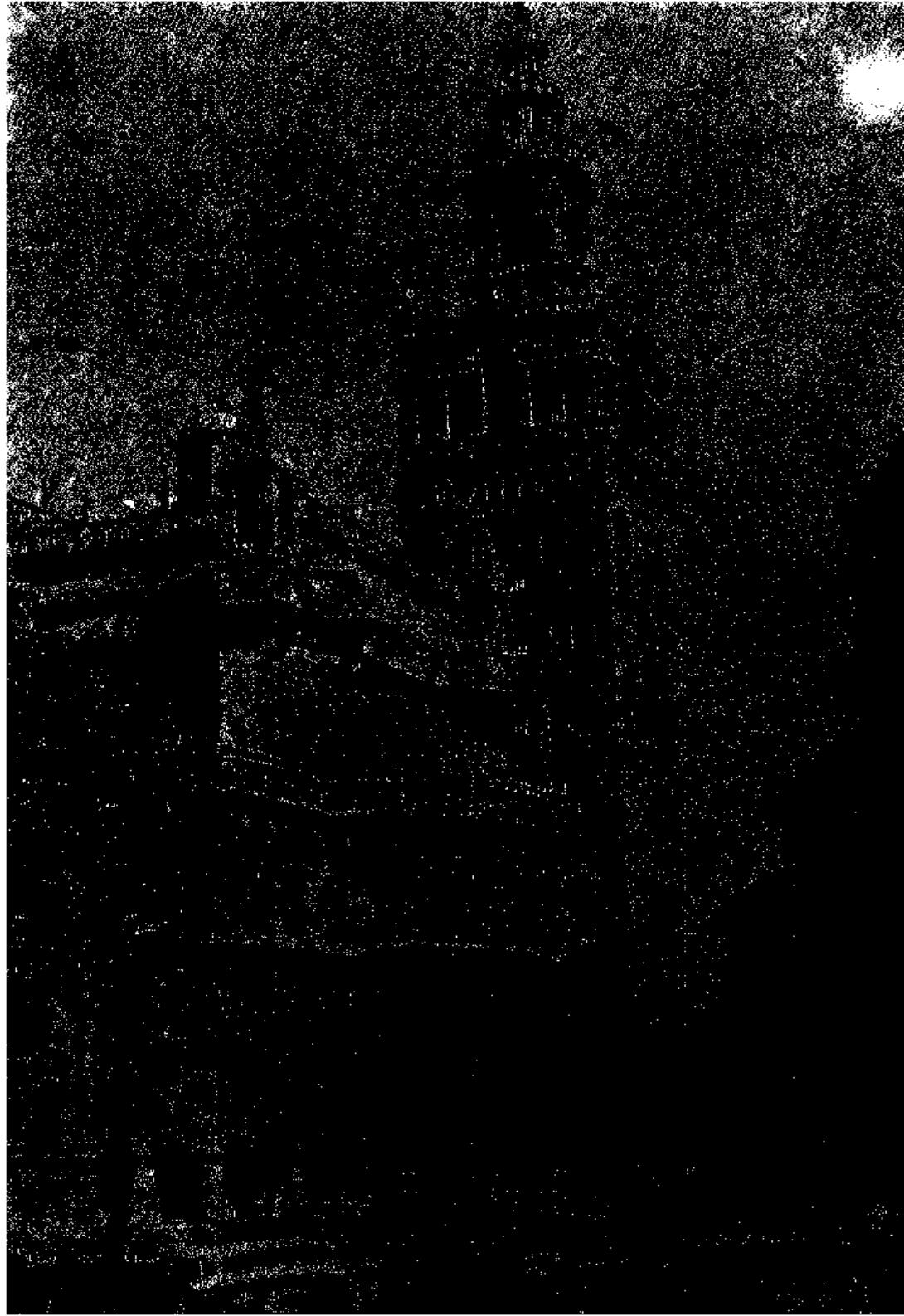
واستعدادات ايزابيلا للحرب ضد غرناطة لم تكن اقل من استعداداتها لبدء الحملة ضد الهراطقة وكان الصدام السريع المباشر طريقة الحرب القشتالية ضد المتصدين . ومنذ أن اصدرت ايزابيلا مرسوم مساعدة عمال حماكم التفتيش في تشرين الأول من سنة ١٤٨٠ ، بدأ عمال المحكمة في الاعداد لاعلان ولادة الحكم بصورة لا تخلي من الدرامية القوية ، واحتاروا اشبيلية مسرحا لظهورهم لاسينا وانها كانت تضم تجتمعوا كثيرا من اليهود واليهود المتصرين، وذات يوم فوجيء سكان المدينة بتظاهرة كبيرة سار في مقدمتها قس دومينيكي حل صليبا كبيرة تبعه عدد من قساوسة مدرسته وهم حفاة الأقدام يرتلون اثوابا خشنة وخلفهم عمال المحكمة يلوا بهم البيضاء والسوداء وجمة من رجال الدين الآخرين والمترفين . واتجهت المسيرة وبعد احتراق شوارع اشبيلية على دير القديس بولص الذي اتخذ مقرا لمحكمة تفتيش المدينة . تلك المسيرة نجحت في ترك الانطباع المطلوب واقعقت الأقدمة ودب الرعب في النفوس . وكان رد الفعل فوريا اذ فرت جماعات من اليهود واليهود المتصرين من المدينة ، والتوجه البعض الى دوق مدينة شلدونة وغيره من البلاء مما اثار ريبة عمال المحكمة وعزز اعتقادهم بأن اليهود المتصرين ما كانوا ليغروا لولا وجود ما يحملهم على الفرار .اما اليهود المتصرون الآخرون فيقروا في المدينة وهم يرفضون تصديق ما يحدث ، وتحرك بعضهم لمحاولة القيام بعمل ما لانفاس المحكمة ووقف نشاطها . وكان من بين هؤلاء ثرى يهودي متصر يدعى ديفغو دي سوزان يقال انه كان يملك عشرة ملايين دينار مرابطي .

بعث دي سوزان الى جماعة من الأثرياء والمتفذين في المدينة يطلب اليهم الاجتماع في منزله لبحث الأمر ووضع الخطة الكافية بطرد هؤلاء الدخلاء ، ولكن ابنته له افشت سر الاجتماع لعشيق نصرافي في لحظة ضعف فنقله الى عمال المحكمة الذين اعتقلوا الجميع ونقلوهم الى الدير . وفي السادس من شباط سنة ١٤٨١ وجدت المحكمة ان ستة من المؤمنين مذنبين اقروا بمحهم محامية التفتيش ، واجروا على ارتداء ثوب العار الأصفر ونقلوا الى حقول تبالدا القريبة من اشبيلية حيث احرقوا وكان دي سوزان اولهم . وبنهاية السنة المذكورة ارتفع عدد اليهود المتصرين الذين امر باحرافهم الى ٢٩٨ شخصا مع مصادرة جميع اموالهم وعقاراتهم . وكانت تلك مجرد البداية وفي مدينة اشبيلية وحدها .

د - طرد اليهود من اسپانيا ،

تعاظم خلاف السلطة والكنيسة والقشتاليين من احتلال قيام المتصرين الجدد بتفويض دعائم السلطتين المدنية والكنسية من الداخل بسبب زيادة الدعم الذي قدمته ايزابيلا وزوجها فرانشisco حماكم . التفتيش التي كانت تتنتقل من مرحلة قوة الى اخرى ، وان ظل عملها مخصوصا بالمتصرين اليهود لأن

المذكرة
الشهرية
في أشبيلية



اليهودية ، مثل الاسلام ، كانت ماتزال تتمتع بوجود قانوني ، ولم تكن الحملة ضد جميع الاديان الأخرى او مذاهب النصرانية ، باستثناء الكاثوليكية ، قد بدأت بعد . ورغم ان محكم التفتيش وجدت في محيط تلك الساحة ما يقلم لها زخم الاستمرار ، فان سلطتها المقيقة وتاثيرها المرعب لم يكتملا الا بعد ان

عينت ايزابيلا توماس دي توركيمادة (Tomas de Torquemada) في منصب المفتش العام (Inquisidor General) سنة ١٤٨٣. وإذا صدقنا قول هرناندو ديل بلغاره (Hernando del pulgar) كاتب ايزابيلا، فإن توركيمادة كان ينحدر من أصل يهودي فقد تكون هناك حقيقة في قول البعض الآخر بأن هذا المفتش العام بطش بالمتصررين اليهود لكي ينفي صلته الماضية بهم . وايا كان الصواب فإن توركيمادة باشر عمله بمجدية كبيرة ، وحماس منقطع النظير وأخذ وعده بمحولون إلى المحاكم المدنية الفوج تلو الآخر من المراقبة اليهود وتأمر تلك المحاكم بحرقهم أحياء أو مصادرة أموالهم أو إجبارهم على ارتداء ثوب العار (Sanbenito) وجلدة أخرى من العقوبات . وبنهاية فترة السنوات الخمس عشرة التي احتل توركيمادة فيها منصبه ، قدر عدد اليهود المتصررين الذين احرقوا أحياء بين ٩٠٠٠ و١٠٠٠ شخص ، بينما قدر عدد الذين تلقوا عقوبات أخف بحوالي ٩٦٠٠ شخص . وحملة توركيمادة لم تقتصر على من كان يعتقد أنهم من المراقبة ماذ ان قناعته موجود صلة قوية بين استمرار المفروطة واليهودية كانت تزداد مع كل حالة تقدم إلى محكمة التفتيش . ولذا بدأ حملة عامة ضد اليهودية كدين وحضاره مارحرق سنة ١٤٩٠ أعداداً كبيرة من كتبهم كمقدمة لعملية احرق ضيئمة جرت في مدينة شلمونة . ويقال ان عدد المخطوطات اليهودية التي احترقت يومها تعدت ستة الاف مخطوطة كانت جل ماقدمه الفكر اليهودي ابان حكم الاندلسيين . وحين وجد توركيمادة ان كل هذه الاعمال لا تكفي، اخذ بحث ايزابيلا على طرد جميع اليهود من قشتالة مالم يتصرروا . ولكنها لم تستجب لطلبه الا بعد استسلام غرناطة لأنها كانت بحاجة إلى الأموال التي قدمها يهود مثل ابراهام سنيور لحرب المسلمين في غرناطة ، ولم تكن واثقة من ان البابا النوصان الثامن سيجدد الازادة البابوية الخاصة بتحصيل الضرائب لتمويل الحرب . ولكن بعد استسلام غرناطة في الثاني من اول اشهر سنة ١٤٩٢ قررت ايزابيلا الإقدام على الخطوة الأخيرة لانهاء مشكلة اليهود بعد انهاء آخر ممالك الإسلام في شبه جزيرة ايبيرية ، واصدرت في الثلاثين من آذار من السنة ذاتها مرسوماً يقضي بطرد جميع اليهود الذين اختارون البقاء على دينهم خلال مدة اقصاها أربعة أشهر .

ومع أن ترحيل اليهود لم يستكمل إلا بعد فترة طويلة من انتهاء المهلة المحددة في المرسوم ، فإن كثيراً من اليهود اختاروا التنصر وقدم بعض هؤلاء مع غيرهم من اليهود المتصررين القدامى قسماً لأبنائهم به من ضحايا محكم التفتيش، لأن وفاة توركيمادة سنة ١٤٩٨ لم تخفف من حدة الحملة ضد المراقبة فاستمرت في عهد خليفة ديجو دي دينا (Diego de Deza / ١٤٤٣ - ١٥٢٣) الذي كان مسؤولاً عن احرق حوالي ٢٥٠٠ شخص واتزال عقوبات مختلفة بحق حوالي ٣٥٠٠ شخص آخر ومصادرة أموال الكثيير ومتلكاتهم خلال فترة توليه هذا المنصب . وأضاف دينا الكثير إلى ماوريه عن معلماته توركيمادة ولكنه بقي صفوياً بالمقارنة، رغم أنه كان من بين اول القشتاليين الذين حاولوا عزل البلاد عن الافكار الجديدة في الدول الأخرى، وعمل على اقفال ايزابيلا سنة ١٥٠٢ بمنع طباعة الكتب او استيرادها الا بوجب ترخيص خاص بعد أن كان استيراد الكتب يخضع لضريبة سميت «القبول» (Alcavala) تساوى عشرة بالمائة من قيمة الكتب . وفي عهده أيضاً استصدر القانون الخاص باعدام أي يهودي مطرود يعود إلى قشتالة باسم جديد .

ولم يكن في مقدور المالك الأخرى في شبه جزيرة إيبيريا الاستمرار في انتهاج سياسات دينية مخالفة لقشتالة. فاصر فرناندو الخامس على إقامة محكمة للتفتيش في برشلونة رغم المعارضة الشديدة التي وصلت أوجها باغتيال المفتش العام بدره دو أريوس ، واضطربت البرتغال إلى الاستجابة لضغط قشتالة بطرد اليهود فامرت بذلك سنة ١٤٩٦ . وهناك تضارب في عدد اليهود الذين تركوا قشتالة في آخر القرن الخامس عشر وبداية القرن الذي اعقبه. وبعض التقديرات تضعه بين ٣٠٠ و ١٢٠, ٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى يهود آخرين فروا من أرغون بعد تأسيس محكمة التفتيش هناك سنة ١٤٨٧ ، ويهود متصررين اختاروا الرحيل مع اليهود الآخرين وانطلقا في عدة محاور إلى دول الشمال الأفريقي وإيطاليا ولتوانيا وغيرها من المناطق .

واستمر اليهود المتصررين في تقديم ضحايا إلى محكم التفتيش ، ولكن الاهتمام الأكبر انصب على الأندلسيين فشارك دينياً في اضطهادهم ثم انسحب المجال سنة ١٥٠٧ خلفته زميله لتولي منصب المفتش العام . وكما اشتهر توركيمادة بأنه مضطهد اليهود فإن الأخير اشتهر بوصفه مضطهد الأندلسيين رغم أن تحركه لضرب الأندلسيين بدأ قبل ثمان سنوات من شغل منصب المفتش العام في وقت نشطت فيه هذه المؤسسة الدينية لمساعدة قشتالة على بناء الإمبراطورية .

٤ - الأندلسيون ومحاكم التفتيش

طرد اليهود من قشتالة وضع نهاية لمشكلة يهودية افرزتها موجة الاضطهاد الديني التي تولدت خلال سعي البابوية الحافظة على نقاء الكاثوليكية . وهذا الدافع الروحي الذي كمن وراء مرسم الطرد الذي أصدرته إيزابيلا سنة ١٤٩٢ ، لم يستطع طمس معالم دوافع اقتصادية واجتماعية أخرى تمثلت في اعفاء الخزانة الملكية من اعباء تسديد قسم كبير من الديون التي قدمها الممولون اليهود لقهر غرناطة ، ومن تأمين دخل إضافي جاء عن طريق الأموال والعقارات التي صادرتها الدولة من ضحايا محكم التفتيش لاسيما وأن عدداً منهم كان يتمتع بثروات طائلة صبت في الخزانة في وقت ضيق سببه طول الحرب مع مملكة غرناطة .

وعندما رفعت السلطة الملكية حمايتها عن اليهود واليهود المتصررين ، فانها بذلك أزالت آية عوائق تقف في طريق عمل محكم التفتيش التي كانت أكثر من مستعدة لاتهامات قدرتها على تصحيح «الاعوجاج» وقد تساحت بعمال متخصصين لاعلاء راية الكاثوليكية مهما كان الثمن ، ويتأنيد الذين احتفلوا بالقضاء على آخر المالك الإسلامية ، وجددوا احتفاظهم بالتخلص من اليهود . وفي جميع هذه الحالات كان امام اليهود حللاً : التنصر مع ما يمكن ان يرافق ذلك من التعرض بجلسات عمال محكم التفتيش في آية لحظة ، او الرحيل والبداية من جديد في وسط مختلف . أما المقاومة فلم تكن واردة على الاطلاق لأن عدد اليهود لم يكن يسمح بنجاح آية مقاومة ، ولأن تجمعهم في الأحياء الخصبة لهم يجعل حصارهم والقضاء عليهم عملية سهلة نسبياً .

ولو توفرت ظروف مشابهة انطبقت على الأندلسيين في قشتالة فلربما آل مصيرهم إلى ما أتي به
مصير اليهود منذ السنة الأولى لاستسلام غرناطة . ولكن أهل غرناطة كانوا يعانون أكثر من مليون نسمة
في المملكة وحدها . وكانت اسلحتهم الفردية ماتزال بحوزتهم ، وكانت روح الثورة مازالت تحمل في
صلورهم يوم رفع الصليب الفضي فوق برج الطلاطم على قصبة الحمراء . وكانوا مائزيالون على تنظيمهم
القتالي السابق ، ولم يكن معظمهم بحاجة إلى سبب قوى لاعلان العصيان المدني على ايزابيلا وزوجها
فرناندو الخامس . اضافة إلى ذلك كان الغرناطيون يملكون معاهدة التسلیم مع ايزابيلا بينما دعاها السبعة
والستين^(١) ، ولم تكن ايزابيلا لترضى في ساعة صعودها بين ملوك أوروبا **بان** تهم بخنق معاهدة التسلیم
ولما بعث حير توقعها بعد . الا أن تعصيها غلب عليها بعد تردد ، وأخرجت هذا التccbص اختراق جميع
المحاولات التي بذلها هرناندو طليبيه، رئيس اساقفة غرناطة بوعيه لاستالة الأندلسيين وتتصييرهم ، وبات
من الواضح ان الصدام مع الأندلسيين لابد وواقع إن آجلا أو عاجلا . واختارت ايزابيلا الصدام العاجل
عندما امرت الكريديال زميير بالتوجه إلى غرناطة واطلقـت يديه في تحريـة التصرـف لتصـيير المسلمين
الأندلسيـين . وأمام اصرار زميـير « على تطهـير ارواح هؤـلاء الكـفار رغـبـوا اـم لم يـرغـبـوا »^(٢) وقع الصـدام
الـذـى سـعـتـ اليـه اـيزـابـيلا ، وانـدلـعتـ الثـورـةـ الأـنـدـلـسـيـةـ الـأـوـلـىـ فيـ تـشـرـيـنـ الثـانـيـ منـ سـنـةـ ١٤٩٩ـ .

وخلال ستين من المعارك بات من الواضح ان الحل الذي ارتقاـه ايزابيلا للـيهود لا يمكن في تلك
الأحوال تطبيقـه على الأندلسيـين ، ولكنـها قدمـتـ لهمـ الخيارـ الذيـ قدـمتـ لهمـ للـيهودـ قبلـ عشرـ سنـواتـ عندـماـ
اصدرـتـ فيـ شـبـاطـ عـامـ ١٥٠٢ـ المـرسـومـ النـزـيـلـ وـضـعـ الـانـدـلـسـيـينـ اـمـامـ حلـ المـهـجـرـةـ اوـ التـصـرـ .ـ الاـ انـ شـروـطـ
الـتـرحـيلـ وـقـصـرـ المـدـةـ التـيـ حـلـدـهاـ المـرـسـومـ مـهـلـةـ اـخـيـرـ (ـ وـهـيـ اـقـلـ مـنـ ثـلـاثـةـ اـشـهـرـ)ـ كـانـ يـعـنـيـ انـ اـكـثـرـ
مـنـ نـصـفـ مـلـيـونـ اـنـدـلـسـيـ اـصـبـحـوـ مـتـصـرـيـنـ بـحـوـجـبـ المـرـسـومـ دـوـنـ اـسـتـشـارـةـ اوـ سـؤـالـ،ـ وـرـبـماـ كـانـ هـذـاـ

(١) يذكر صاحب « نفع الطيب » ان الشروط عدـتـ ٦٧ـ ، بينما يشير محمد عبد الله عـنـانـ إـلـىـ إـلـاـ ٦٧ـ كـاـرـوـدـتـ فـيـ النـصـ القـشـتـالـيـ (ـ انـظرـ :ـ نهايةـ الـانـدـلـسـ وـتـارـعـ الـعـربـ الـمـصـرـيـنـ ،ـ القـاهـرـةـ ،ـ ١٩٦٦ـ ،ـ صـ ٢٥٠ـ -ـ ٢٥٢ـ)ـ .ـ وـيـحـلـ المـقـرـىـ الشـرـوـطـ بـقـوـهـ :ـ ...ـ تـأـمـنـ الصـغـرـ والـكـبـيرـ فـيـ النـفـسـ وـالـأـهـلـ وـبـقـاءـ النـاسـ فـيـ اـمـاـكـنـهـ وـدـوـرـهـ وـبـعـاهـمـ وـعـافـاهـمـ ،ـ ...ـ وـقـاتـلـ شـرـيـعـهـ عـلـىـ مـاـكـاتـ وـلـاـيـكـمـ اـحـدـ عـلـىـهـ اـبـشـرـهـمـ ،ـ وـانـ
تـبـقـيـ الـمـسـاجـدـ كـاـكـاتـ وـالـأـقـافـ كـلـكـلـ ،ـ وـاـنـ لـاـيـدـخـلـ التـصـارـيـ دـارـ مـسـلـمـ وـلـاـيـقـبـوـاـ اـحـدـ ،ـ وـاـنـ لـاـيـرـوـلـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ اـلـمـسـلـمـ اوـ يـهـودـيـ مـنـ يـحـولـ
عـلـيـهـمـ مـنـ قـبـلـ سـلـطـانـهـمـ قـبـلـ ،ـ وـاـنـ يـفـتـكـ جـمـيعـ مـنـ اـسـرـ فـيـ غـرـانـاطـةـ مـنـ حـيـثـ كـانـواـ ،ـ وـخـصـوصـاـ عـيـانـاـ نـصـ عـلـيـهـمـ ،ـ وـمـنـ هـربـ مـنـ اـسـارـيـ
الـمـسـلـمـيـنـ وـدـخـلـ غـرـانـاطـةـ لـاسـبـيلـ عـلـيـهـ مـالـكـهـ وـلـاـسـوـاهـ ،ـ وـالـسـلـطـانـ يـدـفعـ ثـمـ مـالـكـهـ ،ـ وـمـنـ اـلـوـادـ الـجـواـزـ لـلـعـدـوـ لـاـيـمـيـعـ ،ـ وـيـهـزـيـنـ فـيـ مـدـدـةـ عـيـدـتـ فـيـ
مـرـاكـبـ الـسـلـطـانـ لـاـيـرـهـمـ (ـ لـاـ الـكـرـاءـ)ـ ثـمـ بـعـدـ تـلـكـ الـمـدـةـ يـمـطـرـنـ عـشـرـ مـاهـ وـالـكـرـاءـ ،ـ وـاـنـ لـاـيـقـهـ اـحـدـ بـذـبـ خـيـرـ ،ـ وـاـنـ لـاـيـقـهـ مـنـ اـسـلـمـ عـلـىـ الرـجـوعـ الـلـيـ
لـلـتـصـارـيـ وـدـيـهـ ،ـ وـاـنـ مـنـ تـصـرـرـ مـلـيـونـ يـهـودـ اـيـامـ حـتـىـ يـظـهـرـ حـالـهـ وـيـضـنـرـ لـهـ سـاـكـنـ مـلـيـونـ وـاـخـرـ مـنـ الـتـصـارـيـ ،ـ فـانـ اـنـ الرـجـوعـ الـلـيـ
الـاسـلـامـ تـمـاـيـدـ عـلـىـ مـاـ اـرـادـ ،ـ وـلـاـ يـعـاتـبـ عـلـىـ مـنـ قـتـلـ تـصـرـرـ اـيـامـ الـحـربـ ،ـ وـلـاـ يـوـجـدـ مـنـ مـاـسـلـبـ مـنـ الـتـصـارـيـ اـيـامـ الـحـربـ ،ـ وـلـاـ يـكـلـفـ الـمـسـلـمـ بـضـيـافـةـ
اـجـنـادـ الـتـصـارـيـ وـلـاـ يـسـفـ جـلـهـ مـنـ الـجـهـاتـ ،ـ وـلـاـ يـرـيدـونـ عـلـىـ المـقـامـ الـعـادـةـ ،ـ وـتـرـفـ عـنـهـ جـمـيعـ الـمـظـالـمـ وـالـمـقـالـمـ الـحـدـدـةـ ،ـ وـلـاـ يـطـلـعـ نـصـرـانـيـ لـلـسـورـ ،ـ
وـلـاـ يـطـلـعـ عـلـىـ دـوـرـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ وـلـاـيـدـخـلـ مـسـجـدـاـ مـنـ مـسـاجـدـهـ ،ـ وـيـسـرـ الـمـسـلـمـ فـيـ بـلـادـ الـتـصـارـيـ آـمـنـاـ فـيـ نـفـسـ وـمـالـهـ ،ـ وـلـاـ يـكـلـ عـلـىـ
الـيـهـودـ وـاـهـلـ الـدـجـنـ (ـ+)ـ ،ـ وـلـاـ يـتـمـ مـؤـذـنـ وـلـاـ مـصـلـلـ وـلـاـ صـامـ وـلـاـ غـيـرـ مـنـ اـمـورـ دـيـهـ ،ـ وـمـنـ ضـحـكـ مـنـهـ يـعـاتـبـ ،ـ وـيـرـكـونـ مـنـ الـخـارـجـ سـنـينـ مـعـلـوـمـ ،ـ
وـاـنـ يـوـقـعـ عـلـىـ كـلـ الـشـرـوـطـ صـاحـبـ رـوـمـةـ وـيـضـعـ خـطـ يـدـهـ ،ـ وـاـنـثـالـ هـذـاـ مـاـ تـرـكـاـ ذـكـرـهـ مـنـ «ـ نـفـعـ الطـيـبـ »ـ ،ـ الـجـزـءـ الـرـابـعـ ،ـ صـ ٥٢٥ـ -ـ ٥٢٦ـ ،ـ

وـهـوـ يـرـدـ أـيـضاـ فـيـ «ـ تـبـلـةـ الـعـصـرـ »ـ ،ـ صـ ١٤ـ ،ـ وـقـيـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ مـنـ «ـ اـزـهـارـ الـيـهـاـضـ »ـ صـ ٦٧ـ

(+) وكانت دائرة صغراء يحملها اليهود على صدورهم تهمـهمـ .ـ وـكـانـ كـذـلـكـ الـحـاـكـمـ تـحـيرـ مـنـ تـهـمـهـمـ عـاـمـ التـقـيـشـ بـالـمـرـطـقـةـ الـخـفـيـفـةـ بـارـتـداءـ ثـوبـ
أـصـفـ طـولـ الـنـهـارـ .ـ اـتـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ «ـ ثـوبـ الـعـارـ »ـ مـدـةـ مـعـيـنـةـ قـدـ تـصـلـ إـلـىـ سـنـواتـ طـبـقاـ لـلـجـرمـ الـمـسـنـ لـلـمـتـهمـ .ـ

مالرادرت ايزابيلا القيام به فعلاً . فهي اجبرت حوالي ٣٠٠٠ أندلسي على الرحيل خلال المهلة ، ومهدت السبيل لحكم التفتيش كي تقوم بما عجزت عنه الجيوش من خلال ارهاب الأندلسين المنصرين (المواركة) عندما ازالت عن الأندلسين اسلامهم طبقاً للرسوم ، وجعلتهم تابعين للكنيسة ولو من الناحية النظرية . ومع ذلك وقفت جنوات الثورة الأولى التي لم تخدم بعد حاجزاً أمام دخول حكام التفتيش إلى غرناطة . وماتت ايزابيلا بعد ستين من اصدار مرسومها المذكور دون أن تتحقق رغبتها كاملة في القضاء على كل من لا يقبل بالكاثوليكية أو طرده من قشتالة ذليلاً، ولإثبات بان لقب « العاهلة الكاثوليكية » الذي منحه لها البابا أسيغ علىها عن استحقاق كامل . ولكن موت ايزابيلا لم يمت العصبية القشتالية ، وكل ماحدث حتى ذلك الوقت هو اخفاق السلطة والكنيسة في تطبيق الحل اليهودي على الأندلسين ، لأن مشكلة الأندلسين بدأت عندما كانت المشكلة اليهودية تتعمى إلى الماضي .

أ - الأندلسون المواركة والكارلوسية ،

وفاة ايزابيلا اطلقت يد فرناندو الخامس لتحقيق طموحاته في اوروية واغفال وصية زوجته بمحاسبة الحرب ضد « الكفار » في المغرب ، بينما انشغل خليفه كارلوس الخامس ببناء امبراطوريته الضخمة بالاعتداد على جيشه الاجراة ، ودون الاهتمام كثيراً بنشاط حكام التفتيش لأنه نشأ في بيئة غير قشتالية ولم يكن يهمه امر سيادة الكاثوليكية طالما ان سيادته على محالكه المتعددة كاملة وشاملة . الا ان الكنيسة القشتالية ومحاكم التفتيش تابعتا نشاطهما بغض النظر عن المصالح السياسية التي وجهت نشاط فرناندو او كارلوس الخامس ، ولم يكن أى من الاثنين يشك في أن الكنيسة تسير يداً بيد مع السلطة ولا تشكل دولة ضمن دولة ، ولذا فإن ما تقوم به سيخدم الملكية في نهاية المطاف .

وكما أن ايزابيلا وضعت كل ثقها في توركيمنادة لتخلصها من المشكلة اليهودية ، فانها استندت إلى الكرديبال زميز مهمة انتهاء المشكلة الأندلسية ، واضطررت إلى تأجيل خططها الخاصة بوضع نهاية سريعة لثلاث المشكلة نتيجة الثورة الأندلسية الأولى . وفي الفترة الواقعة بين وفاة توركيمنادة سنة ١٤٩٨ وتسلم زميز منصب المفتش العام لمحاكم التفتيش سنة ١٥٠٧ ، مرت تسعة سنوات شغل خلالها المنصب المهم هذا المعنصب دى ديثا فأكمل ما بدأه بصفية اخر جيوب « المطرقة » اليهودية ، وأغلق ابواب قشتالة على آية افكار جديدة . وتتوفر له بعد كل هذا الوقت لتصفية حساباته القديمة مع هرناندو طليبة اول رئيس اساقفة في غرناطة لاختلافه معه في كيفية معالجة المسألة الأندلسية ، واتهمه بممارسة الطقوس اليهودية . وثبت فيما بعد بطلان الاتهام ولكن طليبة دفع ثمن « تساهلة » مع الأندلسين ولم يتمتع بعد ذلك بغيره الكاملة . ووقوع دى ديثا بين توركيمنادة وزميز طمس قيمته التاريخية وجعله ظلاً لسلفه ومعلميه ، الا أن زميز اثبت حتى قبل تسلم منصب المفتش العام بأنه اكثر من متخصص للكاثوليكية . ولذا كانت هذه الشخصية الثانية في الأهمية بعد البابا ذاته ، وانتقلت محاكم التفتيش في عهده إلى قمة جديدة . اذ قسم البلاد الى عشر مقاطعات شكل في كل منها محكمة ، ووضع على رأسها مفتشاً من

اختيارة . وتعاظم طموحه فراح يفكرون في احتلال الأرضي المقدسة في المشرق والاستيلاء على البرتغال ، وبسط نفوذ قشتالة والكاثوليكية في كل مكان . ودعم قوله بالفعل حين اشرف على تنظيم حملة سنة ١٥٠٩ استهدفت مدينة وهران الجزائرية فذبح من أهلها ما يزيد عن خمسة الآف وثمانية آلاف شخص ، واتبع زمينز ذلك باقامة أول محكمة تفتيش هناك سنة ١٥١٥ فكانت أول محكمة من نوعها على ارض اسلامية . ومع ذلك فان الخطر الذي عمل زمينز وغيره لرده لم يأت من المغرب ولا من الأندلسيين المواركة بل من نصارى آخرين مثله . فقبل ثمانية أيام من وفاة زمينز، سنة ١٥١٧، علق مارتن لوثر اطروحاته الدينية على بوابة كنيسة القلعة في مدينة فيتنبرغ الالمانية فكان ذلك ايذانا ببداية أعظم حركة تحدى للكاثوليكية، واندلاع الصراع الديني في اوروبا .

وكان من الطبيعي اتهام لوثر بالمرطفة لطلابته ادخال الاصلاح الى الكنيسة ، ولكنه دافع عن آراءه بحماس في مجمل فورمز الذي عقد سنة ١٥٢١ برئاسة كارلوس الخامس بعد أن اعطيه كارلوس الأمان . وكانت تلك خطوة نام عليها كارلوس الخامس فيما بعد ، غير أن حركة الاصلاح كانت إنتشرت وأخذت تهدى سلطة الاميراطور في المانيا وهولندا وحيال انتشار حركة الاصلاح اوعز كارلوس الى محكم التفتيش للعمل على سحق المراطقة في هولندا ، ويقال ان كارلوس ومحكم تفتيشه كانوا مسؤولين عن قتل ما بين ١٠٠٠ و ١٠٠٥ هولندي عندما قرر التصويم في دير يوست سنة ١٥٥٦ قبل سنتين من وفاته . وفي ظروف انتشار الحركة البروتستانتية (الاحتجاج او التذمر) يبرز موضوع مضائق السلطة للأندلسيين ، وأشارت اللجنة المشكلة لبحث تلك المضائقات بتحويل اهتمام الكنيسة إلى غرناطة على الفور ، وحظي الاقتراح على موافقة كارلوس واستنート أول محكمة للتفتيش في المدينة سنة ١٥٢٦ .

كان قدر اندلسيي غرناطة أن يعيشوا في تلك الأيام ارهاب عمال محكم التفتيش بما في ذلك طرق أبواب النيل في الفجر وسوق المتهمنين الى زنازن التحقيق والخضوع للتعذيب . وكانت لواحة الممنوعات ترد تباعا بعضها يشدد على ماجاء في لواحة سابقة ، وبعضها الآخر يحتوى على الجديد والغريب : حظر الختان ، حظر الوقوف تجاه القبلة ، حظر الاستحمام والاغتسال ، حظر طلي اليدى بالحناء ، حظر ذبح الماشية على الطريقة الاسلامية ، حظر التكلم بالعربية ، حظر ارتداء الملابس العربية ، عدم التوانى عن أكل لحم الميتة من الحيوانات ، وغيرها من غرائب المحظورات . ولما وجدت محكمة تفتيش غرناطة أن هناك فرصة لخالفة هذه اللواحة ، عمدت الى اثبات تهديدها بالفعل ونقلت الريح الى خياشيم الأندلسيين في أحد أيام شهر أيار سنة ١٥٢٩ رائحة جسدى اثنين من أهلهم حرقا مع مجموعة من ضحايا محكمة التفتيش في أول احتفال ديني شهدته المدينة .^(١)

(١) ادرج وليم هاريس رول (Willian Harris Rule) في المجلد الأول من كتابه « تاريخ عالم التفتيش » (History of the Inquisition) لائحة بضحايا الاحتلال المشار اليه تضمنت : منافق ملحد ، مزور جوازات مرور باسم محكم التفتيش ، ثلاثة رجال تزوجوا من أكثر من امرأة واحدة ، ثلاث ساحرات ، ٣٢ يهوديا متصرفا ، ٢٢ يهودية متصرفة ، أندلسيين مسلمين ، سبعة تمايلل شخصية ليهود متصرفين تکروا من الفرار ، عشرة تمايلل شخصية ليهوديات متصرفات فرن من محكم التفتيش ، تثال شخصي لأندلسي مسلم فر من وجه عمال محكم التفتيش .

حيال هذه التطورات الأخيرة لجأ الأندلسيون إلى كارلوس الخامس يتعهدون له بالطاعة ، ويعدونه يدفع مبلغ ١٠٠٠ دوقة ذهبية في السنة لقاء رفع بعض الضغوط عنهم وابعاد عمال محكمة التفتيش عن التدخل بشؤون الأندلسيين . ووافق كارلوس على العرض بعدة أسباب منها : حمايته تهدئة الأحوال في الجنوب في وقت اندلعت فيه الاضطرابات في المانيا وهولندا وبدأت تهدد سلطته على ممالكه هناك، ولذا كان بمقدمة لتوجيه كل اهتمام واهتمام محكمة التفتيش للقضاء على « المراطقة » شمال اوروبا . ثم ان قيام محكمة التفتيش بما يفترض أن تقوم به كان يعني احرق جميع الأندلسيين لأن الكنيسة كانت تعرف بأن تصرّهم شكل لا قيمة له بالنسبة لهم . ومع ذلك كانت محكمة تفتيش غرناطة بمقدمة لآيات وجودها والبرهنة على أن الأندلسيين ليسوا خارج نطاق سلطتها . ولكن الخطر كان الطابع العام لتصرفاتها في تلك الفترة لأن الأندلسيين في الجنوب كانوا مازالون يشكلون الأقلية الوحيدة التي تميزت بشخصية واضحة ، وبالقدرة على الثورة ثانية اذا تطلب الأمر . يضاف إلى ذلك أن معظم المزارعين الأندلسيين كانوا يعملون لحساب النبلاء أو الكنيسة وكان من مصلحة الطرفين تجنب دفع الوضع إلى درجة يصعب معه احتفال الأندلسيين لأبعاده . هذه الأسباب أدت إلى استمرار سلام نسي مدة ٤٠ سنة تغير الوضع أثراها . وخلال هذه الفترة تمكّن كارلوس الخامس من تحقيق الانتصار على البروتستانت وانصارهم في معركة مهيلبرغ (Mühlberg) سنة ١٥٤٧ ، ولكنه اضطر إلى فرار مهين سنة ١٥٥٢ واندلعت الحرب في العام ذاته مع فرنسا التي ايدت أمراء البروتستانت مقابل الحصول على ثلاثة من المناطق الألانية الخاذلة لفرنسا . واستمرت هذه الحرب خمس سنوات دون أن يتمكن كارلوس الخامس من استعادتها فينس ودخل الدير ومات سنة ١٥٥٨ .

ب - الأندلسيون ومحكم التفتيش في عهد فيليب الثاني :

ورث فيليب الثاني عن أبيه امبراطورية شاسعة ، وورث عن ايزابيلا تعصباً الكاثوليكي ، وعن توركيمادة تقشفه الشديد ووُجد في شخص اسيزبورا اداة طيبة وكتسياً متعصباً لا يقل في حماسه عن المعلم الأول توركيمادة . وهذا الملك الذي اخذ على عاته استكمال حرب أبيه ضد البروتستانت ، اصيب بطلعنة قوية حين اكتشف عمال محكم التفتيش خليتين للبروتستانت في الشبيلية وبلد الوليد في أول سنتي حكمه . ولذا قاتله للقضاء على البروتستانتية تحولت إلى نوع من الدفاع عن النفس ، ثم الى حملة مسحورة شنها ضد الهولنديين بواسطة قائده دوق البا وعمال محكم التفتيش . وذكر ان دوق البا تبعج لدى استدعائه إلى قشتالة سنة ١٥٧٣ بأنه سبب وفاة ١٨٠٠ هولندي واجر ٦٠ ألف شخص على الفرار من البلاد .

استمرت هذه الحملة ضد جميع البروتستانت حتى موته وتابعها من خلفه خارج حدود قشتالة . الا ان الحرب التي شنها فيليب الثاني في جنوب قشتالة كانت مع الأندلسيين واستمرت ثلاث سنوات انتهت بنفي الغرناطيين إلى مناطق مختلفة من البلاد ، واعلان حرب ابادة شاملة ضد كل اندلسي لا يمثل للسلطة او الكنيسة (انظر الفصل الثالث) . وبينما استند فيليب الثاني إلى دون خوان التمسوي قيادة

جيوش ابادة الثوار الأندلسيين ، فإنه اوكل الى المفتش العام اسيينوزا مهمة تسليط عماله على الأندلسيين المواركة ، والبطش بكل من يشك بامره . وهكذا اصدر اسيينوزا أوامره الى محاكم التفتيش بضرورة متابعة اقل الشبهات وأوهي الوشايات بالأندلسيين . واصدر المفتش العام ارشادات خاصة بالأندلسيين،اذ كان يكفي ان يتقدم شاهد واحد لاتهام اندلسي لكي يصار الى تعذيبه او معاقبته بالعمل ثلاث سنوات في السفن،في حين كان اتهام شاهد واحد لشخص غير اندلسي لا يكفي . واذا حدث ولم يعرف الأندلسيون لعمال المحاكم بالجرائم المسندة اليهم فان اقل العقوبات التي كانت تطبق بحقهم هي الجلد او دفع الغرامات المالية الكبيرة .

ولاتتوفر أية احصاءات موثقة عن عدد الأندلسيين الذين اخضعوا لمارسات عمال التفتيش في تلك الحقبة من تاريخهم، الا أنه من المعروف أن الأندلسيين كانوا يشكلون قسماً كبيراً من ضحايا محاكم التفتيش ، وكانوا أكثر الأقلية اضطهاداً سواء من جانب السلطات المدنية أو الكنسية ومحاكم التفتيش . وهناك وثيقة عن سنة ١٥٩٤ تشير الى ان عمال محاكم التفتيش اعتقلوا ٩٦ اندلسي اخضعوا للتعذيب ملا ٥٣ منهم لم يعترفوا باى من التهم التي وجهت اليهم ، بينما صدرت احكام مختلفة على الباقين، لابد وان يكون من بينها الحرق . وعبر في طليطلة على وثيقة أخرى تبين أن عدد الذين اخضعوا للتعذيب في زنازن محكمة التفتيش هناك في الفترة الواقعة بين سنتي ١٥٧٥ و ١٦١٠ بلغ ٤١١ شخصاً منهم ١٧٤ شخصاً اتهمتهم المحكمة بممارسة الشعائر اليهودية ، و٤٧ شخصاً اتهموا بممارسة البروتستانية، الا ان عدد الأندلسيين المواركة كان ١٩٠ شخصاً وهي نسبة لا تقل عن النصف كثيراً ، وربما كانت نسبة يمكن تطبيقها على جميع ضحايا محاكم التفتيش في تلك الفترة .

والرغبة الخجولة في اجتناد كل ما كانت قشتالة تعتقد انه هرطقة مهما كان نوعها لم تكن مقصورة على فيليب الثاني او محاكم التفتيش،اذ لم يكن في امكان محاكم التفتيش ان تستمر في عملها اكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن دون تعاون القشتاليين ورضائهم؛ لأن العلاقة بين القشتاليين وكنيستهم كانت ، ومتزال الى اليوم ، علاقة متينة جداً . ولایقل فضل الكنيسة في اعلاه اسم اسبانيا عن فضل زعمائها، ولذا كان قشتالي القرن السادس عشر جندياً او كهنوتاً او تابعاً لهذا او ذاك، حتى ان عدد الأديرة قدر بحوالى ١٨٠٠ دير للرهبان والراهبات ، وربما وصل عدد الكهنوتيين في ذلك العصر الى ٢٠٠٠ شخص بين حوالى ثمانية ملايين نسمة . وهذا العدد الضخم من رجال الدين ، والعلاقة الحميمة بين القشتالي وكنيسته ، أهلاء الكنيسة لكي تحدد لرعايتها ما يتوجب ان يرغيبه ، وما يتوجب عليهم ان يبذلوه مثل : « كل الأشخاص الذين يحملون معتقدات الهرطقة والشك والخطأ ... بسيدنا المسيح (عليه السلام) وديتنا الكاثوليكي الخيف ... وخاصة أولئك الذين ما يزالون على ارتباط بقوانين موسى او اتباع محمد (عليه السلام) او لوثر، او من يتحدثون عنهم بغير وأيضاً جميع أولئك الذين قرأوا ، او بين أيديهم ، كتاب الفها الكتاب المراطقة المدرجة اسماؤهم في قائمة الكتب الممنوعة التي عممتها المكتب المقدس (أي محاكم التفتيش) » .^(١)



إحدى وثائق محكם التفتيش وهي تتضمن ما يزعم أنه اعترافات مسلم معتقل.

ج - الأندلسيون المواركة ومحكم التفتيش بعد النفي :

اصيرت حكومة فيليب الثالث على نفي الأندلسيين لتحقيق مكسب سياسي يغطي مهانة إبرام هدنة مع الهولنديين «المراطقة» والاستجابة لمطلب جماهيري قشتالي تطور مع الحاجة لأى انتصار يرفع من المعنويات الهاشطة ، ويتورج بحثا طويلا عن كيش فداء لتردى حالة الإمبراطورية . أما الكنيسة القشتالية فأيدت قرار النفي لأنها يأسست بعد ١٠٧ سنوات من المحاولة المستمرة في كسب غالبية الأندلسيين المواركة في صف الكاثوليكية والتخلص عن دينهم ودين أجدادهم . ولم يعد بإمكان محكم التفتيش متابعة «المراطقة» الأندلسية الموركية لأن ذلك كان يعني سوق كل الأندلسيين إلى زنازن محكم التفتيش وكان ذلك مستحيلا . ونفي مئات الآلاف من الأندلسيين المواركة لم يضع حدا «للمشكلة» الأندلسية في قشتالة، إذ بقيت هناك أعداد كبيرة جدا ; وكان الأندلسيون والآفارقة يشكلون السواد الأعظم من العبيد في شبه جزيرة إيبيريا بعد قرون من الاستعباد ، وحروب كثيرة خصصتها الملوك لأسر المزيد من الأندلسيين

واجبارهم على النهوض باعباء خدمة مجتمع كوس نفسه للحرب والعبادة . اما حروب قشتالة فأوجدت المسوغ لاستبقاء العبيد عبيدا حتى ولو تصرروا ، واقع الكنيسة في تناقض واضح مع مبادئها وكأن ذلك لم يكن منها طالما ان الطاعون والهجرة الى المستعمرات الجديدة في اميركا فرضها على قشتالة الاحتفاظ باكير قدر من العبيد وابقائهم كذلك !.

وتنقصنا الوثائق عن عدد الاندلسيين المواركة الذين تعرضوا لممارسات محكم التفتيش بعد عملية التفتيش التي انتهت سنة ١٦٩٥ ، ولكن اشاره هنا ورقة هناك يوحى بان المواركة كانوا اهم ضحايا المحكم حتى الجزء الاخير من القرن الثامن عشر . واحدى وثائق سنة ١٧٢٨ تبين ان ٧٣ اندلسيا احرقوا في احتفالين دينيين جرى الاول منها في شهر آيار واحرق فيه ٤٥ اندلسيا الى جانب عدد آخر من المتهين بالمرقطة ، وكان الثاني في شهر تشرين الاول حين تعرض ٢٨ اندلسيا للحرق أحياء . وفي الحالين صدرت احكام اقل على الاندلسيين الآخرين ولكن لا تتوفر تفاصيل عن ذلك . وعندما اعتقدت محكم التفتيش انها باتت تسيطر على الوضع بعد ان لجمت الاندلسيين المواركة ، فوجيء عمال محكم التفتيش بالعثور على منزل سنة ١٧٦٩ كان بعض الاندلسيين يستخدمونه كمسجد للصلوة ، ولكن لا تتوفر أية معلومات عما حدث للأندلسيين الذين اعتقلتهم المحكم اثر ذلك . واعتبارا من السنة التالية لم تعد الوثائق القليلة التي عثر عليها تحتوى على ضحايا اندلسين مواركة إما لأن فيض الضحايا الاندلسيين نصب تماما ، وإما لأن التفاصيل الخاصة بضحايا محكم التفتيش لم تتوفر بكمالها . والوثيقة المعروفة باسم لي (Lea) من ارشيف مدينة بلنسية تشمل الفترة الواقعة بين سنة ١٧٨٠ و ١٨٢٠ وهي ، كما يبدو ، توکد هذه الحقيقة .

٥ - نهاية محكم التفتيش :

سارت محكم التفتيش يدا يد مع السلطة لبناء اسبانيا ، وكان من الطبيعي ان تنهار بانهيار اسبانيا . في بداية القرن التاسع عشر لم تكن لأسبانيا مالكها الشاسعة في العالم الجديد ولم يكن لها موطن قدم في الدول الأوروبية التي خضعت لسيطرتها فترة طويلة . كان هنها الآن الحفاظ على كيانها ولكن حتى هذا لم يتوفّر اذ بدأ الأسبان سنة ١٨٠٨ مايعرف عندهم باسم حرب الاستقلال ضد فرنسا بمساعدة الانجليز . وفي نهاية هذه الفترة كان هم عمال محكم التفتيش النجاة بانفسهم وليس ملاحقة المراقبة . ومع ذلك فقد تابعت المحكم زحفها نحو النهاية وثبتت انها مازالت تتمتع ببعض حياة . وفي سنة ١٨٠٨ كان عدد القضايا التي حقق فيها عمال المحكم ٦٧ قضية ، وانخفض العدد في السنة التالية الى ٢٢، بينما شهدت سنة ١٨١٢ قضية واحدة . وفي سنة ١٨٢٦ حقق المفتشون مع مدرس اسباني شاب وانتهى التحقيق باحالته الى المحكمة الجنائية التي امرت بحرقه حيا فكان آخر الضحايا المعروفين لمحكم التفتيش .

كانت محكم التفتيش تلفظ آخر أنفاسها في عالم تغير كثيرا عما كان عليه يوم قررت ايزابيلا انشاء محكم التفتيش ، وفي فترة اصبحت السيادة فرنسا التي لعبت دورين متناقضين فيما يتعلق بقشتالة

فكانت في البداية أكبر سند لها في حربها الطويلة ضد الأندلسيين ، ثم أصبحت اعتبارا من نهاية القرن الخامس عشر أول أعداء جازتها الجنوبيّة . وعندما كان الفرنسيون سادة إسبانيا عارضوا استمرار محكمة التفتيش وجاء آخر وصف لأعمال الحكم منهم . اذ روى بعضهم انهم دخلوا قصر محكمة التفتيش في مدريد وصحبهم اهله في جولة سريعة ولكن الفرنسيين ساورهم الشك عندما لم يجدوا زنان محكمة التفتيش التي سمعوا عنها الكثير . وخلال بحث الفرنسيين عن الزنان سمعوا اصواتا واهية تبعث من جوف الأرض ، فأمروا بتنزيل البلاط فإذا بالزنان وغرف التحقيق في القبو . والرواية الفرنسية تقول ان الزوار عثروا على بعض الصحايا أحياء في الزنان وكانوا يأكلون من لحم الصحايا الذين ماتوا قبل حين . وفي الرواية الفرنسية وصف دقيق لبعض أدوات التعذيب التي كانت مستخدمة ومن بينها تمثال العذراء الحديدية وهو عبارة عن جسد مجوف تربط اليه الضاحية وتنطبق عليها ذراعان حديديتان مغطتان بالخناجر والمسامير وحيال تمجد الحملة على ممارسات محكمة التفتيش اضطررت إسبانيا إلى الغائتها سنة ١٨٣٤ بعد ٣٥٦ عاما من تأسيسها .

والغريب محكمة التفتيش الا ان تركتها ماتزال قائمة . وفي صعودها وهبوطها كانت محكمة التفتيش سبيلا نصرة الكاثوليكية على كل المذاهب المسيحية الأخرى التي مات اصحابها في سبيلها واستمرت الى اليوم ولكنها بقيت مناهب الأقلية بالمقارنة مع الكاثوليكية^(١) . أما وقد حملت قشتالة سيف البابوية وشرعته في كل مكان فقد كان عليها ان تستمر في حمل ذلك السيف الى ان هوت تحت ثقله . ومع ذلك فان قشتالة هي التي وفرت للكنيسة الرومية كل اتباعها في العالم الجديد . وحين فرضت عليهم نظاما واحدا مذهبها مسيحيا واحدا ، فانها بذلك أبعدت معظم دول اميركا اللاتينية عن المصير الذي آلت إليه دول كثيرة في عصر الاستعمار . وتجنبت تلك الشعوب الحروب الدينية التي اجتاحت اوروبا وصنعت تاريخها الحديث واودت بحياة الملايين .

ولكن المحكم كانت أيضا السبب في ذبح عشرات الآلاف وحرق أعداد كبيرة من الصحايا في المانيا وهولندا ومناطق العالم الجديد ، ولم تنج منها الجزائر وقشتالة وغيرها من المناطق . وكما ان ايزيابيلا وكارلوس الخامس وفيليب الثاني والثالث وغيرهم كانوا مسؤلين عن تدمير او نفي شعب اندلسي بكامله ، فإن محكمة التفتيش كانت مسؤولة عن البطش بالآلاف منهم ماتوا حرقا او عذبوا لأن دينهم كان مختلف عن دين عمال محكمة التفتيش . وربما كان أخطر ما حققه محكمة التفتيش هو تربية أجيال متتابعة على التعصب المقيت ، وعلى اعلاه شأن الكاثوليكية مهما كان الثمن ، والنظر الى كل الأديان والمذاهب الأخرى على أنها « كهرطقة » يتوجب القضاء عليها وعلى اصحابها .^(٢) ورغم كل هذا السواد تبقى بارقةأمل باذ يرد في

(١) يقدر اتباع الكنيسة الارثوذوكسية ٤٢ مليون نسمة ، وعدد اتباع الكنيسة الانجليكانية (الانجليزية) ٥٠ مليون نسمة ، بينما يصل عدد اتباع الكنيسة الشرقية الى ١٣٣ مليون شخص . اما اتباع الكاثوليكية الرومية فيقدرون بحوالى ٨٠٣ ملايين شخص . انظر عدد مجلة العالم ، حزيران (٧) ، ١٩٨٢ ، ص ١٢ .

(٢) رفض القشتاليون اية مقايير تضم رفاتا غير رفات القشتاليين ، ولكن سمح للانجليز بإقامة اول مقبرة بروتستانتية في مالقة سنة ١٨٦٦ بعد ان قابل الانجليز الى جانب الاسنان ضد الفرنسيين . اما في الازمان السابقة فكان المقربون من اهل المذاهب الأخرى يدخلون تحت الرمال في المناطق التي يغمرها البحر عند المد ، الا ان ذلك اتوقف بعد ان اشترك الصيادون من ان دون هؤلاء عند البحر يلحق التجasse يقادتهم . انظر : Spain, The Mainland, Benn, p 471.



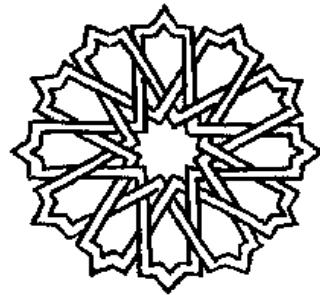
مدخل كالدوانية طليطلة التي كانت أصلاً جامعاً حوله الفونصو السادس إلى كيسة .

كتاب «الجزيرة العربية» ان اسبانياً يدعى بدبة (Badhia . M) توجه الى مكة لأداء فريضة الحج سنة ١٨٠٧ ، اي بعد ٣٦٩ سنة من قيام حاكم الفتیش القشتالية .^(١)

إن قراءة التاريخين الأندلسي والقشتالي ، بل وقراءة تاريخ كل الشعوب الأخرى ، تظہر أن العرب وحدهم كانوا قادرين على إنشاء تلك الدولة التي تضم اتباع الديانات السماوية الثلاث . ابتووا ذلك في الأندلس ، وابتبوه في مملكة غرناطة ، وظلوا اوفباء لهذا المبدأ حتى اليوم . أما تاريخ الأديان والعلاقات الدينية عند غيرهم فما هو في واقع الأمر الا تاريخ الغروب والاضطهاد .

(١) بدأ هذا الأسباني حججه في ٢٣ كانون الأول سنة ١٨٠٦ تحت اسم مستعار هو (علي بيك) ، وسجل مشاهداته خلال الحج ، وبذلك يكون ثاني أوروبي يزور الأرض المقدسة بعد جوزيف بنس الذي أسلم بعد أن أسو المغاربةون اخر القرن السابع عشر .
انظر : Arabia, (London), 1825, P 220.

الفصل
السادس



التأثيرات الأندلسية في إسبانيا وأوروبا

١ - الأندلس بين الاحتلال والاسترجاع

بين بداية الفتح العربي للأندلس واستسلام غرناطة ٧٨١ سنة مسيحية (٨٠٥ هجرية) انتقلت السلطة خلالها من الأنجلسيين إلى مسيحيي الشمال على مراحل متعددة بدأت منذ السنوات الأولى للفتح ، ووُجِدَت أرضيتها الصلبة في عهدي الإمارة والخلافة ، وحققت أول نصر حقيقي لها يوم الاحتلال طليطلة قبل أن تصل الذروة بعد موقعة العقاب سنة ١٢١٢ . والفترة التي اعقبت تلك الهزيمة المروعة كانت عصر اكتساح الجزء الأكبر من الأندلس حتى إذا حلّت سنة ١٢٦٦ كانت السلطة السياسية الإسلامية المحصرة في مملكة غرناطة وتقوضت تلك السلطة عندما استسلمت مدينة غرناطة أول سنتها ١٤٩٢ . ولكن سقوط غرناطة لم يحمل نهاية الوجود الأنجلسي باشكال أخرى إذ بقي الملايين منهم في المناطق الجنوبية والشرقية من شبه جزيرة إيبيريا إلى أن قرر فيليب الثالث نفيهم سنة ١٤٩٣ ، باستثناء الأعداد التي سمح لها بالبقاء وأولئك الأنجلسيين الذين استعبدتهم الممالك الإيبيرية المسيحية وامتزجوا فيما بعد بالسكان وطمسوا شخصيتهم إلى الأبد إلا فيما ندر.^(١)

ونخلال فترة القرون الثانية تلك تغير التركيب السكاني والسياسي والديني لشبه جزيرة إيبيريا من النصرانية إلى الإسلام أولاً ، ثم من الإسلام إلى النصرانية مع وجود الفارق الكبير بين عوامل التغيير في الحالتين والوسائل التي اتبعها العرب المسلمين والنصارى القشتاليون والأوروبيون لاقناع السكان بدخول الإسلام ، أو لاجبارهم على التنصير سواء فعل ذلك المسلمين أو اليهود . وفي هذا التغيير كانت الأندلس هي الدولة الرئيسية الوحيدة التي خضعت لسلطان الإسلام تلك الفترة الطويلة من الزمن وعادت إلى حضرة النصرانية بعد حروب استمرت متقطعة أكثر من سبعة قرون . والناظر إلى التاريخ الأنجلسي لايسوغ لبعض المؤرخين القول بأن مسيحيي الشمال الأيبيري خاضوا حرباً على مدى سبعة قرون لاستعادة الأندلس من أيدي المسلمين فكانت حرب « الاستعادة » أو « الاسترجاع » هم ملوك الشمال إلى أن تمكّنوا من هدفهم في نهاية المطاف ، وبذلك انحرفت إيزابيلا مابداه بلاير (بلاي) في بداية القرن الثامن الميلادي .

(١) تسكن بعض القرى القريبة من ملدية أشقرة جمادات تقول إن أصلها من قبائل بيرية جاءت الأندلس مع جيش طارق بن زياد وسكنت تلك الأرض قاعاً منذ ذلك الوقت . ويعطيه هذه الجمادات إلى اليوم بصمات تختلف عن سكان تلك المناطق من الأسبان سواء من ناحية الـ لـ أو الكلام أو المأكولات وهي تصر على تبروها وترفض الاتصال بساكن الشمال . ويحتمل أن اجداد تلك الجمادات كانوا يسيطرون على حركة التقليل بواسطة البثـالـ في المناطق الشمالية الغربية من إسبانيا ، ومن الممكن أنـمـ اليوم المـرـورـ على قـرـافـلـ صـغـيرـةـ تحـمـلـ الـيـضـالـعـ فيـ المـنـاطـقـ الـوـرـعـةـ هناكـ

وفي كتب التاريخ اشارات كثيرة الى ان ملوك الشمال سعوا لاستعادة الأندلس من المسلمين^(١) ، الا أن فكرة « حرب الاسترجاع » ، وليدة الحركة الرومانسية التي سيطرت على المثقفين الأسبان في نهاية القرن التاسع عشر في مسعاهم لحمل الأمة الاسبانية على النهوض من كبوتها الطويلة ، وتذكيرهم بمحاض فسروه بالطريقة التي وجدوها مناسبة لزور الحمام في النقوش الاسبانية الاباطحة نتيجة تقاسم القوى الرئيسية في تلك الفترة خيرات العالم وقهرها لاسبانيا . والاسس الواهية التي استند اليها أصحاب تلك المدرسة تحطمـت خلال ستين ويز ماكانها تفسير جديد تبناه عدد من المؤرخين^(٢) المشهورين ينفي فكرة « الاسترجاع » ويستند الى القول ان المسلمين والنصارى واليهود كانوا يشكلون مجتمعا اسبانيا واحدا ربطته وحدة الدم واللغة ، ولم يلعب التعصب الديني دوره المعروف إلا بعد أن أدخلته عناصر غير « اسبانية » الى شبه الجزيرة اثر سقوط طليطلة سواء جاءت العناصر الجديدة من افريقيا أو من فرنسا . أم فكرة « استرجاع » الأندلس فكانت رغبة شاملة لاستعادة ملك القوط الغربيين من الاندلسيين .

وهذا التفسير مقبول اليوم لدى كثير من المؤرخين الحديثين بعد أن ثبتت الحاجة لاعادة النظر في كتابات اوكامبو (Ocampo ١٥٤٣/Mariana ١٦٠١) وكوندي (Condé ١٨١٠) وكانت المصادر الرئيسية لدراسة التاريخ الاسباني / الأندلسي . ولاشك في أن اعمال دوري ساهمت الى حد كبير في إعادة النظر الى طبيعة الوجود الاندلسي في ايبيريا^(٣) ولعب مؤرخون انجلترا مثل لين بول (Lane-Poole) وتریند (Trend) وواتس (H.E.Watts) دورا في عملية إعادة النظر هذه، مؤكدين على أن العلاقات التي سادت بين الاندلسيين والشماليين لم تكن على الصورة التي قدمها بعض المؤرخين الاسبان الأوائل . وأن ملوك الشمال غالبا ما كانوا يفتقدون الحماس لشن مايعرف باسم حرب « الاسترجاع » - كما توفر للدارسين الأجانب كتاب « فتح الطيب » للمقرن الذي ترجم دون باسكال دي غيانغوس في مجلدين ونشر في لندن سنة ١٨٤٣ تحت اسم « تاريخ الملوك الإسلامية (الحمدية) في اسبانيا » فكشف كثيرا من الحقائق التي لم تتوفر قبل ذلك . (انظر المراجع)

وربما تمكن هذا الدارس او ذاك من تأكيد نقطة ودحض أخرى ، او صياغة هذه النظرية او تلك بالاعتماد على المعلومات والأمثلة المستقاة من المراجع المتوفرة عن التارikhين الأندلسي والاسباني . والسبب ان الوجود العربي الاسلامي في شبه جزيرة ايبيريا استمر ثمانية قرون وكانت علاقات الجنوب والشمال وعلاقات الطرفين الداخلية على درجة كبيرة من التوسع والتغير اللذين . قرظتهما مؤذنات كثيرة بعضها كان محلها صرفا والآخر نجم عن مسبيات خارجية ، او ظروف دولية أملت هي الأخرى شروطها على

(١) « مذكرات الامير عبد الله » عبد الله بن بلقين ، تحقيق برونسال ، ص ٧٢ .

(٢) وهم من اتصلوا بمعهد التعليم المحر (Institucion libre de Enseñanza) مثل بيتبيت بيدال (Menendez Pidal) وسانشو الوروز (Sancho Albornoz) واميريكو كاسترو (Americo Castro) وأخيرا (Altamira) وغيرهم .

(٣) كتاب دوري في مقدمة كتابه « تاريخ مسلمي اسبانيا » ، فالموضوع الذى اختراه بجديد وما ذلك الا ان الكتب التي تعاملت لافائدة منها البتة ... لأنها اعتمدت على كتاب كوندي واعنى بهذا انه عمل وجمل لم يكن ثبت تصرفه الا مواد قليلة . وهو بجهله باللغة العربية لم يكن قادر على فهم ماتلكوه ، كما انه كان يفتقر الى روح النقد التاريخي كلية . (انظر المراجع) .

الأوضاع والعلاقات في إبيرة واندمجت معها لتكون منظوراً تاريخياً جديداً . وبما أن كثيراً من المؤلفات العربية فقدت ، واحتفت معظم الوثائق الرسمية العربية ، فإن من الطبيعي أن تخلل التاريخ الأندلسي فجوات ربما يمكن في المستقبل ملؤها . وبما أن تجدد الاهتمام بتاريخ إبيرة ما زال مستمراً منذ الخمسينات من هذا القرن ، فإن المصادر الجديدة المتوفرة يمكن أن تقدم إجابات كثيرة لبعض أهم الأسئلة الخاصة بالتاريخ الأندلسي . أما الآن فهناك استفسارات تحتاج إلى إجابات مقنعة و شاملة . لماذا بدأت حركة « الاسترجاع » ؟ وهل كان التقدم الشمالي احتلالاً أم استرجاعاً ؟ وهل عاد « استرجاع » الأندلس على إسبانيا بالخير أو الفائد ؟ إلى جانب أسئلة أخرى تقدم المصادر الحالية جزءاً من إجاباتها ، بينما تحتاج الجوانب الأخرى إلى تقييم جديد .

٩ - التركية القوطية الغربية ،

ليس هناك أساس يدعم التصور بأنّ الإسبان خاضوا حرب تحرير شعيبة ضد الأندلسيين على مدى ثمانية قرون نظراً للثورات الزمنية الكبيرة التي تفصل الحدث عن حدث آخر . في حين الانتصار الغامض الذي حققه بلايو سنة ٧١٨ (٩٩) ، أو بعدها^(١) ، وبين استسلام طليطلة ٣٦٧ سنة ، وبين سقوط طليطلة وسقوط سرقسطة ٣٣ سنة ، وبين سرقسطة وموقعة العقاب ٩٤ سنة ، ومفضت ٢٤ سنة قبل أن يتمكن فرناندو الثالث من احتلال قرطبة و ١٢ سنة قبل سقوط أشبيلية و ١٨ سنة قبل التمكن من اسقاط مرسية الثانية . أما استسلام غرناطة فكان بعد سقوط مرسية بستونات بلغت ٢٢٦ ولم يبدأ القشتاليون بطرد الأندلسيين إلا بعد ١١٧ سنة من سقوط آخر الممالك الإسلامية . وخلال الثورات الزمنية هذه كان الإسبان يعيشان فترات هدنة أو صلح تابعاً فيها العمل لتطوير البلاد والتوكيز على النشاطات الحياتية المختلفة وتحصيل العلم وغيرها من النشاطات .

وليس هناك أساس مقنع بأن الشماليين سعوا منذ السنوات الأولى للفتح إلى اعداد أنفسهم لاستعادة ملك القوط الغربيين الذي قوضه طارق بن زياد وموسى بن نصر وغيرهم من الفاتحين لأنّ للدريق كان آخر ملوك القوط الغربيين ، كما تذكر الروايات الأنجوية . أما تاريخ القوطي بلايو فعامض ومعظم الاشارات الخاصة به ترد في الروايات العربية (انظر ص ٤١) . والقصة الإسبانية الخاصة ببلايو مكتوبة بعد حوالي ٢٠٠ سنة من حدوثها ، ولابد أن يكون سياقها خاضع للتصورات غير تلك التي عرفها الواقع ، وجائت في فترة حاول فيه الشمال صنع قضية لمملكة بلا قضية باحتمت من جيوش الفاتحين يمكنها الثاني وفقر سكانها وشح أرضها وبرودة الأرصان التي قامت عليها في مساحة طولها ٤٠ ميلاً وعرضها ٤٠ .

وعندما كان فرناندو الثالث يتقدم لاحتلال الأرضي الأندلسية ، فإنه تقدم في أراض سكتها غالبية مسلمة ، ولدت وأجدادها فيها وامتزجت منذ أول سنوات الفتح مع السكان الأصليين ، الذين لم تكن لهم صلة أو علاقة بالقوط الغربيين . لاسيما وأن القوط كانوا من سادة الحرب فعاشوا بعيدين عن

(١) هناك عدة تاريخ مفترحة لهذا الحادث منها سنة ٧٣٣ (٩٥) انظر ص ٤١ .

السكان وتبددوا دون ان يقدم لهم السكان الأصليون العون ضد الفاتحين المسلمين ، لأنهم اضطهداها الغالية وعاملوها معاملة العبيد او الغرباء في وطنهم الذي اقتحمته قبائل الجرمانية في بداية القرن السادس الميلادي . واذا كان القوط الغربيون حكموا اسبانيا ثلاثة قرون ، فان فرناندو الثالث كان يتوغل في اراض حكمها العرب اكثر من خمسة قرون . وكانت عربية الادارة والثقافة والتاريخ واللغة والسكان بصورة عامة . يضاف الى ذلك أن المقوله بان ملوك الشمال حاولوا عن وعي اعادة مظاهر القوطية الغربية الى الاراضي الاندلسية التي احتلوها لاستند الى اى أساس واضح ، لأن ملوك القرن العاشر والحادي عشر كانوا يتحدثون لغة مختلفة ، واكتسبوا عادات مختلفة عن عادات القوط . وحتى الرغبة في اعادة كرسى الملك الى طليطلة (عاصمة القوط الغربيين السابقة) لم تستمر طويلا ، اذا فضل ملوك قشتالة مدينة بلد الوليد ويرغش واشبيلية ومدريد . وربما كانت الكاثوليكية هي المذهب الذي يقي سالسا في الشمال واستمر في اسبانيا الى اليوم .

وكما أن الاندلسيين نظروا الى تطوير خيرات البلاد على أساس انه الطريق الى الرخاء ، فإن ملوك الشمال وجدوا في البروة الاندلسية دافعا مستمرا للتأثير لحملاتهم ضد الجنوب ومحاولة الحصول على اكبر مبلغ ممكن عن طريق ابتزاز ملوك الطوائف والممالك الضعيفة بعدهم . وحين اخفقوا في الحصول على المال عن طريق الابتزاز أو التهديد لجأوا الى القوة ، وكان ذلك اسلوباً اتفقه القشتاليون في الاندلس ، كما اتفقه الأسبان فيما بعد في العالم الجديد . واستمرت آلة الحرب القشتالية في التحرك بلا توقف تقريبا الى ان اصطدمت بالقوى الفرنسية والبولندية والإنجليزية اعبراها من القرن السادس عشر . وخلال تطور قشتالة من مستعمرة شمالية صغيرة الى اكبر قوة عرفها العالم في القرن السادس عشر ، كان السلاح العامل الأهم في ذلك التطور ولم تكن قشتالة بحاجة الى الاستناد على حقوقها القوطية الغربية او أية حقوق أخرى باستثناء القوة .

ب - استيطان الاندلس :

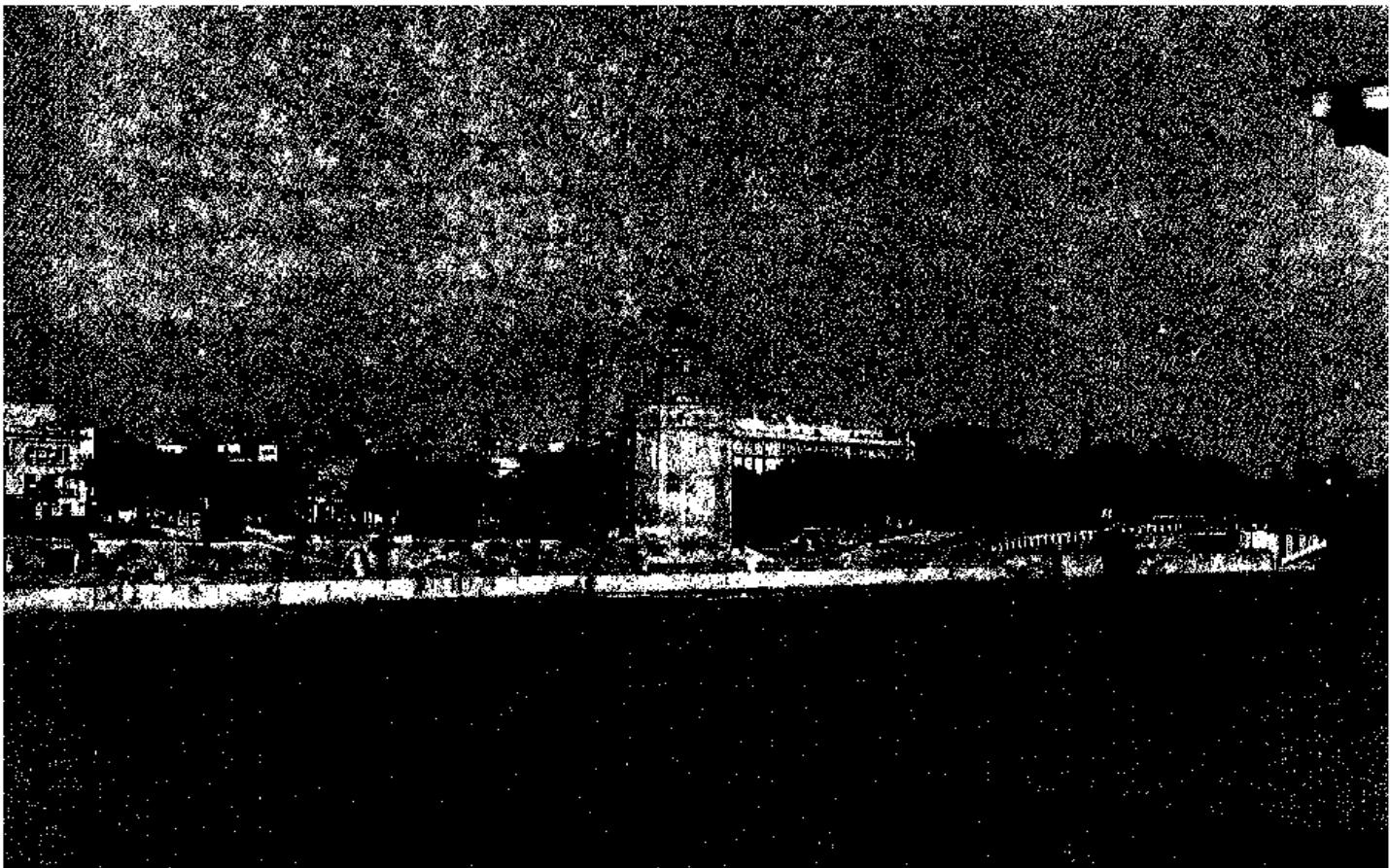
تحرك الشماليين في البداية لاستيطان السهول القريبة من ممالكهم ، واعمار مدن مثل ليون وبلازما واكشومة (Osma) ثم انفتح الطريق ايام حكم الطوائف ، فامتدت حركة الاستيطان لتشمل المنطقة الواقعة شمال نهر دويرة (بالنسبة لقشتالة) ونهر ابوا (بالنسبة لقطالونيا وارagon) . وحين سقطت طليطلة عمل الفونصو السادس على ترغيب قسم من سكانها المسلمين واليهود ببقاء فيها وجلب اليها سكانا شماليين لضممان استمرار السيطرة عليها ، فكانت تلك سياسة حكيمة اذ بقيت المدينة بأيدي الشماليين رغم مهاجتها فيما بعد . وضعف مالك الطوائف ادى الى انتقال حركة الاستيطان الى المناطق الواقعة شمال نهر تاجة فسكنت مجموعات من القشتاليين والنافاريين والاراغونيين والمهاجرين الفرنسيين ، مدنًا مثل شلمنقة وشقوية وإبلة وأعمرتها . وبما أن ملوك الشمال كانوا مقتطعين بان بقاء السكان المسلمين في الاراضي المحتلة حديثا لن يضمن لهم بقاءها في أيديهم ، فقد عملوا على طرد سكانها الأصليين ضمن مخطط منظم طبقه الملك تلو الآخر . وكانت تلك سياسة انتهجها الفونصو

بเดقة فكان يقدم لأى مهاجر جديد المسكن والأرض ويعفيه من دفع الضرائب على أية أملاك له في أية منطقة أخرى من البلاد ، ويوفر حماية خاصة له . اذ لم يكن من المستطاع القبض على المتهمن بارتكاب جريمة ما اذا كانت الجريمة ارتكبت في منطقة سبق للمستوطن الجديد الاقامة فيها . وساهمت الكنيسة في عملية التوطين فما ان يتجمع بعض السكان المستوطنين في قبة او مدينة ما ، حتى توقد الكنيسة القساوسة وتتفق الأموال لبناء الكنائس ، أو تعمل بيساطة على تعمير المسجد الرئيسي في المدينة المحتلة الى كنيسة ، وهذا نهج طبقته الكنيسة في كل مكان من الأندلس المحتلة .

إن أحد الأسباب التي أدت الى وجود تلك الفجوات الزمنية الكبيرة بين التقدم الشمالي والآخر هو الانفصال الى المستوطنين الضروريين للسيطرة الدائمة على المناطق المحتلة . وهذا لا يعني بالطبع ان عملية اخلاقه بعض المناطق الأندلسية لم تكن بمبادرة من السكان العرب نتيجة الضغط العسكري او الأسباب الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ؛ إلا أن تفريح الجنوب كانت سياسة منظمة . واضطر الاندلسيون مع الزمن الى التراجع تدريجيا نحو مالكم المنحرفة ، بينما اختارت قلة الذبح والبقاء تحت سيطرة الشماليين في حالات معينة . وخلال عملية استيطان الأندلس لعب الفرسان دورا حاسما يماطل الدور العسكري الذي لعبوه اعتبارا من القرن الحادى عشر ، ومايزال التأثير الفرنسي على حركة الاستيطان ماثلا في وديان نهر ابرة والشرق الابيري . وكان في ذلك الوقت ضروريا لحركة استيطان الجنوب نظرا لأن عدد سكان المالك الشمالية في ابيرة لم يكن يتيح الفرصة بفائقه للسيطرة على المناطق المحتلة .

والمشكلة الاستيطانية التي واجهت ملوك الشمال في القرن الحادى عشر ، وصلت الى ذروتها في القرن الثالث عشر عندما اجتاحت جيوش الشمال وسط الأندلس دافعة أمامها حوالي مليونين الى ثلاثة ملايين أندلسي . فكانت تلك من اكبر عمليات الاجلاء التي عرفها العالم في ذلك الحين ، لاسيما وأنها استهدفت اجلاء السكان عن عدد من أهم مراكز تجمع الأندلسيين في قرطبة وأشبيلية وجيان وبلينسية وابدة ومرسية وغيرها من المدن . وحين مات فرناندو الثالث (١٢٥٢) ، كان باستطاعة المسيحية القول ان هذا الملك أخذ من الأرضي الأندلسية مالم يستطع اي ملك قبله او بعده أخذه . اذ لم يتبق بعد وفاته سوى الجزء القصي من جنوب الأندلس مثل غرناطة ولبلة وغيرها من الممالك الصغيرة التي اخضعت كلها لدفع الجزية . هذا التوغل حمل بعض المؤرخين على النظر الى فترة حكمه على أنها كانت مرحلة « استرجاع » الأندلس ، ولقبه الناس بالقديس قبل ان تسقط عليه الكنيسة البابوية هذا اللقب بحوالي ٤٠٠ سنة .

ووعي فرناندو وغيره أنهم جاؤ الأندلس محتلين كان وراء الاصرار على اخلاء المدن الأندلسية من سكانها كما حدث بالنسبة لقرطبة وأشبيلية وجيان ، أو أسر اكبر عدد ممكن لتشغيلهم في الشمال وسد الثغرة التي احدثها رحيل قسم من الشماليين الى المستوطنات الجديدة . والمشكلة الأولى التي اعترضت فرناندو الثالث جاءت اثر سقوط قرطبة . فعاصمة العلاقة القرطبية كانت تضم يوما ما يترواح بين نصف مليون و مليون نسمة ، ولكن انتقال الثقل الى اشبيلية قلل عدد سكانها فبلغوا يوم سقوطها حوالي



برج أشبيلية

٥٠٠ رغم ان حجمها لم يكن يقل عن ذلك يوم كانت سيدة مدن الأندلس وأوروبا . وحاول فرناندو ارضاً الجميع يوم تملكتها فشكل لجنة ملوكية للإشراف على توزيع المدينة على جيشه وأنصاره ، الا أن اللجنة لم تفرغ من عملها الا بعد عدة سنوات . ومع ذلك فان استيطانها الجديد لم يوفر للمدينة رخاءها السابق فبقيت تعاني من الاهمال حتى القرن الحالي . وحين استسلمت أشبيلية واجهت فرناندو مشكلة اكبر لأن عدد سكان هذه المدينة كان حينها حوالي ٣٠٠٠ نسمة . وخلال مباحثات التسليم عرض سكانها استبقاء ثلاثها فرفض فرناندو العرض ، ثم قدموا له النصف فرفض أيضاً وأخرجهم جميعاً اذ نقلت ثمانية قوادس (وكانت سفن تسير بالشاع والمجاديف) وخمس سفن شراعية أعداداً منهم الى سبتة لقاء أجر غير معروف ، ورحل قسم الى مدينة شريش وآخر الى غرناطة ، واحتار قسم الرحيل الى تونس ومصر . وما ان بدأت قوافل أهل أشبيلية في الرحيل حتى شكل فرناندو الثالث لجنة ترأسها اسقف شقوبية عملت على تقسيم أشبيلية وضواحيها سنة كاملة . ولكن الفترة لم تكن كافية فشكلت من بعده لجنة أخرى مارست مهمتها ثمانى سنوات (١٢٥٥ - ١٢٦٣) . والسجلات المحفوظة في أشبيلية تعطي صورة عن عملية التوزيع التي شلت مهاجرين من ليون وجليقية وطليطلة وفرنسا وجنوا والمانيا وغيرها من المناطق . وكان النصيب الأكبر لحوالي ٤٣ أميراً وعد من القساوة والنبلاء قدمت اليهم أراضي تحيط بالمدينة . بينما حصل حوالي ٢٠٠ فارس على قطع أصغر من الأرضى ، وأعطي الأقل للمساورة ، وحظيت بلدية المدينة بأطيان كبيرة ، ووزعباقي على جميع المغاربة والمهاجرين المتبقين .

ج - البحث عن الذات الأساسية:

بعض الأمثلة التي يقدمها تاريخ قشتالة تظهر الغربة التي شعر بها الشماليون وهم يتقدون في أراض لم يعرفوها ولا عرفها أباؤهم وأجدادهم من قبلهم ، ولم يترك تارixinm وصفا لها في صفحاته الغامضة عن الحقبة الأولى من صعود ممالك الشمال في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . أما سكان المناطق المقهورة فكانتوا مختلفون عن الشماليين في كل شيء ، ولذا كان تقدم الشماليين عموما في ارض اجنبية لا يتوتون اليها بایة صلة ، ولايرتبطون بها الا بدافع الحصول على الارض وكسب الأسلاب . وتصرف بعض ملوك الشمال عكس وعيهم للغربة في المناطق الأندلسية المختلفة ، فسعى الفونصو العاشر في القرن الثالث عشر الى تغيير جميع أسماء المدن والقرى الموجودة في الأندلس لمحو كل ما يمكن أن يذكر ببقاء الأندلسين في تلك المناطق طوال خمسة قرون ونصف القرن ، وأمر بان تسمى المدن بأسماء ملوك الشمال أو قادتهم أو باسماء الشخصيات التي محللت على الارض بعد استلابيها . ولكن المحاولة باوت بالاخفاق واستبقيت الأسماء الأندلسية مع وجود استثناءات استخدم فيها القشتاليون أسماء المدن التي عرفت بها خلال حكم الرومان .

والقرن الثالث عشر كان قرن طمس السمات الأندلسية فنبشت قبور الأندلسين ، وأحرقت كتبهم الدينية في اكبر عملية تخريب لحضارة متفوقة مثل الحضارة الأندلسية دون توفير أي بديل حقيقي لها . وكان مصيرية الأندلس لم تكن كافية على الأمة العربية في تلك السنوات السوداء ، اذ تقدم هولاكو على بغداد سنة ١٢٥٨ فقضى تلك العاصمة، التي كانت تعد مليون نسم ، وقتل سكانها وأهدر حضارتها وتقاليفها . ولكن هولاكو ذهب وجشه وعادت بغداد الى أصحابها . أما أشبيلية وقرطبة ففيقينا بأيدي القشتاليين ، وكانت عملية اعادة اسكانهما وغيرها سياسة فعالة، اذ لم تسقط أية مدينة رئيسية بعد ذلك . ومن خلف فرناندو الثالث لم يغير سياسة الطرد وإعادة التوطين فقد احتل ابنه الفونصو العاشر (العالم) لبلة سنة ١٢٦٢ وطرد جميع سكانها الأندلسين ، ثم احتل قادس في السنة ذاتها وجاءها بسكان جدد من مقاطعة ستنتدير المطلة على خليج بسكاية . وسياسة القرن الثالث عشر وما قبله لم تتغير في القرن الخامس عشر اذ ابعت ايزابيلا وفرناندو سياسة تفريغ الأندلس الجنوبية من سكانها حيث توفرت لها فرصة ، ودفعت الملكة القشتالية بحوالى ٣٠٠٠ مستوطن شمالي الى مدينة غرناطة وكانت تلك مجرد الدفعة الأولى (انظر الفصل الرابع) .

واما لاشك فيه أن غزو الجنوب في القرن الثالث عشر لم يتوافق مع بدء عملية تخريب حضارية هائلة فقط ، ولكنه جاء مع تدمير شعب بأسره انتهى الى التشريد والقتل والنفي والاستعباد . وكانت المهمة القومية التي تتضرر ملوك قشتالة هي محاولة ربط ما ورثوه عن آبائهم من مناطق في كل رسمى مقبول ولكن ذلك لم يكن سهلا ، والاسماء التي عرفت بها اسبانيا في الماضي تظهر هللة واضحة وافتقادا الى ايجاد الشخصية الأسبانية . وللرقمي الذي عرف به الفونصو العاشر كان ملك قشتالة وليون وطليطلة وجليقية واشبيلية وجيان وبطليوس ، فكانت هذه الممالك مجموعة من القطع التي يربطها خيط واحد من

الوحدة ، وهذا أمر طبيعي في مملكة عامة كانت ماتزال تبحث عن مواطنية ومواطنيين بعد سنوات كثيرة من توفير الأرض لهم . ولم تكن هذه الوحدة متوفرة فيما بعد اذ عرف فرناندو الخامس في آخر القرن الخامس عشر بلقب ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة . أما ملوك أسرة هابسبرغ (كارلوس الخامس ومن خلفه حتى وصول أسرة بوربون الى السلطة سنة ١٧٠٠) فعرفوا بلقب ملوك قشتالة وارغون ونافار وصقلية وغرناطة . وب نهاية القرن السابع عشر أخذ الملوك يطلقون على أنفسهم لقب: الملك الكاثوليكي على الأسبان والصقليتين والقدس وجزر الهند الغربية . ولم تعرف أسبانيا باسمها الحالي إلا بعد أن فقدت معظم ممالكها في العالمين القديم والجديد . وطوال تلك الفترة من التاريخ الأسباني كان لاسم « أسبانيا » مفهوم غامض يصعب التعبير عنه، واستخدمه العامة لكي يعني شبه جزيرة إيبيريا وأحيانا بما يشمل القشتاليين القدية والجديدة ، وارغون ونافار والبرتغال . مع العلم بأن الأرغونيون مثلًا كان يعتبر اجنبيا في قشتالة حتى بعد ان كان ذلك الاتحاد الشخصي بين فرناندو وإيزابيلا في آخر القرن الخامس عشر . والتركيب الخاص الذي قامت عليه أسبانيا في تاريخها الطويل هو الذي ولد ذلك الاختلاف القائم اليوم في هذه الدولة التي تشكل ٨٥ بالمائة من مساحة شبه الجزيرة الإيبيرية ، وهو ما يميز القططليين والجليليين والنافاريين والأندلسيين عن غيرهم من السكان . أما الوحدة الحقيقة التي جمعت كل سكان شبه جزيرة إيبيرية ، فهي وحدة الكاثوليكية والتبعية الكاثوليكي ، ولذا كانت محكم التفتيش المجهاز الوحيد الذي لم يعرف الحدود .

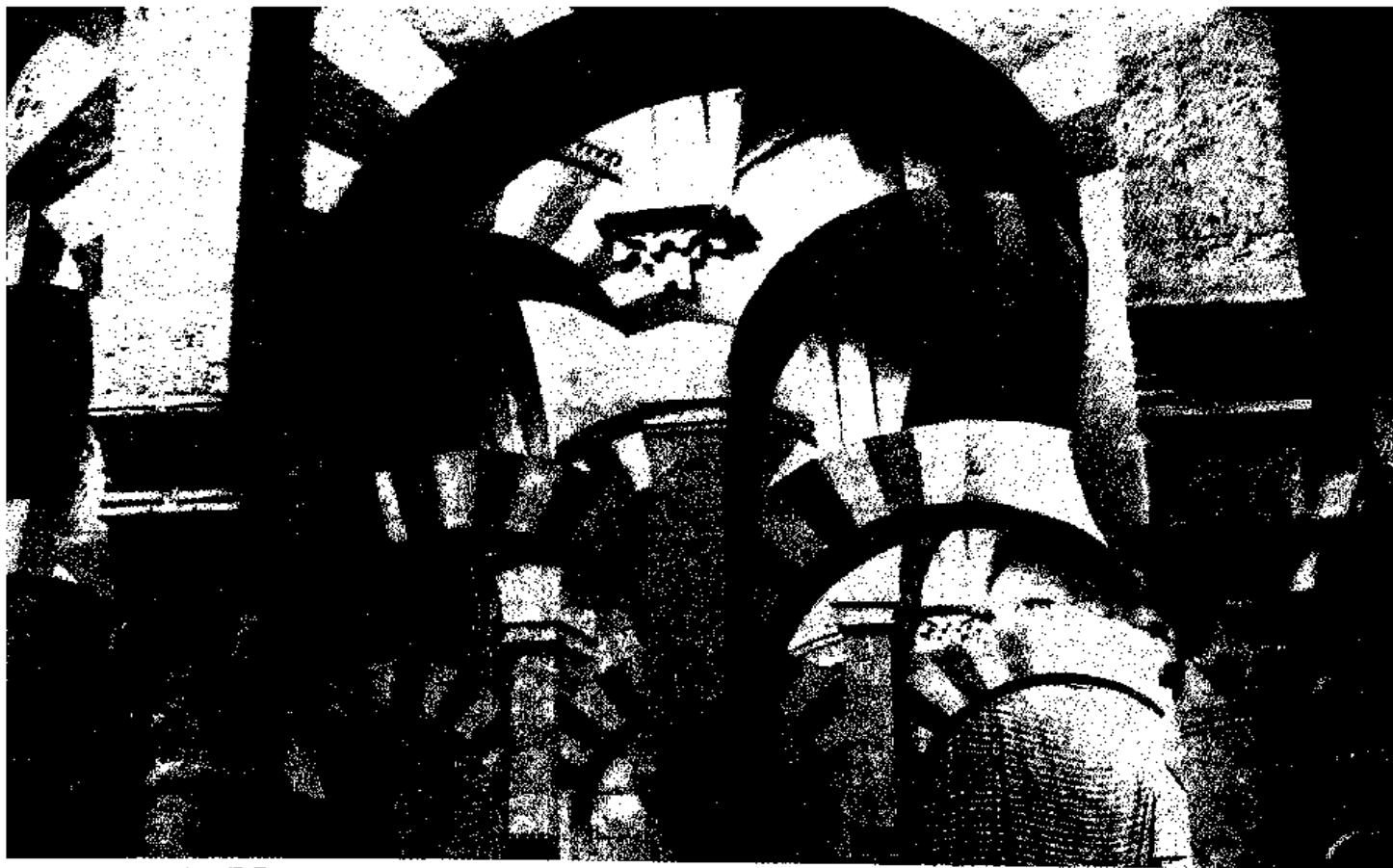
٤ - من الأندلس إلى أسبانيا

الرحلة من الأندلس إلى أسبانيا استغرقت ثمانية قرون تقريبا ، ومضى قرن تاسع قبل ان تخلص قشتالة من معظم الأندلسيين المواركة ، ومايزال في أسبانيا من التأثيرات الأندلسية أكثر مما يود الأسبان الاعتراف به . هذا الانتقال لم يكن معقلا ولايسقطها اذ سقطت الأندلس قطعة بعد قطعة، وهلت أهل الشمال في اندفاعهم نحو الجنوب لتحقيق جملة من الأهداف ، ليس امهما استعادة ملك القوط الغربيين لأن الاهتمام باعادة بناء الحضارة القوطية الجرمانية المتواضعة لم يكن دائمًا . ولم يكن أهم دافع التقدم الدين ، لأن احتلال الأرض الأندلسية لم يتع بالتصدير الإيجاري، ولم يلغ ملوك الشمال الاديان الأخرى ففي الإسلام والمسيحية دينين ، اعترفت السلطة النصرانية بوجودهما الشرعي حتى آخر القرن الخامس عشر . ولم يكن من بين الأهداف الرئيسية تخليص النصارى من قبضة الأندلسيين العرب لأن الجنوب تسكنه غالبية مسلمة ، ولأنه الحضارة القشتالية لأنها كانت حضارة بدائية لا يمكن ان تقارن بالحضارة الأندلسية المتقدمة على كل حضارات أوروبا . وكيفما قلبت الأسباب التي دفعت ملوك الشمال لاحتلال الجنوب ، فإن العامل الاقتصادي يبقى متقدما على غيره . ولو ان ملوك الطوائف كانوا بغير ملوك الشمال ، أمر أن الأرض الأندلسية كانت بوعورة الأرضي التي قامت عليها الممالك المسيحية الأولى ، فلربما كان تاريخ الأندلس غير ماهو عليه الان :

في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والعاشر ، بات من الواضح أن فرصة بقاء الأندلس مملكة إسلامية ضعيفة للغاية ؛ لأن ممالك الشمال طورت قدرات عسكرية ودينية وإدارية ؛ لا يمكن إزالتها إلا بازالة قواعدها البشرية . ولو ان حملات المنصور المظفرة على الشمال استهدفت حلحلة تلك القواعد ، فلربما تأجلت عملية اجتياح الجنوب مئات السنين حتى بدون تدخل المرابطين والموحدين والمرinيين فيما بعد . ولكن ذلك لم يكن ممكنا . وما استبعده ملوك الأندلسين المسلمين طبقه ملوك الشمال بصورة تقبل ان يطلق عليه مايعرف اليوم « بحرب الابادة ». والذى اكتشfe ملوك الشمال ، هو ان السيف يمكن ان يدر على الخزانة أضعاف ما يمكن ان يقدمه العمل المضنى في المحقول او التجارة والصناعة . ولذا حملوا السيف وابتزوا ملوك الجنوب الأندلسى حتى قل الذهب فأخلوا مصدر الثروة ذاتها وزعوا الاراضي على المحاربين عندما شع الذهب والفضة . ولم يكن تقدم الشمالين في البداية نتيجة قلة المخوب ، اذ كانت الغزوات ضد الشمال جهادا سنويا^(١) ، وخاض المسلمين في ارض الأندلس اكثر من ٢٠ معركة رئيسية ولا بد ان يكون عدد المعارك الجانبية والمناوشات العسكرية بعشرين المئات . وفي الفترات التالية من تاريخ الأندلس كانت المخوب ضد الشمالين استنزافا لقوى الشمال المغربي ، و بما استشهد الملايين في الحروب الأندلسية دفاعا عن العروبة والإسلام . ولكن المدد الأوروبي تفوق في القرن الثالث عشر على مدد العدوة وسقط المشرق نهب الانقسام والفرقه وجيوش هولاكو وغيره من الغزاة . وما منفائدة ترجى في الاشارة الى المساعدة الاهالى التي قدمها عرب الأندلس وبريرها ، لكي يحقق نصارى الشمال انتصاراتهم الساحقة ، سواء عن طريق التفريق او الروح الانهزامية أو عن طريق مشاركة الشمالين الفعلية في حرب باقى الأندلسين . ويوم سقطت غرناطة تطلع الأوروبيون الى قشتالة تطلعهم الى المملكة التي حققت للمسيحية مالم تتحقق كل الحملات الصليبية ، ودقت اجراس الكنائس في كل مكان عندما ارتفع الصليب على قصبة الحمراء بعد قرنين من ازالته من فوق اسوار عكا اثر انتصار الملاليك على آخر ممالك الصليبيين في المشرق .

وإذا كانت اوروبا اليوم وليدة حروها الطويلة وصراعها الدينى الدامى ، فإن اسبانيا وليدة المخوب التي خاضها القشتاليون مع الأندلسين وأهل المغرب . وخلال تلك المخوب صنعت قشتالة الأطر الإدارية والاجتماعية والسياسية ، وتطورت الشخصية الأسبانية التي تمكنت في القرن السادس عشر من بسط سيطرتها على مساحات شاسعة من العالمين القديم والجديد ، وترك تأثيرها بصورة أو بأخرى على شعوب كثيرة من كوبا الى الفلبين . وربما كانت السمات الخاصة التي تمتتع بها الشخصية الأسبانية هي التي مكنتها من أن تحقق في العالم الجديد مالم تستطع أية دولة أوروبية أخرى تحقيقه بما في ذلك ابناء الملايين ، والقضاء على حضارة الازتك والمايا وغيرهم في أمريكا اللاتينية . والصفات الخاصة التي ميزت القشتالي عن غيره من سكان اوروبا كانت الصفات التي اعاقت اسبانيا عن اللاحق بالتطور اللاحق

(١) اشتكى الشاعر عبد الله بن الشر من كثرة الغزوات والميد مع الامير عبد الرحمن بن الحكم فقال :
لم يُلْتِ شَعْرِيْ اَمْ حَدِيدَةَ حَلَقَنَا
امْ حَلَقَنَا مِنْ صَفَرَةِ صَمَاء
كُلَّ عَامٍ فِي السِّيفِ لَنْعِنْ غَرَّةَ
وَالغَرَّانِقَ غَزَوْنَا فِي الشَّنَاءَ
الظَّرِ : « تاريخ الادب الاندلسي » (عصر سعادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ، ص ٣٨٩ .



المجد الكبير في قرطبة

الذي عرفته جاراتها ، وكانت مرونة المولنديين والفرنسيين والإنجليز عاملاً مهماً في تغير مراكز القوى لصالحهم في وجه الشخصية الأسبانية المتصلبة . وقد يتمكن جيش قشتالة من تحقيق الانتصار ولو الآخر على فرنسا ولكن القشتاليين لم يتمتعوا باحترام الفرنسيين لهم . وكان القشتالي بالنسبة للفرنسيين فارساً روث الثياب ينادي بالسيطرة على العالم . وقد وصف أحد الفرنسيين الأسبان في القرن السادس عشر بالقول : « وادهائهم - أى الأسبان - ملؤة بأحلام العظمة ، وهم يفضلون البوس أو خدمة أحد النبلاء على الأشتغال في بعض الحرف أو الصناعات » (١) . وربما لخص سيرفانتس شخصية أبناء بلده حين قال على لسان دون كيخوتي : « إن صدق الإنسان يكمن في أحلامه » ويكرر فكرة مماثلة فيقول : « ليس هناك وحش أبغض من التعقل » .

والأسبان الذين تمكنا من رفع سلطتهم على انقضاض الممالك الإسلامية في الأندلس ، انحفلوا في تقديم حضارة بديلة اذ نقل العرب الى شبه الجزيرة جنداً وحضارة ولم ينقل الشماليون الا الجند الذين قوضوا البنى الحضارية الأندلسية ، او استعراضوا عنها باشكال ممسوحة ليس فيها رونق الأصل ولا ديمومة البناء . وانتقال السلطة من الجنوب الى الشمال ادى بالضرورة الى تغيير ملائج الأندلس العربية ، اذ لم

يُكَنْ من الممكِن مقالة العرب والسماح لحضارتهم بالبقاء ، أو حتى الاعتراف بذلك الحضارة . ولكن التأثير كان أعمق من ان يزيله الجند . وإن لم تستطع الحضارة الأندلسية ان تهيمن على القشتاليين ، كما هيمنت على المرابطين والموحدين ، فإنها تركت تأثيرات واضحة حتى اليوم .

أ - التأثير الثقافي والحضاري :

فتح العرب شبه جزيرة إيبيريا ، وسرعان ما استوعبت ثقافتهم الحضارة اللاتينية هناك ، فحلت اللغة العربية تدريجيا محل اللاتينية (اللطينة) ، وسادت الفلسفة والأداب العربية وهجرت أعداد متزايدة من الكاثوليك المسيحية إلى الإسلام ، ولم ينج الباقون من تأثير الفكر الإسلامي على الديانة النصرانية (١) بينما اندفع أهل البلاد يقلدون العادات والتقاليد العربية بوعي أو بدونه . وكان من الطبيعي ان يتوجه عن اختلاط العرب بأهل البلاد تأثير ثانٍ فتحصلت بعض أهل البلاد العربية ، وكان كثير من العرب يعتقدون اللاتينية واللهجات المحلية التي شملت القشتالية والبلنسية والارغونية والبشقية (البشكتشية) . الا ان اكمال ثنو الشخصية الأندلسية وشيوخ التعليم أدى إلى زيادة الاعتياد على العربية ، وساهم في ذلك اتخاذ بعض النساء اجراءات ادت إلى سيادة العربية مثل قرار هشام الأول باعتماد اللغة العربية لغة التدريس في المعاهد النصرانية والمهدوية . (٢)

وكان من الطبيعي ان يستمر اضمحلال الحضارة الأيبيرية مع استمرار ضعف المؤسسات التي كان من الممكِن أن تضمن لها الاستمرار ، بينما ترسخت الحضارة العربية في البلاد مع استمرار صقلها وردهها بالتأثيرات المشرقية المختلفة . ولعبت تأثيرات أخرى في تقليص النفوذ الذي تمت به نصارى الأندلس في الجنوب خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، حين ادت بعض المضايقات التي تعرض لها هؤلاء إلى ربط مصيرهم بملوك الشمال مما أدى إلى انسحاب اعداد كبيرة منهم ، وتغيرت أعداد أخرى إلى فاس ومكناس وغيرها من المناطق المغربية . وكان اشتداد الضغوط في الجنوب وتعاظم قوة الشمال سبباً في رحيل أعداد اضافية من المعاهدين مما ادى إلى اكتساب الشمال لتأثيرات كان يعتقد أنها وسيادة العنصر الأندلسي في الجنوب . وفي الحالات التي طور فيها الشمال بعض المهارات الحرافية او العمارة فان السبب ، على الغالب ، يعود إلى المهاجرين النصارى او اليهود الذين نزحوا إلى الشمال بسبب او لأنّ . وحين بدأت أسبانيا في ترسیخ شخصيتها على الأرضي الأندلسية التي احتلتها فان التأثيرين الفرنسي والأندلسي يقينا الطابع العام ، وإن غالب احدهما على الآخر طبقاً لكل منطقة من إسبانيا .

(١) انظر : « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص ٤٠٠ .

(٢) انظر : « دولة الاسلام في الأندلس » محمد عبد الله عنان (القاهرة ، ١٩٦٩) .

الجزء الأول ، ص ٢٢٩ .

ويمى أن الحضارة العربية والعادات المشرقية كانت المتفوقة في الأندلس ، كان من الطبيعي أن تؤخذ تلك العادات على أنها العادات المتفوقة التي تميز الذوق الرفيع عن غيره . ولذا قلد ملوك الشمال الأندلسيين في المأكل والملابس والثياب والتسلیح ، وتدالوا العملة القرطبية إلى جانب العملات الرئيسية في تلك الفترة ، واستمتعوا بالشعر والمروريات العربية . واستمر هذا التأثير إلى مراحل متقدمة من تاريخ قشتالة بعد أن سقطت معظم الأراضي الأندلسية بيد ملوكها . والمعروف أن ملوك الشمال كانوا يستوردون الملابس المزركشة من الجنوب بعد أن ظلت ملابس البلاط الملكي علة فرودن . وكان الملك القشتالي إزيكويل الرابع (١٤٥٤ - ١٤٧٤) يرتدي الملابس الأندلسية ويحتفظ بمحرس ملكي أندلسي في بلاطه . كما أن الملك الأرغوني الفونصو الخامس (١٤٦٦ - ١٤٥٨) اعتاد أن يصطحب معه في رحلاته إلى أيطاليا المغنين والراقصين الأندلسيين . أما الثقافة الأندلسية فعلقت دوراً مهماً في حياة قشتالة إذ لجأ ملوك مثل الفونصو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠) إلى مريين قرطبيين لتربيتهم ، بينما كانت شخصيات مثل شخصية السيد مغيرة بالسير العربية (١) . وفي فترات لاحقة اشتهر الملك الفونصو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) باقباله على العلوم العربية ، وكان وراء الحث على ترجمة الأعمال العربية في طليطلة بكثافة . وحتى شخصية متخصبة مثل الكريدينال زميز رأت في الثقافة العربية أهمية عظمى إذ أمر بحرق الكتب الدينية في نهاية القرن الخامس عشر ، لأنها استبعى أعداداً كبيرة من كتب الطب والعلوم الأخرى .

ونتيجة التأثير بالعادات الإسلامية والأندلسية لجأ كثير من النصارى إلى تقليد تلك العادات ، فكانوا يختسرون أولادهم ويختذلون الجواري (٢) . وكان بعض الملوك ، مثل الفونصو السادس ، عدة زوجات وظللت عادة اتخاذ العشيقات شائعة في وقت كانت فيه محكم التفتیش توصي باحرق الرجال الذين يتزوجون أكثر من امرأة واحدة (٣) . وفي زمن الامبراطورية لم يختلف المفهوم الاجتماعي عن ذلك الذي كان سائداً في قرون سابقة ، فاستمرت النساء في التزام بيوبهن باستثناء الذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد خلافاً لنساء أوروبا . وبصورة عامة كان معظم منازل الأسبان تخلو من قاعات الطعام الذي كان يقدم على طاولات صغيرة في قاعات الجلوس ، وكان الرجال فقط يجلسون إلى الموائد على مقاعد منخفضة . أما النساء والأطفال فكانوا يتحلقون حول المائدة وهم جالسون على الأرض أو مستلدون إلى الأرائك . وكان من الطبيعي أن يكون العادات العربية ز أو التي ادخلت عليها تغيرات طفيفة ، قوية التأثير في الجنوب والشرق حيث بقيت أعداد كبيرة من الأندلسيين المواركة حتى بداية القرن السابع عشر . واقترب أسبانيا من باقي الدول الأوروبية في القرون التي لحقت بسقوط غرناطة لم يضعف من التأثير بالعادات العربية القديمة . وخلال القرن السادس عشر انتشرت عادة ارتداء الحجاب بين القشتاليات ، وشاع استعماله إلى الحد الذي اضطرر فيليب الثاني معه إلى تحويل مجلس قشتالة صلاحية التحقيق في الأمر بغية منع انتشاره . وفي

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر الطوائف والمغاربة) للدكتور احسان عباس ، ص ٢٢ .

(٢) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور أحمد بدر ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر سابقاً ص ٢٧ .



القيصرية أو سوق الحرير القديم في غرناطة .

سنة ١٥٩٠ أمر فيليب الثاني بمنع التحجب تحت طائلة عقوبات معينة ، ولكن دون جلوبي . وفي سنة ١٦٣٩ أصدر فيليب الرابع مرسوماً يحظر وضع الحجاب تحت طائلة عقوبات أشد ولكن دون تحقيق أي نجاح ، وأنشغل الكتاب بوضع اطروحتات كثيرة سعياً وراء إزالة هذا التأثير الأندلسي .^(١)

(١) من هذه الاطروحات واحدة سميت « الحجاب : قديمه وجديده على وجوه النساء » حشمته وتحظره . انتظر : Defourneaux, Marcellin. Daily Life in Spain In The Golden Age, P 159.

ب - الاختلاط السكاني :

افتخر بعض القروط بأصلهم القوطى ، والعرب بأصلهم واعتبروا انفسهم أعلى مقاماً من غيرهم من سكان شبه الجزيرة ، ولكن الجميع تعايشوا وتزوجوا وكانوا ، رغم وجود بعض الاختلافات ، يشكلون مجتمعاً واحداً . ونظراً لطبيعة تكوين الفاتحين ، كان من الطبيعي ان يلتجأوا إلى نساء شبه الجزيرة فكن امهات أجيال جديدة من العامة والحكام على حد سواء . والمعروف ان عبد العزيز بن موسى بن نصیر اتخذ من أيلة ، ارملاً للدربق ، زوجة عرفت باسم ام عاصم . وتزوجت حفيدة الملك القوطى غيطة في الشام من عيسى بن مزاهم وعرفت باسمها: سارة القوطية بنت المند . وكان عبد الرحمن الداخل نفسه من أم جارية بورية تدعى راح ، الا ان سائر امراء قرطبة كانوا ابناء جاريات كما يدل على ذلك استعراض اسمائهم . فهشام الرضا من ام ولد تدعى جمال ، وكذلك ام الحكم الريضي (زنح) وعبد الرحمن الأوسط (حلاوة) ومحمد بن عبد الرحمن (بير) والامير المند (ايل أو ايل) والامير عبد الله بن محمد (بيار او عشار) . ويدرك ان الخليفة الناصر لدين الله كان حفيد بشكتسيه تدعى دره ومثلها زوجة الحكم المستنصر بالله . وانحدر المنصور زوجة بشكتسيه سميت عبدة وهي ابنة سانشو (شانجية) الثاني ملك نافار (نبارة) وولدت له عبد الرحمن المعروف ايضاً باسم شنجول . وما انتطبق على حكام الجنوب في عموميته هذه انتطبق على الشمال في بعض الحالات . اذ أن من المعروف ان الفونصو السادس اتخذ من كنة المعتمد بن عباد (زائدة او سيدة) زوجة او خليلة ولدت له ابنته الوحيدة سانشو (شانجية) الذي قتل وهو يحارب الاندلسيين في معركة افليش . وهذا النوع من العلاقات الاجتماعية كان مقبولاً في فترة كانت فيها الجواري ، حتى ليقال أن عدد اولاد وبنات عبد الرحمن الثاني وصل الى ٢٠٠ ، وكان للأمير محمد ١٠٠ ولد ذكر في فترة عرفت سيادة العنصر الاندلسي وشروع الاسلام في معظم المناطق الواقعة الى الجنوب من نهر دويرة وابرة (بما في ذلك المناطق الخيطية بسرقسطة) .

وإذا كان اتجاه البعض في فترات سيادة الأندلس « دفع الأموال الطائلة لكي يلتفق له الناسبون نسباً عربياً »^(١) ، فإن التحول في فترة سيادة قشتالة كان العكس، وجاء هذا الانكما بعد تطورين مهمين ارتبط أحدهما بالآخر . الأول كان ترسیخ سلطة محكم التفتیش ، والثاني صعود البروتستانية في النصف الأول من القرن السادس عشر وبروز اسبانيا أهم حامية للكاثوليكية في أوروبا والعالم الجديد . وحيال ارتفاع عدد المتصرين أو المتصرين الجدد ، شعرت الكنيسة بأن من الضروري الحفاظ على حقوق المسيحيين القدامى وتفضيلهم في المناصب الحساسة والجيش وغير ذلك من المؤسسات . فنشأ ما يعرف باسم « نقاء الدم » وكان مبدأ طبقته الكنيسة ومحاكم التفتیش في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السابع عشر . ويظهر هذا المبدأ احتل موضوع اثبات النسب أهمية كبيرة ولاسيما بالنسبة للأشخاص الذين وضعتهم محكم التفتیش تحت المراقبة . وتحول المبدأ إلى عدم من القوانين التي

(١) « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدرا ، ص ١٦٩ .

صدر أولاً بعد مرسوم الملكة إيزابيلا الخاص بتصرير الأندلسيين المواركة سنة ١٥٠٢ . وفي سنة ١٥٣٠ أمرت محكم التفتيش جميع عمالها المعينين بفتح ملف خاص بكل من يتعامل مع المحاكم فيما يتعلق بميولهم الدينية .

وكان من نتائج صدور قوانين نقاء الدم إثارة القلق بين الناس ، وجنوح بعضهم إلى استغلاله للانتقام عن طريق الوشاية . وتحرك عدد من النساين ووضعوا كتب الانساب التي عرفت باسم الكتب الخضراء وكان من أشهرها كتاب اسمه « عار إسبانيا » (Tizon de España) ألف في القرن السادس عشر وأحتوى على أشجار أسر إسبانية كثيرة ، مؤكداً أن أربات نقاء الدم أمر صعب لأن غالبية أهم الأسر الأسبانية تحدُّر من أصول لا تخلي من دماء غير قشتالية . وكان هذه الكتب صدىً واسع فأقبل الجمهور على قراءتها وأعيد طبع الكتاب المشار إليه عدة مرات ، وحقق نجاحاً كبيراً . وبرغم المعارضة التي لقيها مبدأ نقاء الدم إلا أن محكم التفتيش استمرت في اتهامه حتى سنة ١٦٥٥ ، وكان المتهمون الذين يدلون بمعلومات خطاطة عن أصولهم القدية يعاقبون بالغرامات أو العمل الإجباري في القواديس .^(١) وكان من الطبيعي أن تتوقف هذه الممارسات فيما بعد ، إلا أن الالتزام بها خالل تلك الفترة الطويلة من الزمن ساهم في طمس جانب كبير من انتهاءات القشتاليين الأندلسية . ولابد أن عدداً كبيراً من الأندلسيين المعينين جلأوا إلى اتلاف وثائق كبيرة خاصة بأصولهم كان من الممكن ، لولا اتلافها ، أن تلقي الضوء على جوانب من طبيعة التركيب السكاني في تلك الفترة التي تميزت بأهميتها لأنها كانت مرحلة حاسمة في طمس آخر المعلم الأندلسية في إسبانيا . ولكن ما صعب اثنائه في كتب السابة سهل الاحتفاظ به في الوجه . ووجدت محكم التفتيش صعوبة كبيرة في التمييز بين الأندلسي والقشتالي إن تحذب الأندلسي المختان ، واقتصرت اللغة القشتالية . وتكررت تلك الصعوبة حين كان جنود الملك فيليب الثالث يفتسلون عن الأندلسيين المواركة لنفهم في مطلع القرن السابع عشر . وربما سدت السلطة الأسبانية الطمعة الأخيرة إلى أبيه آمال علقت باحتلال التوصل إلى مصالحة من نوع ما تضمن لما تبقى من الأندلسيين المواركة البقاء في ديارهم ، التي لم يعرفوا غيرها على مر العصور . وحققت انتصاراً آخر أضافه لانتصارات سابقة استهدفت سيادة العصبية ، وطمس كل المعلم الأندلسية بالقوة والرعب .

(١) انظر : Defourneaux,Marcelin.Daily Life In Spain in The Golden Age, pp 36-39.

٣ - الحضارة الأندلسية وعصر النهضة الأوروبي

١ - الترکة اليونانية:

ترغب أوروبا اليوم في النظر إلى حضارتها على أنها استمرار للحضارة اليونانية القديمة^(١) وتتدخل الفلسفة والمسرح والتاريخ والعلوم والميثولوجيا اليونانية القديمة مع الحضارة الأوروبية ، مثلما احتللت الحضارة اليونانية مع الثقافات الشرقية وأديان وفلسفة المشرق والمؤثرات المحلية والخبرات المطورة ، لكي تقدم للعالم تلك الحضارة العالمية الفذة . وحين كتب شكسبير مسرحياته الشهيرة بين آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر فإنه كان يغترف من الترکة المسرحية الهائلة التي خلفها إسکلیز (٤٥٦ - ٥٢٥ ق . م .) وسوفوكليس (٤٩٧ - ٤٦٦) وپوروپیديز (٤٨٠ - ٤٦٧) وارسطوپانیز (٤٤٥ - ٣٨٥) . وعندما جلس إدوارد جیبون ليكتب تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الثامن عشر ، فإنه كان يعي التأثير الذي تركه هیروdotوس مؤسس الدراسات التاريخية قبل ٢٢ قرناً . أما الفلسفة اليونانية فتركّت تأثيرات خالدة على معظم الفلسفة في العالم بعد ترسّيخها بفضل سقراط (٣٩٩ - ٤٦٩) ، الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الإنسانية ، وأفلاطون (٣٤٧ - ٤٢٧) مؤسس أكاديمية أثينا (٣٨٧) ، وارسطوطاليس (٣٢٢ - ٣٨٤) مؤسس مدرسة أثينا وواضع مبادئ العلم والتفكير التحليلي .

وخلال ذلك القرن الذهبي من تاريخ الفلسفة العالمية كان اهتمام ثلاثة الكبار يشمل بعض أصغر الأشياء وأعظمها من تشريح السمك إلى محاولة سير أغوار الروح البشرية . فكان سقراط يهينا قيبح المنظر ولكنه تعود أن يستوقف المرأة ليسأله عن آرائهم في الحب والحياة والعدل ، وشرب السم بشجاعة وهو يتحدث إلى أصدقائه عن تجربته بعد أن أتهمه محتلو أثينا الإسبارتليون بتضليل الشباب وجاء أفالاطون ليظهر اختلاف آرائه عن معلمه ، وانهزم عندما حاول أن يطبق مفاهيمه على الواقع ، ولكنه كتب «الجمهوريّة» ووضع في مؤلفه تصوراته لدولته المثالية . أما ارسطوطاليس فكان مستعداً لتأليف كتاب عن أي شيء . وأخطأ عندما اعتقد أن الماعز تستشق الهواء من أذنيها ، ولكنه أصاب في كثير من الآراء التي تفتقر عنها عقله العظيم ، وظل أهم الفلسفه الذين تأثر بهم العرب والأوروبيون اعتباراً من القرن الثامن الميلادي . وإن كان من الصعب الفصل بين الفلسفة وارسطوطاليس ، فإن من السهولة الاعتقاد بأن أعمال هذا الفيلسوف وغيرها من عباقرة اليونان القديمة ، ما كانت لتتحدد تأثيرها المعروف لولا الجهد الذي بذله ارسطو في تعليم الإسكندر المقدوني .

وعندما جمع الإسكندر (٣٣٦ - ٣٢٣) جيشه المؤلف من ١٠٠٠ راجل وخمسة آلاف فارس لشن حربه الانتقامية ضد الفرس بعد سنتين من تسلمه السلطة من أخيه المختال ، فإنه لم يكن يشن حرباً

(١) انظر مقدمة « تاريخ أوروبا » لفيشر .

عادية . وقد تعلم الاسكندر القسوة حين بطش باصحاب الثورات التي اندلعت ضده في آثينا وغيرها إلا أنه قاد جيشا ضم الجنود كـ ضم الفلاسفة والعلماء والمهندسين . وتحولت حملته من قهر الفرس إلى السيطرة على العالم القديم والوصول إلى اطراف الارض المعمورة في الجنوب والشرق . وخلف جيش الاسكندر اقيمت ٧٠ مدينة كانت مراكز للحambilيات اليونانية في البداية ومراكز نشر الحضارة اليونانية فيما بعد . واستمر التجار والفنانون والمعماريون والمرتقة اليونان في نقل حضارتهم إلى المواطن الجديدة وهم يرحلون من مكان لأخر . ومن لم يخش سيف الاسكندر رغبه لبعض تصرفاته . فلم يجد أعظم الفاتحين الأولين مثلاً غضاضة في اعتبار قرني كيش الإله آمون للتقارب من الكهنة الفراعنة ، فنان بذلك صفتة المعروفة بدئ القرنين . وظل صيته ذاتها بعد موته باللحى ولما يخطي الثالثة والثلاثين ، وتمكن في سنوات سلطنته الثلاث عشرة من تحقيق مالم يتحقق لأحد من قبله . وانتهت بموته حقبة تاريخية كاملة انهارت معها امبراطوريته وبقاء الحضارة اليونانية .

في مصر التي كانت من نصيب بطليموس عرفت الحضارة اليونانية امتدادها الطبيعي فجمعت في الاسكندرية أكبر مكتبة عرفها العالم حتى ذلك الوقت اذ ضمت ١٠٠٠٠٠ مخطوطه ، واصبحت المدينة الساحلية تلك مركز الحضارة في العالم القديم وان ظلت اليونان محفظة ببعض بريقها الأصلي ومالت فيها العلوم إلى التخصص والعملية التي استفاد منها الأوروبيون في القرن السادس عشر . وإذا كانت أوروبا ذلك العصر لا تزيد ان تصدق ان الأرض كروية ، فإن هذا الرفض لم يكن جديدا لأن معاصرى فيثاغورس نفسه رفضوا تصديق « زعم » الرياضي والفيلسوف اليوناني الذى وضع وتلامذته كثيراً من قواعد الهندسة التي مازالت شائعة اليوم . ومثل ذلك اعلان الساموسى ارستاخوس (٣٢٠ - ٢٥٠) يان الأرض تدور حول محورها وتدور حول الشمس في مسار محدد . ومن عباقرة اليونان ارخميدس (٢٨٠ - ٢١٢) الذى اكتشف في حمامه ان الجسم الموضوع في الماء يطرد كمية تمايله في الحجم من الماء، الى جانب اكتشافاته المهمة في الرياضيات والفيزياء . وعمل معاصره اراتوسينيس (٢٠٠ - ٢٨٠) على قياس قطر الأرض في وقت شملت فيه الاهتمامات كل التواحي . إذ أنشأ أبقراط اول مستشفى ، وملاحظته المستمرة لتطور عوارض المرض هي الأساس في الطب اليوم، ومحور عمل الأطباء الذين لايزالون يؤدون « قسم أبقراط » قبل ممارسة مهنتهم . ولم يكن أبقراط وحيداً في نشاطه فكان ابروفيلوس الطبيب ان الدماغ مركز الجهاز العصبي ، بينما اهتم ايراسيستراتوس بدراسة الدورة الدموية وكان التشريح وسيلة تعليم رئيسية في القرن الثالث قبل الميلاد . ولم يكن التقدم في علم الفلك أقل من غيره ، فالمعروف أن ابارخوس (١٩٠ - ١٢٠) وضع مصنفاً في موقع النجوم ومواقيت الكسوف « وربط التنجيم مصير الإنسان بالنجوم .

ولكن هذه النهضة لم تستمر ، وخلف الرومان اليونان في ممالكتهم ولكن ليس في حبهم وتشوقهم للمعرفة الفلسفية والروحية . كانت روما قرية صغيرة عندما كان أرسطوطاليس يلقن الاسكندر ان الفكرة نبضة الهمة وانها أعظم من الانسان نفسه ، ولكن فتوحات الاسكندر كانت أهم بالنسبة للرومان من أفكار معلميه . ومع ذلك فان الرومان تميزوا بعملية هائلة . كانوا أقل من اليونان خلقاً وابداعاً في

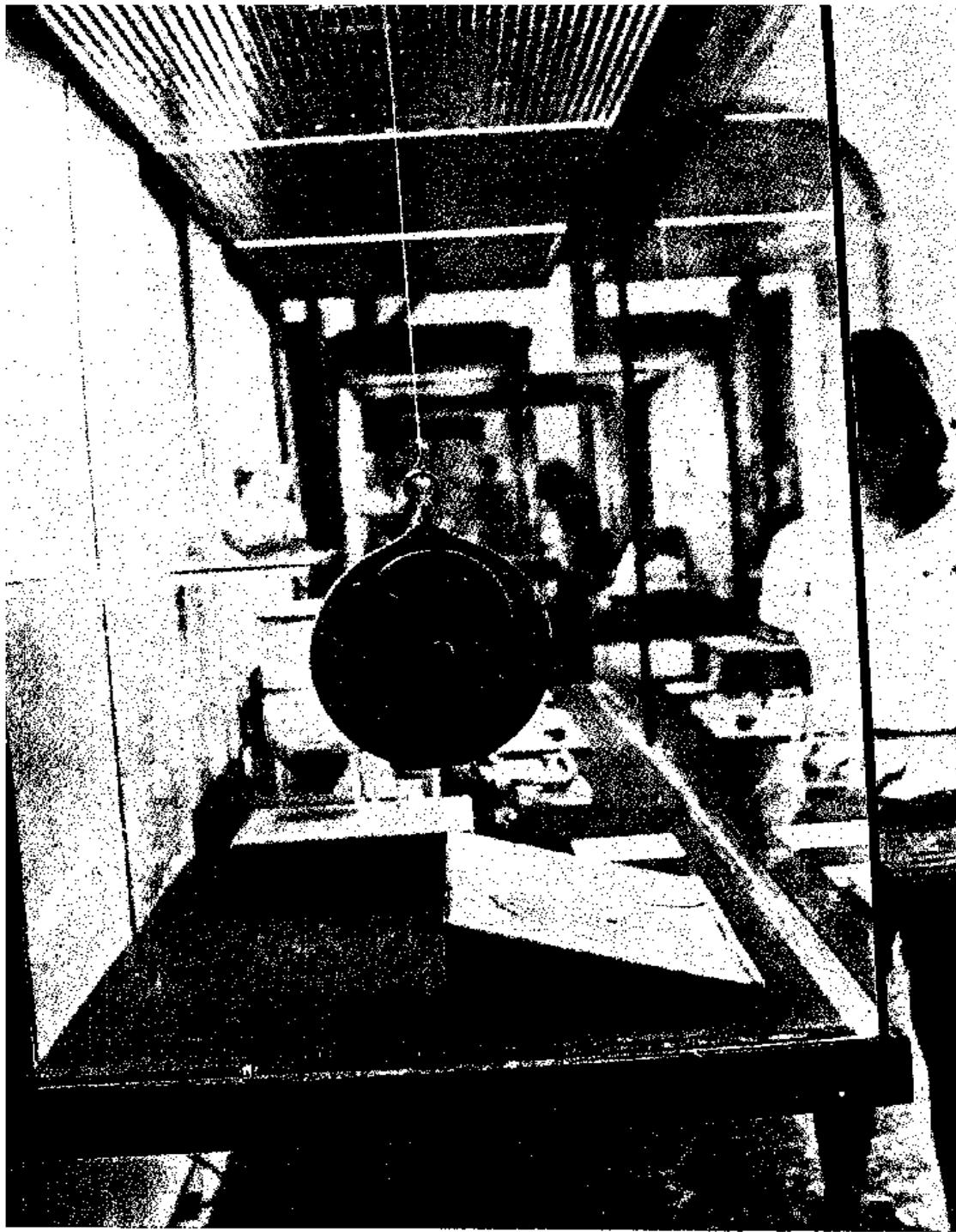
الفنون ولكنهم كانوا يسيطرون على أفضل جيوش العالم . هذه القدرة القتالية الضخمة احتاجت إلى الطرق المستقيمة لسرعة الوصول ، واحتاجت إلى الجسور والمعابر لانتقال العربات والجنود فبني المهندسون الرومان، أو اليونان الأسرى، بعض أفضل الطرق والجسور التي لايزال بعضها قائماً مستخدماً حتى اليوم . واتسم الرومان بقدرة تنظيمية هائلة مكتنهم من السيطرة على إمبراطورية مترامية الأطراف في جميع الاتجاهات . وطوروا الزراعة والتجارة والصناعة بالاعتماد على ملايين العبيد من الشعوب المقهورة . ولم تتم أنسنة الفلسفة ، إلا أن الرومان أغروا بالبلاغة والخطابة ووضعوا بعض أفضل القوانين التي توارثها عنهم أقوام كثيرة بعدهم . وفي عهد الإمبراطورة الرومان وعليه قومهم كان الاهتمام ببناء القصور والفيillas أهم من انشغال اليونان ببناء المعابد . وكان الشكل الواقعي لصاحب القتال أهم للنحاتين الرومان من الكمال الذي اتصف به التماثيل اليونانية . ولكن ظل المعلم اليوناني أفضل المعلمين ، وكان الخباز اليوناني يساوي عند الرومان مئات العبيد .

ولكن الروح العسكرية الرومانية هبطت مع الزمن وكثيراً فساد الأباطرة وتقاولت على روما القبائل البربرية فاحتاحت الإمبراطورية الرومانية الغربية . أما القسم الشرقي من الإمبراطورية فانتقل إلى القسطنطينية وذابت الرومانية في الحضارة اليونانية الأشمل فقطق على اليونانية ، وعادت إلى الاهتمام بعلوم اليونان القديمة وقوانينها . ولكنها انشغلت بالدين وانتصرت للارثوذكسيّة على كاثوليكية روما ، وانشققت الكنيستان دون عودة . وطوال تلك القرون الطويلة كان تأثير سكان الجزيرة العربية بالحضارة اليونانية والرومانية أعمق مما هو معتقد اليوم . وكانوا يحملون عقيدة قوية مكتنهم من الاندفاع من الصحراء وتقويض الإمبراطورية الفارسية ومن ثم تقليل ممالك الإمبراطورية البيزنطية . وبيات الظروف لقيام حضارة عربية هائلة كانت الجسر المطرور الذي عبر عليه عصر النهضة الأوروبي .

ب - معلم الثقافة الأندلسية :

استفادت النهضة العلمية العربية في العصر العباسي الأول من علوم الشعوب الأخرى ، كما سبق واستفادت الحضارة اليونانية مما توفر لها من المصادر غير اليونانية . وفي الحالتين لم يستمر اقتصار الأخذ عن الشعوب الأخرى على النقل . فتمكنـتـالـحضـارةـاليـونـانـيةـوـمـنـبعـدـهـاـالـعـرـبـيـةـ،ـمـنـاستـيعـابـعـلـومـوـحـضـارـاتـغـيرـهـمـوـهـضـمـهـاـجـيدـاـقـبـلـتطـوـيرـهـاـ،ـوـبـنـاءـعـلـومـوـلـمـهـارـاتـالـاضـافـيـةـتـيـتـفـرـضـهـاـتـيـارـاتـخـلـيـةـصـرـفـةـ.ـوـكـاـأـنـمـنـالـسـتـحـيلـأـنـتـشـأـالـحـضـارـاتـالـعـرـيقـةـمـنـالـعـدـمـ،ـفـانـمـنـغـيرـالـمـمـكـنـأـيـضاـأـنـتـشـأـالـحـضـارـاتـدـوـنـتـوـفـرـأـسـسـالـضـرـورـيـةـمـلـالـإـسـتـقـارـالـسـيـاسـيـالـنـسـيـوـمـوـالـرـوـرـةـالـكـافـيـةـوـالـخـمـاسـ

القومي ، وتلك الرغبة الخفية في سير أغوار الكون ومحاولة الإجابة على ملايين الأسئلة التي جالت في عقول البشر منذ أقدم الأزمنة . وفي الحالتين أيضاً كانت الحاجة للعلوم استجابة لمطالب أميين طموحين فاض نفوذهما عن الحدود الوطنية إلى مختلف أصقاع العالم القديم ، وانكسرت العسكرية وانصب التركيز على البحث عن حقيقة الذات البشرية .



أحد أقدم
الاسطرالات
التي عثر
عليها في
أسبانيا
(المصحف
الوطني ،
مدريد)

وخلال القرنين الثامن والتاسع (الثاني والثالث المجريين) تطورت العلوم في بغداد ودمشق ، ونشطت حركة الترجمة والنقل من اليونانية واللاتينية والسريانية والفارسية والهندية والبطارية . وأدى احتلال العرب بغيرهم من شعوب الأرض المفتوحة الجديدة إلى السعي للحفاظ على الدين السليم واللغة الصحيحة، فصنفت المعاجم ووضعت المؤلفات في اللغة والفقه والتفسير والحديث والكلام والتصوف والفلسفة والتاريخ والجغرافية والطب والفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية والغناء والموسيقى وغيرها من العلوم . وشملت حركة النقل والترجمة بعض أعظم المؤلفات التي وضعها اليونان وغيرهم من العلماء البارزين في

المضارب الأخرى . فكان هناك كتاب «السند هند» للفزارى ، ونقل سرجيوس بن البا «الفلاحة الرومية والغذاء» لأبرهاط و«الترىاق» جالينس ، كما نقل ابن وحشية «الفلاحة النبطية» . وفي سنوات لاحقة ترجم ابن بطريق «المقولات» لرسطرو (طاليس) و«طيماؤس» لاقلاطون . ونقل حنين بن سحق «رسالة في كتب جالينس» وبيجى بن عدى «النفس» لرسطرو ، وقسطا بن لوقا البعلبكي «المرايا المعرفة» و«الفلاحة اليونانية» . ومن المؤلفات العربية التي وضعها : «أساس البلاغة» للزغشري ، و«كتاب النحو» للخليل بن أحمد وسيبويه ، و«الجامع الصحيح» للبعبارى ، و«رسائل فلسفية» للكندي ، و«أراء أهل المدينة الفاضلة» لابن نصر الفارابى ، و«الاشارات والتبيهات» لابن سينا ، و«تاريخ الأمم والملوك» لابن جوير الطبرى ، و«كتاب الجدرى والمحصبة» لابن بكر الرازى ، و«الجبر والمقابلة» لحمد بن موسى الخوارزمي ، و«كتاب الموسيقى الكبير» لابن نصر الفارابى وغيرها من آلاف الكتب التي كانت ثمرة تطور العلوم المشرقة وأساس بناء الثقافة الأندلسية من بداياتها البسيطة .

والاهتمام بالمؤلفات والترجمة أفسح الطريق للاهتمام بإنشاء المكتبات ، وكان الخلفاء والأمراء يفخرون بعدد الكتب التي جمعوها من كل مصدر . وبرز الخليفة المأمون حاكماً أولئك بجمع المخطوطات حتى أنه اتفق مع البيزنطي ميخائيل الثالث على أن يتزاول له عن أحدى مكتبات القدسية كاحتدا شروط الصلح . ونقل منها ، كما يقول البعض ، ماعجز ١٠٠ جمل عن حمله . وكان من بين الكتب مؤلف لبطليموس معروف باسم «الجسطنطيني» حظي بمكانة خاصة بين الأعداد الهائلة التي ضمتها خزانة بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون سنة ٨٣٢ (٢١٧) . ولكن جمع الكتب والعناية بالطبع والتزييف والنسخ والتزويف بالألوان لم يبق حصراً على بغداد . فانتشرت المكتبات في جميع أنحاء البلاد ، وكان عدد المخطوطات في مكتبة القاهرة يساوى عددها في مكتبة الإسكندرية القديمة، وضمت .. مؤلف في الطب والفلك وحدهما كانت تعار ، مع غيرها ، للطلاب والدارسين . وكان لابد وأن تعلم الأندلس المتغطشة إلى المعرفة على السعي للاستفادة من النهضة العلمية المشرقة بعد أن توفرت لها شروط التطور الثقافي والحضاري ، فقلدت في البداية ، ثم تطورت قبل أن تظهر فيها المعلم الأندلسية المتميزة .

١ - البداءيات الأندلسية :

لم يكن من المستطاع تطوير أية ثقافة محلية في الأندلس ، نظراً لضيق أفق الثقافة الأيبيرية والاضطرابات التي سادت فترة الولادة التي استمرت من سنة ٧١٤ إلى ٧٥٦ (٩٥ - ١٣٨) . ومع ذلك كانت هناك حاجة لبعض العلوم الدينية والفلكلورية ، بالإضافة إلى الحاجة للتعليم . والمساجد لم تكن يوماً لتقتصر على أداء فروض الصلاة فهي في العالم الإسلامي مكان الالقاء والدراسة والتشاور . ومن بين أوائل الأعمال التي قام بها موسى بن نصير بعد عبوره العدوة إلى الأندلس بناء مسجد الربايات في الجزيرة الخضراء ، وانتشرت المساجد فيما بعد في البيرة وقرطبة وسرقسطة . هذه المساجد كانت المدارس الأولى

التي عرفتها الأندلس «فإن لم يكن المسجد ، فيبت الاستاذ نفسه»^(١)، وفيها غطيت احتياجات السكان من العلوم الدينية البسيطة والحساب . وعلم الفلك (المحیة) لم يكن استثناءً فكانت ضرورة له تحديد اتجاه القبلة وتعيين مواقيت الصلاة . ونظراً لوجود المسلمين في وسط نصراوي كانت هناك حاجة لتفویة الشعور الديني ، وتلقين الناس مبادئ الدين ولاسيما بعد أن دخل الإسلام كثيراً من النصارى .

ولكن المتوفّر في الأندلس خلال الفترة الأولى من الفتح لم يكن كافياً . إذ أن اختلاط العرب بأهل الجزيرة أوجد ضرورة للمحافظة على العربية فكان ذلك أساس التركيز على علوم اللغة في الأندلس، كما كان أحد أهم أساليب جمع اللغة وتصنيف المعاجم ووضع قواعد اللغة وأوزان الشعر في المشرق . إلا أن تطور هذه العلوم وغيرها ما كان ليتم دون وجود الظروف الاقتصادية والسياسية الملائمة وهي ظروف لم تتوفر إلا بعد إعلان الإمارة في قرطبة . وتمكن عبد الرحمن الداخل بفضل حنكته وبطشه من إغلاق الأبواب السياسية في وجهه الجميع . وضفت الروح العسكرية بين العرب بعد ازدياد الاعتماد على العسكريين الأجانب ، وانصرف الناس إلى تكوين الثروة التي قامت على الزراعة ، شأنها في ذلك شأن جميع مصادر الثروة في تلك الفترة ، ثم اتسعت لتشمل التجارة والصناعة . وتتوفر الثروة والاستقرار السياسي المطلوب كانا عاملين أساسيين لنشوء ثقافة كان لابد لها من الاعتماد على المشرق ، وبدأت بالبسيط العملي قبل أن تتشعب .

وتعقدت طرق انتقال الثقافة المشرقة إلى الأندلس، فكانت تتم عن طريق الأندلسيين المتوجهين إلى المشرق للحج أو غير ذلك من الأمور . أو عن طريق وفود كانت ترسل إلى المشرق لغرض الاطلاع على العلوم هناك والعودة بالكتب ، كما حدث بالنسبة لوفد بعث به عبد الرحمن الثاني (أو الحكم الريضي) وعد بمجموعة من المؤلفات ينبع منها كتاب «السند هند» الذي اعتمد الأرقام الهندية . كما ارتحل إلى الأندلس عدد كبير من العلماء والمؤلفين وساهموا في الحركة الثقافية هناك ، قبل أن يوفر الإزدهار في الإمارة القرطبية الشروة للاتفاق على طلاب العلم الذين غادروا الأندلس إلى المشرق طلباً للعلم والثقافة ، وروح المنافسة العلمية التي اسهمت في تطور الثقافة الأندلسية . وتواكب مع هذا الاتجاه اهتمام الحكام بالعلوم، وسخا لهم في إنشاء المكتبات والمدارس ، فشاع العلم وحمل الذكور والإناث وعمت معاهد التعليم كل الأرضي الأندلسية .

ولعبت عوامل أخرى في إغناء الثقافة الأندلسية خلال مراحلها التالية . إذ أن اضمحلال سلطة الخلافة العباسية وتسلّم الأتراك زمام الأمور أدى إلى انتقال كثير من العلماء إلى الأندلس ، والابتعاد عن سادة بغداد الجدد الذين كانوا دخولين على ثقافة لا يفهمونها ، وعلوم لا يفهمونها في كثير أو قليل . وكان في استطاعة أمراء قرطبة أكرام هؤلاء بعد أن قدر دخولهم السنوى بحوالي ألف ألف دينار . وتتوفر هذه الثروة مكن بعض النساء من شراء جواري كن يتميزن بفنون وفکرهن مثل جاريتي عبد الرحمن الثاني، علم

(١) « تاريخ الأدب الأندلسي » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ، ص ٢٨ .

المدينة وقلم التي وصفت يانها « اديبة راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضرورب الأدب ». وفي عهد هذا الامير ارتحل الى قرطبة ابو الحسن على بن نافع المعروف باسم « زهباب » . فنقل معه العادات العباسية في المأكل والمشرب واللبس ففرض ذوقه ، كما تفرض المطاعم الشهيرة ودور الأزياء العالمية اليوم . أذواقها ، وانتشرت اولويات تقديم الطعام من الأندلس الى بلاطات ملوك وأمراء اوروبية فكانت مقاييس النونق الرفيع عندهم ، الامر الذي اكسب زهباب شهرة اوروبية كبيرة في زمنه ثم فيما بعد .

٢ - تطور الثقافة الاندلسية :

امتد عهدا الامارة والخلافة في قرطبة حوالي قرنين ونصف القرن ، وانتقلت الحضارة الاندلسية خلال هذه الفترة من مرحلة الاستجابة للمتطلبات الانية الى مرحلة شديدة التعقيد ، استوعب فيها الاندلسيون العلوم التي انتقلت اليهم من المشرق ، ثم شرعوا في اضافة الكثير من جهودهم الخاص لتطوير تلك العلوم . وأظهروا إنجاجها يكاد يكون منفصلا عن التيارات الثقافية المشرقية في أوجه كثيرة ، وخاصة في الفترات اللاحقة من نضج الثقافة الاندلسية . ونشطت هذه الحركة في وقت كثر فيه الخير وتوفرت وسائل الانتقال البحري مع المشرق فنهلت الكثير من العراق وغيره ، واستقبلت العلماء والمشفدين الذين هربوا من جور ، او قدموها سعيا وراء التقدير أو طمعا في الثروة . وكان من الأمراء والخلفاء من حمل ثقافة عالية فألف أو جمع العلماء والأدباء حوله على عادة المشرقين ، وأنشأ المكتبات الكبيرة التي وصلت إلى ٧٠ مكتبة منها مكتبة الحكم الثاني التي ضمت ٤٠٠٠٠ مجلد ، يزعم (١) البعض أنه قرأها جميعا . ولكن كانت هناك مكتبات صغيرة في القرى لفائدة من يشاء .

وكان معظم المكتبات تضم ركنا خصص للتعريب أو النسخ . وساهم في تسهيل عملية النسخ تطور صناعة الورق في عهد هارون الرشيد (٢) واتصالها إلى الاندلس . فكانت دورا لصنع الورق في طليطلة وقرطبة وشاطبة وبرع أهلها في اعداد الورق النظيف وزخرفة وجسمه الكتب وتمويهها بباء الذهب والفضة ، وظلت طرق اعداد الجلدات الاندلسية المسائدة في اوروبية عموما وهي فرنسا خصوصا حتى نهاية القرن الثالث عشر ، حين بدأت تظهر شيئا من الاختلاف . وفي سنوات التقدم العلمي هذه أصبحت الاندلس محل حضارة متقدمة فقصدتها طلاب العلم من المشرق والمغرب للتلتمذ على أيدي بعض أشهر علماء ذلك العصر وحكماء وأطبائه بعد أن ظهرت قرطبة قوة من أقوى دول الأرض في تلك الحقبة من الزمن . فتسابقت وفود أم اوروبية الى قرطبة ملتمسة العون ، مادة يد الصدقة عندما جمعت القوة العسكرية الكبيرة والحضارة المتفوقة .

(١) يقول « يعيم » لأنه لو تطلب قراءة المجلدخمس ساعات في المتوسط لاحتاج إلى ٢٢٨ سنة ، ولكن الفرض من المبالغة هنا مفهوم .

(٢) الظاهر ان الصينيين عرّبوا الورق في حوالي ١٠٠ قبل الميلاد ، ولكن العرب كانوا أول من ادخلوه إلى اوروبا عن طريق الاندلس ، وكان الاوربيون قبل ذلك يستخدمون الرق . ولكل شاطبة كانت أول مكان في اوروبا يصنع فيه الورق .



الحكيم
الشافعي
في قرطبة

وخلال تلك الفترة من نهضة العلوم في الأندلس ظهرت المؤلفات المختلفة في الطب والفلك والتاريخ المحلي والعربي ، وبدأت ممارسة الطب على الأسس التي وضعها اليونان ، وشاع التشريح وصناعة الآلات وبرز في عهد الامارة عدد كبير من الأطباء والأدباء والمؤرخين . ومن هؤلاء عبد الملك بن حبيب (المتوفى سنة ٨٥٢ أو ٨٥٣ / ٢٢٨) الذي لقبه البعض من معاصريه « بعالم الأندلس »^(١) ، ووضع

(١) انظر « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » للدكتور احمد بدر، ص ١٨٧.

١٥٠ كتاباً أشهروها كتاب «التاريخ» المحفوظ في أكسفورد ويعتبر واحداً من أقدم ما وضعته العرب في التواریخ العامة؛ فهو يبدأ من نشوء الخلق وما بقى من الوقت إلى أن تقوم الساعة. كما اشتهر مسلم الليثي بدراسة الفلك (علم الهيئة) على الأسس التي وضعها علماء اليونان القدمى «من اهتمام بشكل الأرض، واختلاف المناخ من بقعة إلى أخرى في الأرض مع مارافق ذلك، من التباين بمصير الناس وأرزاقهم من حركات النجوم. أى أن علم الفلك كان لا يزال مختلطًا بالترجم». (١) واشتهر من الأطباء أحمد بن إيمان (حمد بن أبي) الذي وضع عناصر شافية وصل عددها إلى ١٠٠ عقير نباتي، ووضع مؤلفات كثيرة يشرح فيها بعض العمليات الجراحية المعقدة، ومنها ما يختص بالرحم مما يؤكد أنه بني قسماً من خبرته على عمليات التشريح. وفي ذلك العصر المزدهر يبرز واحد من أشهر العباقرة وهو عباس بن فرناس المتفوق سنة ٨٨٧ (٢٧٤) وكان عارفاً بكثير من علوم زمانه. وحدث أن أهدي أحد التجار كتاب «العروض» للخليل الفراهيدي إلى عبد الرحمن الثاني فوجده أهل بلاطه عسير الفهم فاطلع عليه ابن فرناس وفسره. وصنع الميكافاة عزيز إليه، وكذلك صناعة الزجاج من السليمك، عماد صناعة العدسات اليوم. ويقال إنه مثل في منزله شكل السماء حتى ليخيل للناظر أنه يرى النجوم والبرق والرعد. ومن المحتمل أن يكون هذا العبقرى فكر في الطيران ولكن مسألة سقوطه لأنه نسي تركيب الذيل، تجن على عقريته التي لا يمكن أن تقارن إلا بشخصية من وزن ليوناردو دافنشي.

وكان من الطبيعي أن تساهم أعمال العلماء والأطباء والمفكرين في تثبيت عوامل التميز التي ظهرت في الأندلس، وبدأت تظهر من خلالها استقلالية معينة عن منبع الثقافة الأندلسية في الشرق عموماً، وفي العراق على وجه الخصوص. ويقول الدكتور احسان عباس في ذلك: «ومن الطبيعي بعد هذه النهاية العلمية التي استغرقت في تطورها قرنين من الزمان على وجه التقرير الا تبقى الأندلس عالة على الكتاب المشرق والثقافة المشرقية، وإن هي لم تقطع صيتها بما على مر الزمن، فإنها في الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الناصر وأخر الدولة العامرة وجدت ذاعها، والتفت لماضيها واهتمت بحاضرها، وأدركها شيء يشبه الشعور القومي، ودفعها الحكم المستنصر في هذا السبيل دفعه قوية، فإذا المكتبة الأندلسية تتحرر بالمؤلفات عن الأندلس يقادم أهلها، وهكذا وجدت الأندلس رجالها وتاريخها وعلمها وأدبها، فتحدثت عنه وخدمته». (٢)

ولكن مجده قرطبة لم يدم فانهارت الخلافة، وقامت على أنقاضها ممالك الطوائف، وكانت نكسة عنيفة لوحدة الأندلس وقوتها. ومع ذلك فان بروز المالك المتعددة سبب تناقض حكامها لاجتذاب الشعراء والأدباء والفلسفه والعلماء. وظهر في هذه الفترة ابن حيان (٩٨٧ - ٣٧٧ / ٤٦٩ - ١٠٧٦)، وابن زيدون (٣٩٤ - ١٠٣)، وابن وهبون، وابن الباونة، وابن عمار، والجزائري العذري، وابن حزم. واشتهر في طليطلة كثيرون مثل صاعد الأندلسي الطليطلبي صاحب كتاب «طبقات الأمم»، وكان لولد الرقيب باع طويلاً في العلوم الفلكية اعتمد فيها على ملاحظاته وخبرته

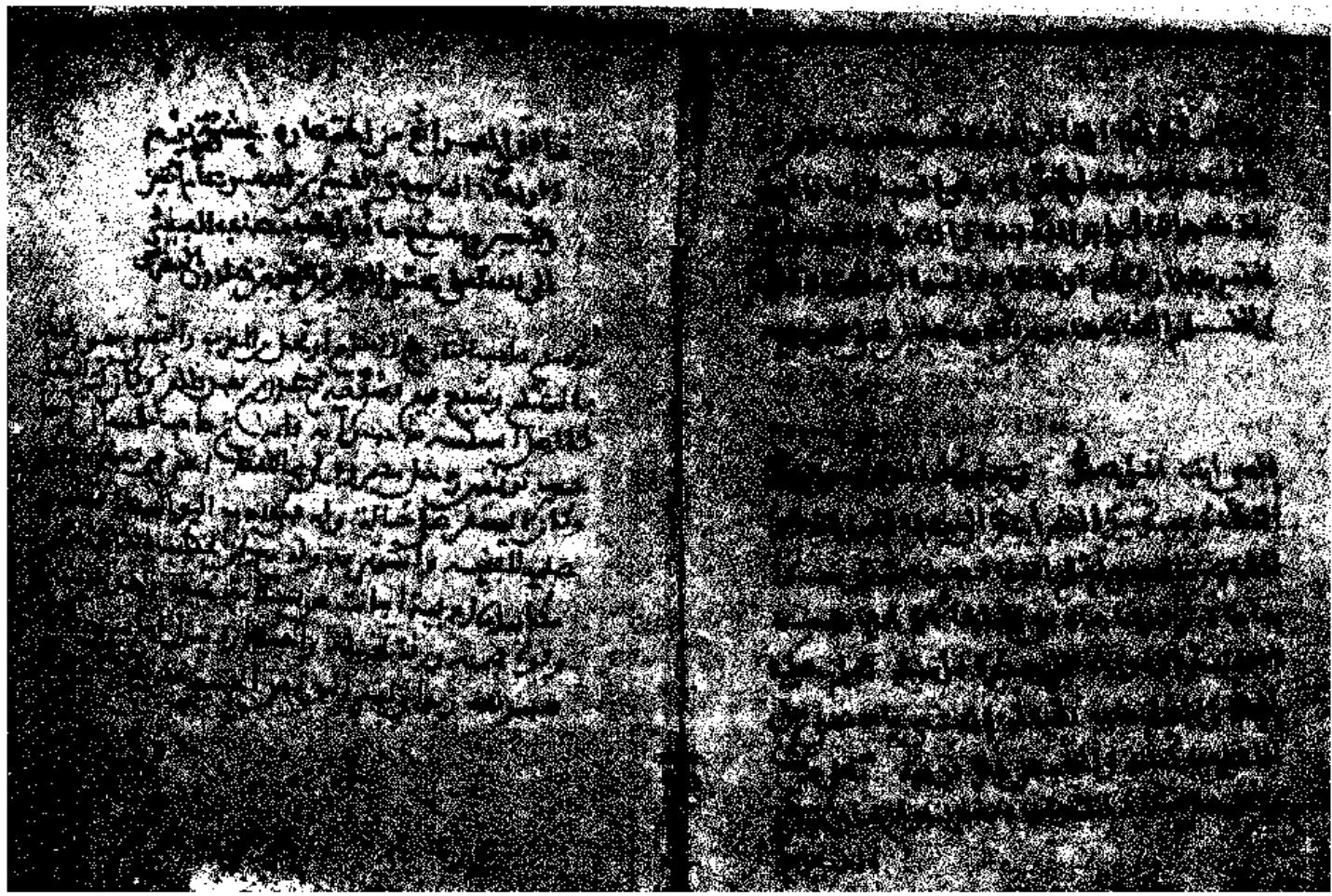
(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٢) « تاريخ الأدب الأندلسى » (عصر سيادة قرطبة) ، الدكتور احسان عباس ، ص ٧٩ .

الطويلة في المضمار ، وأبو عامر بن الأمير المقتصد بن هود الذي برع في العلوم الرياضية والمنطق والعلم الطبيعي والاهلي ، وأبن البغونش الطبيب وغيرهم . وعرف الكرماني في سرقسطة عالماً في العدد والهندسة واليه يعود فضل ادخال رسائل اخوان الصفا الى الاندلس مع ما ادخله آخرون مع مؤلفات مشهورة مثل «القانون» لابن سينا وديوان المتشي ومقامات الحريري ورسائل البديع الهمذاني والخوارزمي و«رسالة الغفران» و«أهل المدينة الفاضلة» للفارابي وبعض كتب الغزالى . وفي عاصمة الشغر الأعلى عرف كذلك عبد الله بن احمد السرقسطي المتبحر في علوم العدد والهندسة . واهتم الفيلسوف ابن باجة ، الذي درس في اشبيلية ومات مسموماً في قاس ، بسعادة النفس البشرية وكالماء ، وبعد من أهم الشارحين لكتب ارسطوطاليس قبل ابن رشد . وأظهر ابن السيد البطليوسى معرفة واسعة بكتابات ارسطوطاليس وزينون وأفلاطون ، ويعتبر البعض كتابه «الحدائق» أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الاسلامية والفكر اليوناني . ولاشك أيضاً في أن ذلك العهد استفاد من تركيبة الخلافة من الكتب فاستمر الاهتمام باللغة بها وكثير تصنيفها وجمعها . ويقال أن محمد بن يحيى الغافقي (ابن الموصل) جمع من المجلدات مالم يجتمع لأحد منذ الحكم الثاني .

وفي عهدى المرابطين والموحدين استمر النشاط العلمي والأدبي بعد بداية صعبه ، وتمكنت الحضارة الاندلسية من جر الحكماء إلى نطاقةها عملاً أن التقليل الثقافى انتقل على مراحل إلى المذوة ، وإن كان كثير من المشغلين بهذا الحقل من أصل أندلسى . من أعلام هذه الفترة من التاريخ أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (ابن باجة) عالم الرياضيات والفلك والفلسفة ، وأبن سام الشتريني صاحب «الذخيرة في محسن أهل الجزيرة» وعلى بن عبد الرحمن الخزرجي الطليطلى الطبيب ، وأبو الحسين محمد بن احمد بن جبير صاحب «رحلة ابن جبير» وأبو عبد الله محمد بن الآيا ، وعبد الواحد المراكشي مؤلف «المعجب في تلخيص اخبار المغرب»، وأبن عذاري صاحب «البيان المغرب» وأبو يعقوب محمد بن عبد الملك بن طفيل القىسى صاحب «حي بن يقطان»، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد (ابن رشد) ، والمتصوف يحيى الدين ابن عربي المولود في مرسيه (١٢٥٠ / ٥٦٥) والمتوفى في دمشق حيث يعتبر من الأولياء الصالحين .

إلى جانب هؤلاء عرفت مدن الاندلس المختلفة الأطباء وعلماء النبات والزراعة بعداد كثيرة ، ورحل كثيرون منهم إلى غرناطة بعد اخساد السلطة العربية عن معظم الأرضي الاندلسية في القرن الثالث عشر، وهؤلاء كانوا المعلمين الذين اخرجوا للعالم من تلك المملكة الإسلامية شخصيات مثل ابن البيطار وأبن الرومية وأبن الجياب وأبن خاتمة وأبن الخطيب . وفي آخر الممالك الإسلامية تلك ازدهرت المباني والصناعات والزراعة فكانت تقدم بعض اخر انواع الورق والقخار المذهب والاصباغ والجلود المدبعة والخزير المقصب والخلي والأسلحة والرجاج الملون وغير ذلك . أما العلماء والأدباء الذين هاجروا إلى المغرب أو مصر أو الشام بعد سقوط ديارهم بآيدي الشعاليين، فكان لهم فضل كبير على تطور الثقافة والعلوم في أوطانهم الجديدة ، وربما وجد بعضهم الطريق إلى بغداد التي فقدت مجلداتها على يدي هولاكر (١٢٥٨) ، فاعادوا إليها بعض مآخذنه اجدادهم من عاصمة الخلافة العباسية السابقة .



خطوطة «باب المحسن» بخط العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ (١٤٠٦) . الخطوطة رقم ١٦١٤ ، الأسكندرية.

ج - التأثير الاندلسي في نشأة الثقافة الأوروبية :

تعقيد العلوم اليونانية وتنوعها فرضا مرور فترة طويلة قبل أن يتمكن العلماء العرب من هضمها وإستيعابها قبل تقديمها بصورةها الأولى ، أو بشكل آخر .. مطموراً حتى على شروحات مفصلة ، أو اضافات نتجت عن مراقبة جديدة أو تحليل لبعض جوانب تلك العلوم . وادرج شمس الدين محمد بن ساعد الانصاري في «ارشاد القاصد إلى اسني المقاصد» ٦٠ علماً اشتغل به العرب أاما ترجمة عن اليونان والرومان والفرس والهنود والأنباط وغيرهم ، وأاما تطويراً لعلوم جديدة تطلبتها عوامل الحاجة لثبت اللغة وشرح الدين وتطوير الزراعة والصناعة ووضع أسس التعامل بين الناس ، وغير ذلك من العلوم والنشاطات الفكرية التي وجدت دفعة قوية من خلال حث الإسلام على طلب العلم ، والسيطرة العربية التي نهضت على سلطان بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة . ولم يكن الاشتغال بالعلوم مجرد الجسر الذي انتقلت عليه حضارة اليونان إلى أوروبا في القرون اللاحقة . فالمترجمون العرب والسريان وغيرهم حفظوا الكثير من أعمال العلماء وال فلاسفة والاطباء اليونان من ضياع شبه حتمي ، غير أن ما عرلوه وما طوروه وابتدعوه كان كافياً لقيام حضارة علمية عربية هائلة اتصفت بتميزها الخاص فلم تكن نهاية العلوم ولاشكها الأخير ، وهذا ينطبق على علوم اليونان كما ينطبق على علوم وحضاريات غيرهم .

ومن بين أكثر من ٣٠ مدرسة عربية كانت القاهرة تضم ٨٩ منها ويعدد ٤٠، ودمشق ١٣٣، والقدس ٤٤، بالإضافة إلى مدارس كثيرة في الموصل والقيروان وقرطبة وشبيلية وغزّاتة وسبتة وسمقند وبانج وغيرها من المدن الإسلامية. ومن أشهر هذه الدور بيت الحكمة الذي بناه المؤمنون سنة ٨٣٢ (٢١٧) وكانت له صفات كثيرة من جامعات اليوم، وجامعة القرويين المبنية سنة ٨٥٩ (٢٤٥)، والازهر المبني بين عامي ٩٦٩ و ٩٧٣ (٣٦٢ - ٣٥٨). وكما أن كثيراً من غير العرب ساهموا في خلق النهضة العلمية العربية، فإن أبواب العلم لم تكن موصدة دون العرب فهل منه الجميع، وكان الأساس الذي بني عليه الملوك والآباء في أوروبا ثقافتهم خلال تلك الفترة من التخطيط التي اعقبت اجتياح القبائل الجرمانية البربرية لأوروبا، وحتى قيام المملكة الكارولنجية.

وفي عصر شارلماן بدأت بوادر حضارة أوروبية محدودة نتيجة للاستقرار السياسي الذي وفه شارلمان، وتجمع في بلاطه معلمون استدعاهم من إنجلترا وإيرلندا ولومباردي وإيطاليا ليشكلوا المركز الذي شاء شارلمان أن يكون نبع ثقافة تعم كل ممالكه الضخمة. وتتبّع خطوات شارلمان تظهر تأثيره بما كان يجري في الاندلس عند حدود مملكته الجنوبيّة على غير عادة ملوك القبائل الجرمانية. وحاول هذا الملك غزو الشمال الأندلسي والسيطرة على سرقسطة سنة ٧٧٨ (١٦١) ولكنه أخفق وانزلت قبائل البشكين وبعض العرب بمؤخرة جيشه هزيمة ساحقة عند باب شرروا (الشرزي) قتل فيها رولان (انظر ص ٥٤). وإن كانت حملة شارلمان العسكرية انتهت إلى هذا الانخفاق الذريع، فإن معاييره لما كان يجري في الاندلس عن كتب اكتسبها الكثير في التواحي التعليمية والثقافية. وجد مثلاً أن المساجد الأندلسية كانت المدرسة ودار العبادة في آن واحد، فاصدر أمره الشهير بفتح المدارس في الأديرة بعد ١١ سنة من عودته من الاندلس، وكان لهذا القرار تأثير عميق على تطور الثقافة الأوروبية فيما بعد. وهو سمع بتكرير عبد الرحمن الداخل وهشام الرضا للعلماء والأدباء، فجمع في بلاطه أبرز مثقفي عصره من مختلف الممالك النصرانية لاثراء مدرسة القصر التي انشأها سنة ٧٨١ لتكون الموجّه الذي قامت عليه المدارس والكنائس والكاثيدرائيات في جميع أنحاء مملكته فكانت تلك الهيئات الدينية مؤسسات تعليمية تشجع العلوم وتنمي دراسة الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى. ولعل أهمية عمل شارلمان كمنت في أنه حول العلوم من دراسات عهم الفنانيين (*Artes mechanicae*) إلى دراسات صالحة للأحرار (*Artes liberales*) جمعت القواعد اللغوية والخطابة والفلك وغيرها من العلوم. ولكن بما أن تلك النهضة قامت أساساً على وجود ملك مسيطر مثل شارلمان (أصبح إمبراطوراً سنة ٨٠٠)، فإن وفاته سنة ٨١٤ تسبيط في تحول تلك الحركة وتقويض الكثير من اسسها بعد ان تقوضت المملكة الكارولنجية.

وموت الحركة العلمية الفرنسية بموت شارلمان أرجأ أي تطور يذكر هناك حتى القرن الثاني عشر، إلا أن توجيهه للمؤسسات الدينية بضرورة تكريس جزء من جهود الكهنوتيين لتابعة العلوم الحياتية استمر من بعده دون أن يحدث الأثر المطلوب. وفي هذه الآثناء كان التطور من نصيبي إيطالياماً وكانت العوامل تتفاعل لخلق النهضة الأولى فيها من دون سائر الممالك الأوروبية. والاهتمام الإيطالي بالعلوم توافق مع الحركة الاصلاحية التي قادها غريغوريوس الخامس (٩٩٦ - ٩٩٧)، ورمت إلى مركزية الادارة الكنيسة

تحت لواء البابوية ، وتطهير اخلاق الناس بعد تطهير قلوبهم . واستمرت هذه الحركة في عهد سيلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٣) الذي انشأ الكثير من المدارس في ايطاليا وفرنسا وشجع العلوم واجتذب العلماء اليه . ولم يكن هذا التصرف غريبا على البابا سيلفستر الثاني الذي درس في مدارس قرطبة عندما كان راهباً باسم جليط وطبق ما تعلم في عاصمة الخلافة القرطبية الخضراء على مؤسسات علمية اراد لها الا تقل شأوا عن مؤسسات الاندلس . وعما ان الحركة الاصلاحية الكنسية تضمنت لم شمل المالك المسيحية واعلاء شأنها ، فإنه كان من الطبيعي ان تأخذ في بعض مظاهرها ابعد اى نفوذ اسلامي عن ايطاليا اولا ثم عن باقي الدول الواقعة في اوروبا فيما بعد . والمعروف ان العرب كانوا يسيطرؤن على مناطق كبيرة من السواحل الإيطالية الغربية واحتلوا روما سنة ٨٤٦ (٢٣١) . الا ان البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) عمل على إجلائهم عن ايطاليا ، وأكمل الاسكندر الثاني (١٦١ - ١٠٧٣) عمل سابقه فتح النورمان على إجلائهم عن صقلية ، وكانت مركزا حضاريا عزيزا مهما حتى باتت كلمتا « الطيب الصقلي » تعنيان أفضل ما يمكن أن يرتقي إليه طبيب من علم . أما أئمة روما الذين جاءوا بعد الاسكندر الثاني فعملوا على توسيع ساحة الحرب مع الاسلام ، وبدأت الحروب الصليبية آخر القرن الحادى عشر .

وفي الشرق أقام الصليبيون عرباء الموطن والحضارة وسط أمة تفرقت . وهدف السيطرة على بيت المقدس تحول مع الزمن الى مجرد السعي لخدمة التوسيع التجارى ، الذى سعت لتحقيقه ممالک بيزا (بيشة) والبنديقية وجنة . وفي الشرق أيضا استندوا حضاريا عزيزا مهما حتى باتت كلمتا يخترعوا عليها . وطوال تلك الفترة التي استمرت حتى سنة ١٢٩١ (٦٩٠) عندما استعيدت عكا ، لم يخطر ببال الصليبيين أن في الشرق علم يستطيعون الاستفادة منه ، أو حضارة يمكن أن تحسن من حياة الجهل التي عاشها اوروية : « ... (ومع) أن الصليبيين اللاتين احتلوا القسطنطينية واثينا وكورنث وطيبة فانهم لم يجعلوا معهم مخطوطة يونانية واحدة . ولم يكن يخطر ببال أى من الصليبيين ... بأن هناك شيئا يمكن أن يتعلمه الانسان من الأدب اليوناني القديم . وكانت تلك فرصة رائعة لكي يعرف الغرب ما تبقى من عظمة الشعر والفكر الهيليني ، ولكن تلك الفرصة ضاعت . وصحيغ أن بعضها من شعاع ذلك النور العظيم احترق اوروية في القرن الثالث عشر ، الا أنه لم يأت من اليونان وإنما جاء عن طريق التأمل المقيد الذي وفوه العرب في اسبانيا » (١) .

وكأن تفوض امبراطورية شارلمازن لم يتفرض جميع الأسس التعليمية التي أوجدها ، فإن الحملات الصليبية لم تكن هي الأخرى دون أي تأثير . والحروب الصليبية خلقت حركة تجارية نشطة كانت سببا رئيسيا في « الثورة » التجارية التي عرفها العالم آنذاك ، واستفادت منها مدن السواحل الإيطالية والفرنسية الجنوبية بصورة كبيرة . وتتوفر تلك الثروة مع المصادر التي أمكن الحصول عليها من الاندلس أو من القسطنطينية فيما بعد ، مهد لنشوء حركة علمية تركت في ايطاليا واعتمدت أساسا على مدارس الكاتدرائيات ، وعلى موضوع الفلسفة اللاهوتية تحديدا . خارج نطاق التعليم الكensi هذا اشتهرت

(١) انظر : Fisher,H.A.L., A History of Europe, Part I, PP 285-286 أو الترجمة العربية للكتاب .



ابن رشد الفيلسوف

جمعيات علمية في بولونيا إلا أن أهم المؤسسات العلمية في تلك الفترة كانت جامعة سالزبور في جنوب إيطاليا . وتقول أسطورة خاصة بهذه الجامعة أن أربعة أساتذة وهم: عربي ويوناني ولاتيني وعبري ، شكلوا مدرسة للطب في الجامعة قبل القرن العاشر ، وظلت مادة الطب مادة رئيسية في الجامعة التي ذاع صيتها في القرن الحادى عشر ، ودرس فيها اطباء مشهورون قدم بعضهم من تونس أو المغرب ، وكانت تضم طلابا توافدوا إليها من جميع أنحاء أوروبا . واعتمدت الدراسة في كلية الطب على كتابات أبقراط وجالينس، وكانت تقدم بشرح مستفيض لأراء ارسطوطاليس، ويختلط فيها العلاج مع التسليم ، والحقائق الثابتة مع التصورات . ومع ذلك فان جامعة سالزبور كانت أول مؤسسة علمية في أوروبا خارج الأندلس ، وظلت تتمتع بصيت ذاتى إلى ان انحدرت في القرن الرابع عشر .

وإذا ذكرت السكولاستية (Scholasticus) في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، فانها كانت تشير عموما إلى علمية ولاهوتية القرون الوسطى ، وتتضمن الدراسة الديكارتيكية للمفاهيم في وقت كان الديكارتىك فيه يعتمد على مقوله نعم ، أو ، لا ، بتطوير من بطرس ايلارد (١٧٩ - ١٤٢) . وكانت القضية الرئيسية التي شغلت الفلسفة النصرانية في ذلك الوقت تتعلق بنشأة الكون وماوراء الطبيعة اعتقادا على افكار ارسطوطاليس ، كما شرحها ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب والمسيحيين . ومع تطور تلك المفاهيم في عهد السكولاستية المختلفة ، ازداد الاهتمام على اعمال ارسطوطاليس وشرحها فكانت أساساً لنظم الفكر في الفترة الجديدة التي لا يمكن انكار تأثيرها على صانعي الفكر الأوروبي في عصر النهضة . بعد ان توفرت للدارسين ترجمات كثيرة عن العربية ، أو الأصول اليونانية لبعض المؤلفات الفلسفية الشهيرة . وإن عرفت إيطاليا بداية نهضة علمية وفلسفية قبل غيرها من دول أوروبا ، إلا أن تلك البداية كانت بسيطة ، وتطورها لم يكن بنضج تطور علوم الأندلس أو فلسفتها . وهذا ما أكدته الدراسات التي تناولت الخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الاسكنorial لتعرض « لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ومبني ماوصلت اليه من الإزدهار والتقدم . فقد ظفر الباحث في هذه الوثائق مثلما يخطوطات عربية ترجع إلى سنة ١٠٩ م كتب على ورق من الكتاب مما يشهد لعرب الأندلس بفضل السبق والبراعة في هذه الصناعة ، وكذا بطاقة من الخطوطات التاريخية تدل بأن العرب كانوا أول من استعمل الديناميت في الحرب ، وغير ذلك مما يلقى أكبر الضياء على حقائق لبست تحضر قرونا في ظلمات الاسكنorial »^(١) .

د - الأندلس وعصر النهضة الأوروبي :

ملكت الأندلس حضارة هائلة ، وكانت مركزا علميا نهلا منه كثيرون من نصارى الأندلس ، ونقلوا إلى الشمال المسيحي ما تعلموه في الجنوب بعد رحيلهم إلى الشمال نتيجة مجموعة مختلفة من الأسباب .

(١) « مواقف حاسمة » محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . وانظر أيضاً موجوه عن الاسكنorial في المرجع ذاته ص ٢٥٩ - ٢٦٨ .

ولابد أن الشماليين استفادوا كذلك من ثقافة وعلوم بعض الأندلسين الذين أسروا في المعارك الكثيرة ، أو اختاروا البقاء في مواطنهم بعد سيطرة ملوك الشمال عليها . ويسقط طليطلة سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) توفر للفونصو السادس مدينة عظيمة ومركزاً مهما للعلوم والثقافة الأندلسية . وعرفت طليطلة عدداً كبيراً من المشتغلين بالفلسفة والعلوم منهم أبو الوليد بن الرشيد الصالح باللغة والفقه والهندسة والمنطق ، وأبو جعفر ابن منيع وكان عالماً في الهندسة والنجوم والطب ، والقويدس الذي اشتغل بالعدد والهندسة ، وأبن وافد الخمي الطيب المشهور الذي ألف كتاباً في الأدوية جمع فيه بين كتابي ديوسقوريدس وجالينوس .

وعاش في هذه المدينة كذلك أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التجيبي (ولد الرقيق) الذي يعتبّه البعض من أعظم علماء الفلك عند العرب ، إلى جانب أبي عبد الله محمد سنان الحرافي (الثاني) الملقب بـ : « بطليموس العرب » . وحاصر المسلمين طليطلة ، التي ماتزال تحفظ بطابع القلعة ، ولكنها ظلت بأيدي الشماليين ، وكانت مركزاً شن الحملات على الأندلسين ، وعاصمة الشمال الثقافية والسياسية فترة من الزمن . وفي طليطلة تطورت مدرسة للترجمة والنقل عملت على ترجمة المجلدات العربية واليونانية والعربية إلى اللاتينية ، وكانت بذلك من أهم المدارس التي وفرت لأوروبا مراجع فلسفية وعلمية قيمة .

واستمر الاهتمام بالترجمة بعد أن توفرت للشماليين مصادر جديدة من المعرفة إثر سقوط قرطبة وجيان وشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية الرئيسية . وكان من بين ملوك الشمال من اهتم بالعلوم العربية مثل الفونصو العاشر « العالم » الذي اتصل بالعلماء العرب وشجع الترجمة من العربية على نطاق واسع . واستمر اهتمام القشتاليين بعلوم العرب فيما بعد ، فحرصوا على جمع المجلدات العلمية حتى عندما سمعت قشتالة لطمسم جميع معالم الشخصية الأندلسية الإسلامية . وفي مكتبة قصر الإسكوريال الذي بناه فيليب الثاني بين عامي ١٥٦٣ و ١٥٨٤ توجد اليوم أكثر من ٢٠٠٠ خطوط عربية قيمة وهي دون شك جزء يسير مما توفر من الخطوط العربية التي ماتزال بحاجة إلى الدراسة والنشر . ولم تقتصر استفادة الشماليين على الفكر والإبداع العربي ، إذ أنهما استفادوا أيضاً من المؤسسات العلمية التي كانت قائمة في الأندلس وهو شيء يظهر من استعراض نشأة الجامعات الأوروبية وتطور الجمعيات العلمية فيها بعد أن توفرت المصادر ، وتتوفر الأساتذة والطلاب .

ونمت المؤسسات العلمية الأوروبية في القرن الثاني عشر على صورة هيئات تضم المدرسين والطلاب على حد سواء . وكانت الدرجات العلمية هي التي استمر استخدامها حتى اليوم مثل البكالوريا والليسانس والماجستير والدكتوراه ، وكان التدريس باللاتينية قبل أن تتطور اللهجات المحلية . والبعض من هذه الهيئات كان تابعاً للسلطات الدينية مثل جامعة باريس ، ولكن جامعات مثل بولونيا (إيطاليا) كانت تحت اشراف الطلاب أنفسهم . وفي المرحلة التي سبقت نهاية القرن الثالث عشر وصل عدد الجامعات الأوروبية إلى ١٦ جامعة ، وكانت شبه جزيرة إيبيرية تضم ستة منها هي: جامعة بلاتزيا المشاة سنة ١٢٠٨ ، وشلمونقة (قبل ١٢٢٠)، وبلنسبة (١٢٤٣)، وبلد الوليد (١٢٥٠)، ولشبونة وشبيلية (١٢٥٦) . وفي فترات لاحقة أقيمت جامعات أخرى في لاردة ووشقة وابلة والقلعة وسرقسطة . وبعض



مخطوط
 «السلوانات في
 مسامرة الخلقاء
 والسدادات» أو
 (سلوان المطاع
 في عدوان
 الأطباع) للعربي
 الصقلي (محمد
 بن علي بن محمد
 بن ظفر) المعروف
 سنة (١١٦٩)
 ٥٦٥
 المخطوطة ، رقم
 ٥٢٨ ، مكتبة
 السكرى بالـ .

هذه الجامعات قام نتيجة هجرة طلاب وأساتذة من جامعات أخرى ، كما حدث بالنسبة لجامعة بلازيا
 واكسفورد (١١٦٧) اللتين استفادتا من خبرات جامعة باريس (حوالي ١١٥٠) والتي استفادت بدورها
 من خبرات إيرية . وبعضها تغير بالتخصص مثل جامعة سالينزو أو جامعة مونبيليه (١٢٨٩) التي

اشتهرت بالقانون والطب وقامت على اكتاف العلماء والمدرسین الأندلسیین من مسلمین ويہود اثیر نزوحهم من الأندلس . واعتبر البابا الاسکندر الرابع سنة ۱۲۵۵ جامعات باریس واکسفورد وبولونیا وشمنقة اهم جامعات ذلك العصر .

ولكن على الرغم من توفر كل تلك المصادر العلمية للقشتاليين ، فانهم لم يستفیدوا منها بقدر ما استفاده الأئم الأوروبية الأخرى . ولعل أهم سببين في ذلك الروح العسكرية التي ظلت تسيطر على قشتالة وأسبانيا فيما بعد ، والتعصب الديني الذي لم يتع لعلوم تلك الحرية الضرورية لغيرها وتطورها ، ولم يسمح للشخصية القشتالية احتلال المكان الذي كان من الممكن أن تشغله في عصر النهضة الأوروبي .
وإذا وجد ملوك مثل الفونصو العاشر الذي اهتم بالعلوم والثقافة العربية ، وتاريخ قشتالة وأيسيرية والموشحات وغيرها فكان ملوكا آخرين استهجنوا أن يميل مثل هؤلاء الملوك إلى احترام التراث الأندلسي في الوقت الذي كانوا يسعون فيه للقضاء على الأندلسیين . ومن المعروف أن صلة الفونصو العاشر بالعلماء العرب أثارت نقاوة الكثيرين عليه ومن بينهم ابن شناسو (شانسو) الذي قام على إيه سنة ۱۲۸۲ (۶۸۱) لهذا السبب وأسباب أخرى ، مما حمل السلطان المرنوني المنصور للجوء إلى العدوة لمساعدة الاب طبقاً لرواية ابن خلدون ، أو ابن طبقاً لرواية ابن الخطيب . ومن الأسباب الأخرى التي أبطأت حركة التقدم العلمي في قشتالة ، مقارنة مع غيرها من الدول الأوروبية مثل إيطاليا أو فرنسا ، دخوها في صراعات داخلية استمرت بصورة أو بأخرى منذ عهد الفونصو العاشر وحتى تسلم إيزابيلا للسلطة سنة ۱۴۷۴ . ذلك لأن إسبانيا لم تعرف عصرها الذهبي إلا في القسم الثاني من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر على أيدي سيرفانتس ودى فيغا وفالسكويز وغيرهم .

وخلال مرحلة الاضطهاد السياسي القشتالي كانت الدول الأوروبية الأخرى تنتقل من مرحلة تطور علمي وأدبي إلى أخرى . وبعد السكولاستية الأولى جاءت السكولاستية الحديثة التي وجدت رمزاً لها الشاعر في الملحمـة الـديـنية التي ألفـها دـانـتـي الـيجـيرـي (۱۳۶۵ - ۱۳۲۱) بـعنـوان «ـالـكومـيديـاـ الـاطـيـةـ» . والـثـانـيـةـ أنه تأثر فيها بـ«ـرسـالـةـ غـفـرانـ»ـ المـعـرىـيـةـ الـتـيـ دـخـلـتـ الأـنـدـلـسـ ،ـ وـكـانـتـ مـنـ بـيـنـ الـكـتـبـ وـالـرـسـائـلـ الـتـيـ دونـ ابنـ عبدـ الغـفورـ ثـبـتاـهـ فـيـ كـتـابـهـ «ـأـحـكـامـ صـنـعـةـ الـكـلـامـ»ـ .ـ وـلـكـنـ لـدـانـتـيـ فـضـلـ تـطـبـيعـ اللـغـةـ الـإـيـطـالـيـةـ وـهـوـ يـعـتـرـ أـبـ الـأـدـبـ الـإـيـطـالـيـ .ـ وـكـانـ مـنـ الـطـبـيـعـيـ أـنـ يـسـلـكـ الـجـدـلـ الـفـلـسـفـيـ فـيـ إـيـطـالـيـاـ الـدـرـبـ الـذـيـ سـلـكـتـهـ الـاتـجـاهـاتـ الـفـلـسـفـيـةـ الـعـرـبـيـةـ وـالـأـنـدـلـسـيـةـ قـبـلـ ذـلـكـ بـقـيـادـةـ ابنـ رـشـدـ وـابـنـ باـجـةـ وـالـقـارـايـ وـالـغـرـالـيـ وـابـنـ سـيـناـ وـغـيرـهـ ،ـ اـذـ بـرـزـ تـوـماـ الـاكـوـنيـ (۱۲۷۴ - ۱۲۲۵)ـ فـحـاـولـ أـنـ يـقـيمـ صـلـةـ عـقـلـانـيـةـ بـيـنـ الـعـقـلـ وـالـدـينـ وـلـكـنـهـ ،ـ عـلـىـ أـهـمـيـتـهـ ،ـ لـمـ يـقـدـمـ الـاجـابةـ الـتـهـاـيـةـ .ـ وـفـيـ الـمـراـحلـ الـلاـحـقـةـ اـصـطـدـمـ السـكـولـاستـيـوـنـ الـعـلـمـانـيـوـنـ بـالـرـوـحـيـنـ ،ـ وـبـرـزـتـ حـرـكـةـ تـصـوـفـ قـوـيـةـ كـرـدـ فعلـ عـلـىـ السـكـولـاستـيـةـ ،ـ ثـمـ تـطـورـتـ حـرـكـةـ الـأـفـلاـطـوـنـيـةـ الـجـدـيـدةـ الـتـيـ تـأـثـرـ اـصـحـاحـيـاـ بـكـتـابـاتـ اـفـلاـطـونـ الـتـيـ وـصـلـتـهـمـ مـنـ خـلـالـ كـتـابـاتـ ابنـ سـيـناـ وـابـنـ رـشـدـ ،ـ وـاشـتـهـرـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـقـدـيـسـةـ كـاتـبـيـنـ (۱۳۴۷ - ۱۳۸۰)ـ .ـ وـلـعـلـ أـبـرـزـ فـلـاسـفـةـ إـيـطـالـيـاـ فـيـ النـصـفـ الـأـوـلـ مـنـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ كـانـ نـيـقـوـلاـ الـكـوـزـيـ (۱۴۰۱ - ۱۴۶۴)ـ الـذـيـ تـنـاـوـلـ بـالـبـحـثـ وـالـتـعـلـيقـ كـلـ الـسـيـارـاتـ الـفـكـرـيـةـ الـمـتـصـارـعـةـ فـيـ ذـلـكـ الـزـمـنـ وـضـعـنـهـاـ فـيـ كـتـابـهـ «ـالـجـهـلـ الـمـفـتـحـ»ـ الـذـيـ صـدـرـ سـنـةـ ۱۴۴۰ـ ،ـ وـخـلـصـ فـيـهـ إـلـىـ القـوـلـ بـأـنـ الـكـوـنـ لـأـمـرـكـرـ لـهـ ،ـ وـهـوـ غـيرـ قـابـلـ لـلـفـهـمـ عـنـ طـرـيـقـ التـفـكـيرـ الـعـقـلـانـيـ



الفونسو العاشر (العالم) والى اليمين
تمثال سيرفانتس (مدخل المكتبة الوطنية، مدريد)

به . وفي السنة التي نشر فيها الكوزي كتابه أنشئت في فلورنسا الأكاديمية الأفلاطونية على نهج الحركة الأفلاطونية الجديدة التي كانت تقول بان التطور الفكري للعقل البشري يتوجب أن يكون بلا عائق ، وأن الإنسان قادر على تقويب ذاته من المثالية بواسطة دراسة الآداب الكلاسيكية . والجديد في الأكاديمية أنها قامت على اكتاف مفكرين رحلوا إلى تلك المدينة الإيطالية من بين منطقة مثل مانويل كريسلوراس ويزاريون ، وعلموا باليونانية منذ بداية القرن الخامس عشر . ولكن توفر العديد من أعمال المفكرين اليونان بلغتهم الأصلية لم يلغ قيمة الشروحات التي أضافها المفكرون العرب على تلك النصوص ، أو الأعمال التي أضافوها إلى الترجمة اليونانية المتألة .

وفي القرن الخامس عشر كانت الفرصة حانت لتطور العلوم التطبيقية وتحسين الابتكارات القديمة وإضافة الجديد إليها ضمن اتجاه عام للاستفادة العملية من العلوم التي توفرت آنذاك . وفي ذلك القرن وصل عدد الجامعات الأوروبية إلى أكثر من ٨٠ جامعة ، وعمت الدراسات الإنسانية وسادت روح الاكتشاف ومراقبة الطبيعة ، لتشكل محل المفهوم الإرسطوطيسي للكون ، وساعدت الابتكارات الحديثة على اقتناع المفكرين بحقائق كانت معروفة قبلهم بقرون عديدة . فالبرهنة العلمية على أن الأرض ليست مركز الكون احتاجت إلى عدة عناصر لم تتوفر كلها دفعة واحدة . كانت هناك حاجة لمنظر فلكي

عبقري مثل أرستاخوس قال في القرن الثالث قبل الميلاد أن الأرض تدور حول الشمس . وكانت هناك حاجة لفلكيين عرب حفظوا تلك النظرية، ولفلكي حديث مثل نيكولاس كوبنيكوس أعاد تأكيد النظرية الأولى سنة ١٥٤٣ بالاعتماد على ملاحظاته وحساباته . ومع ذلك فان رفض تلك النظرية استمر حتى ١٦٠٩ ، عندما توفر جاليليو التلسكوب . رأى الأخير أن للمشتري أربعة أقمار تدور حول أكبر الكواكب السيارة هذا ، فنسف بذلك الادعاء بأن الأرض هي الكوكب الذي تدور حولها جميع الكواكب والنجوم . وقد لا تكون مثل هذه الاكتشاف فائدة عملية في فترة مثل تلك ، إلا أن نظرية أخرى ، هي كروية الأرض ، فتحت أبوابا تجارية وواسعة وعسکرية لم تكن تخطر على بال موان احتاجت الأخرى إلى عدة عناصر كسابقتها . أرستاخوس واراتوستينيس قالا قبل الميلاد ان الأرض كروية، وكرر الفلكيون العرب أفكارا مشابهة دون التعمق فيها ، ولكن اثبات ذلك تطلب تطوير السفن وابتداع أجهزة الملاحة التي مكنت السفن من البحار في أعلى البحار ، بدلا من البقاء على مقربة من الشواطئ . وتطلب ذلك أيضا مغامرا مثل كولومبس وأذنا صاغية مثل أذن ايزييلا القشتالية التي وافقت على رحلة كولومبس البحرية ليس خدف علمي ، وإنما لاكتشاف مصارد التوابيل في الشرق عن طريق الدوران حول الأرض بالبحار غربا والاتفاق نحو الهند . وظل هذا المكتشف حتى وفاته يعتقد بأنه اكتشف الجزائر الواقعة إلى الغرب من الشند .

والفرصة التي توفرت لكل من إسبانيا والبرتغال لم تتوفر لأية أمة أخرى من الأمم التي نشطت لبناء الأسطوanel والسيطرة على البحار في العالم ، وهما استفادتا من التركة الهائلة التي ورثتها من الأندلسيين ، وتطورت منذ المحاولات الأولى لترسيخ سلطة الإمارة القرطية . فحاجة الأندلسيين لدرء مخاطر القرصنة النورمان ، والاستجابة للمتطلبات التجارية التي تعاظمت مع نمو الحركة التجارية الأندلسية ، وضرورة تطوير الأسطوanel البحرية لحماية الجزء الشرقي أو نقل التجار والحجاج والطلاب إلى المشرق ، كل هذه الأمور، وغيرها، أدت إلى التركيز على الحركة الملاحية واعطائها أولوية خاصة ، تمثلت في بناء السفن الكثيرة والإنفاق على الأسطوanel ، كما يتبيّن من اشارات كثيرة في التاريخ الأندلسي . ويقول صاحب «البيان المغرب» أن الجبوس (النورمان) لما حاولوا الاعارة على مدن ساحل الأندلس الغربي « وجدوا البحر محروسا ، ومراكب المسلمين معدة ، تجربى من حائط افريقيا إلى حائط بحليقة في الغرب الأقصى »^(١) ويقول صاحب « المقتبس » أن عبد الرحمن الأوسط سير سنة ٨٤٨ (٢٣٤) « أسطولا من ثلاثة مئة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة ، لنقضهم العهد واضرارهم بمن يمر بهم من مراكب المسلمين »^(٢) ويقول صاحب « الاحتاطة » إن الحكم الثاني توجه إلى مدينة المرية في رجب من سنة ٣٥٣ (٩٦٤) ، « وأشرف على أمرها ، ونظر إلى اسطولها وجدده ، وعدته يومئذ ثلاثة قطعة . »^(٣) وحظيت تلك المدينة بأهمية كبيرة إذ كانت مقر إمارة البحر التي استحدثت في عصر الخلافة ، ويقي منصب « أمير البحر » أعلى مرتب قادة البحرية في الأسطوanel الأوروبية كما يؤكّد ذلك الاسم المحرف (Amiral) ، أو (Admiral) .

(١) انظر : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، ابن عماري المراكشي . تحقيق كولان وبروفنسال ، بيروت ، الجزء الثاني ، ص ٩٦

(٢) انظر : « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » ابن حيان ، الجزء الثاني ، ص ٢ - ٣ .

(٣) انظر : « الاحتاطة في أخبار غرناطة » الجزء الأول ، ص ٤٨٧ .

أما وقد استغل البرتغاليون والأتراك التركية البحرية الأندلسية وعملوا على تحسينها باستمرار ، فانهم تمكّنوا من فتح العالم الجديد . بينما دفع سعي البرتغاليين للوصول الى مصدر التوابل في الشرق عدداً من التحسينات الى ركوب الأهواز للدوران حول رأس الرجاء الصالح مثل باريوليو دياث (١٤٨٧) وفاسكيو دي غاما الذي تمكّن من العثور على الطريق الى الهند (١٤٩٨) بثلاث سفن و ١٥٠ بحاراً بفضل المساعدة القيمة التي قدمها اليه شهاب الدين أحمد بن ماجد « أسد البحر العربي » المدفون اليوم في منطقة الندوة برأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة . وفي الخليج أيضاً عرف البرتغاليون الشراع الحديب المستخدم من فترة سبعة القرن العاشر الميلادي ، وكان ذلك اكتشافاً مثيراً اذ كانت السفن تسكن بفضلة من استغلال أضعف التيارات الهوائية للإبحار بدلاً من انتظار المد قبل الشروع بالرحلة ، وادى هذا بالتالي الى تشريع الحركة التجارية ، وزيادة الثروة عن طريق سرقة الأفارقة أفراداً وخירות ، واستعباد أهلها المسلمين والوثنيين .^(١)

ومن الاختراعات المهمة التي نقلها العرب الى أوروبا البارود المستخدم في الأسلحة النارية للدفع . واستخدم البارود لهذا الغرض في مرته الأولى خلال وقعة طريفة (١٣٤٠ / ٧٤١) بين المغاربة بقيادة سلطانهم ابي الحسن علي بن ابي يعقوب ومعه سلطان غرباطة ابي الحجاج يوسف (الأول) ، وبين القشتاليين وخلفائهم . وانتشر استخدام البارود على نطاق واسع خلال حرب الله عام بين الانجليز والفرنسيين (١٣٣٩ - ١٤٥٣) في مدافع قديمة طورها الايطاليون والفرنسيون فيما بعد . وكان من غرائب الصدف أن فرناندو « الكاثوليكي » استخدم مدافعاً ترمي كرات فولاذية خلال حصاره لمدينة رندة سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) فجاء استخدام العرب لآلات قاذفة (الانفاط) من دمشق وبالاً عليهم . أما الاستخدامات الأخرى غير العسكرية فشملت الساعات . وقصة الساعة التي أهدتها هارون الرشيد الى شارلماں مشهورة . وطالما وفر العرب المبدأ الذي صنعت بموجبه الساعات ، فقد كان من الممكن تطويرها في وقت لاحق ، واستطاع بيتر هنلين سنة ١٥٠٠ صناعة ساعة الجيب التي عرفت باسم « بيسنة نورمبرغ » .

ولعل أهم الاختراعات المطورة في القرن الخامس عشر كان الطباعة . والطباعة لن تكون اختراعاً أوروبياً اذ عرف اليابانيون الطباعة بالقوالب حوالي سنة ٧٠٠ ميلادية ، وعرف الكوريون الطباعة بالأحرف المتحركة حوالي سنة ١٤٠٠ وكان يوهان غوتيرغ نفسه يمارس الطباعة بواسطة القوالب الخشبية المحفورة ، وهي حرفة معروفة منذ القرن الثالث عشر . ووجد هذا الالانى ان صناعة الأحرف المنفصلة من المعدن تمكّنه من استخدام الحرف لطباعة كلمات أخرى ، وهكذا تمكّن نحو سنة ١٤٥٥ من طباعة ٤٢ سطراً

(١) أقام العرب محطات تجارية في شرق افريقيا ووسطها وحملها من القرن السابع الميلادي ، ونشروا الاسلام في تلك المناطق . وبين القرنين الحادى عشر والحادى عشر قامت ممالك اسلامية مهمة في تلك المناطق منها قائم (حول بحيرة تشاد) ، وبورنو (بين تشاد والنيجر) ، وواهاتي (تشاد) ودارفور وكردفان ، ووصلت مملكة مالي الى اوج سلطتها ابان حكم كونغو موسى (١٣١٢ - ١٣٣٧) ، بينما علا شأن مملكة جوا (مالي) تحت حكم اسكيبا محمد ثم انسنت المملكة بين (١٤٩٣ - ١٥٢٨) . واستغل البرتغاليون ذهب مملكة مونوموتامبا (زimbوي) بعد احتلالها في القرن السادس عشر . انظر المخطبة سابقاً من ١٧٩ .

من الاخيل . هذا الاخilar فتح آفاقاً جديدة من الاتصالات الإنسانية، فالكتب قبل ذلك كانت تنسخ في معظمها بواسطة الرهبان في الأديرة . وكان النسخ يحتاج إلى وقت طويل إضافة إلى أن الكنيسة كانت تنسخ الكتب التي ترضى عنها . وبتوفير الطباعة أمكن انتاج الكتب بالجملة وبأسعار معقولة ، وبات من الممكن اعتبار اللغات المحلية التي بدأت تستخدم للأغراض التعليمية والتأليف . ولكن الطباعة ما كانت لتصبح حقيقة واقعة لو لا توفر الورق الذي أدخله العرب إلى أوروبا محسناً وطوروه في أوقات لاحقة من خلال استمرار تصنيعه في عدد من مدن الأندلس . ولعل اتقان صناعة الورق هو الذي مكن من إنشاء أول مطبعة في شبه جزيرة إيبيريا بعد ١٩ سنة من طباعة الاخيل الأول ، وكان مقر المطبعة مدينة بلنسية التي ضمت أكبر تجمع للأندلسيين في ذلك الوقت باستثناء غرناطة .

١ - العلوم العربية والصور الحديثة :

يمحول البعض اليوم الاجماء يخلو العلوم الحديثة من أية صلة بالحضارة الإسلامية باعتبار أن ما قدمه علماء العرب كان مجرد سرد جانب من تاريخ تطور العلوم التي يعرفها العالم اليوم . وقول البعض بأن أصول الحضارة الغربية تتبع من اليونان مكابرة هدفها حرماني فلاسفة العرب وعلمائهم من فضلهم الكبير ليس فقط في حفظ الكثير من أعمال اليونانيين القدماء ، وإنما في تطوير تلك العلوم وأضافة الكثير من العلوم الجديدة إليها . وعندما انهمك ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) في تطوير علم الميكانيك ، فإنه لم يكن يستغل في علم جديد لأنه علم عرفه اليونان ووقف العرب على أسرار ذلك العلم الذي كان يعرف باسم علم « الخيل » لأنه في بدايته لم يكن أكثر من حيل كما يتضح من « التقليعات » التي انتشرت في أوروبا في القرن السادس عشر وما بعده عندما كان العمال يكتدون سنوات لصنع قرية صغيرة من الدمى والتواشير والأجراس لمجرد تسليمة الأثرياء . وإذا كان هنالين مطror الساعات الصغيرة ، فإن من المعروف أن العرب اخترعوا رقاصل الساعة الذي سموه « الدقيق » لأنه كان يدق مرة في الثانية أو ٨٦٠٠ دقة في اليوم . وكأن من الصعب صناعة الساعة دون الرقاصل ، فإن من الصعب كذلك تطوير الرياضيات دون الأرقام الهندية التي ادخلها الأندلسيون إلى أوروبا ومتزال تعرف حتى اليوم باسم الأرقام العربية . أما في الفترات السابقة فكانت الأرقام الرومانية هي المستعملة . وكان محمد ضرب رقمين برقمين آخرين يستلزم جهداً كبيراً حتى أدخل العرب الصفر الذي ما زال يعرف باسمه العربي (Cipher) . ومثل هذه الكلمة السمت (Zenith) والجبر والكحول والقرنية وغيرها العشرات من الكلمات التي لم يكن علماء الغرب يعرفون أي معنى لها في اللاتينية أو في لغتهم المحلية .

ولكن التأثير العربي على الحضارة الأوروبية لم يقتصر على العلوم وإنما تناول مختلف أوجه الحياة في أوروبا من الشباب إلى الطعام إلى الفروسية وسائر الشؤون الأخرى ، التي تسعى الشعوب الأقل حضارة لتقليد الشعوب الأسمى حضارة منها . كان الطبع مثلاً عند العرب لا يفتقر عن الغذاء كما لم يكن يفتقر عن النظافة . وتطورت شخصيات مثل ثيوفراستوس (١٤٩٣ - ١٥٤١) المفاهيم الطبية في أوروبا دون أن تتطور مفاهيم النظافة عند الأوروبيين . فالطاغعون كان مرضًا يصيب الجرذان أساساً ولكنه يصيب

الانسان ان عقسته قلعة عقصت قبله الجرذ . وظل الحلاقون في اوروية يمارسون الجراحة الى جانب عملهم الاصلي دون العناية باسس النظافة ، بل إن تخصص الأطباء الجراحين كان ، في ظروف انعدام النظافة ، يضر أكثر مما ينفع^(١) . ونجد أن حقد القشتاليين على الأندلسين لم يقتصر على افائههم وإنما شمل كذلك تدمير منافعهم العامة مثل الحمامات .

وال تاريخ يؤكد أن النهضة العلمية لا يمكن أن تتوفر دون نهضة شاملة تتناول الوضع السياسي كما تتناول الوضع الاجتماعي وال حالة الاقتصادية . وحين انهارت اليونان سياسياً واقتصادياً خمدت فلسقتها وعلمتها وحضارتها ، أو استمرت بعصيّا أيام مجد الامبراطورية البيزنطية حتى نهض العرب وبتوا حضارتهم التي انتقلت إلى الأندلس ومنها إلى اوروبة . وحين نهضت روما كان الوطن العربي في سباته العريق تحت وطأة تحالفه الناجم عن الموجات الاستعمارية التي تعاقبت عليه . ونحو نهاية القرن الماضي تجدد الاهتمام بالتراث العربي ، وشرع عدد من المفكرين العرب في الاستفادة من المخطوطات القيمة الموجودة في مكتبات إسبانيا وبريطانيا والمانيا وهولندا وفرنسا وغيرها من دول اوروبة ، وبدأت معالم المساهمة العربية في تطور العلوم الإنسانية في الاتضاح بصورة أكثر جلاءً وعمقاً ، وإن كانت هذه المعالم منقوصة بسبب ضياع معظم المؤلفات التي وضعها الباحثون والعلماء العرب . وحتى المكتبة الملكية المشهورة في الاسكوريال لانتضم اليوم سوى عدد بسيط من الأعمال التي توفرت في الأندلس . ونزعة الكريديال زميل زميز سنة ١٤٩٩ إلى احرق معظم الكتب في غرناطة^(٢) لم تكن الكارثة الوحيدة ياذ شب حريق في المكتبة المذكورة سنة ١٦٧١ - بعد ان تسربت الفيران اليها من الكنيسة- وأودى الحريق بعدد غير معروف من المخطوطات التي جمعت منذ القرن الحادى عشر او غنمها الاسبان من السفن المغربية وغير ذلك من المصادر . وفي عام ١٨٠٨ نهب الفرسانيون بقيادة لاهوسية مبني الاسكوريال ولا يعرف حجم التلف الذي أصاب المخطوطات .

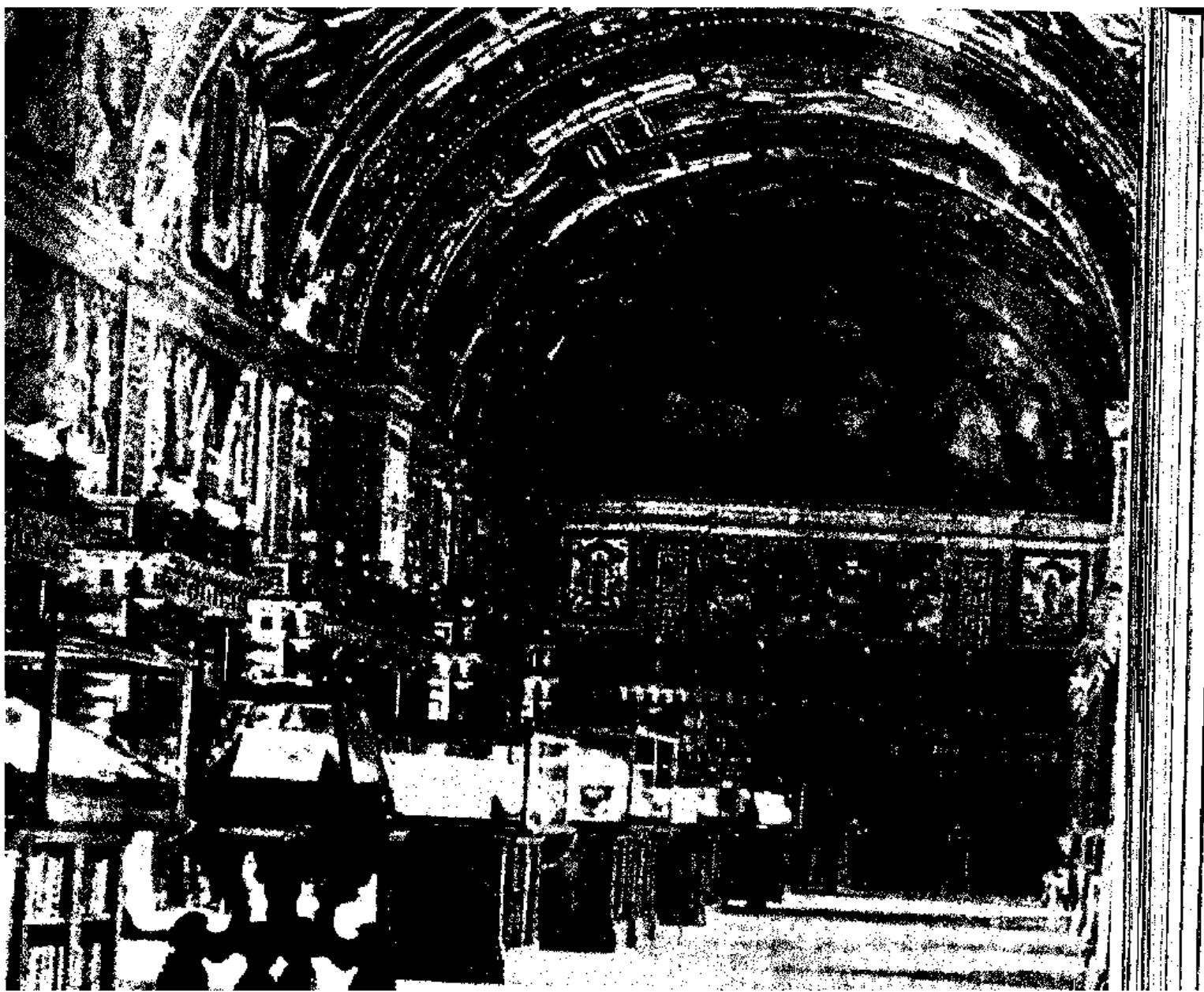
وتبقى المكتبة الملكية رغم كل هذا محجاً للراغيين في الاطلاع على كنوز الفكر الأندلسي، وفيها من المراجع ما يتناول معظم الشؤون وإن كان تاريخ المحتويات من المخطوطات العربية لم يكتب حتى الآن . ومن بين المخطوطات العربية في المكتبة أرجوزة ابن سينا (المخطوطة رقم ٨٣١) و فيها ٦٠ ورقة ، ومقالة في سر صناعة الطب للرازي (٨٣٢) الأوراق ١٢٧ - ١٣٩ ، والجامع في الطب (٨٣٩) لضياء الدين أبي محمد الأندلسي المالقي (ابن البيطار) فيها ٢٣٨ ورقة مكتوبة سنة ١٥٥٩ ، والجراحة (٨٧٦) للقرطبي

(١) تروي المصادر الغربية أن الطبيب المغاربي اخنائز سوليمانيوس (١٨١٨ - ١٨١٥) اكتشف وجود علاقة بين موته الامهات الحاملات بالحمى السريرية وقلادة أندى الجراحين الذين كانوا يتجهون من طلولات الشرف إلى الامهات للإشراف على ولادتين . وخاض الطبيب حرفاً طريفة إلى أن تمكن من اجبار الأطباء على غسل أيديهم سنة ١٨٤٧ واختفى الوباء بعد ذلك . إلا أن الأطباء نظموا حملة حتى اخذت السلطات الفرنسية وعاد الوباء إلى الظهور . انظر : Asimov, Isaac. A Choice of Catastrophes, (1981), P 246.

(٢) قدر عدد المخطوطات الخروفة بما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ . انظر مقدمة الاحتياط ، ص ٨ . في حين قدرها كوندي بـ ٣٧٥ ألف مخطوطة ، وتذهب مصادر أخرى إلى تقاديرها بمليون أو أكثر .



صفحتان من مخطوطة «الجراحة» للقرطبي أبي القاسم الوهروي المتوفى سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) وفيها عدد كبير من صور الآلات الجراحية (المخطوطة رقم ٨٧٦ مكتبة ، الاسكندرية) .



البيهقي الرئيسي في مكتبة الأسكندرية

ابن القاسم الزهراوى وفيها ٥١ ورقة ، وكتاب منافع الحيوان (٨٩٨) لابن دريم الموصلى وهي تحتوى على ٢٥ لوحة بالألوان مع خلفية من الذهب وفيها ١٥٤ ورقة مبتدأة البداية ، والجمهرة في البىزرة (٩٠٣)
لعيسى بن على بن حسن الأسدى وفيها ٣٤٤ ورقات ، وكتاب الطيبة لخابر بن أفلح الأشبيل (٩٣٦)
وهو تلخيص بطيموس وفيها ١٥٠ ورقة ، وكتاب مجھولات قسي الكرة للقاضي الجھنی يوصف
بأنه أول كتاب في حساب المثلثات الكروية الف في الغرب وفيه ٢٢ ورقة ، والجزء الثاني من كتاب
المسالك والمالك (١٦٣٥) للبکرى (١٠٤ ورقات) ، وقطعة من الاھاطة (١٦٧٣) لابن الخطيب
(٥٠٠ ورقة) ، والجزء العاشر من العقد الفريد (١٧١٠) لابن عبد ربه (٨٢ ورقة) ، وتهافت الفلاسفة
(٦٣١) لابي حامد الغزالى ، وكتاب الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة (٦٣٢) لابن رشد ،
وكتب الأسرار ولوائح الأفكار (١٨٦٣) لمحمد بن سعيد الصنهاجى ، وغيرها .

٤ - أندلسية في إسبانيا

استفاق الأسبان من غفوتهم الطويلة ليجدوا أنفسهم في القرن العشرين وقد سبقتهم كل الدول الأوروبية التي سيطروا عليها فيما مضى ، أو دبوا الرعب في قلوب حكامها السابقين فخدمت مقاومتهم للهيمنة الأسبانية أو ضحوا بخلاص المقربين إليهم لكي يكفوا شر ملوك إسبانيا عنهم ، كما فعلت الإيزيست الأولي لما قدمت السير ولتر رالي كبش فداء وخیص . والروح العسكرية التي سيطرت على القشتاليين أكثر من ثانية قرون في الماضي عادت لفرض وجودها في إسبانيا الحديثة ، وماتزال ترسانتها باقية حتى اليوم رغم الاطلالة الديمقراطية هناك . واستعراض تاريخ شبه جزيرة إيبيرية منذ القرن الثامن الميلادي يعكس ذلك التناقض الذي رفع الجزيرة من قعر التأخر إلى قمة التقدم ، ثم هو بها إلى حضيض التخلف مرة أخرى ، قبل أن تبدأ في الحيو الثقافي والعلمي نحو القرن الحالي . وهو يعكس أيضاً حقيقة أليمة وهي أن سعي الشماليين لاحتلال الجنوب لم يقوص حضارة هائلة وإنما أعاد البلاد عدّة قرون إلى الخلف ، فلم يكن حال إيبيرية في القرن الثالث عشر أفضل من حالها أيام القوط الغربيين .

وعندما اقتحم الأسبان بإنجحويش يمكن ان تتحقق الانتصارات ولكنها لا تستطيع ان تبني حضارة من اى نوع ، كان الوقت قد فات على محاولة استعادة الجهد الذي عرفه إيبيرية أيام حكم العرب . وكان من المخزن مثلاً أن إيبيرية التي عرفت في قوطية مكتبة جمعت ٤٠٠٠ مجلد في القرن العاشر الميلادي ، افتقدت الى مكتبة عامة واحدة في عاصمة إسبانيا بعد ثانية قرون من ذلك . وكان من المخزن أن إيبيرية التي كانت عاصمة العلوم أصبحت بعد عدّة قرون مكاناً يحارب العلوم ويتهم أصحابها بالهرطقة . وكان من المخزن كذلك أن إيبيرية التي اثبتت عملية تعايش أصحاب الديانات الثلاث خلال ثانية قرون ، تحولت تحت حكم القشتاليين إلى حرقه تعصب لشواء الأندلسيين المسلمين واليهود . وقد تمكّن القشتاليون بالفعل من السيطرة على الأندلس ، ولكنهم اخفقوا في الاستفادة مما حققه الأندلس ، وموضوا يقوصون دعائم الحضارة التي قامت هناك ليكتشفوا ، وأيضاً بعد فوات الأوان ، أنهم قوضوا دعائم قشتالة .

واليوم بعد أكثر من سبعة قرون على الاحتلال القسم الأكبر من الأندلس ، لم تتمكن أجزاء كبيرة من إسبانيا من استعادة الإزدهار الذي عرفه أيام الأندلس . وقرطبة التي كانت تضم حوالي مليون نسمة عندما كانت عاصمة الخلافة القرطبية لاتضم اليوم بجميع ضواحيها ثلث ذلك العدد ، وهذا ينطبق على غرناطة والمرية وماردة وابلة وغيرها من المدن التي عانت من الإهمال طوال مئات السنين . ومع ذلك فإن إسبانيا اضطربت منذ القرن الماضي للاهتمام بتراثها الأندلسي بعد ان مجد واشنطن ارفع وغيره الآثار القليلة التي بقيت للأندلسيين في إسبانيا . والتعصب الذي أظهره بعض المثقفين الإسبان للقشتالية السابقة افسح المجال في بداية القرن العشرين لمفهوم إسباني جديد لصراع قشتالة ضد الأندلسيين . وخلف الانحطاط الذي عرفته إسبانيا في القرن الماضي جاءت بوادر نهضة جديدة ظل البعض معها يردد أن الأندلسيين كانوا « مغتصبين غرة » ولكن البعض الآخر رأى في الحضارة الأندلسية حضارة إيبيرية إسبانية لا يمكن فصلها عن المعالم الحضارية التي عرفها شبه الجزيرة منذ القديم .

ومع هذا التغير في النظرة إلى الأندلس العربية بات بعض الأسباب يتطلع إلى الحضارة العربية الأندلسية بكثير من الفخر والاعتزاز ؛ إذ يرد في الدليل السياحي الرسمي الخاص بقرطبة : « وكانت قرطبة خلال العصور الوسطى ، أى بين القرنين الثامن والحادي عشر ، عاصمة إسبانيا الإسلامية وبالاط خلقاء العرب . وكانت أيضا مركزا مرموقا للحضارة والعلوم والفنون . عاشت الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية في فوادها سوية ، وامتدت سلطتها حتى شملت مناطق الشمال الأفريقي من خليج قابس وحتى غينيا ، وحياتها الراهب روسفيتا (Hroswitha) من المانيا فوصفها بأنها « زينة العالم » . وقدرطة مدينة الروح . ومساهمتها في الحضارة الأوروبية تذكر على شارحين مثل ابن ميمون وابن رشد وابن حزم . أما التركية اليونانية فمررت إلى أوروبا من خلال قرطبة » .

وما يرد في الدليل ليس مجرد دعاية لجذب السائحين . فقرطبة اليوم تعكس ماضيها الأندلسي بصورة كافية لإعادة ترميم المسجد الكبير الذي يعتبر من أهم المعالم الأثرية في إسبانيا اليوم ، ولتصبح التمايل في ساحات قرطبة لابن رشد والحكم الثاني وابن زيدون ولادة عبد الله الغافقي وحتى لابن ميمون اليهودي . وهذا الاهتمام لا يقتصر على قرطبة فهو أيضاً في غرناطة حيث يطل قصر الحمراء على الكنيسة التي تضم رفات إيزابيلا وزوجها فرناندو الخامس . وفي الشيلية حيث القصر والمأذنة الشهيرة . ومن خلال هذا الاهتمام الذي الطابع السياحي عموماً، نشأت حركة قوية للتعمق عن الذات التاريخية الإسبانية ، وبات الكثيرون يعترفون بالدور الجليل الذي لعبه الأندلسيون على مدى قرون عديدة .

وتأنّر المراجعة التاريخية في إسبانيا يعود إلى مجموعة كبيرة من الأسباب السياسية والاجتماعية والدينية . وكان الجنرال الراحل فرانكو يردّ القول : « في إسبانيا إما أن تكون كاثوليكياً أو أن لا تكون أبداً شيئاً » . وربما كان شعور مثل هذا هو الذي جعل إسبانيا فريدة بين باقي الدول الأوروبية بعدم وجود مسجد واحد فيها إلى أن جاءت الثمانينات من هذا القرن ، وسُمح ببناء مسجد صغير في مدينة مريبلة (ماريبلا) الواقعة على الساحل الجنوبي . وفي قرطبة نشأت جمعية إسلامية تمكنت سنة ١٩٨١ من الحصول على موافقة السلطات بعمارة مبنيٍّ كان يعرف باسم مسجد القاضي أبي العثمان قبل أن يحوله النصارى إلى كنيسة باسم القديسة كلارا بعد سقوط المدينة بيد فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦ . وهذا قرار يعكس « دون ريب » جانبًا من الانفتاح الذي اظهرته إسبانيا منذ حلول الديمقراطية^(١) . ولا يخفى أيضاً أن موجات السائحين التي تتدفق على إسبانيا كل عام ساهمت هي الأخرى في الانفتاح لاسيما وأن إسبانيا تحتل الصدارة بين جميع الدول السياحية الأخرى ، ويصل عدد زوارها سنويًا إلى أكثر من ٤٠ مليون شخص . وهذا الانفتاح المتزافق مع نوع من السماحة الدينية، هو الذي دفع بعض أعضاء البرلمان إلى محاولة سن تشريع يخول جميع اليهود الذين هاجروا من إسبانيا العودة إليها بكلِّ حقوق المواطنة . ولكن هذه المحاولة قد لا تكون أكثر من بادرة على حسن النية بعد قرون من الاضطهاد القاسي الذي عانى منه الأندلسيون كما عانى منه اليهود . ولكن السماحة الدينية الجديدة ليست مقصورة على إسبانيا فهناك

(١) احتضر بشتبه رسمياً في آيلول (١٩٨٢) بمحضور ممثلين عن دول إسلامية كثيرة .



قبة المجد
الكبير في قرطبة
وهي تحت الترميم

اتجاهات مشابهة في البرتغال التي سُبّحَت سنة ١٩٧٩ بانشاء أول مسجد فيها، ثم اتبعت ذلك باقامة مركز إسلامي في العاصمة لشبونة.

وإذا كان التاريخ الأسباني وضع الأندلس في موضعها غير الملائم ، فإن الكتاب الأسبان لم يتظروا عموماً إلى الثرات الأندلسي بعلوانية ظاهرة . ولاتزال قصص الفروسية القديمة موضعها محياً في أسبانيا الحديثة، وهناك الكثير من المدن الأسبانية التي تنظم سنوياً احتفالات شعبية يتصارع فيها فرقان أحدهما إسباني والآخر أندلسي ، لإعادة ذكرى أيام الفروسية الماضية . وإذا لم يتوفّر الرى الأندلسي فإن الخصوم يرتدون الرى التركي بعد أن فقد البعض القدرة على التمييز ، ونظروا إلى الأندلسيين والأتراك من وجهة النظر الدينية الحضرة . وهناك الكثير من المناسبات الأخرى التي تربط بالأندلسيين بصورة أو بأخرى ، ذلك لأن الأسبان وإن تمكناً من التخلص من الأندلسيين بشتى الوسائل ، إلا أنهم لم يتخلصوا من الروح الأندلسية التي مازالت ماثلة في تاريخهم ولغتهم وبنائهم وأحياناً في قلوبهم ، ونقلها الأسبان الغزاة معهم إلى مستعمراتهم في العالم الجديد مثل المكسيك وفنزويلا وبيرو وغيرها وحفظها أهل تلك المستعمرات إلى اليوم . بل وربما استبقيت بعض دول أمريكا اللاتينية ، مثل المكسيك وفنزويلا ، تأثيرات أندلسية فاقت في ديمومتها التأثيرات المشابهة في إسبانيا ذاتها . ولعل سبب ذلك أن المجرات إلى تلك الدول انطلقت من الأندلس الصغرى فحملت معها سمات أندلسية دائمة قلدتها المهاجرون في الأصقاع الجديدة فكانت السائدة في شكل المنازل والكثير من العادات التي لا توجد قوية في إسبانيا اليوم إلا في الجنوب أو المناطق الشرقية من البلاد .

أ - العمارة الإسلامية الباقية في إسبانيا :

عرفت إسبانيا في تاريخها الطويل معظم الحضارات الرئيسية القديمة مثل اليونانية والرومانية والعربية ، وترك أصحاب تلك الحضارات بصماتهم الواضحة على حضارة إسبانيا اليوم مثلاً تركوا تأثيراتهم على العمارة المنتشرة في أنحاء تلك البلاد . وتکاد إسبانيا تشكل قارة بمحالها فغيرها بعض أعلى جبال أوروبا وبعض أكبر وديان القارة وهي تضم عدداً كبيراً من الأنهر وبعض جف المناطق المعروفة في أوروبا . وتميز إسبانيا ، والقسم الأوروبي من تركيا إلى حد ما ، ب أنها كانت ملتقى الحضارات المسيحية والاسلامية ، ولذا فإن الحضارات تركت مجتمعة كبيرة من الآثار التي لا يمكن العثور عليها في أي دولة أوروبية أخرى حالياً . وتبين هذه الآثار يعكس السلطة السياسية والدينية التي تركت في مناطق دون أخرى . ولذا نجد أن العمارة المسيحية شائعة في الشمال بينما نجد أن العمارة الإسلامية شائعة في الجنوب . وجميع الحالات التي بذلك لدخول هذه التأثيرات على تلك لاتتحمل أيضاً من علام النجاح كما يتضح من غربة الكاتدرائية المبنية داخل حرم المسجد الكبير في قرطبة ، أو برودة قصر كارلوس الخامس وسط دفء حراء غرناطة .

والعمارة المسيحية في إسبانيا متعددة الأنواع والأحجام . بعضها قوطي أو رومانسي فرضه الذوق الفرنسي على الأسبان ، وأخر من طراز عصر النهضة والباروك الذي استورده الأسبان الشماليون من إيطاليا أو بناء في إسبانيا بعض المهندسين الأسبان الذين تدرّبوا هناك . والعمارة الأسبانية فريدة بين دول أوروبا لوجود ممطرين خليطين من فنون العمارة . أولهما الفن المعروف باسم عمارة المستعمرات ، الذي ادخله المعاهدون من تركوا ديارهم بين المسلمين والتتحققوا بالشمال النصراوي بسبب أو لآخر ، والثاني

يعرف باسم الفن المعماري المدجن وهو يجمع عدداً من الأشكال المعمارية المختلفة التي عرفتها إسبانيا مع تقدم الغزو الشمالي والسيطرة على ديار الأندلسيين . وهناك عدد كبير من الكنائس المبنية على الطراز المستعربي في ليون وقشتالة وقطالونيا وغيرها من المواقع في الشمال والشرق من إيبيريا . ومعظمها يحتوي على الكثير من التفاصيل المعمارية الموجودة في الجامع الكبير في قرطبة ، وهو أمر طبيعي لأن الجامع كان أهم مبنياً عاصمة الإمارة والخلافة القرطبية ولذا جاء المهندسون والمعماريون المستعربون إلى تقلیده في الشمال الذي رحلوا إليه . أما العمارة الدجانية فهي أكثر أنواع العمارة شيوعاً ولا سيما في الأندلس الصغرى (أندلوسيا) وفي مناطق الساحل الشرقي . ولكنها واضحة التأثير في مناطق أخرى ولا سيما طليطلة التي تعتبر أشمل مدن إسبانيا للعمارة الدجانية ، لأن فيها عدداً كبيراً من الآثار المشاهدة على هذا الطراز الإسلامي على الرغم من أن المدينة كانت أول مدينة مهمة تسقط بأيدي الشماليين .

والعمارة الإسلامية الموجودة في إسبانيا اليوم تحمل تأثيرات شامية ومصرية ومغربية مختلفة . والمسجد الكبير في قرطبة يجمع أشكال العمارة الشامية والقيروانية وهي تتجلى في خطوط الأعمدة الرخامية المزدوجة التي كانت ترفع السقف الخشبي المزین للمسجد على قاطر محدبة (على شكل حدوة الحصان) ، وتحتلط فيها الحجارة البيضاء مع الأجر الأحمر . وفي المسجد قنطرة من طراز آخر قرب المحراب وهي من النوع المتداخل المقسمة أقواسه إلى خمسة أنصاف دوائر ، تتواءب عليها مساحات بنقوش وأخرى بلا نقوش . ومن المباني المائلة في إسبانيا اليوم الجامع الأميري في سرقسطة وهو المسمي بجامع الجعفرية . كما أن كنيسة اللوز الموجودة في طليطلة ، والتي كانت مسجداً في الأصل ، تحتوى على بعض مظاهر مسجد قرطبة الكبير . ومن آثار المباني الخاصة التي تعود إلى عصر الإمارة والخلافة القرطبية قصر الزهراء الواقع غرب المدينة ، وقد بنت الحفريات الأخيرة وجود نقوش وتزيينات لا تقل اتقاناً عن تلك الموجودة في المسجد الكبير وإن كانت كلها بحالة باقية وتحتاج إلى عمليات ترميم واسعة النطاق ، أو إعادة بناء في معظم حالتها .

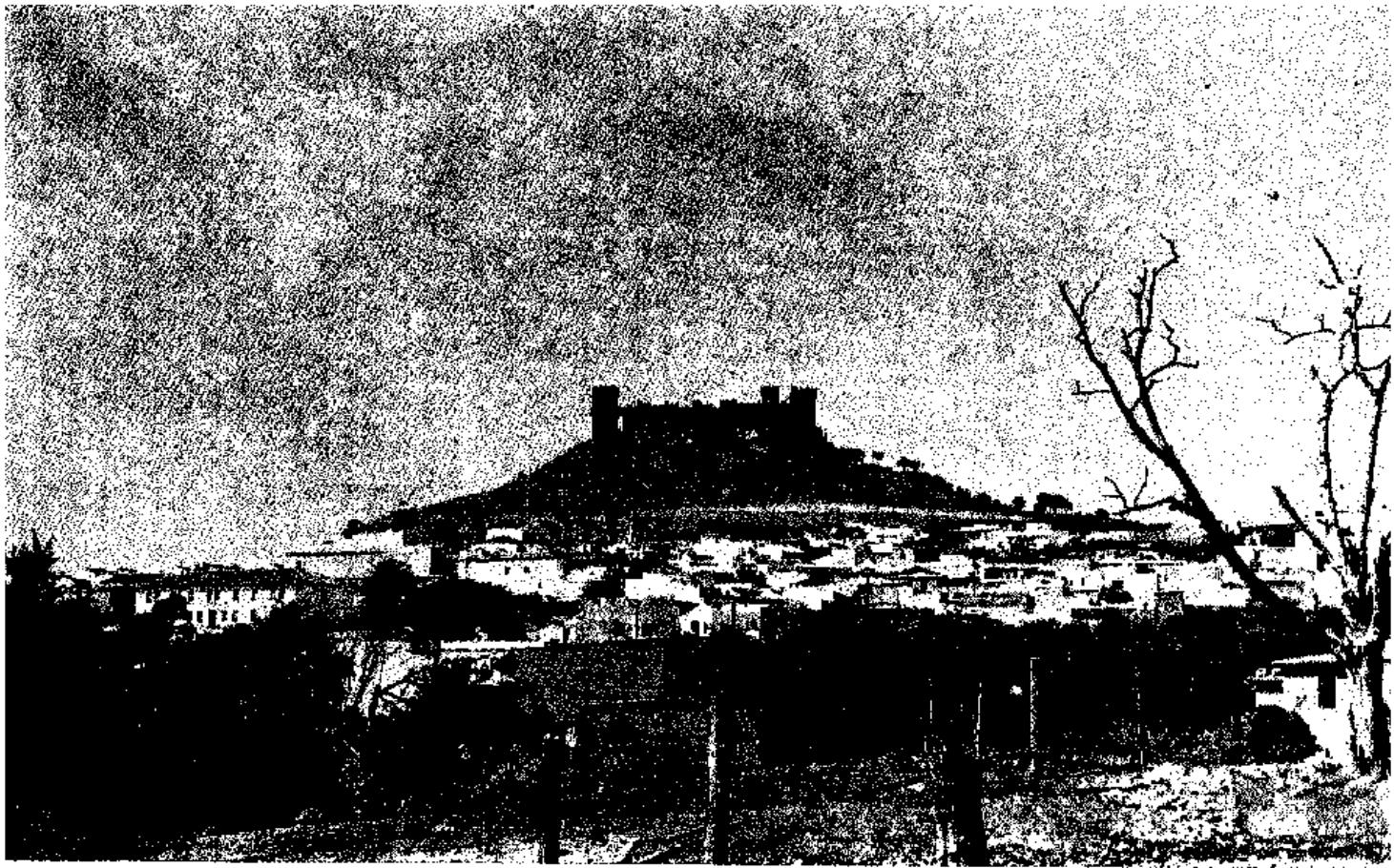
وتعكس الآثار الموجودة في إسبانيا اليوم من عهد ملوك الطوائف اهتمام أصحاب تلك الممالك باقامة الاستحكامات وبناء الأسوار لحماية مالكهم الصغيرة . وقد بادت معظم مبانيهم المدنية ، ولكن الشخصيات التي شيدوها باقية في كثير من الأسوار التي تحيط بقرطبة وأشبيلية وما فوقه وجيان والميرية وغيرها ، وهي عموماً تحتوى على كميات من الحصو وهو ما يميزها عن غيرها من الأسوار الواقية في إسبانيا اليوم . ومن عهدي المرابطين والموحدين بقيت مآذنة جامع أشبيلية المعروفة باسم «الجيجالدا» والبرج الذي بني سنة ١٢٢٠ ، وهو يحتوى على ١٢ ضلماً وكان أهم أبراج القصبة في أشبيلية . والقسم العلوي من البرج مع التوافد والشرفات السفلية ليس من صنع أندلسي إذ بني سنة ١٧٦٠ . أما أهم معلم العمارة الإسلامية المغربية فهي التي توجد في قصر الحمراء ويبقى القصر اليوم أحد أهم الأماكن في إسبانيا .

أما العمارة الدجنجية فكانت نتيجة بقاء تلك الأعداد الكثيرة من البنائين والمزبدين العرب في المناطق التي احتلها الشماليون . ولكن العمارة الدجنجية ليست خالصة اذا دخلت عليها أنماط معمارية أخرى ففرضتها أذواق الحكام والنبلاء ورجال الكنيسة في قشتالة . فكنيسة القديس خوان في طليطلة مبنية على الطراز الدجنجي ولكن فيها سمات معمارية من عصر النهضة في فلورنسا . وهناك سمات معمارية فرنسية دخلت على فن العمارة الدجنجية في بعض الأبنية القائمة اليوم في إسبانيا ، وخاصة في كنيسة بيت ميرزا والكنيسين . في طليطلة التي تحتوي أيضا على تسع كنائس أخرى مبنية على الطراز الدجنجي الذي لا يمكن تفريقه عن فن العمارة الإسلامية . والسمات المعمارية الأجنبية التي دخلت على بعض الأبنية ذات الطراز الدجنجي تتعدّم في الجنوب حيث العمارة الدجنجية خالصة ولكن السمات القوطية والقشتالية دخلت أيضا على أبنية أخرى ذات قيمة أقل . وقد هجر الملوك قصورهم ليعيشوا في الأبنية المبنية على الطراز الدجنجي وكان الفن شائعا لديهم فادخلوه على قبورهم . ولم يجد حتى أشد المتعصبين القشتاليين الذين حملوا راية اضطهاد الأندلسيين غضاضة في الاستفاده من فنونهم ومهاراتهم . وللكرديتال زمير رأى معروف في ذلك اذ يقول وهو يتحدث عن الأندلسيين : «أنهم يعتقدون الى ديننا ولكننا نعتقد الى فنونهم » والتأثير الأندلسي على العمارة واضح في المفردات العربية المستخدمة بكثرة في اللغة الإسبانية .

ومن العمارة التي مازالت باقية اليوم قنطرة قرطبة فوق نهر الوادي الكبير . وأصل القنطرة روماني ولكن يذكر أن الوالي السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد في غالاه أعاد تعميرها بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٠ (١١) ، ثم رمت فيما بعد عدة مرات وهي تطل اليوم على بعض المطاحن المبنية في عهدى الولاية والإماراة . ويذكر كذلك أن المنصور جدد قنطرة قرطبة وأقام قنطرة استجابة على نهر شنيل . ويعود إلى الخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف فضل الأمر ببناء الجامع الكبير في أشبيلية اعتبارا من سنة ١١٧٢ (٥٦٧) وبعض التحصينات المهمة فيها . كما أمر قبل سنة من وفاته (١١٨٤ / ٥٨٠) أ Ahmad بن باسة ، شيخ عرقاء الأندلس ، ببناء المآذنة (الجiralda) واتتها من بعده العريف على النماري سنة ١١٩٨ / ٥٩٤) بأمر أبي يوسف يعقوب (المنصور) . وكانت دائمة أشبيلية بيت في مكان الجامع الكبير واستخدمت بعض مواد بناء الجامع في تشييد قصر أشبيلية .

١ - القلاع العربية في إسبانيا :

يقال أن عدد القلاع التي بناها الأندلسيون بلغت ٤٠٠ قلعة لم يتبق منها اليوم سوى بضع قلاع ولكنها ، على قلتها ، تقدم فكرة وافية عن فن العمارة العسكرية وتفوقها على العمارة الأفريقية . ومن أشهر القلاع القائمة اليوم تلك الموجودة في غرناطة والمرية ومالقة والمنكب والمدور والوادي (قرب أشبيلية) . وفي معظم المدن الرئيسية الجنوبيّة أسوار وتحصينات وبوابات من مختلف العهود الأندلسية مثل أسوار قصبة الحمراء في غرناطة وأسوار الطرف الجنوبي من قرطبة وبوابات طليطلة والمدينة الملكية وبلنسية وغيرها . ومعظم القلاع التي يراها السائح اليوم مشادة في القرنين الرابع عشر . وقلما تخلو منطقة مهمة أو مفترق طرق رئيسي في إسبانيا من قلعة أو بقايا قلعة قديمة ، ولذا يسهل الاعتقاد بوجود ذلك العدد الكبير من القلاع لاسيما وأن قشتالة ذاتها تعنى بالأسبانية « القلعة » .



قلعة المدور قرب قرطبة

وأعمال الحفريات في قصر الحمراء كشفت حتى الآن عن معظم المعالم المتبقية للأبراج والأسوار التي كانت تحيط بالقصر في السابق . ويعتقد الآن أن ٣٢ برجاً رئيسياً كانت تحيط بالقصر أيام بنى الأحراء . ولكن الأسبان هدموا بعض الأبراج ، ودمر زلال ضرب المدينة بعضها الآخر ، وأزال كارلوس الخامس جزءاً من القصر ليبني قصراً على طراز أبهية عصر النهضة . وكان هذا لم يكن كافياً إذ وقع انفجار ضخم خارج القصر سنة ١٥٩١ أدى إلى الحريق بعض الأضرار به ، ثم حاول الفرنسيون نسف القصر عند انسحابهم من المدينة سنة ١٨١٢ ، ولكنهم لم يقووا إلا أجزاء منه . ونفي قصر الحمراء والقصبة مهملين فترة طويلة إلى أن جدد المؤلف الأميركي واشنطن ارفع الاهتمام به سنة ١٨٢٩ ، وبدأت أعمال الصيانة الجدية بالقصر اعتباراً من سنة ١٨٦٢ .

ومن القلاع القليلة التي مازالت تحتفظ بمعظم شكلها القديم تلك المعروفة باسم «المدور» (Almodóvar del Rio) وتحتل موقعاً استراتيجياً فوق جبل يبعد عن قرطبة مسافة ٣٢ كيلومتراً على الطريق القديم بين عاصمة الخلافة وأشبيلية . وتعتبر القلعة أفضل نموذج للعمارة العسكرية الأندلسية المشادة على الصخر ، وهي تطل على رقعة شاسعة من الأرضي ، وتريض في المنحدر الشمالي منها بلدة تحمل الاسم ذاته . والمدور قلعة حصينة أدخلت عليها تحسينات قليلة ولكن صياتتها كانت ممتازة

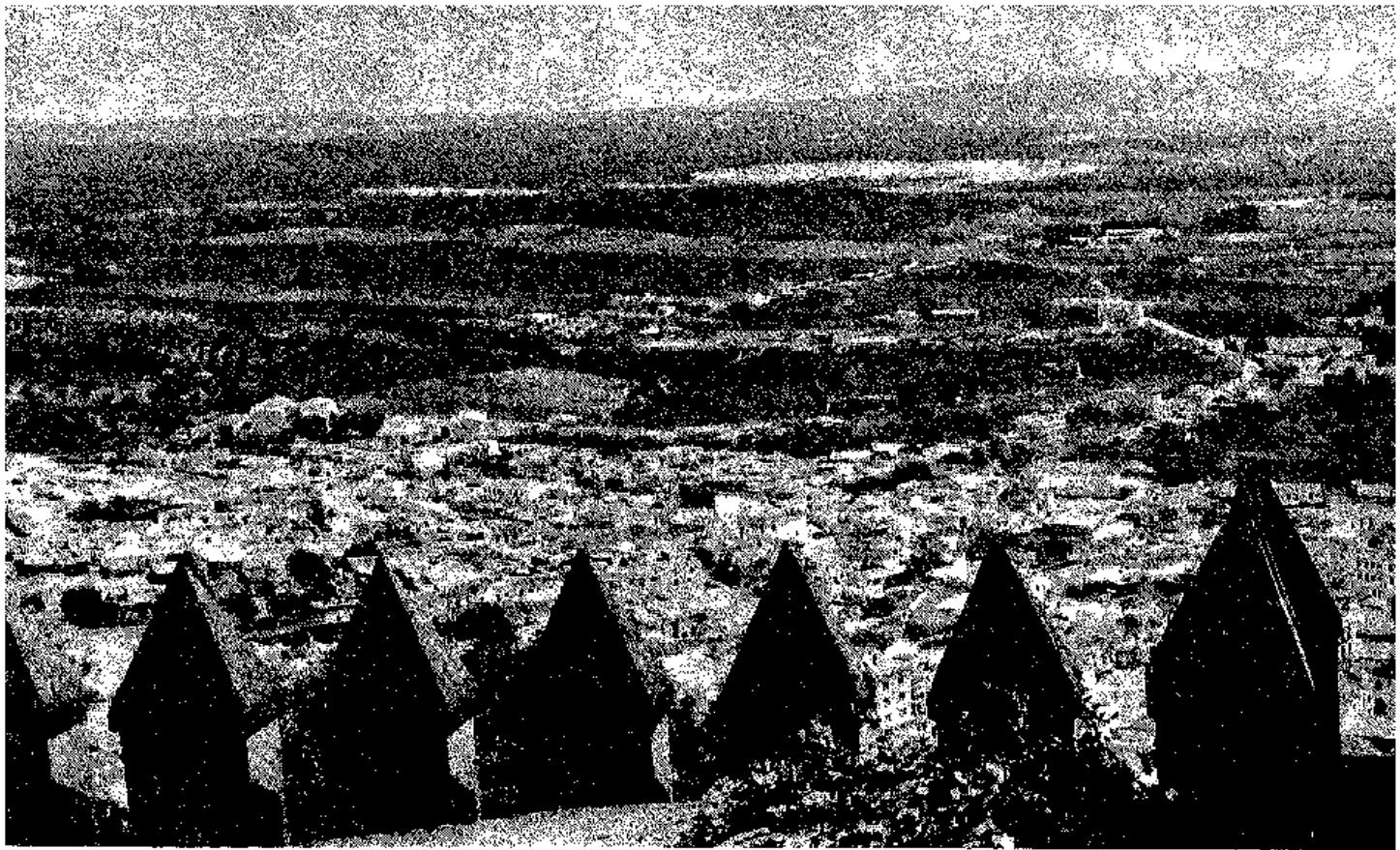


أحد الأبراج الداخلية في قلعة الوادي

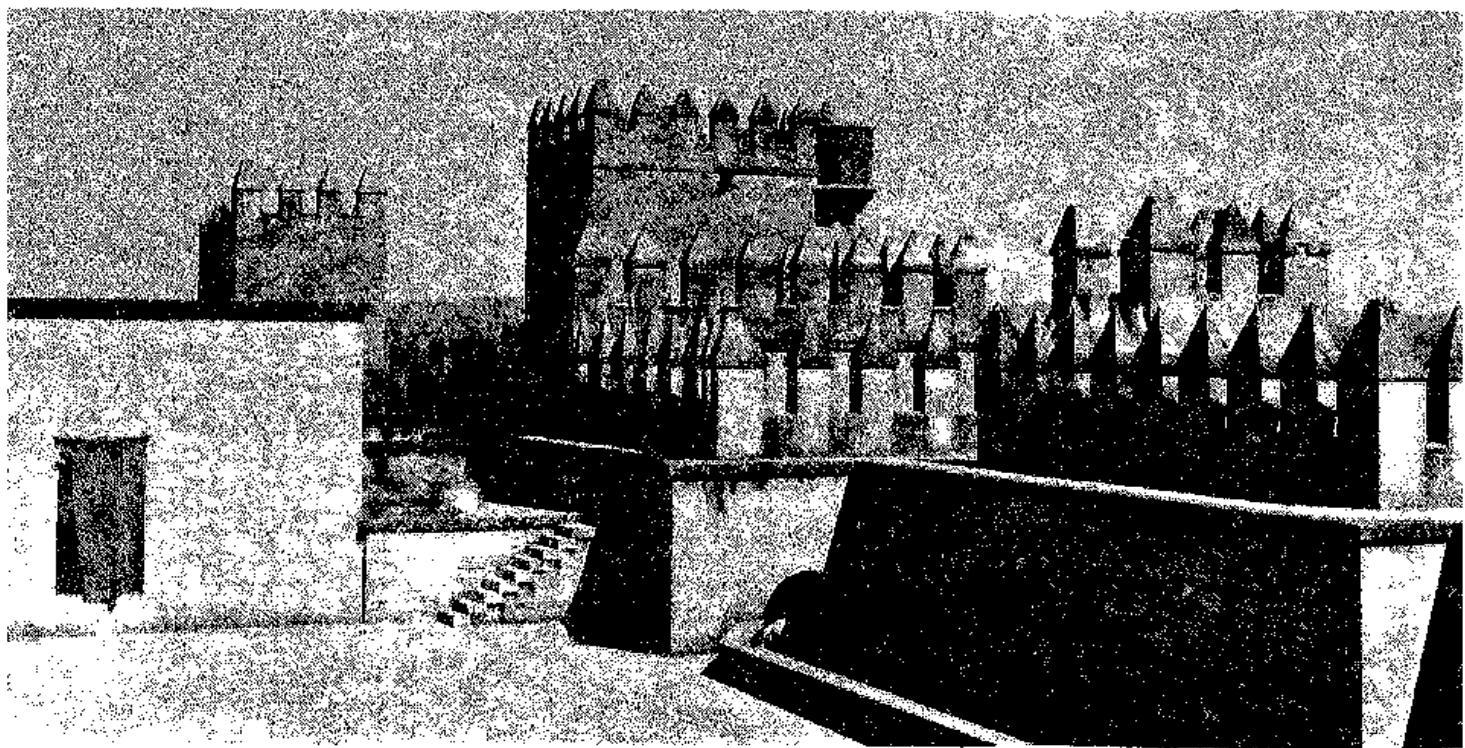
ونحاشة منذ أن حولها المثلث بدره القاسي إلى مستودع للمغائم التي كسبها من العرب والقشتاليين الآخرين على حد سواء . وتسكن القلعة اليوم أسرة إسبانية ثرية بنت على طرفها الجنوبي مسبحا . ويتوجب ترتيب زيارتها مسبقا مع مصلحة السياحة في قرطبة .

وقلعة الوادي أو قلعة « وادى عر (Guadaira) » مثال جيد آخر على قلاع الداخل إلا أنها مبنية من التراب والجص ، ولذا أصابها تلف كبير وتعنى السلطات البلدية إلى إعادة ترميم القلعة الواقعة على بعد ٦٦ كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية ، لاستخدامها مركزا للالحتفالات الشعبية في المستقبل . والقلعة اليوم تحيط فوق مرتفع يطل على مدينة بنفس الاسم ، وتلتف بمساكنها حول أبراج القلعة وأسوارها وتتدخل مع القلعة في بعض أرجائها . ويبعد أن المدينة ذات أصل فينيقي عرفت باسم عنبة ، ثم جاء العرب فعمروا القلعة وبيّنوا أن أخذها فرناندو الثالث سنة ١٢٤٦ . وفي مراحل لاحقة أهدى ألفونسو الحادي عشر القلعة إلى امرأة تدعى ليونورا دي قسان واستخدمت فيما بعد سجنا . ويمكن اليوم مشاهدة مستودعات الغلال والآبار في القلعة إلا ان عوامل الجو والإهمال فتتت أسوارها الداخلية وأبراجها .

وتوجد كذلك بعض القلاع والقصون المهمة الأخرى في الأندلس الصغرى منها قلعة المقلة (أو مقلة غرناطة Moelin) التي تقع على أربعة كيلومترات في الطريق المتفرع عند الكيلومتر ٣٠ من الطريق الذي يصل غرناطة بقرطبة . وسلوك الطريق الرئيسي هذا يقودنا عند الكيلو متر ٥١ إلى مدينة القلعة الملكية التي تطل عليها قلعة معروفة باسم « الموت La Mota » ترتفع فوق صخر صخرى وهي قلعة حصينة استخدمت صخور المرتفع أسوارا لها .



مدينة المدور كما تبدو من القلعة



جانب من أحد الأسوار الداخلية من قلعة المدور



مدينة بني زين بابتها التي ماتزال تحمل الطابع الأندلسي .

وتعتبر قلعة المرية من أشهر قلاع الساحل الجنوبي في أسبانيا ، وقد عمرها عبد الرحمن الثالث وجرى فيما بعد توسيعها . وضخامة القلعة تعكس الأهمية التي اتسمت بها المدينة التي كانت مقر إمارة البحر وأنشط ميناء استخدم إلى جانب دانية وقرطاجنة ولقت وبوة لنقل البضائع وصناعة السفن السفريّة والحراريق وانطلاق الأساطيل للدفاع أو الغزو . و تعرضت القلعة لخراب لحق بها اثر زلزال سنة ١٥٢٢ وتهدم بعض أقسامها ولكن رمت فيما بعد ومازال أعمال الترميم مستمرة . وفي القلعة أشجار وزهور تذكر بقلعة المنكب المطلة على المدينة ، والأخيرة تستخدم لأغراض الاحتفالات الشعبية وعروض الرقص والمسرحيات وما شابه . وعرفت قلعة مالقة مجدًا عظيمًا في الماضي ولكن الزمن والأهالى نالا من تلك القلعة الحصينة ، وجرت أعمال ترميم فيها ولكن القسم المعتمد نحو أعلى الثل مايزال يشتكي الإهمال . وفي طريق بقایا قلعة عربية قديمة ، ولكن أهم ما فيها الأسوار التي بقيت في حالة جيدة وأهمها الواقعة عند مدخل المدينة من ناحية مالقة . وغالبا مايشاهد رسامون أجانب ينقولون صور أسوار المدينة التي تحمل اسمها نسبة إلى طريف ابن مالك التخعي . ومدينة السهلة (أو بني زين Albarraíñ) شرق طروبل تكاد تكون قلعة بحالها نظراً لوعورة الوصول إليها عبر وادي الفياض (Rio Guadalaviar) ولكن ما تبقى من أسوار القلعة قليل وبصعب الوصول إليها . ومن القلاع التي كانت مهمة على الساحل الشرقي قلعة طبرنة (Tabernas) على بعد ٤ كيلومترًا شمال المرية في الطريق إلى لقنت . وكانت القلعة أهم قلعة المنطقه إلى جانب المريه ولكنها اليوم أطلال .

خاتمة

عسير التفكير في الأندلسيين ومصرهم دون الاحساس بنوع من الرهبة لسبعين رئيسين : أولئما أن ضياع الأندلسيين كان شاملًا وكأنهم لم يعمروا شبه الجزيرة الإيبيرية لأنسحوا أجزاء شاسعة من فرنسا ، ولا كانوا أعظم شعوب الأرض ذات يوم . وثانيهما أن ماحدث للأندلسيين يمكن أن يتكرر ثانية ليس في مكان ما من أطراف الوطن العربي وإنما في وسطه ومركوه .

وكان بدأت الأندلس ثغراً من ثغور الجهاد فانها انتهت ثغراً قصياً . وبعد تسعه قرون من الانجازات المائة والمئتين انضم الأندلسيون الى شعوب بائدة أخرى مثل الفراعنة قبلهم، والأزرق والأنكا من بعدهم، وبخليطهم العرب والعثمانيون والفرنسيون عندما خذلوا أنفسهم بادىء ذى بدء ، وربما لم يكن للفروعية حظ كبير في الاستمرار شعباً وسط عالم تغيرت معاناته ودخل المرحلة الأخيرة من تكوينه . ولم يكن للأزرق والأنكا نصيب في البقاء وقد غرّاهم أسبان ارفع منهم حضارة وأشد فتكاً ، ولكن الحديث عن الأندلسيين يتناول شعباً كاملاً كان أرفع شعوب الأرض حضارة وأقدرها على الاستمرار وسط كل الظروف السلبية التي فرضوا بعضها على أنفسهم أو قدمها الاحتلال الاخير في الاسلام ، أو جاءت نتيجة تدفق أمم أوروبية من الورعين المجاهدين أو المزروقة الذين أعمت ثروة الأندلس بأبصارهم ، وحول الجشع خوفهم الى قوة .

ورب قائل أن تناحر الأندلستين وزعة حكامهم للاحتفاظ بكلّهم ، بعض النظر عن السبل ، هو السبب في تسقوط الأندلس وتبدل شعبيها ؛ وسائل أن الأندلس قامت كياناً غريباً عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن يحتمل ديناً غير النصرانية أو شعباً غير الأوربيين ؛ وسائل أن انفصال الأندلس عن بقية الوطن العربي حمل إليها بنور النقاء ، أو أن تلك الدولة ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف الوطن العربي وتناهشته الشعوبية والمؤامرات وتکالب اعداؤه عليه من كل جانب . وربما زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا لأنهم كانوا مستعمرین ، وكان عليهم الجلاء عندما توفر للشمال النصري العزم على طردتهم ، أو أن الوجود الاسلامي في شبه جزيرة ايبيرية كان تخريدة ثمت وتقوت واستمرت وأنجوت ، ثم هبطت ونحارت قواها عندما تحلت عن الأسس التي قامت عليها .

ولكن لماذا استمرت السيطرة الإسلامية على تركيا والقسطنطينية ورأت عن الأندلس؟ لماذا يكون الجرمان أهل البلاد الأصليين وهم لم يكثروا في الأندلس ثلث عمر سيرة الأندلسيين في شبه الجزيرة؟ ولماذا يكون لسكان قمم قفتيرية مالم يسمح به لأهل وديان الجنوب؟ وهي مجرد أسئلة لن تعيد الأندلس ولن تلم شمل أهلها، ولكنها تساهم في رسم صورة المأساة التي لم يعرف الوطن العربي مأساة بحجمها من قبل ، وقد لا يعرف مأساة مشابهة لو تباه الخلصون اليوم . واختلاف الأسئلة والاجابات لاينفي حقيقة واضحة وهي أن الأندلس العربية الإسلامية تقوضت كاسق وتقوضت كل المالك والأمبراطوريات التي عرفها العالم منذ أقدم العصور . فلم يكن هناك خطأ للفتح العربي ولم يكن هناك خطأ مسبق لأنفسه عن الأندلس أو بلاد فارس وغيرها من المناطق والأمم التي حضرت في فترة من تاريخها للسلطة العربية الإسلامية . وإذا كانت الأجيال عن سبب صعود دون غيره صعبة ، فإن العثور على أجابة عن سبب هبوطه أكثر صعوبة . غير أن بعض الشعوب تضع السيف جانبا في مرحلة من مراحل تطورها لتبني الحضارة ، وحين يتوقف زخم الاندفاعة الأولى يحدث التوقف ثم الانحسار فيكثر الفساد وتستريح الأجسام والمدم ، ويستشري الضعف وتزداد بساتين النار في وهي عند ابن خلدون أحدى سمات الهبوط . وحين تقضي الحضارة إلى الوقود الذي تحتاج إليه لتناثرها غواها فإنها تقلب على ذاتها وتلتئم نفسها قطعة ، وتعطي أعداءها فرصة الفو وابتلاع ما تبقى منها . ويتعجل هذه النهاية انفراد الحكام بالسلطة واضطهادهم لشعوبهم فيفقدوا مقومات الاستمرار وينغمسو في الرذيلة والفسخ .

هذه قصة الأندلس وملحمة بأنجح الانتصارات والمذايم ، سوداء وبضاء . أما سيرة الأندلسيين المواركة فهي سوداء قاتمة منذ استسلام غرناطة وحتى القرن الثامن عشر . ولكنها ليست قصة استكانة وضعف بل قصة مقاومة استمرت عشرات السنين وتتصدى لاعلى قوى الأرض في القرن السادس عشر ، وبطش بهم أهل قشتالة شر بطشة فاستبعدهم وأذلوكهم وأحرقوهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من اذابة الجميع وحمل المواركة السلاح مرتين ليدافعوا عن وجودهم ومواطنتهم ودينهم وعروتهم . وحين أخفق القشتاليون في قهرهم تماماً جاؤوا إلى نفيهم فكان في ذلك سقوط الامبراطورية الأسبانية .

وفي مدينة قلعة أيبوب اليوم حي يقال له حي المواركة (Morería) لا يشعر بعض أهل المدينة برغبة في ارشادك اليه . وحين تصل إلى الحي فانك ستتجدد مجموعة كبيرة من المساكن المبنية في الكهوف كانت بعض المناطق التي عاش فيها الأندلسيون المواركة . وهذا الحي، إضافة لأحياء مشابهة كثيرة ، يقدم فكرة صغيرة عن نوع الحياة التي عاشها المواركة في أرضهم واجدادهم ، ولكن صورة الاضطهاد الحقيقة غامضة شوتها السنين وأقلام المؤرخين المأجورة ، وبقيت تفاصيل قليلة تشهد بقصوتها . ولكن العنف لا يولد إلا العنف ، وإذا قل عدد التنصاري في المغرب العربي ، أو انعدم وجودهم فيه ، فإن الأجيال على هذه الظاهرة موجودة في إسبانيا ، حيث لم تبق السلطات القشتالية المتعاقبة على مسلم .

وأيا كانت النظرة إلى التاريخ الأندلسي الموركي فإن الخسارة ماثلة فيها . فهناك فقد الوطن العربي دولة تكاد تكون ، لاتساعها ونهايتها وخیراتها ، معادلة لنصف أراضي الفتح العربي . وقد أرضا رعايا تخدم

فقدانها لكي يحفظ المشرق وحده . أما أوقع الخسائر فكان تضييع شعب بكماله : « ليس هناك فناء أكمل من فناء الإسبان (الأندلسيين) المواركة . اين هم الأن ؟ أسألوا سواحل المغرب وصغارها . اختفت البقية المتبقية من تلك الامبراطورية العظيمة يوما بين سكان أفريقيا وتوقفت عن كونها أمة . ولم ترك مجرد اسم واضح خلفها ، رغم أنها كانت أمة واضحة المقومات طوال ثمانية قرون . الوطن الذي تباهموا واحتلوه فترة طويلة من الزمن يرفض أن يعرف بهم إلا غزوة مغتصبين . وبضعة آثار باقية اليوم هي كل ما يخلقوه ليشهد على قوتهم وسلطانهم ، تماما كما الصخرة العائمة في الداخل البعيد تشهد بمحجم الطوفان الضخم الذي طبأها . وهذه هي الحمراء ! تنصب إسلامي وسط أرض مسيحية ، قصر شرق بين وجهة قوية من الغرب ، لحظة رشيقه لشعب شجاع ذكي غزا وحكم وتطور ومضى » (١)

ولم يكن حظ الأندلسيين المواركة في بلاد المنفى أفضل في بعض الحالات من حظهم في وطنهم المطروحين منه . وترك وصف ذلك للمقربي : « ... فتسلط عليهم الأعراقب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونبوا أموالهم ، وهذا بلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثراهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وببلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيبة (وقيرة) الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الأن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القدسية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على مواصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوراثين » (٢) .

أهم الأحداث الأندلسية والدولية

الحدث	م	الحدث	م
موسى بن نصیر يبعث بسرية استكشاف من ٤٠٠ راجل و ١٠٠ فارس بقيادة طريف بن مالك (ملوك) التخلي في أربعة مراكب وزواله في جزيرة بلومة التي عرفت فيما بعد باسمه طريف أو بالاسم الأسباني « طريفة » في أقصى جنوب ايبيريا .	٩١	٧١٠	
نيسان / ٥ رجب . طارق بن زياد والي بطجنة يعبر الرقاق من سبتة الى الطرف الايبيري على رأس سبعة الاف مقاتل جلهم من البربر . طريف يلحقه بخمسة الاف جندي فيما بعد .	٩٢	٧١١	
١٩ تموز / الأحد ٢٨ رمضان . القاء طارق مع جيش القوط الغربيين بقيادة روذرغور (لنريق) ونشوب معركة وادي برناط (بكة أو لكة) التي أسفرت عن انتصار طارق بعد قتال استمر ثانية أيام (حتى ٥ شوال) وقتل (روذيك) أو غرق .	٩٢	٧١١	
بداية عهد فتح الأندلس الذي يستمر أربع سنوات حتى ٩٥ / ٧١٤ .	٩٢	٧١١	
نيسان / شوال . مغيث الرومي يفتح قرطبة التي أصبحت العاصمة بعد نقلها من أشبيلية في عهد الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصر .	٩٢	٧١١	
حزيران / رمضان . موسى بن نصر (٦٤٠ / ٧١٦ - ٩٧) يعبر الرقاق (العدوة) على رأس ١٨٠٠ مقاتل لاستكمال فتح الأندلس .	٩٣	٧١٢	
بداية عهد الولاية الذي استمر ٤٢ سنة (حتى ٧٥٦ / ١٣٨) وحكم فيه ٢٢ واليا .	٩٥	٧١٤	
تشرين الأول / الثاني (رمضان) . موقعة بلاط الشهداء التي انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الفاقهي الوالي بعد ١٠ أيام من المعارك .	١١٤	٧٣٤	
سقوط الدولة الأموية في الشام .	١٣٢	٧٥٠	
بيين الثالث ابن شارل المعروف « بالمطرقة » يسترد مدينة نوبونة من المسلمين .	١٣٣	٧٥١	

١٤ آب / ١ ربيع الأول أبو المطرוף عبد الرحمن بن معاوية وحفيد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين ينزل في مدينة المنكب جنوب الأندلس .	١٣٨	٧٥٥
١٥ أيلار / ١٠ ذى الحجة . نشوب معركة المصارة (المسارة) التي انتهت بانتصار عبد الرحمن (الداخل وصقر قريش) على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري (جده عقبة بن نافع) والصميم بن حاتم ودخوله قرطبة .	١٣٨	٧٥٦
بداية بناء المسجد الكبير في قرطبة وهو اليوم من أهم الآثار في إسبانيا .	١٧٠	٧٨٦
أب / أوائل ذى الحجة . هجوم النورمان (الأردمانيون / الجوس) الأول على الأندلس .	٢٢٩	٨٤٤
استخدام ٣٠٠ مركب لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة واستكماله سنة ٢٩٠ / ٩٠٣ .	٢٣٤	٨٤٨
ملكة اشتورش الشمالية تبدأ في التو رغم العلاميات العسكرية الإسلامية .	٢٣٥	٨٥٠
٣٠ أيلول / ٢٥ ربيع الآخر . وفاة عبد الرحمن المولود في الشام سنة ٧٣١ / ١١٣ من جارية بربيرية اسمها راح تنتمي لقبيلة نفرة . هجوم النورمان الثاني على الأندلس في ٦٢ مركبا .	١٧٢	٧٨٨
بدء عملية توطن سهول هبر دويرة بنصارى المالك الشمالية والأوروبيين .	٢٤٥	٨٥٩
ملكة اشتورش تسيطر على حوالي خمس مساحة شبه جزيرة إيبيريا . المالك الشمالية تستكمل توطن بعض المدن وتختل المناطق الواقعة شمال نهر دويرة وتغلق الطريق الرئيسي بين سرقسطة وشترقه .	٢٩٩	٩١٢
وقوع مجاعة خطيرة في الأندلس لحقتها مجاعة عظيمة في قرطبة سنة ٣٥٣ / ٩٦٤ .	٣٠٢	٩١٥
وقعة الخندق عند مدينة شنت منكش (شلمنقة) وهزيمة الناصر لدين الله .	٣٢٧	٩٣٩
أبو عامر محمد بن عبد الله (المعافري / المنصور وال الحاج المنصور) وقد تمكن من السلطة بعد وفاة الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٩٧٦ / ٣٦٦ ، يغزو قشتالة ويتحدى القوات المتحدة لمالك ليون وقشتالة ونافار (نهارة) في المعركة التي جرت قرب روطة اليهود .	٣٧٠	٩٨١
يأس المالك الشمالية من تحقيق أي انتصار على المنصور يسفر عن رضوخ ملوكها للسيطرة الإسلامية ويقدم ملك نافار (شانحة الثاني) ابنته إلى المنصور وهي « عبدة » التي حملت له ابنه شنجول (٣٩٩ / ١٠٠٩) .	٣٧٢	٩٨٢

٣٨٧	٩٩٧	المنصور يدمر مدينة شنت يعقوب (ياقب) أو «ستياغو» شمال غرب ايرية .
٣٨٩	٩٩٩	المنصور يحتل مدينة بابلونة (بابلونة) عاصمة الباسك (البشكتش) .
٣٩٠	١٠٠٠	المنصور يهزم قوات شانجه غرسيه قرب قلعة المنصور جنوب غرب مدينة سرية .
٣٩٢	١٠٠٢	وفاة المنصور في مدينة سالم وتسلم ابنه (المظفر) السلطة (١٠٠٢ - ٣٩٩ / ١٠٠٩)
٤٠٠	١٠٠٩	بداية عهد الطوائف الذى استمر حتى إسلام المرابطين ستة سنين (٤٨٤ / ١٠٩١).
٤٠٣	١٠١٣	وقوع الفتنة البربرية وتخريب قرطبة .
٥٤١	١٠٥٩	النورمان يسلخون الجنوب الإيطالي عن الامبراطورية البيزنطية .
٤٥٦	١٠٦٤	النورمان يحتلون مدينة برشتر الشمالية مما أدى إلى وقوع مابين ٤٠٠ و ١٠٠٠ قتلى أو أسرى أو يصف ابن حيان الذى عاصر تلك الفترة الخطيب بأنه : « أعظم من أن يوصف أو يتفصى ». استعادة المدينة سنة ١٠٦٥ / جمادى الأولى ٤٥٧ .
٤٥٦	١٦٠٤	فرناندو الأول يحتل مدينة قلمرية وبطرد جميع المسلمين من المناطق الواقعة شمال نهر دويرة .
٤٥٨	١٠٦٦	وليام الفاتح النورماني يهزم الانجليز في موقعة هيسنجز . (١٤ أكتوبر)
٤٦٣	١٠٧١	السجلوقيون يهزمون بيزنطة في معركة ماتريكرت ويعرضون الكنيسة الشرقية للخطر .
٤٦٧	١٠٧٥	الكنيسة الكاثوليكية تقدم على احراف اول الصهايا بسبب اختلاف معتقداتهم الدينية .
٤٧٣	١٠٨٠	الفونصو السادس يوجه جهوده لاحتلال طليطلة بعد نشوب الأزمة الداخلية فيها .
٤٧٤	١٠٨١	بداية حصار طليطلة عاصمة الثغر الأوسط واخفاق ملوك الطوائف في نجدتها .
٤٧٨	١٠٨٥	٢٥ ايار / محرم . استسلام طليطلة لأنفونصو السادس واخفاق المجممات التي شنت عليها فيما بعد لاسترجاعها .
٤٧٩	١٠٨٦	٢٠ حزيران / منتصف ربيع الأول . عبر سلطان المرابطين يوسف بن تاشفون إلى الأندلس استجابة لطلب بعض الملوك الطوائف ، ولاسيما المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بعد استفحال خطر الفونصو السادس ومعالاته في طلب الجزية وتسليم الحصون والقلع .

٤٧٩	١٠٨٦	٢٣ تشرين الأول / الجمعة ١٢ رجب . نشوب معركة اللاقعة التي استمرت يوما واحدا ، وانتهت بهزيمة الفونصو السادس وتسمية يوسف بن تاشقين « أمير المؤمنين » .
٤٨٤	١٠٩١	بداية عهد المرابطين بعد تصفيه ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد بن عباد الذي نفي إلى أغمات وتوفى فيها ، وانتهاء عهدهم سنة ١١٢٦ / ٥٢٠ .
٤٨٧	١٠٩٤	١٦ حزيران / الخميس منسلخ جمادى الأولى . السيد القبيطور (رودريلغو ديات دي بييار) يحتل مدينة بلنسية بعد حصار استمر ٢٠ شهرا إلى حين استعادتها سنة ١١٠٤ / ٤٩٥ بعد أن احرقتها شحنة زوجة السيد .
٤٨٨	١٠٩٥	الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومينوس يبعث إلى البابا إربانوس (إربان) الثاني يطلب منه العون ضد الأتراك .
٤٨٨	١٠٩٥	٢٦ تشرين الثاني . إريان الثاني يلقى خطبته الشهيرة في كليرمونت معلنا بداية الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (الأندلس) .
٤٨٩	١٠٩٦	الحملة الصليبية الأولى تبدأ بتسير حوالي نصف مليون فلاح فرنسي يرجع منهم ٢٥ ألفا فقط ، ثم بحملة عسكرية قادها النبلاء . هزيمة الشمالين في معركة كنثرة .
٤٩١	١٠٩٧	١٥ تموز . سقوط القدس بيد الصليبيين بعد حصار استمر خمسة أيام .
٤٩٢	١٠٩٩	٢٩ أيار / ١٦ شوال . المرابطون يحققون انتصارا جديدا في معركة أقليش (أقلجع) قرب طليطلة .
٥٠١	١١٠٨	المرابطون يستردون الجزائر الشرقية بعد سنة من قيام برشلونة وجنة وبيرا (بيشة) باحتلالها .
٥٠٩	١١١٦	١٩ كانون الأول / الأربعاء ٤ رمضان . الفونصو الأول « المخارب (أذفونش ابن ردمير ملك أرغون) يحتل سرقسطة بعد حصارها سبعة أو تسعه أشهر .
٥١٤	١١٢٠	آخر حزيران / الخميس ٢٤ ربيع الأول هزيمة أبي إسحاق إبراهيم ابن يوسف بن تاشقين ، أخي الأمير المرابطي على بن يوسف في معركة قتندة (قرب سرقسطة)
٥١٩	١١٢٥	٧ كانون الثاني . الفونصو الأول يتجه إلى غرناطة لاحتلالها بناء على طلب النصارى المعاهدين .
٥٢٣	١١٢٨	البرتغال تعلن استقلالها عن قشتالة وتبني مملكتها فيما بعد على حساب قشتالة والأندلس .
٥٢٨	١١٣٤	رمضان . هزيمة الفونصو الأول الأرغوني في وقعة افراغه قرب لاردة . قيام ١٤ مملكة في الأندلس بعد انهيار دولة المرابطين .
٥٣٨	١١٤٤	

٥٤٠	١١٤٥	بداية عهد الموحدين الذي انتهى سنة ١٣٢٣ / ٦٢٠ .
٥٤٢	١١٤٧	الفونصو اوريكيل البرتغالي يستولى على لشبونة (اشبونة) بمساعدة قوات صلبيّة من الانجليز والمولنديين والألمان في طريقها إلى المشرق .
٥٤٢	١١٤٧	الحملة الصليبية الثانية تبدأ بتوجه الالماني كونراد الثالث والفرنسي لويس السابع إلى المشرق دون تحقيق نتائج . وتستمر حتى سنة ٥٤٤ / ١١٤٩ .
٥٤٣	١١٤٨	الخميس ١٦ شوال . سقوط مدينة طرطوشة على يد رامون برنجير الرابع وحلفائه من فرسان الهيكل بعد حصار استمر ٤٠ يوما .
٥٤٦	١١٥١	الفونصو السابع بهاجم قرطبة وجيّان دون تحقيق أي انتصار .
٥٥٢	١١٥٧	الموحّدون يستعيدون المرية من الشماليين بعد استسلام حاميتها .
٥٥٥	١١٦٠	البرتغالي الفونصو اوريكيل يستولى على قصر الفتح (قصر اي دانس) بمساعدة القوات الصليبية المتوجهة إلى المشرق .
٥٦٧	١١٧٢	رجب . الشماليون يحتلون لاردة الواقعة في أقصى الشمال الشرقي .
٥٧٥	١١٧٩	البابا يعترف بالبرتغال مملكة مستقلة عن قشتالة .
٥٨٣	١١٨٧	صلاح الدين الايوبي يهزم الصليبيين في معركة حطين ويستعيد القدس .
٥٨٥	١١٨٩	شن الحملة الصليبية الثالثة وغرق فريدرريك الأول (بربروسا) . الحملة تستمر ثلاث سنوات حتى ١١٩٢ / ٥٨٨ .
٥٨٨	١١٩٢	البابا سيلستين الثالث يرسل ابن أخيه الكاردينال غيروغو لحت الشماليين على القتال ويعقد الصلح بين قشتالة واراغون، والسلام مع ليون . بناء الأرك .
٥٩١	١١٩٥	الخميس ٢٥ جمادى الآخرة . الخليفة الموحدى أبي يوسف يعقوب المنصور يعبر إلى طريف فقلعة رباح بعد استفحال خطر الفونصو الثامن .
٥٩١	١١٩٥	١٨ تموز / الأربعاء ٩ شعبان . هزيمة الفونصو الثامن القشتالي في موقعة الأرك (الأركة) بعد يوم واحد من القتال .
٦٠٠	١٢٠٤	القدسية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ومقر الكنيسة الشرقية التي استعانت على الغرب بعد حصارها سنة ٦٧٣ (٥٣) و٧١٨ / ٧١٧ (٩٨) تسقط بآيدي الصليبيين الغربيين بتحریض النورمان والبنادقية .
٦٠٦	١٢١٠	١٦ شباط . البابا انوصان الثالث يأمر روذرigo خيمينيث دي رادا ، رئيس أساقفة طليطلة الجديد ، بمحـث الفونصو الثامن على قتال الموحدين ..

٦٠٧	١٢١١	أول أيلول / أول السنة . الذعر يدب في ممالك المسيحية بعد سقوط قلعة شلبرطة ييد محمد الناصر لدين الله لكونها حامية الجناح الغربي للمملكة القشتالية .
٦٠٩	١٢١٢	٢٠ حزيران . قوات قشتالية وأرغونية وفرنسية والمانية تخرب من طليطلة استعداداً للقاء الموحدين والأندلسين .
٦٠٩	١٢١٢	الحملة الصليبية التي عرفت باسم حملة الصيام تنتهي برجوع صبي فرنسي واحد (من أصل ٣٠٠,٠٠٠ ر. ٢٠٠٠) و المالي (من أصل ٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠) .
٦٠٩	١٢١٢	١٦ تموز / ١٤ / صفر . القوات الشمالية - الأوروبية المتحدة تحقق انتصاراً ساحقاً على الموحدين والأندلسين في معركة العقاب بعد قتال استمر يوماً واحداً في سهل يقع جنوب غرب حصن العقاب ، واتباع هذا النصر باحتلال بيسة وأبدة .
٦٢٠	١٢٢٣	قيام دولة بنى الأئمّة في غرناطة واستمرارها حتى سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢ .
٦٢٥	١٢٢٨	الحملة الصليبية الخامسة تستمر سنة واحدة ويختل خلاها فريدریك الثاني القدس ويت禄م والناصرة بوجب معاهدة مع السلطان الكامل .
٦٢٧	١٢٣٠	أول كانون الأول / الاثنين ١٤ صفر . الأرغوني خاتمي الأول « الغازى » (جائش بن بطرة بن جائش) يخنق جزيرة ميورقة بمساعدة الإيطاليين والفرنسيين . العاصمة سبق واحتلت في ٣١ كانون الأول سنة ١٢٢٩ (٦٢٦) .
٦٢٧	١٢٣٠	احتلال مدينة ماردة الواقعة شرق بطليوس .
٦٢٨	١٢٣١	الاعتراف بسيادة خاتمي الأول على جزيرة منورقة ودفع الجزية له .
٦٣٢	١٢٣٥	غيلين ، رئيس أساقفة طركونة ، والأمير البرتغالي يدرو يخناق اليابسة .
٦٣٣	١٢٣٦	٢٩ جزيران / الأحد ٢٣ شوال . فراندو الثالث (فراندة / هراندة) بن الفنش (المنشة) الذي لقب فيما بعد بالقديس ، يخنق مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القرطية البائدة ويعطرد معظم سكانها .
٦٣٣	١٢٣٦	القوات البرتغالية تخنق مدينة طيبة في أقصى الجنوب ، وتستكمل بذلك عملية السيطرة على جميع المناطق التي تتشكل منها البرتغال اليوم .
٦٣٤	١٢٣٧	الخميس ٢٠ ذي الحجة . موقعة أنيشة (آنيحة) تسفر عن سقوط حصن آنيحة على يد خاتمي الأول ويشدد الحصار على بلنسية .
٦٣٦	١٢٣٨	٢٨ أيلول / الثلاثاء ١٧ صفر . بلنسية ، كبرى قواعد شرقية الاندلس ، تسقط على يد خاتمي الأول بعد حرب استمرت خمس سنوات (منذ

١٢٣٣ / ٦٣١) وأُسيغ عليها البابا غريغوري التاسع صفة الحرب الصليبية ، وساهم فيها مطران مدينة نربونة (أربونة) الفرنسي وقوات جنوة البرية والبحرية .

٦٤١	١٢٤٣	سقوط مدينة دانية جنوب شرق بلنسية على يد خايبي الأول .
٦٤١	١٢٤٣	٥ تموز . خايبي الأول يحتل مدينة مرسيه للمرة الأولى .
٦٤٣	١٢٤٦	قرناندو الثالث يحتل مدينة جيان شرق قرطبة .
٦٤٤	١٢٤٧	قرناندو الثالث يحتل مدينة شاطبة ويطرد سكانها .
٦٤٦	١٢٤٨	الحملة الصليبية السادسة تؤدي إلى أسر لوى التاسع في المنصورة (مصر) سنة ١٢٤٩ / ٦٤٧ ومعه جميع أفراد جيشه .
٦٤٦	١٢٤٨	أشبيلية تسقط بيدى جنود قرناندو الثالث بعد حصار استمر سنة ونصف السنة ، ويطردون غالبية سكانها في ٢٣ تشرين الثاني (الاثنين ٥ شعبان) .
٦٥١	١٢٥٣	ملكة أرغون تستكمل احتلال نصيتها من الأرضي الأندلسية وتحول انظارها إلى البحر الأبيض المتوسط (البحر الشامي) لبناء امبراطوريتها .
٦٥٢	١٢٥٤	خايبي الأول يلغى جميع الديون التي قدمها اليهود لملكة أرغون ضمن موجة من السخط على اليهود .
٦٥٢	١٢٥٤	ملك فرنسا لوى التاسع يعود إلى بلاده من الحروب الصليبية في المشرق ويطرد اليهود من معظم أنحاء فرنسا .
٦٥٦	١٢٥٨	انهيار الخلافة العباسية أثر هجوم هولاكو على بغداد ومقتل المعتصم آخر خلفاء العباسيين .
٦٥٨	١٢٦٠	١٠ أيلول . الفونصو العاشر ينقل الحرب إلى المغرب ويهاجم مدينة شالة (سلا) وهي ضاحية من الرباط اليوم .
٦٦٠	١٢٦٢	الفونصو العاشر يقتحم مدينة لبله الجنوية ويطرد سكانها .
٦٦٢	١٢٦٤	حزيران . المسلمين ينظمون انتقاضة شاملة في الجنوب ويستردون مرسيه .
٦٦٤	١٢٦٦	٣١ كانون الثاني . خايبي الأول يأخذ مرسيه صلحًا لابنته زوجة الفونصو العاشر .
٦٦٨	١٢٧٠	الحملة الصليبية السابعة تنتهي باصابة الملك الفرنسي ومعظم أفراد جيشه بالطاعون وموتهم في تونس .
٦٧٤	١٢٧٥	طرد أعداد كبيرة من أندلسي مرسيه مما الحق بخراها كبيراً بالمنطقة .
٦٧٤	١٢٧٥	السلطان المربي المنصور يحقق انتصاراً على جيش قشتالة في ١٥ ربيع الأول .

٦٩٠	١٢٩١	سقوط جزيرة منورقة بيدى جنود ارغون . المماليك يستردون عكا ويلحق بذلك تخل الصليبيين عن بيروت وصور وصيدا وانتهاء مرحلة الحروب الصليبية ضد المشرق بشكلها القديم .
٦٩٩	١٢٩٩	قيام الدولة العثمانية واستمرارها حتى سنة ١٩٢٠ .
٧٤١	١٣٤٠	٣٠ تشرين الأول / ٧ جمادى الأولى . انهزام المسلمين في وقعة طريف التي عرفت لأول مرة في أوروبا استخدام نوع من المدفع عرف بالانفاسط .
٧٤٣	١٣٤٢	حصار مدينة الجزيرة الخضراء في حملة اشتركت فيها قوات اوروبية كثيرة ، اذ حاصروا القطلانيون وأهل جنوة من البحر، وهاجمها فيليب الثالث النافارى وايرل درن وسالزبورى الانجليزيان من البر، وقدم بابا روما المال لتمويل العمليات القتالية ، ودكت أسوار المدينة أول أنواع المدفعية التي عرفت في اوروبا .
٧٤٥	١٣٤٤	٢٥ آذار . استسلام الجزيرة الخضراء وبقاء جبل طارق بيدى قوات المرينيين .
٧٤٨	١٣٤٧	١١١ تشرين الأول . سفينة تابعة لجنوة تعود من ميناء ثلafa في شبه جزيرة القرم وهي تقل بحارة اصيروا بالطاعون (الموت الأسود) المنتشر من الشرق . الطاعون الذى انتقل الى اوروبا واستمر ثماني سنوات (١٣٥٤ / ٧٥٥) يسببوفاة حوالي ٦٠ مليون شخص منهم ٢٥ مليونا في اوروبا ، وقد التصق انتشاره باليهود مما أدى الى وقوع الكثير من المذابح (١٣٤٨ - ١٣٥١) .
٧٥٠	١٣٤٩	الفونسو الحادى عشر يحاصر جبل طارق ولكنه يصاب وجنوده بالطاعون ويموت في السنة التالية .
٧٧٦	١٣٧٤	غرناطة تستولي على جبل طارق وتضمه لمملكتها .
٧٨٧	١٣٨٥	انتصار البرتغال على قشتالة في معركة الجبروت .
٨٠٤	١٤٠٢	٢٠ تموز . تيمور لنك ينزل بالعثمانيين هزيمة ساحقة ويأسر السلطان بيازيد .
٨١٨	١٤١٥	البرتغاليون يحتلون مدينة سبتة في الطرف المغربي .
٨٥٧	١٤٥٣	٢٩ آيار . محمد الثاني المعروف بالفاتح يحتل القدسية .
٨٦٧	١٤٦٢	تجدد القتال بين قشتالة وغرناطة بعد سلم، وسقوط جبل طارق .
٨٧٩	١٤٧٤	ايزايلا تعتل عرش قشتالة .
٨٧٩	١٤٧٤	البابا سิกستوس الرابع يبحث ايزايلا على انشاء محكمة تحقيق بابوية لجمع الهرطقة والمخاضة على نقاء الكاثوليكية .
٨٨٣	١٤٧٨	سيسكستوس الرابع يوافق على انشاء محكمة تحقيق قشتالية .

فرناندو الخامس ، زوج ايزابيلا ، يرث عرش مملكة ارغون .	٨٨٤	١٤٧٩
ايزابيلا تصدر مرسوما يدعو سكان قشتالة وليون لمساعدة حاكم التفتيش .	٨٨٥	١٤٨٠
اندلاع الحرب بين غرناطة وقشتالة بعد أن رفض أبو الحسن على بن سعد (الغالب بالله) دفع الجزية وتسليم بعض المراكز العسكرية ، وهاجم مدينة الزهراء واستردها .	٨٨٦	١٤٨١
٦ شباط . الاحتفال باحرق أول مجموعة من ضحايا حاكم التفتيش ليصل العدد في نهاية السنة الى ٢٩٨ شخصا .	٨٨٦	١٤٨١
محرم . فرناندو يستولي على مدينة الخمة (الجamaة) غربي غرناطة .	٨٨٧	١٤٨٢
فرناندو يحتل مدينة الزهراء بعد حوالي ستين من استعادتها .	٨٨٨	١٤٨٣
فرناندو يحتل مدينة رonda .	٨٩٠	١٤٨٥
فرناندو يحتل مدينة مالقة بعد حصارها واستخدام المدافع لدك أسوارها ويت夷 اهلها الى القتل أو السبي .	٨٩٢	١٤٨٧
تأسيس محكمة تفتيش في مملكة ارغون (برشلونة) رغم المعارضة القوية .	٨٩٢	١٤٨٧
فرناندو يشنح الحملة ضد غرناطة وبدأ نشاطا عسكريا جديدا احتل فيه مدن بسطة والمرية ووادي آش .	٨٩٣	١٤٨٨
نيسان . بداية حصار مدينة غرناطة بعد احرق مرج غرناطة والخقول .	٨٩٥	١٤٩٠
المفتش الأكبر تور كيمادة يبدأ الحملة ضد اليهود بأحرق كت THEM .	٨٩٥	١٤٩٠
٢٥ تشرين الثاني / ٢١ محرم . توقيع معاهدة تسليم غرناطة .	٨٩٧	١٤٩١
٢ كانون الثاني / ٢ ربيع الأول . استسلام مدينة غرناطة .	٨٩٧	١٤٩٢
٣٠ آذار . ايزابيلا تصدر مرسوما بطرد اليهود الذين يختارون البقاء على دينهم خلال أربعة أشهر .	٨٩٧	١٤٩٢
٣ آب . الجنوي كريستوفر كولومبوس يغادر قشتالة في رحلته الأولى ويكتشف (١٢ تشرين الأول) سان سلفادور حاليا ، ثم يقوم باربع رحلات خلال السنوات العشر التالية .	٨٩٧	١٤٩٢
طرد اليهود من الريغال اثر ضغوط من قشتالة .	٩٠١	١٤٩٦
قوات قشتالة تنقل الحرب الى الساحل المغربي وتهاجم مدينة مليلة .	٩٠٢	١٤٩٧
وفاة المفتش العام تور كيمادة المسؤول عن احرق ١٠٠٠٠ شخص .	٩٠٣	١٤٩٨
تشرين الثاني . اندلاع الثورة الأندلسية الأولى .	٩٠٤	١٤٩٩
آذار . فرناندو الخامس يتسلم بنفسه إدارة دفة قتال الثوار ويتوجه بجيش كبير الى جبل البشرة .	٩٠٥	١٥٠٠

- اندلاع الثورة في الجبل الأحمر وارسال القائد الوئشو دي اجيلار لإخمادها إلا أن ١٥٠١
يتعرض لكمين ويقتل القائد مع جنوده كثرين .
- شباط . الملكة ايزابيلا تصدر مرسوما يقضي بتخدير الأندلسيين بين الرحيل أو ١٥٠٢
النصر .
- نيسان . عدد الأندلسيين الذين غادروا غرناطة يصل إلى ٣٠٠٠٠ شخص . ١٥٠٣
وفاة ايزابيلا .
- الكريديال زمينير ، مضطهد الأندلسيين ، يصبح مفتاحا عاما لمحاكم التفتيش . ١٥٠٤
فرناندو الخامس يصدر مرسوماً هدفه التضييق على الأندلسيين . ١٥٠٧
- زمينير يقود هجوما على وهران يسفر عن مقتل الآلاف . ١٥٠٨
زمينير يأمر بتشكيل محكمة تفتيش في وهران . ١٥١٥
- ٢٣ كانون الثاني . موت فرناندو . ١٥١٦
- كارلوس السادس يصبح ملكا على قشتالة وارAGON . ١٥١٧
- ٣١ تشرين الأول . مارتني لوثر يعلق اطروحته الدينية على كنيسة في مدينة ١٥١٧
ويتبرغ معلنا بدأبة حركة الاصلاح الديني (البروتستانية) .
- الراغب في بلنسية يجبرون الأندلسيين على التنصير في أعقاب اندلاع ثورة المدح . ١٥٢١
- صلح مرسوم جديد يؤكّد القيود التي نصّ عليها مرسوم ١٥٠٨ . ١٥٢٥
- تأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة . ١٥٢٦
- آيار . احرق أول مجموعة من الأندلسيين المتهمين بالهرطقة . ١٥٢٩
- كارلوس السادس يتنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني ويموت بعد ستين . ١٥٥٦
- اكتشاف خليتين للبروتستان في قشتالة واحراق المراطقة في بلد الوليد واشبيلية . ١٥٥٩
- الأول من كانون الثاني . فيليب الثاني يصدر مرسوما يحظر على الأندلسيين التكلم ١٥٦٧
بالعربية أو مزاولة أيّة عادات إسلامية .
- ١٥ نيسان . اندلاع الشارة الأولى للثورة الأندلسية الكبرى . ١٥٦٨
- ٢٢ (٢٤) كانون الأول . الثوار الأندلسيون يشنون هجوما مbagعا على غرناطة ١٥٦٨
ويوقعون خسائر كبيرة بخامتها .
- ٦ نيسان . دون خوان التسوى يغادر ملريدي إلى غرناطة لتولي مهمة قمع الثورة ١٥٦٩
الأندلسية الكبرى التي عمّت الجنوب .
- ١٨ حزيران . الثوار الأندلسيون يحاصرون مدينة سيريون في وادي نهر المصونة ١٥٦٩
ويعسكرون فيما بعد من احتلالها .
- ٢٣ حزيران . فيليب الثاني يصدر مرسوما ينفي أهل غرناطة إلى الشمال . ١٥٦٩
- بداية أيلول . أربعة جيوش تتطلق لابادة الثوار وتتمكن بحلول منتصف تشرين ١٥٧٠
- الأول من دحر التجمعات الرئيسية في معاقل الثورة .
- ١٩ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما ينحول فيه الجنود قتل الأندلسيين ١٥٧٠
وسبي نسائهم .

٢٨ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما بنفي جميع الأندلسيين من الجنوب .	١٥٧٠
آذار . قطع رأس مولاي عبد الله بعد أن قتله أحد أتباعه قبل انتصاف السنة التكهن أخيرا من اطفاء آخر جلوات الثورة الأندلسية الكبرى واتباع ذلك بأعمال انتقامية بشعة .	١٥٧١
٧ تشرين الأول . دون خوان التسوى يتمكن من هزيمة الاسطول العثماني في ليپانت .	١٥٧١
٦ تشرين الأول . فيليب الثاني يصدر مرسوما خاصا يمنع استخدام اللغة العربية .	١٥٧٢
٢١ تموز . البحارة الانجليز يهاجمون الأرمادا وتؤدى العواصف الى الخفاف مهمة الاسطول القشتالي في كسر الجبلترا .	١٥٨٨
محاكم التفتيش الأسبانية تعقلن ٩٦ أندلسيا .	١٥٩٤
الحكومة القشتالية تعلن افلاتها للمرة الثانية خلال ٢١ سنة .	١٥٩٦
بدء سريان معاهدة المدنة بين المولويين والاسبان .	١٦٠٩
٩ نيسان . صدور مرسوم نفي الأندلسيين (المواركة) من أسبانيا .	١٦٠٩
أيلول . وصول ثانية آلاف جندي اسباني على متن السفن لترحيل الأندلسيين ابتداء من اندلسيي بلنسية .	١٦٠٩
وثيقة من طليطلة تشير الى أن عدد المعتقلين الأندلسيين من جانب محاكم التفتيش بلغ منذ سنة ١٥٧٥ حوالي ١٩٠ أندلسيا .	١٦١٠
آيار . احرق ٤٥ أندلسيا بعد اتهامهم بالهرطقة .	١٧٢٨
تشرين الأول . احرق دفعه أخرى عددها ٢٨ أندلسيا .	١٧٢٨
العنور على مسجد كان بعض الأندلسيين يستخدمونه للصلوة سرا .	١٧٦٩
وثائق محاكم التفتيش لا تتضمن في هذه السنة أية أسماء أندلسية .	١٧٨٠
الغاء محاكم التفتيش بسبب معارضة الفرنسيين .	١٨٣٤

حكام الأندلس

أ - الولاة : ٩٥ هـ - ١٣٨ هـ فترة تعاقب عليها ٢٢ واليها وهم :

(ميلاديه)	(هجرية)	(ميلاديه)	(هجرية)
٧١٤ - ٧١٦	ذى الحجة ٩٥ - رجب ٩٧	٧١٦ - ٧١٩	٩٧ - ٩٩
--	ذى الحجة ٩٧ - ذى الحجة ٩٧	٧١٩ - ٧٢٠	٩٩ - ١٠٠
٧٢٠ - ٧٢١	ذى الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠	٧٢١ - ٧٢١	١٠٠ - ١٠٢
--	رمضان ١٠٠ - ذى الحجة ١٠٢	٧٢١ - ٧٢١	١٠٢ - ١٠٣
٧٢١ - ٧٢١	ذى الحجة ١٠٢ - صفر ١٠٣	٧٢١ - ٧٢١	١٠٣ - ١٠٧
--	صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧	٧٢١ - ٧٢١	١٠٧ - ١٠٧
٧٢١ - ٧٢١	شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧	٧٢١ - ٧٢١	١٠٧ - ١٠٨
--	شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠	٧٢١ - ٧٢١	١٠٨ - ١١٠
٧٢١ - ٧٢١	ربيع الأول ١١٠ - شعبان ١١٠	٧٢١ - ٧٢١	١١٠ - ١١١
--	شعبان ١١٠ - حرم ١١١	٧٢١ - ٧٢١	١١١ - ١١١
٧٢١ - ٧٢١	حرم ١١١ - ذى القعده ١١١	٧٢١ - ٧٢١	١١١ - ١١٢
--	ذى القعده ١١١ - صفر ١١٢	٧٢١ - ٧٢١	١١٢ - ١١٢
٧٢١ - ٧٢١	صفر ١١٢ - رمضان ١١٤	٧٢١ - ٧٢١	١١٢ - ١١٤
--	رمضان ١١٤ - ذوال ١١٤	٧٢١ - ٧٢١	١١٤ - ١١٤
٧٢١ - ٧٢١	ذوال ١١٤ - صفر ١١٦	٧٢١ - ٧٢١	١١٤ - ١١٦
--	صفر ١١٦ - شوال ١١٦	٧٢١ - ٧٢١	١١٦ - ١١٦
٧٢١ - ٧٢١	شوال ١١٦ - ذى القعده ١١٣	٧٢١ - ٧٢١	١١٦ - ١١٣
--	صفر ١١٣ - ذى القعده ١١٣	٧٢١ - ٧٢١	١١٣ - ١١٣
٧٢١ - ٧٢١	ذى القعده ١١٣ - ذوال ١١٤	٧٢١ - ٧٢١	١١٣ - ١١٤
--	ذوال ١١٤ - رجب ١٢٥	٧٢١ - ٧٢١	١١٤ - ١٢٥
٧٢١ - ٧٢١	رجب ١٢٥ - رجب ١٢٧	٧٢١ - ٧٢١	١٢٥ - ١٢٧
--	رجب ١٢٧ - آخر ١٢٨	٧٢١ - ٧٢١	١٢٧ - ١٢٨
٧٢١ - ٧٢١	آخر ١٢٨ - أول ١٢٩	٧٢١ - ٧٢١	١٢٨ - ١٢٩
--	أول ١٢٩ - ربيع الثاني ١٢٩	٧٢١ - ٧٢١	١٢٩ - ١٢٩
٧٢١ - ٧٢١	ربيع الثاني ١٢٩ - ذى الحجة ١٣٨	٧٢١ - ٧٢١	١٢٩ - ١٣٨

ب - الأمسراه والخلفاء (٧٥٦ - ١٠١٣ - ١٣٨ / ٤٠٣ - ٩٥)

٧٨٨ - ٧٨٩	٧٧٢ - ٧٧٣	١ - عبد الرحمن الأول (الدا فعل)
٧٩٦ - ٧٨٨	١٨٠ - ١٧٢	٢ - هشام الأول (المريض) (الرضا)
٨٢٢ - ٧٩٦	٢٦ - ١٨٠	٣ - الحكم الريضي (الأول)
٨٥٢ - ٨٢٢	٢٣٨ - ٢٤٦	٤ - عبد الرحمن الأسطل (الثاني)
٨٨٦ - ٨٥٢	٢٧٣ - ٢٧٨	٥ - محمد بن عبد الرحمن
٨٨٨ - ٨٨٦	٢٧٥ - ٢٧٧	٦ - المنذر بن محمد
٩١٢ - ٨٨٨	٣٤٤ - ٣٧٥	٧ - عبد الله بن محمد
٩٦٦ - ٩١٢	٣٥٠ - ٣٥٠	٨ - عبد الرحمن الثالث (الناصر للدين الله خفيف الأربع عبد الله . وفي عهده أعلنت الجملة سنة (٩٢٩ / ٣٦٢)

٩٧٦ - ٩٦١	٣٦٦ - ٣٥٠	٩ - الحكيم الثاني (المستنصر بالله)
١٠١٣ - ٩٧٦	٩٤٣ - ٣٦٦	١٠ - هشام الثاني (الثبيض بالله)
١٠٩١ - ٩٠٩	٦٨٤ - ٤٠٠	ج - عهد الطوائف
٩١٢٦ - ١٠٩١	٥٩٦ - ٤٨٤	د - عهد المرابطين
١٢٢٣ - ١١٤٠	٩٢٠ - ٥٤٠	هـ - عهد الموحدين

و - مملكة غرناطة التي بدأت عام ٦٢٠ (١٢٢٣) وانتهت باسلام غرناطة عام (١٤٩٢) .
وأهم ملوكها :

١٢٧٢ - ١٢٣٨	٦٧١-٦٣٥	محمد (الأول) بن يوسف بن الأcher
١٤٨٢ - ١٤٦٣	٨٨٧ - ٨٦٨	أبو الحسن علي بن سعد (الطالب بالله)
١٤٨٣ - ١٤٧٢	٨٨٨ - ٨٨٧	أبو عبد الله محمد (الحادي عشر)
١٤٨٧ - ١٤٧٣	٨٩٢ - ٨٨٨	أبو عبد الله محمد (الثاني عشر)
١٤٩٢ - ١٤٨٧	٨٩٧ - ٨٩٢	أبو عبد الله محمد (الحادي عشر)

أهم حكام الدوليات والمالك الشمالية

اشتهرش وليون : بلايو (بلاي) (Pelayo) وكان نيلا قوطيا فر بعد الفتح وحكم مجموعة صغيرة من الأتباع . جاء بعده أبنته فافيلة (Fafila) ولكن لم يختلف عقباً وتزوجت أخته أرمستدة من الفونصو (Alfonso) ابن زعيم شمالي آخر هو بطرة (Pedro) فكان مؤسس أول دولة شمالية حقيقة وهو :

Alfonso I	٧٥٧ - ٧٣٩	١٤٠ - ١٢١	الفونصو الأول (اذفشن) «الкатوليكي»
Fruela I	٧٧٥ - ٧٥٧	١٥٩ - ١٤٠	فرويلا الأول
Alfonso II	٨٤٢ - ٧٩١	٢٢٧ - ١٧٥	الفونصو الثاني (اذفشن الثاني)
Ramiro I	٨٥٠ - ٨٤٢	٢٣٦ - ٢٢٧	ردمير الأول
Ordoño I	٨٦٦ - ٨٥٠	٢٥٢ - ٢٣٦	اردون الأول
Alfonso III	٩١٠ - ٨٦٦	٢٩٧ - ٢٥٢	الفونصو الثالث (اذفشن الثالث)
Garcia I	٩١٤ - ٩١٠	٣٠١ - ٢٩٧	غرسية الأول
Ordoño II	٩٢٣ - ٩١٣	٣١٢ - ٣٠١	اردون الثاني
Ramiro II	٩٥٠ - ٩٣٢	٣٣٩ - ٣٢٠	ردمير الثاني
Ramiro III	٩٨٥ - ٩٦٦	٣٧٥ - ٣٥٥	ردمير الثالث
Alfonso V	١٠٢٧ - ٩٩٩	٤١٨ - ٣٨٩	الفونصو الخامس

نافار : احدى مملكتين لليون ثانيتهما قشتالة ، ولكن مركز الثقل انتقل الى نافار (نبارة) وكان من أهم ملوكها :

سانشو غرسية (شالنجية غرسية) الأول	٣٥٩ - ٢٩٣	٩٢٦ - ٩٠٥	سانشو غرسية (شالنجية غرسية) الأول
غرسية سانشو (الأول) الذي حكم تحت وصاية أمه المسماة ، طوطة وربما كانت عممة الخليفة عبد الرحمن الناصر			
في الأمة :			
سانشو (شالنجية) غرسية الثاني « ابركة »	٣٨٥ - ٣٥٩	٩٩٣ - ٩٧٠	Garcia Sanchez I
سانشو غرسية (الشالنجي ، الكبير)	٤٤٦ - ٣٩٠	١٠٣٥ - ١٠٠٠	Sancho Garces III

اشتدت المنافسة بين ممالك الشمال في السنوات الأخيرة من حكم سانشوغرسية الكبير ، ولكن الحل جاء بعد أن قسم سانشو المملكة على أبنائه الأربع كما جرت عليه العادة في تلك الفترة من الزمن . بسط ابنه الأكبر فرناندو الأول (فردنلدو Fernando I) سيطرته على ليون وجليقية وقشتالة ، وحصل ردمير على أرغون ، غنصالو Gonzalo على اواسط البرت . ولكن الأخير اغتيل في حين ادى انتزاع منطقة الروخه الخصبة الواقعة الى شمال نهر أبير جنوب غربي بامبلونة (بنبلونة) الى عزل مملكة نافار ، والمحصر تأثيرها على الأندرس بطرق غير مباشرة وكان ذلك سنة ٤٤٦ (١٠٥٤ م). فرناندو الأول هو الآخر قسم مملكته على أولاده الثلاثة فأخذ الفونصو السادس (الفنش) اشتورش وليون ، وحصل سانشو (شالنجي) على قشتالة ، بينما كانت جليقية والقسم الأعلى ، مما عرف باسم

البرتغال فيما بعده من نصيب اصغر الابناء غرسية . واغيال الآخرين فيما بعد أدى الى انفراد ألفونسو السادس بحكم كل ارجاء المملكة . وستبدل صفات الملوك فيما بعد الا أن الأهمية بقيت لمملكتي قشتالة وارغون وهكذا تكون فترة حكم الملكين previous السابقين :

قشتالة

Fernando I	١٠٦٥ - ١٠٣٥	٤٥٨ - ٤٢٦	فرناند الأول (فرديناند)
Alfonso VI	١١٠٩ - ١٠٧٢	٥٠٢ - ٤٦٥	الفونصو السادس (الفونش)
Alfonso Raimundez VII	١١٥٧ - ١١٢٦	٥٥٢ - ٥٢٠	الفونصو السابع (الفونش بن رمند البرجوني)
Alfonso VIII	١١٩٤ - ١١٥٨	٦١١ - ٥٥٣	الفونصو الثامن « البيل »
Fernando III	١٢٥٢ - ١٢١٧	٦٥٠ - ٦٩٤	فرناندو الثالث (فراندال الثالث)
Alfonso X	١٢٨٤ - ١٢٥٢	٦٨١ - ٦٥٠	الفونصو العاشر (الفونش) « العالم »
Alfonso XI	١٣٥١ - ١٣١٢	٧٥١ - ٧١٢	الفونصو الحادى عشر
Isabella	١٤٥٤ - ١٤٧٤	٩١٠ - ٨٧٩	إيزابيلا (إيزابيل)

أرغون

Sancho Ramirez	١٠٩٤ -	٤٨٧ -	سانشو ردمير (شانجيه بن ردمير)
Alfonso I	١١٣٤ - ١١٢٤	٥٢٨ - ٤٩٧	الفونصو الأول (الحارب)
Ramon Berenguer IV	١١٦٢ - ١١٣١	٥٥٨ - ٥٢٥	رامون برنجير (رمند بن بلنغير - الرابع)
Alfonso II	١١٩٦ - ١١٦٢	٥٩٢ - ٥٥٨	الفونصو الثاني (الفونش الثاني)
Pedro II	١٢٢٣ - ١١٩٦	٦١٠ - ٥٩٣	بلدو (بطرا) الثاني « الكاتوليكي »
Jaime I	١٢٧٦ - ١٢١٣	٦٧٥ - ٦١٠	خايمي (جايمش) الأول « الغازى »
Fernando V	١٥١٦ - ١٤٧٩	٩٢٢ - ٨٨٤	فرناند الخامس (الثاني)

البرتغال : انفصلت البرتغال عن قشتالة سنة ١١٢٨ (٤٨٧) واستقلت سنة ١٠٩٤ (٥٢٢) ومن أهم ملوكها :

Alfonso Enríquez	١١٨٥ - ١١٣٩	٥٨١ - ٥٣٣	الفونصو إنريكيث (الفونش ابن الريح)
Sancho I	١٢١١ - ١١٨٥	٦٠٨ - ٥٨١	سانشو الأول (شانجيه)
Alfonso II	١٢٢٣ - ١٢١١	٦٢٠ - ٦٠٨	الفونصو الثاني (الفونش)

أسبانيا

Carlos V	١٥٥٦ - ١٥١٩	٩٦٣ - ٩٢٥	كارلوس الخامس (الإمبراطور)
Felipe II	١٥٩٨ - ١٥٥٦	١٠٠٦ - ٩٦٣	فيليب الثاني
Felipe III	١٦٢١ - ١٥٩٨	١٠٣٠ - ١٠٠٦	فيليب الثالث

دليل الأعلام والموضع

Abencerrage	بنو سراج (من أعيان غرناطة) .	Alfonso VII (Leon)	أذفونش ابن رمند
Aben Humeya	ابن امية ، زعيم الاندلسي	Alfonso VIII	الفونسو الثامن
Adra	عدرة ، مدينة	Alfonso X (el Sabio)	الفونسو العاشر ، « العالم »
Adrián Utrecht	أدريان الاتيتشي	Alfonso Enriquez	الفونسو ابن الريح (الرِّزق)
Africanus,Johannes Leo	حسن الوزاز (مكتشف)	Alfonso Raimundez	الفونسو بن رمند
Agullar,Alonso Y	اللونتو دي أجيلار (بلاي)	Algarve	الغرب ، مدينة في البرتغال
Aguilar de la Frontera	أجيلار ، مدينة	Algeciras	الجبلة الخضراء ، مدينة
Aguilar,Gonzalo Gernandez Y (Gonzalo de Cordoba)	غونزالو القرطبي « القبطان العظيم »	Alhama	الحمة (الحامة) قرب غرناطة
Alange	الخش ، قلعة	Albendin	هندان ، مدينة
Alarcos	الإلك ، معركة	Albondiga	الخدق ، مدينة
Alegria	القرية ، بلدة	Alicante	لقنت ، مدينة على الساحل الشرقي
Albacete	البسيط ، مدينة	Aljameido	الأشجومية ، لغة المواركة
Albaicin	البايزين (حى في غرناطة)	Almaden,Sierra de	جبل المعدن
Albaracin	بنو زين ، مدينة (السهلة)	Almanzora,Cuevas de	المصورة ، مدينة
Alberca	البركة (في مرسية)	Almaraz	العرض ، وادي
Albufera	البحيرة	Almenara de Adaja	المارة ، مدينة
Aleacer de Sal	قصر ابن دانس (الفتح) .	Almeria	الموية ، مدينة ومرفأ
Alejaiceria	المقصورة ، سوق الحمير بغرناطة	Almodovar del Rio	المدور ، نهر ووادي
Alcala	القلعة .	Alpujarras,las	جبل البشرة (البشرات)
Alcalá de Guadaira	قلعة الوادى (وادى آر)	Alva	الآبة ، منطقة
Alcalá la Real	قلعة يحصلب ،	Alvar Hanor	البار هالش (البر هانس)
Alcuz	الكريسي ، مدينة	Amaya	أمایة
Aleira	جزيره شقر (قرب بلنسية)	Ampurias	إمپرياس ، إمپوراش
Aledo	ليط ، حصن .	Andalucia	الأندلس ، الأندلس الصغير (أندلوريا)
Aleman,Mutu	ماتيو المان (مؤلف)	Andorra	أندرش ، مدينة في الجنوب
Alferez	الفارس (رتبة عسكرية اسبانية)	Aragon	الدوّرا ، دولة في البيشيه
Alfonso	الفونسو ، الأدقش ، الفنش ، اذفونش اخ	Aquia	وقلة ابن غيطشة
Alfonso I (Asturias)	الفونسو ١ الكاثوليكي	Aquitania	اقيطةنه ، أكيتانيا
Alfonso I (Aragon)	اذفونش بن ردمر	Aragon	ارغون ، اواغون ، مملكة
Alfonso II (Asturias)	الفونصر « الطاهر »	Aranjuez	الرجوز ، الرجوز ، منتجع
Alfonso II(Aragon)	الفونصر الثاني	Arcos de la Frontera	اركش ، اركوش
Alfonso VI (Leon)	الفونصر السادس الليوني	Ardebas	ارطباش ، ارتباش
		Arinsol	فحص الرسول

Arjona	أرجونة ، لرجونة ، مدينة	قادس ، مدينة
Arlanzon	الرنون ، نهر ووادي	قلهوة ، مدينة
Asepuva	شبة ، جبل	قلعة النسور ، مدينة وقلعة
Asina	اسحة ، مدينة	قلعة رياح
Asperi	اشبرة ، معر في البرية	كالبي ، الاسم القديم لمحل طارق
Astorga	اشترقة ، مدينة في الشمال	السيد القبيطور
Asturias	اشغوش ، استغواس ، اشتغوش	الكتبيطور اخ
Atienza	اليتشة ، مدينة	قدبيرة ، سلسلة جبال شمالية
Audencia	الحكمة العليا	الحاكم العسكري (العام)
Avenpace	ابن باجة	قراشونة
Averros	ابن رشد (الفيلسوف)	كارلوس الخامس ، الاميراطور شارلكان
Avignon	ابيرون (افيون)	قرمونة
Avila	ابلة ، مدينة	قرطاجنة ، قرطجنة
Axarquia	المشرقية ، مدينة	Carteixa
Badajoz	بطليوس ، مدينة	برج قرطجنة (خراب)
Badalona	بطلونة ، مدينة	كربيجال ، فارس
Baeza	بفاسة ، مدينة	قشالة الجديدة
Baliuuech	بنولش ، بولونش ، مدينة	قشالة القديمة
Barbastro	بريشتر ، مدينة	قطالريا ، مملكة
Barbate	برياط ، نهر في الجنوب	شرطانية
Barbitania	بريطانيا ، بريطانيا	سببة
Barcelona	برشلونة ، مدينة	شارليان ، قارلة
Basque	باسك ، اقليم	شرشال
Baza	بسطة ، مدينة	جيجالة
Beas	بيش ، مدينة	Cld,el Campedor)
Beja	باجة ، مدينة	Cintra
Belalcazar	غلاق ، مدينة	الشزوى ، شزروا ، شيزرو ، مجر
Berchules	برشلول ، مدينة	سيستريوس
Berja	برحة ، مدينة	(Ximenes) الكريبيال خينيث أو زمير
Biscay	بسقاية ، يسكنى ، خليج	Ciudad Real المدينة الملكية
Boabdil	الامير عبد الله الصغير	السيطاط ، مدينة لذرقي
Babastro	بريشتر ، جبل	كلايخر ، وقعة
Boissonade	براسوناد ، مؤرخ قديم	Coimbra قلمرية ، قلبية ، مدينة برتغالية
Bombezar	وادي قيس	Comes قومس ، قمح ، زعيم مسيحي
Bordeaux	بوردو ، بردويل ، بردويل ، بردال	كونسغرا كنشرة
Burgos	برخش ، برخش ، مدينة	Contreras,Alonso de الونصر دي كونتريوس
Cabra	قرفة ، مدينة	Cordova قرطبة
		Coria قوربة

Covadonga	كابدونغا (الصخرة ، صخرة بلاي)	Fraxillana	فركسالا (فرجالا) ، مدينة
Crete	كريت ، قبرطش	Frigiliana	فرحالا (الآئم الحديث لفركسالا)
Cuenca	قرقة	Fuengirola	سهيل ، مدينة
Cuevas de Almanzora	المصورة	Fuente de Cantos	القدس ، مدينة
Cutanda	قصدة ، وقمة	Galicia	جليقية ، اقليم
Denmark	الدغارك ، الدانمارك	Galleg	جبلق ، نهر
Doroca	درودة	Gaucin	غضن (غصين) مدينة قرب زندة
Denia	داية ، دالة	Gaulia (Francia)	غاللة ، غاليش ، فرنسا
Diezma	ديمة	Generalife	جنة العريف (غرانطة)
Don Juan de Austria	دون خوان التسوي	Genil	شنيل ، نهر في الجنوب
Don Quixote	دون كيخوتي ، كيتشوت	Gerona	جيرونا ، جيرونا ، مدينة
Duero	دريرة ، نهر ووادي	Gevaudon	جييفودون ، شاعر
Ebro	ابرة ، نهر ووادي	Gibraleon	جبل العيون
Ecija	استجة	Gibraltar	جبل طارق
Egllona	آيلة ، زوجة للدراق	Gijon	جيجون (خيخون)
Elche	الش	Giralda	الجيرالدا ، مأذنة أشبيلية
Elo	آية	Granada	غرناطة
Elvira	البيرة	Guadaira	الوادي ، مدينة قرب أشبيلية
Escolano	إشكولانو ، مؤرخ بلسي	Guadaljara	وادي التجارة ، مدينة
Escorial,el	الاسكوريا	Guadalete,Rio	لكه (بكه) ، نهر
Espeja,la	شبيحة	Guadarrama,Sierra de	جبال الرمل (الرملة)
Espejo (Cordoba)	شبيحة قرطبة	Guadatin	وادي الطين
Espinosa,	إسبيوزا ، الكرديبال	Guadelquivir	نهر الوادي الكبير
Extremadura	استريمادورا ، اقليم	Guadiana	وادي آنة
Evora	يابرة	Guadix	وادي أش
Fajardo	فخاردو ، اسم اسرة قشتالة	Guazalete	وادي سليط
Felipe II	فيليب الثاني.	Gudiel, Alonzo Fray	فري القونصر وديل
Fernando	فرناندو (فراندة ، هراندة ، فرذاند)	Guejar	وجار ، ابشر ، مدينة
Fernando I (Aragon)	فرناندو الأول	Guerrero, Pedro	بلور غييرو
Fernando I (Castile)	فرناندو الشتالي	Henares	هنارس ، نهر
Fernando II (Leon)	فرناندو « البوح »	Hornachuelos	هرناث ، مدينة
Fernando III (Castile)	فرناندو ابن الفونسو	Hrositha	روسمفيتا ، واهب
Fernando IV(Castile)	فرناندو الرابع	Huelva	ولبة
Fernando V(II) (el Catolico)	فرناندو والكاروليكي	Huesca	وشقة
Ferrant Martinez	فروانت مارتينيث	Huete	وبلة
Fraga	افراغة ، وقمة	Iberia	ايبيرية ، اهاربة
Franxinetum	جبل القلال	Ibiza	الياستة ، جزيرة

Inquis der Ge	التشن العام (خاتم التشين)	Mallorca	مرورقة
Isabella I	إيزابيلا (إزابيل) الكاثوليكية	Marbella	مربلة (ماربلا)
Isla de las Palomas	جزيرة بلومة (طريف)	Maracena	مرفانة
Islas Baleares	الجزائر الشرقية (البليار)	Murrayos, los	الصياد « الشاهير »
Iznalloz	حسن البرز ، مدينة جنوبية	Matamoros	ذباح الاندلسيون (ستياغو)
Iznatoraf	حسن الطرف	Medina Azahara	المدينة الظهراء
Jaca	جاكا ، نهر	Medinaceli	مدينة سالم
Juen	جييان ، مدينة	Medina Sidonia	مدينة شلونة
Jalme	خوايمي الأول (جايمش ، جاقوم اخ)	Mendoza, Don Iligo Lopez de	مندروزا
Jalon	شلون ، نهر	Menorea	منرقة
Janda	الجندى ، نهر وبحيرة	Merida	ماردة
Jativa	شاطبة ، مدينة	Mexia, Don Augustin de	ميبيا ، المدن أوغسطين
Jerez de la Frontera	شيش ، مدينة	Mino, Rio	مينية ، نهر
Jiemena	شيان ، مدينة ، زوجة السيد	Mirones	ميرون ، قائد قشتالي
Jugar	شقر	Mondego, Rio	منديق ، نهر
Juana la Loca	خوانا الجبونة	Mondejar, Marquis de	مركيز مندخار
Juderia, Barrio de la	حي اليهود	Moreria	حي المواركة (بلنسية)
Julian	جوليان ، الليان، بيلان	Moriscos, los	المواركة (المرسكين)
Lago	البحيرة	Moro	لقب حلم يعني الاندلسي ، العربي
Lamax	اللاماشة (الأداة) مادة	Moron	مورور (مورور) ، مدينة في الجنوب
Lanjaron	عنجر	Motril	مطربل ، متليل ، مدينة
Laroles	نورة	Mozarabes, los	المسجرون
Leerin	القرن ، وادي	Mudejares, los	المدجنون
Levago	ليقة	Murcia	مرمية
Leon	ليون	Murvielro	ميريط
Leon, Luis de	لويس الليوني	Narbona (Narbonne)	ناربون ، فربونة ، أربونة
Lerida	لاردة	Navarre	نافار ، لبارا ، نبرة ، إقليم
Lermus	ليرما ، مدينة -- دوق	Navas de Tolosa, Las	العقاب ، وقمة
Lisboa	لشبونة ، أشبوة	Nerja	نرجة ، مدينة في الجنوب
Loja	لوشة	Niebla	بللة
Lorca	لورقة	Normandos, Los	البورمان (الأرمادانيون الجبوس)
Lucena	اللسنة ، مدينة	Nuno de Lara	دنه ، ذو الورقة ، ذنونة
Lugo	لنك ، مدينة	Ocampo	اوكامير ، مؤرخ
Lyon	ليون (ليونون - في فرنسا)	Oesonoba	اكسينونة
Madrid	مدريد ، محبيط	Olivares, Conde-Duque	دوق اوئيارس
Malmonides, Moses	موسى ابن ميمون	Olumundo	الند (ابن غيطشة)
Malaga	مالقة	Orense	أوريه

Oribuela	أوريولة	Rueda de Jalon	روطة اليولد
Orinse	اورنسة	Sado, Rio	شطير ، نهر
Osma	اكسومة	Sagrajas	الرالاقة ، وقعة
Ostragoths	القوط الشرقيون	Sagunto	ساقونة
Oviedo	اوينط	Salado, Battalla del	طريف ، وقعة
Padul (es)	بادول ، البادول ، مدينة	Salamanca	شلمنقة ، شلمستة ، سلمنة
Palencia	پلنسية (في الشمال)	Sale	سلا ، شالة
Pallares	بلد بليارش	Salteix	شلطيس
Pamplona	بيلونة ، بيلونة	Salobreña	شلوبالية
Pechina	بيحانة	Salvatierra	شلبطرة ، قلعة
Pedro	بدور ، بطرة ، بطر اخ	Sancho	سانشو ، شانبة اخ
Pedro I (el cruel)	بطرية بن المنشة « القاسي »	Sancho I (Castile)	سانشو الأول القشتالي
Pedroche	فحص البلوط	Sancho II (el Fuerte)	سانشو الثاني « القوى »
Pelayo (Pelagius)	بالغور ، بلاي ، بلي ، بلاغور	Sancho IV (el.valiente)	سانشو الرابع « الشجاع »
Pirineos (Pirenaica)	البيرينيه ، البرت ، البريات	Santaver	شنتيرية
Portugal	برتغال ، برقال ، برتقال	Santa Maria de Albarracin	شنتيمية الشرق
Priego	باخو	Santigo de Compoella	ستياغو ، شنت ياقب (يعقوب)
Puig de Cebolla	انيثة ، انيحة ، وقعة	Saragossa (Zaragoza)	سرقسطة
Pulgar, Hernando del	هرناندو ديل بلغار	Sarria	شاراء
Purchena	برشانة ، مدينة في الجنوب	Secunda	شقندة
Quesada	قيحاطة	Segovia	شقربة
Quixote, Don	دون كيخوتي ، كيشوت	Segura	شققرة
Rahabatacadil	رجحة القاضي (بلنسية)	Serin	سرية
Rohne	الرون (رودنة) ، نهر	Seron	سرورون
Ramiro	رميرو ، ردمير اخ	Sesa, Doque de	دوق سيسة
Ramon Berenguer I	رامون برخير الأول	Sevilla	اشبيلية
Ramon Berenguer V	رامون برخير الرابع	Sierra Almaden	جيبل المعدن
Reconquista, la	حرب الاسترجاج (الاسترداد)	Sierra Morena	جيبل الشارات
Regio	رية ، إقليم ، مدينة	Sierra Nevada	جيبل الثلج (ثلير)
Reina, Casiodoro de	كاسيدورو دي رينا	Siguenza	شفونة
Requesens	ريكوئنس ، قائد قشتالي	Silves	شلب
Ribera, Juan de	خوان دي ريبة ، رئيس أساقفة بلنسية	Simancas	سيمانقة ، سيمانقة
Ricote, Valle de	وادي شفورة	Soria	سرية ، مدينة
Rodana	رودانا ، وادي	Tajo	تاجة ، نهر
Rodrigo	رودریغر ، لذریق ، روذریق اخ	Talamanca	طممنكة
Roncevalles	رونچفالة ، غر	Talavera de la Reina	طلبرة ، مدينة
Ronda	وندة	Talavera, Hernando de	هرناندو طلبرة
		Tarifa	طريف ، طريفة ، مدينة في الجنوب
		Tarragona	طركونة
		Tarazona	طرسونة
		Templares	فرسان المعبد (الداوية)
		Tendilla	تلدلة (مركيز مندخار)

Teruel	تورييل ، طروبيل
Theodemir (Tudemir)	تممير (مرميحة لاحقاً)
Tocina	طشانة
Toledo	طليطلة
Tolosa	طلوشة ، طلوزة
Torquemada, Tomás de	تورما دي توركيمنادا
Torrecilla de Cameros	ترجلة
Torrox	طرش ، مدينة في الجنوب
Tortosa	طرطوشة
Toulosa (Toulouse)	تولوز ، طلووسة
Trafalgar, Cape	طرف المغار
Tudela	تطبلة
Tuy	تودى
Ubeda	ابده
Ubrique	ابريق ، مدينة في الجنوب الغربي
Ucles	القلisch ، اقلیح ، وقعة
Ultimo Suspiro del Moro, el	بواية اي عبد
	آله ، اخر ملوك غرناطة ، جنوب المدينة .
Urraca	اوراكة
Valencia	بنسيبة ، مدينة وملكة
Vondals	بلد الوليد
Valladolid	الموندال ، القندال ، قبائل جرمانية
Valladolid	اندلوسيا ، الاسم القديم للأندلس
Vascones	الشككش ، البشككس
Vascuence	البشقية ، لمة الياسك
Vega	مرج (وخاصة مرج غرناطة)
Velez Malaga	بلش مالقة
Vera, la	البيرة ، مدينة
Visigoths	القوط الغربيون
Vivar, Rodrigo Diaz de	(Campedor انظر)
Vizcya	(Biscay انظر)
Witiza	خيطشة ، الملك
Xeres	شرش
Ximenes	(Cisneros انظر)
Zagal	الرغل ، احد ملوك غرناطة
Zamora	سمورة ، مدينة
Zaragoza	(Saragossa انظر)
Zegri	الزيري ، (الصفري)
Zocodover	سوق النواب (طليطلة)

مصادر البحث

(١)

وضع هذا الموجز لتاريخ الأندلسيين المواركة كان عملية صعبة لسبعين : الأول كونه أول كتاب شامل يتناول سيرة الأندلسيين المواركة ونضالهم بأية لغة كانت ، ولذا لم يتوفّر أى مؤلف يمكن تأثيره أو الاعتماد به في أغلب فصول الكتاب . أما الثاني فهو أن أفضل مراجع البحث مكتوبة بالأسبانية وهي لغة لا تتقنها مماتطلب تخصيص وقت إضافي طويل للترجمة والنسخ والتصوير ، ومد فترة التردد على مكتبة مدريد الوطنية المرة تلو الأخرى . ولكن توفر بعض المصادر الخاصة بسيرة الأندلسيين المواركة لainhi المشكّلة لأن اغلب المراجع الأسبانية الخاصة بذلك الفترة لا تتسم بالموضوعية المطلوبة إضافة إلى أنها مبتورة حيناً ومجرودة في الأحيان الأخرى ، وبعض مؤرخي العهد القريب من سيرة الأندلسيين المواركة اغفلوا حتى الاشارة إلى الاضطهاد الذي تعرض له الأندلسيون المواركة ولاسيما في الفترة التي نشب فيها الثورة الأندلسية الكبرى وما تلاها . ودراسة موضوع الأندلسيين المواركة وحكم التفتیش الأسبانية لا تخلو من صعوبات كثيرة مرد البعض منها عدم رغبة الأسبان في تناول هذه المسألة لأسباب معروفة ، والافتقار إلى الوثائق الرسمية التي ضاعت مع مرور الزمن ، أو بقيت بعيدة عن متناول الباحثين في الكاتدرائيات والكنائس والمؤسسات الرسمية . وربما يجوز هنا الموضوع على الأهمية المطلوبة ، أو توفر مصدره بصورة كافية ، فإن معلومات المصادر التي وصلت إلينا تتطلب الحذر ، وخاصة عندما يكون المؤرخ بروتستانتيا فيسقط في المبالغة لأسباب معروفة .

ويعلّ أهم مشكلة تصادف الباحث في التاريخين الأندلسي والأسباني بالاعتماد على المصادر الأجنبية ايا كانت اللغة التي كتبت بها ، تكمن في أن المنهج ، حتى منتصف القرن الحالي ، كان التهل من مراجع قديمة لم يطرأ عليها أي تغيير منذ أن وضعت في منتصف القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر ، وماتلا ذلك ، مثل موسوعة ماريانا (٣٤) ومؤلفات أوكامبو ومندوزا وكوندي (٣٥) وغيرهم . ومع وجود بعض الاستثناءات ، فإن الكتب التاريخية التي بدأت في الصدور اعتباراً من الخمسينات الماضية القت بعض الأضواء المهمة على كثير من الجوانب الغامضة في تاريخ شبه جزيرة إيبيرية ، وليس من المستغرب أن يؤدي تجدد الاهتمام بشبه الجزيرة إلى توفير صورة مختلفة لتاريخها عن الصورة التي وردت عبر المصادر الأجنبية . ولن يكون ذلك بالعمل المبين لأن معظم الوثائق الرسمية

• رقم الكتاب في لائحة المراجع الأجنبية .

الأندلسية ضاعت أو أتلفت ، وأن المالك المسيحية في شبه جزيرة إيبيريا ، مثل أرغون والبرتغال وقطالونيا وتافار ، فقدت اهتمامها بتاريخها القديم فترة طويلة قبل أن يتجدد الاهتمام في العصور الحديثة . والخلاصة التالية تعطي فكرة عامة عن أهم المراجع المستفاد منها في فصول الكتاب :

الفصل الأول : مایزال المؤلف الذي وضعه دوزي (٦٦) أفضل الكتب التي تناولت تاريخ الأندلس الإسلامية رغم أن بعض المؤرخين الأسبان اعتبروه مؤيداً لوجهة النظر العربية . وبعتبر التيرا (٤٤ و ٤٥) أهم المؤرخين الأسبان في الربع الأول من القرن الحالي واعتبرت آراؤه متوازنة، واسعة الأفق . ومن أهم المؤرخين الآخرين الميفي، برونسال (٥٣) وبيداو (٥٢) وبيسين (٤٢ و ٤٣) ولاسيما في المسائل الاقتصادية والتعداد السكاني . أما المراجع الأخرى التي استخدمت في هذا الفصل فتشمل (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٤٨ ، ٥٨) . وغيرها من مصادر أخرى لم تدرج هنا .

الفصل الثاني : يعبر البعض باروخا (٣٦) من أهم المؤرخين الذين تناولوا الغربانطيين بالدراسة . وأفرد برسكتوت (٦) فصلاً كاملاً عن الثورة الأندلسية الأولى لكنه يكتب بحرية غير مرغوبة اليوم ، وغالباً ما يغفل الاشارة إلى مصادره . من أهم المصادر الخاصة بهذا الفصل مؤلف لون - بول (٣) الذي يعتمد بصورة كبيرة على عمل دوزي (٦٦) والمقرى واسترلينج (٥) وارفينج (٣١) .

الفصل الثالث : من أهم الأعمال التاريخية الخاصة بالثورة الأندلسية الكبرى مؤلف كريجال (٢٠) . والمؤلف من مواليد غربانطة وحارب في حصار تونس (١٥٣٥) ووقع في أسراً مغاربة مدة سبع سنوات ، وقاتل تحت راية الأمير المغربي محمد . وكان كريجال يتقن العربية وتنقل في المغرب ومصر وغرب أفريقيا . وأهمية كريجال مردّها اشتراكه في قمع الثورة الأندلسية الكبرى واتقاده للموضوع الذي كتب عنه، إذ كان ملماً بتاريخ العرب عارفاً لطبعهم . ولم يحظ كتابه، الذي صدر في مالقة للمرة الأولى سنة ١٦٠٠، بأهمية كبيرة وإنما لم يعد طبع الكتاب حتى سنة ١٧٩٧ وصدر بمجلدين . من أهم المصادر الأخرى السيرة التي كتبها برسكتوت (٧) عن فيليب الثاني ، واستخدم في معالجة الثورة الكبرى عدداً من الرسائل المهمة التي لم يتع استعمالها لأحد قبله ، وكذلك مؤلف مندوزا (٢١) وسيركور (٢٢) . وتتسم مقالة الدكتور غراد غير المنشورة (٣٧) بأهمية خاصة نظراً لأنها تتناول أسباب اندلاع الثورة الكبرى . من المصادر الأخرى أيضاً (٣ ، ٥ ، ١٩ ، ٤) .

الفصل الرابع : المشكلة الرئيسية الخاصة بالفصل الرابع هي عدد الأنجلسيين المواركة الذين رحلوا في بداية القرن السابع عشر . وعلى الرغم من أن الإحصاءات التي قدمها لاير (١٧) يتوجب ألا تؤخذ على أنها الكلمة الفصل ، فإن المؤلف يقدم مجموعة كبيرة من الوثائق التي تدعم حجته . ومن أهم المصادر الأقسام الأولى من الفصل (٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٣٩)، واعتمد في القسم الخامس من هذا الفصل على مشاهدات برونل (١١) وبيترو (١٥) وجولي (٤٤) .

الفصل الخامس : المصادر (١٤ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ١٠) واللاحظات والوثائق التي وفرها الأدب دون جوان ازباردي المسؤول عن وثائق محكمة التفتيش المالطية في كنيسة المدينة في مالطة .

الفصل السادس : معظم مصادر القسم الأول من الفصل عربية (انظر المصادر العربية) ، ومن بين المصادر الأخرى المستخدمة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٥٩ و ٦٠) .

واختارت هنا الابتعاد عن عمل المستشرق كوندي (٣٥) المنشور في جزئه الأول سنة ١٨١٠ والثاني والثالث سنة ١٨١١ بعد وفاته . ويقول عنان (٣٥) في المصادر العربية^(١) : « ينقل كوندي كثيراً من الروايات العربية دون دقة أو تحخيص أو مقارنة ، ويقع في كثير من الأخطاء التاريخية ، ولكنه يمتاز في كثير من تعليقاته ولاحظاته بالصراحة الجمة ، حتى أنه يذهب أحياناً إلى اصدار أشد الأحكام على امته ومواطنيه خصوصاً في الحوادث التي اقترنت بسقوط غربطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردهم وتصرفهم ، ثم اخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم في غمرة من الفظائع والدماء . على أن أهم ميزة لمؤلف كوندي هو أنه أول مؤلف عربي يعرض للغرب قضية العرب في إسبانيا من الناحية العربية ، وفيه لأول مرة يقف الغرب على دفاع العرب ووجهات نظرهم وخواص نظمهم وسياستهم . »

« ومن ذلك الحين أخذت المصادر العربية تمثل في كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس ، حتى جاء العلامة المستشرق الهولندي رينهات دوزي فخصص دراسة التاريخ الأندلسي ودراسة مصادره الغربية والعربية ، باعظام جهوده ، وانحرج لنا في سنة ١٨٦١ كتابه العقيم « تاريخ المسلمين في إسبانيا حتى فتح المرابطين » (١٦) في أربعة أجزاء . ويتناول دوزي تاريخ الأندلس بالأسلوب الفلسفى نقدى قوى ، ويعنى بشرح الظواهر السياسية والاجتماعية أكثر مما يعني بسرد الحوادث ، ومؤلفه بلا ريب من أجل المراجع الغربية في تاريخ الأندلس ، وإن كانت تشوهه أحياناً نزعات من التحامل والتغصّب . وبهاجم دوزي ، كوندي ومؤلفه بشدة ، ويرمي بالادعاء والتجهل حتى بمبادئ اللغة العربية ، ويقول عنه في كتابه « مباحث في تاريخ إسبانيا وأدابها في العصور الوسطى » إن كوندي : « لا يعرف من العربية غير الحروف التي كتبت بها سوى القليل وأنه يستعيض عن أقل المعارف الابتدائية بخيال وافر الخصوصية ، وقحة لامشيل لها ، فيريف مئات التواريف ، والاف الحوادث ، ويزعم في نفس الوقت أنه ينقل النصوص العربية نقلأ صادقاً . » .

وفيما يلي ثبت بأهم المراجع الأجنبية :

(١) ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

- 1- Spain, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, London, 1975.
- 2- Fisher, H.A.L. A History of Europe, Vol., 1,Fontana, Great Britain, 1979.
- 3- Lane-Poole, Stanléy. The Moors In Spain, (The Story of the Nations),T. Fisher Unwin, 4th Ed., London, 1890.
- 4- Gaztambide, José Goni. The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada, (1479-1492).
- 5- Maxwell, Sir W.Stirling. Don Juan of Austria, Part 1.
- 6- Prescott, William Hickling. History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, 10th Ed., Paris, 1842 (3 Volumes).
- 7- Prescott, William Hickling. History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, Phillips, Sampson & Company, Boston, 1859 (3 Volumes).
- 8- Rowdon, Maurice. The Spanish Terror, Constable and Company Ltd., London, 1974.
- 9- Ortiz, Antonio Domingues. The Golden Age of Spain, Weidenfeld & Nicolson, London.
- 10- Defourneaux, Marcelin. Daily Life In Spain In The Golden Age, George Allen & Unwin Ltd., London, 1970.
- 11- Brunel, Antoine de. Voyage d'Espagne, Revue Hispanique, Vol. XXX, 1914 (PP 119-376).
- 12- Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. Atlas of World History, Vol.I, London, 1980.
- 13- Cossío, J.M. de. Autobiografías de Saldados, Estudio Preliminar, Biblioteca de Autores Españoles, Vol, XC, 1956.
- 14- Plaidy, Jean. The Spanish Inquisition, London.
- 15- Bertaut, Francois. Journal Du Voyage d'Espagne, (1659), Revue Hispanique, Vol., XLVII, 1919 (PP 1-319).
- 16- Dozy, R.P.Histoires des Muslimans d'Espagne, (4 Volumes), Leyden, 1861. (Dozy, R.P. Spanish Islam, Translated by F.G.Stokes, 1913.)
- 17- Lapeyre, Henri. Geographie de l'Espagne Morisque, S.I.Paris Sevpem (Imprission Nationale), 1959.
- 18- Elliott, J.H. Imperial Spain (1469-1716), London, 1963.
- 19- Carta del Rey a Don Juan de Austria, 24 Febrero, 1570.
- 20- Carbajal, Luis del Marmol. Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reyno de Cranada, Sancha, Madrid, 1797, (2 Volumes).
- 21- Mendoza, Guerra de Granada.
- 22- Circourt, Count Albert de, Histoire des Arabes en Espagne,(3 Volumes).
- 23- Hawley, Donald. The Trucial States, London, 1970.
- 24- Joly, Barthelemy. Voyage d'Espagne (1603-1604),Revue Hispanique, Vol, XX, 1909, (PP 460-618).
- 25- Adler,Elkan N. Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV, «Revue des Etudes Juives», Vol. 51,1906.

- 26- Parry, J.H. **The Spanish Seaborne Empire**, London, 1971.
 27- Bleye, Pedro Aguado. **Manual de historia de España**, Madrid, 1963.
 28- Rule, William Harris. **History of the Inquisition**.
 29- Arabia, London, 1825.
 30- Asimov, Issac. **A Choice of Catastrophes**, 1981.
 31- Irving, Washington. **Treasures of the Alhambra**, Barcelona, 1979.
 32- Jackson, Gabriel. **The Making of Medieval Spain**, London, 1972.
 33- Plaidy, Jean. **The Spanish Bridegroom**, London, 1976.
 34- Mariana, Juan de. **Historia general de España**, Toledo, 1601-Madrid, 1817-1822,(20 Volumes).
 35- Condé, José. **Historia de la dominacion de los arábes en España**, Barcelona, 1844,(3 Volumes).
 (Candé, José. **Histroy of the dominion of the Arabes in Spain**, Translated by J. foster, London, 1854.)
 36- Baroja, Julio. **Los Moriscos del Reino de Granada**, Madrid, 1957.
 37- Garrad, Dr K. **The Causes of the Second Rebellion of Alpujarra**.
 (Unpublished).
 38- Donghi, Tilio Halperin. **Un conflicto nacional en el siglo de oro, & Moriscos y Christianos Viejos en Valencia**, Cuadernos de Historia de España, Vols., XXIII & XXIV, 1955-1957.
 39- Hitos, F.M. **Martires de la Alpujarra en la rebelion de los Moriscos en 1568**, Madrid, 1935.
 40- Bernard, Agustin. **Afrique du Nord**, Paris, 1925 .
 41- Koenigsberger, H.G. & Mosse, George L. **Europe in the Sixteenth Century**, Longmans, Green & Co., Ltd., London, 1969.
 42- Vives, Jaime Vicens. **Historia Económica de España**, 3d Ed., Barcelona, 1964.
 43- Vives, Jaime Vicens. **Manual de Historia económica de España**, Barcelona, 1959
 44- Altamira y Crevea, R. **Historia de España y de la civilización Española**, 3rd Ed., Barcelona, 1913, (4 Volumes).
 45- Altamira, Rafael. **A History of Spain**, (D. Van Nostrand Co .,New York, 1949.
 46- Vives, Jaime Vicens (Ed) **Historia económica de España y America**, Barcelona, 1957-1959, (5 Volumes).
 47- Burns, Robert. **The Crusader Kingdom of Valencia**, Harvard University Press, 1967, (2 Volumes).
 48- Terrasse, Henri. **Islam d'Espagne**, Plon (Paris), 1958.
 49- Mazaheri, Aly. **La vie quotidienne des musulmans au moyen age**, Hachette, Paris, 1951.

- 50- Cagigas, Isidoro de las. Los mozárabes, Esclelier, (2 Volumes), Madrid, 1948.
- 51- Lacarra, J.M. (Ed.) La reconquista española y la repoblación del país, Saragoza, 1951.
- 52- Pidal, G. Menéndez. Los caminos en la historia de España, Madrid, 1951.
- 53- Provençal, E. Levi. Histoire de l'Espagne Musulmane, Leyden-Paris, 1950-1953, (3 Volumes).
- 54- Robles, F. Guillén. Catálogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca nacional de Madrid, Madrid, 1889.
- 55- Alaréon, Maximiliano & Ramón García Linares. Los Documentos Árabes Diplomáticos del Archivo de la Corona de Aigrón, Madrid, 1940. (Escuela de Estudios Árabes).
- 56- Márquez, Antonio. Literatura e Inquisición en España (1478-1834), Taurus Ediciones, Madrid, 1980.
- 57- Castro, Américo. The Structure of Spanish History, «The Spaniards».
- 58- Watt, W. Montgomery. History of Islamic Spain.
- 59- Harvey, J.H. The Cathedrals of Spain.
- 60- Kubler, G. & M. Soria. Art and Architecture in Spain and Portugal and their Dominions, (1500-1800).
- 61- Irving, Washington. The Conquest of Granada.

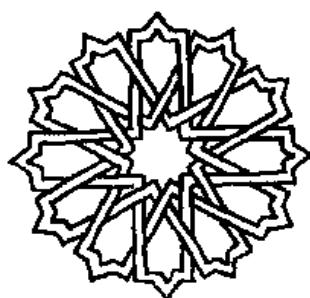
٢ المصادر العربية

المعلومات المتوفرة عن سيرة الأندلسين المواركة في المراجع العربية قليلة جداً أهمها ما يرد في *فتح الطيب ونبأ العصر* (٨ و ١١ في المراجع العربية) . وتناول محمد عبد الله عنان موضوع الأندلسين المواركة في ثلاثة من أعماله وهي : «*نهاية الأندلس*» (٩) في الصفحات ٢٢٤ - ٣١٤ ، وفي «*مواقف حاسمة*» (٣٥) ، الصفحات ٢٤٨ - ٢٥٨ ، و«*ديوان التحقيق*» . ومعالجته لموضوع الأندلسين المواركة (وسيمهم العرب المتصررين) عامة ، وهي تلقي كثيراً من الضوء على تضاعفهم والاضطهاد الذي تعرضوا له . كما ترد بعض المعلومات عن الأندلسين المواركة في نهاية كتاب «*التاريخ الأندلسي*» (٢) مستقاة من (٨ و ٩ و ١٠ و ١١) الصفحات ٥٦٨ - ٥٧٣ . وليس هناك من حاجة هنا للتذكير باهمية المراجع الأندلسية الكلامية لأى بحث عن الأندلس ولا سيما (٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) (وابن حيان يعتبر شيخ مؤرخي الأندلس) ٢٦ ، ٢٧ (ويرى الدكتور احسان عباس ان الدكتور حسين مؤنس الحجة في *التاريخ الأندلسي*) . ثم أخيراً مؤلفات الدكتور احسان عباس المدرجة . وفيما يلي لائحة بأهم المراجع التي استعين بها لوضع هذا الكتاب .

- ١ - « دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها » . الدكتور احمد بدر .
- ٢ - «*التاريخ الأندلسي* » . الدكتور عبد الرحمن على الحجي ، ١٩٧٦ .
- ٣ - «*البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* » . ابو عبد الله محمد المراكشي ابن عذاري .
- ٤ - «*العبر وديوان المبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر* » . ابن خلدون ، بيروت ، (الطبعة ٣) ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .
- ٥ - «*صورة الأرض* » . محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (ابن حوقل) ، بيروت .
- ٦ - «*تاريخ الأدب الأندلسي* » (عصر الطوائف والمرابطين) . الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١ .

- ٧ - «الحلل الموسية في ذكر الأخبار المراكشية» . مجھول المؤلف .
- ٨ - «نفح الطیب من غصن الأندلس الروطیب وذكر وزیرها لسان الدین ابن الخطیب» . المقری ، تحقیق الدكتور احسان عباس ، بیروت ، ۱۹۶۸ .
- ٩ - «نهاية الأندلس وتاریخ العرب المتصرفين» . محمد عبد الله عنان ، القاهره ، ۱۹۶۶ .
- ١٠ - «ازهار الیاض في أخبار عیاض» . شهاب الدین احمد بن محمد المقری التلمسانی (المقری) ، القاهره ، ۱۹۴۲ - ۱۹۳۹ .
- ١١ - «نبذة العصر في أخبار ملوك بنی نصر» . مجھول المؤلف ، العرائش ، ۱۹۴۰ .
- ١٢ - «اسنی المتأجر في بيان احکام من غالب على وطنه النصاری ولم یهاجر وما یترتب عليه من العقوبات والزواجه» . ابو العباس احمد بن محبی بن محمد التلمسانی الونشريشی ، مدربد ، ۱۹۵۷ .
- ١٣ - «تاریخ افتتاح الأندلس» . ابو بکر محمد بن القوطة ، بیروت ، ۱۹۵۷ .
- ١٤ - «تاریخ الأدب الأندلسي» (عصر سیادة قرطبة) . الدكتور احسان عباس ،
- ١٥ - «الذخیرة في محسن أهل الجزیرة» . أبو الحسن علی بن بسام الشنتوینی ، القاهره ، ۱۹۳۹ .
- ١٦ - «الإھاطة في أخبار غرناطة» لسان الدین بن الخطیب ، القاهره ، ۱۹۷۳ - ۱۹۷۴ .
- ١٧ - «المعجب في تلخیص أخبار المغرب» . محبی الدین عبد الواحد بن علی المراكشی ، القاهره ، ۱۹۶۳ .
- ١٨ - «صفة جزیرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) ، أبو عبد الله محمد ابن عبد المنعم الصنهاجی الحمیری ، تحقیق لیفی بروفنسال ، القاهره ، ۱۹۳۷ .
- ١٩ - «دولة الاسلام في الأندلس» . محمد عبد الله عنان ، القاهره ، ۱۹۶۹ .
- ٢٠ - «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» ، ابن حیان ، بیروت ، ۱۹۷۳ .
- ٢١ - «تاریخ اوربا» (العصور الوسطی) ، فیشر ، (القسم الأول) ، ترجمة محمد مصطفی زیادة والدكتور السيد الباز العریینی ، القاهره ، ۱۹۶۶ . (انظر المراجع الأجنبیة رقم (۲۲)) .
- ٢٢ - «العرب في اسپانيا» . استانلی لین - بول ، ترجمة علی الجارم ، القاهره ، ۱۹۶۰ . (انظر المراجع الأجنبیة رقم ۳) .
- ٢٣ - «تاریخ المسلمين وأثارهم في الأندلس» . الدكتور السيد عبد العزیز سالم ، بیروت ، ۱۹۷۲ .
- ٢٤ - « الآثار الأندلسیة الباقية في اسپانيا والبرتغال » . محمد عبد الله عنان ، القاهره ، ۱۹۶۱ .
- ٢٥ - «الحلل السنديسیة في الأخبار والآثار الأندلسیة» . شکیب ارسلان ، فاس ، ۱۹۳۶ .
- ٢٦ - «مذکرات الامیر عبد الله ، اخر ملوك بنی زیری بغرناطة» . عبد الله بن بلقین بن بادیس بن حیوس بن زیری ، تحقیق الاستاذ لیفی بروفنسال ، القاهره ، ۱۹۵۵ .
- ٢٧ - «فجر الأندلس» (دراسة في تاریخ الأندلس من الفتح الاسلامی الى قیام الدولة الأمویة (۷۱۰ - ۷۰۶ م) ، د. حسين مؤنس ، القاهره . ۱۹۵۹ .

- ٢٨ - « اثر العرب في الحضارة الأوروبية » (نهاية عصور الغلام وتأسيس الحضارة الحديثة) . جلال مظہر ، ۱۹۷۷ .
- ٢٩ - « الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية » كرم عجیل حسین ، بیروت ، ۱۹۷۶ .
- ٣٠ - « حضارة العرب في الأندلس » ، ا . ليفي بروفنسال ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بیروت .
أنظر المراجع الأجنبية رقم (۵۳) .
- ٣١ - « رحلة الأندلس » د . حسین مؤنس ، القاهرة ، ۱۹۶۳ .
- ٣٢ - « وفيات الأعيان وأئمـاء أبناء الزمان » ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بیروت ، ۱۹۶۸ .
- ٣٣ - « بعثة الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الصنفي ، القاهرة ، ۱۹۶۷ .
- ٣٤ - « مقدمة ابن خالدون » تحقيق الدكتور علي عبد الواحد واifi ، القاهرة ، ۱۹۶۵ (اربعة أجزاء) .
- ٣٥ - « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، (الطبعة الثالثة) ، ۱۹۵۲ .
- ٣٦ - « تاريخ مسلمي أسبانيا » ، ر . دوزی ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ۱۹۶۳ .
(انظر المراجع الأجنبية رقم ۱۶) .



نشر للمؤلف

قصص قصيرة

لاتقتلوا الكناري
العجوز والليل
الضريبة الأخيرة
المخمور
طفتان ورجل
الأستاذ خميس فجلة
من بيروت الى بومباي

سير ونقد :

روبرت شومان
جوزيف فردى
شارلز دارون

ترجمات :

مسرحة	(انطون تشيشروف)	الجميلات لا يعرفن الإخلاص
قصة	(بريتشاند)	هذه حال الدنيا
قصة	(جان وليامز)	العالم ليس لنا
قصة	(شون اوفالن)	غرفة فوق النهر
قصة	(جوزف كونراد)	المخمور

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٣

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٥١ / ٨٣

انتهى طبع هذا الكتاب
بطبعـ انترناشـونال برس
في ٢٧ يناير ١٩٨٣ م
الموافق ١٤٠٣ هـ
القاهرة
جمهورية مصر العربية

HISTORY OF THE MORISCOS

A.S. BISHTAWI

تصويب

الصواب	المخطأ	رقم السطر	رقم الصفحة
باقٍ	باقياً	٣	٨
ولكن الجزية لم تصح في	ولكن الجزية في	الأخير	١٠
دول	هـ ولـ	٧	١٩
وجهات الأندلسيين المقربين	وجهات المقربين	٧	٢٦
الأندلسيون بعد الفتح	الأندلسيون بعد الفي	٩	٢٦
دليل الأعلام والمواضيع	شخصيات ومواضيع معربة	٨	٢٨
واسعريما دورا	دورا واستريما	الأول	٤٠
سانشو الثالث تكررت في	سانشو الثالث في	١١	٥٠
طيبة	طيبة	١٣	٩٤
توزيع الأندلسيون	توزيع الأندلسيون	الأول	١٠٤
شقيق	شقيق	٢٣	١٥٨
انسحبت أسبانيا من مدينة	انسحبت أسبانيا ...	١٢	١٩٣
والنصر	والنصر	١٤	١٩٣
أما فكرة	أم فكرة	١٥	٢٤٦
أو	أمر	٢٧	٢٥٢
وربما	وبما	١٢	٢٥٣
ص ٢٣٥	ص ٢٠٧	الأخير	٢٥٦
أو بشكل مطمور	أو بشكل اخـ .. مطمور	٢	٢٧٠
ما استفادت الأم	ما إستفادة الأم	٥	٢٧٧
ص ١٩٤	ص ١٧٩	الأخير	٢٨٠
شبه جزيرة	شبه جزيرة	٣	الخلف
الذى	الأذى	٦	الخلف

كتاب

استكملت الملكة ايزابيلا سنة ١٤٩٢ مابداه بلايو قبل سبعة قرون فسددت طعنه أحوج
فاضية للأندلسيين رائمة باسلام غرباطة عالم كارثة لم يعرف الوطن العربي مثيلا لها . ولكن
زوال السلطة الإسلامية عن شبة جزيرة ايبيرية لم يتضمن زوال الأندلسيين . وأن تمكن
فتائلة من تقويض الجسد الأندلسي فإنها لم تستطع السيطرة على الروح .

هذا الكتاب محاولة جادة لتسليط الضياء على تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرباطة ،
وازالة الفموض الذي لف سريرهم ، وانصافهم من الموقع الاذى احتلوه كعاصية في مجلدات
التاريخ الأندلسي . وهو أيضا محاولة جديدة لكشف حبابا التاريخ الأندلسي الموركي وسرد
واقع النضال الذي خاضه أكثر من ثلاثة ملايين أندلسي في سيل الحفاظ على وجودهم
وعروتهم وديفهم طوال قرنين كاملين نظموا خلالهما ثورتين مشرقيتين تصدوا فيها لاعتنى قوى
الأرض في القرن السادس عشر .

والكتاب صفحة جديدة لوضع نصال الأندلسيين المواركة ضمن اطارية الدولي والمحلي ،
وتسجيل لوقفتهم في وجه محاولات التذويب التي نظمتها كارلوس الخامس وفيليب الثاني
ومحاكم التفتيش ، ولدورهم في تقويض دعائم الإمبراطورية الأسبانية ورفع أعمدة التطور
الحضاري والإنساني في أوروبا .

Bibliotheca Alexandrina



0249-153

**Thanks to
assayyad@maktoob.com**

To: www.al-mostafa.com